اللغة العربية

من محنة الكولونيالية
إلى إشراقة الثورة التحريرية







اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية .

- عدد ممتاز بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة التحريرية -

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية

العربيــة

من محنة الكولونيالية

إلى إشراقة الثورة التحريرية

شتاء 2005

اللّغة العربية

مجلة نصف شهرية سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية

مجلة اللّغة العربية

دورية تعنى لقضايا اللّغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس.

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية الأكاديمية المتعارف عليها: كالتوثيق إلخ...
- أن تكون الأعمال أصلية لم يسبق نشرها من قبل
- ترسل النصوص مرفوقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر

التحري والمراسلة: الجلس الأعلى للّغة العربية
6، شارع أحمد بوقرة، الأبيار – الجزائر
ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر
الهاتف: 24/25 02 23 21 (00213)
الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)
الترقيم الدولي الموحد للمجلات (ر.د.م.م) 3575 – 1112
الإيداع القانوني: 02 20 /7

محتويات العدد الصفحة

دعوة للمساهمة في العدد الممتاز من مجلة "اللّغة العربية"

عن

حالة العربية أثناء فترة الاحتلال البائد

د. محمد العربي ولد خليفة

أولا: في الإطار العام للمساهمات:

يعتزم المجلس الأعلى للغة العربية المشاركة في احتفالات الشعب الجزائري بإحياء الذكرى الخمسين لثورته المباركة، بتخصيص العدد الثاني من مجلته النصف سنوية لمحنة اللغة العربية أثناء فترة الاحتلال المظلمة، ومعاناة النخبة الجزائرية من الاستئصال والقهر والإقصاء، واعتبار لغتنا العربية– لساننا الجامع بين العقيدة الإسلامية السمحة – لغة أجنبية في عقر دارها، وبين أهلها اللذين ساهموا في إثرائها بالمصنفات العلمية والابداعية ونبغ العديد منهم في علوم الدين والدنيا، واعتلوا منابر المعرفة في بجاية وتلمسان وقرطبة وبغداد وتونس والقاهرة ودمشق وغيرها من حواضر العلم والعرفان...
لقد كرس دستور الجمهورية العربية لغة وطنية ورسمية، منذ فجر استعادة السيادة الوطنية، وأعطى الأمازيغية في تعديله الأخير وضعها الطبيعي باعتبارها لغة وطنية.
تتركز المساهمات في العدد الممتاز على توصيف وتحليل معاناة العربية خلال فترة القهر الكولونيالي، وسياسات التجهيل وتفكيك المجتمع الجزائري، وعمليات الاحتواء والاستهواء بهدف خلق لفيف يخدم أهدافه الاجرامية لتأبيد التبعية بمختلف أشكالها الذهنية والثقافية والاقتصادية... وقد أفشلت الوطنية الجزائرية مخططاته، وحولتها إلى أدوات لمقامة الاستبداد الكولونيالي.

يمكن أن تتناول الدراسات والأبحاث المقدمة نضالات الشعب الجزائري خلال قرن ونيف للدفاع عن اللغة العربية وتراثها، باعتبارها من حصون الشخصية الوطنية، ومن العوامل الأساسية لتأجيج الكفاح، وقبول أجيال متعاقبة للتضحيات الجسام، حتى تحرير الجزائر وانجاز النصر العظيم بقيادة جبهة التحرير الوطني.

لقد تلازم الدفاع عن العربية مع الذود عن حياض عقيدتنا الإسلامية السمحة، في كل الانتفاضات الشعبية، منذ 1830 حتى بداية القرن العشرين، وعبرت الأغلبية الساحقة من شعبنا عن تمسكها بهما، وحولتهما إلى قلاع دفاعية صامدة في الزوايا المناضلة والكتاتيب القرآنية، وأعطتهما جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين وحركة حزب الشعب – الانتصار، قوة وحيوية لم تشهد لها الجزائر مثيلا في تاريخها الحديث.

ولا حاجة للتنبيه إلى أن العناية لغتنا الموحدة وثقافتنا الجزائرية الأصيلة، لا تعني معاداة لغات أو ثقافات أخرى، فقد أدرك قادة الكفاح الوطني، وشرائح واسعة من النخب المستترة، أن اللغات الأخرى ينبغي أن تكون مجرد ضيف، واداة لاجتياز هوة التخلف، ولا يمكن أن تكون بديلا عن العربية.

إن اللغة العربية حاضرا ومستقبلا تاريخا وتراثا ينبغي تطويرهما من منظور متطلبات العصر، وطموحات الجزائر للتقدم والازدهار والحضور الفاعل في محيطنا الإقليمي والدولي.

أملنا أن يكون هذا العدد الخاص للغة العربية أثناء فترة الاحتلال البائد، وثيقة علمية، يرجع إليها المتخصصون والباحثون في شؤون وشجون الجزائر قبل خمسين عاما.

كما يمكن أن يجد فيها القارئ كشفا "بالأشعة" لأوضاع عاشها الآباء وسلاسل من الأجداد، وعرضا موثقا ودقيقا لمعاناة شعبنا وآلامه وأماله بعيدا عن الأحقاد والضغينة على جنس أو ملة.

إن استحضار ماضينا في سياقه التاريخي ليس أكثر من وفاء لذاكرتنا الجماعية، وفاء يدعونا أولا للعرفان لأبطال قدموا للجزائر أعز ما يملكون وهم شهداؤنا الأبرار، من النساء والرجال ومن كل الأعمار، ويساعد ثانيا الفعاليات الثقافية والسياسية على المصالحة مع الذات والحوار المتكافئ مع الآخر، في ظل المصالح المرعية والاحترام المتبادل.

ثانيا: المحاور المقترحة علكم في العدد الخاص بالذكرى الخمسين لثورة التحرير الكبرى

I. مدخل

1-1 اللغة العربي قبيل الاحتلال

1-2 وضعية التعليم ومدي انتشاره في الجزائر في مستهل القرن 19.

1-3 العلاقات الثقافية مع البلدان العربية

1-4 العلاقات مع الضفة الغربية للمتوسط

II. اللغة العربية بعد العدوان الفرنسي على الجزائر

2- مقاومة النخبة المتعلمة للعدوان الفرنسي

2-1 أشكال المقاومة وعلاقة النخبة بالزوايا والطرق

2-2 استئصال النخبة الجزائرية في المدن والأرياف

3-2 الهجرة إلى داخل الوطن وإلى الخارج

3- تحصن النخبة في الأرياف والبوادي

3-1 دور زوايا القرآن والتعليم في الحفاظ على العربية

3-2 الحرب على التعليم العربي (الأهلي) وسياسات التجهيل

3-3 نظام المدرسة (Medrassa) 1850 – 1962

3-4 أهداف تكوين قلة من الجزائريين بالفرنسية

3-5 العربية في أدبيات ونضالات الحركة الوطنية (النجم – حزب الشعب- جمعية العلماء)

III. الثورة واستعادة السيادة

3- العربية في نصوص الثورة وتطبيقاتها أثناء الكفاح المسلح

3-1 اللغة العربية في نصوص الثورة وتطبيقاتها أثناء الكفاح المسلح

3-2 مساهمة المنظمات الوطنية (الكشافة – اتحاد الطلاب – النقابة – الأندية الرياضية) لإحياء العربية في إطار جبهة التحرير الوطني

3-3 دور المحافظ السياسي وخطاب التوعية والتعبئة في إعادة الاعتبار للغة العربية

3-4 تكوين الطلاب الجزائريين (مدنيين وعسكريين) باللّغة العربية في البلدان العربية

3-5 الاعلام باللغة العربية أثناء الثورة

3-6 العربية في الولايات الست التاريخية

3-7 العربية في الابداع الفني والأدبي والدراسات التي عرفت بالثورة وتضحيات الشعب الجزائري.

هذا العــــدد

د. محمد العربي ولد خليفة

(جامعي)

يُسْعِد المجلس أن يقدّم للباحثين والقرّاء من داخل الجزائر وخارجها هذا العدد الممتاز من مجلّته الدّوريّة المتخصّصة في قضايا الثقافة واللّغة العربيّة والجزائر تحتفي خلال سنة كاملة (نوفمبر 2004- نوفمبر 2005) بالذكرى الخمسينية لأنطلاق ثورة التّحرير.

في ذلك **اليوم الأغرّ قرّرت النخبة النقيّة من شباب الجزائر -فتيانا وفتيات- أن تقدّم أغلى ما تملك وهو حياتها لتخليص الجزائر من الطغيان الكولونيالي وتطوي سجلّه الأسود والمثقل بالجرائم المريعة ومن بينها الإبادة الجماعيّة وتدمير الثقافة وأضطهاد اللّغة العربيّة.**

أيّها القارئ الكريم.. لم يكن لهذه المساهمة أن ترى النّور لولا حرص فخامة رئيس الجمهوريّة السيّد عبد العزيز بوتفليقة على جعل الذّكرى الخمسينيّة وقفة أستحضار لبطولات الشعب الجزائري ومنطلقا جديدا لوثبة نحو مستقبل يرقى إلى مستوى تضحياته وآماله.

لقد أحاط السيّد رئيس **الجمهوريّة المجلس بعنايته الشّخصيّة وتوجيهاته الحكيمة ليؤدّي مهامه في خدمة العربيّة لسانا يسابق مستجدات عصرنا، وثقافة تُعبّر عن خصوصيات الجزائر التاريخيّة والراهنة في أمتدادها العربي الإسلامي، وفي جدليّة الأخذ والعطاء في مجالها الجيو ثقافي الواسع مع شعوب حوض المتوسّط وما وراءه،** بهدف المساهمة في التراث الأنساني المشترك وتحقيق الأمن والازدهار والتعاون المتكافئ بين كلّ شعوب المعمورة.

ومن العرفان المُستحقّ أن ننوّه بالمساعدة والتأييد الأخوي الذي لقيناه لدى معالي **السيّد محمّد الشريف عبّاس وزير المجاهدين ورئيس اللّجنة التحضيرية للأحتفاء بخمسينيّة الثّورة،** فقد أعطى

الضّوء الأخضر ليكون هذا العدد الممتاز والمحاضرة الأفتتاحيّة والتكريم الذي يتبعه لنخبة من النّساء والرّجال الذين خدموا الوطن والعربيّة برئاسته وضمن وقائع الأحتفاء بالذكرى الخمسينيّة للثورة، بل أهدى المجلس ومجلّته المعتمدة ديباجة تتصدّر صفحاتها الأولى.

ومن الأعتراف بالفضل لأهله أن نجزل الشكر لمعالي **الدكتور بوجمعة هيشور وزير الاتّصال والدّكتور أبو عبد الله علام الله وزير الشؤون الدّينية والأوقاف إلى جانب الإخوة الوزراء السابقين والأساتذة الأفاضل اللّذين استجابوا مشكورين وأضافوا للعدد الممتاز عمقا ورونقا**، وحقّق ما نسعى إليه بوسائلنا المتواضعة ألا وهو المساعدة على وصوله إلى شرائح واسعة من القرّاء من أجيال ما بعد الاستقلال ليطلعوا على ما عاناه شعبنا من عدوان وظيم وأنتهاك لرموزه ومقدساته طيلة قرن وثلث قرن من ظلام الكولونيالية البائدة.

شمل ذلك العدوان والاضطهاد و "الحقرة" العقيدة واللّسان (عربيّة وأمازيغيّة) فلا يحقّ اليوم لجلادي الأمس أن يتباهوا من وراء البحر بالدّفاع عن حريّة العقيدة والتّعبير وأشكال التعدّدية التي أستعملوها قبل حوالي أربعة عقود ضمن مخطّط "فرّق تسد" وسعوا لنشر الحقد والتمايز العرقي المزعوم لتمزيق الجزائر وشعوب أخرى وسلب إرادتها في الحياة الحرّة الكريمة.

إنّ الانسجام الثقافي للمجتمع هو الشرط الأوّل للمناعة، كما أنّ التعدّد اللّساني والتنوّع الثقافي هو في الحقيقة ثروة وطنيّة وأنسانيّة باقية ومتجدّدة إذا لم تستعملها قوى دخيلة أو مضلَّلة لأغراض التحريك عن بعد والفتنة والإضعاف.

يجد القارئ في هذا العدد مقاربات متعدّدة بأقلام نساء ورجال تحدّثوا عن معاناة العربيّة، من مواقع مختلفة، ومن بينهم مجاهدون ساهموا في صنع الثّورة أو صنعتهم الثّورة خلال سنواتها السبع والنّصف العظام، وواصلوا المسيرة نحو الجهاد الأكبر..

قد يجد القارئ في بعض تلك المقالات بساطة الأسلوب، وتلقائية الذّاكرة، وعفويّة القول، ولكن أليست البساطة من دلائل الصّدق؟ والتّلقائيّة من علامات صفاء الطوية؟

ينبغي أن نخصّ بالشّكر أحد الأقلام اللاّمعة في سماء الجزائر والوطن العربي **الأستاذ محمّد الميلي** مؤسّس مدرسة في صحافة الجزائر المستقلّة لها الكثير من المريدين، ولا يمكن أن ننسى كلّ أصدقائنا من السّادة الوزراء والقيادات الفكريّة والسّياسيّة والعسكريّة الذين جمعوا بين الإخلاص للجزائر والدّفاع عن مقومات الشّخصيّة الوطنيّة وحصنها المنيع: العقيدة واللّسان.

إنّ كلّ تلك الأقلام هي في الحقيقة نجوم ترصّع صفحات هذا العدد وتعطيه صفة **ممتاز بأمتياز** ولا بدّ أن نؤكّد في الختام بأنّ التذكير بمحنة شعبنا تحت كابوس الكولونيالية الأستيطانيّة الظالمة، لا يعني أبدا **الحقد** على فرنسا، أو المطالبة **بثأر** من **الفرنسيين ودولتهم**، فإذا كان الشعب الجزائري لا يضمر الكراهية لأية أمة أخرى فإنه كذلك لا ينسى ما حاق به من تعسف وهوان، ولا نجد أفضل من مقولة أحد أكبر فلاسفة فرنسا المعاصرين وهو "جاك دريدا"(•) وليد الجزائر (سنة 1930) توفي في ديسمبر 2004: "إنّ تزايد الدّعوة للتوبة وطلب العفو والغفران على جرائم الحرب، والجرائم ضدّ الأنسانيّة، إنّما هو واجب أستعجالي لا مناص منه لذاكرة المذنب والضحيّة"

• –J.Derrida = ou vont les valeurs, Albin Michel, paris 1961

الافتتـــاحيـــة

أ. محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

استهدف الاستعمار الفرنسي الاستيطاني في بلادنا اللغة، كما استهدف باقي مكونات الشخصية الوطنية، وحاربها لسانا، وكتابة، ومنع تداولها من التخاطب بين الناس بشتى الطرق، وفي الدراسة والتدريس، والتأليف والعبادة، واجتهد في إحلال لغته الفرنسية محلها، وسعى إلى تمييعها، فعوَّض الفصحى بالدارجة، وفرض العُجمة، والاستهجان اللغوي قاعدة لإفساد ما بها من بلاغة وجمال بهدف إقصائها عن مجال التفكير، والتأمل، والتعبير والتبليغ، حتى لا تسهم في تفعيل حركة الإبداع والإنشاء والتجديد، في مختلف فنون المعرفة والعلوم.

وهذه إحدى مواصفات الاستعمار الاستيطاني، الذي يحمل مشروع إبادة الآخر، وإخراجه من حركة التاريخ، وإفراغ ذاته من جوهرها وفي مقدمتها اللغة، فاللغة في الأمة هي المستغرق الحقيقي لماهية الذات، وتاريخها وجغرافيتها، ومرتكز انبعاثها المتجدد الديمومي، بل وعلة وجودها.

ومن بؤس النظرية الاستعمارية، وحقدها، أن ربطت وجود الاحتلال واستمراره في بلادنا، بزاول اللغة، واستعباد الإنسان، وتمييع معتقده، وربطه بالخرافة والدروشة.

ولكن إرادة الحياة لدى شعبنا كانت أكبر من الموت الاستعماري. إذ أدرك الشعب، وأدركت طلائعه الوطنية والإصلاحية، خطر الإبادة، وفهمت أبعاد المشروع الاستعماري، فجعلت من تعلم العربية، وتعليمها، قضية حياة أو موت، فرفعت التحدي والاستبداد، بتحدي آخر أكثر منه استماتة، وتصميما، بفتح المدارس الحرة، وإصدار الصحف والمجلات، وإطلاق المنابر، وإرسال البعثات العلمية، إلى الأقطار

التي تتوافر على معاهد وجامعات، تدرس العربية وعلومها. وتطوع كتاب العربية للتأليف بها والتعامل معها، كلغة حية تستوعب انشغالات عصرها وتواكب حركة التجديد.

فعاشت العربية طيلة عهد الاحتلال البائد، في خضم المعركة، كصخرة سيزيف، وكانت تهمة خطيرة، دون ذنب، يلبسها المحتل لكل ذي مروءة ووطنية، يرى فيها كابوسه الذي يقضُّ عليه مضاجعه، ويرى فيها القتيل الذي يأبى أن يموت، والعاصفة المؤجلة، تنتظر شرارة البرق، القادم من فجر نوفمبر. لذلك استصدر بحقها ترسانة من الموانع والقوانين الزجرية الجائرة للقضاء عليها، فأبت إلا أن تحيى، هازئة، بكل الدسائس والمؤامرات، ساخرة من تجديف المجدفين، الراجمين الحقيقة بكلام الإفك، زاعمين بأنها ليست لغة علم، وأنها سببا من أسباب التخلف، ونسي هؤلاء أن لغات ميتة، بعثتها إرادة أبنائها إلى الحياة، بل وإلى الإبداع واستيعاب علوم العصر والتكنولوجيا، وتناسوا أن العربية التي تتهم بالعقم، هي واحدة من أثرى لغات العالم بالدلالات، وإحدى أغناها بالاشتقاق والاستدلال، تمكنت خلال القرنين الأولين للهجرة، من أن تستوعب علوم كل الحضارات الدارسة السابقة، وتحفظها، وتنقلها بما هي عليه، وبما استجد في مجالات الطب والهندسة، والفلك والرياضيات والجغرافيا والكيمياء، فضلا عن الفلسفة والآداب، والفنون والفقه وعلم الكلام وما إليه.

هذه اللغة المعبرة والمترجمة لحضارة إنسانية، كباقي حضارات العالم الأخرى، سادت في التاريخ الحديث، وأوصلت التاريخ الإنساني القديم، بالمعاصر، وكانت المرتكز العلمي والفعلي لحضارة الغرب الحالية، وإحدى أسباب نهضته.

والعربية اليوم في الجزائر سيدة في موطنها، عزيزة لدى قومها، تخرجت بها أجيال منذ استرجاع السيادة والاستقلال، تفكر وتبدع بها، وهي متفتحة على كل لغات العالم دونما عقدة أو قصور.

وقد أضاف السيد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أبعادا أخرى باللغة العربية إلى الخطاب السياسي والفكري والثقافي في بلادنا.

والعربية لا تؤاخذ عليها المآخذ لذاتها ككل اللغات، إنما يسأل عن أحوالها أهلها. فبتطورهم تتطور، وبتخلفهم تقبع منتظرة طارقا بابها من جديد، ليأخذ بناصيتها نحو سنى الرفعة والرقي.

ويكفيها فخرا أنها لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنة.

الافتتاحية : اللغة العربية، مقاومة ومصير

د. بوجمعة هيشور
وزير الاتصال

إن المجتمع الإنساني في عهد حوار الحضارات والأديان يراهن على التحديات التي تنتظر المجتمعات في عالم يتجادل فيه الفكر.

فالحافز الذي تحدثه الأمم من خلال إبداعاتها وتطوير لغاتها يجعل الإنسان في سباق مع الزمن لما ترسمه العولمة الثقافية من رهانات حول تكنولوجيا الاتصال كالانترنيت وغيرها.

ففي هذا السياق نجد المجلس الأعلى للغة العربية يبذل مجهودات جبارة للارتقاء باللغة العربية إلى مصاف اللغات الحية التي أعطت للإنسانية صفحات مجيدة رسخها التاريخ عندما كان العرب يقومون بحركة الترجمة فنقلوا إلى العربية علوم الحضارات المتعددة كالفارسية والهندية والصينية والمصرية واليونانية والبيزنطية وغيرها.

ألا نتذكر ما قدمته الأندلس لأوروبا من مؤلفات في شتى المجالات العلمية والفنية والأدبية والفقهية علما بأن ثلة من هؤلاء العلماء كانوا من أمازيغ الجزائر.

أما في الجزائر فقد رافقت العربية مجيء الفتح الإسلامي لنشر الهداية وإقامة العدل، ودخل أبناء الأمازيغ في الإسلام واستجابوا لتعاليمه، وانكبوا على تعلم اللغة العربية طائعين وامتزجوا بالعرب الفاتحين ونافسوهم في مجالس العلم وشاركوهم في شتى الميادين المدنية والعسكرية وفي تشييد صرح الحضارة الإسلامية رافعين لواء لغة الضاد واصبحوا شعبا واحدا متحد المصير واللسان وامتزجت الدماء بالمصاهرة ولم يعد هناك فرق بين الأجناس، وعليه فإن الأمة الجزائرية تعربت تعريبا اختياريا طبيعيا وصادقا.

واليوم ونحن نحتفل بالذكرى الخمسين لثورتنا المجيدة، والشعب الجزائري يتذكر الأجيال التي عاشت قرنا واثنتين وثلاثين ستة من الاستعمار الذي حاول بشتى الوسائل طمس شخصيته الوطنية وهويتها، ها هو يسترجع حريته بعد سنين طويلة من المقاومة والتضحيات من أجل أن يعيش كريما وطليقا في تربة سقتها دماء الشهداء الذين ضحوا من أجل استقلال هذا الوطن العزيز.

والملاحظ أن الدافع الأساسي في تحرير الوطن من وطأة الاستعمار كان متمثلا في المقاومات الشعبية التي غذاها حفظ القرآن الكريم بلغته العربية داخل المدارس الحرة والزوايا، فقد كانت بمثابة الإسمنت اللغوي والديني الذي وحد الكفاح ضد المستعمر.

وفي هذا السياق يؤكد الإمام ابن باديس رحمه الله أن " ... لهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعاداتها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمم الدنيا". ثم يضيف قائلا:" إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت".

وعليه فإن اللغة العربية في الجزائر رغم الظروف الاستعمارية بقيت دائما تتداول شفويا لتنقل لنا ذلك النمط من الأدب الشفهي وحامي اللغة، الذي كان يبدو لأول وهلة سطحيا وساذجا لكنه عند التمعن فيه نكتشف فيه عمق الحكمة ورونق المادة المعبرة عن حياة المواطنين اليومية وظواهر مجتمعهم.

إن التغيرات التي نعيشها في عالمنا هذا تستوقفنا للنظر في المسالة اللغوية التي تريد أن تكون اللغة العربية واللغة الأمازيغية القاعدة الأساسية لهويتنا، ويبقى المجتمع الجزائري متفتحا على جميع اللغات ليستفيد من الموروث الفكري الإنساني.

وهكذا نرى القبول بفكرة تعدد اللغات هو أنجح طريقة للتكامل الثقافي والحضاري والمبادلات الإنسانية بعيدا عن كل الطابوهات التي كانت تعرقل دائما المبادرات الرامية إلى إثراء الفكر الإنساني في المجالات العلمية والفنية والأدبية.

وعندما ننظر إلى المفردات فإن جميع لسانيي اللغة يستطيعون بنجاح معقول تحديد كلمات لغاتهم وبيان معانيها والفرق بين المعرفة الكيفية والمعرفة العادية تبدو مغيبة أو على الأقل ضعيفة إلى درجة كبيرة ولذلك فمن وجهة نظر دوسوسير الخاصة فإنه لم يكن مضطربا في التفريق بين البحثين وأن اللغة حقيقة اجتماعية أكثر من كونها حقيقة نفسية.

عندما يتعامل اللغوي مع لغة أجنبية يصبح من السهل عليه نسبيا أن يتجاهل نظريات المتحدث حول لغة الأم، مع أن تعلم مثل هذه النظريات يتطلب جهدا إيجابيا ولكن الوصفيين الذين تعاملوا مع

لغات مألوفة قد لجأوا في بعض الأحيان إلى مقاييس صارمة حتى يتجنبوا تشويه أوصافهم بواسطة الأحكام"القبل العلمية" الموروثة.

ومن خصائص اللغة العربية أنها من أكثر اللغات الثقافية غيرة على نقائها وصفائها وذلك لارتباطها بالإسلام ومرجعيتها القرآنية وقدرتها على الاشتقاق، إذ يكفيها أن ترجع إلى جذورها لتأخذ ما شاءت من الكلمات التقنية وذلك سر قوتها وثرائها. وقد تمكنت بفعل تأثيرها الثقافي والحضاري أن تخترق لغات أخرى في العالم وتولد فيها مفردات كما هو الحال بالنسبة للفارسية والتركية وكذلك الإسبانية. ولم يؤثر اختلاف اللهجات على عمق وحدتها وإشعاعها الحضاري على مر العصور.

هذا ما نشرته جمعية العلماء الجزائرين في بدء النهضة الفكرية في ترسيخ اللغة العربية وتعليمها للنشء، علما بأن اللغة العربية كانت في إحدى المواد الأساسية لمواثيق وقوانين أحزاب الحركة الوطنية برمتها. ألا نذكر الصحافة العربية ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية وتعزيز المقومات الشخصية الوطنية من أول جريدة صدرت في 1847 وهي "المبشر" و"الإقدام" للأمير خالد 1929 و "المنتقد" المنبر الرسمي لحركة الإصلاح سنة 1925 و" الشهاب" و" البصائر" إلخ...

هكذا عشنا من أجل الجزائر والعروبة والإسلام وهكذا تحررت الجزائر بفضل الأبطال وهكذا ترنمت الأجيال بلسان العرب، فيكفينا فخرا عندما انتقل عدد المتمدرسين في بداية الاستقلال مما يقل عن 400.000 أربعمائة ألف إلى ما يفوق 8000.000 ثمانية ملايين تلميذا يحسنون اللغة العربية ويتقنونها في شتى المجالات بعدما كان الشعب الجزائري محروما من التعليم والقراءة والكتابة.

إن الجزائر المستقلة قدمت بذلك جهدا كبيرا في تنمية النظام التربوي وإعطاء المكانة المرموقة للغة العربية في التدريس وجعلت منها أداة للتحول من خلال المنجزات الكبرى التي حققتها كالجامعات والمدارس والثانويات والمساجد إلخ...

ويضاف إلى ذلك البرامج التي جاء بها فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة من خلال الانعاش الاقتصادي في العهدة الأولى حيث بنيت العديد من المؤسسات التربوية الجامعية والمختبرات وها هو الآن يستمر في الجهد ليصب خمسين مليارا من الدولارات في النمو الاقتصادي ليجعل من الجزائر هذه الورشة التي ستبني مستقبلا زاهرا للأجيال في كنف الاستقرار والتضامن والوئام، وما التزم به فخامة الرئيس أمام الشعب الجزائري حيث بايعه بـ 85 % من أصواته ليزيد الجزائر رفاهية في كنف السلم والمصالحة الوطنية . وبناء مدرسة أصيلة متفتحة على العالم في القرن الواحد والعشرين الذي أصبحت فيه الأمم تتنافس في مجال الإبداع العلمي والتكنولوجي فتكون الجزائر على موعد مع التاريخ.

نظرة على التعليم الأهلي في سهل الشلف
خلال النصف الأول من القرن العشرين

أ.د. بوعبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف

من المعروف أن الاستعمار الفرنسي للجزائر لم يستهدف الأرض وحدها، بما في باطنها من ثروات وبما فوقها من عمران، وإنما استهدف الشخصية الجزائرية نفسها، مما جعله يخطط من أجل القضاء على مقوماتها الدينية واللغوية والتاريخية، وبعد مرور الزمن، آمن العدو وكاد يؤمن الصديق أن الجزائر قد انسلخت كلية من الكيان العربي الإسلامي، وأصبحت قطعة من أرض الغال فرنسية اللسان مسيحية الدين.

غير أن الحقيقة غير ذلك، فقد ظل المجتمع الجزائري متمسكاً بمقومات شخصيته الحضارية، ورغم أن الاستعمار قد ضرب حوله سياجاً سميكاً ليمنعه من الاتصال بالمشرق إلا أنه كان دائم الاتصال به، حتى قال أحد الشعراء الجزائريين المعبرين عن هذه الحقيقة.

وابن الجزائر بابن الشرق مرتبط ولو أحاطت به الأشواك أسوارا

وكان الفضل في ذلك كله يعود إلى العلماء والفقهاء الذين جاهدوا من أجل الحفاظ على شخصية الأمة وعلى تماسكها ووحدتها، وكان ذلك عن طريق التدريس الذي تميّز في تلك الفترة بمحتواه الديني والعلمي والاجتماعي.

فقد كان أولئك العلماء يجسدون ضمير المجتمع، فقدرهم حق قدرهم وبذل بسخاء من أجل نجاح مساعيهم والنهوض برسالتهم الدينية والوطنية المتمثلة في الحفاظ عل العقيدة ولغة هذه العقيدة، التي وحدت القلوب ووحدت الألسن ووحدت السلوك.

ونريد أن نعرض من خلال هذه الدراسة صورة نموذجية، حية، عن هذا التدريس في صورته وفي محتواه، وفي مراميه ونتائجه.

لقد ظلت الجزائر إلى بداية القرن التاسع عشر جزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامي الواسع، فقد عاشت عهود ازدهاره وقوته كما عاشت أحداث تراجع المد الإسلامي وتدهور أوضاع المسلمين، وكان أكثر ما تأثرت به الجزائر في القرنين العاشر والحادي عشر من الهجرة (أو السابع عشر والثامن عشر من الميلاد) حادثان كبيران جداً هزا أركان الأمة الإسلامية وزعزعا تماسكها؛ هما سقوط الأندلس وهجرة أهلها إلى بلاد المغرب العربي. وقد استقبلت الجزائر أفواج المهاجرين من الأندلس بالترحاب ولكن بانكسار الخاطر وصبر العاجز الذي لا يجد القائد والزعيم الذي يجمع قوات الأمة وهي متوفرة، ليرد بها كيد المعتدين، وما إن توفرت للأمة قيادة عسكرية قوية حتى اندفعت في تشييد الأسطول الجزائري الذي فرض نفسه كأعتى قوة في البحر الأبيض المتوسط، وهذا هو الحدث الكبير الثاني، ولكن هذا الحدث ألّب على الجزائر الأعداء من كل صوب وجعلها هدفاً للاستعمار الفرنسي، ولم تجد الجزائر بدورها مثل الأندلس نصيراً من الأمة الإسلامية لما أن داهمها هذا الاستعمار الفرنسي بكل ما استطاع أن يجنده من قوة، وبكل ما حمله من حقد ووحشية وتدمير.

لقد كانت مقاومة الأمة قوية وشديدة، ولكن قوة الاستعمار وشراسته واستماتة رواده وتهالكهم على امتلاك الجزائر كانت أقوى من مقاومة الجزائريين وحدهم، لقد كانوا أجدر بهزيمة الاستعمار لو وجدوا المساعدة الضرورية من الإخوان والجيران، ولكن هؤلاء الإخوان والجيران كانوا بدورهم قد جرفهم تيار التقهقر الحضاري، فعملوا على إضعاف مقاومة الجزائريين بدل أن يعملوا على شد عضدها.

والجدير بالذكر هنا هو أنه بعد أن خفتت قوة المقاومة المسلحة –دون أن تنتهي– بقيت المقاومة الروحية وحدها في الميدان.

والواقع أن الاعتماد على المقاومة الروحية كان من المعتمدات الأساسية للأمة قبل هذا التاريخ، ففي رسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي –رحمه الله–في الجهاد نجد إشارة واضحة وكلاماً صريحاً يشير إلى مدى تدهور الأوضاع السياسية في البلاد ومدى ضعف القادة السياسيين، مما جعله يؤكد أهمية دور العلماء والمرابطين في قيادة العامة في الحروب وفي رد غارات الأجانب، ففي هذه الرسالة التي لخصها الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه عن التاريخ الثقافي للجزائر، يهيب الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بالعلماء أن يتحملوا مسؤولياتهم أمام الله وأمام الناس لصد غارات (بني الأصفر) يعني الأوربيين.

غير أن هؤلاء العلماء لم يكونوا في المستوى القيادي الذي يؤهلهم لقيادة المقاومة العسكرية، مماّ اضطر بعضهم إلى الهجرة، وهذا كذلك بسبب فساد السياسة مثل الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي الذي توجه إلى مدينة فاس، والشيخ المجاهد عبد الكريم المغيلي الذي توجه إلى بلاد السودان.

يشير الدكتور سعد الله إلى أن من لم يهاجر من أولئك العلماء قد اختار حياة العزلة والتصوف والإرشاد أو اتخذ لنفسه رباطاً لتعليم أبناء الأمة ما توفر له من علوم الدين مثل الفقه والأصول والعقيدة، وقليلاً ما كانت تدرس علوم العربية مثل النحو والصرف والبلاغة.

ومع ذلك فقد كان لهؤلاء العلماء دور كبير جداً في المحافظة على تماسك المجتمع الجزائري ووحدته الدينية عقيدةً وتشريعاً، وهذا بفضل وحدة التعليم مرجعاً ومنهجاً، فرغم أن أساليب التعليم كانت تقليدية تعتمد على حفظ المصنفات والتقيد بشروحها، فإن تقليدية التعليم كانت عاملاً أساسياً في وحدة الأمة عقائدياً ومذهبياً، فقد كان شعار الجميع ذلك البيت من أرجوزة ابن عاشر الذي لخص فيه المؤلف موضوع أرجوزته حيث يقول:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

فعقيدة الجميع على مذهب الأشعري، وتوجه الجميع على مذهب الإمام مالك، ودخول الجميع في طريقة الجنيد الصوفية، كما حددها الإمام الشاذلي وتلامذته من بعده.

ففي ميدان الفقه ظلت مازونة تنافس تلمسان فأنجبت هي الأخرى بعض رجال هذا العلم، ومن أهم خريجي مدرستها في آخر العهد العثماني أبو راس الناصري.

ورغم مكانة بعض علماء مدينة الجزائر العلمية فإن أحداً منهم لم يستطع أن ينافس في التأليف في الفقهيات زملاءهم علماء غرب الجزائر أو شرقها.

ولم تكن الدولة الجزائرية –عندما كانت قائمة– تهتم بالتعليم ولا بتطوير المجتمع اقتصادياً أو ثقافياً، وإنما كانت التربية والتعليم بصفة عامة من اختصاص العائلات ويتوقفان على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية، فقد كان الأولياء مثلاً يقومون بتعليم أبنائهم في الكتاتيب القرآنية ثم بعد ذلك يواصل التعلم في الجوامع والزوايا من مكّنته ظروفه الاقتصادية والعائلية من ذلك، بل نستطيع أن نقول بأن التعليم العالي كان تقريباً من اختصاص أسر معلومة في بعض الأمصار، فقد كانت هذه الأسر ترغب أبناءها في مواصلة التعليم والهجرة في طلب العلم، أما عامة الناس فكانوا يقتصرون على ما تيسر لهم من حفظ القرآن الكريم وقليل من مبادئ العقيدة والفقه.

يذكر الدكتور سعد الله أنه كانت هناك بعض المدن تنمو بعدد سكانها وتشع بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع روحياً وعقلياً، ومن هذه المدن نذكر تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة.

فقد كانت في كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوف، ومن هذه العائلات عائلة المقري والعقباني في تلمسان وعائلة ابن باديس والقنفذ في قسنطينة، وعائلة المنهالي والمشدالي في بجاية وعائلة ابن السكات في مدينة الجزائر كما اشتهرت بسكرة بعلمائها، وعرفت مازونة بعدد من الفقهاء أمثال موسى بن عيسى صاحب كتاب: ديباجة الافتخار وكتاب (حلية المسافر) وابنه يحي صاحب كتاب (الدرر المكنونة في نوازل مازونة).

(وكان التعليم بجميع مستوياته منتشراً في المدارس والمساجد والزوايا التي أخذت تنتشر... وكانت حلق الدروس حول كل أستاذ مشهور سواء في المدرسة أم في الجامع أم في الزاوية هي المنبع الذي ينهل منه الطلاب في القرن التاسع، وهو نفسه المنبع الذي ظل يغذي أجيال المتعلمين المسلمين بثقافة تقليدية، ولكنها تحتوي على شرارات كامنة في إنتظار الفرصة) [1].

وقد كان الإقبال على التعليم مزدهراً حتى إن نسبة المتعلمين في الجزائر غداة الاحتلال كانت أرفع منها في فرنسا عينها.

لكن هذا الوضع قد تغير بعد أن سيطر الاستعمار الفرنسي على معظم البلاد الجزائرية وبخاصة المدن وحواظر العلم مثل: قسنطينة وبجاية والعاصمة ووهران وتلمسان وغيرها، وقد استمرت مدرسة مازونة تبذل جهداً كبيراً في التعليم، ولعل ذلك عائد إلى أن مازونة قرية صغيرة، لا تقع جغرافياً على محور الاتصالات وهي تقع في منطقة وعرة ضيقة لم تجلب اهتمام المعمرين الذين كان همهم الاستيلاء على الأراضي الزراعية الخصبة والسهول، ولهذا استقر المعمرون إما في جنوب مازونة، أي في سهل شلف وإما في شمالها في منطقة (قرى) من سيدي محمد بن علي (رونو سابقاً) إلى تاقوريت.

ومدرسة مازونة أسسها سيدي محمد بن علي بن الشراف المازوني في بداية القرن 11هـ وقام بالتدريس فيها إلى أن توفي رحمه الله، ثم تجدد ازدهار المدرسة على يد الشيخ أبو طالب محمد بن علي في بداية القرن 12هـ وخلفه على المدرسة أخوان من أبرز تلامذته هما: الشيخ أمحمد بن هني وأخوه الشيخ عبد الرحمن بن هنى.

واستمر التدريس متوارثاً في نسلهما إلى عهد قريب.

1. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ص 34

لقد عمّرت هذه المدرسة طيلة عهد الاحتلال الفرنسي، وبذل المشرفون عليها جهداً كبيراً في بقائها مفتوحة لطلاب العلم من مختلف أنحاء الغرب الجزائري بل وحتى من المغرب الأقصى.

وقد كان نظام التدريس يتمثل في الدرجة الأولى في تدريس الفقه على مختصر الشيخ خليل وشراحه.

وعلى غرار الجوامع والزوايا فإن الطلبة المسافرين –أي المقيمين بالمدرسة– كانت ترتب لهم (رتبة) يتبرع بها المحسنون من أهل القرية، فكل بيت يخصص جزءاً من طعامه لطلبة المدرسة، ويكون للمدرسة كذلك صندوق تجمع فيه تبرعات المحسنين يخصص لشراء القهوة والسكر والشاي إذا اتسع لذلك، وكان نظام التغذية في مدرسة مازونة يختلف عنه في الجوامع، كما ظلت عليه العادة حتى اليوم.

وبقدر ما كان الفقهاء يمثلون دور الضغط على المجتمع وحراسة حدود السلوك الاجتماعي الذي يجب أن يراعى ولا ينبغي تجاوزه فإنهم كانوا يمثلون دور الملجإ العاصم بالنسبة إلى الأفراد والجماعات الذين تواجههم مشاكل اجتماعية أو اقتصادية فقد كان الخارج عنهم بمثابة الخارج عن القانون، تهجره الجماعة وتنبذه من صفوفها، وكانت طاعتهم مثل السلوك المقبول المحترم الذي يضمن للأفراد الشعور بالانسجام مع الجماعة، ولهذا تعددت وظائفهم في المجتمع الجزائري وبخاصة بعد الاحتلال الفرنسي الذي عزل المجتمع الجزائري عن إطاره العربي الإسلامي، ونشط في عزل الجماعات المختلفة التي تكوّن المجتمع الجزائري، نشط في عزلها بعضها عن بعض وإثارة النعرات والشقاق بينها، وهو منهج استعماري معروف.

فمنذ الصبا يرسل الطفل إلى الشيخ معلّم القرآن في القرية، وفي الكتاب تتكوّن علاقة الطاعة المطلقة للشيخ الذي لا يكتفي بتعليم القرآن للصبية، وإنما يعلمهم كذلك قواعد السلوك الاجتماعي داخل الأسرة وخارجها، حتى أن الطفل الذي تظهر على سلوكه علامة انحراف داخل الأسرة يُرفع أمره إلى الشيخ الذي يحمله على الطاعة بالإرشاد أحياناً وبالفلقة أحياناً أخرى، والأسرة تقف دائماً إلى جانب الشيخ ضد الطفل.

فالشيخ إذن هو محل الرهبة والرغبة معاً، والسعي في اكتساب رضاه يعتبر من أهم ما يطلبه التلميذ ويصعد مع الصبي هذا الاتجاه، اتجاه احترام الشيخ والعمل على اكتساب رضاه وموّدته إذا انتقل إلى التعلّم في الجامع أو في الزاوية، ورضا الشيخ هنا يكتسب بأمور أهمها الطاعة والانقياد، ومنها التطوّع لخدمة الشيخ والسهر على شؤونه، ومنها تقديم "الزيارة" له عندما تسمح بذلك الظروف، وتستمر هذه العلاقة حتى بعد تخرج الطالب من عند الشيخ ويجازيه.

لقد كان شيخ الكتاب هو النموذج الذي يقتدي به ويطبع سلوك الصبية منذ نشأتهم الأولى ثم يصبح هو المعلّم والمرشد والطبيب، ويتولى الصلح بين المتخاصمين ويحذر بصفة خاصة من الخروج عن طاعته التي هي العلامة على طاعة الله، وكل انحراف يعدّ خروجاً عن الجماعة ويهدد صاحبه بالتهميش.

هذا بالنسبة إلى شيوخ الكتاتيب ومعلمي القرآن، ولكن فوق هؤلاء يوجد شيوخ أجلاّء وهبوا أنفسهم لخدمة الأمة في سبيل الله، وهم يفعلون ذلك على بيّنة من أمرهم، وغالباً ما كان هؤلاء يجدون مساعدة وعوناً من محبي الخير من الأثرياء الذين يبنون لهم الجوامع لتعليم الطلبة المسافرين، أي الذين انتهوا من حفظ القرآن الكريم سواء في الكتّاب أم في أحد جوامع حفظ القرآن، التي ما تزال منتشرة حتى الآن وبخاصة في الجزء الغربي من الجزائر، فقد كان هؤلاء الطلبة يقصدون شيخاً قد اختصّ في تعليم الفقه فيسجلون أنفسهم لأخذ العلم عنه.

والعلم هنا هو حفظ متن مختصر الشيخ الخليل بن إسحاق وفهم جميع الصور التي وردت في شراحه ومحشيه، وبخاصة من ذلك شرح الخرشي والدردير.

ولم يكن هؤلاء العلماء مدرسو الفقه كلهم في مستوى واحد، فقد باتت مراكز التعليم هذه تتوزع إلى أصول وفروع، وكانت الفروع تلتزم بالعمل على منهج الأصول، ويعتبر شيوخ الفروع أنفسهم ملتزمين أدبياً وأخلاقياً بأصولهم ويخشون أن يخرجوا عنها أو أن يظهروا بمظهر المستقل عنها، فالشيخ حتى عندما يجازى ويفتح جامعاً للتعليم فإنه يبقى ملتزماً نحو شيخه الذي أخذ عنه وأجازه، ويعتبر نفسه مستمداً منه ويخشى أن يغضب عليه شيخه فينسخ الله ما في صدره من علم.

وقد كان التوجيه الديني والأخلاقي والمنهجي ينتقل من هذه الأصول إلى فروعها، أي من مشايخ المراكز الكبرى مثل مازونة أو بعض الزوايا، إلى الطلاب الذين درسوا عندهم وفتحوا جوامع للتعليم، وينتقل من هؤلاء إلى العامة الذين يتصلون بهم ويصلونهم، وبهذه الطريقة كانت وحدة التفكير والالتزام السلوكي ينتشران من مراكز التكوين إلى فروعها ومن فروعها إلى مجال نشاط تلك الفروع في المجتمع، وكانت هذه الفروع من الكثرة والانتشار بحيث تغطي جغرافياً جميع المناطق، فمدرسة مازونة مثلاً كانت تغطى بفروعها، أي بواسطة المشايخ المعلمين الذين تخرجوا منها، كانت تغطي أكثر مناطق الشمال الغربي من الجزائر.

وكانت زاوية سيدي عدّة مثلاً تغطي من قصر البخاري حيث الشيخ الميسوم إلى سهل غريس مروراً بالعطاف حيث الشيخ بن الشرقي بواسطة الشيخ صادق بلحميسي إلى مستغانم حيث سيدي قدور بن سليمان الخ....

لقد كان التعليم في بداية أمر زاوية سيدي عدّة بولاية تيارت مقتصراً على تعليم القرآن الكريم، وكان همّ الساهرين على الزاوية لمّ شمل الأمة بعد الاضطراب والتشتت اللذين واجههما الشعب الجزائري بسبب الاحتلال، نجد هذا الاهتمام هو السائد في رسائل الشيخ إلى العلماء ومن كانوا يتصلون به في رقعة واسعة من الوطن، تمتدّ من غريس غرباً إلى قصر البخاري شرقاً مروراً بالونشريس (كتاب الرسائل لأهل الوسائل) ومن بلاد الصحارى جنوباً إلى جميع المناطق التي يمر بها نهر الشلف أي من العطاف إلى مستغانم.

ولم يبدأ تدريس الفقه وبعض علوم الدين كالتفسير والحديث والتوحيد إلا بعد 1880م، وقد عرفت الزاوية من أبنائها عالِمَيْن تركا أثرهما، وهما الشيخ محمد بن المختار، والسيد الحاج الشيخ بوشملة الذي تصدّى للتدريس، وتخرّج على يده عدد من الفقهاء، كما كان يشرف على تعليم القرآن الكريم.

وكان بعض تلامذة السيد الحاج الشيخ قد تقلدوا مهمة الإشراف على الزاوية، فاهتم رئيسهم الشيخ محمد غلام الله بالشؤون الروحية للزاوية، واهتمّ إخوته بتسيير أموال الزاوية وكانوا شباباً في العشرينية من عمرهم، وأحسّ الشيخ محمد غلام الله بأن مهمته تتطلب تفقهاً في الدين ومزيداً من الاطلاع على الشريعة الإسلامية، فبحث عن أستاذ يخلف السيد الحاج الشيخ، فساعده الحظ على لقاء الشيح أمحمد بن عشيط المجاجي الذي كان قَدِمَ حديثاً من الأزهر، فعرض عليه الإقامة بالزاوية وتعليم أبنائها أولاً ومن رغب من غيرهم، فقَبِل الشيخ العرض وتوطّدت بين الشيخ أمحمد بن عشيط وتلميذه الشيح محمد غلام الله أواصر المودة واستمر اتصالهما حتى بعد ترك الشيخ بن عشيط الزاوية إلى أن توفى رحمه الله.

وقد اجتهد الشيخ محمد غلام الله في استحضار المعلمين سواء منهم من يعلّم القرآن الكريم للطلبة المسافرين أم من يدرّس الفقه والعلوم الشرعية.

وهكذا خلف الشيخ أمحمد بن عشيط في تدريس الفقه والعلوم الشرعية الشيخ محمد الطاهر الخويدمي الذي أقام بالزاوية في جبل محنون من حدود 1912 إلى ما بعد العشرين، ولما أصبح الشيخ محمد غلام الله عضواً في اللجنة الدينية، سعى إلى تحويل الشيخ محمد الطاهر الخويدمي إلى مدينة وهران، وقد رضي الشيخ محمد الطاهر نظراً لتواضعه بوظيفة حزّاب، وكان أغزر علماً ممّن كانوا في الوظائف الأعلى، إذ تعلّم بالأزهر وحصل من شيوخه على عدّة إجازات.

كما استحضر الشيخ محمد غلام الله للتدريس في الزاوية الشيخ عبد السلام الفيقيقي الذي درّس بالزاوية على فترتين، وكان الشيخ عبد السلام فقيهاً زاهداً حجّ بيت الله مشياً على الأقدام؛ وقد درّس الفقه في مقر الزاوية في محنون ثم درّس في جامع القبة، وانقطع ثم عاد للتدريس في مقر الزاوية، ومما يذكره

طلبة الشيخ عبد السلام، أنه أفتى لهم بترك الفور في الطهارة الكبرى، وقال لهم : « إذا غسل أحدكم رأسه فليتعمم ثم يغسل جذعه ثم يلبس ثيابه ثم يغسل ساقيه ورجليه"؛ ولما سئل كيف أن خليلاً ذكر الفور من واجبات الغسل، أجاب بأن "خليلا لم يسكن القبة ولم يلسعه برد محنون ».

واستقدم الشيخ محمد غلام الله الشيخ عبد القادر بن الحميسي، الملقب بافعولي ونصبّه مدرّساً للفقه في جامع القبة حيث درّس ما يربو عن 15 سنة أي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ثمّ لما فتحت الجمعة في جامع سيدي عدة بمدينة تيارت، نقل الشيخ عبد القادر بن الحميسي إلى مدينة تيارت حيث تولى التدريس والإمامة.

وممّن استقدمهم الشيخ محمد غلام الله للتعليم بالزاوية، الشيخ العربي بن الخياطي الذي أقام بجامع تنفيف –أي بمقر الزاوية في جبل محنون– ما يربو عن الأربعين سنة، وقد سجّل من الطلبة الذين شهد لهم بحفظ القرآن الكريم أكثر من 900 طالب إلى سنة 1953. وقد قدِم معه ابن عمه الشيخ عبد القادر بن الخياطي الذي كان يعلّم القرآن الكريم للصبيان من أبناء الزاوية.

واستقدم لتعليم القرآن في جامع القبة الشيخ أحمد العيشوتي من منطقة حرشون، والشيخ بوعبد الله بلغالي من منطقة واريزن، ولشدة شغف الشيخ محمد غلام الله بالتعليم استعمل نفوذه لما كان نائباً بالمجلس المالي للجزائر ووفر المقرات اللازمة لإنشاء مدرسة تابعة لإدارة التعليم الرسمي، الأمر الذي استفاد منه كثير من الصبيان في تعلّم اللغة الفرنسية إلى جانب حفظهم القرآن الكريم ومبادئ الشريعة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن جميع هؤلاء المعلمين الذين استقدمهم الشيخ محمد غلام الله جاءوا من منطقة سهل الشلف وأغلبهم من ولاية الأصنام، وكان يدفع لهم مرتباتهم من مال العائلة التي كانت في عهده مجتمعة على غرار العائلات الكبيرة، والتي كان هو المتصرّف فيها.

ونذكر من تلك الأصول مدرسة الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم (عتبة) التي اختصّت بتدريس العلوم، وأضافت إلى تعليم الفقه علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ومبادئ العروض، وهنا نفسح المجال للشيخ الجيلالي يتحدث عن نفسه كيف انتقل في مراحل التعليم قبل أن يفتح مدرسته، فألف كتابه " المرأة الجلية في ذكر من تفرق من أولاد سيدي يحي بن صفية" ما يلي:

"أتى لي جدي بالشيخ السيد قدور العيشوني ابتدأت عنده قراءة القرآن، ثم المرحوم السيد الحاج محمد العباسي صهر الأستاذ السيد الحاج بن العربي نجل الشيخ بن الشرقي... ثم قرأت على الضرير السيد محمد الحنشاوي ثم على ابن عمّنا محمد بن عودة ثم على السيد أحمد بن الحاج عيسى بعين امران –

قبيلة صبيح- ثم قرأت نحو سلكتين[1] في آخر قراءتي على القطب والغوث السيد الحاج بن الشرقي رضي الله عنه.

ولما أذن لي في قراءة العلم، سارعت إلى قراءة الفقه والنحو على ولده السيد الحاج بن العربي بن الأستاذ السيد الحاج بن الشرقي رضي الله عنهما، فختمت عليه ختمات في الفقه في متن الشيخ خليل وفي الأجرومية وفي علم التوحيد، وكان شروعي في قراءة العلم سنة 1317.

ثم وقف على الزاوية.. ولي الله الأستاذ محمد بن أحمد السنوسي المتخرّج من كلية مدرسة فاس، فقرأت عليه مع أستاذي السيد الحاج بن العربي نحو خمس سنوات... ثم بعد تمام قراءتي أخذت الإذن من السيد الحاج بن الشرقي رضي الله عنه ومن ولده الحاج بن العربي ومن المرحوم الأستاذ السيد محمد السنوسي، وكان ذلك الإذن في سنة 1324.

ولما فزت بالإذن ذهبت إلى مسقط رأسي ببقعة بوفلي قبيلة العطاف وأسس لي الوالد رحمه الله مدرسة، لأنه استيقظ من الغفلة التي كان أهملني بها وعرف أنني دخلت حزب العلماء... فأسس لي رحمه الله في القرية المتقدمة مدرسة علمية وقرآنية في فاتح محرم سنة 1324 إثر الإذن، وشرعت في التدريس ووفد الطلبة على المدرسة واجتهدت في التدريس غاية الاجتهاد، وما آليت جهداً فيه، وأعانني الوالد على كفاية مؤونة الطلبة، ونظمت دروس المدرسة، فجعلت يوم السبت إلى صباح الأربعاء للفقه ويوم الخميس لتدريس الفنون الصغار كالمنطق والبلاغة والصرف ماعدا إبان الصيف، فإنني جعلت في فاتح مايو لتدريس ألفية ابن مالك إلى آخر الخريف فنشرع في الفقه وهكذا...

واجتهد الطلبة غاية الاجتهاد ووفدوا على المدرسة من الأقطار الشاسعة من ندرومة وتلمسان وأم العساكر وغليزان وسعيدة وتيارت والأصنام وناحية مليانة حتى من الغرب، من الريف ومن فاس وغير ذلك ومن قسنطينة، ودمت على هذه الحال إلى أن تم لنا ثلاثون سنة من عام 1324 إلى عام 1354 وانتفع كثير من الطلبة، وأخذ بعض التلاميذ بعد قراءتهم الإذن من الشيخ بن الشرقي والبعض الإذن من السيد الحاج بن العربي، واشتهرت تلك المدرسة بتدريس فنون العلم فيها من نحو وصرف وبلاغة وفقه وتوحيد وتفسير القرآن الكريم وبالاجتهاد في تحصيل الفنون بالحفظ لمتونها ومطالعة شراحها وحفظ شواهدها واستحضار مسائلها...وجعلت معيدين للدروس وبذلت قصارى جهدي في تهذيب الطلبة وتأديبهم (هنا يظهر أثر التربية بالإضافة إلى التعليم).

---

[1].السلكة تعني ختم القرآن حفظاً أو مراجعة على اللوح، بحيث يكتب ربع حزب على اللوح وبعد التأكد من حفظه حفظاً جيداً يمحي اللوح ليكتب عليه ربع حزب جديد، وهكذا حتى يختم القرآن، فسمى ذلك سلكة وقد يعيد الطالب ختمة ثانية بنفس الطريقة

وأسست احتفالاً سنوياً في تلك المدرسة يجعل آخر فصل الصيف، يخرج فيه الطلبة الذين لهم اقتدار على التدريس ونعقد لهم امتحاناً، ويحضر هذا الاحتفال والامتحان كثير من الناس مثل علماء عين الدفلى والأصنام وغليزان وغير ذلك، وحصل النفع في تلك المدرسة حتى نجح مدة ثلاثين سنة ما يفوق مائتي تلميذ حصلوا على مرغوبهم فأجيزوا ورجعوا إلى أهليهم بعلوم صحيحة حييت بهم البلاد وانتفع بها العباد.

ودمت على تلك الحال إلى عام 1341 صرت أسافر إلى الأصنام وألقي دروساً يومين في الأسوع، عشية الجمعة وصباح السبت.

وعن مدرسة الشيخ الجيلالي بن عبد الحكيم في مدينة الأصنام (شلف حالياً) يقول ولده السيد أحمد عتبة ما يلي:

أسسها مديرها السيد الجيلالي بن الجيلاني بن عبد الحكيم عام 1354 في 15 من شعبان وفق 14 أكتوبر 1935.

كانت تلك المدرسة بجنوب المدينة، وكان لفتح تلك المدرسة يوم مشهود حضره العلماء والقراء ورؤساء الناس... قال الوالد رحمه الله:" فجعلت لولدي الأستاذ ابن الشرقي درساً في الصباح" وقد توفي عام 1361 رحمه الله، وخلفه في دروسه شقيقه ولدنا السيد أحمد أطال الله عمره في طاعة الله وسنة رسوله؛ وعين السيد أحمد بن عبد الله يقرأ درساً، أما الوالد فكان درسه النظامي عشية وبعد المغرب يجعل درساً في تفسير القرآن الكريم ويذيله بحديث من الجامع الصغير، هكذا كان دأب الشيخ في تسيير الدروس في تلك المدرسة وطار صيت تلك المدرسة وطلعت شمسها وهرع إليها الطلبة من كل جانب وكثيراً ما كان يزورها ولي الله المعظم الشيخ سيدي محمد غلام الله بن سيدي عدة مصحوباً بأخيه ولي الله العلامة سيدي الحاج محمد وقرأ فيها من أنجال سيدي عدة السيد أبو عبد الله بن المختار والسيد عدة بن سيدي محمد ويضيف الشيخ أحمد عتبه رحمه الله ما يلي :

في سنة 1954 اثر زلزال الأصنام انتقل الشيخ الجيلالي بأهله إلى مدينة غليزان حيث فتح المدرسة للطلبة في جامع هيأه له المحسن الحاج محمد العماري، وكان الشيخ يلقي دروسه في هذا الجامع ويساعده في ذلك ولده السيد أحمد، كما يساعده بعض الطلبة نذكر منهم السيد الحاج قدور الرياحي نزيل مستغانم، وقد توفي الشيخ الجيلالي رحمه الله سنة 1965.

هذه عينة من مدارس الأصول، فإذا أردنا أن نذكر مدارس الفروع فإن عددها لا يكاد يحصى، لأن بعضها لم يعمر إلا قليلاً، وبعضها قد اندثر دون أن يدون في كتاب ولا أن تحفظه ذاكرة مثل الكثير من أحداث الجزائر.

لقد انتشر طلبة هذه المراكز بعد أن عادوا إلى أهليهم، واجتهد كل واحد منهم لأن يقلّد شيخه وأن يفتح بدوره جامعاً يرتّب فيه الطلبة المسافرون وينقطعون لدراسة العلم، والعلم يعني الفقه والفقه يعني دراسة مختصر الشيخ خليل وشرّاحه.

وهكذا يمكن أن نحصي في منطقة صبيح مثلا:

* الشيخ أحمد بوجدية (بن زخروفة) طلبة مسافرون في الفترة ما بين 1915-1945، تقريباً.

* الحاج عبد القادر بن حورة (غزالي) في سيدي خليفة الشارف، طلبة مسافرون في الفترة ما بين 1930-1945.

الشيخ أحمد بن رابح –الصبحة تدريس وإفتاء- ابتداءً من 1940 إلى أن توفي رحمه الله سنة 1993.

* الشيخ الميلود البوشعيبي –في منطقة تاوقريت- تعلّم في الأزهر.

* الشيخ عبد القادر بن عمرو –في الطواهرية في الفترة ما بعد 1930.

* الشيخ سيدي ابراهيم – في العوانة، ثم خلفه الشيخ محمد بلفيل إلى أن توفي سنة 1980.

* الشيخ الحاج أحمد هجان – في عين أمران- ما يزال يعمل حتى الآن.

وإذا أردنا أن نأخذ عيّنة أخرى من منطقة عمي موسى فإنا نذكر ما أمكننا أن نحصل عليه بمساعدة الشيخ محمد زروقي الذي يعمل حالياً في جامع الزاوية قرب وادي ارهيو، والذي أخرج للسلك الديني أكثر من 100 إطار، ولديه طلاب يتعلمون الفقه وعلوم العربية.

إن منطقة عمي موسى كغيرها من المناطق الداخلية التي اعتصم بها العلماء، وجمعوا الأمة على كلمة الله محذرين إياها من الانصياع وراء عوامل التدمير والاندثار سواء كان مصدرها القهر الاستعماري أم التشويه الحضاري المزيّف.

فمن هؤلاء العلماء ما وصلت إلينا أسماؤهم وأعمالهم بالتواتر، وما وجدناه من آثارهم في الوثائق والمخطوطات المتوفرة، وهم:

* السيد الصحراوي وأخوه السيد البغدادي ابنا السيد الزروقي القاسمي، درسا الفقه على السيد الحاج الشيخ بزاوية سيدي عدّة، وتخرجا منها في أواخر القرن التاسع عشر وقاما بتدريس الفقه في قرية أولاد الشيخ من بلدية الرمكة حالياً، وكانا يقومان بالإفتاء والتوثيق وإصلاح ذات البين بين الناس في الأعراش

المجاورة مثل أولاد دفلتين، مطماطة وأولاد موجار والعجامة وبني وعزان الخ... وقاما بالتدريس إلى حدود 1920.

وكانت توثيقات السيد الصحراوي نافذة لدى قاضي محكمة عمي موسى، حتى إنه كان يدعى (القاضي المفوّض).

ومن بعدهما قام مقامهما أبناؤهما السيدان: الشيخ البغدادي بن الصحراوي والشيخ محمد بن البغدادي.

وقد عاصرهما الشيخ الحاج بلقاسم قسوس العمراوي، غير أن هذا لم يعرف عنه أنه علم الفقه، وإنما اقتصر نشاطه على الإفتاء والتوثيق، ثم خلفه ابنه السيد أحمد بن الحاج بلقاسم.

وقد عرفت بلدية الرمكة حالياً كلاً من الشيخ محمد بن علي من دوار أولاد الشيخ، والشيخ خليل من دوار عشعاشة، وقام كل منهما بالفتوى والتوثيق والصلح بين الناس.

وقد توفي السيد محمد بن البغدادي سنة 1941 وخلفه أخوه السيد الشيخ بن البغدادي إلى أن استشهد في ثورة التحرير سنة 1959.

أما الشيخ البغدادي بن الصحراوي فقد توفي سنة 1946 ثم خلفه ابنه السيد الصحراوي الذي تولى التعليم من سنة 1954 إلى أن توفيّ سنة 1978، وقد تولى الإمامة في مسجد أولاد الشيخ.

وآخرهم الشيخ بوعلام غلام الله من قرية القلاصنة ناحية بوقادير، تعلّم في الزيتونة وحضر دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة ثم تولى الإمامة في مسجد عمي موسى، حيث درس الفقه وعلوم اللغة والعقيدة والتفسير والحساب للطلبة المسافرين من سنة 1964 إلى أن توفي رحمه الله سنة 1994.

ونذكر من العلماء الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن الطاهر الذي ذكرناه درس في زاوية سيدي عدة، فقد قام الشيخ عبد الرحمن بتدريس الفقه وعلوم اللغة العربية في الجامع الذي يحمل اسم أبيه قرب جديوية على طريق أولاد يعيش، كما قام بالتوثيق والإفتاء والصلح بين الناس إلى أن استشهد وهو جندي في جيش التحرير الوطني.

ونذكر الشيخ خليفة بن يحي من قرية الهرانفة الذي كان يعلم في الجامع التابع لزاوية سيدي عدّة في واد ارهيو والذي أسسه الشيخ محمد غلام الله في العشرينات، فقد علّم من 1948 إلى سنة 1986.

فإذا انتقلنا إلى قبيلة فليتة، ورجعنا إلى المشائخ المعاصرين فقط فإننا نجد في مقدمتهم الشيخ بن عبد الله بن شايب الذراع، فقد تخرّج من مدرسة مازونة ولما عاد إلى أهله فتح جامعا للطلبة المسافرين في

قرية أولاد راشد قرب الرحوية، وقد درس في الفترة ما بين 1930 إلى 1970، كان يلقي درسين أحدهما في الصباح وثانيهما بعد العصر.

وكان يؤوي الطلبة ويطعمهم من بيته، وكان عدد طلبته يتراوح بين 15 و20 طالباً، وكان مثالاً للورع والوفاء لأشياخه، إذ كان من عادته أن يخصص فترة للراحة سنوياً، يعود فيها الطلبة إلى ذويهم، أما الشيخ فيمتطي راحلته يتجوّل بين أضرحة الصالحين مثل سيدي أمحمد بن عودة وسيدي يحي أمحمد بن خدّة، حتى إذا انتهى من طوافه هذا ترك راحلته وتوجّه إلى زيارة شيوخه في مازونة.

وكان ابن عمه الشيخ بلقاسم بن شايب الذراع قد فتح جامعا للطلبة في رحوية، ولم يكن جامعه منافساً لجامع ابن عمه، وإنما كان مكملا له وكان كل منهما يتواضع لابن عمه، حتى إن أحدهما إذا استُفتى وجّه سائله إلى الآخر حتى يعلم كل منهما رأي الآخر في سؤال السائل، فتتفق فتواهما، ولا تختلف، وبذلك يتجنبان فضول الباحثين عن الرخص في فتاوى العلماء.

وفي قرية مغيلة قام الشيخ أحمد بن الحاج العربي بالتدريس والإفتاء في السوق، وكان من خريجي مدرسة الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم في الأصنام.

وفي مدينة تيارت تولى تدريس الفقه للطلبة المسافرين كل من الشيخ الزين بلقدري الذي تخرّج من زاوية الشيخ بن طكوك في العرعار قرب بوقيراط وعاصره الشيخ عبد القادر بن الحميسي (فغولي) الذي قدم إلى المدينة بعد أن درس مدة طويلة في جامع القبة التابع لزاوية سيدي عدة، وقد مات شهيداً في ثورة التحرير رحمه الله.

وفي العشرينيات من هذا القرن، عرف الشيخ الحاج الأخضر في مشرّع الصفا، فقد كان جامعه قرب سد بن خدّة، وكان يتولى تعليم القرآن الكريم بالإضافة إلى تدريس الفقه.

ومن فقهاء المنطقة الشيخ عبد القادر بن الميهوب، في عرش حلوية، كان فقيها يفتي للناس ويفك الخصومات، ويقسم الزكاة، وكان يساهم في حل مشاكل الناس باجتهاده، ومن ذلك فتواه في الطلاق ثلاثاً، فكان يردّ المطلقة ثلاثاً إذا كان في لفظة واحدة، وكان يهمه لمّ شمل العائلة ولا يرضيه أن تتشتت بسبب لفظة طائشة خرجت من فم فظٍ جهولٍ، وقد لقي عنتاً كبيراً، وشهر به فقهاء وقته حتى ظن بعض الناس أنه صاحب مذهب منحرف، لا يصلّى وراءه ولا تقبل شهادته، ومع ذلك ظلّ متمسكاً برأيه واعياً لموقفه، ولعله أفتى بعض منتقديه لما أن طلق زوجته ثلاثاً بلفظة واحدة واضطر إلى مراجعتها، وكان يحرر فتواه حتى يتحمّل تبعتها وحده.

وقد توفي رحمه الله في نهاية الأربعينات من هذا القرن.

أما بخصوص آثار الفقهاء، فإن الإشارة تجدر إلى أن الكتابة في الشرعيات عامة وفي الفقهيات بصفة خاصة، قد قلّت في القرن الثاني عشر الهجري وما بعده، وأصبح العلماء يقتصرون في جهودهم على التدريس.

وإذا كتبوا ففي التوثيق أو في بعض الفتاوى التي يرون أنها تستحق الاهتمام بها لما فيها من تحمل المسؤوليات، من ذلك مثلا الفتاوى المتعلقة برد المطلقة ثلاثا، وفيما يتعلق بالأوقاف؛ ذلك أن نظام الاقتصاد الزراعي يقتضي الحفاظ على الأرض الزراعية ضمن العائلة، ويرى الناس أن دخول الغريب فيها سواء عن طريق النسب عندما يتزوج الغرباء من بنات مالك الأرض، أم عن طريق البيع والرهن عندما يضطر الورثة إلى ذلك وغيره مما يؤدي إلى تفتيت الأرض وضياعها.

ولهذا عمد أرباب العائلات المالكة إلى وقف أملاكها على أولادهم الذكور فقط دون الإناث.

هذا؛ ولقد توقف علماء القرن الثاني عشر عن التأليف وحتى عن كتابة النوازل وتسجيل الفتاوى إلا نادراً، ولم يجعلوا ذلك في مؤلف مستقل ومتكامل، وإنما بقي ما كتبوه من فتاوى مبعثرة هنا وهناك مثل العقود وغيرها، وكان بعض الناس عندما تواجههم معضلة يتوجهون إلى الفقهاء لحل معضلاتهم، ويعرضون منازعاتهم على هؤلاء الفقهاء، وينتظرون منهم حكم الله في الموضوع وكثيراً ما كان لهؤلاء الفقهاء الفضل في حل النزاعات القائمة بين العائلات.

ففي مرحلة أولى كان الفقهاء هم القضاة الذين يفصلون في جميع النزاعات، ولم يكن هناك قضاة رسميون في كل مكان، وإن وجدوا في بعض المدن، فإن أهل الريف لا يلجأون إليهم، وإنما يفضلون التقاضي إلى الفقهاء.

ولهذا كان الفقهاء يجلسون للناس في الأسواق الأسبوعية يستمعون إليهم ويفكون نزاعاتهم، وكثيراً ما كانوا يفتونهم في الأمور التي تتعلق بالطهارة والصلاة والصوم والكفارات وغيرها، كانت هذه المحاكم تنصب في الأسواق الأسبوعية، وكما أن لكل قبيلة أو عرش سوقاً أسبوعية فإن لكل قبيلة أو عرش فقيها يجلس لفك المنازعات في الأسواق.

كان بعض هؤلاء الفقهاء من المدرسين الذي يعلمون الطلبة المسافرين في الجوامع، وفي أيام السوق يتوجهون إلى حيث يجتمع الناس لإفتائهم وفك منازعاتهم، وكان بعضهم يعقد درساً للوعظ والإرشاد، نظراً إلى أن صلاة الجمعة لم تكن تقام في معظم البوادي.

وكان بعض الفقهاء ممن أذن لهم أساتذتهم المدرسون بالجلوس إلى الناس وإفتائهم وفك خصوماتهم وكانوا ينكرون على من يتصدى للفتوى، وبخاصة في الأسواق –دون إذن من شيخه–.

وبالإضافة إلى الفتوى وفك الخصومات كان الفقهاء يقومون بوظيفة التوثيق، فيسجلون عقود البيع والكراء والرهن حتى أن المحاكم الرسمية في عهد الاحتلال كانت تضطر إلى أخذ هذه العقود بعين الاعتبار، بل واضطرت إلى أن ترخص لبعض الفقهاء المعروفين في قراهم بأن يوثقوا بشرط أن يسجلوا وثائقهم على أوراق مدموغة حتى يضمنوا بذلك توفير رسوم العقد للدولة، وكانت هذه المحاكم ترفض الاعتراف بالعقد إذا لم يأت مسجلاً على ورقة رسمية مدموغة.

وكما وجدوا حلاً لمشكل الحبس وجد بعضهم حلا لمشكل طلاق الثلاث، وإن لم يحرز الإجماع، بل إن أغلب الفقهاء كانوا يرفضون رد الزوجة المطلقة ثلاثا وكانوا ينكرون على من تجرأ منهم على ذلك وأفتى بردها كما رأينا مع الشيخ عبد القادر بن ميهوب الحلوى.

وبفضل هذا النشاط العلمي والديني تمكن العلماء في البوادي من ترسيخ العقيدة الإسلامية في ضمائر المجتمع الجزائري، حتى أصبح الجزائري لا يرضى بدينه بديلا، وكثيرا ما كانت تضطرهم ظروف الحياة إلى التجنس بالجنسية الفرنسية، ومع ذلك كان أغلب الجزائريين يفضلون التضحية بدنياهم في سبيل دينهم.

نعم يمكن أن يؤخذ على هؤلاء الفقهاء جميعهم أنهم ورثوا ثقافة عصر الانحطاط، وأنهم أوقفوا جهودهم على حفظ المصنفات وشرحها دون أن يحاولوا التفكير في شؤون العصر ولا في العلوم التي تتقدم من حولهم وأنهم بذلك حصروا الأمة في مفاهيمهم وفتاواهم التقليدية القديمة؛ والواقع أن القضية هنا لا ينبغي –منهجياً– أن ينظر إليها معزولة عن سياقها؛ إن العزلة الخانقة التي فرضها الاحتلال الاستعماري على الجزائر جردت المجتمع الجزائري من كل وسائل الدفاع فلم يبق له إلا هذا الانطواء على الذات والتمسك بما بقي له من الجانب الروحي، إن الغريزة هنا تعوض الذكاء المفقود، لأن البحث والتفتح والنمو والتطور من وظائف الذكاء، فإذا تعطل الذكاء فقد أصبح الجهد كله موجهاً إلى المحافظة على البقاء، وأُجِّلَ البحث عن التطور إلى حينه.

وإذا كانت الأمية والجهل والفقر هي السمات الأساسية التي كانت تطبع المجتمع الجزائري المحصور في البوادي أثناء الاحتلال الفرنسي فإن من أتاح لهم الاستعمار النفاد إلى المدن بسبب حاجاته إلى خدماتهم، وبخاصة من جندهم طوعاً أو كرهاً وبعث بهم إلى أتون الحرب العالمية الأولى، فمن نجا من هؤلاء من الموت وعاد أتيحت لهم الفرصة للإقامة في المدن، وذهب أبناؤهم إلى المدارس الفرنسية فتلقوا تعليماً انتقائياً "موجهاً" جعل منهم شباباً تنكر أغلبهم لأمتهم وثقافتهم، وتعلقوا بفرنسا تعلقاً جعلهم يحتقرون أنفسهم ودينهم وكل ما يمت بصلة إلى ماضيهم العريق.

ورغم ما بذلته حركة النهضة الوطنية من جهود لنفض الغبار عن القيم الإسلامية، وإخراجها نقية سليمة فإن ذلك لم يثن المعلمين المفرنسين عن تعلقهم بسياسة الإدماج التي أصبحوا يطالبون بها وإنما ظلوا يعادون فكرة الأمة الجزائرية بل وإن منهم من استمالته حجج المبربرين والمستشرقين كما يقول الأستاذ محفوظ قداش – فظل مثلهم الأعلى هو الحصول على الجنسية الفرنسية التي حجبت عنهم فرادى، فأرادوا أن تمنح لهم بصفة آلية متى اتخذ القرار بإلحاق الجزائر نهائياً بفرنسا وهو المطلب الذي كان يرفضه الوطنيون.

إن هؤلاء بدورهم ضحايا، لأنهم لم يحصلوا من العلم والثقافة إلا ما تبرع به عليهم المستعمر، وما أشبه اليوم بالبارحة.

إن الوضع التاريخي الذي وجد الجزائريون أنفسهم فيه كان يفرض عليهم أحد اختيارين لا ثالث لهما، إما أن تقبع سجينا في وطنك ودينك وثقافتك لا تفارقها ولا تضيف عليها، وإما أن تخرج منها نهائياً إلى وطن ودين وثقافة لا تعرفها.

يجب على الأمة الإسلامية عامة وعلى الشعب الجزائري بصفة خاصة أن يعترف لهذه الفئة من المجاهدين بالكلمة والموقف بالفضل الكبير، لأنهم حافظوا على وحدة الشعب وعلى عقيدته وتمسكه بالدين والوطن إلى أن قيض الله له من الحركة الوطنية الحديثة ما جعله يبصر النور ويحدد لنفسه طريق التحرر والانعتاق.

وما أشد حاجة الأمة اليوم إلى مثل هؤلاء المجاهدين الذين كانت قوتهم تكمن في نكران الذات وفي الإقدام على التضحية بالنفس والنفيس في سبيل دينهم وأمتهم ما أشد حاجتها إلى مثلهم في مواجهة الغزو الثقافي وفي رد هجمات التشويه الثقافي والانحراف الديني والفساد العقائدي وفي سيادة النزعات الفردية على القيم الجماعية، والجرأة على بيع الدين والوطن والكيد لهما أو تحطيمهما في سبيل مصلحة دنيوية لا تلبث أن تتلاشى وتزول.

وضع العربية خلال العهد الاستعماري

د. محمد الميلي

وزير سابق

لم يعرف تاريخ أي بلد من بلدان المغرب العربي من الجدل والتشويه والتشكيك ما عرفته الجزائر. السبب الرئيسي معروف: فهو مرتبط بالطابع الاستيطاني للاستعمار الفرنسي. وقد تولدت عن هذا الطابع ظواهر عديدة أبرزها اثنتان:

أن حرب احتلال الجزائر اكتست، في بعض مراحلها، صبغة حرب إبادة واستئصال؛ والثانية هو مسعى فصل الشعب الجزائري عن جذوره، ومحو المقومات الأساسية لشخصيته، أي القضاء على كل ما يكون به هو.

من هنا عملت السياسة الفرنسية، منذ البداية، على حشد إمكانيات عسكرية ضخمة، ومجموعة من القوانين الظالمة، تلتقيان في: نهب ثروات البلاد، وضرب أركان ثلاث من مقومات الشعب الجزائري وهي اللغة والدين والتاريخ.

فالمعاهدة التي أبرمت يوم 5 جويلية 1830 لتدخل حيز التنفيذ على الساعة العاشرة من اليوم الموالي، ينص البند الخامس منها على مايلي: " تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الأهلية" كما تنص على احترام ديانة السكان وأملاكهم وتجارتهم وصنائعهم. وينص البند الثاني على أن القائد الفرنسي يتعهد بأن يترك لداي الجزائر أمواله.

ومعروف أن المعاهدة كانت تقتصر على " دار السلطان" وهي العاصمة وضواحيها.

لكن تبين منذ الأيام الأولى أن الفرنسيين كانوا عاقدين العزم على خرق المعاهدة: فقد رحَّلوا ثلاثة آلاف جندي من رجال "الوجق" (جند الداي) واستحوذوا على أملاك وميزانية الأوقاف التي كانت في نفس الوقت

هي ميزانية التعليم. كما استولوا على جامع كيتشاوة الذي حولوه إلى كاتدرائية، واستولوا منذ 7 ديسمبر 1830 على كل أملاك الأوقاف وممتلكات الشؤون الدينية وألحقوها بإدارة العقارات الفرنسية.

ويسجل جزائريون عاشوا فترة الاحتلال كما يسجل مؤرخون فرنسيون أن قيادة الجيش الفرنسي جعلت على رأس أولوياتها الاستحواذ على أموال الدولة ونهب خزينتها التي عرفت بـ "كنوز القصبة" بالإضافة إلى نهب الأموال الخاصة. وقد سجلت الصحافة الفرنسية في الإبان عمليات النهب تلك، وتساءلت عن مصدر الثروة المفاجئة التي ظهرت آثارها على أحد المسؤولين في جيش الاحتلال اسمه " دونيه" وعندما رد على الاتهام بأنه ورث ثروة ضخمة تركها خال زوجته تهكم به الموسيقار "روسيني" قائلا: " لم أكن أعرف أن داي الجزائر كان خالا لزوجتكم"(1).

عندما شكلت فرنسا لجنة مهمتها التحقيق فيما كان يشاع عن انتهاك المعاهدة وعن عمليات النهب، أكدت هذه أن خرق المعاهدة كان واضحًا، وأن عمليات النهب بدأت منذ أيام الاحتلال الأولى. وإذا كانت الصحافة الفرنسية اليمينية المتطرفة تنسب النهب إلى اليهود، فإن اللجنة تسجل أن الحقيقة غير ذلك، وأن ضباطا من قيادة الأركان قد نهبوا، وأنهم كانوا يعودون من القصبة محملين بجزء من كنوزها. وتسجل لجنة التحقيق هذه، أنه من بين خمسة آلاف منزل فاخر في العاصمة، استحوذ الفرنسيون على ثلاثة آلاف مسكن وهدموا تسعمائة.

وقد أصدرت القيادة الفرنسية منذ 22 أكتوبر 1830 مرسومًا يخضع القضاء الإسلامي للمحاكم الفرنسية. تَصَوَّر القائد الفرنسي أن سقوط العاصمة يفتح له أبواب جميع مناطق الجزائر، شرقًا وغربًا وجنوبًا، في حين أن المعاهدة التي أبرمت مع الداي تتعلق بما كان يسمى إداريًا "دار السلطان" وهي تضم خمس مدن هي: الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال ودلس.

كما تشمل "الأوطان"، وهي تسمية تعني مناطق قرب العاصمة تخضع لسلطة قائد الجيش.

في هذا السياق يمكن تسجيل الرسالة التي وجهها " برتزين" إلى وزيره سولت بتاريخ 29 أكتوبر 1830 جاء فيها:

"لقد تصورت أن واجبي هو أن أُشَرِّفَ اسم الفرنسي بسلوكي الشخصي، وأن أفرض على الناس احترام حكومة الملك ومحبتها. وقد تصورت أن تطبيق العدل واستعمال الحزم هي الوسائل الوحيدة لتحقيق ذلك الهدف، ورغم أني لم أغفل عن هذا الهدف لحظة واحدة، فإنني أعترف لكم بصراحة إني أصبحت مقتنعا، أن سكان هذه البلاد لم يتعرضوا في وقت من الأوقات، خلال العهد التركي، لمثل هذه الاعتداءات والتجني على العدالة.

ليس في استطاعتي أن أمنع حدوث مثل هذه الأشياء لأن كثيرا من الجزئيات تخرج عن إرادتي حتما، لأني لا أجد لدي أي من المكلفين بتنفيذ الأوامر، من لديه إرادة الانتصار للعدالة والحق. ولذلك لم يكن يسعني، إلا أن أحمر خجلا عدة مرات أن أرى العقلية الفرنسية تتدهور في عيون العالم المتحضر الذي يراقبنا عبر قناصله، وحتى في أعين هؤلاء الأفارقة الذين نحتقرهم لكن ذهنهم متفطن للدقائق ".

عندما تولى " روفيغو Rovigo"، المسؤولية في الجزائر نفذ تعليمات وزير الحربية، بإقامة مراكز دفاعية حول المناطق الخاضعة مباشرة للسلطة الفرنسية. كما عبد طريقا تمتد من وسط العاصمة دالي ابراهيم، تسببت في تخريب عدد من المقابر، فقد كانت الجثث ترمى على قارعة الطريق، حتى أن أحد الجزائريين صرخ: " لم نعد نعرف أين نعيش ولا أين نموت ".

وصادف أن ترددت إشاعة مفادها أن عظام الموتى تضاف إلى مواد أخرى تستعمل في صناعة السكر.

وقد كذب المؤرخون الفرنسيون بشدة هذه الإشاعات، لكن كتاب المرآة لحمدان خوجة ينص في أحد ملاحقه على تصريحات لطبيب، ولصيدلي، ولعامل مكلف بتفريغ البضائع، مفادها أن حمولة الباخرة " لابون جوسيفين" التي وصلت قادمة من الجزائر في مارس 1833 كانت تشتمل على عظام آدمية. وينص الدكتور " سيقوند" أن بعض تلك العظام كانت ما تزال مغلفة بلحمها. ويقال أن هذا هو ما حمل الأمير عبد القادر على إصدار فتوى بتحريم استعمال السكر الأبيض.

و زاد الوضع تعقيدًا وجود إدارة مزدوجة ممثلة في سلطة عسكرية على رأسها "روفيغو" وسلطة مدنية يتولاها "بيشون" الذي كان يعارض مشروع التوطين الأروبي المكثف الذي يؤيده الأول، أي مسؤول السلطة العسكرية الذي كان يدعو إلى " غرس" مليون أسرة أروبية في الأراضي الزراعية الجزائرية.

فقد كان " بيشون" يرى أن مثل تلك الخطة غير قابلة للتنفيذ في المدى القريب. وكان يرى أن مراعاة وضع أصحاب الأملاك الجزائريين يجب أن تكون لها الأولوية، وكان يندد بتجاهل السكان الأصليين.

وكان قد صرح بأنه لا يرى رأي الذين يريدون أن يتصرفوا في الأراضي الجزائرية كما لو أن الأرض الجزائرية كانت شاغرة، خالية من السكان.

ومن هنا يلح على أن تجريد الجزائريين من أملاكهم الزراعية يؤدي إلى إبادتهم. وبما أن كل قطعة من الأرض لها مالكها، فإن انتزاعها من أصحابها ليس فقط يعد ظلما، لكنه بالإضافة لذلك جد مكلف، لأنه يتطلب تعبئة خمسين ألف جندي لحماية المعمرين.

وقد تنبأ "بيشون" بأن سكان الجزائر لن يتخلوا عن أراضيهم بنفس السهولة التي تخلى بها سكان العالم الجديد (الواقع أن الهنود الحمر لم يتخلوا بسهولة عن أراضيهم، ولكن إبادتهم كانت سهلة نظرا لكونهم بدائيين من جهة، ولضخامة وتطور القوة الضاربة الأمريكية من جهة أخرى).

لكن بيشون كان مصيبا عندما اقترح على حكومته " الحل الأمثل لاستغلال الجزائر" وهو في رأيه " تمكين الجزائريين من تسيير شؤونهم بأنفسهم وتطوير تعليمهم وخاصة اللغة العربية".

إلا أن اللوبي الأوروبي الداعي إلى الاحتفاظ بالجزائر كان قويا وكان يطالب بضمانات تتلخص في أن تتعهد باريس تعهدا تاما بأن تحتفظ بالجزائر.

ويسجل المؤرخون الفرنسيون أن موت وزير الداخلية، كازيمير بيريسي أطلق يد دعاة التوطين، وشجعهم على التمسك بموقفهم الداعي إلى التخلص من الجزائريين بل كان هناك من لم يتردد في المطالبة بإبادتهم إن اقتضى الحال.

إن مطلب الإبادة لم يكن مجرد شعار، بل كان تعبيرا عن سياسة مرسومة طبقت عن عمد وسابق إصرار، إذا نحن أخذنا في الاعتبار ما كتبه حمدان خوجة عام 1832 من أن " مملكة الجزائر تمثل أمة تعداد سكانها عشرة ملايين نسمة"(2).

مع العلم أن أول إحصاء أجرته السلطات الفرنسية هو الذي تم عام 1872 والذي ينص على أن عدد سكان " الجزائر الفرنسية مليونان ومائة ألف نسمة. فإذا أسقطنا عدد ضحايا المجاعة التي دهمت الجزائر قبل ذلك ببضع سنوات والذي يقدره بعض المؤرخين بنصف مليون تقريبا يبقى فارق ضخم لا يفسره إلا عمليات إبادة حقيقية. وحتى إذا افترضنا أن أرقام حمدان خوجة لا تخلو من مبالغة فإن الفارق الذي يبقى بعد ذلك لا يتطابق مع العدد التقديري لقتلى المقاومة المسلحة والانتفاضات الشعبية. وبعبارة أخرى إن وجود عمليات إبادة حقيقية يظل هو التفسير الوحيد "المعقول" لذلك العدد الضخم من الضحايا فيما بين 1832 و 1872.

إن مصطلح " عمليات الإبادة" قد أصبح مبتذلا من كثرة ما تردد خلال هذه الحقبة أو تلك من حقب التاريخ الماضية والمعاصرة. إلا أن تكرر الشهادات بخصوص عمليات الإبادة خلال حرب الاحتلال الفرنسي يجعل استعمال هذا المصطلح معبرا عن الواقع. فرجل مثل أليكسيس دي طوكفيل (Alexis Tocqueville) الذي لا يمكن الطعن في شهادته (فقد كان من مؤيدي الاحتلال). سجل في " رسالته عن الجزائر " قائلا: حدثت إبادة حقيقية، وخاصة ضد عبد القادر"(3).

محاربة العربية على رأس أولويات مشاريع الاحتلال:

شنت القيادة الفرنسية، منذ بدايات الاحتلال حربا شعواء على اللغة العربية، تمثلت في إغلاق معاهد التعليم وتقليص عدد الكتاتيب القرآنية، وكذلك عدد المساجد التي كانت – كما هو معروف – أمكنة للتعليم، زيادة عن دورها المعروف دينيا. انخفض عدد المساجد مثلا في العاصمة من 176 مسجدًا عام 1830 إلى 48 عام 1862. سجل دي طوكفيل نفسه دور الإدارة الفرنسية في تقهقر التعليم العربي، عندما كتب:

" لقد تخلينا عن المدارس، وفرقنا حلقات التدريس، انطفأت الأضواء من حولنا.. جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر جهلا وأشد وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا" (4).

لم يكن التعليم، خلال العهد العثماني يخضع للإدارة الرسمية وسلطة الباي أو الداي. كان تمويل المعاهد التعليمية وكذلك المساجد يتم عن طريق التبرعات التي يقدمها المحسنون في شكل وقف أو حبس.

لكن هذا المصدر المعد لتمويل المعاهد وتسييرها، قضي عليه، إذ وضعت سلطات الاحتلال يدها على الأوقاف وجعلتها تابعة للإدارة الفرنسية منذ البداية كما سبق ذكره. أي أنها أَخَلَّت بالمعاهدة التي أبرمت مع مؤسسة الداي، ولما يجف بعد المداد الذي كتبت به.

كان المحتلون منْطقيين مع السياسة التي انتهجوها: فقد لاحظوا دور الزوايا في تغذية المقاومة، بدأً بالأمير عبد القادر بن محي الدين، و مرورًا بالشيخ الحداد رئيس الزاوية الرحمانية الخ..

ذلك أن كل معلم للقرآن، ومدرس للعربية وعلومها، وللفقه وأصوله، كان ينتمي إلى هذه الطريقة أو تلك من الطرق الصوفية. كانت هذه، تتوفر على عدد كبير من الإطارات، يشرفون على تسيير شؤون الزاوية، التعليمية والاجتماعية والدينية، ويتولون تنظيم اتصال الزاوية الأم بفروعها في جميع أنحاء الجزائر، كما يشرفون على وسائل الاتصال المنتظم بنظائر زاويتهم في المغرب الأقصى وفي تونس وفي طرابلس.

لم يخف على الأجهزة الفرنسية وعيون حلفائها أن تأثير معلم القرآن والأستاذ الفقيه في معاهد الزوايا، فضلا عن شيخها الأكبر تأثير فعال وقوي.

لذلك لم تتردد سلطات الاحتلال في محاربة الكتاتيب القرآنية ومعاهد التعليم التي كانت أعلى مستوى والتي كانت تحتضنها الزوايا.

بل هي لم تكتف بذلك، إذ اتخذت منذ أكتوبر 1852 قرارات منعت بموجبها تعليم القرآن إلا أن يكون ذلك برخصة. رخصة لم تكن تمنح إلا بعد اتخاذ عدد من الإجراآت المشددة تمر بعدة مستويات من سلم

الوظيف الفرنسي. وإذا فكر سكان حي أو قرية في استقدام معلم قرآن جزائري من منطقة أخرى، أو اعتمدوا على حافظ للقرآن متطوع لكنه وافد من خارج البلدة، فإنه يعتبر " أجنبيا"، ويمنع من ممارسة نشاطه التعليمي. نتيجة لذلك انخفضت نسبة التعليم، وانتشرت الأمية بنسبة مهولة باعتراف الفرنسيين أنفسهم. يقول " دوما" ما معناه:

كان التعليم الابتدائي (بالجزائر) أكثر انتشارا مما نتصوره عادة. علاقاتنا مع أهالي المقاطعات الثلاث برهنت على أن معدل الأفراد الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة كان يساوي المعدل الذي تنص عليه إحصائيات المحافظات في أرياف فرنسا" [(5)].

فعلا كانت مدينة الجزائر تعد عام 1840 نحو من 24 " مسيد " (أي مدرسة) في وقت لم يكن يتجاوز فيه عدد سكانها (اثني عشرة ألف نسمة (12.000) بعد ست سنوات فقط انخفض عدد أمكنة التعليم إلى أربعة عشر (14). وتسجل المراجع التاريخية أن التلاميذ كانوا يعيشون في رفاهية خلال العهد العثماني، بينما أصبحوا يعانون من الفقر والبؤس الشديد، لأن الفرنسيين استحوذوا على الأوقاف، كما سبق ذكره؛ فقد كانت المدارس ومعاهد التعليم تعيش على ريع تلك الأوقاف التي نضب معينُها.

نفس الظاهرة نلحظها في مختلف أنحاء الجزائر، تلمسان مثلا: كانت تعد ثلاثة معاهد للتعليم الثانوي، وخمسين مدرسة ابتدائية، في وقت كان عدد سكانها يتروح بين 12 و 14 ألف نسمة. وكانت الأرياف التابعة لتلمسان تعد ثلاثين زاوية لنحو 125 ألف نسمة. وكان يوجد بمدينة وهران معهد هام معتبر أزيل دون أن يُعوض.

وفي قسنطينة كانت توجد سبعة معاهد ثانوية وخمس وثلاثون مسجدًا. كانت شهرة قسنطينة التعليمية تضاهي شهرة تونس والقاهرة حسب تعبير بعضهم. لم تمر سنوات قليلة حتى انخفض عدد الطلبة في قسنطينة من ستمائة إلى ستين. وهذا ما دفع آجرون إلى التأكيد على أن الأمر كان يتعلق فعلا بإجبار: المسلمين على قبول مدارسنا".

يقول ألفريد رامبو الذي كان وزيرًا للتعليم عام 1897، مايلي:

" كان الغزو الأول قد تم بالسلاح، وانتهى مع عام 1871 بانتزاع السلاح من بلاد القبائل. (يشير إلى ثورة الشيخ الحداد) ويتمثل الغزو الثاني في حمل الأهالي على أن يقبلوا بإدارتنا وبعدالتنا. وسوف يتحقق الغزو الثالث عن طريق المدرسة: إذ يجب أن نضمن السيطرة للغتنا، وأن تدخل في أذهان المسلمين الفكرة التي نحملها نحن أنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم، وأن تحل محل الجهل والأفكار المسبقة المنغلقة، المفاهيمُ المدققة للعلم الأروبي "(6).

أما منطقة معسكر فقد كانت غنية بمعاهد التعليم، خصوصًا في عهد الأمير عبد القادر الذي ألزم كل دوار أن يكون بـه معلم. وعندما شرع الأمير في وضـع أسس دولـة عصرية، استغل فترة سلم بعد معاهدة تافنة، لتوجيه بعثة طلابية تضم ثلاثين شابا، إلى مرسيليا للتأهيل في مختلف الفنون والحرف والصنائع.

أدركت باريس الخطر الذي يمثله الأمير على مشروعها الاستعماري، ذلك أن الذين كتبوا عن الأمير من الأجانب الذين عرفوه عن قرب، مثل الكولونيل " شرشل" الانجليزي، ومثل "دينيسين" الدانماركي، يجمعون كلهم على الإشادة بنضجه المبكر وذكائه الحاد، وما يتمتع به من حس استراتيجي، مما جعله يتفطن إلى ضرورة بناء دولة عصرية في خضم المقاومة، وصهر مختلف القبائل في معركة سياسية وثقافية واجتماعية زيادة عن طابعها العسكري، تكون نتيجتها النهائية هي ميلاد أمة، و تأسيس دولة والتهيئة لمستقبل حر. يقول Dinesen في كتيب له عن الأمير نشر في كوبنهاغن عام 1840، وترجم إلى الألمانية آنذاك:

" إن الرجل الذي نقدمه، هو واحد من أفذاذ التاريخ، قاد شعبه حتى يصير أمة، أي قاده نحو الوعي بضرورة توحد الشعب، في إطار العمل للصالح المشترك، انطلاقا من وضعية مبهمة". (نقلا عن ترجمة للأمير عبد القادر كتبها محمد الميلي. مخطوط).

هذا ما جعل سلطات الاحتلال تتخوف أيما تخوف من مخططات الأمير ومشاريعه خصوصًا بعد اتجاهها إلى تكثيف الاستيطان الأروبي. إذ تبين لها أن الأمير عبد القادر لم يكن متمردًا أو ثائرا عاديا. لذلك خرقت الاتفاقات التي أبرمتها معه، وقررت تصعيد العمل العسكري بصورة جعلت فرنسيين يتحدثون عن حرب إبادة، سجل ذلك دي طوكفيل الذي كان معاصرًا للاحتلال، وكما فعل بعد ذلك بنحو قرن، ميشيل هابار الذي اعتمد على كتابات حمدان خوجة.

لهذا عمدت باريس إلى مضاعفة قواتها العسكرية التي وضعتها تحت قيادة " بيجو" بعد عودته إلى الجزائر مسؤولا عن الشؤون الحربية والإدارية: فقد ارتفع عدد العسكر الفرنسي من 63.000 عام 1841، ليبلغ ما لا يقل عن 120.000 جندي، أي ما يعادل ثُلُث الجيش الكبير الذي غزا به نابليون الأول أروبا من بروسيا إلى روسيا.

على أن قادة جيش الاحتلال لم ينتظروا قرار باريس المتعلق بالاحتلال الشامل وتكثيف الاستيطان، لكي يرتكبوا المذابح والمجازر الجماعية.

فقد شكلت باريس، إثر المناقشات البرلمانية التي احتدم فيها النقاش بين أنصار الاحتلال الشامل وما يستلزمه من توطين أروبي، ودعاة الاقتصار على احتلال الموانئ والسواحل الشمالية، – شكلت لجنة تحقيق برلمانية توجهت إلى الجزائر في ربيع 1833. سجلت هذه اللجنة في تقريرها ما يلي:

" لقد ذبحنا مجموعات كبيرة من السكان، تبين فيما بعد أنهم أبرياء، قتلنا رجالا يحملون ترخيصا بالمرور وقعه مسؤولون فرنسيون، الجزائريون الذين يجرؤون على الاستفسار عن أقاربهم الموقوفين، حوكموا، ووجد من قضاتنا من حكم عليهم بالإعدام. ووُجد من الرجال المتحضرين من نفذ فيهم حكم الإعدام.

لقد تجاوزنا مستوى الوحشية عند المتوحشين الذين جئنا لتمدينهم" (6).

وفي 22 جويلية 1834 صدرت قوانين تعتبر الجزائر كلها منطقة عسكرية تابعة لوزارة الحربية، يسيرها مسؤول يجمع بين القيادة العسكرية والإشراف الإداري. بمقتضى ذلك وقع التنصيص على أن "الممتلكات الفرنسية في شمال افريقيا تُسَيَّرُ بمراسيم" وهو ما استمر به العمل حتى عام 1946.

لذلك خطط الأمير عبد القادر لخوض حرب طويلة الأمد؛ و بما أنه كان مدركا أن ميزان القوى المادية لم يكن في صالحه، فقد انتهج أسلوب حرب العصابات، الذي جعل الجنرال Saint Arnault يبدي تذمره قائلا: "عندما نهاجم جيش الأمير، يتفرق مثل الطير، وعندما ننسحب يتبعوننا مثل الذئاب".

وقد سعى الأمير إلى تلقين أخلاق الفروسية لجنوده. عندما سئل: إذا أتيناك بأسير، كم تدفع لنا ؟ أجاب: ثمانية دورو. ولما سُئل: وعندما نأتيك برأس فرنسي ؟ رد على الفور: خمس وعشرون جلدة على باطن القدمين !

لكنه لم يقتصر على الاهتمام بالجانب العسكري، وأعطى أهمية لما يسميه بعض الباحثين " رفع مستوى الدفاعات الثقافية " للدولة الناشئة (7)؛ لذلك اهتم بإنشاء المدارس والمعاهد، وعمل على تشجيع الثقافة وتعميم المكتبات. كما اهتم بتوجيه بعثة طلابية إلى مرسيليا كما سبق ذكره.

في هذا السياق ينبغي التنصيص على أن اهتمام الأمير بالتعليم لم يتوقف حتى في أصعب مراحل الحرب، أي عندما صممت باريس على حشد كل ما لديها من قوات، واستعمال ما لا يتصوره عاقل من وسائل التدمير والتخريب. فقد استحدث تنظيما جديدا يتمثل في إقامة عاصمة متنقلة، سماها "الزمالة" تضم خيامها قوات الأمير وأسرته وممتلكاته ومكتبته، وكذلك أهل الجند وأسرهم أي نساءهم وأطفالهم وآباءهم، هذا التنظيم الأميري الجديد عبارة عن حشد لكل الطاقات المتوفرة، من نخب مثقفة وجند نظامي، ومتطوعين للجهاد، وإذ كانت الزمالة متنقلة فهي تضمن في الوقت نفسه قرب القيادة من قواعدها.

والزمالة بوصفها عاصمة متنقلة، كانت مقسمة إلى أحياء على غرار العواصم الثابتة: فكان بها حي للنحاسين وللحدادين، والصباغين والخياطين والخبازين إلى آخر الحرف اللازمة للحياة اليومية، كما كان هناك حي لمربي الخيول، وآخر للمعلمين.

وما لبثت الزمالة أن أصبحت معسكرا ضخما، توجه له القبائل شيوخها، ونساءها وأطفالها وأنعامها، وتطورت حتى أصبحت تضم أكثر من عشرين ألف نسمة. لحراسة هذه المدينة عين الأمير أربع قبائل، تحرسها عند الحل، وتقودها عند الترحال، كما عين عددا من اليهود يقومون بدور البنك يقرضون المال.

ولا يخفى أن هذه العاصمة المتنقلة تتلاءم مع حرب العصابات ومع عقلية جيش الخيالة، فالأمير يدرك أنه لا يستطيع أن يواجه بجيشه مجتمعا، نظيره الفرنسي المتفوق عليه عددا وعدة وتسليحا وتنظيما، لكن الواحد من فرسانه لا يضاهى في المعارك الفردية وفي المكامن وفي الهجومات الخاطفة والمناوشات ولعبة الكر والفر.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العاصمة المتنقلة تضم مكتبة ضخمة جمعها الأمير من مختلف أنحاء العالم العربي الإسلامي، كان ينوي أن يجعلها نواة للجامعة التي خطط لإنشائهافي تاكدامت، المدينة – الحصن التي أقامها جنوب معسكر، عاصمته السياسية. لكن دوق اورليان عندما استولى على المكتبة، خربها وبعثر محتوياتها، حتى أن الأمير كان يتقفى آثار العسكر الفرنسي بواسطة الأوراق المتناثرة على طول الطريق إلى مدينة " المدية".

البعد الفكري والثقافي في مقاومة الأمير عبد القادر

معظم الكتابات التي صدرت عن الأمير عبد القادر، اهتمت بالجانب العسكري والسياسي في حياته، منذ أن تولى قيادة المقاومة عن سن لا تتجاوز خمسا وعشرين عاما. ولم يغب عن كل الذين ترجموا له سواء من بين معاصريه أو الذين جاءوا بعدهم، أن يسجلوا رجل الدولة الذي لم تغيبه شخصية القائد العسكري، ولكن قليل هم الذين سجلوا البعد الفكري العروبي في الحركة التي تولى قيادتها.

ذلك أن الصلح الذي أبرمه الفرنسيون مع الأمير عبد القادر لم يكن إلا خدعة، تهدف إلى ربح الوقت لحشد أكبر ما يمكن من قوات حرب، وأساليب تدمير.

خصوصًا وأن مشروع عبد القادر الثقافي أو " دفاعاته الثقافية" لم تلق فهما من طرف كل القبائل، التي تعودت على حرية فوضوية، ومن هنا كانوا ينظرون بشيء من العداء إلى كل سلطة تضبطهم. أي أنهم " لم يكونوا مستعدين لتوحيد جهودهم من أجل وضع حد للفوضى المخربة" حسب تعبير " دينسن" الدانماركي الذي سبق أن استشهدنا به.

وقد أدرك الأمير نقطة الضعف هذه، فحاول أن يعوضها بدفاعات ثقافية إن صح هذا التعبير.

ولا شك أن أول من تفطن لهذا الجانب الثقافي هو الكابتان "Deneveu" الذي وضع كتابا عنوانه "Les Khouans" ويقصد بذلك "الإخوان" وهو الوصف الذي كان يطلقه رجال الطرق الصوفية على أنفسهم، وتجدر الإشارة إلى أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب أعدت عام 1845 أي في خضم حرب المقاومة التي كان الأمير عبد القادر هو قائدها الأساسي، ونشرت مطبوعة عام 1846.

والكابتن "دونوفو" لم يكن ضابطا عسكريا فقط، فقد كان أيضا عضوا في اللجنة العلمية الفرنسية ومسؤولا عن المصلحة المكلفة بدراسة طبيعة الأرض.

يقول في كتابه هذا مايلي:

" إن عهدا جديدًا بدأ بالجزائر، فالحرب نفسها التي اندلعت الآن تبدو لنا ذات طابع يختلف عن طابع الحروب التي سبقتها، فقبل عام 1837 و 1842، كان عبد القادر يحارب بنية تكوين قومية عربية و إقامة دولة ذات سيادة. أما اليوم فقد تغيرت أفكار عدونا واتخذت الحرب طابعا دينيا. إن الأمير عبد القادر في هذا الوقت على العكس مما كان عليه الأمر قَبْلا يعترف بعجزه عن أن يطرد عن أرض الإسلام المسيحيين الذين فتحوها، لكنه لا يعترف بشرعية الحكم الفرنسي وإدارته لشؤون المسلمين. إنه لا ينازعنا الحكم الزمني فقط، ولكنه يريد أيضا أن يبعد سلطة مسيحية عن الضمائر والمعتقدات الجزائرية. إن الذي يتواجه الآن في نظره ليس هو العربي والفرنسي، ولكن هي المعتقدات المسلمة والمسيحية هي التي تشغل باله، إن الحرب الوطنية تنطفئ وتختفي، بينما يكبر الصراع الديني ويتطور"(8).

إن هذه الفقرة وردت في كتاب وضع عام 1845 أي أنه تزامن مع التصعيد العسكري الفرنسي الذي تضمن عمليات إبادة حقيقية وتصميما شاملا على تصفية المقاومة و عزما نهائيا على استعمار كامل التراب الجزائري، بالمعنى الاستيطاني الذي يتطلب تكثيف الوجود الأوربي، وخاصة في أخصب الأراضي الزراعية.

ضباط مثقفون لمواجهة الصمود الثقافي

يستحسن أن نفتح هنا قوسين، للتذكير بحقيقة نادرًا ما يتحدث عنها المعنيون بتاريخ الجزائر الحديث، وهي العلاقة العضوية بين الغزو العسكري والمخططات الثقافية الفرنسية.

فالكابتان دونوفو كان يجمع بين الصفة العسكرية وبين العلم الذي سخره في خدمة الاحتلال. ولم يكن هو الوحيد الذي يجمع بين صفتي الضابط والعالم. فهناك غيره كثيرون، لكن المعنيين بالتأريخ لهذه الفترة نادرًا ما يلجأون إلى الحديث المستفيض عن هذه الظاهرة.

لتأكيد ذلك نستشهد بالضابط "Louis Rinn" فقد كان قائد فيلق للمشاة، ورئيس المصلحة المركزية للشؤون الأهلية في الولاية العامة وقد تفطن هو الآخر للخطر الذي تشكله الزوايا على مشاريع الاحتلال، خصوصًا مع وجود مثل الأمير عبد القادر الذي جمع بين فروسية الحرب وفروسية العقيدة واستنارة المثقف المتفتح. لذلك وضع دراسة ضخمة بعنوان: "Marabouts et Khouan" وعنوان فرعي " Etude sur l'Islam en Algerie" يشتمل الكتاب على خمسمائة وخمسين صفحة، مع خرائط تبين مواقع الزوايا.

نستطيع أن نتبين الهدف من هذا الكتاب عندما نقرأ المقدمة التي يستهلها بقوله:

"منذ نحو من خمسين سنة بذلت الدول الغربية في أروبا مجهودات ضخمة لجذب الشرق القديم نحو تيار الحضارة العصرية. النتائج المتحصل عليها ليست معتبرة؛ ومع ذلك فإن بعض ما تحقق من تقدم كان كافيا لإثارة رد فعل عميق من طرف القادة الدينيين للإسلام، الذين عارضوا هذه الإصلاحات دفاعا عن مصالحهم ومعتقداتهم. ولكي يحاربوا ما يعتبرونه خطرًا عليهم، اعتمدوا على تهييج الشعور الديني، وتعزيز الروابط الروحية التي تجمع بين أَتْباع النبي. كانت المقاومة التي قادوها محتشمة، عديمة التجربة في بداياتها، لكنها ما لبثت أن تطورت تدريجيا وأصبحت أحسن تنظيما، في جميع بلدان العالم الإسلامي. وقد استطاعت اليوم أن تتحكم في حركة إسلامية تمتد من جزر الصوند إلى المحيط الأطلسي، بحيث تشكل خطرًا على جميع الشعوب الأروبية التي لها مصالح في افريقيا وآسيا.

إن هذه الوحدة الإسلامية تملك بصفة خاصة كقوة وكوسائل نشاط، عدة طرق وجمعيات دينية تطورت منذ بداية القرن، وأصبح لها نفوذ كبير على الجماهير ... إن أعوان تلك الطرق والجمعيات يتجولون عبر عالم الإسلام هذا الذي لا يعرف حدودًا ولا أوطانا، وينسجون علاقات تربط بين مكة وجغنوب، اسطمبول وبغداد وفاس، وتمبوكتور والجزائر والقاهرة والخرطوم وزنزيبار و كالكوتا ويافا".

ثم يقول، وهذا هو بيت القصيد:

" إن فرنسا بوصفها أمة ذات سيادة، مسيطرة على شعوب إسلامية ومجاورة لها، تفرض مصلحتها السياسية أن تعرف عدد الطرق الدينية، ومذاهبها واتجاهاتها، ومراكز دعاياتها ومجالات نشاطها وأساليب بحثها عن الأتباع، وكيفيات تنظيمها الخ ".(ص V - VI من المقدمة).

وقد طبع هذا الكتاب في مدينة الجزائر، في Adolphe Jourdan Libraire Editeur عام 1884.

وواضح من أول سطر في المقدمة أن هدفه الأساسي هو الجزائر.

ويمكن أن نضيف لهذه النوعية من الضباط المنظرين Brosselard الذي وضع عام 1862 كتابا بعنوان Les Khouans كما أن هانوتو، وهو مسؤول عسكري وضع بمعية Letourueux كتابا بعنوان La Khbylie et les coutumes kabyles الذي تعرض فيه للزوايا، طبع في باريس عام 1873.

أما كتاب Deneveu فقد صدر مطبوعا سنة 1846. معنى ذلك كله أن كتابات ضباط عن الزوايا والجوانب الثقافية للمقاومة غطت مراحل المقاومة المختلفة من 1845 إلى 1884 مرورًا بـ 1873.

تتمثل أهمية كتاب الكابتان "دونوفو" أنه كان أول من تفطن لدور الإسلام في تغذية المقاومة من جهة، ولتوجه الأمير من جهة أخرى إلى الاعتماد كليا على الإسلام في الإعداد لمقاومة معنوية – روحية تستمر بعد توقف المقاومة العسكرية.

لكن الكابتن "دونوفو"، يخطئه التوفيق عندما يرى أن الحرب الوطنية تنطفئ وتختفي، إذا كان يقصد بذلك أن الروح الوطنية لم تعد هي المعبئة. وله في ذلك بعض العذر، لأن الكابتان اعتمد في صياغة أفكاره على ما كان يشاهده من تعبئة ضد الفرنسيين تستند إلى الدين والجهاد وتستعمل الهياكل المتوفرة وهي الزوايا الطرقية المنبثة في جميع أنحاء الجزائر. فهو مصيب عندما يسجل دور مؤسسة الزوايا في التعبئة ضد المحتلين بوصفها أمكنة للعبادة ومدارس للتعليم وخلوات للتأمل، ولأنها تضم مكتبات تساعد مطالعتها على شحذ المقاومة المعنوية، في نفس الوقت الذي تتوفر فيه على قاعات للاجتماع وتبادل الآراء، كما أن الكابتان معذور في عدم تفطنه لقصد الأمير عندما وجه الاهتمام إلى الإسلام لمواصلة المقاومة المعنوية.

فما يقصده الأمير من التوجه الجديد الذي أعطاه للمقاومة، هو عدم الاقتصار على الشعارات الجهادية واستعمال الهياكل المتاحة، ولكن هو التوجه إلى علاج أساس المشكل الذي أعطى التفوق للفرنسيين وضمن لهم الانتصار بقوة السلاح.

فالأمير يعتبر أنه نجح في غرس بذور الوطنية الحديثة، وفي بعث الوعي بضرورة إقامة دولة لا ترتبط بالتنظيم العشائري ولا تعتمد على العقلية القبلية. لكنه يعتبر في نفس الوقت، أن زمانه لا يتطابق مع الزمن الفرنسي الأكثر تجاوبا مع العصر، أي أنه أدرك أن جوهر المشكل يكمن في التخلف الفكري الذي تعاني منه الجزائر مثل عدد من البلدان العربية التي سبق له أن زارها قبل الاحتلال.

صحيح أنه حاول توظيف مؤسسات الزوايا والعقلية الجهادية مثل عدد من قادة المقاومة عاصروه أو جاؤا بعده، لكنه كان يدرك في أعماق نفسه أن تلك المؤسسات لا تستطيع بعقليتها السائدة أن تنهض بالعبء الذي يتصوره هو.

إن قصده الحقيقي يظهر من خلال الأفكار التي تضمنها كتابه " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" الذي ألفه سنة 1271هـ، أي قبل أن يستقر في دمشق. وقد نشرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في دمشق، بدون تاريخ. في هذا الكتاب نعثر على عدة أفكار تصلح لأن تكون مفتاحا لتوجهه الجديد نختار منها دعوته إلى رفض التقليد ونبذ التقاليد الجامدة، واعتماد الاجتهاد والتجديد فيما يعرض من قضايا، فهو يقول على الأخص:

"المتبوعون من الناس على قسمين: قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل، لا بأن يقلدوه، وقسم مهلك لنفسه، ومهلك لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان، وإذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم، وإن بهيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد، إن أقوال العلماء والمتدينين متضادة متخالفة في الأكثر، واختيار واحد وأتباعه بلا دليل، باطل، لأنه لا ترجيح بدون مرجح، فيكون معارضا بمثله" (9).

وقد وضع عبد القادر بن محي الدين هذه الفكرة موضع التنفيذ وعمل بها، كما تؤكد ذلك مواقفه العديدة، أثناء المقاومة وبعد أن استقر في بلاد الشام. فقد عمل على نشر أفكار الإصلاح الديني والاجتماعي، وسعى لتحقيق النهضة العربية؛ يؤكد ذلك انتسابه إلى الجمعية السياسية السرية التي أسسها جمال الدين الأفغاني، والتي سماها "العروة الوثقى" وهو نفس الاسم الذي أعطاه الأفغاني للصحيفة التي أسسها في باريس بعد ذلك، سنة 1884.

إن المجهود الفكري الذي بذله الأمير عبد القادر يعد من أهم المساهمات الجزائرية في ميدان الدعوة إلى النهضة، ولذلك اعتبره جرجي زيدان أحد القادة الأساسيين الذين بشروا بالنهضة العربية، في كتابه المعروف "بناة النهضة العربية" بل أن جرجي زيدان في كتابه هذا، وضع الأمير عبد القادر على رأس المفكرين البناة، إذ كان أول شخصية يعرض لها.

ولا شك أن دعوته إلى الاجتهاد وإعمال الفكر تستلزم إدانة التفكير الجامد الذي كانت تشيعه تعاليم الزوايا التي سيطرت "على الفكر الإسلامي والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر سيطرة مذهلة" حسب تعبير الأستاذ عمار طالبي.

وإذا اعتبرنا الشيخ صالح بن مهنا (10) أحد الدعاة الذين بذروا الفكر النهضوي والذي اطلع على كتابات الأمير عبد القادر، نجد أن هناك تواصلا في نشر أفكار النهضة والدعوة إلى الاجتهاد وعدم التقيد بحرفية

النص، فالشيخ ابن مهنا توفي عام 1907، أي أنه عاصر العهد الأخير للأمير عبد القادر، وما لبث مشعل الإصلاح النهضوي أن استلمه الشيخ عبد القادر(11) المجاوي وهو من مواليد 1848 بتلمسان.

وقد خصه الشيخ مبارك الميلي باهتمام كبير، في دراسة كتبها لمجلة " المنهل" الحجازية، عام 1938. فصاحب كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" يعتبر المجاوي صاحب مدرسة في التعليم والأدب والفكر، سبقت المدرسة الباديسية.

وفعلا فإن الشيخ عبد القادر المجاوي يعد من المفكرين المستتيرين الذين كان لهم دور في تفتيق الأذهان، إذ كان يدعو إلى إصلاح التعليم وينادي بتعليم المرأة. وقد وجه انتقادًا لاذعًا للتعليم في عهده عندما كتب في " اللمع على نظم البدع" يقول: " التعليم القديم غير نافع في زماننا لنقصانه إذ تعليم القرآن وحده على الكيفية المألوفة عندنا بهذه الأقطار لا يفيد المتعلم ولا أباه، فلا بد من معرفة العلوم النافعة في الدين والدنيا، أما إذا اقتصرنا على أحد العلمين ضاع ما يفتقر ذلك العلم المجهول، ولكن أهل زماننا تركوا العلمين معًا ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم إنه يوجد بعض العلماء ولكن صاروا لقلتهم كالعدم (10).

وقد اهتم الشيخ المجاوي بتعليم المرأة، وتحدث عن ضرورته بوصفه "أساس التربية".

وقد بنى دعوته إلى تعليم المرأة على أساس أن " الأمم الحية إنما حصل لها الرقي بتربية أولادهم وتعليمهم العلوم النافعة والمعرفة المفيدة، فيجب التبصر لمثل هذا، وفي الغالب إن إهمال الأولاد (يأتي) من الأمهات الجاهلات، أو المتعلمات تعلمًا ناقصًا.

وتجدر الإشارة إلى أنه دعا في كتابه المذكور إلى " دراسة علم الأخلاق وعلم النفس".

ويمكن أن يدرج في هذا السياق تأسيس المكتبة الثعالبية التي أسسها قدور بن مراد التركي الرودوسي عام 1896 وأتبعها بتأسيس مطبعة، لم تكن تقتصر على طبع المصاحف القرآنية، بل كانت تطبع عددًا من الكتب المؤلفة في الجزائر، كما كانت تستورد من المشرق كتبا ومجلات لها في الجزائر قراء. وهؤلاء رغم أن عددهم محدود فإن تأثيرهم في محيطهم مؤكد. مثلما هو مؤكد الانتشار التدريجي للكتب السلفية التي تستوردها منذ أواخر القرن التاسع عشر.

من التجهيل إلى الفرنسة

ركز الاستعمار الفرنسي، منذ سنوات الاحتلال الأولى، على محاربة التعليم العربي، كما سبقت الإشارة لذلك. فقد عمد إلى حرمان اللغة العربية من حق الوجود الرسمي، وأعلن ذلك. وكأن ذلك لم يكن كافيا، فقد سلط على الشعب الجزائري مجموعة إجراءات قانونية شملت كل ميادين الحياة، بحيث أصبحت كل الفئات الاجتماعية مضطهدة؛ ذلك أن طبيعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر يجعل منه نظاما قهريا

شاملا. وذلك يعني أن اللغة العربية أصبحت محكومًا عليها بأن تفقد خاصيتها بوصفها أداة تعبر عن آراء الشعب، طالما أن الاستعمار لا يعترف بوجود الشعب الجزائري سواء بوصفه يشكل أمة. لها ماض وتاريخ، أو بوصفه مجتمعًا مغايرًا تعترف الإدارة الاستعمارية بشخصية له متميزة عن فرنسا ومغايرة لها.

أدى هذا الوضع إلى تراجع نسبة المتعلمين الجزائريين باللغة الوطنية رغم أن الثقافة التي ترفدها هذه، كانت متخلفة، ضحلة. لكن الفرنسيين لم يسمحوا بتعليمها، لأنها –على تخلفها – كانت تحمل قيما تغذي روح المقاومة ضد المحتلين وتخدم إمكانيات الصمود المعنوي في وجه الاستعمار.

وقد اعترف غير واحد من الفرنسيين، سواء من بين الذين واكبوا الاحتلال أم الذين كتبوا عن تاريخه بعد ذلك، أن الفرنسيين تسببوا في ازدياد نسبة الأمية بعد الاحتلال. فهذا أحد الموظفين السامين الفرنسيين بالجزائر، يكتب عام 1880 " سمحنا بأن ينزل مستوى التعليم عند الأهالي دون ما كان عليه قبل الاحتلال. نفس الملاحظة يسجلها إيميريت عندما يقول: كان العربي في 1830 يتقن القراءة والكتابة. بعد نصف قرن من الاحتلال أصبح يرزح تحت الجهل(12). بموازاة ذلك راهن الاستعمار على المدرسة الفرنسية.

ومعروف أن الجزائريين ليس فقط لم يعرضوا عن المدرسة الفرنسية في بداية الاحتلال بل قاوموها بمختلف أشكال المقاومة. وهذا ما جعل السلطات الفرنسية تفرضها إجباريا عسى أن تتغلب بذلك على هذا اللون من الصمود الثقافي. ودون أن نتوسع في هذا البحث كثيرا، يكفي – لكي نأخذ صورة عن هذا الصمود – أن نورد شهادتين لاثنين من خريجي المدارس الفرنسية من جهتين مختلفين، الشهادة الأولى أدلى بها معلم جزائري من مدينة صغيرة بالقطاع الوهراني في الغرب الجزائري، زاول الدراسة فيما بين 1916–1919، يقول: " إن رفاقي الذين يترددون على المدرسة القرآنية الذين كنت لا أزال أتصل بهم آنذاك، كانوا غيارى من إمكانية تطوري، فكانوا يتكهنون لي بكل أنواع المصائب، أقلها الارتداد عن الدين قريبا مع ضربات قضيب حديد على باطن الرجلين، مما جعلني أتأسف على عصا المدرسة القرآنية" (13).

أما الشهادة الثانية فقد أدلى بها خريج من منطقة القبائل زاول الدراسة فيما بين 1919–1922، جاء فيها على الخصوص:" كان شقيقي الأكبر هو المسؤول عني وهو الذي أدخلني المدرسة الفرنسية. كان ذلك إجباريا كما تعرفون ... ذهبت في الصباح أرعى الخرفان والجديان في الحقول... عندما رجعت قال شقيقي الأكبر لأمي:" نظفي هذا الصغير حتى أقوده إلى المدرسة". أجابته أمي:" إذهب به كما هو عسى أن يرفضه المعلم". إن ذلك يدلكم على مبلغ حبّ الناس للمدرسة الفرنسية ..." (14).

وقد كان الحليف الأساسي للاستعمار في دفع الجزائريين إلى المدرسة الفرنسية هو الفقر الاقتصادي، فسياسة التفقير التي قضت على ثروات العديد من الأسر الجزائرية جعلت المدرسة الفرنسية هي الباب الأساسي للرزق والعيش.

ولم يُخْف بعض المنظرين الفرنسيين الهدف الحقيقي الذي يرمون إليه من وراء إجبار الجزائريين على دخول المدرسة الفرنسية، فلم يتردد بعضهم في أن يكتب بأن المقصود من ذلك هو إدخال الاضطراب على مجرى أفكارهم وتحطيم أسس المعتقدات التي بها يؤمنون والقضاء على التقاليد والمفاهيم التي بها يتشبثون (15). ومع ذلك فقد كان هذا التعليم يخضع لرقابة شديدة: فخلال مدة طويلة ظل التعليم الثانوي الفرنسي قاصرًا على الأوروبيين، ولم يكن يسمح به للجزائريين إلا بشروط حددها القانون كأن يكونوا منتمين إلى عائلات قدمت خدمات لفرنسا (16).

هنا تجدر الإشارة إلى ظاهرة لم تلق العناية من الباحثين حسبما أعرف، وهي المتمثلة في حرص خريجي المدارس الفرنسية على التصاقهم بمحيطهم. أي أنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية، حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية.

يتخذ هذا التمسك بالشخصية الوطنية مظاهر مختلفة، قد تتمثل في الحرص على ارتداء اللباس العربي، بدل الافرنجي، حتى داخل المدرسة الفرنسية، رغم ما يتعرضون له من ضغوط. وأذكر أني درست على أحد هؤلاء كان داخل القسم الفرنسي يرتدي " الغندورة" و " البرنوس" و " الشاش".

وقد يتخذ ذلك التمسك طابعًا فكريًا وموقفًا سياسيا أحيانًا، مثل تأييد الحركة الإصلاحية الدينية والتعاطف معها، أو تأييد حزب سياسي وطني.

ليس هناك شك في أن هذه الظاهرة لم تخف على الفرنسيين، وخاصة منهم المنظرون الذين تتمثل مهمتهم في ضبط مشاريع تفرنس الجزائر، وتجعل منها أرضا فرنسية إلى الأبد.

وفعلا فقليل هم الجزائريون الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية وانسلخوا عن شعبهم؛ وأقل من القليل منهم من انسلخ عن محيطه وتنكر لبيئته وتمرد على تاريخه. بل ليس من المستبعد أن يكون هناك من أولئك المنظرين من توجس خيفة من المتعلمين الجزائريين الذين أتقنوا الفرنسية، أن يفكروا في توظيفها لفائدة شعبهم.

من الفرنسة إلى التمسيح

ذلك ما قد يفسر الاتجاه إلى مسعى التمسيح والتنصير لقطع الطريق على المسعى الجزائري المحتمل لتحويل التعليم الفرنسي عن أهدافه وتوظيفه في خدمة أهداف جزائرية. بعبارة أخرى كان من رأي بعض

المنظرين الاستعماريين أن خطة الفرنسة لن يكتب لها النجاح، إن هي لم تكن مسنودة بخطة تهدف إلى تجريد الجزائريين من إسلامهم.

في هذا السياق ظهر مسعى ذو طابع ثقافي، يحاول أن يكون أكاديمي المظهر. وهو يتلخص في التأكيد على أن شمال افريقيا كان، قبل ظهور الإسلام، روماني الروح لاتيني الثقافة، وعلى هذا الأساس فلا بد من السعي لتحقيق "إنبعاث إفريقية اللاتينية". وفي هذا الإطار ظهرت مجلة عنوانها "إفريقية اللاتينية" كانت تصدر بالجزائر تركز على "الهوية الغربية واللاتينية المسيحية للعالم البربري"(17).

والفكرة نفسها تقريبًا ظهرت في بعض الأوساط المسيحية بالمغرب. وقد كان منشأها في مقر النائب الرسولي بالرباط الذي استخلصت حاشيته من تمسك سكان الجبال في المغرب بالتقاليد البربرية، إن إسلام هؤلاء ليس إسلامًا متينًا، وانه بناء على ذلك يمكن بسهولة أن يتم تحويلهم إلى مسيحيين، خصوصا أن بساطة أخلاقهم تقربهم من الديانة المسيحية، كما جاء في كتاب الأب أوزد كولير الذي يحمل العنوان التالي: " بحث في فكر البربري المغربي"(18) وقد كانت هذه الفكرة موضوع كتابات في نشرة " المغرب الكاثوليكي" لسان النيابة الرسولية. وقد كان من المفروض في الجمهورية الفرنسية الثالثة المعروفة بفكرها اللائيكي المتشدد أن تعارض في مثل هذا المسعى. لكن الذين ضبطوا مشروع التمسيح كانوا قد تلقوا الضوء الأخضر من باريس التي باركت المسعى لأنه يحقق هدفين أساسيين: الأول هو أنه يؤدي إلى تعزيز الفرنسة بما يسد الطريق على أية محاولة لتحويلها عن مسارها. الثاني أن السكان البربر عندما يصبحون مسيحيين يكونون أشد معارضة للعرب، حسب تعبير بعضهم (19).

الظهير البربري مدخلا لتفتيت الوحدة الوطنية:

ذلك هو المناخ الذي برزت فيه المسألة التي عرفت في تاريخ المغرب العربي باسم "الظهير البربري". وهو عبارة عن قانون صدر تحت ضغط الإدارة الاستعمارية بالمغرب. ولهذا القانون صلة بعض الشيء مع الإصلاحات التي حاول الأمير عبد الكريم الخطابي إدخالها على الريف خلال ثورته المعروفة. إلا أن الصدور الرسمي لهذا القانون كان بتاريخ 16 مايو 1930، وهو يمنح صلاحيات قضائية وينشئ محاكم تستند في أحكامها لا إلى الشريعة الإسلامية ولكن إلى العادات والتقاليد البربرية، كما ينشئ على الأساس نفسه محاكم استئناف. وتشمل صلاحيات هذه المحاكم الأنشطة المدنية أو التجارية سواء تعلقت بالمنقول أو العقارات وكذلك الأحوال الشخصية ونظام الإرث. أما الجنح فتنص المادة 6 من القانون المذكور على

إن التشريع الفرنسي هو الذي يعتمد " لقمع الجرائم المرتكبة في بلاد البربر " مهما كان شخص مرتكبها (20).

هنا لا بأس من أن نفتح قوسين، نستطرد من خلالهما إلى الحديث عن عبد الكريم الخطابي وثورة الريف، نظرًا للصلة المشار إليها فثورة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي تعتبر تجربة رائدة في تاريخ المغرب الحديث لعدة اعتبارات. فهو أولا درس في جامعة القرويين التي أخذ فيها علوم اللغة والفقه والحديث. وهو، إذْ عمل في سلك الإدارة الاسبانية بمدينة مليلة مدة ثلاث سنوات، تمكن من الاحتكاك بالتفكير الغربي، واطلع من موقعه الإداري ذاك على مجريات الأمور في أروبا.

لا نستطيع أن نفهم طبيعة الحركة والثورة التي قادها عبد الكريم إذا نحن لم نأخذ في الحسبان ثقافته التي غذتها جامعة القرويين، والمنبع الأروبي الذي ساهم في تكوين شخصيته السياسية، وشجعه على تفجير ثورة مسلحة لتحقيق مشروعه الجمهوري، عندما أعلن نظاما جمهوريا في الريف (1921–1926).

وفعلا فقد لقي تعاطفا كبيرا من الحزب الشيوعي الأسباني والحزب الشيوعي الفرنسي.

وإذا كان الأمير عبد الكريم ينتمي إلى قبيلة بربرية كبيرة، فإن ثقافته التقليدية المطعمة بالفكر الأروبي هي التي جعلته يحرص، في نظامه الجمهوري، على العمل بمقتضى الفقه الإسلامي فيما يتصل بالعبادات طبعا، وفيما يتصل بالمعاملات أيضا. ومن المعروف أن القبائل البربرية كانت، في معاملاتها تحتكم إلى العرف؛ والعرف البربري لم يكن يورث البنت، مثلما كان العرف، قبل مجيء الإسلام، يمنع في بعض المناطق العربية من توريث البنت. لذلك قال الشاعر العربي قديما:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا　　　　بنوهن أبناء الرجال الأباعد

أي أن ابن الابن يعتبر ابنا، وابن البنت يعتبر ابن أجنبي عن الأسرة.

وكأن عبد الكريم تكهَّن بأن الاستعمار لن يتردد في تحكيم العرف البربري بدل قانون الأحوال الشخصية الإسلامي، فعمد إلى إلغاء العمل بالعرف البربري، وفرض تطبيق حكم الشرع فيما يتعلق بالميراث.

وكأنه بهذا التشريع، أراد أن يستبق الأحداث، أي كأنه قد تكهن بأن الاستعمار، الفرنسي على الخصوص سوف يطبق العرف البربري بدل أحكام الشريعة الإسلامية. وهو ما حدث بالفعل عام 1930 عندما وقع السلطان على " الظهير البربري" الذي أثار موجة استياء في كامل المغرب العربي، حتى اضطرت السلطات الفرنسية إلى التراجع عنه عام 1934.

ولا شك أن عبد الكريم في مسعاه هذا قد أخذ في الاعتبار عاملين اثنين: الأول هو سيرة عمر بن الخطاب، الذي يعلن عبد الكريم أنه ينتمي إلى سلالته، ولذا اتخذ لقب "الخطابي" ، كما سجل ذلك غير واحد من مترجميه.

والثاني يتمثل في مراعاته للكفاح الذي خاضته المرأة الريفية، جنب الرجل، عندما حملت السلاح لتقاوم الأسبان تحت قيادة عبد الكريم، كما تسجل ذلك الوثائق الأسبانية نفسها، التي تورد أسماء بعض النساء، مثل عائشة بنت أبي زيان التي شاركت في معركة "أنوال" ضد الأسبان التي هزم فيها الجند الأسباني، عام 1921، وفر حتى وصل إلى مليلة، ومثل " مامات الفرخانية" و "عايشة الورغلية" و " حدهم بنت الحسن".

على أن إعلان عبد الكريم لـ " جمهورية الريف"، كان له صدى واسع في جميع أنحاء العالم، وخاصة في القوتين المستعمرتين، فرنسا وأسبانيا. وقد سجل شارل اندري جوليان في تقديمه لمجموعة الوثائق والكلمات والدراسات التي ألقيت خلال الندوة التي نظمت في باريس من 18 إلى 20 جانفي 1973، بعض النتائج التي ترتبت على ذلك، عندما يقول:" إن عبد الكريم كان يهدف، من وراء تنظيم جبهة الريف إلى إقامة حكومة تسعى لتكوين أمة عصرية، تستلهم الإسلام، وتتفتح انفتاحًا واسعًا على عطآت العلوم والتكنولوجيات الغربية" (21).

والذي يهمنا من هذا الاستطراد نقطتان: الأولى هو أن حركة عبد الكريم الخطابي لم تلق التأييد في مناطق المغرب العربي، إلا من طرف عناصر قليلة في فاس والجزائر. الثانية أنها، رغم ثقافة الأمير عبد الكريم التقليدية، كانت منفتحة على العصر إلى أبعد الحدود.

وقد سجل Khenneth Broun في بحث له بعنوان "Resistance et Nationalisme" ، أنه عندما زار الريف وجد أن الأبطال الكبار، في نظر سكان الريف هم: عبد الكريم الخطابي وغاندي وكمال أتاتورك، ومصطفى كامل المصري، وسعد زغلول"(22).

في هذا السياق يجب أن نسجل بأن شعار " حب الوطن من الإيمان" ظهر في الريف، خلال ثورة عبد الكريم، للتأكيد على قوة التلاحم بين العرب والبربر أو بين "مازيغ وقحطان"، حسب التعبير الذي كان مستعملا في جمهورية الريف.

معروف أن ثورة عبد الكريم لقيت صدى واسعًا في الخارج؛ فقد كتبت صحيفة "Times" البريطانية الصادرة بتاريخ 27 ماي 1926 مقالا عن عبد الكريم، قالت فيه أن الأمير عبد الكريم استطاع بإمكانيات قليلة أن يواجه أكبر جيش ظهر في بلاد البربر، منذ العهود القرطاجية"(23).

لكن ثورة الريف لم تلق أي ترحيب أو تعاطف في منطقة المغرب العربي، ما عدا الموقف الذي اتخذه ابن باديس عندما دعم ثورة الريف، في صحيفته " المنتقد"، مما جعل السلطات الفرنسية توقفها عن الصدور، وعناصر قليلة في مدينة فاس.

في هذا السياق ينبغي تسجيل تصريح أدلى به الأمير عبد الكريم لصحافي أروبي، نشرته صحيفة " الشورى" المصرية عام 1926، شرح فيه أسباب هزيمته.

في مقدمة هذه الأسباب يضع " التعصب الديني" الذي وظفته الزوايا والطرق الصوفية. وهو يصف ممارسات هذه بـ " الشرك" بالله. ثم يقول عن هذه الطرق والزوايا إنها حاربته لأنها تعتبر أن دورها يقتصر على الدفاع عن الدين، إذ الدفاع عن الوطن لا يهمهم. لذلك يقول عبد الكريم، سعيت قدر المستطاع لتخليص وطني من نفوذهم الذي يمثل عقبة كبرى في طريق الحرية والاستقلال.

ثم يسجل أنه معجب بالطريق الذي اتبعته تركيا، لأن البلدان الإسلامية لا تستطيع أن تتحرر وتستقل إن هي لم تتخلص قبل ذلك من التعصب الديني، وتقتدي بالشعوب الأروبية.

وفي هذا الحديث يُشير بطل الريف إلى التأييد الذي لقيه في الجزائر من طرف ابن باديس ومن كانوا معه في صحيفة " المنتقد"، مثل مبارك الميلي وأحمد بوشمال، وذلك عندما يقول في هذا التصريح، إن الناس لم يفهموا الإصلاحات التي كنت أريد أن أحققها، لذلك لم يؤيدوني. جماعات قليلة، في فاس وفي الجزائر فهمتني و أيدتني لأنهم كانوا يعرفون ماذا يجري في الخارج.

الإشارة إلى التأييد الذي لقيه الأمير عبد الكريم في الجزائر يستدعي وقفة خاصة يمكن تلخيصها في ملاحظات أربع:

الأولى: تقييم موقف كمال أتاتورك. فابن باديس يلتقي في هذه النقطة مع الأمير عبد الكريم. يكفي للتأكد من ذلك أن نقرأ ما كتبه عام 1938 بمناسبة وفاة مؤسس تركيا الحديثة.

الثانية: تحليل عبد الكريم لأهم عوامل فشله، وهو معارضة الزوايا الطرقية للإصلاحات التي كان يريد إدخالها على الوضع في إطار المشروع الجمهوري.

فعلماء الإصلاح الديني، أدركوا طبيعة هذه العقبة، التعصب الديني، عندما فكروا في تحقيق مشروعهم الثقافي في جزائر العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. كما كانوا يعتبرون تقديس الأولياء والأضرحة شركًا بالله.

الثالثة: دور الريف، في إنجاح أو إحباط أي مشروع ثوري.

فالأمير عبد الكريم، عندما فجر ثورته لم يكن يهدف إلى إقامة نظام بديل عن نظام السلطنة، رغم نعت " الجمهوري" الذي وصف به النظام الذي يريد إقراره في الريف؛ فهو يقصد بذلك إلى توحيد واتحاد القبائل في فديرالية جمهورية لذلك كان في مقدمة الإصلاحات التي أدخلها هي إلغاء حكم العرف فيما يتصل بحرمان البنت من الإرث، كما سبقت الإشارة لذلك، وإقرار حكم الشريعة.

فعلماء الإصلاح الديني ركزوا أيضا على الأرياف، أي على الأغلبية الساحقة من سكان الجزائر وهم الفلاحون.

الرابعة: وهي متصلة بالملاحظة الثالثة، وتتمثل في أن عبد الكريم عندما أقر حكم الشريعة في توريث البنت وألغى حكم العرف، يكون قد حارب القوى المحلية التي تنبذ المركز أو تريد الانفصال عنه.

وعلماء الإصلاح الديني، عندما حاربوا مراكز التعصب الديني في الأرياف الجزائرية، يكونون قد وضعوا لبنات مهمة في طريق صهر وحدة الشعب الجزائري وقدموا في الوقت نفسه مساهمة هامة في تشكيل ضمير جماعي جزائري حديث.

هذه الملاحظات الأربع تستدعي مجموعة ملاحظات أخرى، توضح ما سبق ذكره، وهي ملاحظات يمكن أن نجملها فيما يلي:

1- التداخل بين الريف والمدن كان موجودًا باستمرار في كل العهود؛ لكن الريف هو الذي تظهر فيه أكثر من المدينة، نقاط ضعف الحكم المركزي، خاصة عندما يكون هذا أجنبيا (أسباني في الريف المغربي وفرنسي في الجزائر).

2- درج المؤرخون الاجتماعيون الأجانب على وصف حركة الإصلاح الديني بالجزائر بأنها " سلفية". وهو نفس الوصف الذي أطلقته على نفسها بعض الجماعات الإسلاموية التي تبنت التقتيل والإرهاب في العشرية الأخيرة من القرن المنصرم.

لذلك لابد من توضيح الفرق بين سلفية علماء الإصلاح الديني، أو " الباديسيين" كما كانوا يسمون في مناطق الغرب الجزائري، وسلفية الجماعات الإسلاموية.

سلفية الباديسيين تعني العودة إلى أصول الإسلام كما كان يفهمه ويطبقه السلف زمن الرسول محمد (ص) و زمن دولة الخلفاء الراشدين. وهم يقصدون بذلك تخليص الإسلام من الانحرافات التي طرأت عليه والتعقيدات التي ظهرت في أزمنة لاحقة، نتيجة أفكار وتصورات وفدت مع الشعوب التي اعتنقت الإسلام. أي أنهم كانوا يريدون أن يحاجوا مراكز التعصب الديني بسلوك السلف الصالح، حتى ينجحوا في محاربة الانحرافات التي تكتسي لبوسا دينيا بلغة دينية تأصيلية.

أما سلفية " الإسلامويين" الدينية فهي تختلف، رغم أن الجماعات الإسلاموية اعتمدت هي أيضا على بعض ممارسات " السلف الصالح".

في هذا السياق نضطر إلى الرجوع إلى تاريخ الصحابة لتوضيح أصول السلفية التي أسست للجماعات الإسلاموية.

فالانطباع الموجود عند القارئ العادي عن الفتنة الكبرى التي قتل فيها ثالث الخلفاء الراشدين، أن الذين نفذوا عملية القتل هم عناصر من الغوغاء، جاءت إلى المدينة من مصر والكوفة والبصرة وأن الصحابة قاوموها لكن التيار كان جارفا، لذلك لم ينجح الصحابة في الحيلولة دون مقتل عثمان.

هذه المقولة غير صحيحة. لأن مراجع التاريخ الإسلامي تنص على أن حصار عثمان مدة أربعين يوما كان بقيادة عدد من الصحابة؛ والذين تسلقوا جدار داره ثم قتلوه هم من الصحابة، منعوا أن يدفن في " البقيع" ودفن في " حش كوكب" وهو مكان تابع لبساتين كان الناس يقضون فيه حوائجهم.

كتب التاريخ والسير تكاد تجمع على أن أربعة من الصحابة كان لهم دور فعال في الواقعة وهم: محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، وعمر بن الحمق الخزاعي وعبد الرحمن بن عديس.

لا داعي لتفصيل ما عمله كل واحد من الأربعة، ونقتصر على محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر فالأول هو ابن الصحابي المشهور أبو حذيفة، وأمه سهلة بنت سهيل وهي صحابية أيضا، هاجرت مع زوجها إلى الحبشة.

عندما توفي أبو حذيفة، كفل عثمان بن عفان ابنه محمد، حتى كبر.

عندما استولى معاوية على الخلافة أمر بقتل محمد بن أبي حذيفة ولو كان في جُحر ضب. وفعلا قتل، دون محاكمة، وهو معتصم في أحد الجبال.

أما محمد بن أبي بكر فقد كان من الذين أشرفوا على حصار عثمان؛ وتختلف الروايات بعد ذلك: بعضها يقول إنه ساهم في قتله مباشرة، وبعضها يقول: إن محمد بن أبي بكر الصديق، تعرض لتوبيخ عثمان عندما رآه مع الذين جاءوا لقتله، وقال له: لو رآك أبوك لم يرض هذا المقام؛ آنذاك خرج محمد بن أبي بكر، لكنه أشار بقتل عثمان.

كان محمد ابن أبي بكر واليا على مصر، عندما تولى معاوية، فسار إليه عمرو بن العاص، – وهو صحابي – وقاتله حتى هزمه. عندما انهزم ابن أبي بكر التجأ إلى خربة فأخرج منها وقتل وأُحْرق في جوف حمار ميت.(24)

تلك نوعية من ممارسات بعض الصحابة التي استلهم منها "الإسلاميون" الإرهابيون على أساس أنها ممارسات " السلف الصالح".

فسلفية هؤلاء تختلف عن سلفية رجال الإصلاح الديني، الذين كانوا يأخذون ببساطة الممارسات الصحابية السليمة، في نفس الوقت الذي يعتمدون فيه العقلانية الرشدية.

هناك فرق جوهري آخر بين الفكر الباديسي وتفكير الإسلامويين: يتمثل في الموقف من الوطن. فالباديسيون كانوا يؤمنون بالوطن الجزائري كما يؤكد ذلك شعارهم المعروف: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا. وكذلك شعارهم الآخر: الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء أما الإسلامويون الجزائريون فكانت علاقاتهم مع الخارج الإسلاموي أقوى من علاقتهم بالوطن حضرت في بداية الثمانينيات، ملتقى للفكر الإسلامي انعقد بالعاصمة. كان طلبة المعاهد الدينية هم الجمهور الأساسي. أذكر أن أولئك الطلبة كانوا، من حين لآخر ينشدون نشيدًا نسيت عباراته، لكن فيه مقطعا يقول ما معناه: السند لنا، الأندلس لنا ... ولا كلمة واحدة عن فلسطين.

يتبين مما سبق طبيعة العلاقة بين حركة الإصلاح الديني بقيادة ابن باديس وصحبه، والاتجاه الذي مثله الأمير عبد الكريم الخطابي.

وهو ما يفسر رد فعل الباديسيين ضد " الظهير البربري"، رغم أنه كان خاصا بالمغرب. و لاشك أن الإصلاحيين الجزائريين تصوروا – محقين – أن الظهير البربري في المغرب، سوف يظهر بالجزائر فور تمريره هناك. لذلك شن الباديسيون حملة شعواء ضده، تجاوبت معها الحركة الوطنية في المغرب، مما أجبر السلطات الفرنسية على التراجع عنه بعد ذلك بنحو أربع سنوات.

التيار الجزائري، الوحيد الذي تعاطف مع الظهير البربري هو التيار الذي تمثله عناصر قليلة من النخبة تجنست بالجنسية الفرنسية، كانت لها منابر صحفية محدودة التوزيع مثل " رابطة المواطنين الفرنسيين من أصل مسلم"، ومثل " الاتحاد الكاثوليكي الأهلي ". وقد كانت لهذه الجمعيات منابر صحافية عديدة مثل صحيفة "La voix des Humbles" ومثل "La voix Indigènes" ومثل " Le M Tourni" ، أي المتجنس وهي كلمة بالعربية الدارجة محرفة عن الفرنسية.

ولسنا في حاجة إلى النص على أن هذه الصحف وتلك الجمعيات لم تكن تمثل كل الذين تعلموا بالفرنسية. بل لم تكن تمثل النخبة من تلك الفئة، فضلا عن أن تمثل تيارا من التيارات الشعبية الجزائرية، وكل ما هنالك إنها كانت تعبر عن أفكار بعض عناصر هذه النخبة، وهي أفكار مختلفة قد تكون متطرفة مثل القول بأن "مستقبل فرنسا في الجزائر يمثله البربر". وقد تكتفي بالدعوة إلى المساواة المطلقة مع

الفرنسيين واستفادة كل الجزائريين المتعلمين من "محاسن" الفرنسة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نردد مع علي مراد أن "النظريات البربرية لا تنبثق عن الضمير الجماعي للسكان القبائل. إن الطابع الثقافي الصرف لتلك النظريات يجعلها عمليا نتيجة عناصر جد محدودة من النخبة المتشبعة بالثقافة الفرنسية فقط، والراغبة في أن تندمج إندماجًا كليًا في المغرب. ولهذا لم تكن تلك النظريات، في أي وقت من الأوقات مصدر سوء تفاهم – فضلا عن أن تكون موضوع مصادمات – بين الأفراد المنتمين إلى " العرق" البربري والأفراد المنتمين إلى " العرق " العربي في الجزائر"، لكننا رأينا التعرض لهذا التيار رغم ضعفه، لأننا سوف نسمع بعض نغمات هذا التيار تتردد بعد ذلك بنحو خمسين سنة في الجزائر المستقلة، خلال ما عرف باسم " الربيع البربري في مارس 1980.

في هذا السياق دائما من المهم أن نشير إلى بعض النوعيات المختلفة التي أفرزها التعليم الفرنسي.

فقد عرفت الجزائر فيما بين 1919–1939 أصنافًا مختلفة من المتعلمين يصعب تحديدها بدقة في مقام كهذا، لكن يمكن أن نشير إليها بنوع من التبسيط قد لا يخلو من إجحاف.

1– صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي، و إن بدرجات متفاوتة، لكنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية حرصا على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية. ويتخذ هذا التمسك بالشخصية الوطنية مظاهر مختلفة، قد تتمثل في الحرص على ارتداء اللباس العربي، كما سبق ذكره. وقد يتخذ ذلك التمسك طابعًا فكريًا وموقفًا سياسيًا أحيانًا، مثل تأييد الحركة الإصلاحية الدينية والتعاطف معها، أو تأييد حزب سياسي وطني.

2– صنف الذين خدموا الإدارة الفرنسية بروح " العمالة" ووقعوا في فخاخ الاغراء الاستعماري بمختلف أشكاله، وإن كان بعضهم يتظاهر بالحرص على التقاليد من خلال ممارسات شكلية تهدف إلى ذر الرماد في العيون، كما يقال.

3– صنف الذين راهنوا على " الفرنسة" واقتنعوا بضرورتها وإمكانياتها. ومن هذا الصنف من كان ينتقد الوضعية القائمة من زاوية عدم تعميم الفرنسية على أوسع نطاق ممكن، وعدم تطبيق القانون الفرنسي على الذين رضوا بالفرنسة. ويدخل في هذا الصنف العناصر التي تجنست بالجنسية الفرنسية وتخلت عن الأحوال الشخصية – حسب الفقه الإسلامي – التي كانت تشدهم إلى مجتمعهم. (لأن الأخذ بالجنسية الفرنسية كان يستلزم التخلي عن الأحوال الشخصية).

ولسنا في حاجة إلى النص، كما سبقت إلى ذلك الإشارة، على أن هذا التصنيف إنما هو تبسيط يساعد على متابعة التطورات الثقافية والفكرية، وبالتالي السياسية، التي كيّفت المسار الثقافي للجزائر وصاغت العديد من تناقضاته.

فنحن نجد ضمن الصنف الأول عناصر وطنية لم تكتف بأضعف الأيمان، ولا بالتعاطف مع هذه الحركة أو تلك من الحركات الوطنية، بل اتخذت مواقف معلنة وصريحة ضد الاستعمار، سواء عن طريق مبادرات فردية أو ضمن حركة سياسية. ويكفي للتدليل على ذلك أن نشير إلى شخص مثل السيد العربي رولا، الذي ينتمي إلى الرعيل الأول من معلمي الفرنسية، والذي كان معروفًا بتدينه الشديد ومواقفه الوطنية الحادة. بل لقد حاول أثناء الحرب العالمية الثانية أن ينظم حركة مسلحة تستغل ظروف الحرب. ومن أجل ذلك قام في ذلك الحين بإجراء اتصالات مباشرة مع عدد من الشخصيات السياسية والدينية كما رواه لي هو نفسه كما حاول في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات أن يسعى لتوحيد الحركات الوطنية في حركة واحدة. ونجد من بين هذا الصنف شخصيات فضلت أن تعمل علانية في صفوف الحركة الوطنية، يضيق المقام عن ذكر أسمائها كلها.

كما نجد في الصنف الثالث عناصر، وإن تكن راهنت على الفرنسة، لكنها لم تقطع الاتصال تمامًا بقاعدتها الاجتماعية وظلت متحسسة لتطورها. ونجد أيضا عناصر وإن لم تذهب إلى اتخاذ موقف شديد التطرف ضد شعبها والمناداة بالتفرقة العرقية، كما فعل البعض، لكنها اتخذت موقفًا معارضًا للاتجاه العربي – الإسلامي، وعملت على لفت نظر الإدارة الفرنسية إلى " العواقب الوخيمة" التي تترتب على التعليم العربي الحرّ الذي كان يشرف عليه علماء الحركة الإصلاحية عبر " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين". ونجد بعض هذه العناصر يكتب، في مايو 1938، منددًا بحركة التعليم العربي الحر والإصلاح الديني قائلا: إن العلماء يمارسون دعاية محمومة لفائدة الإسلام ويضخمون تعظيمه بصورة مفرطة لخدمة أغراضهم(25).

رجال الإصلاح الديني:

إن اللوحة التي حاولنا رسمها للوضع الثقافي الذي أفرزته المدرسة الفرنسية، لا تكون مفيدة ولا تساعد على تصوّر صراع المتناقضات قبل نوفمبر 1954، إذا نحن لم نتعرض إلى وضع المثقفين أو المتعلمين بالعربية.

معظم مثقفي العربية، في الفترة نفسها، هم من خريجي المعاهد التقليدية. ونظرًا لتقلص هذه المعاهد في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي فقد كان مثقفو العربية يترددون على معاهد خارجية وبخاصة جامع

الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، وهناك عناصر أكملت تعلميها في الأزهر منذ فترة العشرينات والثلاثينات.

ويمكن أن نُصَنّف هؤلاء إلى قسمين كبيرين: المثقفون الذين نشأوا في ظل الزوايا الطرقية، وظلوا يشتغلون في ظلها، والمثقفون الذين ترددوا على معاهد الزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب والأزهر في مصر. وهناك عناصر _ وإن تكن جدّ محدودة _ ترددت على الدوائر والمراكز الثقافية في الحجاز وفي الشام. (بالنسبة للذين ترددوا على الشام، نقصد الذين ذهبوا هناك للتعلم، وليس الجزائريون الذين هاجروا مع الأمير عبد القادر أو التحقوا به).

وينتمي معظم الذين نادوا بالإصلاح الديني ونشر التعليم العربي الحرّ إلى هذا الصنف الثاني، لكن هناك من بين عناصر الصنف الأول من ناصر التيار الإصلاحي الديني، كما نجد من بين عناصر الصنف الثاني من أيد الاتجاه المحافظ و رفض الإصلاح.

ونظرًا لأهمية الدور الذي لعبه تيار الإصلاح الديني في الأوضاع الثقافية للجزائر ما قبل 1954، يحسن تلخيص الخطوط الأساسية لهذا التيار ولو بشيء من التبسيط والاختصار الشديد.

1- دعاة الإصلاح الديني يربطون ربطًا محكمًا بين مطلب الإصلاح على النهج السلفي واتقان اللغة العربية.(26)

2- ماضي الجزائر الثقافي جزء لا يتجزأ من ماضي المغرب العربي ومن تاريخ البلدان العربية _ الإسلامية. وعلى هذا الأساس فالاستعمار الفرنسي لا يلغي الماضي الثقافي للجزائريين، ولا يدخل تغييرًا على مطامحهم الثقافية الأساسية. ومن هنا فإن الغزو الاستعماري وما تبعه من فرنسة جزئية ما هو إلا حدث عارض(27).

3- الفكرة الوطنية هي مفتاح المذهب الثقافي لدعاة الإصلاح الديني بالجزائر. فهم لا يدعون إلى انبعاث الثقافة الوطنية والاعتراف بالشخصية العربية _ الإسلامية للجزائر فقط، ولكنهم أيضًا كانوا يريدون، من خلال التعليم العربي الحر، تنمية الروح الوطنية لدى الجزائريين.(28)

4- بما إن إقامة المدارس العربية الحرة تعتمد على تمويل الشعب فقط، وتتطلب إشرافا وتسييرًا يتولاه الجزائريون، فإن ذلك يشكل تجربة ثرية. وبذلك يكون رجال الإصلاح الديني بدفعهم للجزائريين في اتجاه إنجازات تخدم المجموعة الجزائرية ، وتكتسي طابعًا وطنيًا سواء في أساسها أو في توجهاتها، قد ساعدوا على إحداث تغيير فكري في أوساط الشعب: فقد حاولوا تغيير الجزائريين من مجرد رعايا غير

مسؤولين، إلى رجال يتخذون القرار ويملكون حس المبادرة، أي أنهم عملوا على إيقاظ الخصال الاجتماعية في الجزائريين، الخصال التي تصنع الرجال الأحرار.

5- من هذه الزاوية يمكن اعتبار التعليم العربي مدرسة لتكوين الحسّ المدني وأداة ثقافة في الوقت نفسه(29).

لذلك أصدرت السلطات الفرنسية قانونا بتاريخ 8مارس يهدف إلى عرقلة تعليم اللغة العربية؛ وبمقتضى القانون المذكور أغلقت أكثر من مدرسة عربية حرة. وقد تضامن النواب المسلمون في النيابة المالية، وهي أعلى هيئة نيابية في الجزائر، تضامنوا مع جمعية العلماء وسعوا لرفع تلك المظلمة المقننة، لكن دون جدوى. دفع ذلك ابن باديس إلى كتابة مقال، عنوانه: ودار لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح.

وجاء فيه على الأخص:

" فمدرسة دار الحديث مازالت مغلقة، ومثلها مدرسة القلعة، والمعلمون في بجاية وغيرها ما زالوا يعاودون بالتغريم ويساقون إلى المحاكمة كمجرمين، وطلبات الرخص ما زالت تقابل بالرفض أو بالسكوت، اللهم إلا نزرا يسيرا جدا بوسائل خاصة لا يدل على تغيير في الحال ولا تبديل"(عدد الشهاب الصادر بتاريخ 18 أوت 1938). وبمقتضى هذا القانون خنقت عدة جمعيات ثقافية. ولا شك أن تشديد الخناق على التعليم العربي، كان يهدف إلى محاربة بعض المكاسب التي حققتها جمعية العلماء في الميدان، وخاصة منها ما يتمثل في مواجهة مساعي الاستعمار الهادفة إلى التفرقة بين العرب و الأمازيغ.

فقد ضمت حركة الإصلاح الديني في هيئتها القيادية عناصر من بني ميزاب ومن منطقة القبائل، ومنطقة الأوراس، تولت كلها قضية الدفاع عن اللغة العربية وتعليمها ونشرها.

في هذا السياق تنبغي الإشارة إلى زيف مقولة ظهرت في هذه الفترة، تزعم أن الباديسيين أرادوا أن يفرضوا اللغة العربية الفصحى، بدل اللهجة المحلية التي كان لها أدبها وشعراؤها في القرن التاسع عشر، وأنهم كانوا مدفوعين لذلك من أجل منافسة لغة المحتل فقط، أي الفرنسية.

إن مفهوم هذه المقولة خطير لأنه يفرز فكرة سوف نجدها تظهر فيما بعد، عام 1980، وهي اعتبار إن اللغة العربية الفصحى تضار اللهجات المحلية والأدب الشعبي. كما إن المقولة نفسها تفرز فكرة جعل اللغة العربية في موقف عداء للغة الفرنسية. في حين أن حركة الإصلاح الديني نفسها كانت قد أصدرت صحفًا تستعمل اللهجة العامية، كما كان لها شعراء الملحون الذي يبشرون بدعوتها عن طريق الشعر

الشعبي باللهجات المحلية. والحركة الاصلاحية نفسها كانت ترى ضرورة الانفتاح على اللغة الفرنسية واستعمالها كقناة توصيل للعصر.

تجدر الإشارة هنا ما كتبه الشيخ مبارك الميلي، عام 1938 في صحيفة " المنهل " التي تصدر بالمدينة المنورة، عندما تعرض إلى مراحل التعليم في العصر الحديث. فهو يذكر مرحلة الشيخ عبد القادر المجاوي، (نسبة إلى مجاوة، من قرى تلمسان) الذي درس في فاس، ثم استقر في قسنطينة، ثم العاصمة. وفي إحدى زياراته لقسنطينة توفي بها ودفن بمقبرتها.

يتعرض مبارك الميلي في حديثه عن هذه المرحلة إلى مدارس قسنطينة وتلمسان والجزائر التابعة لنظام التعليم الفرنسي. يقول في تقييم هذا التعليم ما يلي:

"... مع كونه نظاميا ليس فيه تجديد من ناحيته العربية، فكتبه قديمة، وطريقته قديمة. نعم تُعَلَّم الفرنسية في المدارس الثلاث إلى جانب العربية، فاستفاد التلاميذ من ناحيتها شيئا من حرية الفكر، ومقدارًا من الشعور، ونصيبا من تقدير الحياة" (30).

وتجدر الإشارة إلى أن البرامج التعليمية التي وضعتها جمعية العلماء لمدارسها الحرة، تنص على تعلم الفرنسية. لكن ضعف مواردها المالية حال دون تحقيق الجزء المتعلق بتعليم الفرنسية في تلك البرامج.

على أن جمعية العلماء رفضت عام 1940 عرضا تقدمت به الإدارة الفرنسية لتمويل تعليم الفرنسية في مدارس جمعية العلماء وتفصيل القصة التي وقعت عام 1940، أنه عندما توفي الشيخ عبد الحميد ابن باديس في أفريل من تلك السنة، وجه الوالي العام الفرنسي سكرتير عام الولاية ليحضر مراسم الجنازة بقسنطينة ويجتمع في نفس الوقت بأعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء الذين كانوا موجودين خارج المنفى.

كان المرحوم أحمد بوشمال هو الواسطة التي طلب منها الفرنسيون تيسير اللقاء. قبل الاجتماع طلب أحمد بوشمال من الأعضاء الموجودين أن يتولى شخص واحد الحديث باسمهم جميعا، واقترح عليهم أن يكون المتحدث باسمهم هو الشيخ مبارك الميلي. إذ أن نائب الرئيس وهو الشيخ محمد البشير الابراهيمي كان في المنفى بأفلو، وكذلك الشيخ محمد خير الدين الذي فرضت عليه الإقامة الجبرية في مجانة قبلوا اقتراحه.

أثار ممثل الولاية العامة عدة قضايا معهم أسوقها دون ترتيب. ويبدو أن ما كان يهم الولاية العامة بالدرجة الأولى هو إقناع الحاضرين من أعضاء الجمعية بأن يسندوا رآسة جمعية العلماء إلى الشيخ

الطيب العقبي، الذي حضر هو الآخر لقسنطينة بمناسبة جنازة الشيخ عبد الحميد. علما بأن الشيخ العقبي كان قد خرج من جمعية العلماء قبل ذلك، بسبب خلافه مع ابن باديس حول إعلان الولاء لفرنسا. ذلك أن الولاية العامة الفرنسية كانت قد طلبت من كل الهيآت الجزائرية، دينية أو غير دينية أن تعبر عن ولائها لباريس، عشية قيام الحرب العالمية الثانية. فقد كان يهم فرنسا أن تبدو أمام الألمان في صورة من تدعمها الشعوب التي تستعمرها، حتى لا تطمع برلين في تثوير تلك الشعوب ضد النظام الفرنسي عندما تنشب الحرب.

تجدر الإشارة هنا إلى أن سعي السلطات الفرنسية لتعبئة الجزائريين وراءها بمجرد ما ظهرت نذر الحرب القادمة، لم يقتصر على الهيآت والشخصيات السياسية المعروفة وطنيا، بل شمل كل أعيان المدن و البلدات الداخلية بما فيها تلك التي تقع في أعماق الريف.

وقد سمعت وأنا طفل حكاية كان يحلو لزوج خالتي، الذي كان قاضيا بخنشلة، أن يرويها لنا. وتتلخص في أن الإدارة الفرنسية وجهت في إطار تلك المساعي لحشد التأييد، مسؤولا فرنسيا لمدينة تبسة التي تعتبر من أهم المدن التي توجد بها قبيلة النمامشة المعروفة بشدة شكيمتها وفروسية رجالها. نزل المبعوث الفرنسي ضيفا عند شخصية معروفة من أعيان البلدة، كان الفرنسيون قد عينوه "قايد" نظرا لما يتمتع به في المنطقة من نفوذ وهيبة.

بسط المبعوث الفرنسي الغرض من قدومه، وحدثهم عن أخطار الحرب القادمة، وضرورة التعبئة وراء فرنسا والدفاع عن رايتها ضد الألمان.

لم يجبه القايد صراحة، واكتفى باستعمال التورية على طريقة الناس آنذاك عندما يخافون أن يجاهروا برأي سياسي يغضب السلطات. قال له: أحكي لك حكاية وقعت من مدة قريبة، شخص غني معروف كانت له زوجتان؛ كان يفضل الثانية على الأولى، لأنها أصغر سنا. وكان يعرب عن حبه لها بهدايا مختلفة. وكان من مظاهر حبه أنه كان يأتي لها من حين لآخر برأس خروف مشوي أو "مصلى" كما يقال، من قسنطينة المعروفة بطريقتها الخاصة في طهي رؤوس الخراف، ولم يكن يفعل نفس الشيء مع زوجته الأولى.

عندما توفي الرجل، لاحظت النساء المعزيات أن زوجته الأولى لم تكن تبكي عليه أو تندبه، فقلن لها لماذا لا تبكين زوجك ؟ أجابتهم بأن صاحبة " الدماغ" هي الأوْلى بأن تبْكيَهُ، ولم يخف على المبعوث الفرنسي أن مغزى الحكاية هو أن فرنسا كانت تحكم صنفين من السكان: أروبي وجزائري؛ وأنها كانت

تميز الأروبيين وتخصهم بامتيازات تمنعها على الجزائريين. فماذا يدفع هؤلاء الذين كانوا مضطهدين لأن يدافعوا عن فرنسا عندما تندلع الحرب.

بعد هذا نعود إلى اجتماع السكرتير العام للولاية العامة الفرنسية بأعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء.

كان ابن باديس و صحبه قد رفضوا إعلان الولاء، في حين خرج الطيب العقبي عن الإجماع و وجه برقية يعبر فيها عن ولائه لفرنسا. خرج من الجمعية عندما وجد أن مؤتمرها لم يسايره، كما كان يتصور.

لما طلب المسؤول الفرنسي أن ينتخبوا الشيخ الطيب العقبي خلفا لابن باديس، أجابه مبارك الميلي بأنهم لا يستطيعون ذلك لأن العقبي لم يعد عضوا في المجلس الإداري حتى ينتخبوه. الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن تسمحوا بانعقاد المؤتمر العام للجمعية بعد أن تكونوا قد سرحتم من المنفى الشيخ البشير. فالمؤتمر هو الذي ينتخب الرئيس. رد عليه مبعوث الولاية العامة بأن ذلك غير ممكن. فأجابه مبارك الميلي بأننا في هذه الحالة نضطر إلى تعيين الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسا، بوصفه كان نائب الرئيس في حياة ابن باديس.

بعد ذلك كان نقاش طويل يمكن تلخيصه فيما يلي:

_ سكرتير عام الولاية: _ أنتم تؤيدون ابن باديس ومبادئه ؟

_ نعم

_ حتى عندما يؤكد ابن باديس: إن الجزائر ليست هي فرنسا ولن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا حتى و لو أرادت.

_ نعم.

_ إذن فأنتم أعداء فرنسا.

_ كلا لسنا أعداء لها.

_ لماذا لا تؤيدونها في محنتها إذن؟

_ تأييد فرنسا يقتضي أن نكون طرفا معترفا به من طرف السلطات، بكل ما يستلزمه ذلك، أي أن تسلموا بأن الجزائر ليست هي فرنسا. لأن ما يقصد إليه ابن باديس أننا نحن نحن، وأنتم أنتم. فلا نستطيع أن نكون نحن أنتم.

_ لكن لماذا لا تفتون، بوصفكم علماء دين، بأن من يموت في هذه الحرب يعتبر شهيدًا.

_ لا نستطيع ذلك، لأن هذه حرب سياسية وليست دينية. فانظروا عالما في السياسة مثل الدكتور ابن جلول ليصدر مثل هذه الفتوى.

_ إذا لم تكونوا أعداء لفرنسا فلماذا لا تعلمون اللغة الفرنسية في مدارسكم ؟

_ برامجنا تنص على تعليم الفرنسية؛ لكن إمكانياتنا المالية محدودة، لذلك نسخرها للغة العربية.

_ السلطات الفرنسية مستعدة لتزويدكم بمعلمي الفرنسية.

_ نقبل ذلك بشرطين: الأول أن لا يكون هناك تمييز في المرتبات، والثاني أن نتولى نحن وضع البرامج والتوقيت.

وهكذا فشل مسعى الولاية العامة.

ومن الجدير بالتذكير أن جمعية العلماء عندما أنشأت معهد عبد الحميد بن باديس إثر الحرب العالمية الثانية، خصصت فيه قسما لتدريس اللغة الفرنسية، كان يشرف عليه المرحوم العربي رولا الذي سبقت الإشارة إليه.

وقبل أن ننتقل إلى فقرة أخرى، لابد من تسجيل حقيقة قد يغفل عنها كثيرون؛ فإذا كان مثقفو العربية هم الذين شكلوا قاعدة الحركة الإصلاحية وهم الذين سعوا إلى تعليم العربية بوسائلهم الخاصة، فذلك لا يعني أن كل المعربين يشكلون تيارًا وحدانيا لا وجود فيه لمن يمثل تيارات أخرى أو يعبر عن مواقف مغايرة سياسيا. فنحن نجد من بين مثقفي العربية، عناصر تعاونت مع الإدارة الاستعمارية، كما نجد فيهم من سعى إلى تنظيم عمل مسلح خلال الحرب العالمية الثانية، مثل المرحوم صالح بوذراع أحد تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس. كما إن هناك من رجال الإصلاح الديني من عمل في صفوف حزب الشعب الجزائري مثل الشيخ بلقاسم البيضاوي والشيخ محمد بلعابد الجيلاني رحمهما الله وهذا الأخير كان من الذين حملوا السلاح في أول نوفمبر 1954، وألقى عليه القبض بعد ذلك بقليل في منطقة الخروب. وهذا يعني إن التقسيم الذي عمدنا إليه لا يهدف إلى إيجاد فرز على أساس لغوي، ولكنه يهدف فقط إلى تيسير تصوّر الوضع الثقافي قبل 1954.

وقد كانت السلطات الفرنسية تعرف ما يترتب على عمل جمعية العلماء من نتائج سياسية تضر بمشروعها، لذلك كانت تعتبرها أخطر الحركات.

تؤكد ذلك شهادة كتبها أحد مناضلي حزب الشعب هو "محمود عبدون"، الذي دَوَّنَ شهادته في كتيب بعنوان " شهادة مناضل في الحركة الوطنية؛ وهو من مواليد مدينة " دللس" (عام 1913). التحق بصفوف حركة نجم شمال افريقيا وكان مسؤولا عن مالية أحد فروعها. ثم صار عضوا في حزب الشعب

وحركة الانتصار. وعندما قامت ثورة التحرير كلفته جبهة التحرير الوطني بجمع الأموال وبالتنظيم وأسندت إليه مهام تنظيمية بالعاصمة، فيما بين (57_1956) وقد ألقي عليه القبض عدة مرات.

عندما قامت الحرب العالمية الثانية، استدعي للخدمة العسكرية، في الفيلق الذي كان يتولى قيادته الجنرال دي غوازلار.

و لنترك له الكلمة؛ يقول:

" ذهبنا إلى قفصة في الجنوب التونسي. تخاصمت مع الكابتان خلال هذه الفترة التي صادفت رمضان. جاء فرحًا يبشرنا بأن مفتي الديار التونسية أفتى لنا بالإفطار. رفضت العمل بالفتوى، قائلا بأنه لا يوجد في الديانة الإسلامية ممثل لله في الأرض يملي علينا سلوكنا اتخذ زملائي في كتيبة القطار نفس الموقف. وبعد أن صمنا أربعة أيام دون سحور، انتصرنا وقرر الكومندان رفع العمل بالفتوى.

انتقلنا بعد ذلك إلى عين تونين، جنوب قابس، قرب مدنين حيث يوجد خط مارث المحصن على الحدود التونسية _ الليبية. كان المناخ رحيما وكنا نقيم في كازمات، بينما كانت مكاتبنا في فندق.

في الجيش عرفت كيف ينظر الفرنسيون إلى بعض الشخصيات الجزائرية. قررت ذات يوم، وقد كلفت بحراسة المكاتب أن أفتش الوثائق في مكتب الضابط المسؤول عن الإمداد. كم كانت دهشتي عندما وجدت أن الفرنسيين وضعوا ابن باديس على رأس قائمة الوطنيين الخطرين، ويأتي بعده مصالي الحاج وحزب الشعب. بالعكس من ذلك، يعتبرون العقبي صديقا كبيرًا لفرنسا وجدت في تلك الوثائق أن الجنرال كاترو قائد القوات الفرنسية في الشرق الأوسط ينص على أن العقبي اشتغل مع الفرق الفرنسية في الحجاز لتثوير عرب الحجاز ضد الأتراك، وأنه لم يوجد أي سوء تفاهم بينه وبين القيادة الفرنسية. فعلى الفرنسيين أن يساعدوه ويدعموه حيثما وجد" (31).

متغيرات إيجابية

إن هذه اللوحة عن الوضع الثقافي فيما بين الحربين العالميتين والتي تمتد مع بعض المتغيرات إلى ما قبل نوفمبر 1954، لا تخلو من عناصر تعقيد لعبت هي الأخرى دورًا ما في تشكيل الخريطة الثقافية.

فتيار الإصلاح الديني الذي اضطلع بنشر التعليم العربي عبر مدارس عصرية تحاول تقليد المدرسة الفرنسية في الشكل، على الأقل، يكتسي أهميته الأساسية من إن عمله يعيد النظر في التحكم الثقافي الإستعماري. أي إن نجاحه وتأثيره يتمثلان أساسًا ويظهران في المجال السياسي. وبعبارة أدق إن التعليم العربي الحرّ قد أدى إلى إحباط المشروع السياسي الذي كان كامنًا وراء نشر التعليم الفرنسي، وإلى تحييد انعكاساته السلبية السياسية والاجتماعية. ونظرًا إلى إن التعليم العربي الحرّ كان قاصرًا على المرحلة

الابتدائية والمتوسطة، فلم يكن باستطاعته أن ينافس التعليم الفرنسي من ناحية التكوين العلمي والفني، ولا أن يقدم التحدي المطلوب في هذا المجال، خلال تلك المرحلة التي سبقت نوفمبر 1954.

وقد كان ممثلو هذا التيار واعين بهذه الحقيقة، ولذلك دعوا منذ الثلاثينات إلى إعتماد اللغة الفرنسية لرفع تحدي العصر، في الوقت نفسه الذي تعتمد فيه اللغة العربية بوصفها الوسيلة الرئيسية للمحافظة على مقومات الشخصية الوطنية وانتماءاتها الحضارية. إن هذا التداخل بين آثار التعليمين ونتائجهما في المجالات السياسية والاجتماعية هو الذي يفسر بعض المتغيرات التي شوهدت في الساحة الجزائرية، وبصورة خاصة في ضوء أحداث مايو 1945 ثم في ضوء ثورة نوفمبر 1954.

فالعناصر المثقفة بالفرنسية التي اقتنعت بالفرنسة كحل سياسي للمشكل الجزائري قد تعرضت لهزة كبيرة بعد قيام الحرب العالمية الثانية وبعد أحداث ماي 1945. ونحن نجد من بين هؤلاء عناصر تأثرت بالتيار الراديكالي في الحركة الوطنية، سواء أكان ممثلا في شكله السياسي بحزب الشعب، أم في شكله الثقافي والديني بجمعية العلماء. فبعدما كان المتفرنس المسيس مقتنعًا بأنه فرنسي روحًا وأنه لم يجد أثرًا للوطن الجزائري، أصبح يتساءل من هو بعدما انتهى إلى القناعة بأنه غير فرنسي. كما إن نموذج المتجنس الذي لم يكن يشتغل بالسياسة إلا عرضًا، قد تأثر بعض عناصره بقيام الثورة المسلحة التي هزتها هزًا عميقًا بعدما كان يتصور إن وضعه محسوم وإن فرنسيته لا غبار عليها، كما حدث لجان عمروش الذي قال في محاضرة ألقاها يوم 5 ديسمبر 1955 بالمعهد الفلسفي في باريس تناول فيها وضعية الجزائريين المندمجين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية لتكون نهاية مرحلة قديمة وبداية حياة جديدة:

" ... إن الفرنسي من أصل أهلي، يجد نفسه موزعًا بين مطلب مزدوج الوفاء، أي مزدوج الخيانة فكونه أخًا للمتمردين يشاركهم محنتهم بعمق، ويشاطرهم مشاعرهم، يعتبر معهم، وهو بوصفه فرنسيًا مطالب بأن يتحمل بصورة كاملة تضامنه مع فرنسا"(32)

وتجدر الإشارة إلى أن الخلاف السياسي الذي احتد بين جمعية العلماء وحزب الانتصار للحريات الديموقراطية، بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن كل نتائجه سلبية، وخاصة بالنسبة للتعليم.

فقد كان التنافس بين الحركتين قويا في إنشاء مدارس التعليم العربي، فاستفادت اللغة العربية من ذلك وكسبت مزيدًا من الانتشار. علما بأن برنامج حزب الشعب كان ينص على ضرورة جعل اللغة العربية لغة رسمية منذ الثلاثينيات.

عودة إلى عام 1930

بمناسبة مرور قرن على الاحتلال، نظمت في الجزائر احتفالات ضخمة، مُثلَت خلالها مسرحيات تشيد بـ " جان دارك" والقديس "لويس"، كما أعيد إلى الأذهان صور الاحتلال وكيفية دخول الجند الفرنسي من ميناء " سيدي فرج".

أراد الفرنسيون من خلال ذلك تكريس " الجزائر الفرنسية" إلى أبد الآبدين.

لكن الصدمة التي أحدثتها لدى الشعب الجزائري، أدت إلى بروز حركتين وطنيتين: جمعية العلماء التي أعلن عن تأسيسها الرسمي في ماي 1931، وظهور حزب P.N.R (الحزب الوطني الثوري) الذي أعلن عن تأسيسه في ماي 1933.

إلا أن العناصر التي أسست هذا الحزب لم تكن ذات مشرب سياسي واحد: بعضهم كان يريده أن يكون فرعًا عن حركة نجم شمال افريقيا بزعامة مصالي الحاج، وبعضهم الآخر كان يريده حزبا شيوعيا.

قبيل الإعلان عن تأسيس هذا الحزب، صدر قرار فرنسي يضع تحت التصرف المباشر لوالي العاصمة مساجد مدينة الجزائر، حتى يمكنه منع رجال جمعية العلماء من استعمال مساجد العاصمة لمواعظهم الدينية الإصلاحية.

فور صدور ذلك القرار تحركت جماهير العاصمة، انطلاقا من حي القصبة أساسًا، كي تحتج على هذه المظلمة الجديدة – القديمة. يمكن اعتبار هذه المظاهرة إيذانا بأن المناخ أصبح مهيأ لتحريك الجماهير في إطار تعبئة سياسية ضخمة تحرر الشعب من إطار مطالب متواضعة لنخبة محدودة.

وهذا ما دفع أحد مؤسسي الحزب الوطني الثوري، إلى أن يدفع به في اتجاه نجم شمال افريقيا حتى يصير بمثابة فرع له في الجزائر. وفعلا فقد توجه أحد مؤسسي الحزب الوطني الثوري، إلى باريس حيث التقى مصالي الحاج وأخبره أن فرعا لحزب نجم شمال افريقيا قد تأسس وسلم له الاشتراكات وأسماء المنخرطين. في هذا الظرف أصدر الأمين العمودي، الأمين العام لجمعية العلماء، صحيفة بالفرنسية " La Defence" (الدفاع) وكان يمولها بعض أثرياء العاصمة في طليعتهم المرحوم عباس التركي الذي كان يتولى تمويل نادي الترقي ويدعم جمعية العلماء. وما لبث فرحات عباس، عضو حركة النواب عن القطاع القسنطيني أن أصبح من كتاب هذه الصحيفة.

وإذا كان الأمين العمودي عضوا في جمعية العلماء، فإنه كان يهدف من خلال صحيفته تلك إلى أن تصبح لسان حزب سياسي إسلامي مثل الذي كان الأمير خالد يحلم بتأسيسه قبل ذلك بنحو عشر

سنوات. وقد أعطى لمشروعه اسم " الاتحاد الشعبي" الذي جعل شعاره هلالا ذهبيا فوق طغراء بالألوان الفرنسية الثلاث.

وانطلاقا من نادي الترقي، تشكل نادي الاصلاح في بلكور (ديسمبر 1934) وظهرت عدة جمعيات خيرية وتعليمية وتربوية ورياضية، مثل الجمعية الخيرية، وجمعية الشبيبة (التي كان يديرها الشاعر محمد العيد آل خليفة) وجمعية السعادة وجمعية التقوى، وجمعية الحياة والاتحاد الإسلامي الرياضي الجزائري U.S.M.A والجمعية المطربية (موسيقية) وجمعية الهلال التمثيلية الخ..

وكان بعض ممولي هذه الجمعيات والحركات، مثل عباس التركي، يفكرون في انشاء بنك إسلامي خاص. فنحن إذن أمام وحدات عديدة تقود أنشطة مختلفة، تعبر عن طموحات متقاربة، تهدف إلى التعبير عن حضور جزائري متميز عن الأروبيين في جميع المجالات: سياسية ودينية وتربوية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

في نفس الفترة، شكل محمد نافع وهو عامل، وعمار اوزغان سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري والحاج عمارة وهو مناضل قديم عاد وشيكا من الحج، نقابة تضم عمال الميناء، ما لبثت أن أصبحت قوة لا يستهان بها في ساحة العاصمة.

أصبح المناخ جاهزًا لظهور حزب سياسي جماهيري واسع، أريد له أن يحمل اسم "المؤتمر الإسلامي الجزائري ". طرح هذا المؤتمر، مطالبه الأساسية التي حوصلها عبد الحميد ابن باديس وهي:

– اعتبار اللغة العربية لغة رسمية، مثل الفرنسية، تكتب بها جميع المناشير الرسمية.

– تسلم المساجد للجزائريين المسلمين، مع تخصيص جزء من ميزانية الجزائر، يتناسب مع الأوقاف المخصصة للتعليم وتسيير المساجد.

– تتولى أمر المساجد جمعيات دينية تؤسس وفقا لقانون فصل الدين عن الدولة.

– تأسيس كلية لعلوم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة ومدرسين ومؤذنين وقيمين الخ.

– تنظيم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها سابقا.

وخلاصة القول إن مقاومة الاستعمار اكتست أيضا طابعا فكريا ثقافيا كان له أبرز الأثر في التهيئة للثورة المسلحة. وإذا كان الإعداد السياسي للثورة معروفا وتحدث عنه الكتاب كثيرًا، فإن دور الصمود

الثقافي لم يلق نفس العناية. في حين أن الحرص على التمسك بالثوابت الجزائرية، كان له دور فعال، سجله غير واحد من الملاحظين الأجانب.

يقول روني دوليل في مجال تسجيل دور تلك الخصوصية، بعد أن يؤكد على أن "التحرير الوطني للجزائر لا يمكن أن يكون منفصلا عن النهضة الثقافية العربية وإعادة الاعتبار للإسلام"، وبعد أن يتحدث عن دور حركة الاصلاح الديني بالجزائر الذي اضطلعت به جمعية العلماء، يقول ما يلي:

"إن عمل جمعية العلماء كان له مدى تاريخي واسع في تلك السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، نظرًا لما أفضت إليه من تكوين آلاف الشبان الذين أصبحوا الإطارات المتوسطة والهيكل الأساسي للحركة الوطنية. إننا نستطيع أن نكتب دون خطأ بأن الجزائر المستقلة، بوصفها مجموعة وطنية عربية إسلامية، تعتبر من بعض الوجوه، من عمل هؤلاء العلماء الذين ما فتئوا، منذ ثلاثين سنة، يعملون ويؤكدون، رغم المضايقات البوليسية والمصاعب الادارية، إن الجزائر أمة عربية إسلامية. إن كل الجزائر مضمنة في هذا التعليم الذي يعتبر الكفاح المسلح هو نهايته القصوى"(33).

ومهما يكن من شيء فالذي لا يشكك فيه عاقل أن الصمود الثقافي كان قد أدى دورًا أساسيا في مقاومة الاستعمار والتهيئة النفسية للثورة. لكن الصمود الثقافي لم يلق العناية اللازمة لأسباب يطول شرحها، تتطلب مبحثًا خاصا؛ علما بأن النقاش حول موضوع كهذا سيظل مفتوحًا، طالما بقي على قيد الحياة بعض من أشعلوا فتيل حرب التحرير.

وجدير بالتسجيل أن هذا الصمود الثقافي كان شاملا.. فحتى اللاتي يشتغلن مومسات في دور الدعارة يختلفن في سلوكهن مع الزبائن عن المومسات الأروبيات.

يصف أحد الفرنسيين دور الدعارة في حي القصبة، عام 1933 مؤكدا أن عدد ممارسات أقدم مهنة في الدنيا كان يتراوح بين 500 و 600، معظمهن من المسلمات، وجاء في وصف هؤلاء:

"لم يكن يمزحن مع الزبائن، ولا يسمحن بممارسات تخرج عن المألوف. وكن يصمن رمضان".

حدث ذات يوم تقدمت مشرفة على واحدة من دور الدعارة بمدينة قسنطينة، إلى سكرتير عام معهد ابن باديس، بمبلغ معتبر مساهمة في جمع التبرعات لبناء دار الطلبة التابعة للمعهد. كان أمين عام المعهد هو المرحوم أحمد رضا حوحو الذي كان وشيك العودة من دار الغربة في المدينة. فلم يكن يعرف تلك السيدة التي كانت معروفة من سكان الحي.

قال لها حوحو بعد استلام المبلغ وإعطائها الوصل: كثر الله أمثالك. ضحك الحاضرون. ولما تعجب، أخبروه. هذه حادثة حقيقية وليست نكتة، نسوقها للتدليل على أن الحس الوطني لا يخبو في ظل أحلك الظروف، وخاصة عند الفآت المحرومة والطبقات الشعبية.

خصوصا و أن تلك الفآت التي تعيش في الأحياء العربية، على اتصال دائم بعمق البلاد، عبر الأقارب الذين يأتون للعاصمة لغرض من الأغراض.

ولهذا كانت الشرارة الموذنة بحدوث تغيير نوعي في شعور الناس وأفكارهم وسلوكهم، تنطلق دائما من الأحياء الشعبية، مثل المظاهرة التي انطلقت من القصبة في فبراير 1933، أو المظاهرة التي انطلقت من أحياء ببلكور في 1960.

فما يجري بالأحياء الشعبية في المدن، ليس إلا رجع صدى لما يدور في الداخل والأطراف والأرياف.

وبعد فإن اللغة تشكل مكونا أساسيا من مكونات الفرد والمجتمعات الإنسانية. وهذا ما دفع Augustin Berque إلى انتقاد Taine قائلا:

" إن Taine الذي يضبط تكوين الإنسان كما تضبط الساعة: عرق، محيط، زمن، قد غفل عن عنصر أشد تأثيرًا من تلك العناصر الثلاث، وهو عنصر اللغة وراثية كانت أو مكتسبة " ويستشهد بما قاله Renan، في هذا الصدد: " إن اللغة بالنسبة لعرق ما هي شكل التفكير ذاته"(33).

بقطع النظر عن الاستنتاج الذي يمكن أن يبني على هذا الطرح، (فكل من بيرك الأب وريتان استخلص من ذلك نقدًا للغة العربية)، فالذي لا يمكن الجدل حوله هو ارتباط صيرورة أي شعب بتاريخه ولغته وآدابه.

من هنا يمثل الدفاع عن اللغة العربية زمن الاستعمار جزء أساسيا من الصمود الثقافي الذي يؤدي إلى تيسير الفعل السياسي وتمكينه من قاعدة انطلاق صلبة.

المراجع

(1) Charles André Julien: Histoire de l'Algérie cantemporaire. Tome 1 P."38. P.U.F Paris 1978.

(2) Michel Harbart: Histoire d'un parjure Ed. Minuit. Paris 1960. P. 55

(3) Alexis de Tocqueville: Seconde lettre sur l’Algérie. Ed: Mille et une nuits. Paris 2003. P.20

(4) نقلا عن شارل روبير آجرون:

Les Algériens musulmans et la France P.U.F Paris 1968. P. 276

(5) محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي. دار الغرب الإسلامي. بيروت 2001. ص55

(6) نفسه: ص 56.

(7) أنظر أ.د عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر السياسي. قراءة في فرادة الريادة والرمز دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران.

(8) إيفون تورين: Affrontements Culturels dans l'Algérie coloniale Maspero, Paris 1971 P110_111

(9) الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل دمشق، بدون تاريخ.ص 6-7.

(10) أ.د عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره. الجزء الأول. دار اليقظة العربية الجزائر ص. 19.

(11) مبارك الميلي. مجلة المنهل. المدينة المنورة عام 1938

(12) مصطفى الأشرف: L’Algérie Nation et Societé Maspero. P/314

(13) Fany Colone: Instituteurs algériens 1883 _1939 Presses de Fondation nationale des Sciences politiques Paris 1975.P.28

(14) نفسه

(15) نفسه ص 148.

(16) نفسه ص 92.

(17) علي مراد: Le Reformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 Ed. Manton. Paris.P.28.

(18) Roger Letourneau: Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane. 1920 _1961 Ed.Colin Paris 1962. P.183.

(19) نفسه.

(20) شارل اندري جوليان: L’Afrique du Nord en marche Nationalismes musulmans et souverainté française. 3ed. Juliard Paris.P.131.

(21) Abdelkrim et la République du Rif Maspero. 1976. P.8

(22) نفسه: ص 477.

(23) نفسه ص 481.

(24) خليل عبد الكريم: شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة. دار سيناء للنشر القاهرة 1997. ص 73

(25) علي مراد: Ouvrage cité P.357

(26) نفسه ص: 334-335.

(27) نفسه ص 335

(28) نفسه ص 336

(29) نفسه ص 337

(30) محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي. دار الغرب الإسلامي، بيروت 2001 ص278.

(31) Temoignage d'un militant Ed Dahlab P.5

(32) Jean Amrouche (et autres) : Normes et Valeurs dans L'Islam cantemporair Payot.Paris 1968.P.175

(33) Augustin Berque: Ecrits sur L’Algérie. Edisud. Paris 1986. P.116

ملاحظات أوّلية حول العربية

من

محنة الكولونيالية إلى هيئتها الاستشارية⊗

د. محمد العربي ولد خليفة

(جامعي)

أشكر في البداية السادة الذين ساهموا في الإعداد لهذا المؤتمر الذي تحتضنه جامعة الدّول العربية، بإشراف أمينها العام معالي السيد عمرو موسى، الذي حرص على جمع نخبة من العلماء والخبراء المختصين في اللسان العربي المبين، والمهتمين بواقع الحال في بلداننا، وما سيكون عليه مستقبل الثقافة العربية في العقود القليلة القادمة من القرن الواحد والعشرين.

ولا يخفى أن توصيف واقع الثقافة واللغة واستشراف المستقبل، لا ينفصل عن الأوضاع العامة للمنطقة، ولكل قطر من أقطارها في الميادين الأخرى، ولا يحتاج الأمر إلى فحص بالأشعة لمعاينة ما نحن عليه في أيامنا هذه، بعد انكفاء حركة التحرر في المنطقة وتعاقب الانكسارات والنكبات ومن فصولها المأساوية ما حل بوادي الرافدين من خراب، استباح حرماته ودمر الكثير من تراثه التّليد، وهو الموطن الذي عرفت فيه العربية وعلومها عصرها الزاهر، فقد شُدّت إليه الرحال، وتخرّج من مجامعه العامرة رجال كانوا حجة في علوم الدين والدنيا، صنعوا حداثة عهدهم وعالمية اللغة والثقافة العربية لعدة قرون، وقد شاهدنا طرفا من ذلك عند زيارة بغداد بدعوة من جامعة المستنصريّة في ربيع 2001 والتحاور مع نخبة من الباحثين في علوم المجتمع والمبدعين في فنون الشعر والنثر.

⊗. ألقى ملخصها في مؤتمر عن واقع ومستقبل اللسان والثقافة العربية بمقر الجامعة العربية– القاهرة، أُثري متنها، ديسمبر 2003.

من البديهي أن يكون مستقبل الأمة وثيق الصلة بمنتوجها الفكري والفني والأدبي الذي تحمله أساسا اللغة –أية لغة– إلى الأجيال، وما تقدّمه هذه الأجيال نفسها من إبداع حضاري يتجاوز حدود الوطن إلى الإنسانية جمعاء.

لا شك أن تنسيق الجهود وتوحيدها ضمن مؤسسات تجمع العلماء العرب، للتشاور وتبادل الخبرة، في ميادين التربية والاتصال والمصطلح والمعجمية والترجمة والعلوم والفنون والآداب، هو من السبل الواعدة بإثراء اللغة العربية، وإعادتها إلى مكانتها المرموقة، باعتبارها لغة علمية وعالمية، تنتج المعرفة والتقانة (التكنولوجيا)، وتزدهر فيها وبها الثقافة الراقية، وهي اليوم كما لا يخفى من الدعائم الأساسية للمكانة والمهابة.

نلاحظ في البداية أن الجامعة العربية تعكس أوضاع بلدان المنطقة، وليست هيئة خارجة عنها، فمهمتها كمؤسسة إقليمية هي جمع المتفرق، وتقريب المتباعد، ونسج شبكة من العلاقات البينية تأخذ بعين الاعتبار مصالح كل الأطراف، وتُحصّن المنطقة –نسبيا– من النزاعات والاختراق الخارجي، لغرض استخدام البعض ضد البعض، بهدف الهيمنة على الجميع، ومن الواضح أن تلك المهمة لم تتحقق طيلة نصف القرن الأخير، لأسباب داخلية وخارجية، لا تسمح هذه المقاربة بتفصيل القول فيها.

ولعل ما يتصدر اهتمامات الجامعة في هذه الآونة، السعي لتجاوز الخلافات، والفرقة المؤدية للضعف والعجز عن الدفاع عن حقوق الأمة المشروعة، وخاصة في فلسطين المستباحة، والسعي لتنقية الأجواء، وتفعيل التكامل الثقافي والاقتصادي بين أقطارنا، حفاظا على مصالحنا المشتركة، في زمن العولمة الجارفة، والتكتلات القاريّة المهيمنة والمتضامنة فيما بينها، ونحن نشهد سنة بعد أخرى تشديد الحواجز، بما يشبه الستار الحديدي، لعزل فقراء جنوب العالم، وهضم حقوقهم المشروعة في النمو والتقدم، واعتبار المنطقة العربية مجرّد خزّان للمحروقات، والمواد الأوّليّة الأخرى، وسوقا للسلع الاستهلاكيّة، وتطلب القوى الكبرى، بل تفرض على مسؤوليها تنازلات ظالمة ومهينة بدون أدنى مقابل.

في إطار أهداف المؤتمر وباقتراح من رئيسه المحترم نخصّص هذه الورقة لعرض موجز لمهام وأهداف المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر، وعيّنة من برامجه على المدى المتوسط، نقدم ذلك في المحاور الثلاثة التالية:

أولا: لماذا مجلس أعلى للّغة العربية؟

ثانيا: المهام والبرامج والأهداف.

ثالثا: خلاصة

لماذا مجلس أعلى للّغة العربية؟

تتطلب الإجابة عن هذا السؤال إلقاء نظرة خاطفة على الصيرورة التاريخية والمجتمعية الحديثة للجزائر، بعد الاحتلال الاستيطاني الفرنسي سنة 1830:

1. لقد حدث اهتمام بالمقاومة الشعبية الجزائرية (حتى 1930) في أروبا وفي فرنسا بوجه خاص، لأغراض التحكم والتنبؤ والسيطرة، وحدث اهتمام بدرجة أقل من الناحية العلمية في الجزائر، والوطن العربي، ولكن الرأي العام في العالم العربي والإسلامي على علم أكثر بمآثر ثورة التحرير (1954-1962) التي ساندها الأشقاء عربا ومسلمين، حكومات (إلا ما ندر) وشعوبا، تقريبا بالإجماع، وهو ما يذكره أشقاؤكم في الجزائر، دولة وشعبا بوفاء وعرفان.

2. إذا كانت شعوب المنطقة العربية قد اعتبرت انتصار ثورة الجزائر من مفاخر الأمة قاطبة، ومبعث أمل واعتزاز لحركات التحرير الوطني في العالم الثالث خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فإن الكثيرين من غير العلماء المختصين لا يعرفون أن الإبادة المُنظّمة (Ethocide) للمدنيين طوال قرن من الاحتلال، واستشهاد عشر (10/1) الشعب الجزائري خلال الثورة، لها أيضا وجه آخر لا يقل إجراما وبشاعة، هو استئصال الهوية والسلخ (Déculturation) والاحتواء الثقافي القهري (Acculturation) الذي تواصل بلا انقطاع حتى الاستقلال، نذكر هنا نماذج قليلة من إجراءاته وممارساته على النحو التالي:

1.2 بعد احتلال عاصمة الجزائر في الخامس من يوليو (جويلية) 1830 ألحقت الدولة الفرنسيّة المعتدية (22 يوليو 1834) كلّ التراب الوطني بفرنسا، التي أصبحت خريطتها تمتدّ من شاطئ دانكرك في أقصى الشمال الفرنسي إلى تمنراست في أقصى الجنوب الجزائري، وهذه فاجعة لم تحدث لأي بلد عربي، باستثناء فلسطين سنة 1948، أي 114 عاما من بعد (M.Emirit.1954)

2.2 لتبرير هذه الأكذوبة التاريخيّة ادّعت فرنسا:

- أن الجزائر مساحة جغرافية فارغة، ليس فيها مجتمع، ولم يكن لها أبدا دولة.

- أن هدف الغزو هو تمدين الأهالي المتوحّشين.

- إن السكّان الأصليين هم مجموعات فسيفسائية، تنتمي إلى عناصر متناحرة، تلتقي في صفة واحدة هي التعصب الديني.

- إن تلك الأجناس مصابة بالتخلف العقلي الوراثي، وغير قابلة للتمدين (A.Pomel.1871)

3. بالموازاة مع سلسلة من عمليات الإبادة والتهجير، لغرض الاستيلاء على الأرض، ونهب ثروات البلاد، والتوقف المؤقّت للمقاومة التي قادها الأمير عبد القادر (1848)، جنّدت فرنسا جيشا آخر من الخبراء في الشؤون الأهليّة، مصحوبا بآلة القمع العسكرية، لتطبيق برنامج الاستئصال والسلخ الثقافي (Déculturation)على أوسع نطاق، نذكر من بين تلك الممارسات:

1.3 الاستيلاء على معظم المساجد-48- مسجدا في إحصاء "اسماعيل أروبان"-(I.Urban)، وتحويلها إلى كنائس، (من بينها المسجد الأكبر -كيتشاوة- في قلب العاصمة)، أو مخازن ومرابط لخيول جيش الاحتلال، وذلك سنتين فقط بعد الاحتلال، أي سنة 1832 (I.Urbain.1861)

2.3 تشير تقارير الرحالة قبل الاحتلال، والعلماء الذين رافقوا الحملة إلى أن:

1.2.3 نسبة الأميّة في الجزائر سنة 1846 ليست أكثر من فرنسا، يقول ألكسي توكفيل A. Tocquville في تقرير لجنة التحقيق سنة 1847: "إن المدارس كانت منتشرة في أغلب المدن، ولا تخلو قرية في الريف من الكتاتيب، وكلها تقدم تعليما بالمجان، يشمل علوم القرآن والحساب، ومبادئ الهندسة والتاريخ" (A.Tocqueville.1988).

2.2.3 قامت إدارة الاحتلال بمنع استعمال اللغة العربية، واعتبارها لغة أجنبية في عقر دارها، وطبقت ذلك بقوانين جائرة ظهرت فيما يعرف بقانون الأنديجينا (Code de L'indigène)، الذي جعل كل جزائري مشبوها حتى يثبت خضوعه، وهو في بلده ليس بمواطن، وليس بأجنبي، وهذه الممارسة تمثل مزيجا من "الأبرتايد" العنصري، والأحقاد الصليبية الانتقامية.

3.2.3 أغلقت سلطات الاحتلال المدارس الأهلية، ودمّرت الزوايا وشبكة الكتاتيب عبر التراب الوطني، وذلك تطبيقا لوصايا خبراء الاستعمار التي لخصها أحدهم بقوله: "عندما تندثر المدارس القرآنية ولا يبقى منها حتى الغبار، وعندما يعود العرب إلى بداية الإنسان على هذه الأرض، فإنه يمكن تلقين هؤلاء الناس (يعني الجزائريين) بعض الشيء" (I.Rinn.1884).

وأكدها الخبير العسكري اللواء (الجنرال) "هانوتو" بقوله: "إن مسألة العرب قد قُبرت نهائيا، ولم يبق لهم سوى الموت أو الهجرة، أو قبول خدمة أسيادهم الأقوياء، هل يستيقظون قبل أن تُطلق عليهم رصاصة الرحمة؟ أتمنى لهم ذلك!" (Ph.Lucas et J.C Vatin.1975).

3.3 التجهيل والتوحيش (Ensauvagement)، وهو التطبيق العملي للإيديولوجية الاستيطانية التي اعتنقها الغزاة من المستوطنين الأوروبيين، المعروفين باسم "الكولون" والأقدام السوداء.

4.3 بالموازاة مع التجهيل وضع ساسة الاحتلال خطة أخرى، تبنتها القيادة العسكرية، وأيّدها العديد من المفكرين في فرنسا، وتتمثل في فَرْنَسة انتقائية، لتكوين الأعوان والرديف من جهة، واستخدام القهر والإغراء لتمسيح الأهالي واستدراجهم لما عُرف بالتجنيس (Naturalisation) (A.Dupuy.1954) من جهة أخرى.

5.3 لم يكتف الاستعمار الفرنسي بالتجهيل والتوحيش، بل عمل على القضاء على العربية الفصحى، وتشجيع العاميات المتداولة، والإلحاح على التباين الثقافي، ويوجد اليوم ركام من تلك الكتب المدرسية التافهة.

وعملت نفس الشيء بالنسبة للأمازيغية بلهجاتها المتداولة، وركزت بوجه خاص على منطقة القبائل، الموجودة جغرافيا في وسط القسم الشمالي من القطر، والترويج لمزاعم تدّعي أن تلك المنطقة لا تزال تحتفظ بوفاء لروما وبيزنطة، وتكره المسلمين والعرب.

وقد عبر د.بوديشون Dr. Beaudichon عن الهدف من تلك الخطة بقوله: "يَفْصل الحقد بين عنصرين هما: العرب والبربر، وهو أمر ينبغي دعمه وتحويله إلى غريزة، وعلى فرنسا أن تدفع إلى مزيد من التناحر، وأن تستفيد منه" (F.Cambon.1886).

4. صمدت الأغلبية من الجزائريين، وتمسكت بمقوماتها من لغة وعقيدة وتقاليد ثقافية اجتماعية، وتحصّنت حتى بداية القرن العشرين في شبكة الزوايا والكتاتيب القرآنية، ونبذ الشعب القلّة مِمّن استهوتهم إدارة الاحتلال، وأخرجهم من المجموعة الوطنية، ووضعهم في خانة "ألْمتُورِنْ" (Naturalisé)، وهي كلمة تعني عند عامة الناس التحقير والخروج من الملّة.

1.4 بعد أن اخترقت الإدارة الاستعمارية الزوايا وتمكنت من تدجين عدد كبير منها، نشأت التيارات الرئيسية الثلاثة في الجزائر وهي:

1.1.4 الحركة الوطنية، وهي المنادية بالاستقلال، واستعادة الهوية بقطبيها الإسلام واللغة العربية، والحركة الإصلاحية المعروفة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد عملا سياسيا وتربويا لإعادة تنظيم المجتمع، وإيقاظ الضمائر، واستعادة الثقة في الهوية الوطنية، والانتماء العربي الإسلامي للشعب الجزائري.

2.1.4 التيار الاندماجي Assimilationiste: المعروف بجماعة المنتخبين (Les élus)، ويمكن تسميته أيضا بالنخبويين (évolués)، الذي تمكّن أفراده من الحصول على ثقافة فرنسية متوسطة أو عالية، وهو تيار ضعيف من الناحية العددية، تتمثل مطالبه في المساواة مع الأقلّية الفرنسيّة، والتمتّع

بنفس الحقوق السيّاسيّة والاجتماعية، وتميل النخبة في هذا التيار إلى تبنّي النظام الجمهوري على النمط الفرنسي، ولم تتصوّر شريحة منه مستقبلا آخر للجزائر خارج الاندماج، كمقاطعات في الدولة الفرنسيّة، أو في صورة اتحاد كونفدرالي معها.

3.1.4 التيّار الثوري: وهو خلاصة للتيارين السابقين (الشعبي والإصلاحي)، ولكن نواته الصلبة كانت أساسا من تنظيمات شباب حزب الشعب وجمعية العلماء، ناضل الأول من أجل الاستقلال، ودافع الثاني عن الهوية العربية الإسلامية، التحق بهما بعد انفجار الثورة ما بين 1954-1956 قيادات من التيار الثاني، الذي كانت مطالب الاندماج والمساواة بالنسبة له مجرّد تعجيز للسلطة الاستعمارية، كما التحق به عدد قليل من الشيوعيين الجزائريين الذين بدأوا ينفصلون تَنْظيميّا، وليس إيديولوجيا عن الحزب الشيوعي الفرنسي.

5. غداة الاستقلال سنة 1962 كانت حصيلة قرن وثلث قرن من "التمدين والتحضير" المزعوم، هي 89% من الجزائريين الأميين، (CH.R Ageron.1992) وبلد مارست فيه قوات الاحتلال سياسة الأرض المحروقة، وثلاثة ملايين من اللاّجئين في البلدان المجاورة أو في المحتشدات، وهياكل قاعدية مقتصرة على المدن والمزارع الكبرى التي يتواجد فيها المستوطنون الفرنسيّون، أما تسعة أعشار السكان من أهل البلد فقد كانوا في حالة قُصوى من المسغبة، فريسة للأمية، وكثير منهم يسكن الأكواخ والمغارات في الجبال والغابات وأطراف الصحراء.

1.5 واجه الجزائريون مخطط الاستئصال والسلخ الثقافي بآليات دفاعية، تتمثل في تقديس الحرف العربي، وحرصت معظم الأسر في الأرياف والمدن على تحفيظ أبنائهم وبناتهم القرآن الكريم، حتى عندما يتمكّن البعض منهم من تسجيلهم في المدارس الفرنسية القليلة، ونظروا إلى اللغة الفرنسية باعتبارها جزءا من آلة القمع والتحقير.

2.5 لم يحدث في الجزائر، قبل الاحتلال أو بعده، أيّ نزاع بين الأمازيغية والعربية حتى أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، وحتى في تلك الفترة فإن ما عرف بالأزمة البربرية، بقي محصورا داخل كوادر حزب الشعب، (M.Kaddache.1993) ومن الملاحظ أن كثيرا من مشاهير علماء العربية ينتمون إلى منطقة القبائل، من ابن معطي صاحب الألفية الشهيرة، والمكّلتي، إلى طاهر الجزائري، وهي أيضا من بين المناطق التي تنتشر فيها زوايا تعليم القرآن والعربية، ويُطلق على الأشخاص الذين يُعلّمون القرآن والعربية اسم الأشراف "إمرَابضِنْ" (جمع لكلمة مرابط من أجل العلم والجهاد)، وتتوارث عائلاتهم هذه المنزلة الاجتماعية المحترمة، بدون أي امتيازات مادّية.

6. بعد هزيمة قوات الاحتلال في 19 مارس 1962، انسحبت الأقلية الحاكمة من الجالية الفرنسية، بدعوى الخوف من انتقام جزائر يقودها جيش وجبهة التحرير الوطني، ولكن الهدف كان في الحقيقة تعجيز الدولة الوليدة، ودفعها نحو الفوضى والانهيار، ورفض التساوي في المواطنة وحقوقها وواجباتها التي نصّت عليها اتفاقيات إيفيان، بسبب أوهام الاستعلاء والغطرسة العنصرية.

1.6جنّدت الدولة الجديدة إمكانياتها الضئيلة، وطلبت العون من الأقطار الشقيقة، لافتتاح أول دخول مدرسي في عهد الحرية، وقد وصل العون من كثير من الأشقاء وخاصة بالنسبة للتعليم الابتدائي والمتوسط (الإعدادي)، وعلى الرغم من نقائص التأهيل العلمي والمهني (البيداغوجي) للبعض منهم، والدعاية المضادة التي نشرتها أوساط ساذجة لصالح القوة الاستعمارية السابقة، فإن الجزائر تمكنت من تحقيق تَمدْرُس نسبة تتجاوز خمسين مرّة ما كان عليه الحال قبل سنة واحدة (1961)، وباللغة العربية. (للكاتب 1987)

2.6 تواصل انتشار وترقية اللغة العربية في منظومة التربية والتعليم العالي خلال العقود الثلاثة الأخيرة، اعترضتها بلا ريب صعوبات عملية، وأحاطت بها صراعات سياسية، يرجع كثير منها إلى تشكيلة الحركة الوطنية في نهاية القرن 19 وبداية العشرين، وإلى جاذبية النموذج الفرنسي وإنجازاته الثقافية والعلمية في فرنسا نفسها، وليس في الجزائر التي تحتفظ عامة الشعب من جيلنا على الأقل (مواليد الأربعينات من القرن الماضي) بصورة غير مشرفة، عن ممارساتها الوحشية، وخطاباتها المزيفة عن الحرية، والإخاء، والمساواة، وحقوق الإنسان. (للكاتب 2003)

لن نعرض للخطوات المنجزة في تعميم استعمال اللغة العربية في النظام التعليمي الجزائري في مختلف مراحله، فسوف يتحدث عنها كل من المهندس الأستاذ: د.سعيد كناي، من كلية الهندسة جامعة البليدة، والطبيب الشرعي الأستاذ: د. عبد الحميد ميرة، من كلية الطب جامعة عنابة.

7. تواصلت خطوات تعميم استعمال اللغة العربية، (ونحن نفضل كلمة تعميم أو استعادة أو ترقية اللغة العربية على كلمة تعريب ومُعرّب Arabisation- Arabisant، التي تستعمل للدلالة على الأجانب المختصين، وخاصة المستشرقين من الباحثين في الحضارة واللغة العربية)، أقول تواصلت تلك الخطوات بوتيرة منتظمة، ولكن بسرعات مختلفة حسب طبيعة كل قطاع.

1.7 اتّبعت الدولة الجزائرية طريقة تدريجية لتعميم استعمال اللغة العربية، لا تخلو من المقاربة المنهجية، فبدأت بالإدارة، وهيئات السيادة مثل رئاسة الجمهورية، وزارات الدفاع، والعدل، والداخلية.

2.7 العربية تستعيد مكانتها في المدرسة الجزائرية.

3.7 استكملت الجزائر بعد حوالي عقد ونصف بعد الاستقلال تعميم استعمال اللغة العربية في كل مراحل التعليم ما قبل الثانوي، وتمّ تطبيق أمرية الإصلاح الشامل لمنظومة التربية والتعليم المعروفة باسم المدرسة الأساسية، كما تمّ توحيد لغة التعليم في كل شعب التعليم الثانوي (الفيزياء–الرياضيات– علوم الأحياء...) في منتصف الثمانينات.

4.7 سبق ذلك إصلاح شامل للتعليم العالي، بدأ تطبيقه سنة 1971، وتمّ توحيد لغة التعليم (العربية) في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتطوّع عدد من الأساتذة لترقية قدراتهم على استعمال العربية في التدريس، غير أن كليات العلوم والتكنولوجيا والطب وعدد من المعاهد الموضوعة تحت الوصاية الإدارية لقطاعات تقنية لا تتوفّر على مكوّنين مختصّين ومتحكمين في اللغة العربية، ولم تؤد طريقة تدريس المصطلحات العلمية على هامش المنهاج والتطبيقات إلى أية نتيجة، لأسباب كثيرة، من بينها صعوبة تحول المكوِّنين إلى العربية، وعدم توفر الإرادة على المستوى الشخصي، وعلى مستوى المؤسسات المكلفة بالتكوين العالي، ونحن نرى أن حسم هذه المسألة ممكن وفق سياسة حازمة، تقوم على التمييز بين تعلم اللغات، والتعليم والتكوين باللغات الأجنبية (الفرنسية–الإنكليزية)، ولا تطرح هذه المسألة بطريقة صراعية إلا في بلداننا، ولا نرى لها أثرا حتى في بلدان البلطيق الثلاثة، ذات اللغات المحدودة الانتشار(مجموع سكانها يقل عن عشرة ملايين)، فضلا عن الكوريتين واليابان.

5.7 يستعمل عدد من وسائل الإعلام الرسمية اللغة العربية الفصحى، ومن النادر أن يستعمل الإعلاميون في التلفيزيون العامية، وهو ما ينطبق على القناة الإذاعية الأولى، وفروعها الجهوية والمتخصصة، وتوجد إلى جانبها قناة تذيع باللغة الأمازيغية، وأخرى باللغة الفرنسية موازية تقريبا في ساعات الإرسال للأولى، وقد تستعملها تيارات إيديولوجية كمنبر للترويج لأطروحات صراعية والاتصال السّهل بإطارات ومسؤولين يستعملون اللغة الفرنسية التي تكونوا بها في الداخل أو الخارج، وهناك لغات أخرى، مثل الإسبانية والإنكليزية، موجّهة إلى أروبا وإفريقيا.

كما يوجد عدد كبير من الصحف اليومية والأسبوعية والدوريات الصادرة بالعربية، وعلى الرغم من أن قانون الإعلام يلزم القطاع الخاص بإصدار نسخة بالعربية لكل نشرية إعلامية تُوزع في الجزائر، فإن التسعينات التي عرفت ظهور أكثر من خمسين حزبا، قد شهدت تضاعف عدد الصحف الصادرة باللغة الفرنسية، التي تساهم في توطين ونشر اللغة الفرنسية، وكثيرا ما تُعنى بما يحدث وراء البحر، وتشترك في مجادلات لا تعني أغلب الجزائريين.

8. على الرغم من القائمة الطويلة لأولويات البناء الوطني، في بلد تعرض لأكثر من قرن لتدمير وتخريب في العمق، وعزل كامل عن محيطه العربي والإسلامي، فإن اللغة العربية بقيت مطلبا أساسيا لدى

الشعب الجزائري، وحظيت باهتمام هيئات في الدولة والمجتمع، فقد بقيت اللغة العربية لغة وطنية ورسمية، وهي المادة الثالثة من دستور الجمهورية، في كل التعديلات التي طرأت عليه في العقود الأربعة الماضية.

1.8 كان من الطبيعي أن تتوّج الصيرورة التاريخية والمجتمعية التي أشرنا إلى مقتطفات منها فيما سبق، بصدور قانون تعميم وحماية وترقية اللغة العربية سنة 1991، الذي صادق عليه المجلس الشعبي الوطني في يناير من السنة المذكورة.

2.8 في سنة 1998 تم تعديل المادة 23 من القانون المشار إليه آنفا، والتي تنص على إنشاء هيئة في رئاسة الحكومة مُكلَّفة بالمتابعة والتنسيق، واستبدلت بهيئة تحت إشراف رئيس الجمهورية، هي المجلس الأعلى للغة العربية.

3.8 نظرا للاعتبارات السابقة، فإن الجزائر تتفرد من بين أقطار العالم العربي بوجود هيئة استشارية تحت إشراف رئيس الجمهورية، مكلفة بالسهر على تعميم وسلامة اللغة العربية وتطويرها، في جميع مرافق الدولة والمجتمع، وتنص كل مواثيق ما بعد الاستقلال على أنها مقوم أساسي للشخصية الوطنية، ومن ثوابت الأمة.

4.8 توجد إلى جانب المجلس الأعلى للغة العربية هيئتان هما:

1.4.8 **مجمع –(أكاديمية)– جزائري للّغة العربية:** أنشئ بقانون سنة 1986، موضوع أيضا تحت الإشراف السامي لرئيس الجمهورية، وهو متخصص في الأبحاث والدراسات العلمية في اللسانيات وفقه اللغة والمعجمية والمصطلحية...

2.4.8 **محافظة للغة الأمازيغية:** تعمل على جمع وحفظ التراث الأمازيغي الجزائري، وتطوير اللغة وإثرائها، والاتفاق على الحروف (ألفب) التي تكتب بها، وهو موضوع جدل حديث العهد، إذ أنها قبل الاحتلال وحتى السبعينات، كانت تكتب بالحروف العربية، كما تدل على ذلك الوثائق الأهليّة المتصلة بالزوايا، ومجالس "تاجْمعث" أي مجالس الحكماء أو العقلاء، تمثل الضمير الجمعي والمرجعية الأخلاقية والدينية في كل أرجاء منطقة زواوة التي أنجبت العديد من أهل الفكر والذكر والمبدعين في علوم الدنيا والدين وقادة المقاومة والجهاد لمدة تزيد على خمسة قرون.

ثانيا: مهام المجلس وبرنامجه وأهدافه:

في 26 أيلول (سبتمبر) من سنة 2003 احتفى المجلس بعيد ميلاده الخامس، وخصص دورة مجلسه العاشرة للنظر في حصيلة نشاطه خلال المدة الفارطة، حسب المهام الموكلة إليه بنص القانون 05/91

الصادر في 1991، في مادته -23- المعدلة بالمادة -5- من الأمر الرئاسي الصادر سنة 1996، الذي يحدد مهام المجلس، باعتباره هيئة استشارية على النحو التالي:

1. متابعة أحكام القانون، وحثّ الهيئات المعنية على تطبيقها، بهدف حماية وتطوير وترقية استعمال اللغة العربية في كل القطاعات.

1.1 لإنجاز البرامج والمتابعة والتنسيق والتقييم والاتصال، فإن الهيئة تتوفر على مجلس للمداولة يتكون من أعضاء يمثلون الهيئات والمؤسسات العمومية، مثل الوزارات والجامعات ومراكز البحث العلمي، (10 وزارات منها خمس وزارات مكلفة بقطاعات السيادة)، وستة أساتذة جامعيين، ومن 15 إلى 20 عضوا يختارهم رئيس الجمهورية نظرا لكفاءاتهم العلمية، في مجالات تتّصل بتعميم وترقية اللغة العربية.

2.1 مجموع أعضاء المجلس الحالي هو 36 عضوا، بالإضافة إلى الرئيس، يعينون جميعا بمراسيم رئاسيّة، ويتوزعون على ثلاث لجان رئيسية مختصة، تعكف على دراسة المسائل التي تدخل في مهام المجلس.

3.1 للمجلس مكتب، وهو هيئة لمتابعة التنفيذ، يتكون من رؤساء اللجان وأمانة عامة، يعد المكتب بإشراف رئيسه برنامج العمل السنوي، وينسق أعمال اللجان، ومجموعات العمل، بعد مصادقة الجمعية العامة، على برامجها الفصلية والسنوية.

4.1 تمارس هياكل المجلس نشاطها المُسطّر بموجب الصلاحيات الواردة في الفصل الثاني - المواد- 4-5-6-7- من المرسوم الرئاسي لسنة 1998.

2. انطلاقا من الصلاحيات الاستشارية المخوّلة للمجلس، وبعد تقييم حصيلة نشاطه في الدورة التاسعة، في يوليو (جويلية) من السنة الماضية، فقد خطط المجلس برنامجا يجمع بين الطموح والمنهجية العلمية، يتمثل في:

1.2 القيام باستطلاع مسحي (Survery)، للتعرف على واقع تعميم استعمال اللغة العربية في مرافق الدولة، والمؤسسات الوطنية العموميّة والخاصّة.

2.2 بناء على المعلومات المتوفرة من الإحصاءات العامة، والدراسات المتعلقة بالموضوع، ينظم المجلس جلسات استماع للمسؤولين في المؤسسات المركزية والمحلية في القطاعين العام والخاص، للتعرف على مدى استعمال اللغة العربية في نشاطاتها المهنية، والاتصال مع المحيط، تعقبها لجان مشتركة بينها وبين المجلس، للتعاون على تذليل الصعوبات، والتشاور حول برامج عملية حسب طبيعة النشاط الإداري والمهني الخاص بكل قطاع، والإمكانيات المتوفرة داخل القطاع نفسه.

3.2 التحضير لإنشاء مؤسسة متخصصة في الترجمة، بوجهيها **العلمي** المتخصص في نقل المصنفات العلمية، وروائع الفكر والأدب، من وإلى العربية، **والمهنية** مثل الترجمة الفورية، والترجمة الرسمية الخاصة بالمعاملات، وبالتوثيق الإداري إلخ...

4.2 العناية بالتوثيق العلمي، والاستخدام العقلاني للمعلوماتية والحاسوبية، لتطوير مخزون اللغة العربية من المصطلحات والتعابير الفنّية، وإحياء التراث العربي الإسلامي، وخاصة مساهمة الجزائر والمغرب العربي فيه، والاستفادة مما تم إنجازه في **المجامع العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**، وخاصة مكتبها المكلف **بالتعريب في الرباط.**

5.2 توثيق العلاقات مع المنظمات الفرعية للجامعة العربية، والمؤتمر الإسلامي، والهيئات المماثلة الرسمية أو المنتمية للمجتمع المدني مشرقا ومغربا، والسعي للتنسيق معها، والعمل الجماعي في برامج مشتركة، خاصة بترقية اللغة العربية وإثرائها، فنحن نؤمن بأهمية العمل الجماعي في صورة فرق بحث مشتركة ومتعددة الاختصاصات، ونرغب كذلك في التشاور **والتعاون مع العالم الخارجي والهيئات الدولية،** مثل اليونسكو، ومعاهد البحث في فقه اللغة واللسانيات.

3. تنطلق أهداف المجلس من المادتين –2–3– من قانون تعميم استعمال اللغة العربية، وكل النشاط وآليات العمل السابقة، تستهدف في نهاية المطاف إنجاز مُهمّتين أساسيتين:

1.3 تنصّ المادة –2– من القانون المذكور آنفا على أن "اللغة العربية مقوم من مقومات الشخصية الوطنية الراسخة، وثابت من ثوابت الأمة، يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السيادة، واستعمالها من النظام العام"، وبناء عليه فإن المجلس مكلّف بحكم القانون والمرسوم الخاص بصلاحياته، برفع تقرير سنوي إلى فخامة السيد رئيس الجمهورية عن مدى تقدم تعميم استعمال اللغة العربية في مختلف قطاعات الدولة، وذلك بناء على المواد 4–5–6–7– من المرسوم (98–226)، المؤرخ في 11 يوليو 1998.

2.3 للمجلس أهداف دائمة في إطار المادة الثالثة من قانون تعميم استعمال اللغة العربية، وهي تلزم كل المؤسسات بالعمل على ترقية وحماية والسهر على سلامة العربية وحسن استعمالها ومنع كتابتها بغير حروفها، وذلك انطلاقا من الأفكار التالية:

1.2.3 اللغة العربية لغة موحدة للشعب الجزائري، وأداته الأولى للتعبير الثقافي، ومن المظاهر الأساسية للسيادة الوطنية.

2.2.3 اللغة العربية وعاء تراثنا الحضاري العريق، والعروة الوثقى بعد الإسلام التي تربطنا بالأمة العربية والإسلامية.

3.2.3 اللغة العربية ليست وعاء التراث العربي الإسلامي المشترك فحسب، **بل هي أيضا الأداة الطبيعية للتقدم الثقافي العلمي والأدبي والتكنولوجي**، فلم **يحدث أن تقدمت أمة وأنتجت حضارة أصيلة ومؤثرة في تاريخ الإنسانية، بلغة أخرى غير لغتها التي حملت تجربتها التاريخية عبر العصور، بما فيها من سراء وضراء وتقدم وتخلف وإبداع وجمود، وليس لهذه القاعدة أي استثناء.**

4. اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، بها نزل الذكر وقال تعالى "**وإنّا له لحافظون**"، والذكر يدعونا أيضا **لإنتاج المعرفة، ونشر العلم وترقيته في المجتمع، والاختراع والإبداع في مجالات التكنولوجيا والفنون والآداب**، ولا بد من التنبيه إلى أنه ليس من حقنا أن نشكو من صعوبة العربية، رسما وقواعد، إن لغتنا هي التي يحق لها أن تشكو لنا ما حاق بها من جمود الناطقين بها وتقصيرهم في خدمتها، فما قدمته مدرستا البصرة والكوفة، وعلماء منطقة زواوة (مواطنونا في منطقة القبائل) على سبيل المثال في عقود قليلة، يزيد كما وكيفا عما قام به غيرهم طيلة القرن العشرين، وانتفاضات البعض أو ثوراتهم المزعومة على الفصحى، والترويج للعامية، والدعوة للحرف اللاتيني ترجع في أغلب الظن إلى الكسل العقلي، واستهلاك الجاهز، والواقعية الشكلية التي تجذب الواقع إلى أسفل، بدل أن تطوره من داخله وتعصرنه انطلاقا من أصالته وخصوصياته، وترقى به إلى الأفضل والأجدى.

1.4 من الضروري والمستعجل، أن ندرك جميعا أن ترقية لغتنا الجميلة لا يحتاج إلى التمجيد والتغني بالماضي، بقدر ما يحتاج إلى جهد العلماء والأدباء في الجامعات والمخابر، ومراكز البحث العلمي، وإلى تحديث مضامين التربية والتكوين، والتفكير في استعادة "الكفاءات" المتواجدة في المهجر، ووضع استراتيجية بعيدة المدى لترقية الإنتاج المعرفي في مجالات البحث الأساسي (Fondamentale) والتطبيقي، باعتبارها جزءا من الأمن العربي المشترك، والمخرج الحقيقي من حالة الضعف والتخلف التي تعاني منها المنطقة، بما فيها جزؤها الأوفر ثروة.

2.4 أهمية إتقان اللغات الأخرى في عالم بلا حدود، تتدفق فيه المعلومات بغثّها وسمينها، وأغلبها يأتي كما هو معروف من الغرب الأروأمريكي، ولا شك أن الترجمة هي أفضل طريق لإثراء العربية وتحيين (Actualisation) مضامينها، ولنا في التجارب اليابانية والصينية وما قامت به البلدان الثلاثة استونيا ليتوانيا ليتونيا المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفياتي البائد التي تمثل الترجمة 60% من منشوراتها الوطنية، وتنقل إلى لغتها آلاف المصنفات في شتى مجالات المعرفة، بعد مرور أقلّ من سنة على صدورها في بلدانها الأصلية، مثل الصين واليابان وأروبا وأمريكا.

3.4 من الواضح أن تشجيع إتقان اللغة العربية ليس انغلاقا أو رفضا للعناية باللغات العالمية، إن الهوّة التي تفصلنا عن العالم المتقدم لن تضيق بالحماس العاطفي، ولن نقترب من موكب المقدمة، إذا

بقي الجدل بيننا مقتصرا على المواجهة و"التمترس"، القائم بين **طائفة مستلبة** ضحية الاستغراب، تعاف واقع بلداننا المتخلّف، وتحاول الالتحاق ذهنيا وسلوكيا بعالم آخر أسس الحداثة، وهو منتجها الأول حاليا، ولا يقبل الاختلاف على الرغم من أدبياته المغرية، إن هدفه هو ضمان التبعية الطوعية، لا غير. **وطائفة أخرى** تُدافع عن العربية وتراثها –بلا ريب–، ولكنها تخشى الإثراء والتجديد والتحديث، الذي هو سنة الكون، وهي بذلك تضع لغتنا المطواعة والغنية في تابوت الماضي، ولا تضيف لها شيئا أكثر من التغني اللفظي، والحماس الانفعالي بأمجادها السابقة.

4.4 إن إثراء اللغة العربية بالمعاجم والقواميس المتخصصة والمسارد المصطلحية مبحث هام، وجهد مطلوب يمكن إنجاز خطوات كبيرة فيه عن طريق الحاسوبية، والتقنيات الحديثة الخاصة بضبط المفاهيم والمفردات النمطية (Lexical Typology)، التي يُنْتج تقريبا 100/100 منها خارج وطننا العربي، ولذلك فإن وضع المصطلحات والمعاجم اللغوية المتخصصة، يتطلّب توحيد الجهود الأكاديمية لوضع القاموس الموحَّد المتجدد من نوع "أكسفورد" أو "لاروس" وإثرائه بالمستجدات من الكلمات والمصطلحات والتعابير وطبعه دوريا بإشراف وإنجاز المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أو اتحاد المجامع العربية.

ينبغي أن تكون كل تلك الجهود عملية مرافقة أو ناتجة عن ازدهار البحث العلمي، وإنتاج المعرفة بوجه عام، ونقل روائع الفكر العالمي إلى العربية، فليس من المعقول أن تكون لدينا المفاهيم والمصطلحات عُمْلة بدون رصيد البحث العلمي، الذي هو منتجها ومستهلكها في آن واحد.

5. تتميز اللغة العربية بعمق تاريخي، إذ أن تراثها يمتد على أكثر من 14 قرنا بدون انقطاع، وكانت لحوالي خمسة قرون لغة علمية ولغة عالمية، لا يمكن أن توصف اليوم بأنها متخلفة أو جامدة وفقيرة، من الإنصاف أن تنسب تلك الأوصاف إلى أهلها الناطقين بها، وإلى سياقات تاريخية اجتمعت فيها عوامل داخلية وخارجية أدت إلى التخلف عن الركب، والتشذرم السياسي، والعودة إلى القبيلة والطائفة والتقليد الأعمى للسلف صالحه وطالحه، أو الانبهار بمآثر الغرب، والقبول بالعيش على هامشه الثقافي، أو المساهمة في تنمية رصيده، كما هو الشأن في خبرائنا العاملين في مؤسسات العالم المتقدم.

1.5 ينبغي أن نلاحظ أنه لا اعتراض على تواجد تلك الكفاءات خارج أوطانها الأصلية، ومساهمتها في ازدهار الاقتصاد والعلوم والفنون في الجزء المتقدم من العالم، ولكن المثير للانتباه هو ضآلة ما تقدمه الجاليات المتواجدة في الهجرة من خبرات، ومساعدات فنية، ومساهمات في رفع الأداء (Mis à niveau) في ميادين الصناعة والفلاحة والخدمات والتقانات العالية، لصالح البلدان التي جاءت منها.

2.5 إن نسبة كبيرة من الهجرة المؤهلة تلقّت التكوين الأساسي وحتى العالي في بلداننا الأصلية، ومنها من تواصلت رعايته لمواصلة البحث والتخصص في معاهد وجامعات تتطلب نفقات باهضة لعدة سنوات، فإذا اقتضت ظروف اختيارية أو اضطرارية الإقامة والعمل في بلد الهجرة المؤقتة أو الدائمة، فإنه من الإنصاف والعرفان مساعدة البلد الأول على تضييق فجوة التخلّف، والتعويض للأجيال الأخرى عما تلقّاه المبعوث من عون ورعاية.

3.5 هل أن السبب هو ضعف حوافز الوطنية والانتماء، عند أجيال ما بعد الستينات؟ هل تقل تلك الحوافز عن مثيلاتها عند اليهود تجاه إسرائيل، بأحزابها وعشائرها التي تتْقُل من بلدان الهجرة كل شيء، ولا تخرج شيئا يمكن أن يضرّ بإسرائيل إعلاميا أو ماليا أو أمنيا؟ هل تكون جاليتنا في المهجر أقل غيرة على الانتماء من "الدياسبورا" الصينية المتواجدة في كل أروبا وأمريكا، وهي حريصة على تزويد الوطن العملاق بخلاصة ما حصلوا عليه (أحيانا بجهد فردي) من علوم وخبرات؟

4.5 فيما يخصّ الجزائر لا نظن ذلك، فالأغلبيّة الساحقة من الجزائريين على علاقة وثيقة بالوطن الجزائري، علاقة تجمع بين العاطفة والمصلحة، إن الخلل الحالي يرجع أساسا لضعف التنظيم، ومضاعفات الاستقطاب، وغموض العلاقة بين الدولة ومنظمات المجتمع المدني (الأهلي)، الذي هو امتداد للمجتمع الكلي في استمراريته التاريخية وخصوصياته المحلية التي تجمعه بالأمة العربية والإسلامية، وتفرده بين شعوبها في آن واحد، وقد اقترحنا منذ مدّة تأسيس ما سميناه "دار الجزائر" في العواصم الأجنبية، التي تتواجد فيها جاليات من مواطنينا، تخصص فيها نوادي للخبراء والعلماء والأدباء، يلتقون في رواقها تعبيرا عن الانتماء، بغضّ النظر عن ألوان الطيف السياسي، والخصوصيات الأضيق التي لا يخلو منها أي شعب مهما كانت شدة التجانس بين مواطنيه يظهرها أي سبْر للرأي العام أو استطلاع لخريطة المجتمع المدني.

ثالثا: خلاصة

يتساءل البعض في مشرق الوطن العربي ومغربه، عن دواعي الاهتمام باللغة العربية في الجزائر، باعتبارها لغة وطنية ورسمية ومن دعائم انتمائها الحضاري.

ويتابع البعض الآخر ما يحدث بين الحين والحين من صراع بين شرائح من النخب، حول مسألة اللغة، والنزاع القديم بين الفصحى والعامية، والنزاع المستحدث حول الأمازيغية، وما ينشر داخل البلاد وخارجها من خطابات وأبحاث علمية أو متعلمنة (Scientistes)، حول مدى مطاوعة اللغة العربية في مختلف مجالات المعرفة.

وقد يتراءى للملاحظ العابر أن اللغة الفرنسيّة في بلادنا هي اللسان الأكثر تداولا بين عامة الناس وكل المثقفين.

لذلك ارتأينا الاجتهاد في تقديم توصيف وتحليل إجمالي لوضعية اللغة العربية في الجزائر (الورقة المرفقة)، نوجزه في النقاط التالية:

1. من المفيد لمعرفة واقع اللغة العربية الراهن، الاطلاع على مقتطفات من الصيرورة التاريخية والمجتمعية للجزائر بعد الاحتلال، ونبذة عن كفاح الشعب الجزائري، الذي عاش قرنا وثلثا قرن من القهر والاستئصال والسلخ الثقافي، محروما من الدولة ومؤسساتها، ومن المعالم التي تربطه بانتمائه العربي الإسلامي، الذي ساهم في ازدهاره قبل عهد الانحدار، والهجمة الصليبية التوسعية للاستعمار الأكثر بشاعة، وهو الاحتلال الاستيطاني الفرنسي.

2. طبّق الاحتلال الفرنسي سياسة مزدوجة، فقد عمل من جهة على حرمان الجزائريين من التعليم والثقافة، واعتبر العربية لغة أجنبية في عقر دارها، ومنع استعمالها، وكانت كلمة عربي أو مسلم هي التسمية المقتصرة على الجزائريين المحرومين من المواطنة والجنسية معا، وبدل كلمة جزائري، فإن إدارة الاحتلال كانت تسميهم الأهالي أو السكان الأصليين، إذا لم تنسبهم إلى اللغة والدين، بغرض الإهانة والتحقير، (من المفيد أن نشير إلى أن كلمة عربي أو مسلم كانت تطلق على كل الجزائريين بغضّ النظر عن منطقة سكناهم حتى نهاية الستينات من القرن 19).

وسعى من جهة أخرى وخاصة في أواخر القرن 19 وبداية العشرين، إلى تكوين فئات محدودة من الجزائريين، ليكونوا وسطاء للترجمة مع الأهالي، وتبليغ الأوامر، والدعاية المُحضّرة في مكاتب الشؤون الأهلية، (الأغلبية من المتعلمين باللغة الفرنسية حتى فترة ما بين الحربين لم يتجاوزوا المستوى الابتدائي من التعليم).

3. على الرغم من عمليات المسخ والسلخ، فإن شعب الجزائر قد قاوم بسلسلة من الانتفاضات خلال حوالي قرن (1830–1930)، واستمرت المقاومة من خلال فصائل الحركة الوطنية، من 1926 حتى 1954، لم تستسلم لمخطط الاحتلال، وكان للزوايا والكتاتيب القرآنية والمدارس الشعبية، دور كبير في حماية الشخصية الوطنية، والدفاع عن اللغة العربية، في تلك الفترة كانت الجزائر بدون عون أو نصير، فقد كانت 5/4 العالم العربي تحت الاحتلال الكامل أو الحماية الأجنبيّة.

4. إن النخبة الجزائرية القليلة العدد في منتصف القرن الماضي، من المتحصلين على إجازات عليا في الطبّ والصيدلة والآداب والحقوق، قد ساهمت شرائح منها في قيادة الحركة الوطنية، وتأطير ثورة التحرير من بعد، وكانت اللغة الفرنسيّة التي تتقنها، مجرّد أداة لمكافحة الاستعمار بسلاحه، ولتبليغ الرأي العام الفرنسي والأروبي المطالب المشروعة للشعب الجزائري، وتوعية جماهير الشعب الذي نخرته الأمية، وسلطت عليه إدارة الاحتلال والمستوطنون المتطرفون كل أشكال القهر، والإذلال.

5. تمكن الشعب الجزائري بعد تضحيات جسيمة، من هزيمة النظام الاستعماري الجائر، واستعادة الحرية والكرامة، والشروع في بناء الدولة الوطنية، بمرجعيتها التاريخية التي أُرتضاها شعبنا عن طواعية واختيار، وتتمثل في الإسلام عقيدة سمحاء، والعربية لسانا مبينا.

6. قطعت الجزائر خلال العقود الأربعة الماضية عدة خطوات، لإعادة اللغة العربية إلى مكانتها الطبيعية والشرعية، باعتبارها لغة رسمية ووطنية، دون أن ننسى المصاعب الموضوعية والمصطنعة خلال تلك المسيرة التي تُوِّجّتْ بسنّ قانون تعميم استعمال اللغة العربية وترقيتها سنة 1991، وإنشاء المجلس الأعلى للغة العربية في نهاية سنة 1998.

7. للمجلس مهام وأهداف تتمثل أساسا في تعميم استعمال اللغة العربية في جميع مرافق الدولة والمجتمع، والسعي لترقيتها، عن طريق البحوث والدراسات، ووضع المعاجم والمسارد المصطلحية، والترجمة والنقل من العربية وإليها إلخ...

8. إن المجلس الأعلى للّغة العربية هيئة استشارية، وهو جزء من هياكل رئاسة الجمهورية، تجمع نخبة من رجال ونساء الفكر والثقافة، ومن المسؤولين الممثلين لعشر وزارات أساسية هي العمود الفقري للدولة الجزائرية، ويسمح لها القانون بمتابعة وتنسيق مدى تعميم استعمال اللغة العربية، في كل قطاعات التربية والتكوين، من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، وفي الهيئات والمؤسسات التنفيذية، من المستوى المحلي (البلدية–الدائرة–الولاية)، إلى المستوى المركزي، الذي يشرف ويُسيّر قطاعات السيادة الوطنية، مثل: الدفاع، والعدل، والشؤون الخارجية، والداخلية... وقطاعات أخرى، مثل: المالية، والاقتصاد، والتجارة، والاتصال (الإعلام) والثقافة، والوظيف العمومي إلخ...

9. المجلس هيئة للتشاور والاقتراح، من مهامها تقييم وإبداء الرأي في كل ما يتعلق بتطبيق قانون 1991، وتقديم مقترحات في صورة تقارير سنوية، تقدم إلى السيد رئيس الجمهورية، تتحول من الناحية المبدئية إلى قرارات إلزامية، ينتج عن مخالفتها تطبيق الأحكام الجزائية الواردة في المواد 29–30–31–32–33–34 من الفصل الرابع من قانون تعميم استعمال اللغة العربية.

10. يعمل المجلس من خلال لجانه المتخصصة، وبالاستعانة بالخبراء في داخل الجزائر، ومن الوطن العربي، وبالتشاور مع مسؤولين في كل المستويات، على تطبيق برنامج، طموح وواقعي، لترسيخ اللغة العربية، وتحبيب الجمهور في استعمالها بدون عُقد ولا تعقيد، والعمل على التقارب والتعاون مع المحافظة السامية للأمازيغية، ورفع كثير من الالتباسات والصراعات المفتعلة، حول اللغة الفرنسية، واللغات العالمية الأخرى، باعتبارها روافد للمعرفة، وطريقة للاتصال بالعالم الخارجي.

نحن على يقين، بأن أكبر خدمة نقدمها للغة العربية هي تغذيتها بالإبداع، في العلوم والفنون والآداب، ودفن آخر أمي في الجزائر، ومجموع المنطقة العربية، وتحقيق ازدهار اقتصادي، وترقية اجتماعية، تعيد الثقة في النفس لنخبنا المفكّرة والسيّاسية، وتمهّد لانتشال الأمّة من وهدتها، وتدفع بها قدما نحو صميم العصر، والانتفاض على العجز، ورثاء الذات، والعودة إلى التاريخ والمساهمة في صنعه، لكي تستحق فعلا أن تكون "خير أمّة أخرجت للناس"، بما تتوفر عليه من روحانية عالية تبعدها من الناحية النظرية عن عبادة "العجل الذهبي".

إذا سادت في ربوع أمتنا العقلانية الشغوفة بالمعرفة، وأصبح سلطان المعرفة وليس معرفة السلطان، هو مقياس المكانة والحظوة، والتنافس على إنتاج الثروة وليس اقتسامها، والكفاءة في أي موقع في السلم الاجتماعي من واجبات المواطنة مع حقوقها المسطرة في معظم دساتيرنا، إذا تحققت تلك الشرطيات فإن المستقبل أمامنا، لا نستجدي مقوماته من أطراف أخرى، إذ أن المطلوب هو أن نصنعه نحن بعقولنا وأيدينا.

إن الإرادة السياسية والتضامن على المستويين القطري والعربي، يمثلان خطوة على الطريق الشاق والطويل نحو تقارب، يقوم على وشائج التاريخ والقربى والمصالح، ولكننا نعرف أن إعلانات النوايا، والهياكل والمؤسسات ليست غاية في حد ذاتها، ولا تعوّض الإرادة السياسية الواثقة والمبنيّة على مرجعية متجذّرة في تجربتنا التاريخية ورؤية مستقبلية تجمع بين الطموح والواقعية الذكية، وتسعى لتحقيق حضور فاعل، في عصر يهيمن عليه نظام القوّة المُسمى بالنظام العالمي الجديد.

فخــــر المدارس الحـــــرة:

التربية والتعليم بقسنطينة

السيدة: زهور ونيسي

(وزيرة سابقة)

اليوم وأنا ألبي فخورة دعوة الأخ الكريم محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية للمساهمة في مواضيع العدد الخاص من مجلة المجلس الغراء، والمخصص للاحتفاء باليوبيل الذهبي لثورتنا المجيدة.

لعلني وأنا أفضل ذلك، لا حق لي في الادعاء أنني سأساهم ببحث تاريخي يليق بالمناسبة بقدر ما أجدني أكتب مقالا أو على الأصح شهادة حية لامرأة مرت ذات يوم عبر مدارس التربية والتعليم التي أسسها ابن باديس،هذه المؤسسات التي أنشئت كرد فعل طبيعي ووطني ضد تلك الهجمة الشرسة التي خطط لها المستعمر ضد كل ما هو ثوابت وطنية من قيم روحية وثقافية ولغوية قصد التأسيس لإبادة هوية أمة وانتماء شعب، هذه الهجمة التي بدأت منذ احتلال الوطن سنة 1830 بشتى الوسائل والأساليب ولا تزال آثارها إلى اليوم.

ولا يخفى على أحد أن التعليم هو أس من الأسس الأولية لبناء حضارة الإنسان في كل مكان، وبدونه لا يمكن لهذا الإنسان أن يحقق إنسانيته ككائن حي متميز عن غيره من الكائنات الحية بعقل يفكر ويبتكر.

والإنسان في الجزائر إبان فترة الاحتلال حرم من هذا الأساس الهام حتى يسهل انقياده واحتلاله وتبعيته، بل إن الاحتلال في الجزائر كان يهدف إلى القضاء نهائيا على إنسان هذه الأرض بوسائل الإفناء والزوال المختلفة بدءا بحرمانه من أبسط ضروريات الحياة ذاهبا في هذا الهدف إلى العمل على

إقصاء ما تبقى من هؤلاء الأهالي إلى غياهب الصحراء مثلهم في ذلك مثل الهنود الحمر في قارة أمريكا، على أن يستبدل بهم شعبا آخر جديدا يتحكم في مقدرات البلد انطلاقا من شماله.

قضية وجود أو لاوجود، كانت بالنسبة للاحتلال ومن ذلك يسجل بعض المؤرخين الغربيين أن الاحتلال للجزائر ضيع على الجزائر في وجوده الجغرافي فحسب أكثر من ثمانية ملايين نسمة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

إن أهداف الاحتلال الاستعمارية لم تتمثل فيما ذكرنا فحسب، بل رمت أيضا إلى وضع استراتيجية سياسية واسعة النطاق في الزمان والمكان، تعتمد قبل كل شيء وللأبد على بقاء الهيمنة الاستيطانية بسيطرة الحضارة الغربية، وبالتالي القضاء على القيم الروحية للشعب واجتثاث أصول هذه القيم، كونها من أهم العوامل والمظاهر العاطفية تنمي وتبقي على الضمير الحي للأمة وعلى استمرار مقاومته وتصديه للاحتلال وكفاحه لاسترداد السيادة والهوية والحرية.

وقد واجه الاستعمار هذه المقاومة الشعبية، وهذا الحس النضالي للشعب باللجوء إلى وسائل خاصة ذات طابع إنساني تطويري حسب اعتقاده القصير النظر، تتمثل: أولا في سياسة الاندماج خاصة في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، حيث نصت معاهدة الرابع من شهر جويلية 1830 على:

أولا: "أن ممارسة الديانة (المحمدية) تبقى حرة "

ثانيا: إعلان وسن نظام التعليم العام والذي اقتصر على مجموعة قليلة من المدارس، ثم أنشأت مدرسة لتخريج المعلمين سنة 1865 مع ضرورة توفير شروط خاصة لإعداد إطارات تحسن معرفة الوسط الجزائري– لتبقى نسبة المسلمين بين هذه الإطارات ضئيلة لا تزيد في البداية على خمسة معلمين.

وكذلك كان الحال بالنسبة للأطوار الأخرى من التعليم، ليبقى هدف المستعمر من هذه العملية ليس الرغبة في تعليم الجزائريين بل إيجاد وسائل ومشاريع طويلة المدى للتمكن من فرض الهيمنة الثقافية والفكرية والحضارية على الشعب الجزائري، إن الاستعمار يرى أن عقل الأهالي ينبغي تكوينه حسب ما يريده هو وأن ذلك لا يتحقق إلا عن طريق التعليم.

نتيجة لذلك وغيره بدأت الحركة الوطنية تنمو وتزدهر وتتشعب كرد فعل طبيعي وشرعي لمواجهة أساليب الاستعمار الجهنمية في إبادة شعب والقضاء على أمة.

وداخل هذه الحركات الوطنية كانت نهضة ابن باديس التربوية والتعليمية حركة وطنية تعتمد أسلوباً متميزاً يتمثل في إنشاء و تأطير المؤسسات التربوية والتعليمية بتمويل من الشعب بعد تجنيد وتعبئة من العلماء والمتعلمين وعلى رأسهم ابن باديس.

وإن اتفقت هذه الحركات الوطنية جميعاً في وحدة الهدف الجزائر وحريتها وسيادتها، إلاّ أن نهضة ابن باديس اعتمدت في منهجها على الفكر والعلم والتربية لكل المجتمع، على النفس الطويل والمديين البعيد والأبعد للوصول للغاية، اعتمدت الحركة على الأصعب والشاق من جوانب التصدي للاستعمار الاستيطاني بأساليب وخطاب تغلغل أكثر في عمق الإشكالية الحضارية، بتبني منهج تنوير المواطن والقضاء على أميته وجهله وإحياء وتجديد تراثه الحضاري بتطهيره من التراكمات والتشوهات التي علقت به بفعل السياسة الاستعمارية على مدى أكثر من قرن من الزمن.

كانت خطة حكيمة لتهيئة المجتمع للمواجهة الصحيحة المضمونة النجاح عبر فعاليات نهضة ثقافية تعليمية تربوية إصلاحية متناغمة قوامها الإنسان، الرجل والمرأة معا.

لقد كان إبن باديس صاحب هذا المشروع الحضاري الكبير يجمع في شخصه مميزات شخصيتين إصلاحيتين عربيتين، كان لهما باع طويل في حركة النهضة العربية في القرن العشرين:

شخصية جمال الدين الأفغاني الثائرة وشخصية محمد عبده الهادئة؟ لكن ابن باديس استطاع أن يحقق نسبة نجاح أكثر تأثيرا في مهمته النهضوية التي اضطلع بها، وذلك باعتماده القاعدة المحلية الشعبية التي هي شعبه وبلاده الجزائر نظرا للأوضاع الخاصة التي كانت تمر بها،بينما انطلق الأفغاني وعبده إلى أهداف قومية عن طريق نخبة لا قاعدة شعبية لها.

لقد جمع ابن باديس في حركته الوطنية نهضة وتجديدا بين مختلف اهتمامات العصر والظرف الذي كانت تعيشه البلاد، والتي كانت تشغل بال وضمير الشعب مثل الحرص على الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية الصحيحة، والتي ما فتئ الاستعمار يعمل بجميع الوسائل وعبر عقود من الزمن لتشويهها والقضاء عليها لأنها الثوابت والأسس التي تشكل الهوية والوحدة الوطنية وتنمي أواصرها، وتعمل على تنميتها وتميزها عن هذه المشاريع الحضارية الوافدة البديلة.

ومن هذه الاهتمامات والانشغالات:

1- تنقية العقيدة مما أدخل عليها من شعوذة وخرافات وتشويهات.

2- العمل على بعث وإحياء ونشر اللغة العربية عبر سياسة التربية والتعليم، بعد أن عمل المستعمر على منعها وإهانتها واستبدال الفصحى بلهجة دارجة ركيكة وضعت لاستعمالها في المدارس الرسمية حتى لا تنافس اللغة الفرنسية وحتى يعرض عنها أبناء الجزائر و يقبلون على الفرنسية!

3- بعث تاريخ الأمة وأمجادها، مما يعيد الثقة للأمة بنفسها وتاريخها عبر مناهج تربوية جديدة متطورة تواكب وتتعامل دون عقد مع الحضارة الوافدة، مستفيدا في كل ذلك من تلك العلاقة العملية التي تربطه ببعض المعاهد العربية ومنها جامع الزيتونة بتونس.

وفي أول مدرسة أسسها إبن باديس بدعم مادي ومعنوي من الشعب "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" بقسنطينة سنة 1931 كان لي وللكثيرين والكثيرات من أبناء المدينة صبيان وصبايا شرف التلقي لأول مرة أبجديات الحرف العربي ومختلف المعارف والثقافة العامة، وفي هذه المدرسة كنت وأخواتي نتعلم ساعات النهار ليأتي أبونا مع أباء الآخرين مثله لمحو أميتهم بالدروس الليلية، ثم لا ينسى والدي أيام العطل ليتردد على المدرسة متطوعا يرقع ما تلف في جدرانها وفصولها وهو البناء الماهر!

أليست المؤسسة مدرسته ومدرسة بناته وأبناء الشعب البسيط المتعطش لمعرفة لغته وتاريخه المحروم منهما عنوة و قسرا وقهرا من طرف المحتل؟ ليسجل اسمه كعضو مؤسس للمدرسة في مدينته المحروسة، ويطلق عليه أحدهم فيما بعد وهو الشيخ العلامة العباس بن الشيخ الحسين لقب "أبو النهضة"

أليست نهضة أن تتحدى كل الأفكار المحيطة من حولك وتعارضها؟ وتعلن رفضك لها، وتترك بناتك الصبايا يخرجن كل يوم للمدرسة تحت أنظار و دهشة واستياء الآخرين؟

ولقد كان برنامج التربية والتعليم عند الإمام ابن باديس سيصل إلى أهداف بعيدة في تعليم البنات، لولا أن المنية عاجلته وهو في عز عطائه، لقد راسل وقتها أحد المعاهد الخاصة في دمشق بالمشرق العربي وكانت مديرة له السيدة عادلة بيهم الجزائري حرم النجل الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري، الأمير محمد، طالبا منها قبول بعثة من بنات مدرسة التربية والتعليم لإتمام دراستهن الثانوية مثلهن في ذلك مثل تلاميذ المدرسة الذكور الذين كانوا يلتحقون بجامع الزيتونة بتونس أو غيره من المعاهد بالدول العربية الأخرى ولكن الأجل حال بينه وبين ذلك لتفتك المرأة الجزائرية بعد ذلك حقها في التعليم بعد خوضها معركة الحرية بجدارة فائقة.

ولعل التربية والتعليم عند الإمام ونهضته كحركة وطنية لم تكن لتكتفي بأسلوب التعليم النظامي عبر المدارس التي أنشأتها، وما يتطلب ذلك من برامج وبحث تربوي وبيداغوجيات عصرية بل كانت تتجاوز ذلك إلى تلك الدروس التي كانت تعطى لفئات كثيرة من أبناء الشعب عبر المساجد وبين أوقات الصلاة.

ومن ذلك تلك الدروس المنتظمة في الوعظ والإرشاد والتربية المدنية والأدب والتاريخ الإسلامي، والتي كانت نساء مدينة قسنطينة يتلقينها في الجامع الأخضر على يد الإمام نفسه، وينشرن شذاها ونداها وفوائدها بين النساء الأخريات ممن لم يكن يسمح لهن بالخروج من البيت.

لقد كانت والدتي– وعلى سبيل المثال لا الحصر– تحفظ الكثير من الآيات، والأحاديث، والأشعار، خصوصا شعر الإمام "الشافعي" وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب.

ولم نكن نعلم أنا واخوتي ونحن صغار أن والدتنا أمية ونحن نسمعها تقرأ معنا عن ظهر قلب ما كان يلقن لنا بالمدرسة من دروس ومحفوظات وتصحح لنا ماكنا نخطئ فيه.

لقد كانت مدرسة التربية والتعليم نموذجا إيجابيا "وثمرة أولى" لطموحات ابن باديس وحركته النهضوية تجاه الأجيال القادمة،ورهانا فاق كل الرهانات الأخرى لأنه اعتمد على الواقع الاجتماعي والفكري دون تهريج، واستمد عنفوانه من آمال وإرادة وقدرات الشعب، وقناعته بضرورة التغيير الجذري للذهن والقناعات الجامدة.

لقد سميت مدرستنا كذلك لأن هدف التربية منها يسبق هدف التعليم. وحتى يتماشى مع عادات المجتمع وفكره المحافظ آنذاك تجاه تعليم المرأة.

لقد كانت التربية الوطنية وتعميق الحس الوطني أول مهام المدرسة، بحيث أصبحنا . وحتى ونحن تلاميذ أطفال . محل متابعة من طرف الشرطة بالمدينة، كلما أقمنا حفلا بمناسبة وطنية تاريخية أو دينية، أو قمنا بتمثيل مسرحية، أو أنشدنا أناشيد وطنية تهز المشاعر وتحمس الحاضرين من أولياء التلاميذ وغيرهم من المناضلين، إن الإدارة الاستعمارية وفي مثل هذه الحالات لم تكن لتفرق بين الصغير والكبير وكثيرا ما أغلقت المدرسة أياما عقابا لنا تلاميذ وأساتذة على هذه الأنشطة.

وقد كنا إضافة إلى تلك الفعاليات الثقافية والرياضية والكشفية نتلقى مختلف المواد العلمية والإنسانية بجانب المواد الدينية والتاريخية، حتى اللغة الفرنسية والتدبير المنزلي ومبادئ الموسيقى، مثلنا في ذلك مثل المدارس التابعة لقطاع التربية الذي تشرف عليه الإدارة الفرنسية.

كنا نجلس نحن البنات جنبا إلى جنب مع الأولاد دون أية عقدة أو فكر مسبق، أو سوء ظن، كانت القيم تحكم الجميع، وتسيرهم وتوجههم وليس القهر أو طقوس التحريم.

كان يتناوب على الأقسام والفصول أساتذة ومعلمون شباب، مناضلون مؤمنون بقضية الوطن، تخرجوا على يد الأستاذ الإمام ابن باديس نفسه، ومنهم من تخرج من جامع الزيتونة وغيرهم من المعاهد العربية وهم قلة.

ومن هؤلاء محمد الصالح رمضان، السعيد بن حافظ، عبد الحفيظ صويلح، الشهيد أحمد بوشمال، أحمد حماني، الصادق حماني، أحمد الجموعي، الصادق عبد الوهاب، الشهيد أحمد رضا حوحو وغيرهم.

ومن السيدات: حورية عريبة، نعناعة ونيسي، وعقيلة كحلوش، وهن الرائدات الأوائل في العمل التربوي ومهمة التدريس على مستوى الوطن. دون أن ننسى شيخ المجاهدين الذي إلتحق بثورة التحرير وهو في الستين من العمر " محمد بن عابد الجيلالي " هذا الرجل الذي زرع فينا روح الوطنية عبر أناشيده في كل المواضيع والتي كان يلحنها لنا أستاذنا في الموسيقى العبقري الشيخ "عبد القادر التومي" بكمانه الجميل المبطنة علبته بالمخمل الأحمر وهو ينمي موا هبنا الفنية وتذوقنا للموسيقى وعشقنا للنغم عبر كل محفوظة يقوم بتلحينها.

ومن تلك المحفوظات:

جزائر العزِّ اسْلَمِي دون بلائك دمي

هذا فؤادي وفمي وانتظري كلي غدا

بنا الجزائر تعود كما تبدت للوجود

أفقا يغض بالسُعود ويملا الأرض ندى

لاحظوا هذه النظرة الاستشراقية لجزائر الغد، جزائر الحرية والسيادة، وكذلك النظرة الانسانية لقضايا الإنسان، ويملأ الأرض ندى.

أستاذنا "محمد بن العابد" لم يكن حسه الحضاري في تعليمنا يقتصر على قضية الوطن الأساسية وهي الحرية ؟ بل إنه من خلال ألعابنا كان يضع لنا أناشيد تنتقد الأناشيد الفرنسية،وهو يستمع للبنات يلعبن لعبة "الحبل" ويغنين تلك الأغنية الفرنسية المعروفة "j’aime la galette" ليقول معبرا على لسان البنت الجزائرية واصفا أغنيته الجديدة للحبل:

طلوعي سناء وخُلقِي ضياء

وفعْلي بِناءٌ وفضْلي شمَلْ

ولست بقفزي أغني لِخُبزِي

فأدْعُو لِغمزِي سهام المُقل

"رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" صدق الله العظيم.

وتخرجنا من هذه المدرسة بشهادة التعليم الابتدائية فقط، لكنها بمحتواها المعرفي والعلمي في مختلف المواد كانت تعادل دون مبالغة ما يتحصل عليه اليوم طلبة الثانوي أو حتى التعليم الجامعي، لقد كان

المشرفون على تأطيرنا بالتدريس والتربية يختصرون الزمن من أجل الجزائر يحدوهم في ذلك إيمانهم بأن الإنسان هو رأس المال الحقيقي لبناء الأوطان.

إن مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة كانت لبنة نموذجية لبناء شامخ من المؤسسات التعليمية موزع عبر ربوع الوطن، ومشروع حضاري متكامل جاء كرد فعل لمخطط الممارسات التعسفية تجاه الأمة.

إن الوطنيين في الجزائر ومنهم ابن باديس صاحب هذا المشروع الحضاري لم ينسوا أبدا استراتيجية الاستعمار في النيل من هوية الأمة وثوابتها، ولم ينسوا أيضا الملك "لويس فليب" عندما استقبل الأسقف"دوبوش" لتدشين النشاط التبشيري بالجزائر بعد الاحتلال مباشرة حين قال:

"لا يكون العرب فرنسيين إلا عندما يصبحون مسيحيين ويتوقف ذلك علينا معا.."

ثم مستطردا:

"لِنُعِد الحياة إلى إفريقيا"

لأن إفريقيا وفي جبينها الجزائر في رأي الملك والأسقف، لا تكون في عداد الأحياء إلا بالمسيحية!

كما لا ينسى الجزائريون قولة الجنرال " دوبرمون" وهو يدخل منتصرا الجزائر مصرحا للقساوسة المرافقين له في حملته:

"إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا"

ليكون هذا التصريح فيما بعد، بمثابة الأمر من أجل تحويل المساجد والأوقاف إلى كنائس وإلغاء شرعية الأعياد الإسلامية، ولعل جامع "كتشاوة" دليلا حيا على ذلك؟ ألم يحول إلى كاتدرائية مباشرة بعد احتلال الجزائر: ليقول أحد علماء الجزائر وهو الإمام " مصطفى بن الكبابطي" بألم كبير:

"لئن تحولت العبادة في مسجدنا، فإن ربه لن يتحول في قلوبنا.."

وأخيرا: إنها ملامح ذكريات امرأة كان لها شرف المرور والانتماء والتخرج من مدرسة التربية والتعليم، لتصبح يوما ما بعد افتكاك الحرية والسيادة، وزيرة للتربية والتعليم، ملامح ذكريات شهادة تغلب عليها المشاعر أكثر من منهجية البحث العلمي، شهادة لعلها تكون مؤشرا لضرورة البحث العلمي في هذا المجال النضالي الحضاري الهام من تاريخ الأمة.

حالة العربية أثناء فترة الاحتلال البائد

نظام المدرسة "MEDERSA" (1850 – 1962)

أ. طاهر زرهوني

وزير متقاعد

الرئيس الأسبق لجمعية قدماء المدرسين

أسس سلاطين تونس وفاس وتلمسان ابتداء من القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي على غرار ملوك المسلمين في المشرق، مدارس رسمية ليتخرج منها كبار الموظفين في الدولة وكانت هذه المدارس تنشر الثقافة الدينية والأدبية والفلسفية والطب وعلوم اللغة والفقه والفلك وقد أصبحت البلاد الجزائرية خاصة بهذه المدارس، مجالا باهرا للنشاط الفكري.

أخذت المدارس في الازدهار، ابتداء من القرن الخامس الهجري وكان الخواص يبادرون بتأسيسها ويمدها المسلمون المحبون للآداب بتبرعاتهم وكانت هذه المدارس تقبل الهبات والوصايا وتحمل أسماء المؤسسين وكان المحصول الذي يعتبره الشرع كالأوقاف المخصصة لصيانة المساجد، أعني: لا يجوز تغيير غرضه، ويستخدم لدفع رواتب الأساتذة وتخصيص منح الطلبة النجباء.

وقد أسس الملك الزياني أبو حمو الأول (1308– 1318) مدرسة أولاد الإيمان بتلمسان وأسس أبو حمو الثاني (1359– 1389) بتلمسان أيضا المدرسة اليعقوبية.

وكان من عادة الملوك أن يختاروا مستشاريهم وكبار الموظفين من بين الطلبة المتخرجين من هذه المدارس ولا يمكن أن نتمثل هذا العهد المجيد من تاريخ المدارس بدون ذكر مدينة تلمسان وما يتصل بها من ذكريات يرعاها الاحترام العام، ويتوارثها الناس في هذه المنطقة بكل عناية.

وقد كان السكان يرون بكل فخر أن مدينتهم تملك جامعة ذاع صيتها وامتدت شهرتها إلى أقصى أطراف العالم الإسلامي، وشيدت مدرسة سيدي أبومدين في سنة 742 هـ= 1346 م وكانت أوسع المدارس شهرة وصرح أحد المسؤولين الفرنسيين في مجلس الشيوخ متحدثا عن المدارس قائلا: "كان جموع التلاميذ يلتفون حول الأساتذة المشهورين، مدفوعين برغبة التعلم ويساندهم حماسهم الديني خلال فترة التعلم الطويلة الشاقة، تبعا لمحتوى الدراسة في الجامعات الإسلامية، وبعد تخرجهم من المدرسة يحظون بالتقدير العام وأسمى الشهادات يطلبها كبار الرؤساء.

وقد اشتهرت مدارس أخرى في قسنطينة، سيدي عقبة علي بن شريف وسيدي الكتاني التي أسسها صالح باي وهو مدفون بها وعلى قبره هذه الكتابة: قال شربونو سنة 1876 م "وهو (أي صالح باي) أحيَ العلم الذي آل إلى الزوال، وشيد له دارا ينال بها أسمى الشرف وليست دارا بل إنها حرم للتعليم ذو هالة إشعاع ".

وهذه الكتابة تدل على ما يوليه المسلمون من تشجيع وإعظام للعلم والآداب في عهد المدارس القديمة.

وابتداء من العهد التركي في القرن السادس عشر فقدت المدارس شيئا من إشعاعها ولكنها بقيت ناشطة وبلغت المدارس قبل الاحتلال الفرنسي ألفي مدرسة ابتدائية وعليا في جميع جهات القطر الجزائري.

فكان بها أساتذة أكفاء يدرسون ويعلمون شبيبة مقبلة على التعلم.

وقد أحدث الاستعمار الفرنسي اضطرابا كبيرا في هذا العالم من المفكرين والأدباء وتخلى كثير من العلماء عن مناصبهم كما أن الطلبة تفرقوا وتوجهوا لطلب أسرار العلم إلى الزوايا التي كان بها أساتذة معزولون مجهولون ولكنها لا تخضع لأية رقابة.

ولم يعط المستعمرون الفرنسيون اهتماما كبيرا في بداية الأمر لحالة المدارس وأسند التصرف في دخل المساجد إلى محتالين استولوا لمصالحهم، على أكبر جزء من الأموال. ولوضع حد لهذه التجاوزات ضمت أملاك المساجد لأملاك الدولة.

ومنذ ذلك الحين، أهملت جميع المدارس تقريبا وأصيبت بالخراب والاندثار. وقد تدهورت المدارس فلم تعد تخرج رجال القضاء والدين وكبار الموظفين المسلمين وبدا ذلك أنه من المستحيل أن تؤسس من جديد لتمكن التعيين في الوظائف اللازمة.

وتقرر ابتداء من 1850 م إحياء الجامعات الإسلامية القديمة بالرغم من الانتقادات إذ أن المدارس كانت تعتبر مراكز "التعصب" أريد أن أقول مراكز للوطنية.

ويرجع تاريخ المرسوم الذي يعتبر ميثاقاً لإحياء المدارس إلى 30 سبتمبر 1850 م وقد لوحظ تدهور المدارس التي كانت تعنى بالدراسات الإسلامية العليا، وعلاجا للوضعية، أسست بهذا التاريخ في كل من المدية وتلمسان وقسنطينة مدارس عليا تكون المرشحين الأكفاء القادرين على شغل وظائف القضاء والتعليم العمومي وحتى مناصب الإدارة الخاصة بالأهالي. وقد خصصت اعتمادات لكل واحدة من هذه المدارس، وتتألف هيئة الأساتذة التي شكلت في 1851 م من رجال الدين الإسلامي وكلف الأساتذة المدرسون بالتعليم العالي في مساجد الفئة الأولى حيث كانوا يلقون دروسا تحضيرية لمسابقة الانخراط في المدارس.

وفيما يلي على سبيل المثال بعض الأرقام المتعلقة بالأقسام النهائية في المدارس الثلاث كما تبينه هذه الإحصائيات:

السنوات	الجزائر	قسنطينة	تلمسان	المجموع
1889	5	4	10	19
1897	9	7	18	34
1911	17	14	11	42
المجموع	31	25	39	95

وتوضيحا للآراء نقدم عدد المرشحين الذين قبلوا في شهادة الدراسات العليا للمدارس في السنوات التالية:

1904م: 11 مقبولا- 1906م : 12 مقبولا- 1911م: 15 مقبولا، وهذه الأرقام التي تشمل مجموع القطر الجزائري متواضعة، ضعيفة جدا، وكان التعليم مجانا حتى سنة 1859 م، ويقوم به أساتذة جزائريون ويكلف أحدهم بالإدارة وكان موضوع التعليم: الفقه والأدب العربي ومادة الفقه الإسلامي والقضاء والتوحيد والعقائد الإسلامية وكان من الممكن أن تعطى إعانات قدرها: مائة فرنك لأنجب الطلبة ويخصص لهم سكن تبعا لإمكانيات المحلات بالمدرسة.

كانت المدارس الموزعة على العمالات الثلاث بالمدية وقسنطينة وتلمسان مفتوحة بالقرب من أحد المساجد ومتصلة بها وحولت مدرسة المدية إلى البليدة في سنة 1855 م ثم حولت بعد أربع سنوات أي سنة 1859 م إلى العاصمة.

ولم تكن تشترط أي سن في ذلك التاريخ، لقبول التلاميذ ويسلم الأساتذة شهادة الكفاءة تؤشرها السلطة اعترافا بالدراسة التي تستغرق ثلاث سنوات.

كان اختيار تلمسان في غرب القطر اختيارا صائبا لأن ذكرى الجامعة القديمة بهذه المدينة ذكرى حية يتناقلها السكان في المنطقة بكل خشوع.

وكانت مدرسة سيدي بومدين القديمة واحدة من أشهر معاهد العلم في الغرب الإسلامي كله.

أما اختيار مدينة المدية مقرا للمدرسة "فلم يكن بالإمكان إيجاد مثل هذا المبرر له، ولذلك ففي عام 1855 م نقلت إلى مدينة البليدة. ولكن المدرسة خرجت مرة أخرى من هذه المدينة حيث تحولت، بعد أربع سنوات، بصفة نهائية إلى عاصمة البلاد لأسباب يسهل فهمها.

وقد كان اختيار مدينة قسنطينة لاحتضان المدرسة الثالثة موفقا بالنظر إلى المجد الثقافي الذي تحقق لمدينة يوغرطة، في حقب متفاوتة من تاريخها. إذ كانت مركز إشعاع فكري كبير. وهكذا تم اختيار مسجد سيدي الكتاني فيها ليكون مأوى مدرسة شرق البلاد، وكان هو نفسه مشهورا بما كان يمنحه من المعارف الرصينة والعلوم المتنوعة.

كانت هيئة التعليم تتألف من ثلاثة أساتذة جزائريين، أحدهم يكون مكلفا بإدارة المدرسة، وكانت هذه الهيئة تمتلك الحرية الكاملة في توجيه التعليم كما تشاء، وكان يزور هذه المدارس من حين إلى آخر مفتش فرنسي يتفقد ظروف سيرها.

يتضح من هذه الحقائق أن التنظيم الذي نص عليه مرسوم 1850 م يشتمل على نقائص كثيرة. وهذا ما أمكنت ملاحظته بسرعة بمجرد أن مضت سنوات قليلة عليه، وكان من علامات هذا النقص أنه لم يقبل على هذه المدارس إلا بعض الطلبة الذين يقيمون بالمدن التي تقع فيها هذه المدارس. ولقد كانت هذه المؤسسات،خلال المرحلة الأولى من عمرها, أشبه ما تكون, من بعض الجهات على الأقل، بمعاهد العلم في القرون الوسطى حيث كما بوسع كل إنسان أن يغرف من معين العلم كما يشاء ولكن ما تقوم عليه المعيشة لم يكن مضمونا لأحد. ولذلك كان فقر الطلبة تضرب به الأمثال.

لقد كانت إذن كل واحدة من هذه المدارس مقامة بجنب مسجد، وكان كل ما فيها عربيا صرفا: التلاميذ، والأساتذة "والمادة التعليمية، ولغة التعليم وقد انتبه المعنيون بهذه المدارس الى أن النتائج لم تكن أبدا تساير الآمال المنوطة بها. ولذلك كانت تجري بعض عمليات التعديل من حين إلى حين لتحسينها وفي هذا الإطار تقرر، عام 1895 م منح بعض الطلبة نوعا من الجراية تبلغ 0,80 فرنك لكل طالب في كل يوم. ولقد كانت هذه الجراية على قلتها تشكل مساعدة لا يستهان بها لدى أغلبية الطلبة الذين هم من

أسر فقيرة جدا تعودت أن تعيش بأقل الإمكانيات وقد بقيت هذه المدارس تشكو نقائص ملحة من حيث التنظيم يمكن أن نذكر منها:

- إنعدام الإدارة الملائمة.
- إنعدام الرقابة الفعلية على الدروس.
- ثم إن كثيرا من التلاميذ كانوا متقدمين في السن بحيث يصعب أن يستفيدوا حقيقة من العلم الذي يتلقونه. ولقد بقي نظام1850 م معمولا به إلى سنة 1863 م وهي السنة التي تم فيها وضع نظام جديد يمكن أن نقف فيما يلي عند أهم جوانب مضمونه:

لقد تقررت المحافظة على المدارس الثلاث بالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان كما احتفظ بالهدف المرسوم لها وهو تكوين المرشحين لشغل مناصب الإمامة بالمسلمين والعدالة، والتعليم الخاص "بالمسلمين". ومن هنا جاز اعتبارها معاهد عليا للفقه الإسلامي – أي الحقوق الإسلامية – وقد تم ضبط توزيع المعارف على المواد التالية: النحو والأدب والفقه والشريعة (التوحيد) واللغة الفرنسية والحساب والهندسة. وقد عين لكل مدرسة . ثلاثة مدرسين، كما كان ذلك في السابق وقد ضم إلى الأساتذة الجزائرين أستاذ فرنسي كلف بتدريس اللغة الفرنسية والحساب والهندسة وإلى جانب هذه المواد الأساسية كان هناك درس في التحرير الأدبي ، وآخر في تحرير العقود الشرعية، وبعد مدة حذفت مادة التوحيد من البرنامج وعوضت بدرس في الفقه الإسلامي. وقد ظهرت في البرنامج أيضا مادة التاريخ والجغرافيا.

أما فيما يتعلق بالإدارة فلم يصدر شيء واضح فبينما أسندت الإدارة في مدرسة تلمسان إلى أستاذ فرنسي، ظلت إدارة مدرستي قسنطينة والجزائر من نصيب أستاذين جزائريين ولم يكن يتم العمل بأية قاعدة مضبوطة فيما يتعلق بإختيار الأساتذة ولم يكن يطلب منهم أي مؤهل خاص. كان الاختيار تعسفيا بأتم معنى الكلمة. ولم تزل هذه الوضعية إلا في سنة 1874م حين اتخذ قرار بإجراء مسابقة لشغل منصبين شاغرين.ولكن هذا الإجراء لم يتحول إلى تقليد ولم يتم العمل به مرة أخرى، فاحتفظت السلطات وقتئذ بحقها المطلق في تعيين الأساتذة كما تشاء.

كان التعليم المسمى "إسلاميا" مفصولا بكل وضوح عن التعليم المسمى"فرنسيا" في نظام 1863م وكان لكل تعليم قاعات مختلفة يتم فيها. والذي تجدر ملاحظته هو أن اللغة العربية هي لغة التعليم لكل المواد، وكان الأساتذة المكلفون بتعليم مواد الحساب، والتاريخ، والجغرافيا، مجبرين على أن يؤلفوا بأنفسهم كتب المواد التي يدرسونها. إذ لم تكن توجد في اللغة العربية كتب في هذه المواد تناسب البرامج المحددة.

وقد نظمت امتحانات الالتحاق بهذه المدارس في مطلع كل سنة دراسية، وحددت سن المترشحين بكل دقة. ووضح المبدأ القاضي بأن يسكن كل التلاميذ داخل المدرسة وأن يخضعوا لقواعد الانضباط التي تم إتخادها ولا يكون الطلبة في النظام الخارجي إلا بصفة استثنائية، وعندما لا تتسع المحلات لإيواء كل التلاميذ. وقد تقرر منح كل طالب جراية يومية مقدارها 0,75 فرنك للأكل الذي هو حر في تناوله حيث يشاء. وفي سنة 1863م ضبطت نقطة أخرى هامة وهي تحديد أقصى مدة يمكن أن يقضيها الطالب في المدرسة بثلاث سنوات، فإذا بلغ التلاميذ نهاية المسيرة الدراسية كان عليهم أن يجتازوا إمتحانا ختاميا يسمى" إمتحان المتخرج" وكان يشمل جميع مافي البرنامج من مواد ومعارف، وعلى النجاح فيه يتوقف الحصول على وظيفة عمومية ولا سيما في القضاء الإسلامي، في رتبة "عادل" التي هي الدرجة الأولى في سلم الوظائف القضائية الإسلامية وفي الأخير ورد في نظام 1863م صراحة على أن صلاحيات الرقابة والتفتيش الممارسة على هذه المدارس من إختصاص السلطة الفرنسية.

وقبل أن ننتقل إلى التعرف على المرحلة الثانية التي ابتدأت بالقرار الصادر في 1876م، فإنه تجدر الإشارة إلى أن مجموع تلاميذ المدارس الثلاث قد بلغ مابين 120إلى130 تلميذا، تتراوح أعمارهم بين 20 و25 وحتى 30 سنة. (كان بمدرسة الجزائر 5تلاميذ من 25إلى30 سنة). وكان يمنح لهؤلاء الطلبة 0,80 فرنك في اليوم وكان عليهم أن يأخذوا من وقت الدراسة ما يكفيهم للقيام بأنفسهم بطبخ طعامهم، وغسل الملابس التي يشترط توفرها عندهم.

ويبدو أن ثورة المقراني التي استمرت إلى عام 1871م قد صرفت كل تفكير في التنظيم والإصلاح لهذه المدارس وقد استمرت دراسة اللوائح النظامية الجديدة مدة ثلاث سنوات، ضمن لجنة مخصصة لهذا الغرض وهي التي تجسدت نتائج أشغالها في القرار الصادر في 16 فيفري 1876م.

وهكذا، بعد 25 سنة من التجريب وتلمس الطريق، صدر هذا القرار الذي لم يدخل تغييرات جذرية على أسلوب التنظيم الذي وصفناه آنفا. ولكنه مع ذلك جاء ببعض المعطيات الهامة التي يمكن أن نذكر منها:

- اخراج مراقبة هذه المدارس من دائرة صلاحيات السلطة العسكرية.

- تعريف المدارس بأنها معاهد تعليمية عليا في مجال الفقه الإسلامي. مكلفة بتكوين المرشحين لشغل المناصب الدينية، والقضائية والتعليمية العمومية، وكذا الوظائف الأخرى التي يمكن أن تسند للمسلمين وفقا للمرسوم الصادر في تاريخ 21 أفريل 1866م.

ومن ناحية أخرى تضمن القرار المشار إليه فرض تحديد سن المرشحين لدخول هذه المدارس وجعلها بين 17 و 25 سنة كما نص على وجود اجتياز امتحان أمام لجنة، وذلك في المواد التالية:

- تمارين في اللغة الفرنسية.
- تمارين في الحساب.

وقد حافظ القرار على مدة الدراسة المحددة بثلاث سنوات، وقد تم توزيع المواد التالية:

1. تعليم اللغة العربية والأدب العربي والفقه والشريعة الإسلامية.
2. تعليم اللغة الفرنسية، والتاريخ والجغرافيا والحساب ومبادئ القانون الفرنسي المدني والجزائي والإداري.

وتتم مراقبة الدراسة بواسطة امتحانات الانتقال حسب الاستحقاق وتسلم للناجحين شهادة تسمى "أهلية الدراسة الإسلامية" .

ثم جاء القرار الصادر في 01 أكتوبر 1884م فأدخل في هذا التعليم مبادئ علم الفلك، وفي سنة 1887م تم الشروع في مبادئ العلوم الطبيعية والفيزيائية، وحفظ الصحة، والتربية الأخلاقية والمدنية.

وفي هذه المرحلة، تم أيضا استبدال الجراية التي كانت تؤخذ من الضرائب التي يدفعها الجزائريون بمنحة سنوية قيمتها 300 فرنك أو نصف منحة مبلغها 150 فرنكا، وكانت تعطى للطلبة الذين لا تمكنهم وسائلهم الخاصة لاستجابة مطالب الحياة اليومية. إن هذه المنحة التي كانت تدفع مقدما، عن كل ثلاثة أشهر تتكفل بمبالغها الدولة أو العمالات أو البلديات.

وقد كان عدد تلاميذ المدارس الثلاث 62 تلميذا سنة 1868م ، فلم يزد عن 80 تلميذا في السنة الدراسية 1884م–1885م موزعين كما يلي:

- الجزائر 21
- قسنطينة 24
- تلمسان 34

وفي سنة 1885م نزل العدد الإجمالي إلى 57 تلميذا، ثم ارتفع إلى 65 في عام 1886م، وإلى 83 في عام 1892م.

وببلوغنا نهاية هذه المرحلة الثانية يمكننا أن نلاحظ بأن تنظيم المدارس مازال ناقصا بالرغم من أن التلاميذ الذين ينهون الدراسة فيها يتخرجون بمعارف عميقة ومتنوعة.

وقد تولى المرسوم الصادر في 23 جويلية 1895م مهمة إصلاح النقائص، وذلك بعد الانتقادات الواسعة التي كانت تصدر عن أعداء هذه المدارس والتي جاءت في شكل أسئلة بهذا النوع:

- لماذا ينبغي إعادة تنظيم هذا التعليم العالي الإسلامي؟
- لماذا إحياء هذه المدارس الخاصة بالمسلمين ولماذا لا يمكن أن يلتحق بها أي طالب فرنسي؟
- لماذا لم يتم القضاء على هذه المدارس؟

كانت ترجمة هذا الرفض عند الكثيرين تأتي بمنح كل الاعتمادات المالية لهذه المؤسسات.

ولقد عاشت المدارس من سنة 1880 إلى سنة 1890 في وضع يتميز باللبس والغموض. وكان كثير من رجال السياسة ينظرون إليها بعين العداوة، ويعتبرونها أوكارا حقيقية لما يسمونه "بالتعصب" وهي كلمة معناها الحقيقي "الوطنية" حيث تلقن التلاميذ الحقد على فرنسا، وحيث تنمو نزعة المعاداة لمَا هو فرنسي: (القانون الشخصي، اللغة، القرآن، وكل هذا معناه –في نظرهم– عرقلة المجهود الذي يبذل لتحقيق إدماج أربعة ملايين من "الأهالي" (" الأنديجان" Indigènes).

وقد انتهت تلك الانتقادات الحادة، الموجهة ضد المدارس بصدور التنظيم الجديد الذي جاء به مرسوم 23-7-1895م وقرارات الفاتح أوت 1895م وقرارات ومناشير 19أكتوبر 1904م و18 مارس 1905م و 24 جوان 1907م.

وقد تم إدخال التغييرات التالية على المنظومة:

1. الحصول على الشهادة الابتدائية للترشح لهذه المدارس.
2. اجتياز امتحان للدخول الذي يتضمن اختباراً كتابيا و اختباراً شفويا.
3. أن لا يقل العمر عن 15سنة وأن لا يزيد عن 20 سنة.
4. أن لا يكون المترشح مصابا بأي مرض معد.

وقد بلغ عدد المترشحين للمدارس الثلاث 96 تلميذا، قبل منهم 51 بصفة نهائية.

وحددت مدة الدراسة بأربع سنوات، وتسلم للطلبة المتخرجين"شهادة تعليم في المدارس"، ويمكنهم أن يقبلوا في القسم الأعلى الذي أنشىء في مدرسة العاصمة وحدها، وخصص لأحسن الناجحين في المدارس الثلاث، تدوم الدراسة في ذلك القسم الأعلى سنتين.

ويشتمل التعليم الممنوح في هذه المدارس على مواد متنوعة:

1. التعمق في دراسة اللغة العربية، والفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية.

2. دراسة اللغة الفرنسية، ومبادئ التاريخ والجغرافيا، والقانون العام، والتنظيم الإداري، والحساب، والهندسة والجبر، والعلوم الطبيعية والفزيائية.

أما التعليم الممنوح في القسم العالي فيشمل المواد التالية: الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي، وتفسير القرآن الكريم، والأدب العربي، والبلاغة والمنطق وتاريخ الحضارة الفرنسية ومبادئ القانون الفرنسي، والتشريع المعمول به في الجزائر.

وتنتهي الدروس في آخر السنة الرابعة بامتحان التخرج الذي تسلم للناجحين فيه " شهادة التعليم في المدارس " وهي شهادة تشترط للتوظيف في المناصب التالية:

"دلال . عادل . خوجة . وكيل . طالب" (أي مدرس في المدارس والمساجد) مؤذن . حزاب . إمام . باش عادل . قاض . مفت".

وقد كانت نتائج شهادة التعليم، وشهادة الدراسات العليا، في العام الدراسي 1907 . 1908 كما يلي:

. في الجزائر العاصمة نجح 9 من بين 13 مترشحا.

. في تلمسان نجح 14 من بين 14 مترشحًا.

. في قسنطينة نجح 9 من بين 9 مترشحين.

أي بلغ مجموع الناجحين 32 مترشحا.

أما فيما يخص دبلوم الدراسات العليا فقد تقدم إليه 12 مترشحا، ونجح الجميع فيه.

وتيسيرا لتعيين المرشحين ،رفع مبلغ المنحة السنوية المخولة للطلبة من 300 فرنك الى 360 فرنك كما زيد في عدد المنح وبلغ عدد الطلبة المنتظمين 216 سنة 1907م منهم 151 طالبا يحظون بمنحة من الدولة و16 طالبا يحظون بمنحة من العمالة و14طالبا يحظون بمنحة من البلديات أي مجموع181 طالبا يدرسون بمنحة في الجملة ولا تعطى أية منحة للمستمعين الذين يحضرون لسماع الدروس ويقبل هؤلاء بدون شرط يتعلق بالسن أو بالمستوى لكن يجب أن يحضروا ،الدروس باستمرار.

ولا تعترف بحضورهم ولا بما حصلوا عليه من معارف ولا تعطى لهم أية شهادة كانت المدارس الابتدائية لا تقبل تلامذتها إلا من بلغ السنة الثالثة عشر من العمر بينما لا تقبلهم المدارس إلا في السن السادسة عشر فنظم لذلك تعليم تكميلي باللغة العربية في بعض المدارس التكميلية بالجزائر وتيزي وزو والمدية وتلمسان وقسنطينة.

تحسنت وضعية الموظفين بالمدارس خلال هذه السنوات ورفعت رواتب الأساتذة من 1500 فرنك و 3000فرنك الى 2500 فرنك و 5000 فرنك وقد صنفت الى ست مراتب ودفعت الى الأساتذة منهم ثلاثة جزائريين وثلاثة فرنسيين.

وكان الوالي العام وعميد الجامعة هما اللذان يشرفان على هذه المؤسسات وكلف مفتش عام بتفقد المدارس مرتين في السنة و بتوجيه تقرير لهما.

برنامج المواد الدراسية:

1. بالعربية: يجب على الطلبة الذين يتولون فيما بعد مناصب القضاء أن يعرفوا لغتهم العربية معرفة متينة ويتقنوا الفقه .وقد خصصت أربع ساعات في الأسبوع، وفي كل سنة لهاتين المادتين وقال مدير مدرسة تلمسان أن النحو يدرس دراسة متينة خلال أربع سنوات وفي كل سنة يقبل عدد من تلامذتنا في امتحانات الأهلية و شهادة اللغة العربية اللتين تسلمهما المدرسة العليا للآداب بالعاصمة أي الكلية.وكان الفقه الإسلامي يدرس أساسا في كتابي المذهب المالكي المشهورين في الجزائر "الرسالة لأبي القيرواني" خلال السنتين الأوليتين و"مختصر خليل" في السنتين الثالثة والرابعة وكان التوحيد يحتل مكانا أقل توقيتا وفي 3 أبريل سنة 1908م فتح فرع تجاري بالجزائر العاصمة لتوظيف الطلبة الذين ينجحون في امتحان الارتقاء آخر السنة الثالثة و كانت الدروس تشتمل على المراسلة التجارية والمعلومات التجارية التطبيقية والقوانين التجارية والفقه الإسلامي وقد ألغي هذا الفرع وعوض في سنة 1936م بدروس خاصة في التربية والترجمة والتعريف بالعلوم.

2. بالفرنسية: يتلقى الطلبة معلومات في الأدب ويدرسون نصوصا مختارة ويمكنهم من معرفة كافية بالشعراء والأدباء الذين عرفوا في القرون الماضية على أن الطلبة يفضلون بصورة بينة الرياضات من الجبر والهندسة والحساب والعلوم من فيزياء ونبات وكيمياء وطبقات الأرض وهذه المواد كانت مما يؤكد عندهم روح الملاحظة والتفكير ويعرفهم بالاختراعات والاكتشافات الكبرى في القرن التاسع عشر.

-والقانون في فروعه المختلفة من الاقتصاد السياسي والقانون الإداري والقانون المدني يتوسع في دراسته بدون أي تقييد، وتسمح دراسة التشريعات الجزائرية في السنتين الثالثة والرابعة للأساتذة بإجراء مقارنة مفيدة ومرشدة بين مبادئ القانون الفرنسي والفقه الإسلامي ولا سيما في مجال الأموال والمواريث.

وتستكمل هذه الدراسة بدراسة تاريخ الحضارات والحركات السياسية والدينية الكبرى مع توضيح أسبابها ونتائجها وبالجغرافيا باعتبار أنها دراسة منطقية للأرض والإنسان وللظاهرات الطبيعية الكبرى وبدروس في الصحة يقوم بها طبيب.

وقد حولت مصالح مدرسة الجزائر في سنة 1904م من نهج دوكين إلى مقر المدرسة الجديدة في نهج "مارينغو" التي تكلف بناؤها 180.000 فرنك في ذلك العهد وتم تدشينها في 17 اكتوبر 1904م بإشراف شوصي وزير التعليم العمومي وحضور "جونار" الوالي العام.

أما المباني الجديدة لمدرسة تلمسان، فقد دشنت في 7 مايو1905 وقد شيدت المدرستان على غرار الفن العربي المعماري فكانت تفكرنا بأجمل صفحات تاريخ الإسلام.

أما مدينة يوغرطة العتيقة فقد كانت تملك محلات واسعة بشارع المنصورة استقرت مصالح المدرسة المختلفة بها في مرسوم أكتوبر1907م.

ولم تتحقق الرغبة التي تكرر توجيهها في سنة 1904 الى1909م لتُفْتَح مدرسة رابعة ببجاية وقال مدير مدرسة تلمسان ألفريد بيل :"إن المدارس التي كانت تنشر الثقافة الإسلامية بتخرج طلبة مسلمين لا يجدون أي حرج في إطار مجتمعهم الإسلامي فمعارفهم بالعربية والدين والفقه الإسلامي تجذب لهم التقدير والاحترام من أكثرية إخوانهم المسلمين ".

ويقول آخرون في ذلك العهد أن المدارس في سنة 1936م يوجد فيها 172طالبا منهم خمسون في قسنطينة واثنان وأربعون في تلمسان وثمانون في الجزائر العاصمة.

وقد أتاح التنظيم المتجدد في المدارس على توالي السنين للطلبة المجتهدين من العائلات الشعبية المتواضعة، الحصول على وظائف كبيرة في القضاء الإسلامي وفي الترجمة الشرعية.

وصادف هذا التجديد في نظامها مرور مائة سنة على تأسيسها وابتداء من سنة 1930 وجهت انتقادات ضد نظام المدارس الثلاث التي لم تكن تحضر الطلبة لشهادة البكالوريا والإجازة والتبريز ولا توفر الشروط الوافية لتعليم عربي عال على غرار جامعة القرويين بفاس وجامع الزيتونة بتونس ،وذلك ما أعرب عنه نائب جزائري (التمزالي) في دورة مايو/يونيو 1934 بالمجلس المالي الجزائري.

وتبقى القضية مطروحة بهذه الصورة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ولم يحدث تأسيس معهد الدراسات الإسلامية العليا في سنة 1946 إلا تغييرا شكليا بالنظر إلى النظام القديم وهو في الواقع القسم الأعلى من مدرسة الجزائر الذي نظم على حدة تحت إشراف كلية الآداب.

ولكن السنة التاريخية الكبرى في حياة المدارس إنما هي سنة 1951 (مرسوم 10-7-1951)الذي حولها إلى "ثانوية تعليم فرنسي إسلامي".

وقد نظمت هذه الثانويات لتلقين التعليم التقليدي الإسلامي وبالإضافة إلى ذلك لتحضير شهادة البكالوريا للتعليم الثانوي.

ويلاحظ أنه قد خصص قسط واسع من التوقيت للدراسات العربية في هذه الثانويات من7 الى12 ساعة في الأسبوع بدل ثلاث ساعات بالمقارنة مع الثانويات العادية. فلتحقيق هذين الهدفين أعنى التحضير للبكالوريا والتكوين المتين بالعربية، ظهرت هذه الثانويات على أنها نظام يستحسن كما ينبغي بتطلعات الطلبة والطالبات في ذلك العهد، وأنه يفتح لهم أبواب المستقبل.

وقد وسع هذا النظام في السنة 1954 بتأسيس ثانوية أخرى في القبة بالجزائر العاصمة خاصة بالطالبات، منهن مناضلات ومجاهدات وشهيدات أثناء الثورة التحريرية رحمهن الله.

على أنه ثمة بعض المترددين الذين انتقدوا هذه التجربة الغنية ولكن لم يكن هذا من اختصاصهم وقد ذهب البعض في المبالغة إلى درجة أن طلب إلغاء هذه الثناويات وتم القرار بذلك وطبق بعد استقلال بلادنا.

على أن هذا الشكل من نظام التعليم لم يكن مطابقا لحاجات ذلك العهد في بلادنا فقط ولكنه لا يتعارض مع التسامح الإسلامي الذي أعرب عنه كبار الممثلين للفكر الجزائري منذ الأمير عبد القادر (1807-1883) إلى عبد الحميد بن باديس (1889-1940).

ومع التأسف عما ارتكب من انحياز وتأخر وأخطاء خطيرة متعمدة على حساب التعليم في بلادنا كما كان في عهد الاحتلال الاستعماري فلا يمكن إلا أن ننوه بتجربة المدارس.

فحصل الاستعمار عن طريق هذه المدارس الأربع على نتائج معكوسة كان لم يتوقعها أبدا فالتحق العديد من طلابها بصفوف جبهة التحرير الوطني بعد اندلاع الثورة المباركة وألقى القبض على بعضهم وسجنوا واستشهد، رَحِمَهُم الله عددٌ كبير منهم: العقيد لُطفي المُسمّي دغين بن علي (5 ماي 1934-27 مارس 1960) القائل: "تموت ويحيا الوطن" وحيحي المَكي وعمارة رشيد ومكِيوِي مامون المدعو سي عبد الرحمان وعبد المالك محمد الذي مات وعمره 17 سنة، وعياد عبد الكريم وشقرون عُمر وديب محّمد وعرومية دراوا والأخوان خطيب حكيم وخطيب تاج الدّين وإبراهيم مصطفى وجلاّد محراز وقادة كلوشة والقائمة مفتوحة...قصْد الإحصاء.

إضافة إلى اغتيال عدد من المدرسين القدماء من طرف الإرهاب أثناء العشرية السوداء الأخيرة منهم براح خذير مستشار في وزارة التربية وأساتذة جامعيين كالأستاذ رابح اسطنبولي.

قام هؤلاء المدرسون بأدوار كثيرة على مر السنين قبل وأثناء وبعد الثورة التحريرية المباركة في المؤسسات التربوية والمحاكم والمساجد والأوساط الشعبية وفي جبهة وجيش التحرير الوطني.

فقد جمعت إذا هذه المدارس عن طريق ثقافة أصيلة عربية إسلامية عقول المدرسين و مشاعرهم بفضل الأساتذة الجزائريين إلا جلاّء رحم الله من وافته المنية وأطال الله عمر من بقى منهم علي قيد الحياة.

فتجندوا منذ استرجاع استقلال بلادنا في سائر قطاعات النشاط بصفتهم إطارات سامية وأساتذة جامعيين وباحثين ومؤلفين وسفراء وأطباء ومهندسين ومؤطرين في التعليم والإدارة العامة وفي المؤسسات الاقتصادية وفي الحكومة الجزائرية كرؤساء ووزراء وغيرها لتشييد بلادنا العزيزة التي اجتاحتها الحرب طيلة سبع سنوات ونصف وبعد احتلال دام أكثر من مائة وثلاثين سنة.

فلا يزال يوجد بعد أربعين سنة من إغلاق "المدرسة " سنة 1964م، روح مدرسية وتعاطف مدرسي وأخوة مدرسية، وهذا ما نقوم به جميعا بمناسبة الذكرى الخمسين لإندلاع الثورة المباركة المجيدة.

وبالإضافة إلى الدراسة المتواضعة المقترحة حول: "نظام المدرسة (1850،1962) medersa- أقترح على قراء "مجلة اللغة العربية" الكرام، أبياتا شعرية من قصيدتين ألفهما مَدْرَسيٌ ممتاز للغاية، أطال الله عمره، ألا وهو الصديق الأستاذ عبد القادر بن محمد من الإطارات السامية – متقاعد.

القصيدة الشعرية الأولى:عنوانها: "مُعلَّقَةُ المَدْرَسَة " فيها 140 بيتاً، أذكر منها ما يلي:

1. قفا نتذكر منزلا أي منزلي * بمدرسة كانت لنا خير منزل

13. علي الضاد والقرآن و الأدب الذي * يضف طريقا للتليد المكمل

14. فلم يبق ألا أن تثور بلادنا * علي الظلم و الليل الطويل المذلل

91. وربطة للمدرسين كلهم * لنا درب الوفاق المكمل

131. سلام عليكم طيب مثل باقة * من الورد والزهر الجميل المبلل

14. ودمتم كما دمتم بخير ونعمة * وهل هي إلا في اللقاء والتكتل

القصيدة الشعرية الثانية عنوانها "تحية إلى سى قدور نعيمي بمناسبة تقاعده بعدان مارس عدة وظائف منها أستاذنا في مدرسة تلمسان ومفتش أكاديمية فقد قضى نحبه رحمه الله وسكنه فسيح جنانه آمين، أذكر عشرة أبياتا من عشرين

1. نحيك سي قدور قد كنت مخلطا * صبورا على كل الشدائد والمكر

4. تخاطب بالضاد الفصيح معبرا * بكل الوضوح عن معانيك بالدار

5. و إن شئت بالأخرى بكل براعة * تروح وتعدو في الكلام بلا عسر

6. وأعمالك البيض الميامين كلها * شواهد عن إخلاصك الفذ في البر

7. تقاعدت لكن التقاعد عندنا * حرام فمن مهد إلى غاية القبر

9. ولكن فقد جاهدت شرقا و مغربا * فأصبحت أهلا التقاعد و العذر

10. سلام عليك اليوم إذ أنت بيننا * فلسنا بناسين العهود مدى الدهر

11. أحييك بالأشعار وهي بضاعة * تكاد تكون اليوم كاسدة السعر

14 . فمني ومن كل الرفاق تحية * مباركة الأنفاس طيبة العطر

20. جزى إليه أمثال النعيمي فإنه * مثال الوفا والود والصدق والصبر

أسعد الله بعضنا ببعض ووقفنا إلي ما يحبه ويرضاه والسلام عليكم ودمتم في رعاية الله وحفظه

رحم الله شهداءنا الأبرار وأسكنهم فسيح جنانه آمين

اللغـة العربيّـة في الـجزائــر

(على عهد الاستعمار الفرنسيّ)

د. عبد الملك مرتاض

(جامعي)

لو كنّا قادرين على إحصاء ما كُتب عن موضوع اللّغة العربيّة في الجزائر، على عهد الاستعمار الفرنسيّ، لَنَفِدَ بحرٌ تُمِدّه بحورٌ من المداد، بل لَنفِد الكلامُ نفسُه. وربما نحن نعمل بمقولة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «لولا أنّ الكلام يُعاد، لَنَفِدَ». فلْنُعِدْ، إذن، ما كنّا قلناه، ولْيُعِدِ الكتّابُ الآخرون، ما كانوا، ربما، قالوه، هم أيضاً؛ وذلك من باب أنّ في الإعادة، إفادة!... ومن يدري؟ فلعلنا أن نأتِيَ اليوم ببعض الجديد!...

لقد كان هذا الاستعمار، فيما عرفْنا شيئاً من سيرته في الجزائر، يتلذّذ تلذُّذاً عجيباً بإيذاء كلّ مَن تسوّلُ له نفسُه تعلُّمَ العربيّة في الجزائر على عهده البئيس، بلْهَ تعليمَها والنّضْحَ عنها، والتمسّكَ بقيم العروبة مبدأً.

ولو أرسلنا العِنان لهذا القلم، ليكتبَ عن هذا الموضوع الْمُوقَرِ بالآلام، ولكن المعبَّق بالنّضال في الوقت ذاته، لَخَشِينا أن يتّسع ذلك لمجلّدات ضِخام، وأسفار عِظام. والآية على ذلك أنّ الدكتور محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة وقَفَ، مشكوراً، عدداً كاملاً من مجلّة «اللغة العربيّة» لهذا الموضوع الوطنيّ الذي ارتبط بالدّفاع عن قيم الشعب الجزائريّ الذي أمسى مكوِّناً عظيماً من ثوابته، ورُكْنا مَكيناً في هويّته.

وإذا كنّا نحن، وكأنّنا واقعون، في هذه المقالة، تحت استفزاز العاطفة الجائِشة التي لم نستطع كبْحَ جماحِها، ولا قمْعَ غُلوائها؛ فلا أقلَّ من أنّ زملاءنا من الباحثين والكتّاب الجزائريّين، أحسن اللّه إليهم،

سيعوّضون نقْص مقالتنا هذه من خلال كتاباتهم النيّرة والرصينة التي سيُمِدّون بها، حتماً، هذا العدد من مجلّتنا الجميلة الغرّاء. فهم، إذن، وذاك.

أمّا نحن فليس سبيلنا، هنا والآن، إلاّ الوقوع تحت سلطان النقص والقصور، وربما الإبْلاس والسُّمود.

لكنْ عمَّ نتحدّث من أمر هذي العربيّةِ، اليومَ، في الجزائر، على عهد الاستعمار الفرنسيّ الدّابر؟ فكلّ موقف وقَفه عالم من العلماء، أو زعيم من الزعماء الجزائريّين، هو موقف ملطَّخ بالدماء اللّغويّة، مشحون بالهموم، بل هو مَدْرَجَةٌ للنّفي والهوان، بل هو مَجْلَبَةٌ للنكال والعذاب؟ فكم سُجِن في حقّ هذه العربيّة من كان يعلّمُها الصِّبْيَةَ الجزائريّين! وكم نُفِيَ من كان يودّ لو تقوم هذه اللّغة في المدارس الفرنسيّة بالجزائر ولو إلى جانب الفرنسيّة! بل كأيِّنْ من كاتبٍ بها قُتِلَ! أم ننسَى اغتيال أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، وعبد الكريم العقون، والعربي التبسيّ، والأمين العموديّ، وسجْن الإبراهيمي، ومحمد العابد الجلاّلي... ومئات طلاّب معهد ابن باديس بقسنطينة الذين بلغ عددهم في أكتوبر من سنة أربعٍ وخمسين وتسعمائة وألف ثلاثةَ عشرَ وتسعَمائة طالبٍ، استشهدوا في مَعاظِمهم أثناء ثورة التحرير، ومع بعض أساتذتهم أيضاً؟

أم سيقولون لنا لا أبَا لهم: انْسَوُا الهمَّ ولا تنبُشوا قبرَه؟ ودَعُوا الخوض فيما يثير العواطف، ويستفزّ النّفوس... وإمّا لاَ، فاذهبوا بهذا القبر، إلى مكانٍ قَفْر؛ وهناك سائلوهُ غِرَارَ العُمْر! وتناسَوُا التاريخ ولا تذْكُروا من أحداثه حديثاً؟

نحن لا نريد أن ننبُش ماضياً مُوقَراً، حقّاً، بأثقال الظلم والاضطهاد، ومُثْقَلاً، فعلاً، بألوان النكال والعذاب؛ لأنّنا نعلم أنّ الأحقاد -نُقِرّ بذلك- لا تبني حضارة، وأنّ الضغينة لا تقدّم شعوباً... لكنْ أليس من حقّنا وواجبنا معاً أن نَصِف -على الأقلّ- الأحداث التي وقعت لشعبنا وكان لها ضحيّةً: حدَثاً، حدثاً؛ ونذكر المواقف، موقفاً، موقفاً، دون السّعْي إلى إضفاء الغِلّ عليها؛ وذلك لتعتبر بها الأجيال، ولِنُنْصف أولئك الذين لم يبخلوا بدمائهم ولا بأموالهم في سبيل تحرير الجزائر من ربقة ذلّ الاستعمار، عكس جيلنا هذا المتقاعِس المتناعس، الذي لا يودّ أن يأبَه لشيء، ولا يضحّي بشيء، من أجل هذا الوطن؛ وإنّما يحرص على الْتِهام ثمرات الشجرة التي غرسها الشهداء!؟... تهارُشٌ على الكراسيّ، وتناحُرٌ على المناصب... ثمّ لا شيء!...

لكنْ هل نَغُلّ أيدِيَنا، ونُلْجِم ألسنتَنا، ونكبَحُ أقلامنا، فلا نذكر الذين فعلوا بعربيّتنا وبجزائرنا وبشعبنا الأفاعيلَ المنكَرة، وصبّوا عليه الإهانات صبّاً عنيفاً، إلاّ بخير!؟ وكيف نُطالَب نحن بنسيان تاريخنا من حيث هم لا ينسَوْن تاريخهم أبداً، بل يستظهرونه حدَثاً حدثاً؛ ولا ينسَون مسيراتهم الاستعماريّة أبداً، بل

تراهم لا يَئُونَ يتباهَوْن بها فيذكرونها شِبراً شبراً، ويضمّخون بها أطراف الزمان عِطراً؟... حتّى إذا تحدّث متحدّث منا، وعلى استِحياء، وبصوت خافتٍ، وفي قلّة من الكرام، وفي غبَشٍ من الظلام، وبِأَخَرَةٍ من الزمان، قيل له: اسكتْ، لا أُمَّ لك، فلستَ إلاّ «شوفينيّاً» صغيراً: ضيّقَ النظرة، متعصّب السيرة، أعمى البصيرة...!؟ وأين أنت من استقبال المستقبَل بالحلم الضّائع؟ ثمّ أين أنت من الشُّرَأْبِيبَة إلى حياة جديدة نضَّاخَةٍ بالأمل الوديع؟... دعْ عنك التاريخَ فليس إلاّ حكاياتٍ تُحكَى، وأخباراً تُرْوَى، ثمّ من وراء ذلك لا شيء!...

وكذلك نحن في أمرنا مع تاريخنا الذي تريد طائفة من أبناء جلدتنا إمّا تشويهَه بسُوء التّأويل، وإمّا نسيانَه بالضّرْب عنه صفحاً نهائيّاً ليحلُوَ لها ما يحلو من هذه التّفاهات التي ورِثناها عن الثقافة الاستعماريّة، ومنها بُغْض الذات، والاستهانة بكلّ ما هو وطنيّ، ولو كان عظيماً؛ وتمجيد كلّ ما هو أجنبيّ، ولو كان حقيراً!...

أن نكتب، اليومَ، عن العربيّة على عهد الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، لا نستطيع أن نتجرّد من العاطفة الوطنيّة بحكم أنّا ننبش في موضوع هو جزء من الْهوِيّة، وهو عنصر من الثوابت، وهو ركن من الذات؟

ولقد تحدّثنا، وتحدّثوا، عن العربيّة وجمعيّة العلماء، وعن العربيّة والأحزاب، وخصوصاً حزب الشعب الجزائريّ الذي استحال إلى حزب انتصار الحريات الديمقراطيّة، وعن العربيّة والزوايا النائية، وعن العربيّة والجوامع التي كانت تغلَّق لمجرّد أن يعلِّم فيها حافظُ القرآن الحروف العربيّة للأطفال، وبطريقة بدائيّة، ولو كان ذلك يتمّ على بالي الحصير، وبين مسودّاتِ الجدران، وفوق أرضيّة متربة مغبرّة... ثمّ عن العربيّة والفلاّحين والذين كانوا يذهبون إلى الأسواق، ويشهدون المقامات... ثم أخيراً عن العربيّة وثورة التحرير...

وعلى الرغم من أنّنا تحدّثنا عن بعض ذلك من قبلُ وتحدّث آخرون أيضاً، فإنّا وحيث أتاحت لنا مجلّة «اللغة العربيّة» أن نعود إلى هذا الحديث، فلْنَعُدْ! ولكنْ لِتَكُنْ عودتُنا إليه جَذَعَة! من أجل ذلك نودّ اليوم كتابة حديث عن العربيّة من حيث هي لغة الشعب الجزائريّ في بواديه وقُراه، وأسواقه وحقوله، ومساجده ومواقفه العامّة، وحيث كان يتواجد الناس، في شكل شهادة تاريخيّة...

لكنْ لماذا نتحدّث عن هذا؟ ألأنّ مجلّة «اللّغة العربيّة» دعتْنا إلى الكتابة فيه؟ حقّاً إنّ ذلك وارد. ولكنّ الذي هيّأ لنا الْمَحَجّة، وأنطقَنا بالْحُجّة، ولأكُنْ صريحاً مع القارئ الكريم، ولو على هون ما، هو شيء آخرُ كان دفيناً في النّفس حتّى جاء هذا اليوم لِنُبْديَه ونبْعثَه... ذلك بأنّي قرأت يوماً في جريدة تنطق بلغة الإفرنج في الجزائر، ومنذ بضعِ سنواتٍ خلتْ، فقد زعمت تلك الورقة التي تصدر بمدينة الجزائر ما

معناه: لقد كان المسؤولون الجزائريّون في مطلع عهد الاستقلال من الجهل والضلال، والرّعونة والحرمان، بل كانوا من التعصّب والتّعسّف، بحيث اغتصبوا حقّ الجزائريّين بأن فرَضوا عليهم اللّغة العربيّة فجعلوها المادّة الثانية في الدّستور... وما كان ذلك منهم إلاّ قهراً للجزائريّين وغصْباً، فكان جُرْماً إمْراً، وإثما إدّاً، وقراراً نُكْراً! ولو صدَقوا الجزائريّين النّيّة، وكشفوا عن طواياهم طويّةً، طويّة، وأنصفوهم السلوك، لكانوا جعلوا لسانهم العجميَّ لهم لساناً، وتاريخَ سَوائِهم لهم تاريخاً!... ولقد كَبُرتْ كلمةً تخرج من أفواههم! ولقد فظُعت فكرة تقبَع في غَيَابات أهوائهم! فمالَهم، ويْحَهم، انفصلوا عن سيرة آبائهم وأجدادهم!؟ فهل كان يجوز للجزائريّين أن يقبَلوا العجميّة لساناً وهم الذين كانوا، في كثير منهم، يرفضون أن يُرسلوا أبناءهم إلى مدارس الإفرنج –حين كانوا يحكموننا بغير الحقّ– مخيَّرين غيرَ مُجْبَرين؟ يبدو أنّ هؤلاء ليسوا إعلاميّين صغاراً في السّنّ فحسبُ، ولكنّهم صغار في العلم والتاريخ أيضاً، فجهِلوا ما كان ينبغي لهم أن يعلَموا، فلم يفعلوا...

أكان يجوز إجبار الجزائريّين، في صيف عام اثنين وستين وتسعمائة وألفٍ على أن يكونوا أعاجمَ يرطّنون بلغة غيرِ لغتهم، بعد أن رضعوا لبان هذه اللّغة الجميلة قريباً من أربعة عشر قرناً من التاريخ، وذابتْ في عواطفهم، وأمسَوْا يصلُّون بها، ويحلمون فيها، ويغنّون بأشعارها الشعبيّة والفصيحة معاً؟ وهل وجدنا جزائريّاً في التاريخ، غنّى بغير العربيّة والأمازيغيّة؟ حتّى اليهود الذين كانوا يزعمون أنّهم جزائريّون كانوا يتغنّون باللّغة العربيّة...

وآيةُ تغلغُل اللّغة في النفوس أن يحلم بها الأطفال، ويتغنّى بها النساء والرجال. وكذلك كان الأمر. أم رأيتم جزائريّين يتغنّون بهذه الدّخيلة الذّليلة في حقولهم وحلق أسواقهم، وأيّام ثوراتهم؟...

وهل بمقدور أصحاب هذه الجريدة، ومن ورائهم أصحابهم المدسوسون، أن يتبنَّوْا هذه اللّغةَ الأعجميّة الآن لهذا الشعب فيُفْلحوا في مسعاهم الخائب؟ وهل يمكن لجزائريٍّ، أن يتفاهم مع جزائري آخر، من مغنية إلى تبسّة، ومن البويرة إلى إليزي، بغير اللّغة العربيّة؟ إنّنا نتحدّاهم إن كانوا قادرين على إثبات عكس ما ندّعي.

وإذن، فما حمَل هذه الورقة الناطقة بلغتهم أن تتطاوَل على التاريخ الوطنيّ، ولا تسْتَحِي؟ وما بالُها انقلبتْ من الدّفاع عن الهويّة الوطنيّة –وهي الغاية التي استوجبتْ قيامَها، افتراضاً على الأقلّ– إلى مهاجمة هذه الهويّة، لمجرّد أنّها ترطّن بلغة أعجميّة رديئة، معظمُ ألفاظها من الْمَدِين في الاستعمال لدى قريفيس (Grevisse)؟ أم لم يكن أولى لها أن تسكت ما دامت غيرَ قادرةٍ على الدّفاع عن ثوابت الهوية الوطنيّة؟ أم كانت تريد منّا أن نَمْتَسِخ قروداً، وأن ننسلخ عن جلودنا قياماً وقُعوداً، وأن نلعن أنفسَنا وأجدادَنا، لكي ننقلبَ إلى لغة أعجميّة خاسئين!؟ ولو دلّت الظّواهرُ على مكامن السّرائر لكانوا ربّما ثرَّبُوا

علينا، ونَحَلُوا أَثْلَتَنا، لأننا نصلّي ونصوم!... لأنّ العربيّة ليست إلاّ مُمَاثِلاً لقيمة غائبة ماثلة معاً: هي هذا الانتماء الحضاريّ بِكلّ أثقاله وأبعاده وأعماقه الروحيّة والمعنويّة...

وإنّما ودِدْنا إدراج المنحى الشفويّ في استعمال اللّغة العربيّة في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ، لِنُثْبِت أن العربيّة، لِمن كان في ذلك مُرتاباً، أو كان للتاريخ جهولاً، هي التي كانت سائدة في أواخر عهد الاستعمار الفرنسيّ بالجزائر، كما كانت سائدة في أوائله؛ (ولا نريد أن نتحدّث عمّا قبله) ولنُثبتَ، أيضاً، أنّ اللّغة المكتوبة لم تكن إلاّ مُماثِلاً (إقونة) للّغة الشفويّة، أو اللّغة المستعملة بين الجزائريّين في حياتهم الاجتماعيّة... وإذن، فلم يكن باستطاعة أيّ حزب، أو أيّ حاكم جزائريّ، أو أيِّ قوّة في العالم، أن تُقِرَّ لغةً من لغات أهل الأرض غير العربيّة في الجزائر في فجر الاستقلال. ذلك بأنّها كانت، ولا تبرح بنعمة الله، هي لغةَ الشعبِ الجزائريّ، مضافاً إليها الأمازيغيّة التي ظلّت تؤاخي العربيّة وتؤاخيها، فاستعارت العربيّةُ، الشفويّة خصوصاً، مئات الكلمات منها فأدخلتها في استعمالاتها الفلاحيّة والمطبخيّة وغيرها، ولا تبرح فيها قائمةً إلى يومنا هذا تفاعُلاً وتخاصُباً. كما استعارت الأمازيغيّة آلاف الكلمات من العربيّة لتُغنيَ بها تعابيرها، ولترقَى في قدرتها على التّعبير عن أدقّ العواطف، وأكبر المواقف طوعاً لا إكراهاً... فظلّتا كندْمانَيْ جذيمةَ الأبرش، تكوّنان معاً، إلى جانب الإسلام، الهويّة الوطنيّة الثلاثيّة الأبعاد... لكنْ ما بالُ هذه الْعِلْجَةِ الدّخيلة الذليلة عليهما لا تَنِي تُفسد العلاقة الحميمة بينهما، وتذكو النّار في تضافرهما؟... ألم يكن أولى لها أن تظلّ أجنبيّةً وكفى؟ ومتى كان يحقّ للأجنبيّ، إلاّ إذا كان محتلاًّ مرفوضاً، أن يحكُم في القضايا الوطنيّة الكبرى والصغرى؟ الأجنبيّ يظلّ أجنبيّاً ولو كان مقيماً في دار أبيه!...

وإذن، فحين قُرّرت العربيّة في الدستور الوطنيّ إنّما كان ذلك كلّه لأنّ الجزائريّين على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وقبله، كانوا يتكلّمون العربيّة بألسنة طليقة، فكانوا يتعبّدون بها في المساجد، وكانوا يذكرون اللّه بها في حلقات الذكر والحضرة في الزوايا؛ كما كان الفلاّحون الجزائريّون يتغنّون بها في الحقول وهم يحصدون زُرُوعهم، ويجْنُون تمور نخيلهم، كما كانت الإدارة الاستعماريّة الرسميّة نفسُها تخاطب بها المواطنين الجزائريّين في المقامات والأسواق.

وفيما يلي تركيز على استعمال اللّغة العربية لدى الهيئات الوطنيّة والشعبيّة والإدارية على عهد الاستعمار الفرنسيّ.

أولاً: اللغة العربيّة والأحزاب الوطنيّة الجزائريّة.

لقد نعلم أنّ أوّل محاولة وطنيّة منظّمة وجادّة لطلائع الحركة الوطنيّة –بعد إخماد نيران أكثر من عشر حركات مقاومة بالقوّة– كانت في عقابيل الحرب العالميّة الأولى، وقد قادها الأمير خالد، فأنشأ جريدة الإقدام عام **1919** باللّغة العربيّة؛ فكانت هذه الجريدة الوطنيّة منبراً للنّخبة الوطنيّة فنُشر فيها كثير من القصائد الشعريّة، والمقالات الأدبيّة الرفيعة النسج.[1]

ثمّ لم يلبث أن أسّس أحمد مصالي الحاج –مارس 1926– مع مجموعة من الوطنيين من المغرب العربيّ كلّه تنظيماً أطلقوا عليه «نجم إفريقيا الشماليّة» الذي خلُص في مارس 1927 للوطنيين الجزائريّين وحدَهم تحت تنظيم سياسيّ جديد أطلقوا عليه: «حزب الشعب الجزائريّ» الذي أسس جرائد منها جريدة «الشعب» التي رأس تحريرها في أوّل عدد صدر منها مفدي زكرياء، ولكنّه اعتُقل وخلفه غيره ليشرف على العدد الثاني، ليُعتقلَ هو أيضاً![2]... وحين نتحدّث عن مفدي زكرياء، فإنّما نتحدّث عن العربيّة في أنقى ألفاظها، وأرقى استعمالها، وأجمل نسْجها وإيقاعها... وما كان لحزب الشعب الجزائريّ أن يختار اللّغة العربيّةَ ليخاطب بها المواطنين، إلاّ لأنّه كان يعلم أنّه يخاطب الجزائريين بلغتهم. ولو كان مقتنعاً بأنّه قادرٌ على تبليغ رسالته السياسيّة بلغة أعجميّة –بلغة أخرى– لكان اصطنعها فخاطبهم بها، لأنّ المدار هنا على الفعالية وثبوت المصلحة. ولكن كيف كان يكون ذلك وزعماؤه يعلمون أنّ اللّه ما أرسل من رسولٍ إلاّ بلسان قومه؟... فكيف إذن ينجُم زعيم سياسيّ ويتوغّل في قلوب مواطنيه وهو يخاطبهم بغير اللّغة التي يفهمون ويُحبّون؟...

ولِلَّذِينَ يرَون من مُنكري التاريخ والوطنيّة، أنّ حزب الشعب لم يكن إلاّ مجرّد حزب للشعب، وكفَى!! نقول لهم: فأين أنتم من النخبة التي تُقِرّون بفضلها عندكم؟ وإذن، فما القول في فرحات عباس الذي كان يرى في بعض سنة ستٍّ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ أنّه بحث عن الجزائر في كلّ مكان فلم يعثر لها على أثر، ولا قرأ لها في التاريخ أيّ خبر... في حين أنّه هو الذي أسس جريدة «الوطن»، في الأعوام الأربعين، باللّغة العربيّة، بعد أن عدل عن فكره السياسيّ القديم، واقتنع بضرورة تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسيّ؟

1. ينظر عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنيّة في الجزائر، ج.2.

2. أصدر هذه الجريدة الأسبوعيّة باللّغة العربيّة حزب الشّعب الجزائريّ في 27 غشت 1937 .وكان يرأس تحريرها مفدي زكرياء. ولكن بمجرّد صدور العدد الأوّل منها اعتُقل مفدي زكرياء، رئيس تحريرها، مع أربعة من مناضلي حزب الشّعب.

ثمّ صدر العدد الثاني من هذه الجريدة فاعتُقل رئيس تحريرها الجديد وهو محمّد قنانيش مع مناضلين آخرين وأودعوا سجن بربروس.

ويبدو أنّ هذه الجريدة تعطّلت، فلم يصدر منها، إلاّ عددان اثنان، نتيجة لاعتقال رئيسَيْ تحريرها الأوّل والثاني معاً، بالإضافة إلى اعتقال أكثر من عشرة مناضلين ممّن كانوا في الهيئة العليا لحزب الشّعب الجزائريّ.

بل لا بدّ للتعريج على البرنامج السياسيّ لحزب الشعب الجزائريّ، كما كان ينضَحُ عنه مصالي الحاج عام ستّةٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ، أي منذ قريبٍ من سبعين عاماً؛ ففي نداء وجّهه مصالي من باريس إلى الشعب الجزائريّ –بلغة عربيّة عالية لا يخاطب بها أيّ حزب جزائريّ الآن مناضليه!– ذكر فيه أنّ العربيّة هي التي ستكون رسميّة للبلاد قائلاً بالحرف: «(...) نحن نريد أن تكون لغتك العربيّة لغةً رسميّة بالبلاد»[1].

فلم تكن، إذن، جمعيّة العلماء وحدَها هي التي تدافع عن مكانة اللّغة العربيّة، بل حزب الشعب الجزائريّ الذي انبثق عن حركة العمّال الجزائريين بالْمُهاجَر الفرنسيّ، فما ذا يقول القائلون الذين كانوا يزعمون أنّ الجزائر لم تتّبع الطريق اللغويّ السّويّ في سنة **1962** بتبنّيها العربيّة لغةً رسميّة للجزائريّين؟ ألم تكن العربيّة وترسيمها في الحياة العامّة ضمن برنامج حزب الشعب الجزائريّ، أبي الأحزابِ والتنظيمات السياسيّة الجزائريّة كلّها؟ أم يعتقد معتقد أنّ هذه اللّغة نزلت على الجزائريّين من المريخ، فهي غريبة عليهم، وأنّ اللّه قذف في قلوبهم هذه الدّخيلة الذليلة فهي لهم كالبلسم والعناية، وحرمهم منها المسؤولون الوطنيّون حين حرّروا الدستور الجزائريّ الأوّل؟!

ولا نريد أن نتحدّث عن سيرة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين مع اللّغة العربيّة، فلا أحسب إلاّ أنّ مقالة واحدة على الأقلّ، في هذا العدد ستخصّص لذلك، لشهرة مواقفها، وثبوت مقاماتها، في نضالها من أجل اللّغة العربيّة التي أسست بها خمس صحف على الأقلّ، كما أسّستْ أيضاً مدرسةً عربيّة اللسان في كلّ مدينة من مدن الجزائر. وكانت الرياضيات، والعلوم، والجغرافيا، تُعلَّم في هذه المدارس باللّغة العربية، وهي التي أسست أيضاً معهد ابن باديس بقسنطينة عام 1947 للتعليم الثانوي بالعربيّة، وقد بلغ عدد طلاّبه في السنة الأخيرة من حياته، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك، تسعمائة وثلاثة عشر طالباً... وكانت صحف جمعيّة العلماء مفخرة من مفاخر البيان العربيّ في الجزائر، وقد تعرّفتُ شخصيّةً ثقافية مغربيّة كبيرة بمدينة الرباط في صيف سنة ثلاثٍ وسبعين من القرن الماضي فبدأ يستظهر لي نصوصاً من مقالات محمد البشير الإبراهيمي التي كان يدبّجها في البصائر الثانية عن الشيخ عبد الحي الكتّاني...

والحقّ أنّ عامّة الهيئات الوطنيّة السياسيّة كانت تتّخذ لها من اللّغة العربيّة لساناً تعبّر به، وأداة لتبليغ رسالتها.

بل ما القول في أنّ الفرنسيين أنفسَهم أصدروا جريدة «المبشّر» (وهي ثالث جريدة باللغة العربيّة في تاريخ الصحافة الناطقة باللّغة العربيّة (1847–1926) –وما كان أولى لهم أن يطلقوا عليها عنوان

1. نداء من رئيس حزب الشعب الجزائريّ، مكتوب في 12 نوفمبر 1936 . ينظر جريدة الصباح، الجزائر، ع. 205 يوم الاثنين 20 سبتمبر 2004، ص.8.

«المنذر»!– وقد أصدروها باللّغة العربيّة لمخاطبة الجزائريّين؛ وذلك على الرغم من أنّها لم تكن تُحَرَّر إلاّ بلغة عربيّة هزيلة، وتعابير رديئة، أسوأ من العامية نفسها![1]... وإنّ إبقاء الولاية الفرنسيّة العامة بالجزائر على هذه الجريدة باللّغة العربيّة إلى سنة 1926 يدلّ على عروبة الجزائر، وأنّ الجزائريّين كانت العربيّة هي لغتَهم الأولى، وكان من العسير على الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة التواصلُ معهم باللّغة الفرنسيّة، وإلاّ لكانت الإدارة الاستعماريّة خاطبتهم بلغتها، منذ الوهلة الأولى، واستراحتْ...

بل ما القول في أنّ بعض المصارف في الجزائر (1906) كانت تصدر السندات الماليّة باللّغة العربية؟ ولا يقال إلاّ مثل ذلك في السندات التي كانت تُعطَى للحجّاج الجزائريّين حين كانوا يذهبون إلى البقاع المقدّسة...

بل ما القول أيضاً في أنّ الإدارة المحلّيّة (إدارة القائد والشيوخ) كانت تستعمل العربيّة لساناً لها، فكان الجزائريّون يستخرجون عقود الميلاد باللّغة العربيّة التي كان يكتبها موظّف رسميّ في تلك الإدارة كانوا يطلقون عليه لقب «الخوجة» (وهي كلمة تركيّة). فالخوجة هو الذي كان يتولّى تسجيل المواليد والوفيات باللغة العربيّة (ونحتفظ بوثيقة تثبت ذلك)، كما كان المتعاملون في البيع والشراء يستكتبون كلّ عقودهم باللّغة العربيّة التي كان معترَفاً بها لدى القاضي الرسميّ الذي كان الفرنسيّون هم الذين يعيّنونه؟ ولم تحلّ اللغة الأجنبيّة في هذه الإدارة، مكان اللّغة العربيّة، إلاّ بعد منتصف القرن العشرين، في إدارة العروش، لإيهام الجزائريّين بأنّ الاستعمار باقٍ في الجزائر، ولا أمل في دحْره؛ وذلك بعد اندلاع ثورة التحرير...

وكان القائد حين يخاطب الناس في الأسواق الأسبوعيّة الحاشدة كان يخاطبهم، وقل إنّه كان يشتمهم بأقذع الشتائم، وينبزهم بأسوإ الألقاب: باللّغة العربيّة.[2] أمّا «الحاكم» الإداريّ الفرنسي، حين كان يضطرّ إلى مخاطبة النّاس في الأسواق والمقامات، فكان يخاطب الجزائريّين حين يخاطبهم باللّغة الفرنسيّة، ولكن عن طريق مترجِم كان يتقن العربيّة الفصحى إتقاناً سليماً، فكان يخاطب عامّة الناس في الأسواق بالفصحى! ولم نسمَع أحداً من أولئك الشهود اشتكى يوماً قطّ أنّه لم يفهم ما كان ينقله المترجم بالفصحى. فالفصحى إذن كانت تملأ الأسواق الجزائريّة في الأرياف والبوادي!... ويدور الزمن دورته، فتمسي التلفزة الوطنيّة تخاطب مشاهديها بالعامّيّة والأعجميّة!... وكلّ من هبّ ودبّ أمسى يرطّن في المآقط العامّة بهذه الدّخيلة الذليلة... وهذه من أعظم النكسات اللّغويّة في تاريخ هذا الوطن...

في حين أنّ ممثّلي الأحزاب الجزائريّة على عهد الاستعمار الفرنسيّ لم يكن أحد منهم يستعمل كلمة واحدة باللّغة الأعجميّة، بل كانوا يخاطبون الناس في الحملات الانتخابيّة، بعد الحرب العالميّة الثانية،

1. ينظر محمد ناصر، الصحف العربيّة في الجزائر، ص.12، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1980.

2 . ينظر عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة: (الفصل الخاصّ بالأسواق).

باللّغة العربيّة. وكانت اللّغة التي يخاطبون بها الناس في الأسواق أقرب إلى الفصحى منها إلى العامية. وكان المناضلون من حفظة القرآن في الغالب هم الذين يتولّون ذلك... ولا نقول إلاّ بما شهدنا في الأسواق التي كنّا نتردّد عليها أيّام الصِّبا.

ثانيا: لغة الزوايا الجزائريّة

الجزائر أرض الروحيّات. والشعب الجزائريّ بمقدار ما يستفزّه الطّرب والإيقاع، يستهويه الوعظ والإرشاد، ولذلك تجد أقرب الهوى إليه أن يخاطَب بالعربيّة، وأن يُتحدَّث إليه باسم الإسلام. وكانت الزوايا تشكّل طائفة اجتماعيّة كبيرة، فكانت تلك الزوايا تخاطب مريديها باللّغة العربيّة في وعظها وإرشادها وتعليمها وأشعارها الصوفيّة التي كانت تُنشدها مع «الجلالة» في الحضرة... وكان أولئك المريدون –في مَعاظِمِهم– أمّيّين لا يكتبون ولا يقرءون، ومع ذلك فقد كانوا يفهمون العربيّة الفصحى ويتذوّقونها إلى حدّ الجذب عليها حين يستمعون إلى أشعار أبي مدين، والحرّاق وغيرهما من شعراء الصوفيّة حين كان صوت المترنّم بها يستفزّهم فيجذبون.

بل لقد حدّثني من أثق فيه، ولا يزال حيّاً، أنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حين ذهب إلى تلمسان –في نهاية الأعوام الثلاثين من القرن الماضي– كان يقدّم دروسه باللّغة العربيّة الفصحى، فاستصعب بعض من كانوا يحضرونها لغةَ الشيخ، فتلطّفوا له في الطلب لكي يقدّم دروسه فيهم باللّغة العاميّة كيما يستطيعوا الفهم عنه على النحو الكامل. فاستجاب لهم. ولكن ما هو إلاّ أن انقلب الشيخ إلى العامّيّة حتّى استسمجوها فاستحَوْا أن يطلبوا إليه العودةَ إلى تدريسهم بالفصحى... حتّى تلطّف له أوقحُهم فكشف له عن نيّة القوم، فعاد الشيخ إلى سيرته الأولى من مخاطبتهم بالفصحى.

ثمّ كانت خُطب الجمعة في أنأى البوادي وأعمق الأودية في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وخطبتا العيدين، باللغة العربيّة، ولم يكن أحدٌ يشتكي من المتلقّين من أنّهم لا يفهمونها، أو أنّهم كانوا أُجبِروا عليها، وكان من الأولى أن يتكلّف الشيوخ والأئمة مخاطَبَتَهم بلغة فولتير؟!

ثم كانت الاحتفالات بالمولد النّبويّ، في البوادي الجزائريّة وأريافها (بحكم أنّي ابن بادية عشت فيها إلى سنّ الرشد، وكنت أشهد الْمَشاهد، فأنا –أكرّر ذلك– على سبيل الشهادة)، تجري باللّغة العربيّة فكان الرجال يُنشدون ويتغنّون بالأشعار الشعبيّة التي تمدح النبيّ عليه الصلاة والسلام، وكذلك كان يفعل النساء اللواتي كنّ منتظماتٍ في طرق صوفية، بتلك المناسبة الدّينيّة، بالإضافة إلى حفَظة القرآن الذين كانوا يُنشدون، بترنُّمٍ، بُردة الشيخ محمد بن سعيد البوصيري (البربريّ الأصل)...

فأين كانت لغة الاستعمار من كلّ ذلك؟ وهل يمكن بيولوجيا غسْلُ الْمَلَكة اللّسانيّة من أمّة كاملة بتغيير لسانها الطبيعيّ إلى لسان أجنبيّ عنها؟...

ثالثاً: لغة الفلاّحين الجزائريين

كان الفلاّح الجزائريّ، على الفقر واضطهاد الاستعمار إيّاه، من أرقَى الفلاّحين على الأرض؛ فكان الواحد منهم له لباسان اثنان على الأقلّ: لباس العمل، ولباس الاحتفالات والأسواق والأعياد والْجُمَعِ والمواقف العامّة. وكان كلّ لباس يَسْتميز بخصائص وظيفته. وكانت عربيّتهم أقرب إلى الفصحى منها إلى العامّيّة، فلم يكن ينقصها غير الإعراب. وكانوا كثيراً ما يسوقون أمثالاً سائرة في أحاديثهم ومحاوراتهم. والذي نأسف له أنّ ذلك العهد لم يكن فيه مسجِّلاتٌ؛ وإذن لكنّا سجّلنا كثيراً من أحاديثهم... للبرهنة بها على ما نزعم لدى الْحِجَاج. وحتّى المصطلحات التي كانوا يصطنعونها في زراعتهم وحصادهم كانت فصيحة في معظمها، مع تطعيمها ببعض المصطلحات الأمازيغيّة الأصل، وهي، في الحقّ، قليلة... فكانوا يستعملون المنجل، والحصاد، والدِّراس، والمحراث، والحرث، والرَّحْبَة (للبيدر)، والمذراة، والفأس، والقادوم، والشبكة، والقفّاز، والصَّبّاعيّات (وهي عبارة عن قصبتين تُتَّخَذان في الخنصر والبنصر لدى الحصاد لوقاية الأصبعين من أذى المنجل الذي قد يقطع أطرافاً منهما عند التهامه سُوقِ الزرع، لولاهما...)، وهلمّ جرّاً.

ولقد كنّا نحصد مع الحصّادين فكانوا لا يزالون، حين تشتدّ بهم الهاجرة، وتتوقّف الشمس في كبِد السماء فلا تكاد تَريم، يعمِدون للتخفيف من تلك المعاناة بارتجال أغانٍ شعبيّة يردّدونها –بأصوات بدويّة جهوريّة تُسمع في العادة على بُعد أميال – جماعات، جماعات في أنأى البوادي، وأعمق الأودية، وهم يزأرون بها كالأسود. وكانت تلك الأغاني أقرب إلى الفصحى منها إلى العامّيّة على الرغم من أنّ الفلاّحين الجزائريين في نسبتهم العالية كانوا أميين لا يكتبون ولا يقرءون. كما كانوا يتغنَّون بها في أعراسهم واحتفالاتهم. أم لم يكونوا يردّدون في حفلات أعراسهم نشيداً جزائريّاً قديماً، فكان الذين يردّدونه أمّيّين بيّني الأمّيّة، وإنّي واللّه لا أشهد إلاّ بما رأيت وسمعت، ولا أقول إلاّ بما علمت، ومما لا أزال أحفظ من هذا النشيد الذي كان الشباب يُدخلون به العريس، وكذلك كانوا يطلقون عليه ولا يزالون إلى اليوم «شبابي»، وهي لفظة فصيحة تنقطع دونها أعناق الرجال؛ كانوا يردّدون في أصوات جزائريّة جهوريّة تتبجس رجولةً، وتنضح أريحيّة وكرماً، وفي لحن جميل يستفزّ كلّ النفوس الخامدة، ويبعث اليقظة في كلّ القلوب الجامدة:

ارحَمْنا يا اللّه وارحم شبابي   شبابي يفنَى تحت التراب

ارحمنا يا الله وارحمْ والدنا	اللّي ربّونا وارضوا علينا
ارحمنا يا اللّه وارحم جدودي	الساكن اللّيلة تحت اللّحود
صلّوا وسلّم على المصطفى	مولاي محمد جدّ الشُّرفا

حقًّا إنّ بعض الألفاظ في هذه الأبيات الشعبيّة ليست من الفصيح، ولكن يا حبّذا لو كان شبابنا اليوم في المدن، بل شعراؤنا الشعبيّون، يرقَون بلغة أشعارهم إلى هذا المستوى.[1]

وكان الفلاحون الجزائريّون يستمعون في الأسواق، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك، شتائم أعوان الاستعمار إيّاهم بالعربيّة، كما يستمعون إلى خطب الوطنيّين بالعربيّة، كما كانوا يحضرون مجالس الذكر في الحضرة الصوفيّة، ومجالس العبادة في المساجد للصلوات والتراويح، فلم يكونوا يستمعون إلاّ إلى العربيّة... وكانوا يفهمون المعنى العامّ دون عناء...

1. ينظر عبد الملك مرتاض، العاميّة الجزائريّة وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

مذكرات معلم حر

أ. الأمين بشيشي

مدير مدرسة الحياة سابقا بسدراتة

توطئة:

عندما حصلت على الشهادة الابتدائية من المدرسة الكولونيالية عام 1940، عبرت لوالدي الشيخ بلقاسم اللجاني عن رغبتي في مواصلة الدراسة حتى أكون طبيبا. واستغربت أن أسمع من والدي الذي كان دوما يشجعني، رفض هذا التخصص العلمي بصورة قاطعة، ولما استفسرته عن سبب معارضته الصارمة، قال لي:

لقد عدت في 1911 من مصر بعد دراسة في الأزهر دامت ست سنوات كما أعلمتك، ورست بيَ باخرة العودة إلى عاصمة الجزائر، وكنت متلهفا لملاقاة إطارات جزائرية أحدثها عن الغليان السياسي والاجتماعي داخل الطبقة المستنيرة بمصر. ووجدت ضالتي في طبيبين جزائريين لم أجد لديهما أي إحساس قومي، بل بالعكس. كان رد فعلهما عندما يقترب منا مستفسر عن أي أمر أو متسول يستجدي مساعدة، يردان السائل بعبارات مليئة بالاشمئزاز والاحتقار.

وقد تكرر هذا الموقف المزري طوال وجودي بصحبتهما. وإني لا أقبل أبدا أن تتكون في مدرسة تجعلك تستصغر بني قومك أوتحتقر بني جلدتك.

وتبخرت أحلامي في أن أكون ضمن الطبقة الأرستقراطية لأن المهن بدأت تنقلب رتب أصحابها منذ ذلك العهد. فالنجم اللامع في ذلك العصر القريب البعيد كان الشيخ الذي تدين له الرقاب، ويتلهف الناس لسماع ما يصدر من فيه، وكذلك المعلم الذي كان بوقاره الأمثل في الملبس والسلوك، يحظى باحترام وتقدير الجميع لأنه كان نبع العلم ومصدر المعرفة للصغار يربيهم ويرعاهم مثلما يرعى البستاني الأزهار في الروضة يسقيها بين الفينة والأخرى وينزع من حولها الأشواك والأعشاب الضارة.

أما الطبيب فكان قطب الأقطاب، فلم يكن في سدراته آنذاك إلا طبيب واحد أحد اسمه SABADINI يقرن بين الخدمة العمومية في المستشفى الصغير وبين عيادته الخاصة. كما كان يقوم مقام الصيدلي إذ هو الذي يقرر نوع الدواء اللازم للمريض وهو الذي يسلمه له بمقابل أو بغير مقابل حسب الحالة.

ولم يكن لي من مناص سوى التنهد بزفير حار مفاده: وداعا يا دكتور لم يتمتع ولو بصفة برعم في الاختصاص وفي التمتع بالمنزلة الرفيعة المبتغاة.

ودخلت في ليلين ليتهما كانا شبه ما دخلهما من تمنيت أن أكون بدله عندما قال:

ودخلت في ليلين فرعك والدجى

أما أنا فدخلت في ليالي حالكات قاسيات من البعد عن عش الأبوين العطوفين، كما عشت شتى المغامرات، أعترف أن بعض الومضات الخاطفة كانت تنير أحيانا ليالي الموحشات .

المحطة الأولى: تبسة

كانت الرحلة الأولى إلى تبسة التي تسلمت مشعل الجامع الأخضر بعد وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس، وكان الشيخ الشهيد العربي التبسي نعم الخلف على رأس مدرسة تسمى **مدرسة تهذيب البنين والبنات**. واسمها غني عن كل شرح.

وصادف أن هبت على المدينة في تلك السنة (1941) عاصفة ثلجية واكبها انتشار وباء الحمى الصفراء (Typhus) راح ضيحتها المئات بمن فيهم طبيب المدينة نفسه. وكنت يافعا فاحتضنتني عائلة قوامها زوج وزوجة عاقرين، وكانا من المصلحين واسمه **محمد بن عيشة** وزوجته **أميمة** كنت عندهما الابن المدلل.

وبقدر ما كانت أميمة تهتم بملبسي ومأكلي، كان بعلها مهتما بدراستي، يستفسرني كل مساء عما قرأته في ذلك اليوم.

وكان يلح علي أن أفصل له ما قرأته تفصيلا بحيث ينزعج عندما لا أوفق في تميز النطق بين الظاء والضاد مثلا. للعلم، فإن دروس "**الجزرية**" وهي كتاب خاص بجودة إلقاء الحروف الهجائية ينفع أساسا المقرئين، كنا مجبرين على معرفة مخارج الحروف- حروف الحلق، حروف التفخيم، حروف القلقلة إلخ، وكان أستاذ هذه المادة الشهيد الشيخ السعيد الزموشي لا يتسامح أبدا مع الطلبة في هذه المادة التي كنا نعتبرها ثانوية خلافا له.

أتممت السنة الدراسية بنجاح مع زملائي من سدراته وكنا ستة وعشرين طالبا وتلميذا من بينهم أربعة كانوا أقراني في السن. وقد غطت هذه المرحلة فترة العام الدراسي 1942/1941 تفرقنا بعد ذلك شذر مذر.

المحطة الثانية: جامع الزيتونة (تونس)

قرر والدي أن أشد الرحال بعد ذلك إلى تونس، وكان قبل أي سفر لي، يضع يده كل مرة على رأسي قبل الرحيل قائلا: **أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.**

وكان الوصول إلى تونس آنذاك عويصا لضرورة الحصول على جواز سفر أو رخصة خاصة كانت تعطي فقط لمن عضه كلب مسعور، فسرعة الوصول إلى **معهد باستور بتونس** كفيلة بإنقاذ المصاب، خلافا **لمعهد باستور بالعاصمة الجزائرية** الذي كان أبعد عن سدراتة بضعف المسافة تقريبا، مما يعني الهلاك المؤكد للمصاب.

أذكر أن عددا من الشباب الراغبين في زيارة تونس الفسيحة، كان يجرح بساقه عمدا بشوكة أو يبضع فخذه بسكين ويموه بأنه تعرض لعض كلب مسعور فتنطلي حيلته ويستفيد بسرعة من وثائق تسمح له بقطع الحدود والمكوث بتونس ثلاثة أسابيع لأن العلاج عبارة على إحدى وعشرين حقنة يومية من مصل خاص.

ومادمت ذاهبا لطلب العلم وليس للراحة والاستجمام أو الاستحمام، فقد سلكت مع زميل لي من سدراته الطريق الذي نصحونا باتباعه، وهو **تبسة** ثم العبور إلى بلدة **بوشبكة** ثم بلدة **قلعة جردة**، وعندها، تصبح تونس العاصمة وجامع الزيتونة قاب قوسين أو أدنى من مرامنا.

قطعنا الحدود بسلام مشيا على الأقدام طبعا، وفي وضح النهار، وكان قلبي يدق دقا خوفا من الإخفاق، وما لاحت لنا قراميد منازل بوشبكة حتى انتصب أمامنا عنصران من الجندرمة الفرنسية كانهما من العفاريت الخارجة توا من باطن الأرض وأخرجنا بسرعة الوثيقة الوحيدة التي بحوزتنا وهي بطاقة التعريف، وسجل الدركيان مخالفة لكل منا تديننا لعبورنا الحدود بدون رخصة، ثم- يا فرحتنا- أخليا سبيلنا وقت أن كنا ننتظر إجبارنا على العودة من حيث أتينا مكبلين بالسلاسل.

وواصلنا المشي على الأقدام مهرولين جذلانين حتى وصلنا أول محطة قطار، لم يبق في ذاكرتي اليوم بعد حوالي ثلثي قرن من تلك المغامرة سوى أسماء محطات توقف عندها القطار الذي كنا نركبه:

أذكرها من غير ترتيب: **قلعة جردة، قعفور، ماطر، طبرقة، مجاز الباب منوبة** وهي على ما أعتقد آخر موقف لقطارنا قبل نهاية رحلتنا، المحطة المركزية لتونس العاصمة.

ودخلت عالما آخر، قابلت فيه طلبة جزائريين على وشك التخرج، ودلّنا أحدهم على "مدرسة" نقيم فيها. وكلمة مدرسة ليست مكانا للدارسه بل هي مأوى للطلبة الغرباء عن المدينة الذين يأتون لمزاولة التعليم في جامع الزيتونة.

فقد كانت **مشيخة الجامع الأعظم** كما كانت تسمى إدارة جامع الزيتونة مدعمة بتشجيع كبار القوم في الإيالة تحفز المحسنين من الأثرياء على بناء ما يمكن اعتباره فنادق لإيواء القادمين من الطالبين للعلم.

والتحق بي أخي الكبير محمد البشير الذي سبق له أن درس فترة في جامع الزيتونة عامي 1937-1938 وانقطع بعد الأحداث الدامية في 9 أفريل 1938 بتونس.

وبعد اختبار بسيط، تم قبولي في السنة الثانية المعروفة بسنة "**القطر**" وهو اسم كتاب هام في النحو عنوانه الكامل " **قطر الندى وبلّ الصدى**" يحدد المستوى اللغوي للتلميذ. وكان طلبة هذا المستوى يزاولون دروسهم كلها في **جامع القصبة** بأعالي العاصمة التونسية وعلى مقربة من ثكنة عسكرية يحتلها الجنود الفرنسيون طبعا، لأن النظام في تونس إذا كان يتمتع بسيادة صورية إلا أن تقاليد الأمور كانت كلها بيد الدولة الحامية أي فرنسا.

وقد طرق مسمعي آنذاك بأن باي تونس، اغتناما للأوضاع التي كانت تعيشها فرنسا الواقعة هي نفسها تحت الاحتلال الألماني، يحاول أن يغير أوضاع بلاده كدولة محمية. فعبرت عن رغبتي لأخي محمد البشير لزيارة قصر الباي ورؤيته إن أمكن، وتم ذلك فعلا في يوم جمعة من أواخر أشهر أكتوبر 1942، وذهبت إلى مدينة **حمام الأنف** حيث قصر الباي، وحضرنا مراسم شروع الباي في نشاطه اليومي.

بدأت فرقة من عازفي الآلات النحاسية في عزف السلام الملكي ثم قطعا موسيقية أخرى، وكان الحرس الخاص يقوم ببعض الحركات، لفت انتباهي لباسهم الأحمر القاني وخوذاتهم النحاسية أعطتني الانطباع بأنهم جنود مطافئ، لكن المهابة والجلال ظهرا عندما طلع سمو **المنصف باشا باي** على شرفة القصر وهو يحيي الجمهور ملوحا بيده ثواني معدودات ليختفي وراء الستائر مبتدئا حسبما قيل لنا اجتماعه اليومي مع وزرائه ومستشاريه.

لا أخفى أنني بكيت بكاء أكثر من مر، فيه فرحة وأسى، عندما رأيت النجمة والهلال يرفرفان أمام عيني في حين لا مكان في سماء الجزائر إلا لعلم أجنبي يجسم سلطة باغية وحضارة لا علاقة لها بحضارة أجدادي.

لم أتعرف بعد على تونس وأكتشف أبوابها: **باب منارة، باب دزيرة، باب جديد، باب بحر، باب الخضراء** ولا أسواقها المليئة بالحيوية، **سوق العطارين، سوق البلاغجية، سوق البلاط** حتى حدث ما لم يكن في الحسبان.

قوات المحور في تونس

يوم الأحد 8 نوفمبر 1942 طائرات مقاتلة سوداء تحلق فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض جدا، يصدر منها صفير مزعج.

كنا نستعد في ذلك اليوم للذهاب للملعب البلدي بتونس لمناصرة فريق **مولودية وهران الجزائري** تحت قيادة مدربه السيد دراوي الذي يتأهب لمقابلة فريق **الاتحاد الرياضي التونسي** الذي كانت له الصدارة على رأس الأندية التونسية.

لكن قبل موعد المباراة بساعتين تقريبا، حلّقت فوق أجواء العاصمة التونسية أسراب متلاحقة من الطائرات المقاتلة تكاد تحصد أسقف المنازل لانخفاض مستوى ارتفاعها، يصدر منها صفير مرعب.

كانت تلك طائرات القنص الألمانية المعروفة باسم **شتوكاس** « STUKAS » التي أثخنت في جيوش الحلفاء وعتادهم، ودخلنا رغم أنوفنا في الحرب العالمية الثانية، وكانت مرحلة من أثرى ما عشت في حياتي.

دخل جنود المحور (ألمانيا وإيطاليا) التراب التونسي بينما احتل الأسطول الأمريكي وقوات الحلفاء أرض المغرب والجزائر بجيوش جرارة.

واجتمع طلبة الزيتونة من الجزائريين في مدرسة نهج الباشا مقابل حمام القشاشين قرب الجامع الأعظم وتبادلوا الرأي فيما ينبغي اتخاذه من مواقف تبعا للظرف الجديد خصوصا بعدما سارع قادة الحزب الدستوري التونسي إلى تنظيم صفوفهم في غياب الزعيم بورقيبة المسجون في مرسيليا على ما أذكر، وأصدروا جريدة بعنوان **تونس الفتاة** تولى رئاسة تحريرها أحد أبرز النشيطين في الحزب اسمه الحبيب ثامر.

أما كبارنا نحن، وكنا غير مهيكلين، فقد منعهم حماسهم من أن يفكروا بهدوء، ومما زاد الطين بلة أن مجموعة كبيرة من البحارة الجزائريين المجندين في البحرية الفرنسية فروا من مركز القيادة في مدينة تولون TOULON وجاؤوا مسرعين إلى تونس على متن بارجتين حربيتين، وزارنا عدد منهم في مدرسة نهج الباشا، وعبروا عن قرارهم الالتحاق مع قطعهم الحربية بالقيادة الوطنية الجزائرية؟! أجل، هكذا قال كل من ضابط الصف بوسبسي والبحار أحمد جدري باسم زملائهم الآخرين التائهين، بعد استيلاء عناصر فرنسية

مناهضة للحلفاء وإشعال النار في أغلب قطع الأسطول الفرنسي المرابط في مدينة (قولون)، التي كانت مركز قيادة البحرية الحربية الفرنسية.

وانتظر البحارة يومين أو ثلاثا، وكانوا ثمانين تقريبا ثم أدركوا ألاّ قيادة وطنية جزائرية ولا يحزنون. فغادروا تونس في اتجاه الغرب وقال لنا بوسبسي بمرارة وكذلك أحمد جدري الملقب بـ BOUBOUL: لم يعد لنا سبيل آخر سوى الاستسلام لجيش " **فرنسا الحرة** " بقيادة الجنرال دي غول.

إثر هذه الحادثة، قرر كبار الطلبة بالزيتونة تكوين حزب ثوري سمي **الحزب القومي الجزائري** كان له جناحان، جناح سياسي أذكر من بين أعضائه عمّي الذوادي وهو جزائري ثري يلبس دوما قندورة من الحرير الخالص وعمامة ناصعة البياض وكان ممول الحزب، والسيد بولخراص وكان طالبا في السنة الأخيرة، والسيد بورنان وكان تاجرا، وسي الناصر وكان يتميز بالحيوية والنشاط.

أما الجانب العسكري فكان فيه سي الحسين المقراني وابراهيم بن العيد بن عمر وأحمد عبد العزيز، والشيخ مصباح حويذق ومبروك العزابي وأخي محمد البشير بشيشي وحمّ صالح، وكان الطالب أحمد حماني ضابط اتصال بين التنظيم الجزائري والقيادة الألمانية في تونس.

هذه المرحلة تستلزم بابا خاصا إن لم يكن كتابا كاملا، خصوصا وأنا أستذكر من بين ما أستذكر **اللفيف العربي**.

اللفيف العربي:

عرفت في تلك الفترة مجموعة من المتطوعين العرب في الجيش الألماني يقودهم ضابط عراقي برتبة ملازم يقدم نفسه دائما باسم **الملازم المدني**، وكان يتردد على عناصر الهيئة الجزائرية المسؤولة، وكان يرافقه جندي من اللفيف اسمه الصبيحي لعله كان فلسطينيا.

كان الملازم المدني دائب النشاط والاتصالات، وقد عقد اجتماعا سريا هاما في مكان اسمه **دار الجلد** بأعالي تونس العاصمة أعتقد أنه كان مقرا للنقابة التونسية لم يسمح لي طبعا حضور هذا الاجتماع ولا غيره لصغر سني، لكنني كنت أعلم بفحوى ما يدور.

خلافا لما كان في أذهان الجميع بأن استقلال الجزائر وتونس ومختلف البلدان العربية الرازئة تحت الاحتلال البريطاني أو الفرنسي سيأتي عن طريق **الريخ الثالث** (ألمانيا)، فإن الملازم المدني كان في كل لقاء خاص أو عام يفنّد هذا الاعتقاد ويؤكد أن هذا ليس سوى مجرد تضليل وتمويه. ولما قدمنا له صورة وزعتها مصالح الدعاية الألمانية تظهر المفتي أمين الحسيني في جلسة مع هتلر، أكد لنا بأن الصورة

مفبركة وأن القائد الألماني رفض رفضا باتا مقابلة الزعيم الفلسطيني أمين الحسيني رغم إلحاح هذا الأخير في الحصول على موعد، خصوصا وله فيلق يحارب إلى جانب الألمان ممثلا في هذا اللفيف العربي.

كنت أحس بسعادة كبرى حين أرى الجنود الألمان يحيون الملازم المدني كلما اعترضهم في الطريق وهو بلباس الجيش الألماني وعلى كتفه شارة تحمل عبارة ARABISH LEGION .

وأعود لدراستي، لأني مازلت في سنة "**القطر**" غير أن التعليم أصبح مشوشا بسبب الغارات المتكررة من أسراب طائرات SPITFIRE الإنكليزية وطائرات B52 الأمريكية.

لعل عددا ضئيلا من زملائنا سكان تونس العميقة التحقوا بأهلهم وذويهم، غير أن طلبة آخرين جازفوا وبقوا يزاولون الدروس بانتظام.

كنا حين نسمع ثلاث طلقات مدفعية، نفهم بأن الطائرات المغيرة على الأبواب فنغادر حلقة الدرس بسرعة ونأوي حيثما اتفق ونبقى في المخبإ حتى نسمع صفارة الإنذار التي تبشر بأن الخطر زال وأن الطائرات المغيرة قد عادت أدراجها.

وهنا أذكر الشيخ معاوية التميمي، من كبار علماء الزيتونة، وكان بدينا للغاية، لذا عندما يرى الطلبة يفرون من حوله كالعصافير عند الإنذار بالخطر، وهو لا يقوى على فعل ذلك، ينظر لهم وهم يهربون ويقول:

وفي الهيجاء ما جربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

أمرت **مشيخة الجامع الأعظم** مراعاة للأوضاع الخاصة التي يمر بها الطلبة خلال الدراسة وسلمت شهادات النجاح لجميع من بقي يتابع الدروس رغم قسوة الجو العام الذي تلطف كثيرا بفضل قرار إنساني من **المنصف باشا باي تونس** الذي بعث أمرا كتابيا للمسؤولين على الأوقاف بأن يدفعوا أسبوعيا لكل مسجل يدرس مهما كان بلده مبلغ مائة وعشرين (120) فرنكا وكان مبلغا يغطي كل ما يلزمنا من ضروريات وأكثر.

وضعت الحرب أوزارها في تونس وانتقل لهيبها إلى أوروبا وعدت سالما إلى عائلتي التي تنفست الصعداء ظانة أني كنت في عداد ضحايا أطنان القنابل التي كانت ترميها أسراب الطائرات العابرة لأجواء سدراته، وصلى أبي نوافل كثيرة وذبح الأضاحي فرحا بمقدمي من خطوط الحديد والنار. وكان هذا في أواخر شهر ماي 1943.

ومر الصيف بسرعة والعطلة مثله مرت كخطف البصر، وظننت أني – جراء ما عنيت– سأرتاح سنة كاملة، لكن والدي أصر على عودتي للدراسة بل أجبرني على إعادة سنة "القطر" رغم إظهاري له

الشهادة التي تخول لي متابعة الدراسة في السنة الموالية. وأذعنت لأمر والدي الذي أقنعني بأن قوة الهرم تكمن في قاعدته وليس في قمته كما قال.

وواصلت دراستي بصفة عادية ثلاث سنوات حصلت خلالها على الشهادة الأهلية، وكنت عند انتهاء كل سنة دراسية أعود إلى سدراتة، وأعلم بعض الراغبين قواعد النحو والصرف على الخصوص وأتناقش مع أبناء قريتي الذين يدرسون في ثانوية الكدية بقسنطينة وكان برنامجهم ثريا بل مثقلا، فالتخصص الأدبي مثلا يفرض على الطالب – إضافة إلى اللغة الفرنسية طبعا– دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية. ويبدأ الحديث على التخصص بعد الحصول على شهادة البكالوريا، ويدورون حول ثلاث مهن لا رابع لها بالنسبة "للأهالي" وهي الطب، الصيدلة، المحاماة ولا شيئ غير ذلك. وكنت أقول في نفسي هؤلاء لهم الخياريين ثلاثة اختصاصات، أما خريج جامع الزيتونة فلا مكان له سوى التعليم الحر أو الإمامة في مساجد القرى والمداشر إن اقتنع المصلون بمستواه الفقهي.

دخول ميدان الفن:

وتتدخل الأقدار لتفتح لي بابا لم أكن منتبها إليه رغم ميولي الطبيعي لوُلُوجه باب الفن أو بعبارة أدق: الموسيقى.

وإذا كان من الواجب الاعتراف لأصحاب الفضل بفضلهم فإني لن أفتأ شاكرا للأستاذ الفنان الدكتور صالح المهدي الذي كان على أهبة التخرج من جامع الزيتونة، وكان في الوقت نفسه أستاذا للموسيقى في المعهد الرشيدي، وعازفا ماهرا على آلة الناي.

كنا نلتقي به مع نخبة من الطلبة الجزائريين في مقر **جمعية** "**الكوكب التمثيلي**" التي كان ينشطها الأديب والمسرحي المتمكن السيد محمد الحبيب. كنا نعد للقيام بجولة فنية في الجزائر لعرض **مسرحية طارق بن زياد** قصد جمع أموال للطلبة المعوزين، وكان يشرف على العملية زميلنا الوقور وأخونا المبجل المناضل "سي عبد الحميد مهري".

في فترة راحة من التدريب على المسرحية، توجه السيد "صالح المهدي" إلى الأخ مهري قائلا: تاتون إلى تونس لتعلم قواعد النحو والصرف والبلاغة، والتفقه في الدين من عبادات ومعاملات ولكنكم لا تهتمون بالفنون التي ليست لها صفة الجمالية فقط، بل هي من صميم العلوم. أنا على استعداد لتسجيل عشرة من الزيتونيين الجزائريين في **المعهد الرشيدي** المتخصص في الموسيقى التقليدية التونسية إلا أن التدريس يتم عن طريق القواعد العلمية والصولفيج وليس عن طريق التلقين اللهم إلا لبعض المغنين.

ودخلت مع سبعة من زملائي متطوعين لتعلم الموسيقى، وجذبني التيار بشدة بحيث كنت كلما ذللت صعوبة في العزف على آلة الكمان إلا وعقدت العزم على تذليل صعوبة أعوص، وهكذا زحزحني التيار خارج جامع الزيتونة وتم فصلي منه بعد غياب ثلاثة أشهر متتابعة حسب اللوائح والقوانين السارية المفعول في الزيتونة.

مجيئ مفاجئ لوالدي إلى تونس

وبدا لأحد أبناء قريتي من الزملاء أن يراسل والدي ليعلمه بأن ابنه زاغ عن الطريق، فجاء والدي مسرعا إلى تونس، وقد كلفه ذلك الكثير، واستفسرني عن أسباب فعلتي، ظانا بأني خلعت جلباب الجد والوقار ولبست أسمال المجون والعبث، ولعل الليالي الملاح ربما أفقدتني نهج الصراط المستقيم.

لكن المواجهة الصريحة أقنعته بأني متيم بالموسيقى لا غير، وأن الفارابي والكندي وابن سيناء مصابيح خالدة في حضارتنا، ووافقني رحمه الله وأرضاه على التخصص فيما أهوى وأريد، شريطة أن أتم دراستي التي جئت من أجلها إلى تونس حتى أحصل على شهادة التخرج.

وعدت إلى حلقات الدرس، واجتهدت كي ألبي رغبته دون أن أنقطع عن ممارسة العزف على آلة الكمان التي برعت في العزف عليها، وأصبحت عنصرا أساسيا في **فرقة المنار** بقيادة الفنان النابغة "رضا القلعي" ثم في **فرقة الخضراء** بقيادة الفنان القدير "قدور الصرارفي" فضلا عن جوق الرشيدية بقيادة الأستاذين "صالح المهدي" و"محمد التريكي". وأحيانا أخرى في فرقة الإذاعة المركزية.

وأغتنم معرض الحديث لأحيي الأستاذ الإيطالي نيكولو بونرا (Nicolo Bonura) الذي كان له الفضل الأكبر في سيطرتي التقنية على آلتي المفضلة: الكمان.

نهاية الحلم اللازوردي

وتقدمت للامتحان الحاسم الذي يسمح لي بنيل **شهادة التحصيل على العلوم**، ونجحت، ولم يبق لي من سبيل سوى العودة إلى سدراته لمحاولة تحقيق الاتفاق بيني وبين والدي الشيخ بلقاسم الذي أعد بجانب المسجد الحر الذي بناه، مدرسة ذات ثلاثة أقسام سميت **مدرسة الحياة**.

وكان يوم عودتي إلى البيت بالشهادة يوم فرح لا يوصف بالنسبة لوالدي الذي لم يكتف بذبح كبش أو خروفين، بل عبر عن مدى غبطته بذبح ثور عظيم. وأقيمت الولائم وجاء القاصي والداني للتهنئة، وكانت عينا والدي تغرورقان من فرط التأثر لسماع كبار القوم يطرونني وينتظرون أن أكون عالما فقيها أكبر من الشيخ بلقاسم والدي.

وتحمس الناس الموسرون للمساهمة في تأثيث المدرسة. وعبثا حاولت تذكير والدي بالاتفاق، فقد كانت والدتي شرسة إلى أبعد حد في معارضتها لامتهاني الموسيقى قائلة: أنا لا أقبل أبدا أن يقال " ولد الشيخ رجع مداح" والمداح هو ذلك الراوي المعروف في أسواق المداشر والقرى وحتى في البوادي يحكى بمصاحبة آلة الربابة مغامرات سيف بن ذي يزن، وأساطير السيد علي وراس الغول، وملحمة الفاتنة الريفية الجازية والفارس بوزيد الهلالي وأساطير وحكايات مشوقة أخرى. وأصرت على موقفها ولامت والدي على ما اعتبرته تساهلا مذنبا في تربيتي ذا أثر سلبي على مستقبلي حسب رأيها.

ولم أذعن فرجعت إلى تونس طمعا في الالتحاق بالوسط الفني الذي أعرفه ويعرفني، لكن المقاومة اشتعلت نيرانيها بعد إلقاء القوات الاستعمارية القبض على الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة الملقب بالمجاهد الأكبر. وتوقفت الحركة الفنية تماما، ولم يعد هناك من نشاط سوى مقاومة سلطات الاحتلال الفرنسي الجاثمة على صدر تونس وشعبها، تماما كما هو الحال في الجزائر، بل الوضع في الجزائر أدهى وأمر.

وقفلت راجعا إلى سدراته، وذكرني والدي بالآية الكريمة في سورة التوبة " **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**"

ولبست ثوب المعلم وأخذت زمام مدرسة الحياة مع اثنين من الزملاء الزميل عبد العزيز زمزوم والشيخ بلقاضي بشيّش.

كانت شبابيك القسم واسعة، وكان التلامذة – فتيات وفتيانا– متحفزين لمتابعة الدراسة بجد. وكان تلامذة القسم الذي أتحمل شخصيا واجب تلقينهم المواد المختلفة عبارة عن كتيبة مجاهدين لما يتمتعون به من وعي وحسن استعداد، وكان ذلك الأمر بالنسبة لي شبيها بالأرض الكريمة التي ينمو زرعها بسرعة وتعطى ثمارا زكية.

كانت دروس مادتي التاريخ والتربية تستقطب انتباه التلامذه وأغلبهم قد بلغ سن الرشد، وكان الشيخ بلقاسم يرقب سير الدروس بصورة خاصة عن طريق ما يبلغه من تقارير أولياء التلاميذ الذين كانوا حريصين على نجاح أولادهم ذكورا وإناثا.

ووجدت في حسن استعداد التلاميذ وفي تشجيع أوليائهم ما أنساني بعض الهموم الآنية. وعوضت عزف الكمان بتلقين تلامذتي أنشودات تربوية وأناشيد وطنية كان لها وقع كبير في نفوسهم وكانت نعم المتنفس لي في حياتي الجديدة القديمة وتقمصت تماما لباس المعلم شكلا وروحا. ولم أعد أعيش إلا لمدرسة الحياة التي كانت نعم المخبر لترسيخ مبادئ الوطنية والسلوك القويم: اسمنت المجتمع.

وقد أكرمتني الجمعية التي تتولى تدبير شؤون المسجد والمدرسة فخصصت لي جراية شهرية تبلغ خمسة عشر ألف فرنكا (15.000 فرنك)، وسجل والدي هذا الأمر بارتياح كبير وهو الذي لم يتقاض مطلقا في حياته أي سنتيم أو مليم مقابل قيامه بالتدريس والإمامة في مسجد بناه أهل القرية بمبادرة منه على مدى عقود لعسر حال المواطنين ولرفض الشيخ أية مساعدة من السلطات الفرنسية.. وكان يقول بافتخار أن مسجده يعد من المساجد الأربعة عشر الحرة في القطر الجزائري.

مرحلة التدريس والإمامة معا

ولزم والدي الفراش، فتحتم علي استخلافه في المسجد كإمام واعظ بإلحاح من المصلين مع التزامي بالتدريس وإدارة مدرسة الحياة. ووجدتني مكبلا بالأصفاد عندما لفظ أنفاسه الأخيرة يوم 7 سبتمبر 1954 أي قبيل اندلاع الثورة التحريرية بسبعة أسابيع. لقد كان في تحديد مصير حياتي أقوى منه ميتا كحي.

وصرت عمليا رب العائلة الجديد ليس بوصفي فقط أكبر أفراد العائلة وإنما بحكم استفادتي بمرتب شهري قار، يضمن لأمي وأخواتي وأخوتي الصغار قوتهم اليومي، ووسائل التدفئة في زمن البرد القارس في سدراته خلال أشهر الشتاء القاسية ولياليه الطويلة.

وضاعفت جهودي لإيقاظ النفوس الخاملة في وسط الناس كما ضمنت التعبئة العامة وسط تلامذتي بحيث كان الجميع على استعداد لتلبية نداء المنادي حين دقت ساعة الحسم وكان الجواب **حي على الكفاح أو لبيك يا صوت الجزائر** الحرة المكافحة.

واستشهد العديد من تلامذة مدرسة الحياة بعد ذلك في ساحات الوغى وهم في ريعان الشباب أترحم على منصور قجوح، يوسف روكاس ومن لم تحضرني أسماؤهم، كما أحي قدماء التلاميذ عبد الوهاب ومصطفى بشيشي، محمد الصالح رواق، عبد الحكيم عبيد، الصادق حمراوي، اللموشي، حداد وبنات بوخشة وغيرهن.

وبقدر ما كان تلامذتي يتابعون الدروس ويتابعون التوجيهات، بقدر ما كان الناس في المسجد يتلقون بقناعة تامة شحنات خطب الجمعة التي كانت تقوي عزائمهم أمام التصرفات الرعناء لعناصر السلطة المحتلة وتزيدهم إيمانا بأن ساعة الباطل ساعة، وساعة الحق إلى قيام الساعة.

وكنت، عندما تحتم عليّ ظروف خاصة التغيب يوم الجمعة، أبعث بالخطبتين إلى الإمام المستخلف سي أحمد بن الأحباسي ليقوم بواجب إلقائهما.

أما مدرسة الحياة فلم أغب عن تلامذتها أبدا حتى غادرت سدراتة في ظروف سأشرحها.

بالرغم من أن السلطة الحاكمة لم تكن ترى بعين الرضى ما أقوم به سواء كمدرس أو كإمام مسجد، إلا أنها كانت تحاول استمالتي بشتى الطرق الشيطانية.

مرحلة المواجهة:

عين حاكم مدني جديد على رأس بلدية سدراتة وكانت تضم ما لا يقل على ثلاث دوائر حاليا، مداوروش، أم العظايم وسدراتة نفسها. كان اسمه NAVARRE من عائلة يبدو أنها أعطت لفرنسا قادة كثيرين في الجيش الاستعماري، وكان ضابطا في سلاح الفرسان.

جاءني أحد أعوانه ليقول لي بأن الحكام الجديد يريد أن يزورك في بيتك يوم كذا على الساعة كذا، فلم أتعلل، ووافقت على الموعد الذي حدده بنفسه.

قدم في الموعد، وحياني بحرارة، وجرى بيننا الحوار التالي:

الحاكم: بلغني أن لديك سمعة عند الناس عموما، ولذا جئت لأحييك كرجل دين، فأنت إمام البلدة، وأود أن تعينني على وضع حد لأعمال المضلّلين ودعايتهم الهدامة.

قلت: لم أفهم من هم المضللون؟

الحاكم: أنت تعلم أن جمال عبد الناصر الرئيس المصري وضع يده في يد الشيوعيين وبهذه الصفة فإنه لم يعد مسلما. فمناصر الإلحاد ملحد في رأي الدين الإسلامي ويعتبر مرتدا. لذا وجب التشهير به حتى لا ينجر الناس وراء إذاعته المسماة "صوت العرب".

قلت: إذا كان في الديانة الكاثوليكية أمر شرعي يسمح **للبابا** بطرد كاثوليكي من المسيحية لإرتكابه خطأ جسيما فأنا لست بابا (PAPE) من جهة، والدين الإسلامي لا يسمح لأي إمام مهما كانت منزلته أن يكفر مسلما، لأن لا رهبانية في الاسلام.

الحاكم: أنا لا أطلب منك البتة أن تصدر فتوى ضد جمال عبد الناصر لكنني أطلب منك الحضور بجانبي إلى اجتماع شعبي عام أشرح فيه السياسة الهدامة لهذا المسؤول العربي الذي أصيب بوباء الإلحاد والعياذ بالله. وأنتظر منك إما الإيماء بالرأس تزكية لما أقول، أو التزام الصمت.

قلت: مهمتي محصورة في المدرسة والمسجد وليس لي مكان آخر أتردد عليه مطلقا، وشكرته على زيارته وعلى تقديره لمكانتي في المجتمع، وتواعدنا على اللقاء ثانية.

وبعد حوالي أسبوعين، جاءني أحد أعيان سدراتة وقال لي لقد زرت الحاكم اليوم، وعبر لي عن غيضه منك، قلت لماذا؟ قال: لأنك لم ترد الزيارة.

وحدد لي موعدا، واستقبلني في مكتبه، وجرى بيننا حوار قصير أسجل منه الأهم:

الحاكم: أنت بلا شك تعلم القول المأثور خاف من الله، وخاف من اللي ما يخافش الله بمعنى:

اخش الله، واخش من لا يخاف الله

قلت: جاء في القول المأثور عندنا: رأس الحكمة مخافة الله

أما من لا يخاف الله، فالخوف عليه، لا منه. وانصرفت وأنا الحظ في نظرته الحقد المجسم والكره الدفين، وأدركت أني لمست الخط الأحمر.

الجدير بالذكر أن هذا المسؤول قبل تعيينه على سدراتة، كان يمارس مهمته كحاكم في أحد أقاليم الصحراء، وكان ليس فقط معربا، لكنه كان يحفظ "**دليل الخيرات**" وهو كتاب أدعية منتشر في الزوايا، وكان يجلس في حلقات الذكر يردد معهم الأدعية والأذكار إلى درجة أن السّذج منهم كانوا يؤكدون بأن بركة شيخ الزاوية نزلت عليه وشملته، فدخل الإسلام.

كان أحد تلامذتي واسمه محمد عبد الرحمن يقوم بالاتصال مع فريق الثوار بقيادة من كان يلقب نفسه الطاهر الأسود واسمه الحقيقي الطاهر عرفة، استشهد في معركة شهيرة بنواحي **تابرقه** تابعها على متن هليكوبتر الوزير الفرنسي ماكس لوجون MAX LEJEUNE وقتل خلالها خمسة وأربعون جنديا فرنسيا أصيبوا كلهم برصاص في الرأس أو في الصدر حسبما ذكرته جريدة لومند Le Monde آنذاك مشيرة إلى دقة التصويب عند المجاهدين.

الاستفزاز والتهديد:

وخرجت صبيحة أحد الأيام في اتجاه المدرسة فاعترضني ضابط عسكري اسمه Commandant GIRAUDعيّن حديثا لمواجهة الثورة في نواحي سدراتة. وكان هذا الضابط من العناصر الذين تدربوا على ملاحقة المحاربين فيما كان يسمى الهند الصينية وقد بلغتني أخبار عن سلوكه المتهور، كان إذا حياه أحد بيده اليمنى يقول له: لماذا لا تحيني بيدك اليسرى أو بالاثنين معا؟.

قلت اعترضني وقال لي: لماذا لا تحييني أنت كبقية الناس؟ واقتادني إلى مركز الشرطة، فحياني المفتش Lasbeseille قائلا: صباح الخير السيد الإمام فتظاهر الضابط GIRAUD بأنه لم يعرفني وأصر على وجوب تحيته، فقلت له: متى رأيت رجل دين يبادر بتحية غيره أيا كان وفي كل زمان ومكان، فلطف من لهجته وقال لي: من واجبك أيها السيد الإمام أن تعيننا على حفظ الأمن، وعلى إلقاء القبض على "الفلاقة المجرمين" الذين يعيثون في الأرض والعباد فسادا.

وفي إحدى الليالي، سمعت صوت طلقات نارية مكثفة أعنف مما كان يحدث بين الفينة والأخرى، وعند وصولي للمدرسة في الصباح رأيت آثار الرصاص ليس فقط على جدران المدرسة وخاصة في جهة نافذة القسم الذي اعلم فيه، ولكن أيضا على طول ارتفاع صومعة المسجد. وكانت الحفر غائرة مما يدل بأن المدفع الرشاش كان من النوع الثقيل 12/7 على الأقل.

وأخذت مأخذ الجد هذا الإنذار، واتصلت بالإخوة في الجبل، وأعتقد أن القائد حينذاك كان المجاهد محمد البوقصي فنصحوني بمغادرة سدراتة فورا للإلتحاق بأهل الإعلام ما دمت أكثر نفعا للثورة بالقلم منه بالبندقية. وعينت لاستخلافي على رأس المدرسة زميلي عبد العزيز زمزوم الذي استشهد في العاصمة عام 1959. وفي المسجد سي أحمد بن الأحباسي كإمام، وفي التنظيم الثوري لمنطقة سدراتة المأسوف عليه السعيد عبيد تقبله الله إلى جواره.

وشددت الرحال إلى تونس يوم 2 سبتمبر 1956 حيث شاركت مع جمع من الزملاء القدامى في نشر الطبعة (ج) من جريدة **المقاومة الجزائرية** التي صدر أول أعدادها في تونس يوم فاتح نوفمبر 1956.

كما ساهمت إلى جانب أخي الراحل محمد عيسى مسعودي في تنشيط البرنامج الإذاعي الذي يحمل عنوان "**صوت الجزائر**" على أمواج الإذاعة التونسية.

مرحلة التعليم الثانية:

بعد العودة إلى الجزائر المستقلة، وتحملي بعض المسؤوليات، وجدتني في ربيع 1966 أعود إلى التعليم ثانية. وليس في هذا العرض مقام لذكر الأسباب التي أدت إلى ذلك. فنحن في العالم الثالث وما نزال، رغم التحسن الملحوظ.

لم تكن في شهر أفريل مناصب شاغرة، لكنني وجدت منصبا كأستاذ مستخلف للغة العربية في إكمالية تحمل اسم أورلي التجاني (AURELIE TIDJANI) في حي باب جديد بالعاصمة، وكانت المديرة فرنسية اسمها إن لم تخني الذاكرة مدام روني Mme ROUNET.

وشمرت عن ساعدي، وربطت بسرعة علاقة وطيدة مع التلامذة، فتيانا وفتيات، وكنت أرغبهم في تعليم اللغة العربية رغم أن المعامل كان ضعيفا بالنسبة للعلوم وللرياضيات.

كنت أهدي كتيبات تحكي قصصا بسيطة مشوقة، مزينة بصور ملونة للتلامذة الذين يجيبون عن الأسئلة دون خطإ أو ينجحون في فك التمارين بصورة جيدة.

لكني لاحظت أنهم عند خروجهم لفترة الاستراحة القصيرة، يتغنون مع زملائهم الآخرين بأنشودات باللغة الفرنسية.

فأدركت أنني أحرث في الماء، إذ ما فائدة دروسي إذا كان الفتيان والفتيات يعبرون عن مشاعرهم باللغة الأجنبية. وتذكرت ماضي الموسيقي، ووجدت العزم الكافي لمطالعة أكبر عدد ممكن عن كتب القراءة والمحفوظات لأختار منها النصوص ذات اللغة الميسرة. وبدأت تجربة التلحين، وجاء الفرج بانطلاق البرنامج التلفزيوني الشهير "**الحديقة الساحرة**" الذي كنت ملتزما فيه بتقديم أنشودتين جديدتين أسبوعيا. وكان رفقائي في هذا الدرب المضيء كوكبة من المثقفين أذكر على رأسهم الشيخ محمد الأخضر السائحي الذي وهبه الله ملكة الأسلوب السهل الممتنع في الشعر خصوصا وقد كنت أستنجد به لنظم ما يناسب البرنامج المدرسي الذي يفرض مراكز اهتمام محددة، إذ لا يمكن أن تشرح درسا على فصل الصيف وأنت في عز الخريف أو الشتاء.

وإني لأنحني إجلالا لهذا الشاعر الملهم الذي كان – خلافا لغيره- يغير المفردة أو صدر البيت أو العجز أو حتى البيت كله نزولا عند رغبتي، ولا يرى مانعا للتغيير تلبية لطلبي كمعلم وكملحن توّاق إلى الكمال.

ولست أنسى طبعا صديقي ورفيق دربي في هذه التجربة الثرية منشط حصة الحديقة الساحرة الأستاذ عبد الله عثامنية، وكذلك الأخوين صلاح الدين الشريف والأستاذ حمزة المستشارين التربويين، وكذلك صانع **عرائس القراقوز** حميدي السعيد، وحبيبي الأطفال **النادي والبادي** بلباسهم المزركش البديع.

نسيت أن أذكر بأنني انتقلت من إكمالية أورلي التجاني في آخر العام إلى إكمالية حيدرة لقربها من منزلي لكن الأخ سي عبد الرحمن شريط الذي كان أمينا عاما لوزارة التربية تذكر أنني درست الموسيقى فانتدبني للقيام بمسؤولية التنشيط الثقافي على الصعيد الوطني، مما فتح لي آفاقا واسعة. وعدت بقدرة قادر إلى حبي الأول: الموسيقى.

إشكال حاد حول معامل اللغة العربية

لكني لن أمر هكذا مرور الكرام دون أن أروي حادثة وقعت بيني وبين مدير مدرسة حيدرة السيد ز.ع.. بسبب معامل اللغة العربية. كنا في مجلس الأساتذة في ختام الثلاثي الأول من السنة الدراسية 68/67، وكان الأساتذة الفاعلون فرنسيين في الغالب ومعهم بعض الخانعين المؤيدين لرأيهم. تكلم المسيو Lassale أستاذ اللغة الفرنسية منبها إلى أن معامل المادة الفرنسية لا يمكن أن يكون أدنى من (2) فتدخلت وقلت: وكذلك العربية. قال لي السيد المدير لا يا أستاذ، معامل اللغة العربية واحد (1) فقط. قلت: لم نقم بثورة إلا لتحتل اللغة الوطنية مكانها ومكانتها في بلدها. ورد علي قائلا، اسمع يا هذا نحن

في مجلس أساتذة ولسنا في اجتماع خلية الحزب. لا مكان هنا للسياسة، قلت: أنت الذي تمارس سياسة خاطئة، فأوقف الاجتماع.

وفي صباح اليوم الموالي وأنا مع تلامذتي في القسم، دق باب القسم، وطلب مني الخروج ففعلت. ووجدت مقابلا لي شخصا متشنجا إلى أقصى حد ربما لم ينم ليلته لشعوره بالمهانة أمام الأساتذة خصوصا وهم الأخصائيون في التزلف والتملق يوهمون ضعاف الشخصية من المسؤولين بأنهم ذوُو شأن.

قال لي والبصاق يتطاير من فمه: كيف تجرؤ أن ترسل كشف النقاط بمعامل (2) في حين قلت لك أن اللغة العربية معاملها (1)؟ أجبت بأن اللغتين العربية والفرنسية سواسية في قوانين ولوائح وزارة التربية.قال لي هات البرهان! قلت أنت المدير أنت المكلف بهذه الأمور، أما أنا فأستاذ فقط، دوري يتلخص في تدريس اللغة العربية.

ورفع سبابته في وجهي منذرا إياي بالشر المستطير وقرب أصبعه أكثر إلى وجهي، ومس أنفي بقوة قائلا لي بالفرنسية: يا صعلوك إنك تتطاول على مديرك بكل وقاحة. فلم أدر كيف انطلقت يدي بسرعة البرق وهوت على وجهه فسقطت نظارته السميكة، وانحنى باركا كالناقة يبحث عنها. وقلت له قبل أن أعود للدرس، إياك أن تعود ثانية إلى اسفزاز من يقومون بواجبهم بإيمان واقتناع بدورهم التربوي.

بقي التلاميذ يحدقون في وجهي، وتجاسر أحدهم قائلا: لقد سمعنا كل شيء، قلت: رجاء تصرفوا كأنكم لم تسمعوا شيئا.

ولم تنقض الصبيحة حتى وصلتني برقية صفراء اللون أي رسمية تعلمني بأمر التوقيف عن التدريس حالا، ويستدعيني السيد مفتش الأكاديمية الأستاذ بن بليدية للمثول أمامه، لكني قوبلت من طرف نائبه السيد واعلي الذي لاحظ من هندامي ومن حديثي أني لست ذلك "لمعرب الوضيع مصدر المشاكل كل يوم" حسبما وصفني السيد المدير في تقريره، وقال لي المفتش: أما وقد وقع ما وقع، فنحن مجبرون على التفريق بينكما. التحق بالأكاديمية فتنال مرتبة أعلى وتحصل على امتيازات مهمة قلت: أنا شاكر لكم هذه اللفتة الكريمة، انتقالي من مكان عملي معناه أني أخطأت والمخطئ الحقيقي هو المدير الذي تجاوز حدوده مرتين: المرة الأولى عندما جاءني وأخرجني من القسم وأنا أدرس للتلامذة وكان من الألبق أن يستدعيني في مكتبه عندما يحين وقف الاستراحة.

والثانية أنه يجهل اللوائج والقوانين لأنه متكون في المدرسة الاستعمارية التي حجبت عنه الحقائق الجديدة. إن الجزائر مستقلة، وآن للغتها أن تعود لها السيادة.

وأصر مفتش الأكاديمية السيد بن بليدية على نقلي من حيدرة واستدعاني إلى مكتبه وكان معي الزميل القديم في الزيتونة والمجاهد الصارم الأخ سي ابراهيم مزهودي الذي كان يحتل منصب المفتش العام للغة العربية بوزارة التربية.

وعبثا حاول مفتش الأكاديمية إقناع المفتش العام بأنني أجرمت، وقام بتلميحات مغرية لأقبل مغادرة حيدرة مقابل ترقية فلم يفلح.

في تلك الأثناء تجمهر تلاميذي دون أن أدري في المدرسة وخرجوا في مظاهرة جابت ميدان حيدرة، وزاروني في بيتي طالبين مني العودة إليهم، وإلا تصرفوا كما تمليهم عليهم الأوضاع. ونصحتهم بالهدوء مؤكدا لهم أني لست معاقبا، وأني سأعود لهم بعد يوم أو يومين من الراحة.

وسارت الركبان كما يقال بهذه الحادثة التي فرضت نفسها علي، واتصل بي العديد من أساتذة اللغة العربية ومفتشيها مؤيدين ومباركين، وفي مقدمتهم المناضل الراحل سي حسين بالميلي عليه رحمة الله.

بقي الأمر على ما هو عليه، أواصل التدريس، ويواصل المدير مهامه بحذر، يتحاشى الاختلاء بي خوفا مما لا تحمد عقباه. وخلافا للعادة، أشرف المفتش السيد أمحيص شخصيا على مجلس الأساتذة بمدرسة حيدرة، تحسبا لاحتمال وقوع شجار يطغى فيه الوكز على اللكز.

وانتهت تلك السنة الدراسية بسلام، وتأكد أن معامل اللغة العربية اثنين () لا واحد (1). ونقل المدير إلى مدرسة أخرى. واستأنفت التدريس في نفس المدرسة مدة أسابيع ثم التحقت بالوزارة كما أسلفت، مشرفا على التنشيط الثقافي، الموسيقى أساسا. وتلك تجربة أثرت حياتي العملية أيما إثراء.

وأعود الآن إلى الأنشودات وكيفية انتقائها.

أسلوب انتقاء الأنشودات

مادمت خرجت من التدريس لعدد محدود من التلاميذ في قسم أو قسمين، لا يصل عدد المزاولين سبعين أوثمانين تلميذا، وصرت بفضل الشاشة الصغيرة أصل إلى مئات الآلاف من الأطفال ذكورا وإناثا. فإني أحسست بضرورة إتباع منهج محكم، مرغّب لا منفر.

البداية كانت دائما حسن اختيار النص الأدبي، وانتقاؤه بدقة فائقة، لأن الأنشودة هي أولا وقبل كل شيء النص الأدبي. وما اللحن والموسيقى إلا كساء لذلك الكيان يبرز ما هو كامن فيه من زقة وكمال. وأعترف أنني لم أجد أي عناء في تلحين العشرات من الأنشودات لأن النصوص المنتقاة كانت تحمل هي ذاتها لحنا في تراكيبها اللغوية والعروضية.

أنشودة المطر مثلا، بحثت وطالعت العديد من الكتب المدرسية لأجد ضالتي، وما دمت مقتنعا بالنص الأدبي يأتي لحنه منسابا كماء جدول رقراق.

وتأتي المرحلة الثانية، وهي المخبر العائلي وكان لي في تلك الفترة أربعة أبناء: بنتين وولدين، أجمعهم وأحاول تلقينهم الأنشودة الجديدة مستعينا بآله العود. وأطلب رأيهم في النهاية.

فإذا زكوا بالإجماع تحولت إلى المدرسة لتلقين مجموعتها الصوتية الأنشودة المزكاة. وإذا عبر أحد أبنائي عن عدم الرضى الكامل أو عن تحفظ، أو حتى بالسكوت، فإني أقبر اللحن، وأعيد تلحين الأنشودة بأنغام أخرى.

تنبيه محرج ومفيد

حدث في صيف عام 1968 أن نظمت وزارة التربية الوطنية تربصا لمعلمين ومعلمات مرشحين للقيام بالتنشيط الثقافي لفائدة تلامذة المستويين الابتدائي والمتوسط. وتم هذا التربص مدة شهر كامل بمدرسة بمدينة شرشال. وكان المسؤول العام الأخ الودود الأستاذ سي عبد الله عثامنية.

كلفت شخصيا بالإشراف على الجانب الموسيقى. ولما لم يبق من أمد التدريب سوى ثلاثة أيام، فتحت حوارا مع المتربصين لتقييم فترة التدريب.

استحسن الجميع ما تعلموه من أنشودات، ومن عزف على بعض الآلات خاصة البيانو إلا واحدا عبر عن أسفه لكون العديد من المواضيع لا يستطيع أن يستغلها قائلا: تعلمنا أنشودات عن الربيع، عن المصيف والسباحة في البحر، عن المطر، عن الثلج، لكنني من مدينة **أدرار الصحراوية** ولا علاقة لأطفال منطقتنا بما تعلمناه.

وأحسست بالخجل وكأن حجابا حال بيني وبين ما سبق أن حفظته عن ظهر قلب روائع محمد العيد آل خليفة والأخضر السائحي ومفدي الذي يقول:

وفي صحرائنا تبر وتمر   كلا الذهبين حل بها وطابا

واتصلت في اليوم ذاته عن طريق الهاتف بالشيخ السائحي الكبير وطلبت منه على عجل نصا حول النخلة، أو الجمل أو كثبان الرمال المثقلة أو الحادي إن كان على رأس القوافل في صحرائنا حداة للعيس.

وزودني شيخ الشعراء في الليلة ذاتها نصا لطيفا عن **الواحة**. أتممت تلحينه عند مطلع الفجر، ولم ينفض جمع المنشطين حتى حفظوها جميعا وأضيفت إلى رصيد الأنشودات التي سوف يتغنى بها أطفال الجزائر في جنوبها وشمالها.

خـاتمـة:

وعلى كل حال واستخلاصا لمسيرتي في مجال التعليم منذ عهد التعليم الحر، إلى التعليم الرسمي في الجزائر المستقلة، فإني أحمد الله الذي ألهمني محبة أبناء وطني، ولغة وطني الرقيقة البليغة ووفقني في اختيار مجموعة النصوص والألحان التي أحس باعتزاز كبير وأنا اسمع مجموعات أطفال وشبان بلادي يرددونها بحماس– وما أزال إلى اليوم أبحث عن لحن مناسب للأنشودة التالية التي أجعلها مسك الختام، والتي نظمها لي مطلع عام 1974 الأديب المسرحي الكبير ألفريد فرج، وما أزال غير مقتنع بالألحان التي صغتها لها منذ ذلك العهد حتى اليوم، وعنوانها "الحروف العربية" :

الحروف العربية

عندما كنت صغيرا

وأعاني من صعوبات الكتابة

قال لي الأستاذ: " انظر...

"هل ترى حسن الحروف العربية؟

"قامة ممشوقة في كبرياء

"وانحناءات جميلة

"وترانيم تغني للعيون

"وتزكي العلم والشعر وأنوار الحقيقة

" فوق أوتار مشوقات لجسات رقيقة!"

هكذا أحببتها..

هكذا رنمتها..

هكذا أكتبها..

ألحروف العربية.

عندما كنت صغيرا

وأعاني من صعوبات القراءة

قال لي الأستاذ: " أنصــت..

"أولا تعلم أن الكلمات الفلسفيـة

"تشتهي أن تتزيا بالحروف العربية

"أعذب الألحان تشتاق الحروف العربية.

" أعذب الأشعار ترنو لعيون عربية.

"والتواشيح الشجيــه

"أطلقت آهاتها الأندلسيـــه

" في غرام بالحروف العربيـة !"

هكذا أحببتـهـا..

هكذا رنمتـهـا..

هكذا أقرأهـا..

الحروف العربيـة.

عندما صرت كبيرا

وتذوقت الحروف العربية

وتعلمت أسوي في الهوى عيدانها

باقة خضراء زهراء تغني

لحبيبي مع أحلى الكلمات

وعلى بسمته الحلوة اقرأ..

هكذا أحببتها..

هكذا أقرأها..

هكذا أكتبها..

الحروف العربية.

تعقيب لابد منه

إن كان ولا بد من ربط الحاضر بالماضي، فإن جميع الناس يلاحظون اليوم الاستخفاف بالحرف العربي إلى درجة تردي لغة الخطاب في أوساط الجماهير العريضة من الشعب بحيث أقحمت مفردات أجنبية عن البيئة وعن التقاليد السمحة في لهجاتنا، وصار شبابنا يتغنى بمواضيع هزيلة إن لم نقل أكثر، قوامها لغة هجينة، وأبيح لمنتجي الأشرطة الصوتية (K7) وحتى لمنتجي برامج الإذاعة والتلفزيون المؤسستين الرسميتين استعمال لغة لا أصل لها ولا فصل. مما يحتم على المسؤولين في مجالات التربية والتعليم والثقافة والشباب والرياضة، وحتى على عناصر الأدب الشعبي التصدي بحزم لدحر هذه الظاهرة الخطيرة فعلا، التي إن لم يجدوا من يضع حدا قاطعا لها، فإنها ستفضي ليس فقط إلى تهديم إحدى الركائز الأساسية الحساسة من مقومات شخصيتنا، ولكنها ستجعل من شعبنا العظيم كيانا لقيطا حضاريا.

والمجلس الأعلى للغة العربية، رغم حاله وأحواله هو في رأينا فارس هذه المعركة الاستراتيجية، وقائد فيالقها الواعية في أوساط جنود مخلصين في قطاعات التربية والتعليم والثقافة والشبيبة والرياضة وخاصة في المدرسة– الجامعة الكبرى: التلفزيون والإذاعة بمختلف قنواتهما.

مأساة اللغة العربية بالجزائر

أ. أحمد قادري

مقدمة:

إن المتتبع لخطوات الدول الاستعمارية في العالم يدرك أن كل دولة تغتصب دولة تسعى بكل ثقلها وإمكاناتها إلى طمس هوية الدولة المستعمرة و تقضي على كل مقومات الدولة المتعارف عليها دوليا، خاصة اللغة التي هي أحد الأركان الأساسية الأربعة لإقامة دولة ما.

ويتجلى هذا الطمس بوضوح لدى أكبر دولة استعمارية في العالم هي فرنسا. إذ لا تقبل أية لغة تزاحم لغتها الفرنسية. إلا أنها في الجزائر كانت أشد قسوة للقضاء على اللغة العربية نهائيا لما تعرفه عن العمق العربي الإسلامي، وللارتباط الوثيق بين اللغة العربية والإسلام. ولأن الحملة الفرنسية الاستعمارية على الجزائر كانت صليبية أكثر من أي هدف آخر. بدليل أنه بمجرد دخول الجيوش الغازية حولت جامع كتشاوة التاريخي إلى كنيسة بعدما ربطت به الخيول إهانة للإسلام وإذلال المسلمين الذين كانوا يتألمون لما وقع لمسجدهم وبقي هذا الوضع لمدة 132 سنة، أي إلى غاية الاستقلال.

التعليم في الجزائر قبل الاحتلال

إن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال لم تكن له هيئة مركزية تسيره وتضع له برامج سنوية وامتحانات فصلية أو سنوية للانتقال إلى درجة أعلى. وإنما كان هناك ما يشبه مؤسسات تعليمية محلية أو جهوية أو بعض الزوايا التي كانت تعنى بالتعليم وحفظ القرآن الكريم. وكانت كل مؤسسة مستقلة عن غيرها. أما ما يسمى بالدولة وإعانتها و توجيهها فهذا أمر غير موجود. وعليه فكل مؤسسة تعد برامج خاصة بها وحسب إمكاناتها البشرية من معلمين و وسائل وأماكن التعليم. ولضمان استمرارها في المهمة لمدة أطول كانت تعتمد على المواطنين ذوى البر و الإحسان بما يجودون به من تبرعات و زكوات متنوعة حسب كل فصل.

والطريقة التي كانت معتمدة في التعليم - ولا يجوز التنازل عنها إطلاقا - هو أولا يشترط أن يكون الطالب حافظا للقرآن الكريم كله ليسمح له بتعلم قواعد اللغة العربية مبتدئا بكتاب الأجرومية ثم قطر الندى فألفية بن مالك. إلى جانب قواعد اللغة العربية يدرس الطالب علوم الدين الإسلامي الخاصة بالعبادات ككتاب ابن عاشر. ثم كتاب الشيخ خليل المطول به العبادات والمعاملات .

إلى جانب ما سميته - مؤسسة - كانت مساجد الصلاة المنتشرة في الأرياف تقوم بتعليم القرآن وتحفيظه لينتقل الطالب إلى أماكن أخرى ليدرس العلم حسب التعبير السائد آنذاك. وكل مسجد كان يأوي العدد الذي يستطيع أن يتكفل به. وبهذه الطريقة الذاتية صار جل الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة أكثر من الفرنسيين. وهذا بشهادة بعض الضباط الفرنسيين المشاركين في الحملة الأولى إذ يقولون:« عندما دخلنا الجزائر وجدنا أبناءها يقرأون و يكتبون أكثر من الفرنسيين». إلا أن الغزاة الاستعماريين الفرنسيين عملوا على طمس الهوية الجزائرية العربية الإسلامية بمحو كل أثر التعليم العربي بالجزائر، وصار كل من ينتسب إليه يعتبر خارجا عن القانون لأنه يدرس لغة غير لغة الدولة. لذا تجب محاربته بكل الوسائل وتسلط عليه الإهانات والاحتقار ثم العقوبات بتلفيق التهم حسب الطلب. هذا للمتعلم، أما المؤسسات والمساجد فلهما شأن آخر، وهو التعامل مع مسيري التعليم الذي تراه السلطات الفرنسية الغازية الاستعمارية ناجعا وضروريا للقضاء على التعليم العربي نهائيا ولو بالتصفية الجسدية. ففي البداية كانت تشترط لمنح رخصة التعليم أن تكون المؤسسة أو المسجد تتوفر فيه جميع الشروط التي تتوفر بالمدرسة ، من أبواب ونوافذ ومراحيض ومياه جارية وإنارة إلى غير ذلك من الشروط التعجيزية التي لا يمكن توفيرها.

وعليه صار التعليم مقتصرا على حفظ القرآن الكريم فقط دون دراسة اللغة أو التاريخ وغير ذلك، فأصبح الطالب يحفظ القرآن حفظا جيدا لكنه لا يفهم أدنى معانيه. ورغم القهر والجبروت والطغيان والمضايقات الجدية فإن الجزائريين لحبهم التعليم ونبذهم الجهل واصلوا التعليم بكل الطرق الممكنة وحتى بالسرية أحيانا والمغامرات بمصيرهم وحياتهم أحيانا أخرى.

في القرن العشرين كان بعض الطلبة الجزائريين يتوجهون إلى جامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى الشقيق بالنسبة إلى الجهة الغربية، وإلى جامع الزيتونة بتونس بالنسبة للجهة الشرقية لمن استطاع لذلك سبيلا. هاتان المؤسستان كان التعليم بهما منتظما تنظيما عصريا حسب ذلك الوقت، إلا أن مواد التدريس تقتصر على اللغة العربية والشريعة الإسلامية وشيء من التاريخ الإسلامي، هذا بالنسبة للمغرب، أما بجامع الزيتونة بتونس فكانت المناهج التعليمية أكثر تفتحا، حيث تدرس: الهندسة ، الحساب والجبر، وعلم الحيوانات والنباتات. زيادة عن تدريس علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

وقد غامر بعض الطلبة إلى التوجه نحو المشرق العربي إلى مصر بالخصوص وكان عددهم قليلا جدا، ومن استطاع اجتياز الحواجز المتعددة وصل، ومن لم يستطع رجع أو اندثر خبره.

فقد سمحت فرنسا لجمعية العلماء المسلمين بمباشرة تعليم رسمي ففتح معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة عام 1947 وكان ملحقا بجامع الزيتونة بتونس إداريا و إجراء امتحانات من طرف لجنة تأتي من جامع الزيتونة، ومن نجح في الامتحان يلتحق بجامع الزيتونة لإتمام دراسته.

وقد فتحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أيضا عدة مدارس عبر الوطن. كما فتح حزب الشعب مجموعة أخرى من المدارس عبر الوطن.

التعليم الذي استحدثه الاستعمار في الجزائر

ففي بداية احتلالها و استباحتها الجزائر وما ومن فيها أقامت مدارس خاصة لأبناء المعمرين الذين استجلبتهم من دول أروبية مجاورة لفرنسا الغازية من المحكوم عليهم بسبب ارتكابهم جرائم جسيمة. وبعد مدة من الزمن سمحت لبعض أبناء الجزائريين ولوج بعض المدارس استثناء، بعد إجراء بحث دقيق من طرف المخابرات حول الانتماء السياسي لعائلة الطفل و ميولاتها.

ولما بدأ عدد الجزائريين الراغبين في الالتحاق بالمدرسة يتكاثر نسبيا في المدن، - أما في القرى الصغيرة والأرياف فالآباء منعوا منعا باتا أبناءهم من الالتحاق بمدرسة« الكفار» التي تسعى إلى تنصيرهم و إخراجهم من الإسلام. وانتشرت مقولة بأن الالتحاق بمدارس الكفار حرام للأسباب التي ذكرتها.

قلت لما تبين أن عدد الراغبين في الالتحاق بالمدارس الفرنسية يتزايد أسست قوات الاحتلال سنة 1880 مدارس أطلق عليها اسم«مدارس الأهالي» خاصة بالجزائريين، هذا الاسم مشتق من قانون الأهالي«لانديجان» الصادر في 1897 الذي يطبق على الجزائريين فقط وفيه جميع أنواع الإهانات والإذلال للمواطنين. وصار بالجزائر مدرستان:

1- مدرسة- أ- لها برنامج خاص يدرس لأبناء الأوربيين.

2 - مدرسة- ب- وضع لها برنامج خاص يدرس الأهالي. وليس كلمة الأهالي على إطلاقها، بل الأهالي صنفوا إلى ثلاثة أصناف :

1- العائلات التي ثبت تعاونها ومساندتها للاستعمار.

2 - الفئة التي تريد الحياة ولم تلفت انتباه رجال الأمن و العملاء.

3 - الفئة المنعوتة بالتمرد أو المشكوك في ولائها و عدم قبولها للاستعمار.

هاته سياسة فرنسا المحتلة التي سعت بكل الطرق و الوسائل إلى نشر الجهل في الشعب الجزائري لطمس هويته الوطنية و القضاء على لغته العربية لتصل في النهاية إلى القضاء على العقيدة الإسلامية، إلا أن المواطنين المخلصين لوطنهم واصلوا جهادهم في تعليم شعبهم اللغة العربية ومبادئ الشريعة الإسلامية في الزوايا و في المساجد وكذا جمعية علماء المسلمين الجزائريين و حزب الشعب فيما بعد.

إن فرنسا تركت وراءها إرثا سيئا مخجلا لذوى العقول النيرة من الفرنسيين أنفسهم. وعن هذا الشعور النير من أحد الفرنسيين؛ يقول وزير خارجية فرنسا السابق السيد: كلود شيسون لجريدة الشرق الأوسط ونقلته جريدة الجمهورية بتاريخ 04 /07 /1992 ما يلي :

« . . . إن الشعب الجزائري أعطى عبر تاريخه أمثلة رائعة لوحدته الوطنية التي مكنته من هزيمة قوة عظمى مثل فرنسا بفعل قوة إرادته و إصراره على الحياة.»

« إنني أتألم اليوم مع الجزائريين و أخجل من النتائج التي تركها بلدي هناك، حيث لم تقدم فرنسا خلال 132 سنة لاحتلالها و استباحتها للجزائر إلا 82 ٪ من الأمية. »

وهذه نتائج التعليم التي تركتها فرنسا للجزائر :

في 1962 كان عدد التلاميذ المتمدرسين « ستمائة ألف » 600000 تلميذ.

عدد المتخرجين من الجامعة طيلة الفترة الاستعمارية لمدة 132 سنة خمسمائة 500 متخرج جامعي. منهم 100 طبيب و صيدلي و 10 مهندسين، مما يساوى ثلاثة أشخاص في السنة.

وفى الجزائر المستقلة في مدة 37 سنة أي من سنة 1962 إلى 2001 تخرج من المدرسة الجزائرية ستمائة ألف« 600000 » طالب بشهادة عليا، أي ما يساوى 1276 طالبا في السنة، مقابل ثلاثة أنفار في السنة في عهد الاستعمار.[1] إنها لمأساة حقيقية أصابت الشعب الجزائري منذ أن سلمه داي الجزائر إلى فرنسا الغازية بكل بساطة في أقل من أسبوع؟!

العربية في نصوص الثورة وتطبيقاتها أثناء الكفاح المسلح

1 - حسب تصريح السيد: على بن محمد، وزير التربية سابقا.

لقد اجتهدت في البحث منذ مدة عن نصوص مكتوبة بالعربية أو تعليمات أو محاضر اجتماعات مسجلة بالعربية، أو حتى وثائق تحث على استعمال اللغة العربية التي هي لغة الشعب الجزائري إبان الثورة فلم أجد لذلك أثرا.

فهذه قرارات مؤتمر الصومام تحرر بالفرنسية وحدها، ومحاضر اجتماعات المجلس الوطني للثورة الجزائرية المتلاحقة كانت تحرر بالفرنسية. ومجلس التنسيق وإدارة الحكومات فيما بعد كانت تستعمل اللغة الفرنسية. والمناطق ثم الولايات فيما بعد كانت لغتها الرسمية هي الفرنسية. – يستثنى من الولايات الست ثلاث ولايات، سيأتي ذكرها قريبا– وصولا إلى اتفاقات إيفيان مع فرنسا لإنهاء الحرب، حيث حررت كل محاضر الاجتماعات أو الاتفاق النهائي باللغة الفرنسية و هاته تعتبر وصمة عار وإهانة للشعب الجزائري، وكأن الشعب الجزائري لم تكن له لغة قبل الاحتلال.

رجعتُ إلى بيان أول نوفمبر 1954 الذي حرر هو أيضا بالفرنسية والذي أصبح الآن يتاجر به سياسيا، فلم أجد فيه كلمة : اللغة العربية، لا صراحة ولا ضمنيا. ماعدا كلمة الإسلامية المضافة إلى المبادئ، فقد ورد في البيان تحت عنوان صغير، الاستقلال الوطني : بواسطة :

« إقامة الدولة الجزائرية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية » كما ورد في فقرة أخرى كلمة العربي الإسلامي. « تحقيق الوحدة الإفريقية في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي »

ومما لفت انتباهي في فقرة أخرى التي تقول :

« فإن المصالح الفرنسية، ثقافية كانت أم اقتصادية والمتحصل عليها بنزاهة، ستحترم.......»

ثم رحت أبحث عن الهيئات التي كانت مسؤولة عن مسيرة الثورة وشؤونها في الداخل والخارج، فوجدتها مغتصبة عمدا من طرف أناس لا يفقهون اللغة العربية بتاتا ولا يؤمنون بها أصلا، وفي أذهانهم أن اللغة العربية لا تصلح إلا للصلاة وكتابة التمائم كما علمهم الاستعمار الفرنسي.

فهذه لجنة التنسيق والتنفيذ الأولى المنبثقة عن مؤتمر الصومام المتكونة من خمسة أفراد، ثم اللجنة الثانية التي أصبحت تضم تسعة أفراد ليس من بينهم معرب واحد. بل من ضمنهم من ينكر الانتساب العربي، وفيهم من أنكر وجود شعب جزائري عربي أصلا. وبعد يأتي تأسيس الحكومة المؤقتة، فكانت على شاكلة مجلس التنسيق، ثم جاءت حكومة ثانية برئاسة المرحوم بن يوسف بن خدة ، فكانت على شاكلة سابقتها، وفي عهد الاستقلال توالت الحكومات ولم تتشرف بتعيين شخص « معرب » إلا مرة واحدة عين « معرب » وزيرا للعدل ولم يدم طويلا حتى عزل. يستثنى من هذا التعميم وزارة المجاهدين و وزارة الشؤون الدينية، ويطول مقامهم في هذا المنصب، حتى ينسى الشعب من كان وزيرا قبله.

وعليه؛ فمن أين تأتي اللغة العربية ؟! إن في الأمر لخطورة كبيرة، وأن النوايا الخفية منذ زمان بعيد ليست بريئة.

دور المحافظ السياسي وخطاب التوعية والتعبئة في إعادة الاعتبار للغة العربية :

من قرارات مؤتمر الصومام: إحداث منصب المحافظ السياسي في جميع مستويات تنظيمات جيش التحرير الوطني من القسم إلى قيادة الولاية، ويشترط في المحافظ السياسي أن يكون يقرأ ويكتب بالعربية وهو أقل شيء، إذ لا يمكن مخاطبة أفراد الشعب أو جيش التحرير بلغة غير العربية. لأن المحافظ السياسي كان يجب عليه أن يخاطب الشعب بما يعتقده: وهو انتسابه أي الشعب) إلى العروبة والإسلام، وإلا لم يجد من يسمعه.

ودور المحافظ السياسي هو: توعية جيش التحرير الوطني والشعب معا بالثورة و أهدافها على مستوى دائرته المحددة إقليميا. ويمكن تحديد صلاحيات المحافظ السياسي في النقاط التالية:

1- التربية السياسية لأفراد جيش التحرير الوطني.

2- الاتصال الدائم والتحاور مع أفراد الشعب لتوضيح أهداف الثورة التي لا يمكن أن تنجح و تصل إلى الأهداف المرجوة إلا بترصيص جميع فئات الشعب ووحدته وتقديم الدعم للمقاتلين والمدنيين المتضررين من الحرب.

3- على المحافظ أن يجيب عن جميع الاستفسارات التي تطرح عليه، وأن يقوم بدور دعائي، و أن يعرف الجماهير الشعبية بمختلف أنشطة جيش التحرير الوطني التي كان المواطن يسعد بها كثيرا، خاصة عندما تكون نتائج العمليات مرضية.

4- يتسلم مختلف الإيرادات المالية التي هي عبارة عن ضريبة مطلوبة من الشعب والتبرعات التي يتبرع بها المواطنون لفائدة الثورة.

5- يدفع النفقات والمنح العائلية لمستحقيها. ويدفع الاعتمادات المخصصة للمجاهدين « 500 فرنك في الشهر- إن وجدت » وله سلطة المراقبة على جميع الإرادات والنفقات معا.

6- يجتمع بالمجالس الشعبية للدوائر ويبلغها التعليمات المستجدة، ويراقب أعمال لجان العدل ويفصل في القضايا المستعصية منها.

7- يسهر على شراء اللباس للمجاهدين و التموين و إعداد مراكز لتجميع وحفظ تلك المشتريات.

8- يقدم تقريرا مفصلا عما يقوم به العدو من أعمال عنف وقمع ضد المدنيين.

هاته بعض الأعمال التي يقوم بها المحافظ السياسي- نظريا- وهي كثيرة وشاقة ومرهقة جدا. علما بأنه لا يمكن أن يقوم بهاته الأعمال كلها وحده ولهذا كان له أفراد كثيرون يقومون بتنفيذ الأعمال المطلوبة، فمثلا شراء اللباس والتموين من المدن له تنظيم خاص، وتهيئة مراكز الاستقبال والتخزين له تنظيم ورجال آخرون قد لا يعرفون بعضهم ولا مهام المجموعات الأخرى. ويقوم بهاته المهام رجال مسلحون ببنادق صيد أطلق عليهم اسم: « مسبلون » وكثيرا ما كانوا يقعون في كمائن العدو ويسقطون شهداء، وتحجز السلع والبغال المستعملة لهذا الغرض. كثيرا ما كان المحافظ السياسي يتعرض لمساءلات تصل إلى حد التأنيب والتقصير في الواجب، واتهامه بتهم موضوعة.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن المحافظ السياسي كان تواجده بوسط الشعب أكثر من تواجده بين المجاهدين لصعوبة ذلك، وكان يلقى الترحيب من طرف الشعب، بدل الإعراض من طرف المجاهدين نتيجة الإرهاق الذي يصيبهم، ونقصان التموين واللباس المتهم به المحافظ السياسي المغلوب على أمره.

هذا بداخل الولاية الثانية التي عشت بها مدة من الزمن. والآن أنتقل إلى عمل المحافظ السياسي بالحدود التونسية، فأبدأ كلامي من شهر جويلية سنة 1958 أين أرسلت إلى الحدود التونسية.

لا يمكن إعطاء صورة واضحة حول دور المحافظ السياسي داخل وحدات جيش التحرير الوطني لصعوبة ذلك، إذ كان يوجد بالحدود بأرض تونس: جيش الولاية الأولى وجيش القاعدة الشرقية اللتان لهما حدود مع تونس بأعداد كبيرة ولها مراكز قارة وجيشها مستقر، ومنها تنطلق إلى القيام بعمليات حربية ضد العدو المتواجد بالحدود بمسافات تختلف من منطقة إلى أخرى، هاتان الولايتان كان لهما محافظ سياسي إلا أن الظروف الحرجة التي كان عليها جيش التحرير وقادته معا، لم تسمح للمحافظ السياسي أن يقوم بعمله على الوجه الأكمل هذا باختصار.

ومن الولايات التي لها جيش بالحدود هي :

- الولاية الثانية، وعدد أفراد جيشها أكثر من الولايتين الآتيتين:
- الولاية الثالثة، عدد أفراد جيشها قليل، وهى أقل بكثير من الولاية الثانية.
- الولاية الرابعة، لها عدد بسيط، وأقل من الولاية الثالثة.

هاته الولايات الثلاث، سبب تواجد جيوشها بتونس هو جلب الأسلحة والذخيرة من تونس والرجوع فورا، لكن لصعوبة الرجوع مكثوا هناك، ولهذا لم يكن من الممكن تعيين محافظ سياسي لأناس مؤقتين.

غير أن هاته الأسباب لم تمنع من القيام بمحاولة بتعيين محافظين سياسيين، ففي شهر جويلية 1958 عينت لجنة التنسيق والتنفيذ السيد علي منجلي – الداخل لتونس لتوه و أنا بصحبته– عينته مسؤول الحدود التونسية، فاختار مجموعة من المجاهدين المثقفين ووزعهم على بعض الوحدات المتواجدة بالحدود ليقوموا بتوعية أفراد جيش التحرير و رفع معنوياته المهزوزة أصلا في هذا الظرف بالذات لعدة عوامل. إلا أنهم لم يجدوا الجو الملائم للعمل، ولا ترحيبا من لدن مسؤولي الوحدات، وحامت حولهم الشكوك، واتهموا بأنهم يعملون لصالح مسؤول الحدود السيد علي منجلي شخصيا الآتي من الولاية الثانية، وقد صنفوا من رجال المخابرات يبحثون عن عورات مسؤولي الوحدات. ونتيجة للمضايقات وفقدان الثقة والعزوف الكلى عن فكرة المحافظ السياسي، لم يستطع أولئك المجاهدون المخلصون الصمود أمام المضايقات المتكررة والتشاؤم من وجودهم انقطعوا عن العمل وسحبوا من الوحدات دون أن يقدموا شيئا للمجاهدين، وبقى الأمر هكذا إلى نهاية سنة 1960 فأعيدت هيكلة المحافظة السياسية بأسلوب جديد من طرف قيادة أركان الحرب العامة.

هيكلة المحافظة السياسية:

في آخر سنة 1960 تأسست مدرسة أطلق علبها اسم: « مدرسة المحافظة السياسية » بمكان يسمى: قرن الحلفاية، يبعد عن مقر ولاية الكاف التونسية بحوالي 18 كم هاته الهيئة عبارة عن مديرية مركزية تابعة لقيادة أركان الحرب العامة مباشرة. وقد عين على رأس المدرسة السيد صافى بوديسة [1] غير أنه لم يلبث إلا وقتا قصيرا فاستبدل بالسيد: الهاشمي بوزيد، من ولاية خنشلة مؤقتا، ثم عين السيد: عمار بن محجوب، فلم يلبث طويلا حتى استبدل بالسيد: عمار عقبى، [2] و أيضا لم يمكث إلا زمنا قليلا فاستبدل بالسيد: الهاشمى هجرس. [3]

المواد التي كانت تدرس :

---

1 من قصر الشلالة، مثقف بالفرنسية فقط، صار وزيرا للعمل في أول حكومة بالجزائر المستقلة.

2 من تلمسان، جيء به من الحدود المغربية، وزير التجارة في عهد الشاذلي، عضو مجلس الأمة حاليا.

3 من الولاية الثالثة، انخرط بجيش التحرير بالولاية الثانية، مسؤول المحافظة السياسية في بداية الاستقلال. قائد الناحية العسكرية الخامسة بقسنطينة. تقاعد من الجيش برتبة عميد.

تاريخ الجزائر، خاصة الغزو الفرنسي واحتلاله الجزائر، مقاومة الأمير عبد القادر والثورات التي اندلعت بعده، لمحة تاريخية حول العالم العربي، حروب التحرير في العالم، سواء على الاستعمار المحتل أم على استبداد الحكام.

وقد أسندت مهمة تدريس هاته المواد إلى كل من:

- مصطفى صولي، مثقف بالفرنسية ثقافة بسيطة.
- أحمد مناعي، ثقافته فرنسية بسيطة أيضا.
- إسماعيل شعباني، مثقف بالعربية.

هؤلاء خاصة الاثنان الأولان، يجهلان التاريخ تماما، نظرا أيضا لعدم وجود المراجع آنذاك باللغتين، إنما كانا يقرآن كتابا بالفرنسية ويلقون الدروس بالفرنسية وشيء بالعامية إن وجدوا تعبيرا بالعامية يؤدي ما يريدون قوله. فهذا مسؤول المدرسة لا يعرف تاريخ الجزائر و لا يعرف العربية، « والمدرسون » مثله ويلقون الدروس بالفرنسية على من لا يعرف الفرنسية – لأن المتربصين كلهم معربون – ويسمونها توعية وتثقيف جيش التحرير الوطني بواسطة المحافظ السياسي، هذا هو الوضع القائم للأسف.

هذا ما علمته من أحد الأصدقاء الذين شاركوا في التربص وهو المجاهد السيد مصطفى هشماوي.

أما عن المعنيين بالتكوين، فهم نواب الفيالق أولا، أو المرشحون لهذا المنصب لقضاء فترة تدوم ثلاثة أشهر، بعدها يعينون بصفة رسمية نوابا لقادة الفيالق يطلق عليهم اسم: نائب قائد الفيلق السياسي. ثم توسع التكوين فيما بعد إلى قادة الكتائب.

وقد جرت العادة أن يمسك بفردين أو أكثر من كل دورة في المدرسة ممن يتوخى فيه القدرة على التدريس وله اطلاع بالتاريخ و الثقافة العامة وبهذه الطريقة تجمع بالمدرسة نخبة من المثقفين ثقافة جيدة من خريجي جامع الزيتونة بتونس، ولا بأس أن أذكر أسماءهم إنصافا لهم وللتاريخ معتذرا لمن لم أذكر أسماءهم لنسياني أو جهلي:

1- المرحوم عشوري حمودة، من باتنة.

2- المرحوم الخوجة مجدوب، فج مزالة.

3- بولحبال عمرو، جيجل.

4- أحمد عرفي، فج مزالة.

5- ابن الطامة محمد.........

6- هشماوي مصطفى، معسكر، خريج المدرسة العسكرية بالعراق برتبة ملازم شهر سبتمبر 1956.

وقد تخرج من المدرسة أربع دفعات. فجاء وقف الحرب، وانتهى عمل المدرسة الذي دام حوالي أربعة عشر « 14» شهرا. وللأسف فإني لا أعرف عدد الأفراد الذين تخرجوا من المدرسة.

وعلى أية حال كان المتربص عندما يعين في الوحدات القتالية الأمامية يقوم بتوعية أفراد جيش التحرير الوطني الجزائري العربي الإسلامي و بأهداف الثورة لرفع معنويات المجاهدين مستعينا ومستدلا بتاريخ الجزائر أولا و بالثورات المتتالية على الاستعمار الغازي للبلاد في مختلف العصورثانيا. كما أن المحافظ السياسي كان عليه أن يعلم المجاهدين الحروف الهجائية، ليصل إلى تعلم الكتابة والقراءة في حدود الإمكان وحسب ظروف كل وحدة المتغيرة باستمرار، وكان يستعين ببعض الذين يعرفون الكتابة والقراءة بالعربية إن وجدوا.

وهاته قصيدة هزلية بالعامية أنشدها أحد المتربصين المحتفظ بهم بالمدرسة المجاهد السيد بن الطامة محمد، وهي تصور تصويرا رائعا شاملا لما كان يدرس بالمدرسة وينصح المحافظ السياسي كيف يتصرف عندما يذهب إلى القسم « السكتور– secteur » أو يكون في « البطيون–bataillon » الفيلق،ويحثه على التحلي بالأخلاق الطيبة كي يكسب ود الجميع، وأشير هنا أن المحافظ المسكين أكتسب ود المجاهدين ولم يستطع كسب ود المسئولين، فكانت معنوياته دائما مهزوزة لما كان يتلقاه من معاناة، بينما هو مطلوب منه أن يرفع معنويات المجاهدين خوفا من أن تصاب باهتزاز واشمئزاز.

٨

الكوميسار

قالوا لي ماذا بيك
تجي تتعلم البوليتيك
وترجع لا باس عليك
كوميسار بوليتيك
xxx
قالوا تعمل ليل ونهار
وتلعب جميع الادوار
باش تكسب الانتصار
وترجع كوميسار .. كوميسار بوليتيك

xxxx
قالوا يلزم تعرف الكياسة
والعلوم والتاريخ والسياسة
والاقتصاد والخطابة والفراسة
بيهم الكل ترجع كوميسار بوليتيك
xxxx
قالوا يلزم تعرف الثورات
كيفاه بدات وكيفاش انتهات
وتستخلص منها عظات
باش تتجع ككوميسار بوليتيك
xxx
عرفت ثورة الروس
وما قطعت من روؤس
وما عطات من دروس
ووليت كوميسار بوليتيك
xxx
زدت عرفت ثورة الصين
كيما عرفت مبدا لينين
وكفاح لانيد وشين
وصبحت نخدم كوميسار بوليتيك
x x x
عرفت قضايا الاستعمار
في الهند في الشرق في زنجبار
بالتطويل والاختصار
ووليت كوميسار بوليتيك
xxxx
كيما عرفت تاريخ الرومان

ـ ٢ـ

وما استولوا عليه منا وطان
من فرنسا الى لبنان
لكن راسي راهو دار   ياخوي لاباس عليك

× × ×

زدت عرفت ثورة لاميريك
وما عملوا فيها من تاكتيك
وكيفاش قدروا طحوا لاطلاطيك
من بقايا الاستعمار يا كوميسار

× × ×

كيما عرفت تواريخ الشعوب
الغالب منها والمغلوب
وميزت اش هو المطلوب
للانتصار يا كوميسار

× × ×

عرفت تاريخ شمال افريقية
منذ العصور الاولية
والفتوح الاسلامية
وما صاحبها من فخار يا كوميسار

× × ×

زدت عرفت البورقيبية
وما فيها من تراجع وانانية
وكذب واهم ومهمية
ورفعت راسي بافتخار لاني كوميسار

× × ×

قالوا = بالحافظ نجحت الصين
وقدرت تنظم الملايين
وتحصل في القرن العشرين
على اعظم انتصار
بالكوميسار البوليتيك

× × ×

زادوا قالوا " هوشي مين
ما قدر ينظم لاندوشين
ويعدل بين المعذبين
الا بالكوميسار بوليتيك

× × ×

هكذاك احنا يلزم نعمل
نخدم نتعب ما نكسل

-٣-

زادوا احكاولي على الكوميسار
وما قام به في الجزائر من ادوار
وما قاساه من آلام ودمار
في محاربة الاستعمار يا كوميسار

× × ×

قالوا يبات يخدم سهران
نهار وليل ديما تعبان
ينظم في الشيوخ والشبان
وهذا هو عمل الكوميسار بوليتيك

× × × ×

قالوا هو اللي نشر الثورة
بما يملك من اقناع ومقدرة
ونشاط وحسن سيرة
وهكذا يكون الكوميسار بوليتيك

× × ×

قالوا الجزائر راهي محتاجة
للي ينظم ويفهم راهي في حاجة
ما تنظر للي راندا ولا قاجة
راها تسغى في الكوميسار بوليتيك

× × ×

وحين يوقف القتال
ويقرب تقرير المآل
ثم تظهر الرجال
من امثال الكوميسار بوليتيك

× × ×

ثلاث اشهر ونا نقرا
ما غابت عني حتى فكره
الحماس جعلني جمره
وبديت نعمل كوميسار بوليتيك

× × ×

-٢-

ياكوميسار بوليتيك

× × ×

علمهم كيفاه يكتبو
ويهجيو ويحسبو
ويتكلمو ويخطبو
و واش عمل الاستعمار ياكوميساربوليتيك

× × ×

وحين تمشي للميكستور
كون كالدينامو اللي بيدور
يشعل النار ويزيد النور
النار اللي تحرق الاستعمار ياكوميسار

× × ×

عرف خوتك بالواجبات
وزودهم بالمعلومات
باش ينجحو في الحياة
حياة الاستقرار ياكوميسار

× × ×

بديت نعمل ونكد
ونعلم ونجتهد
ونشرح لكل واحد
كل قرار ياكوميسار

× × ×

نحارب في الامية
والتفريق والعنصرية
والتزوير والانانية
ونبين صفات الاحرار ياكوميسار

× × ×

نجحت في اعمالي كثير
بنشري مبادئ الخير
ونزت باحترام الغير
وكثرت من حولي الانصار

الإعلام باللغة العربية أثناء الثورة

إن الإعلام أثناء الثورة داخل الجزائر لم يكن مهيكلا ولا منظما ولا موحدا، بل كل جهة يقوم مسؤولوها ببث معلومة يراها تخدم الثورة، أو دعاية تربك العدو، وغالبا ما تسند هاته المهمة إلى المحافظ السياسي الذي يقوم هو بدوره بتبليغها إلى الشعب لينشرها نشرا واسعا. فمثلا إذا ما وقعت معركة ما، فإن الشعب تجده يتساءل عن نتائج هاته المعركة، ما هي خسائر المجاهدين؟ وما هي خسائر العدو؟ هنا لابد أن تكون خسائر العدو مضخمة وخسائر المجاهدين قليلة. وفى مثل هذا الموضوع، لا ينتظر من المسؤول الأعلى أن يعطى الأوامر ويحدد أسلوب البث الدعائي، بل قد يقوم بهذا الأمر مواطن عادى قد يكون قريبا من الحدث وشاهد بعض فصوله، كأن يشاهد سيارة الإسعاف أو « شاحنة – camion » مغطاة وحوامة « هلوكبتر » حطت بالميدان، فيقوم هذا المشاهد بإعطاء عدد الموتى والجرحى حسب مشاهدته للآليات التي حضرت وحسب تخميناته.

ومن جهة أخرى فإن الاستعمار كان له إعلام مهيكل ومنظم تنظيما قويا يوميا خاصة بالإذاعة، فما من يوم يمر إلا ويتكلم عن المجاهدين ويصفهم بأوصاف يختارها هو لهم. ومن أجل هذا الغرض أنشأت عدة محطات إذاعية بكامل القطر، خاصة المدن القريبة من الحدود التونسية و المغربية، مثل تلمسان ومدن أخرى بالجهة، كما أنشأت محطة إذاعية بسوق أهراس، تبسة، عنابة، قسنطينة، ومدن أخرى كثيرة. وكانت تأتي ببعض الأسرى أو الذين سلموا أنفسهم ليتكلموا بالإذاعة لمخاطبة المجاهدين والدعوة إلى تسليم أنفسهم للقوات الفرنسية، والخروج عن طاعة المسئولين الذين غرروا بهم كما تدعى. ثم هناك نوع آخر من الإعلام الذي يقوم به العدو من حين لآخر، وهو إسقاط المناشير بكثافة بواسطة الطائرات في

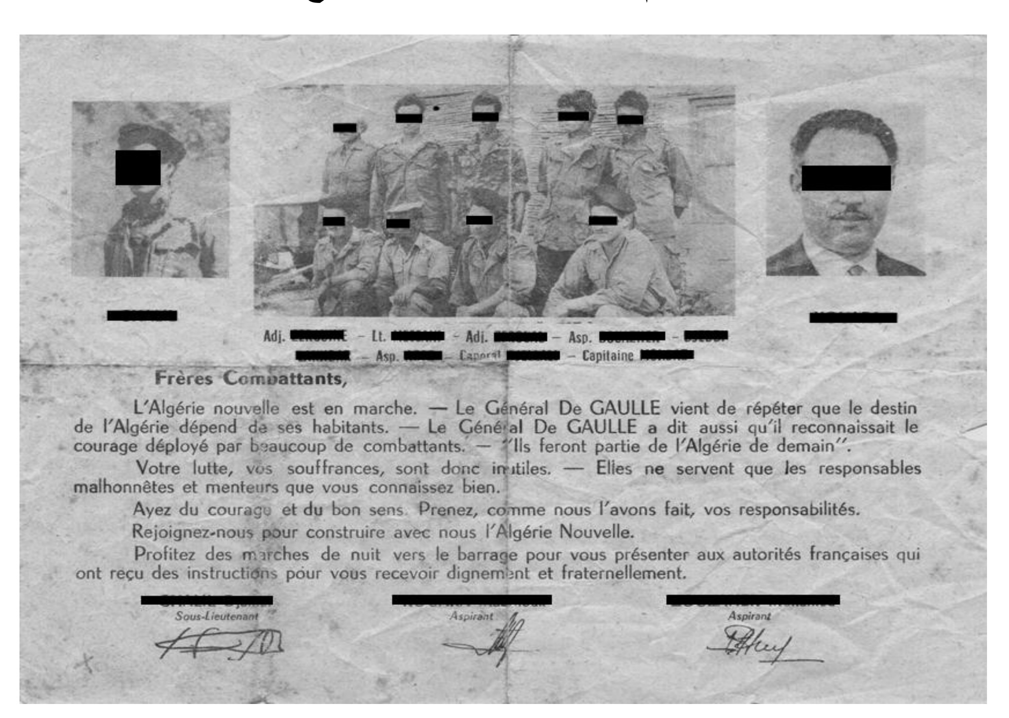
جميع مناطق التراب الوطني تحمل صورا للمجاهدين الذين وقعوا في الأسر في الغالب، وهم أي المجاهدون يوجهون نداءات للمجاهدين يحثونهم على الرجوع إلى ديارهم. كما يحثون المواطنين على عدم تقديم المساعدات للخارجين عن القانون. مع تلفيق تهم للمسئولين. كانت هاته المناشير تكتب بالعربية العامية على وجه، ووجه آخر تكتب بالفرنسية. لعلمهم أن الشعب الجزائري لا يفقه اللغة الفرنسية، وأن ثقافته بالعربية أوسع بكثير من لغة الغزاة. لمحاربة هذا الإعلام الخطير؛ كان الشعب يتلقاها بسخرية واستهزاء ويتندر بها في لقاءاتهم الخاصة، ويصنعون من تلقاء أنفسهم الرد الذي يرونه مناسبا كي لا تفتر عزيمة المواطنين. وقد تعودوا على أن ما تقوله فرنسا كله كذب، والحق كل الحق هو ما يصدر عن المجاهدين فقط. لأن الشعب آمن بالثورة، و آمن بالجهاد، و آمن بأن فرنسا ستخرج من الجزائر لا محالة، ولم يبق لها الكثير من الأيام. من ذلك أن نساء الريف كن يغنين بالصف كما يسمونه، ينظمون صفين اثنين متقابلين و يغنون على فرنسا، وهذه أمثلة على ذلك :

فرنسا جابتك الحملة وداك الواد،، فرنسا روحي ما عندك بلاد

وأمثلة أخرى على دي غول :

دي غول ما هو نتع الهما،، نيفو طويل مليح للشما

فهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أن الشعب كله بجميع فئاته آمن إيمانا قاطعا أن فرنسا ما عليها إلا أن تحمل أمتعتها وتحمل عصاها على كتفيها وترحل. و أن كل ما تقوم به من دعاية لا يتجاوز الأذنين فقط، ولا نقبل إلا برحيل الغزاة الظالمين. وهذا نموذج من المناشير التي أسقطت على رؤوسنا بواسطة طائرات العدو تدعوننا للاستسلام احتفظت بها من ذلك التاريخ .



Adj. ▬ – Lt. ▬ – Adj. ▬ – Asp. ▬ – ▬
▬ – Asp. ▬ – Caporal ▬ – Capitaine ▬

Frères Combattants,

L'Algérie nouvelle est en marche. — Le Général De GAULLE vient de répéter que le destin de l'Algérie dépend de ses habitants. — Le Général De GAULLE a dit aussi qu'il reconnaissait le courage déployé par beaucoup de combattants. — "Ils feront partie de l'Algérie de demain".

Votre lutte, vos souffrances, sont donc inutiles. — Elles ne servent que les responsables malhonnêtes et menteurs que vous connaissez bien.

Ayez du courage et du bon sens. Prenez, comme nous l'avons fait, vos responsabilités.

Rejoignez-nous pour construire avec nous l'Algérie Nouvelle.

Profitez des marches de nuit vers le barrage pour vous présenter aux autorités françaises qui ont reçu des instructions pour vous recevoir dignement et fraternellement.

Sous-Lieutenant — Aspirant — Aspirant



Adj. – Lt. – Adj. – Asp. –
– Asp. – Caporal – Capitaine

أخوتي في الجبال،

Sous-Lieutenant Aspirant Aspirant



MES FRÈRES !..

COMBATTANTS DE LA 2° COMPAGNIE

DU 5° BATAILLON DE MEDAOUI TAHAR !

C'EST MOI

VOTRE ANCIEN COMMANDANT DE COMPAGNIE

QUI VOUS PARLE

Mes frères, vous me connaissez bien. Et moi je vous connais bien aussi. Nous avons passé tant de journées ensemble. Mais avant, j'étais aveuglé, comme vous êtes encore aveuglés. Aujourd'hui, j'ai découvert la vérité. Vous savez que je ne vous dis que ce qui est bien. Alors mes frères je vous conseille de vous rallier, car si vous continuez comme çà, vous perdez votre temps, vous allez perdre votre vie.

Regardez-moi, je suis avec la France, je mange bien et me porte aussi très bien.

Quant au peuple, il travaille comme avant, et soyez-en sûrs, il ne vous croit plus.

Pourquoi mes frères continuez-vous à habiter les montagnes comme les loups ? Combien de temps va durer cette vie que vous menez là-bas ? Un jour les chefs vous enverront mourir sur le barrage et ils retourneront en Tunisie. C'est ce qu'a fait mon Lieutenant , Chef du X° Bataillon , qui a fait demi-tour devant le barrage.

NE CROYEZ PLUS VOS CHEFS QUI ONT TRAHI !

Maintenant il faut vivre...

Ralliez-vous. Retournez chez vous mes frères. C'est mieux pour vous.

RALLIEZ-VOUS !

Présentez-vous au premier poste, même pendant le jour.

CONSERVEZ CE BULLETIN, C'EST VOTRE LAISSEZ-PASSER.-

اخواني الي راكم فالكتيبه الثانيه الفيلق الخامس
انتاع سي المداوي الطاهر .

انا المسؤول القديم انتاعكم [...] الي نهدر ليكم : اخواني
قبل تعرفوني امليح وانا كذالك نعرفكم وعدينا ايامات كثيره مع بعضنا
بعض ، ثم قبل كنت وكنتم غافلين اما اليوم الحمد لله الحقيقه ظهرت وبانت
وتعرفوني ما انخبيش عليكم المليح ليكم ، ولهاذا يا اخواني ننصحكم لوجه
الله ان ترجعوا الى اهلكم ، لاكن اذا بقيتم كما هكذا اتضيعوا الوقت
انتاعكم ، تخسروا حياتكم الحلوه . انظروا الي انا راني اليوم مع جرانسا
شايخ ناكل امليح ونلبس امليح وراني لا باس علي . واما الشعب فراه لا
باس عليه ويخدم كالعادة . وتحققوا بهاذا الشعب ما عادش يستحق
بيكم . علاش يا اخواني قاعدين ساكنين الجبل كالديب ؟ فاش باش
تبقوا في هذه الحالة انتاعكم في حياتكم . ومن بعد اجي النهار الي
الشبات البطيون انتاعكم يبعثوكم اتموتوا فالسبلان كما اعمل الي
الظابط انتاعي [...] يعني مسؤول الفيلق العاشي [...] ثم هو وثلاثة
رجعوا الي تونس كل الدساهيل انتاعكم كيف كيف ، وراهم يعتبروا حال واحد
ولهاذا نوصيكم يا اخواني ماتاخذوش رايهم ، راهم يبعثوكم اتموتوا و
ياخذوا الحكم راهم على الحكم انتاعكم ، راهم خماتيني . لاكن الشعب الي راكم
حاسبين ارواحكم اتكافحوا عليه مهوش مستغرب بيكم وقال الثورة كانت من
عام ١٩٥٤ الى آخر ١٩٥٦ . اما اليوم راها جت عهد الحياة . ارواحوا ما اتخابوش
روحوا الي اهلكم وحياركم خير ليكم يا اخواني .

جمعوا ارواحكم وارواحوا الي المركز العسكري فالحدود وجابدوا على هاذه
الورقه راه التسريح انتاعكم .



déclare

Je m'adresse à tous les combattants de l'A.L.N
et en principe ceux qui m'ont connu, ceux qui ont combattu
avec moi et à ceux qui ont entendu parler de moi aussi à l'en-
semble des pauvres frères réfugiés qui sont dans la misère. Com-
prenez mes frères que vous avez été trompé. Nous avons cru com-
battre pour une cause juste, celle de libérer l'Algérie. Totalement
Vous le savez mieux que moi, que nous avons combattu et que vous
combattez encore pour trois dizaines d'hommes et non pour les neufs
millions d'Algériens. Vous combattez pour une poignée de profiteurs,
des ministres fonctionnaires qui sont dans les palaces de Tunis, au Caire,
en Amérique, en Chine et à Moscou. Aussi vous mourrez pour le bon-ami
pour les séparations des Wilayas, pour l'amour du pouvoir et l'intérêt
personnel.

اتوجه لكل المحاربين في جيش التحرير وبالاخص الذين يعرفونني،
والذين حاربوا معي والذين يسمعون اخباري وجميع اللاجئين الجزائريين
في القطر التونسي افهموا جيدا اخواني بانكم على خطإ:
كنا قبل اليوم حسبنا انفسنا جميعا نكافح من اجل قضية عادلة
وهي تحرير الجزائر واخيرا بانكم تعرفون كما اعرف واكثر



11 juillet 1960

FRÈRE DE LUTTE,

Comme moi tu as cru le 14 juin que le cessez-le-feu était proche et que tu pourrais rapidement retrouver ton foyer, ton douar, tes amis et ta liberté. C'était la joie et l'allégresse.

Comme moi tu sais que tout cela n'était qu'un rêve car les ambitieux de Tunis n'ont pas pris la main tendue.

Et toi pendant ce temps-là tout comme moi tout comme notre peuple nous souffrons. Toi et moi dans le djebel, le peuple dans l'attente de nous revoir, de connaître l'apaisement, de vivre enfin en paix. Le Général de GAULLE veut que cessent ces combats inutiles, le peuple veut la Paix. Serons-nous, seront-ils les victimes innocentes des ambitieux de Tunis qui se tiennent loin des combat? Ils ne sont que quelques centaines nous sommes des millions, nous devons ensemble les forcer à entendre la voix de la raison.

S'ils refusent, prends tes responsabilités: impose leur la paix. Les frères [redacted], [redacted], [redacted], [redacted] [redacted] et [redacted] t'ont montré le chemin.

Ils sont courageux, fais comme eux.

أخي في الكفاح - راك احسبت كما انا نهار 14 جوان باللي وقوف
الكفاح كان قريب ويمكن لك ترجع الى الدوّار والى دارك وتلقى اصحابك
وحريتك ودخلت في قلبك الفرح والنشاط ولكن كما انا عرفت باللي
هذا الشي ما راه غير منام لان الطمّاعين متاع تونس ما قبلوا شي
اليد اللي مدّها لهم الجنرال دقول وبعد ذالك بقينا انت وانا والشعب
كلّه نتمحّنوا انا وانت في الجبل والشعب يستنّى بلاش يفرح بنا ويتمتع
بالهدنة ويعيش في الهناء
الجنرال دقول يحبّ تحبّس المعارك اللي ما عندهم شي فايدة . الشعب
يطلب الهناء ولكن الطمّاعين متاع تونس اللي عايشين خارج المعارك واش

ومن أمثلة الدعاية التي يمكن أن تدخل في إطار الإعلام لصالح الثورة أسوق هاته الأمثلة الخطيرة على التاريخ.

ففي شهر مايو 1961 تأزم الوضع بيننا وبين السلطات التونسية وحاصرتنا السلطات بالحدود، ومنعنا من التحرك، كما منعنا من إيصال التموين للوحدات المقاتلة المتاخمة للحدود، في هذه الظروف أثيرت قضية القاعدة الجوية البحرية التونسية التي كانت محتلة من طرف فرنسا، ووقعت حول القاعدة مناوشات بين التونسيين والفرنسيين فكان الرد قويا من طرف الاستعمار الفرنسي ووقعت خسائر كثيرة في الأرواح. في الجانب التونسي، وتعاطفا مع الشعب التونسي صرح رئيس الحكومة المؤقتة المرحوم عباس فرحات بما يلي :

«....إذا لزم أن يتوجه جيش التحرير الوطني الجزائري إلى بنزرت فليكن، إننا نحارب الاستعمار أينما وجد....»

وبسرعة ألقى الرئيس الحبيب بورقيبة خطابا بالإذاعة التونسية يقول فيها : «....إن إخواننا المجاهدين الجزائريين إذا أرادوا أن يتوجهوا إلى بنزرت فليأتوا ليفرهدوا [1] على أنفسهم....» وفى الحين رفع عنا الحصار نهائيا، وتغير نوع الاستقبال .

وفى الصباح باكرا جاءني إلى المكتب – كنت مسؤول القسم الثاني بغار الدماء التونسية قريبة جدا للحدود– مسؤول جبهة التحرير بالناحية عمى على لقبايلي «هكذا كان يدعى» فقال لي : جئت أسألك عن كلام يروج في أوساط المواطنين التونسيين واللاجئين الجزائريين معا، مفاده : أن جيش التحرير

1 يفرجوا

الوطني الجزائري توجه إلى بنزرت بأعداد كبيرة، وأنهم شاهدوه وهو ينزل من القطار بمحطة باردو بتونس العاصمة. فكرت لبضع ثوان، فأجبته : إن هذا لم يقع، وبما أن هاته الدعاية يظهر أنها في صالحنا خاصة أنها جاءت بعد الأزمة التي تعرفها، وعليه فانفخ فيها بكل قواك، فضرب في صدره وقال هذه لي وسترى، وكان مقتدرا على ذلك، وجند كل اللاجئين لإذاعة ونشر ما تردد. وقد آمن وصدق كل من سمع بهاته الإشاعة إلا العارفون بالحقيقة، وقليل ماهم. والغريب في الأمر، أن بعض المسؤولين الصغار الذين كانوا في جيش التحرير الوطني بالحدود صدقوا هاته المقولة ونشروها في ظل الاستقلال داخل الجزائر.

في سنة 1990 زارني أستاذ بجامعة وهران وهو حامل للدكتوراه، مهتم بتاريخ الثورة الجزائرية، وطلب منى أن أساعده بمعلومات حول الحدود التونسية التي كانت لها أهمية كبيرة إبان الثورة نظرا لكثرة جيش التحرير المتواجد بها وعوامل أخرى. وقال لي أترك لك هاته الأوراق التي كتبتها في هذا الموضوع لتصححها ثم سأعود في بضعة أيام. فبدأت أراجع ما هو مكتوب وأصحح ما يمكن تصحيحه أو أضع علامة استفهام على جملة ما بقلم الرصاص. حتى وصلت إلى موضوع بنزرت. فوجدته كتب أن جيش التحرير الوطني الجزائري المرابط على الحدود التونسية قد شارك بفعالية في تحرير قاعدة بنزرت التونسية. فلم أنتظر رجوعه، بل شطبت كل ما كتب بخطين متقاطعين على موضوع بنزرت. وعندما عاد الدكتور، سألته عن مصدر خبر بنزرت، فقال : إن المقدم الفلاني الذي هو قائد القسم العسكري بوهران هو الذي أخبرني بهذا الحدث لكونه كان من ضمن جيش الحدود التونسية، فقلت له أعرفه جيدا، وأعرف أنه كان بالحدود لكنه كان جنديا أو صف ضابط بسيط، وحذرته من تناول هذا الموضوع الذي لا أصل له إطلاقا.

عدت إلى نفسي؛ فعرفت أنني متورط في هذه الكذبة الخطيرة على التاريخ، وعرفت أن بمثل هذا يزور التاريخ، لذا صار عل المؤرخ أن يتحرى و أن يكون حذرا فيما يكتب. وقد قال أحد الحكماء قديما : فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، وويل لمن مات وبقيت ذنوبه. والله أسأل أن يغفر لي خطيئتي هاته وخطايا أخرى.

الإعلام خارج الوطن :

إن الإعلام باللغة العربية خارج الوطن أثناء الثورة كان منحصرا في الدول العربية كلها، وهو متنوع : الصحف، الإذاعات، المهرجانات الشعبية، الندوات.

الصحف : في البداية كانت تصدر بتونس صحيفة باللغة العربية تحت اسم : المقاومة وصدر منها بضعة أعداد فقط وتوقفت. فصدرت بدلها جريدة المجاهد باللغة العربية، واستمرت في الصدور إلى نصف سنة

1957 تقريبا فأصبحت تصدر باللغتين العربية والفرنسية، عندما تولى رئاستها السيد: عبان رمضان. وكانت هي الناطقة باسم جبهة التحرير الوطني.

وبالنسبة للدول العربية فإن صحافتها كلها كانت تكتب عن ثورة الجزائر وحسب المعلومات التي تتحصل عليها من جبهة التحرير بالدرجة الأولى، وبطبيعة الحال فالأمر يختلف من دولة إلى أخرى ومن جريدة إلى جريدة ثانية وحسب مدى تحمس مسؤولي الصحف لثورة الجزائر، يذكر هنا أن الإعلام المصري كان متحمسا أكثر، ذلك أن مصر أظهرت عداوتها جهارا لفرنسا بعد العدوان الثلاثي على مصر أكتوبر 1956.

الإذاعات : في علمي كانت أربع إذاعات في أربع دول عربية : المغرب، تونس، مصر، سوريا خصصت ركنا خاصا بالجزائر لبعض الوقت تذيع فيه أخبارا عن الثورة وعن العمليات العسكرية وكل الأحداث التي تقع في الجزائر، أعمال فدائية، مظاهرات، قمع من طرف العدو.

إذاعة بالمغرب : هاته الإذاعة كانت بتطوان بالمغرب الشقيق، أنشأتها جبهة التحرير الوطني لمتابعة الأحداث يوما بيوم، وتفنيد كل ادعاءات العدو المكثفة التي كان يبثها عبر مختلف وسائل الإعلام.

إذاعة تونس : فقد خصصت إذاعة تونس ساعة في مساء كل يوم لمتابعة كل ما يجرى في أرض الوطن، وكان المذيع المرحوم : مسعودي يذيع كل يوم خطابا حماسيا. مبتدئا كلامه بـ : هنا صوت الجزائر الحرة، وقد لعبت هاته المحطة دورا فعالا في أوساط المجاهدين والمواطنين معا لما كان يتمتع به المذيع من صوت جهوري وطريقة الإلقاء والحماس الفياض.

إذاعة صوت العرب بالقاهرة : خصص للجزائر وقتا مساء كل يوم لإذاعة أخبار عما يجرى في ساحة القتال على أرض الجزائر، وما تقوم به فرنسا من وحشية وتعذيب المواطنين الجزائريين، وقد اشتهر صوت العرب باقترانه بصوت : أحمد سعيد المذيع الأساسي لهذا الركن، وقد كان له تأثير كبير على كل مستمعيه. لما يمتاز به من قوة في الصوت وفصاحة اللسان وفن الخطابة. أطال الله عمره.

إذاعة سوريا : فقد خصصت الشقيقة سوريا وقتا للثورة الجزائرية لإعلام أبناء الأمة العربية وغير العربية بما يجرى في أرض عربية المجهولة لدى كثير من المواطنين العرب وغير العرب.

ولهؤلاء الأشقاء وجميع الدول العربية بدون استثناء الذين أجمعوا على نصرة الجزائر في كفاحها الشرعي والعادل كل آيات الشكر والتقدير والاحترام.

ملاحظة:

- يوجد أرشيف مهم للغاية بولاية وهران حول كل ما كان يذاع في الدول العربية والأوروبية يخص الجزائر، حيث يذكر اسم الإذاعة والساعة واللغة المذاع بها الموضوع.

استعمال اللغة العربية في الولايات الست التاريخية

الولايات الست التاريخية انقسمت إلى قسمين : قسم يستعمل اللغة العربية، وقسم آخر يستعمل اللغة الفرنسية. فالولايات التي كانت إدارتها باللغة الفرنسية من بداية الثورة هي : الولاية الثالثة والرابعة والخامسة. ولا سبيل إلى شرح أو تعليل ذلك، لأني لست مؤهلا لهذا الأمر. و ينضاف إلى الولايات المذكورة القاعدة الشرقية، ففي البداية كانت تستعمل اللغة العربية، لكن سرعان ما تحولت إلى اللغة الفرنسية بفعل انضمام بعض العناصر المفروضة عليها من الذين لا يعرفون العربية، وهم لها ناكرون منذ زمن بعيد.

أما الولايات التي كانت إدارتها باللغة العربية فهي :

الولاية الأولى:

فمن بداية الثورة استعملت هاته الولاية اللغة العربية أساسا في إدارتها الرئيسية من قيادة الولاية إلى أدنى تنظيم في القاعدة، وبحماس وعناد كبيرين، سواء داخل الولاية أو بالحدود التونسية – ولدى وثائق احتفظ بها مكتوبة بالعربية – وهذا لا يعني مقاطعة اللغة الفرنسية نهائيا، بل نجد أحيانا وثائق مكتوبة بالفرنسية. وهذا لا يخل بمبدإ التمسك باللغة العربية التي هي اللغة الرسمية للولاية وللجزائر كلها مستقبلا. وهذا المطلب لازال قائما إلى الآن في تلك المنطقة وبحماس كبير. وفى نظري فإن الولاية الأولى دفعت ثمنا غاليا نتيجة هذا الاتجاه وانعكس ذلك على كل من تعلم بالعربية على مستوى الجزائر كلها، خاصة بعد قضية قائد الولاية الشهيد : محمد لعموري الذي أعدم بداية سنة 1959 بتونس بتهمة تدبير انقلاب. فقد أبعد كل المعربين من مراكز القيادة من ذلك الوقت بل قبله، وبقى هذا الاتجاه قائما إلى الآن 2004.

الولاية الثانية:

هي من الولايات التي كانت تستعمل اللغة العربية في جميع إدارتها على مستوى قيادة الولاية إلى مستوى قيادة القسمة التي هي القاعدة السفلى لتنظيم الولاية. وكمثال على ذلك، فقد ورد تقرير من قيادة الولاية إلى السيد: علي منجلي قائد المنطقة الثالثة آنذاك مكتوب باللغة العربية، وهو لا يعرف العربية بتاتا. فناداني وانزوى بي بعيدا عن الأعين، ثم ناولني التقرير لأتلوه عليه، وكان محتوى التقرير خطير

جدا. فحواه إننا نبعث لك بالمجاهد الفلاني لتنفذ فيه حكم الإعدام الذي صدر من المحكمة لارتكابه كذا وكذا.... على كل فإنه لم يعدم.

وهكذا فكانت الأوامر والمنشورات تصدر باللغة العربية، وقد اطلعت على تعليمة مكتوبة بالعربية تخص تعليم الأطفال بكامل تراب الولاية، وتحدد شروط المعلم التي من ضمنها أن يكون حافظا عشرة أحزاب من القرآن الكريم، أن لا يقل عمره عن 17 سنة، وأن لا يكون بلسانه لثة تعيقه عن تبيان الكلام، أن يكون بشوشا......الخ

كما اطلعت على وثيقة لتحصيل الضرائب و الزكوات والتبرعات من المواطنين مكتوبة بالعربية. ومن الحرص على الكتابة بالعربية؛ فقد أمرني المرحوم علي منجلي بكتابة تقرير حول معركة وقعت بمكان يسمى: عيون لقصب ضواحي عزابة في شهر يناير 1958 التي دامت ثمانية أيام وخسر العدو فيها كثيرا من الجنود وإسقاط طائرة – قلت أمرني أن أكتب تقريرا بالعربية أصف المعركة، من أجل إرساله إلى تونس ليبث بصوت الجزائر الحرة بإذاعة تونس، ففعلت، فلما أتممت التقرير ناداني وكان جالسا ومعه بعض المسؤولين، فقال لي: اقرأ التقرير وأنت واقف، واعتبر نفسك أنك مذيع بالإذاعة، والمواطنون يستمعون إليك، فكيف يكون تأثيرك عليهم؟ فقمت بهذا التمثيل وهم يضحكون وأنا لا أبالى بهم، فلما أتممت هذا التمثيل شكرني، وقال هذا التقرير سنبعثه إلى تونس ليذاع من إذاعة صوت الجزائر الحرة. وفعلا فقد أرسل وأذيع من هناك كما أخبرني المرحوم التجاني هدام في شهر جويلية 1958 عندما عدت إلى تونس.

تعريب التدريب بالولاية الثانية :

في الأسبوع الأول من شهر جويلية 1958 وأنا في فرقة من المجاهدين بضواحي قسنطينة، ناداني قائد الفرقة السيد: بلحسن محمد وأخبرني بأن قيادة الولاية تطلب حضورك على عجل، وقد بعثت مجاهدا ليأخذك إلى هناك. فارتجفت من هاته المفاجأة لأن لي سابقة خطيرة مع قيادة الولاية، ليس هذا مكان ذكرها، وفي الحين ودعت الزملاء وهم يبكون، فاتجهت مع الرسول إلى حيث يريد وبعد مسيرة يوم كامل تقريبا وصلنا إلى دوار بني صبيح، فأخبرني صاحبي بأننا وصلنا. بعد استراحة قليلة قادني أحد المسئولين إلى شخص يدعى السيد: علي منجلي قائد المنطقة الثالثة ناحية عنابة وعزابة، وهو رجل طويل القامة، نحيف الجسم لا يتكلم كثيرا، تظهر عليه علامة الكبرياء لأول وهلة، لكنه ليس بمتكبر. فراح يسألني عن أحوالي وأحوال المجاهدين وعن انطباعاتي حول الاشتباكات التي خضتموها مع العدو؟ فأبديت ملاحظتي أولا حول الخسائر البشرية التي تصيب المجاهدين نتيجة عدم معرفة أسلوب الحرب، ولا معرفة حتى تسديد السلاح حول الهدف، وكثيرا ما أدى هذا الجهل إلى هلاك صاحبه أو يقع في الأسر بسهولة

فنخسر الرجل والسلاح معا. فكان الرجل يصغي إلى كلامي باهتمام بالغ. ثم قال: من أجل هذا استدعيتك، فنحن فكرنا في التدريب منذ مدة، ولكن اعترضتنا مشكلة اللغة، فلم نجد من يقوم بهاته المهمة. إذ من غير الممكن أن ندرب جيش التحرير الوطني الجزائري بلغة الذي نحن نحاربه، فثورتنا عربية إسلامية [1] لذلك لا يمكن أبدا أن ندرب جيشنا بلغة أجنبية عنه لا يعرفها، صحيح أن شعبنا غير متعلم، لكنه يتكلم العربية لا الفرنسية. لهذا فكرت فيك عندما علمت أنك تدربت بمصر. فمن الآن أكلفك بأن تضع برنامجا للتدريب بالعربية، وتحاول أن تكيفه حسب مستوى المجاهدين. وعندما ندرب مجموعة من المجاهدين؛ نكون فيالق لندخل بها معارك مع العدو بقوة كبيرة يكون لها وزنها وتأثيرها على العدو.

وبدأت في كتابة مذكرة للتدريب معتمدا على مذكرة مختصرة كنت محتفظا بها ولازالت موجودة لدي. وفى مدة أقل من أسبوع عرضتها على السيد على منجلي فسربها كثيرا، ولتحقيق عملية التدريب كان قد استحضر خمسة مجاهدين لتسند لهم مهمة التدريب، هاته أسماؤهم :

1- بوحجة علي المدعو: فلفلي، ولاية سكيكدة، تقاعد من الجيش برتبة جنرال.

2- قدماني عبد الوهاب، الحروش ولاية سكيكدة، محام بقسنطينة.

3- بوشمالة إبراهيم، من قسنطينة، استشهد في معركة مليلة في آخر سنة 1957.

4- عبد المجيد بوعرعورة، بترت ساقه أثناء الثورة.

5- برموقة الشافعي، من تبسة، صار واليا.

فاجتمعنا لدراسة المذكرة بحضور السيد: رشيد لخروبي الذي كان عمل بالجيش الفرنسي، وقد أحضر معه كتابا بالفرنسية لنترجم ما فيه من تدريبات فرنسية، لكنني كنت رفضت قبل ذلك أثناء تحضير المذكرة. تدارسنا المذكرة، علما أن هؤلاء لم يعملوا بالجيش الفرنسي، ومنهم من يعرف نصيبا من العربية أو الفرنسية ومنهم من لا يعرف شيئا، وبعد كتابة الزملاء ما جاء في المذكرة، شرعنا نتدرب فعليا على تطبيق ذلك على أرض الواقع لبضعة أيام.

الشروع في التدريب :

عين المدربون في أماكن مختلفة غير بعيدين عن بعضنا البعض بمنطقة القل، وكان مكاني أنا « حجر مفروش » تكسوه الأشجار الباسقات، وكانت الخطة تقتضى : استحضار فرقة [2] من الجيش من كل قسمة، فحضرت خمس فرق حسب عدد المدربين، فكان نصيبي أنا فرقة أتت من الحروش يقودها

1 إن السيد على منجلي لا يعرف اللغة العربية بتاتا، وله مستوى تعليمي بالفرنسية، ولكن له رصيد نضالي عال وبعد نظر ثاقب.

2 الفرقة تضم 35 فردا.

الشهيد محمد.....[1] وقد تقرر أن تمكث الفرقة مدة ثلاثين « 30 » يوما فتنصرف لتأتي فرقة أخرى. وقد تدرب عندي ثلاث فرق :

فرقة من الحروش، فرقة من القل يقودها: محمد .... وفرقة من سكيكدة، بقيادة: يسعد محمد. إلا أن الفرقتين الأخيرتين لم يكن حظهما في التدريب كالفرق الأولى، فقد دخلنا في معارك شبه مستمرة مع العدو، ذلك أن العدو استطاع بمخابراته أن يكشف عمل التدريب العسكري. فقد بلغه أن الذين تدربوا بمصر وصلوا وهم يقومون بتدريب جيش التحرير الوطني. لذلك كثف عملياته العسكرية ومتابعتنا في أي مكان. وقد نجح في منعنا من التدريب فتوقفنا عنه نهائيا.

ملاحظة لا بد منها :

لم أكن أتصور ذلك الحماس من طرف المجاهدين الذين جاءوا للتدريب العسكري، ولم أكن أتصور سرعة هضمهم الكلمات العربية المستعملة في التدريب، فقد حذروني من قبل بأن المجاهدين جهال لا يستطيعون هضم ولا فهم ما تقول، ونصحوني باستعمال وتوظيف كلمات جزائرية عامية. ولكن فوجئت بعكس نصيحتهم. فقد استوعب المجاهدون كل الدروس التي تلقى عليهم بالعربية، وحفظوا كل الكلمات التقنية، كما حفظوا أناشيد وطنية، وكنت أعلمهم أحيانا الحروف الهجائية حسب المستطاع. فصار حديثهم في أوقات الفراغ كله حول كلمات قطع الأسلحة، وحرب العصابات وأشياء أخرى. ولدى رجوعنا إلى المقر، كنا نرجع بصفوف منتظمة وننشد الأناشيد الوطنية، والأطفال من ورائنا مكونين صفوفا يحملون العصي ويرددون ما نقول من أناشيد.

لم أكن أتصور أيضا فرحة الشعب وإعجابه بهذا المشهد الغريب عليهم، وصاروا هم أيضا يرددون كلمات وجمل عربية ويتناقشون في معانيها. تفطنت بعد مدة طويلة أن ذلك العمل كان تثقيفيا وتوعية أكثر منه تدريبا عسكريا. وللأسف فإن التدريب لم يدم إلا حوالي أربعة أشهر، بفعل ضغط العدو، وتأكده من أن التدريب العسكري قائم بالولاية الثانية لعثوره على وثائق التدريب مع كاتب المنطقة الشهيد : بوراوى الذي استشهد في معركة : مليلة بضواحي عزابة.

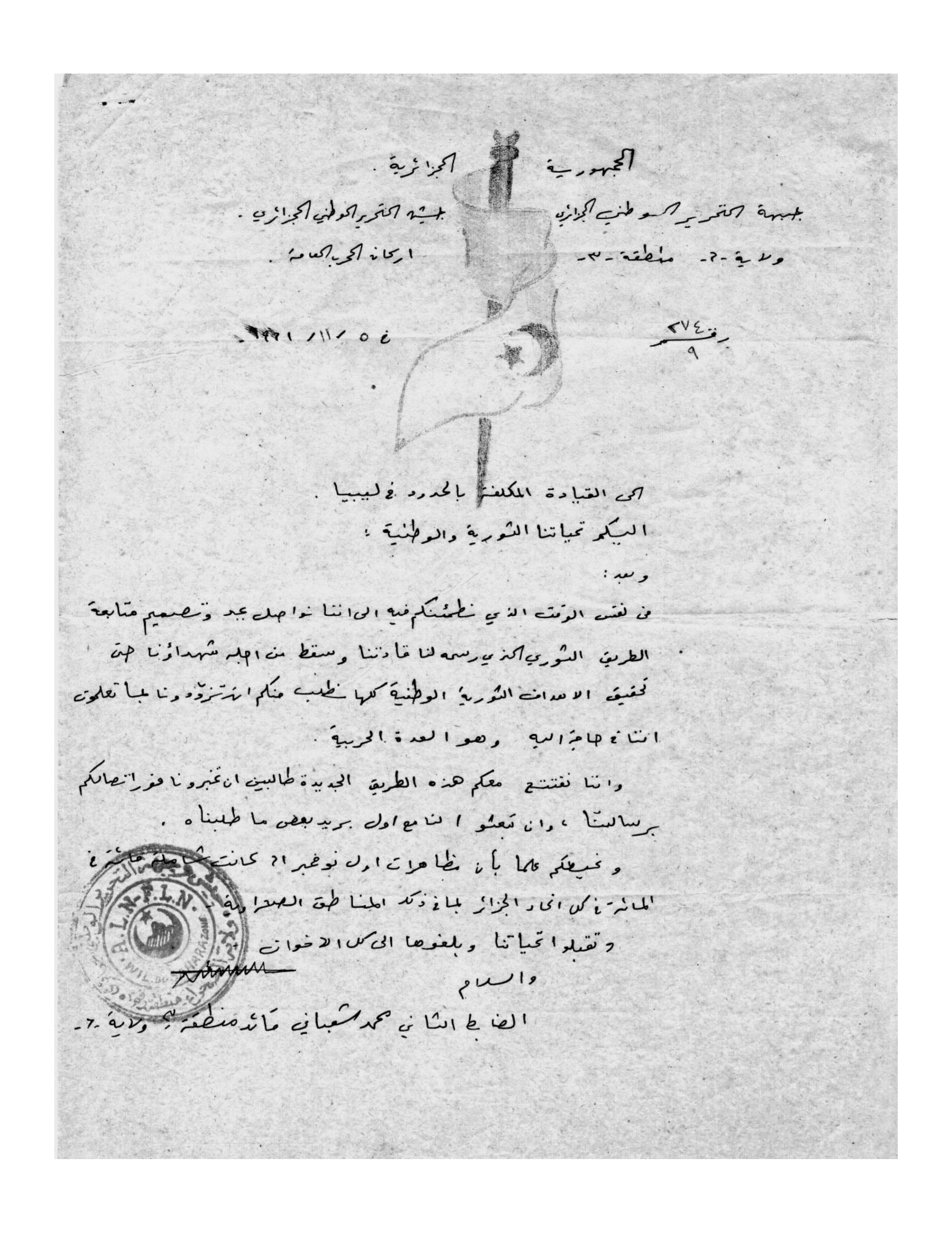
الولاية السادسة :

من المعلوم أن الولاية السادسة تقرر تأسيسها في مؤتمر الصومام شهر أوت 1956. ومن بداية تأسيسها اتخذت مبدأ استعمال اللغة العربية، وهذا ليس غريبا عن تلك المنطقة. ولدي عدة وثائق في شتى ميادين التنظيم تثبت أن اللغة العربية كانت تستعمل في جميع إدارة الولاية السادسة.

---

1 استشهد في طريق رجوعه إلى الحروش هو وأفراد من فرقته.

وهاتان رسالتان مكتوبتان بخط يد المرحوم شعباني محمد مسؤول المنطقة الثالثة آنذاك، واحدة مؤرخة في 29 أكتوبر 1961 والثانية في 5 نوفمبر 1961 ولأول مرة تنشر هاتان الرسالتان، وإني أحتفظ بأصليهما.



الجمهورية الجزائرية.

جبهة التحرير الوطني الجزائري جيش التحرير الوطني الجزائري.

ولاية -٦- منطقة -٣- اركان الحرب العامة.

رقم ٣٧٤ / ٩

في ٥ / ١١ / ١٩٦١م.

الى القيادة المكلفة بالحدود في ليبيا.

اليكم تحياتنا الثورية والوطنية؛

وبعد:

في نفس الوقت الذي نطمئنكم فيه الى اننا نواصل بجد وتصميم متابعة الطريق الثوري الذي رسمه لنا قادتنا وسقط من اجله شهداؤنا حتى تحقيق الاهداف الثورية الوطنية كلها نطلب منكم ان تزودونا بما تعلمون اننا في حاجة اليه وهو العدة الحربية.

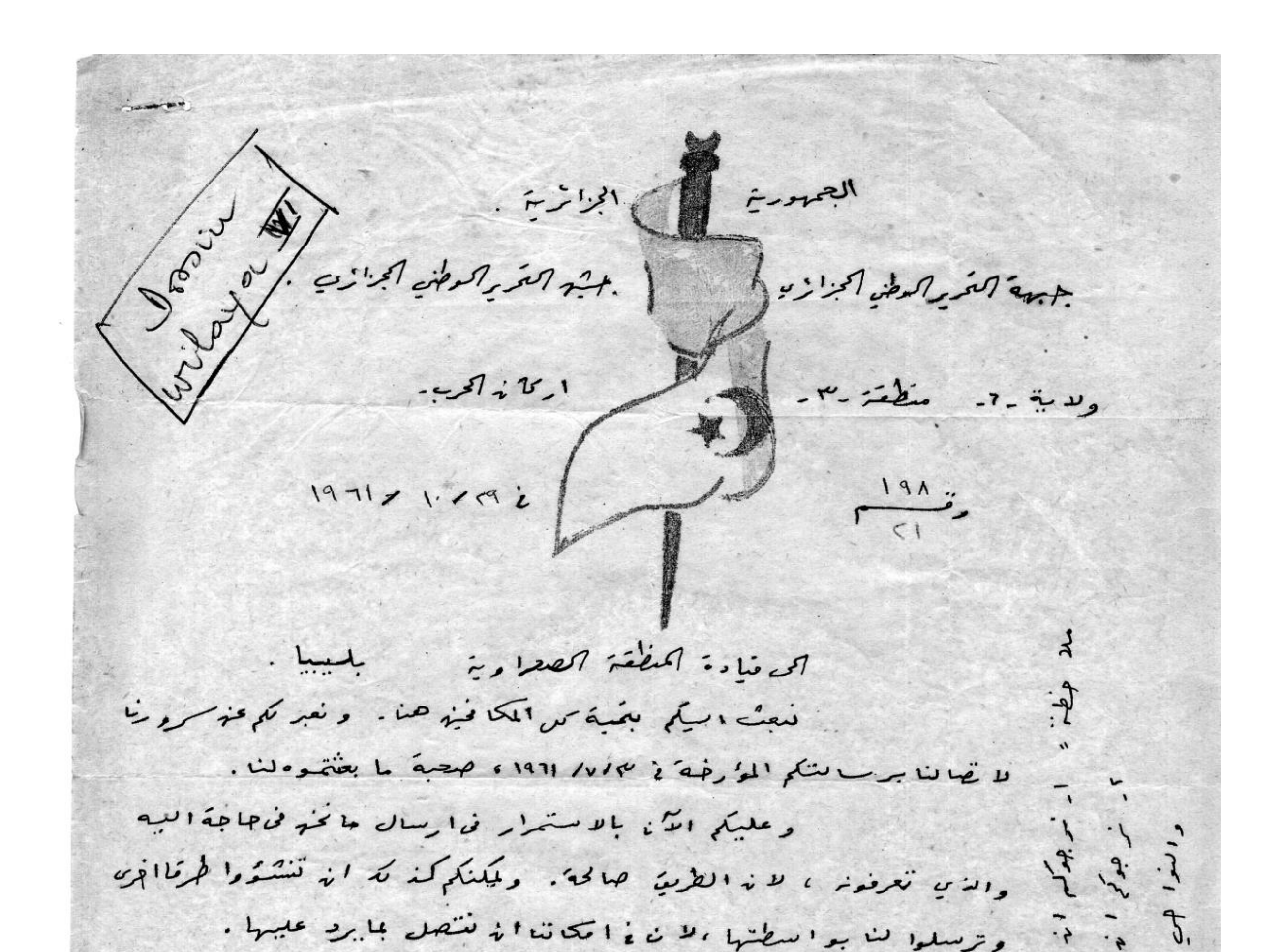
واننا نفتتح معكم هذه الطريق الجديدة طالبين ان تخبرونا فور اتصالكم برسالتنا، وان تبعثوا لنا مع اول بريد ببعض ما طلبناه.

ونخبركم علما بان مظاهرات اول نوفمبر ٦١ كانت شاملة وقائمة في المنطقة في كل انحاء الجزائر بما في ذلك المناطق الصحراوية.

وتقبلوا تحياتنا وبلغوها الى كل الاخوان

والسلام

الضابط الثاني محمد شعباني قائد منطقة ٣ ولاية -٦-



Dossier Wilaya VI

الجمهورية الجزائرية.

جبهة التحرير الوطني الجزائري. جيش التحرير الوطني الجزائري.

ولاية -٦- منطقة -٣- اركان الحرب.

رقم ١٩٨ / ٢١ في ١٩٦١/١٠/٢٩

الى قيادة المنطقة الصحراوية بليبيا.

نبعث اليكم بتحية من المكافحين هنا. و نعبر لكم عن سرورنا
لاتصالنا برسالتكم المؤرخة في ١٩٦١/٧/٢٣ صحبة ما بعثتموه لنا.
وعليكم الآن بالاستمرار في ارسال ما نحن في حاجة اليه
والذي تعرفون، لان الطريق صالحة. ويمكنكم كذلك ان تنشئوا طرقا اخرى
وترسلوا لنا بواسطتها، لان في امكاننا ان نتصل بما يرد عليها.

وهذه رسالة جواب من مسؤول منطقة الحدود بليبيا المؤرخة في 25 نوفمبر 1961 الممضاة باسم أخوكم زكريا وهو مسؤول المنطقة بالحدود الليبية، واسمه الحقيقي : فرحات الطيب. حميدة من وادى سوف عين سفيرا للجزائر بالمغرب في السنوات الأولى للاستقلال، وأيضا لأول مرة تنشر، مع احتفاظي بالأصل.

الجمهورية الجزائرية

أركان الحرب العامة — جبهة وجيش التحرير الوطني الجزائري

المنطقة الصحراوية — يوم 25/11/1961

إلى الأخ مسؤول المنطقة الثالثة من الولاية السادسة

يسرني أن أعبر لك أولا عن ابتهاجي لقراءة رسالتك والنجاح أخيرا في الاتصال بكم بعد زمن طويل في الجهود والمحاولات

وإن القيادة العامة للجيش مغتبطة جدا لهذا الفتح العزيز إليكم ولقد تباحثت مع رئيسنا الأخ أبو مدين وكله تفهم لشؤونكم وعناية بها ولكن على يقين بأن كل الجهود مبذولة في إرضاء مطالبكم وسد حاجياتكم ولو اضطررنا ذلك إلى توقيف بعض الأعمال الأخرى.

إنما نطلب منكم أن تعرفونا سريعا بأسماء الاتصالات الذين تعتمدون عليهم في البلدان الآتية: غدامس، الأغواط، تقرت، الوادي عميش. ونحن على استعداد لإيصال البضائع إليهم.

ونعلمكم أيضا بأننا وضعنا على تصرفكم بضائع عند اثنين من المناضلين الساكنين بأهانت شمال العرق الغربي القادمة من الزاوية ويخدمون بمخيم شركة البترول وهما محمد بن أحمد والشيخ لجوهر بن سليمان شيخ قبيلة الجرامنة وأعطيناهم الأمر بتسليمها لأي شخص يتصل بهم على شرط أن يعطيهم الكلمة التالية:

« منذ بيك تشري لي وسايد جلد ملونين أحمر وأخضر موصيني عليهم واحد في غدامس اسمه بن ساعي»

ولتعذر العمل عندكم في وجود سيارة أو تاجر بغدامس أو لغواط لكي يتصل بأهانت ويعطيهم الكلمة [illegible]

[illegible] سنجد طريقة أخرى. ولا شك أننا سنجد طرقا أخرى

ومن جهة أخرى أرجوكم أن تثقوا بأننا نتتبع أخباركم بكل اهتمام ونحس بعمق عميق عندما نراكم تحافظون على الروح والتقاليد التي مكنت الولاية السادسة من مغالبة الأعاصير. كما أخبركم بانتصار فيما يخص العمل لدينا. إن الاستعداد لقهر العدو عسكريا قد بلغ درجة تسمح للجزائر بأن تتحدث مع فرنسا حديث القوي المنتصر. وهنا ما تقبلوا منا أصدق عواطف الأخوة الثورية

أخوكم زكرياء

رسالة أخرى مكتوبة من طرف « الضابط الأول عضو المجلس المنطقة الثالثة الولاية السادسة» – هكذا مكتوبة بأخطائها – الممضاة باسم أحمد طالب وليس بها تاريخ، مبعوثة إلى مسؤول المنطقة الحدودية بليبيا. يطلب المعدات الحربية:

1– الخرطوش، الذخيرة لمختلف الأسلحة.

2– القنابل اليدوية بجميع أنواعها.

3– الأسلحة من جميع الأنواع.

4– المعدات الجهاز اللاسلكي، الراقنة بالعربية، مناظر « les jumelles » .

الجمهورية الجزائرية

جبهة التحرير الوطني الجزائري جيش التحرير الوطني الجزائري

ولاية 6 منطقة 3

رقم ...

الى الاخوة في الجهاد المقدس ابناء جيش التحرير بحدود الوطن الغالي
اهدي سلام الاخوي وتحياتي الوطنية وبعد يسعدني كثيرا ان تكون اول فرصة
اغتنمها ليكون اتصال ابناء الوطن الواحد يلتقون من داخل القطر الى خارجه
كما اخبركم اننا اتصلنا بالاخ الذي راسلتموه وسلتم على طريقه عدد 1500 خرطوش
وقد ابلغنا ايلها وكان فرحنا كثيرا لما حقق الله هاته الامنية الغالية
تلك هي الصلة التي وقعت بيننا وبين اخواننا من الخارج كما ارجوكم
ان تبلغوا القيادة العليا لجيش التحرير لكي تزودنا بالذخائر الحربية
على طريقكم التي رسلتموها على طريق الاخ المذكور، واليكم ما نحن في حاجة
الكبيرة اليه

1) الخرطوش من نوع انجليزي للبندقية الرشاشة (أبران) ومن نوع امريكي
للبندقية الرشاشة (فمبار) – للمسدس الرشاش (طامصون) وكوبسيل
من نوع المان (بندقية موزير) – اقول كل هذا نرجوكم تزودونا
بكثير من هاته الانواع اي الخرطوش

2) القنابل اليدوية بجميع انواعها – ونوع (انيرقا) لانها فيها بركات

3) الاسلحة: مسدس اطمتيكي بجميع انواعه، مسدس رشاش 42
(المان)، ماط 49 افرنسي وبندقية اطمتيك ماص 49 و57 – بندقية
اطمتيكية المان، وبندقية حربية (موزير المان) – ماص: 36 و51 –
تزودوننا بكل ما امكنكم بالاسلحة، كما لا نخفي عليكم ان كل الشباب الجزائري

تكوين الطلبة الجزائريين « مدنيين وعسكريين» باللغة العربية في البلدان العربية

كان الشعور قويا لدى مسؤولي الثورة بوجوب التدريب العسكري على استعمال السلاح وفن القتال الضروريين لدخول أي معركة مع العدو، وإلا كان دخولها بدون معرفة ذلك مجازفة و غنيمة سهلة للعدو. وكم دفعت الثورة من هاته الغنائم لعدونا في بداية الثورة.

وعندما أتيحت الفرص للتدريب من طرف أشقائنا العرب شعورا بالتضامن العربي، سارع مسؤولو الثورة بالخارج-في البداية- إلى إرسال دفعات متتالية إلى كل من مصر العراق سوريا و الأردن.

وقد وصل عدد الدفعات إلى تسعة، حسب علمي و اطلاعي على كل دفعة- وقد كنت من ضمن إحدى الدفعات- وإن كانت هناك دفعات أخرى لم أذكرها، فذلك لجهلي بها، فمعذرة للذين أغفلتهم، ومنبها بأن هؤلاء المتدربين كلهم طلبة، ما عدا بعض الأفراد القليلين جدا.

وقبل التعرض إلى الدفعات التي تدربت التدريب العسكري بالدول العربية فلا بأس أن أذكر بأول دفعة قدمت من مصر وهي تتكون من سبعة أنفار -لا أعرف إن كانوا كلهم طلبة أم غير ذلك- على متن باخرة- يخت- المسماة« دينا» محملة بالأسلحة، ولا علم لي بهؤلاء إن كانوا تدربوا التدريب العسكري أم لم يتدربوا.

ففي يوم 24 مارس 1955 انطلقت اليخت دينا من ميناء الإسكندرية بمصر الشقيقة محملة بالأسلحة والذخيرة لجيش التحرير الجزائري وجيش التحرير المغربي، ووصلت إلى ميناء الناظور بالمغرب يوم 3 أفريل. وكان على متنها سبعة جزائريين هم :

1- بوخروبة محمد، المدعو فيما بعد: ب : هواري بومدين، الذي أصبح رئيس الجمهورية الجزائرية من 1965/06/19 إلى 1978/12/28 حيث وافته المنية فرحمة الله عليه.

2- عرفاوي محمد.

3- مجارى على.

4- عبد العزيز مشري.

5- حسين محمد.

6- شنتوت أحمد.

7- عبد الرحمن محمد.

والآن أتعرض إلى الدفعات التي توجهت إلى الدول العربية من أجل التدريب العسكري، وهي تسع « 9 » دفعات في أزمنة مختلفة حسب علمي.

أولا: أول دفعة من الطلبة تلتحق بالمدرسة العسكرية بالعراق :

ففي شهر ديسمبر 1955 توجهت أول مجموعة من الطلبة الذين كانوا متواجدين بالقاهرة إلى المملكة العراقية الشقيقة تضم ثلاثين طالبا من المغرب العربي مبعوثين من طرف الأمير عبد الكريم الخطابي

المغربي صاحب ثورة الريف المغربي ضد الاحتلال الأسباني و الفرنسي لهاته المنطقة، الذي كان لاجئا بالقاهرة في تلك الفترة. وكان يمثل المغرب العربي لدى الجامعة العربية :

1- واحد وعشرون « 21 » فردا من المغرب الأقصى.

2- ثلاثة أنفار « 3 » تونسيين.

3- ستة أنفار « 6 » جزائريين.

وقد وضع للمجموعة برنامج خاص في دورة خاصة دامت تسعة « 9 » أشهر، درسوا خلالها أنواعا من الأسلحة الفردية والجماعية وحرب العصابات. وتخرجوا برتبة ملازم. وهاته أسماء الطلبة الجزائريين الستة:

1- هشماوى مصطفى، من مواليد معسكر، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

2- أحمد بوسليمانى، من مواليد البليدة طالب زيتونى.شهيد.

3- محمود الباي، من مواليد البليدة.

4- عبد الإله، من مواليد مزونة ولاية غليزان، خريج جامعة السربون بفرنسا. شهيد.

5- أحمد لكفيف. من مواليد مفتاح البليدة.شهيد.

6- بلال حفرات من مواليد وهران. طالب بجامعة الأزهر بمصر.

وفيما يلي صورة تحمل ثمانية عشر « 18 » فردا نصفهم بالزي العسكري العراقي التقطت لهم بالعراق. ولم يكن من الممكن التعرف على جميع الأسماء، ماعدا ثلاثة جزائريين.



أسماء الجزائريين الثلاثة الواقفين من اليسار إلى اليمين:

1- محمود الباى.

2- بوسلماني أحمد.

3- هشماوي مصطفى.

وقد سلمت هاته الصورة إلى أستاذ مغربي شارك في الملتقى الدولي حول كتابات عربية و أجنبية حول الثورة الجزائرية المنعقد بالجزائر بتاريخ 1 جويلية إلى ثلاثة منه سنة 2002 واعدا بأنه سيجتهد ما استطاع لمعرفة الأسماء ويبعثها لنا.

ثانيا: دفعة الضفادع البشرية بمصر :

في يوم 2 جوان سنة 1956 التحقت مجموعة من الطلبة بمدرسة الضفادع البشرية بميناء الإسكندرية بمصر الشقيقة للتدرب على الغطس في عمق البحر و تدمير البواخر بإلصاق العبوات الناسفة بجسم الباخرة أو بوسائل أخرى يعرفها ذوو الاختصاص.

تتكون هذه المجموعة من عشرة أنفار هم :

1- شيبان أحمد، من مواليد الغزوات تلمسان، طالب بجامعة الأزهر بمصر. تقاعد من الجيش الوطني الشعبي برتبة رائد.

2- مهدي الغوثي، من الغزوات تلمسان، طالب بجامعة الأزهر بمصر، رئيس دائرة سابقا.

3- يحيى رحال، ندرومة تلمسان، طالب حامل شهادة الباكالوريا.

4- دباغ عبد الله، ندرومة تلمسان، كان معلما بالمغرب.

5- عبد القادر الجوتي، معسكر، كان معلما بالمغرب.

6- عثمان الدمرجي، تلمسان، طالب بتولوز بفرنسا.

7- إبراهيمي بومدين، تلمسان، مثقف بالعربية والفرنسية.

8- شربال بن عمرو، تلمسان، فار من الجيش الفرنسي.

9- مسعود بزة، سطيف عامل بفرنسا.

10- رشيد بن إدريس، عنابة، فار من الجيش الفرنسي.

ثالثا : دفعة الصاعقة بمصر الشقيقة :

في شهر جوان 1956 التحقت مجموعة من الطلبة بمدرسة الصاعقة بمصر الشقيقة، هاته المدرسة تكون عسكريين يطلق عليهم اسم الصاعقة ويطلق عليهم أيضا اسم: « كمندوس » وقد وضع برنامج خاص لتدريب هاته المجموعة على حرب العصابات بجميع أنواعها. ولما أنهت التدريب على الأسلحة الفردية والجماعية وحرب العصابات انتقلت إلى مدرسة سلاح الإشارة بمصر الجديدة للتدرب على المواصلات السلكية واللاسلكية، وتخرجت مابين 15 إلى 20 أكتوبر 1956 لتلتحق بالجزائر من يوم 22 أكتوبر 1956 . و هو اليوم الذي ألقى فيه القبض على الزعماء الخمسة المتوجهين إلى تونس قادمين من المغرب.

وهاته أسماء المجموعة التي تتكون من خمسة وعشرين « 25 » فردا .

1- أحمد قادري من مواليد مسيردة دائرة الغزوات تلمسان، طالب ثانوي بجامعة القرويين بفاس المغرب، السنة ثالثة بجامعة الأزهر الشريف بمصر.

2- لحسن صوفي من مواليد مسيردة دائرة الغزوات تلمسان، خريج معهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة، شهادة الثانوية العامة بجامعة الأزهر بمصر.

3- صباغ محمد، من مواليد جبالة ندرومة، تلمسان، طالب بالقرويين بالمغرب، ثم طالب بجامعة العلوم بالقاهرة. [1]

4- حمدادو الهادى، من مواليد تبسة، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

5- أدمى عبد الله بشير، خنشلة، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

6- عرفي أحمد، فج مزالة ولاية جيجل، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

7- سعودي محمد، خنشلة، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

8- سلماني الطاهر، خنشلة، طالب بجامعة الزيتونة تونس.

9- خليلي مسعود، فج مزالة ولاية جيجل، طالب زيتوني.

10- خالدي حسناوي، تبسة، طالب.

11- ملوح محمد الصالح، من مواليد قيس ولاية خنشلة، طالب زيتوني.

12- بن لعلام عمرو، قنزات بني ورتلان ولاية سطيف، طالب زيتوني شهيد.

13- جودي الأخضر بوطمين، من مواليد الشقفة ولاية جيجل، خريج جامعة بغداد بالعراق في التاريخ والجغرافية [2]

14- محمود فارس، من عين البيضاء ولاية أم البواقي، طالب.

15- محمد العمراني، من ششار ولاية خنشلة، طالب.

16- مولاتي أحمد، وادى سوف، استشهد.

17- بن أحمد عبد الغنى، مسيردة الغزوات، مولود بوهران [3]

18- شرفي محمد الطاهر، خنشلة، عامل بفرنسا.

19- عثماني إسماعلي، تبسة.

---

1 صباغ وحمدادو سحبا قبل إتمام التدريب دون أن نعرف السبب، وفى 16 أكتوبر 1956 علمنا باحتجازهما بباخرة أوطوس التي انطلقت من مرفإ الإسكندرية المصرية محملة بالأسلحة من طرف البحرية العسكرية الفرنسية في عرض البحر المتوسط قبالة ميناء الغزوات. وبقيا بالسجن إلى يوم وقف القتال في 19 مارس 1962 .

2 لم يتدرب بمدرسة الصاعقة، إنما التحق بنا بمدرسة سلاح الإشارة المواصلات السلكية واللاسلكية.

3 لم يتمم التدريب بمدرسة الصاعقة، فأخذه بن بلة لاتخاذه كاتبا بالفرنسية بالمكتب العسكري الذي استحدثه، كما اتخذ عثمان السعدي كاتبا بالعربية.

20- درارجية محمد رشيد، خنشلة.

21- لحبيب.......تبسة.

22- عبد الحق، ميلة.

23- معمر............

الأخوان الشقيقان:

24 - شكري عبد العزيز، وادي سوف.

25 - شكري عبد الله، وادي سوف.

رابعا : الطلبة الذين التحقوا بالمدارس العسكرية السورية :

في بداية سنة 1957 التحق أربعة عشر « 14 » طالبا بالمدارس العسكرية السورية، وقد وجهوا إلى ثلاثة اختصاصات: مشاة، سلاح مضاد للطيران وهاون، وهاته أسماء المجموعة واختصاصات كل فرد :

المشاة :

1 - عبد الرزاق بوحارة، طالب تجند بالولاية الأولى، من مواليد القل.

2 - زغلامى نور الدين صحراوي، طالب، القاعدة الشرقية، توفى رحمه الله.

3 - حسين بن معلم، طالب، الولاية الثالثة.

4 - كمال عبد الرحيم، طالب، القاعدة الشرقية، من مواليد عنابة.

السلاح المضاد للطائرات :

1- محمد علاق، تبسة الولاية الأولى، خريج معهد بن باديس ثم خريج جامعة الزيتونة فمعلم اللغة العربية، التحق بالتدريب بعدما كان مجاهدا بالجزائر.

2- مصطفى دبابي، طالب، الولاية الأولى.

3- محمد الطاهر بوزغوب، طالب، الولاية الثالثة.

السلاح الثقيل الهاون 120 مم :

1- عبد العزيز قارة، طالب، الولاية الأولى.

2- رحال يحيى، طالب، تلمسان، الولاية الخامسة.

3- بوداود صالح الوناس، طالب.

4- إسماعيل أويحيى، طالب ثانوي، تازمالت ولاية بجاية.

5- جمال لعموشي، طالب، سكيكدة، الولاية الثانية، سبق له أن كان مجاهدا قبل التحاقه بالتدريب.

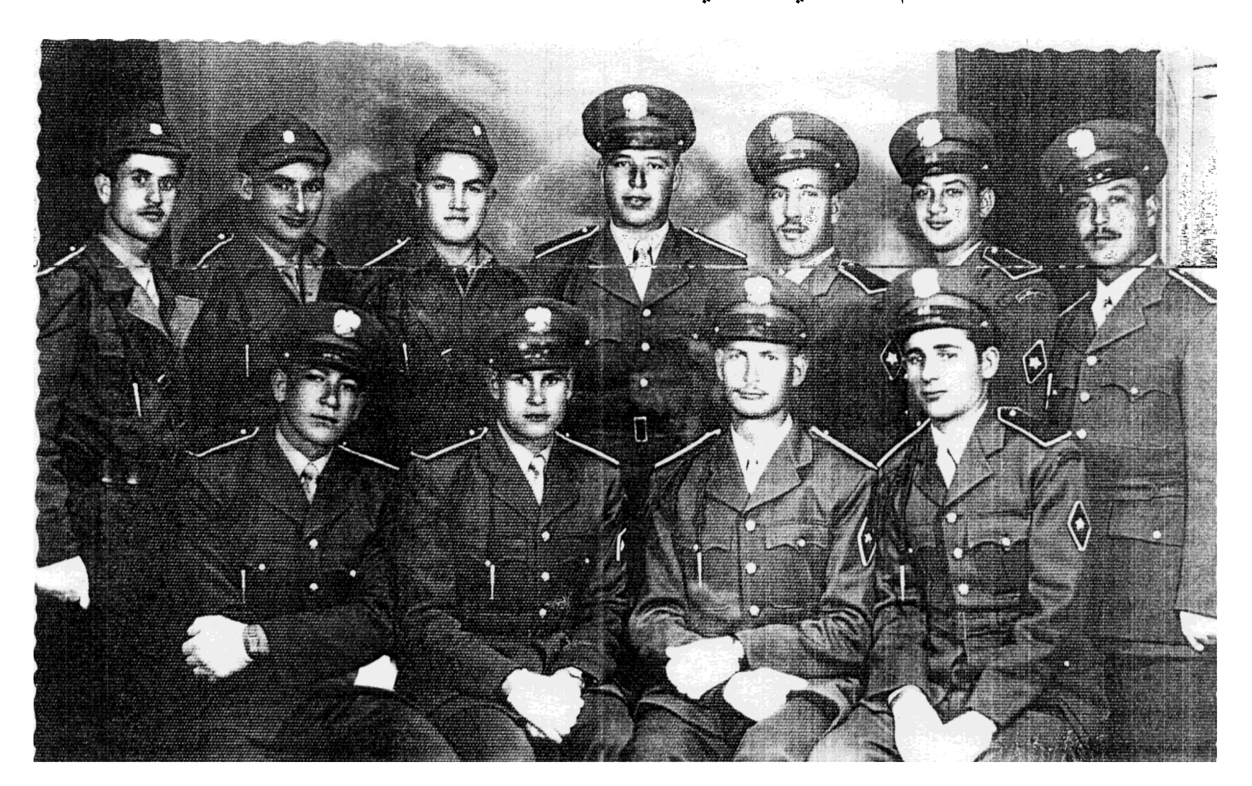
6- شيخي أحمد، طالب، باتنة، الولاية الأولى، توفى رحمه الله.

7- العربي سي لحسن، طالب جامعي بالقاهرة، الولاية الثالثة، توفى رحمه الله.

وبعدما قضوا سنة في التدريب، رجع بعضهم إلى الجزائر في بداية سنة 1958 وهم:

محمد علاق- زغلامي نور الدين صحراوي- بوحارة عبد الرزاق- قارة عبد العزيز- حسين بن معلم، أما الآخرون فقد توجهوا إلى الصين لمواصلة التدريب على سلاح الطيران. - هذا حسب علمي - أرجو أن لا أكون مخطئا.

هاته صورة الطلبة بزيهم العسكري السوري :



الواقفون من اليمين إلى اليسار: 01 مصطفى دبابي. 02 شيخي احمد. 03بوداود صالح الوناس. 04 حسين بن معلم. 05 محمد الطاهر بوزغوب. 06 زغلامي نور الدين صحراوي. 07 سي العربي لحسن

الجالسون من اليمين إلى اليسار: 01 اسماعيل أويحي. 02 محمد علاق. 03 عبد الرزاق بوحارة. 04 رحال يحيى



هاته صورة لأربعة طلاب يتوسطهم رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية السيد فرحات عباس التقطت بمكتبه بالقاهرة .

من اليمين إلى اليسار:01 زغلامي نور الدين صحراوي.02 محمد علاق. 03 فرحات عباس.04 كمال عبد الرحيم. 05 جمال لعموشي.

خامسا : دفعة تتوجه إلى العراق :

في شهر أكتوبر سنة 1957 توجهت دفعة من الطلبة تتكون من ستة أنفار إلى المملكة العراقية الشقيقة لتلتحق بالمدرسة العسكرية الرستمية حيث تدربوا مع الطلبة العراقيين سواء بسواء دون تمييز. وقد مكثوا في هاته المدرسة مدة سنتين ونصف، ورحلوا إلى الجزائر على وجه السرعة، سيأتي تفصيل ذلك قريبا.

وهاته أسماء هذه الدفعة :

1- سعيد مكرود، من مواليد فج مزالة [1] فرجيوة حاليا- ولاية ميلة، حاصل على شهادة التحصيل بجامعة الزيتونة بتونس، تقاعد من الجيش الوطني الشعبي برتبة لواء بعدما كان قائد الناحية العسكرية الخامسة ثم ملحق عسكرى بالقاهرة.

2- محمد الصالح قنيفد، الجزائر، طالب ثانوى بالجزائر.

3- معمر قارة، ولاية ميلة، طالب زيتونى ثم معلم.

4- على بلعايد الشريف، من سيق ولاية معسكر، حاصل على شهادة الباكالوريا من الكويت.

5- محمد رضا جبور، الجزائر، طالب بالجزائر.

6- قرام إسماعيل، من أم البواقى، طالب بجامعة الزيتونة بتونس. [2]

سادسا : دفعة أخرى تلتحق بالعراق :

في سنة 1958 التحقت دفعة أخرى بالمملكة العراقية الشقيقة متكونة من أربعة عشر طالبا – 14 – ليتدربوا بالمدرسة العسكرية الرستمية مع إخوانهم العراقيين، وهاته أسماء الدفعة:

1 – أوسلمان محمد تقزيرت، القبائل، طالب بجامعة الزيتونة بتونس.

2 – الهاشمي بوزيد، خنشلة، طالب.

3 – الطيب الدراجى، خنشلة، طالب.

4 – محمد عباس الشايب، ولاية وادي سوف، طالب، شهيد.

5 – إبراهيم جوادي، عين لحجل ولاية مسيلة، طالب.

---

1 فج مزالة هى قبيلة كبيرة، ومنها كانت البذرة الأولى لتكوين الدولة الفاطمية وبقى اسمها هكذا في عهد الاستعمار، وبعد استرجاع السيادة الوطنية غير اسمها بـ : فرجيوة على اعتبار أن الاستعمار هو الذي أطلق عليها اسم فج مزالة، ؟ فالأجدر بأهل المنطقة أن يعملوا على إعادة الاسم الأول لما فيه من دلالة تاريخية مشرفة.

2 توفى غرقا بالبحر بالقالة ولاية الطارف في الأسبوع الأول من شهر جويلية 1962 أثناء دخول جيش التحرير الوطني قادما من تونس.

6 – عبد المجيد الشريف، ولاية تبسة، طالب.

7 – محمد الصالح قاسمي، القبائل، طالب.[1]

8 – محمد العيد قدادرة، سدراتة ولاية أم البواقي، طالب.

9 – بودماغ مسعود، طالب، السنة السادسة ثانوي بجامعة الزيتونة بتونس، من مواليد سيدي مزغيش ولاية سكيكدة.

10 – بلقاسم مزوزي، من أريس ولاية باتنة، طالب.

11 – يوسف بن الصديق، جيجل، طالب.

12 – إبراهيم بروال ولاية باتنة، طالب.

13 – إبراهيم حاردي، عين والمان، سطيف، طالب.

14 – الصديق مومن، قالمة، طالب.

أتأسف و أعتذر لشحة المعلومات.

قيادة أركان الحرب العامة تستدعي الدفعتين الاثنتين من العراق :

لما تأسست قيادة أركان الحرب العامة في 18 يناير سنة 1960 وللضرورة الملحة، بادرت باستدعاء الدفعتين الاثنتين المتواجدتين بالعراق قبل موعدهما المحدد لإنهاء التدريب، فالدفعة الأولى كان من المقرر أن تتخرج في شهر جوان سنة 1960 . وبناء على هذا الطلب المستعجل فقد قدم تخرج الدفعة الأولى بشهر واحد حيث تخرجت في شهر مايو 1960. وسلمت لهم شهادة انتهاء الدروس وشهادة حصولهم على رتبة ملازم دون إجراء عملية الامتحان النهائي.

أما الدفعة الثانية فلم تسلم لها شهادة، حيث كانت قضت سنتين فقط في التدريب، بخلاف الدفعة الأولى التي قضت سنتين و نصف. وهكذا فقد غادرت الدفعتان معا العراق الشقيق في شهر مايو 1960 إلى الحدود التونسية بغار الدماء أين يوجد مقر قيادة أركان الحرب العامة.

سابعا : دفعة من الشبان تلتحق بالجمهورية العربية المتحدة :

---

1 أسر من طرف العدو أثناء معركة بالحدود التونسية و عذب عذابا أليما، بقي في السجن إلى غاية انتهاء الحرب.

في النصف الأخير من سنة 1958 التحقت مجموعة من الشبان الجزائريين بالكلية الحربية بالجمهورية العربية المتحدة – سوريا و مصر – غير أنني لا أعرف عدد أفراد هاته الدفعة و لا المستوى التعليمي.

وهاته أسماء ممن تحصلت عليها، معتذرا لمن لم أذكر أسماءهم :

1- بن موسى محمد، تلمسان.
2- قدور الطاهر، بني عباس "بجاية".
3- بن يلس رشيد، تلمسان.
4- عبد السلام تواتي، بجاية.
5- سليمان تواتى، سطيف.
6- يحيى الشريف، تلمسان.
7- بشير تاوتي، الأغواط.
8- فريد الغول، بجاية.
9- على.....تيزي وزو.
10- فتحي الأخضر.....
11- غضبان شعبان، تبسة، طالب.
12 – تقمونت أرزقي عزازقة "تيزي وزو"

وبعد ما انتهت هاته الدفعة من التدريبات العسكرية، انتقلت إلى الاتحاد السوفياتي لمواصلة تدريبات أخرى تدخل في إطار الاختصاص.

ثامنا :

دفعة أخرى توجهت إلى المملكة الهاشمية الأردنية في سنة 1959 أرسلت مجموعة من الشبان إلى الأردن من أجل التدريب العسكري، وتتكون المجموعة من ثمانية « 8 » أنفار. وللأسف أنني لم أعرف الشهر الذي أرسلت فيه هاته البعثة. كما أنني لا أعرف من الأسماء إلا ثلاثة أنفار، هم السادة:

– لمين زروال، الذي أصبح رئيس الجمهورية الجزائرية.

– حشيشي زين العابدين.

– عيسى بخوش.

تاسعا : دفعة أخرى تلتحق بالعراق :

ففي شهر أكتوبر سنة 1960 توجهت دفعة أخرى تتكون من أربعة عشر « 14 » فردا إلى العراق الشقيق. وقد التحق خمسة « 5 » أنفار بكلية الطيران، بينما التحق تسعة آخرين بالكلية الحربية، وقد مكثوا هنالك إلى غاية شهر جويلية من سنة 1963 فرجعوا والجزائر تنعم باستقلالها بعدما تركوها مستعمرة فرنسية، فلله المنة والحمد.

وبكل أسف فإني لا أملك من أسماء المجموعة إلا سبعة أنفار خالية من معلومات أخرى مثل مكان الميلاد والمستوى التعليمي. وهاته أسماء السبعة:

1– مولود حمروش،[1] من مواليد الشقفة، دائرة القل، ولاية جيجل.

2– بازدة عبد القادر.

3– سوادنية مسعود.

4– قصاب رابح، من القل ولاية جيجل.

5– عوابدى عمار،[2] عزابة، ولاية سكيكدة.

هؤلاء الخمسة وصلوا من الجزائر إلى غار الدماء بتونس في النصف الثاني من سنة 1959 وأنا وقتها نائب مسؤول القسم، وبما أنهم أطفال صغار لا يمكن تجنيدهم، كلفني السيد موسى حسني مسؤول القسم الثاني بغار الدماء– كلفني بتوجيههم إلى تونس العاصمة ليوجهوا منها إلى ليبيا كي يلتحقوا بمدرسة أبناء الشهداء هنالك حسبما قيل لنا. ومنها أي من ليبيا كاتبني: قصاب رابح إلى غار الدماء يشكرني على ما قمت به نحوه و أصحابه ويبدى سروره وارتياحه لما هو عليه.

6– بوعروج محمد، ميلة.

7– بن حديد حسين، من مستوطني تونس.

كما علمت أن مجموعة من الطلبة التحقت بمدرسة الشرطة بالقاهرة، غير أنني لا أعرف تاريخ الالتحاق، ولا أعرف من الأسماء إلا اسمين فقط هما: العايش من سوق أهراس، وعبد الصمد من باتنة.

1 خريج الكلية الحربية بالعراق جويلية 1963 . حاصل على شهادة الحقوق سنة 1972 من جامعة الجزائر– دفعة أولى معربة وكنت أنا مع خريجي هذه الدفعة– عمل برئاسة الجمهورية مع بومدين ثم مع الشاذلي بن جديد، رئيس الحكومة سنة 1990، فاستقال منها.

2 شهادة الدكتورة في الحقوق، رئيس لجنة القانون بمجلس الأمة سنة 2000

هذا ما استطعت جمعه بعد زمن طويل و أتعاب شاقة. و أنبه مرة أخرى أن لا يفهم القارئ الكريم أن هاته النتيجة هي نهائية، بل قد تكون هنالك دفعات أخرى لا أعلم بها.

وأشير هنا إلى أن الدفعات لم تكن كلها معربة، بل كان من ضمنها من لم يكن يعرف العربية، فكانوا يتلقون دروسا في تعلم العربية ليلا، وكمثال على ذلك، السادة : حسين بن معلم، لكحل عياط، عبد الرزاق بوحارة.

وعلى ضوء هاته الحصيلة التي ليست نهائية فيكون جميع من تدرب التدريب العسكري بمدارس دول المشرق العربي طيلة سنوات الثورة من ديسمبر 1955 إلى جويلية 1963 يوم رجوع آخر دفعة من العراق تكون الحصيلة كما يلي:

أربعون « 40 » فردا بالعراق، خمسة و أربعون « 45 » فردا بمصر، ثمانية « 8 » أنفار بالأردن، و أربعة عشر «14 » نفرا بسوريا. المجموع : مائة وسبعة « 107 » أفراد فقط. إنه لعدد هزيل جدا، إذا ما قورن بضخامة الثورة وعدد سنوات الحرب القاسية بينما كان من الممكن أن يكون – في نظري – العدد بالمآت إن لم أقل بالآلاف، نظرا لخطورة الحرب الدائرة بالجزائر و لشراسة العدو، وضخامة عدد جيوشه وعدته، وطموحات العدو المستقبلية. فعملية التكوين في الدول العربية كانت ضئيلة مقارنة بهول الحرب القائمة. وقد يعود سبب ذلك إلى عدم وجود تنظير للمستقبل أو غفلة من المسؤولين.

رجوع المتدربين :

خلال سنة 1956 بدأ رجوع المتدربين إلى أرض الوطن للانضمام إلى إخوانهم المجاهدين لمكافحة العدو الغازي لبلادنا وهم مغمورون بالفرح والسرور، إلا أن نشوة سرورهم لم تلبث أن اصطدمت بأمر غريب من طرف المسؤولين. ذلك أنهم لم يتلقوا الترحيب الذي كانوا يتوقعونه من طرف قادة الولايات أو المسؤولين بالحدود. وأكثر من هذا أنهم اتهموا بالخيانة ومحاولة انقلاب والاستيلاء على المسؤوليات. فبالنسبة للوافدين من مصر، اتهموا بالانتساب إلى الإخوان المسلمين، وأن السيد أحمد بن بلة هو الذي كونهم وبعثهم من أجل تغيير النظام القائم بإزاحة المسؤولين من مناصبهم. أما الوافدون من العراق فقد اتهموا بالانتساب إلى حزب البعث. فتحطمت آمالهم وأحلامهم وتطلعاتهم لمستقبل بلادهم. وقد كنت أنا شخصيا من الوافدين من مصر بعد تخرجنا من مدرسة الصاعقة الشهيرة ومدرسة الإشارة : المواصلات السلكية واللاسلكية في أكتوبر 1956. ولما وصلنا إلى مقر الولاية الثانية بعد مكوثنا بالحدود التونسية حوالي أربعة أشهر لحسابات وخلفيات نجهلها– قلت لما وصلنا إلى مقر الولاية في جماعة تضم حوالي 8 أو 10 أفراد فرضت علينا الإقامة الجبرية، ثم استقبلنا قادة الولاية، فقال لنا قائد الولاية السيد : الأخضر

بن طوبال حرفيا: أنكم مبعوثون من طرف أشخاص للقيام بانقلاب والاستيلاء على قيادة الولاية، وكان يعنى السيد : أحمد بن بلة الذي هو الآن في سجن فرنسا. علما أن مؤتمر الصومام كان قد عزله من منصبه كممثل للثورة في الخارج، وعين بدله السيد الدكتور: لمين دباغين. وقد وقع لزملائنا الآخرين الذين توزعوا على ولايات أخرى مثل ما وقع لنا، بل قد وصل الأمر إلى حد الإعدام مثل ما وقع للمجاهد السيد: زعروري عبد المجيد من الولاية الأولى الذي أعدم بالحدود التونسية سنة 1957.

ورغم هذا الاستقبال المخزي المحبط للمعنويات، فإن العائدين من التدريب التحقوا بإخوانهم المجاهدين وشاركوا في معارك داخل الوطن وكان منهم الشهداء. وهنا يجب أن أشير إلى أن الذين عادوا من التدريب من سنة 1955 إلى 1958 كلهم دخلوا الجزائر إلا نادرا، أما من عاد بعد سنة 1958 فلم يكن الدخول للجزائر متيسرا لقفل الحدود بخطي موريس وشال الرهيبين.

وشهادة للتاريخ؛ فإن هؤلاء الطلبة المثقفون بالعربية والذين تكونوا تكوينا عسكريا بالبلدان العربية الشقيقة هم الذين أسسوا التدريب العسكري لجيش التحرير الوطني خاصة الدفعات التي عادت قبل سنة 1958، وبعدها الدفعات اللاحقة، وقد نالوا إعجاب المجاهدين والشعب معا، ماعدا المسؤولين الذين تعودوا على تدريبات غريبة عن الشعب الجزائري.

وعلى كل فإن التدريب العسكري وقع على كاهل المثقفين بالعربية لا غير، فهم الذين تحملوا العبء الأكبر. ذلك أن العلوم العسكرية هي علم كبقية العلوم الأخرى، ومن يقدم عليه يجب أن يكون له مستوى تعليمي واسع، وله مبادئ تؤهله لتلقي ذلك. ولأن التدريب العسكري في الدول العربية كان باللغة العربية لا غير، لذا صار لزاما على طلبة العربية أن يتحملوا مسؤولياتهم التاريخية، شاءوا أم أبوا. وقد كانوا في مستوى تلك المسؤولية العظيمة. ولو وجدوا تشجيعا وتفهما من طرف المسؤولين الذين وضعوا المسؤولية على رؤوسهم لكانت النتائج أكثر. وبفضل هؤلاء، - الذين كانوا يسمونهم أصحاب ستيلوات- يعنى أصحاب الأقلام الذين لا يستطيعون تحمل المشاق- قلت بفضل هؤلاء أصبحت مدارس ومراكز التدريب منتشرة بالحدود الشرقية والغربية، ومن هؤلاء تكونت نواة لإنشاء سلاح الطيران والبحرية والشرطة.

ففي الحدود التونسية التي أعرفها، كان يتواجد بها ست « 6 » مدارس ومراكز تدريب عسكرية هي كالآتي :

1- مدرسة الإطارات.

2- مدرسة التعليم العسكري الأساسي.

3- مدرسة المحافظة السياسية.

4- مدرسة المفرقعات.

5- مركز تكوين المساعدين الطبيين.

6- مركز تدريب – A أ- مزرعة موسى.

ورغم النجاح الكبير الذي حققه الطلبة المعربون، – أو الذين تعربوا أثناء التدريب – في ميدان التدريب، فقد أبعدوا من كل مراكز القيادة، وزاد إبعادهم نهائيا بعد محاولة انقلاب بما عرف بانقلاب العقداء الذي وقع في 16 نوفمبر 1958، وحملوا تبعة ذلك، ووضع على رؤوسهم القادمون حديثا من الجيش الفرنسي. وبقى الوضع هكذا إلى يوم الاستقلال، فتمت تصفيتهم، ومن بقى منهم لاعتبارات مختلفة، تأخر في الترقية أو حرم منها، إلى أن أحيلوا على التقاعد مبكرا مرغمين.

هذا هو الواقع المر، الذي عانت منه فئة عريضة من أبناء شعبنا من المتعلمين باللغة العربية، ولازالت هاته المعاناة قائمة إلى الآن. أعتقد أن هذا التوجه القديم القصد منه التأثير على التوجه الثقافي لمستقبل الجزائر، وبالتالي تشويه الهوية الثقافية الوطنية. وتحويل وجهة الجزائر من المشرق العربي إلى وجهة الغرب، بإقامة حاجز بين الجزائر وجذورها الطبيعية العربية.

وهذه إحصائيات للطلبة الذين التحقوا بالثورة، وهى ليست نهائية :

1- الطلبة الذين درسوا بالعربية في الجزائر وفى البلدان العربية، والتحقوا بالثورة 173 فردا. استشهد منهم خمسة وأربعون « 45 » فردا.

2- طلبة غادروا مقاعد الدراسة من المؤسسات التعليمية الفرنسية بالجزائر وفرنسا، والتحقوا بالثورة، واحد وخمسون « 51 » فردا. منهم ثمان نساء « 8 » استشهد منهن تسعة أفراد « 9 » من ضمنهن سيدتان : حسيبة بن بوعلي – وولد قابلية زبيدة.

3- طلبة المؤسسات الفرنسية، الذين التحقوا بالثورة، واحد وعشرون « 21 » طالبا. فيكون مجموع الطلبة المثقفين بالعربية أو الفرنسية مائتين وخمسة وأربعين « 245» طالبا استشهد منهم أربعة وخمسون « 54 » فردا رحمهم الله. [1]

وشهادة مني أنا الذي تخرجت من مدرستين كبيرتين بمصر الشقيقة : مدرسة الصاعقة، ومدرسة سلاح الإشارة. كان تدريبنا سريا. وبعد العدوان الثلاثي على مصر أكتوبر 1956 أصبح الطلاب الجزائريون يخرجون إلى شوارع القاهرة من المدارس العسكرية بزيهم العسكري يحملون على أكتافهم العلم

---

1 جذور ثورة نوفمبر 1954 في الجزائر، للمجاهد : السيد مصطفى هشماوي.

الجزائري، وأصبحت المجاهرة بالعداء لفرنسا ظاهرة أمام العام والخاص. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التدريب العسكري كان مقصورا على العراق، مصر، سوريا والأردن. أما فيما يخص المؤسسات التعليمية فكانت أبوابها مفتوحة لكل طلبة الجزائر من جميع الدول العربية بدون استثناء، ولتسهيل الالتحاق بالمؤسسة التعليمية، كان يكفى الطالب أن يأخذ ورقة من جبهة التحرير أو من الحكومة المؤقتة فيما بعد، ممضاة من طرف المرحوم : توفيق المدني مبينا المستوى الثقافي للطالب التي تعتبر كشهادة رسمية. و بها يلتحق الطالب بالمؤسسة حسب المستوى الذي اختاره هو بنفسه في الغالب. وإحقاقا للحق وشهادة لله، فإن الدول العربية بدون استثناء وعلى اختلاف أنظمتها بالمغرب والمشرق العربيين كلها اتفقت على نصرة الجزائر، وكلها لم تبخل بالمساعدة رغم ضعفها الاقتصادي. وأن الشعوب العربية قدمت خدمات تستحق منا ومن الشعب الجزائري كله التقدير و الاحترام.

وفي الختام؛ ولرفع الالتباس يجب أن أنبه أن قيادة أركان الحرب العامة « l’état major général » لما تكونت قي 18 جانفي سنة 1960 عممت استعمال اللغة الفرنسية – اقتداء بسابقتها– في جميع إدارتها على جيش التحرير المتواجد بالحدود التونسية والمغربية، أو المتواجد بداخل الوطن بواسطة جهاز الإرسال اللاسلكي، وبذلك تكون قد قضت على ما تبقى من استعمال اللغة العربية، التي كانت تستعمل من طرف جيش التحرير التابع للولاية الأولى، وبصفة أقل من طرف القاعدة الشرقية. فقد أسست قيادة الأركان طاقما إداريا بمقرها بغار الدماء من المتعلمين باللغة الفرنسية فقط، تحت مسؤولية السيد: مصطفى بن لوصيف الذي أصبح قائدا للأركان في عهد الاستقلال. وكان يساعده في السكرتارية السيد: عبدا لله بومدريس. وطيلة وجودي مسؤول القسم الثاني بغار الدماء ثم القسم الأول بتالة التونسية بالجنوب، لم ترد إلي رسالة واحدة بالعربية.

يستثنى من هذا التعميم البلاغ الصادر في أول جويلية 1962 بعد عزل قيادة الأركان من طرف الحكومة المؤقتة. فقد أصدرت قيادة الأركان بيانا بالعربية مترجما من الفرنسية موجها للشعب والجيش معا بالداخل والخارج تبين فيه أسباب خلافها مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. « مازلت أحتفظ بهذا البيان»

وفى شهر مايو سنة 1991 وأنا ضيف بمنزل المرحوم : علي منجلي بعزابة سألته لماذا لم تستعملوا اللغة العربية أصلا في إدارتكم؟ أجاب إننا لم نجد متعلمين بالعربية!!

الله أسأل أن أكون قد وفقت لقول الحقيقة.

مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها

أ. صالح بن القبي

المقدمة

لم تدخل اللغة العربية الديار المغاربية لأول مرة، كما يعتقده الكثير، في ركاب الفتوحات الإسلامية، بل كانت موجودة بها منذ غابر العصور، وعلى أقل تقدير منذ القرن التاسع قبل الميلاد، أي مع دخول الفينيقيين منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وإنشائهم بها العديد من الموانئ والمدن، كقرطاج بتونس، وقرطة، وسالدي بالجزائر، وسبتا بالمغرب، وقرطبة بالأندلس. وصارت الفينيقية وقتها، لغة الإدارة، والتعليم، والثقافة، تبنتها شعوب المنطقة، وملوك وأمراء نوميديا، ومنهم ماسينيسا، وسيفاكس.

والعربية قديمة قدم الحضارات البشرية، والديانات السماوية. تتقاسم مع باقي اللغات الشرقية السامية، كلا من المنبت، والنطق في مستوى مخرج الأصوات، والأبجدية، والعديد من القواعد النحوية والصرفية. ومن هذه اللغات السرياك، والفينيقية، والعبرية، والآرامية، والحميارية، وكذا الأمازيغية.

ويكون تفاعل هذه اللغات ذات الأصل الواحد، مع اللغة النومدية بمختلف لهجاتها، قد تضاعف مع نزول العديد من الأقوام المشرقية بشمال القارة الإفريقية، ومنهم الفينيقيون أولا، ثم اليهود الناطقون بالعبرية، ثم المسيحيون الأوائل المعتمدون في حديثهم، وطقوسهم على الآرامية لغة المسيح عليه السلام، وهي مزيج من العربية واليونانية.

ومما يؤكد مثلا، التشابه الكبير بين العربية والفينيقية، والأصل المشترك لهما، اللغة الوطنية لجمهورية مالطا، التي صارت هذه السنة، إحدى اللغات الرسمية للاتحاد الأوربي. وهي كلما أزيحت عنها المفردات الإنكليزية، والإيطالية الدخيلة، تجلت في صيغة لغة عربية أصيلة، حافظ عليها أبناء الجزيرة

عبر العصور، كإرث مقدس من أجدادهم الفينيقيين القادمين أصلا، من مدينتي صور، وصيدا. ويرفض المالطيون إلى اليوم بشدة، أن يكونوا مدينين في أداة تخاطبهم، إلى العرب والمسلمين، وكانوا أعداءهم التقليديين، حيث شكلت جزر مالطا عبر التاريخ، القاعدة الأمامية للجيوش المسيحية، ومحط رحال فرسان الكنيسة الصليبيين، القادمين من مختلف المقاطعات الأوربية. ومن أسباب اعتزاز أهالي مالطا، وخيلائهم، أنهم استطاعوا أن يصونوا لغتهم من كل تأثير أجنبي، وحتى من لغات الصليبيين رغم طول إقامتهم بينهم، والحلف المقدس الجامع بينهم. وما زال المالطيون إلى اليوم، يبدون شديد اندهاشهم، كلما سمعوا مواطنا عربيا يتحدث أمامهم بالعربية لوجود من يتكلم سواهم " بالمالطية".

ثم جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي، ففتح أبواب الديار المغربية على مصراعيها، أمام العربية لغة القرآن والحديث، والعلوم في شتى المجالات. ولم تلق العربية أية معارضة من اللهجات المحلية التي بقي الناس يستعملونها في شؤونهم الخاصة، ويعتمدون العربية في سواها، طيلة العهد الإسلامي. ومما زاد انتشار لغة القرآن بالجزائر سهولة، وتداولها شرعية، احتكار السلطة السياسية المطلق، من طرف سكانها الأصليين، على رأس مختلف الدول التي توالت بها على الحكم، بدءا من الرستميين، والحماديين، إلى دولة الزيانيين وبقي الأمر على ما هو عليه في العهد العثماني.

وكانت عواصم هذه الدول وهي تيهارت، وقلعة بني حماد، والناصرية، وتلمسان، مقصد علماء المسلمين وغير المسلمين، الوافدين من المشرق، والمغرب، والأندلس، وصقلية، و"سوق عكاظهم"، تعقد بها الندوات الفكرية، فتشهد ضروب الجدل الكلامي، والعروض الشعرية، وتبادل الآراء والتجارب. وقد ألفت بأمصارها، الموسوعات القيمة، وأمهات الكتب، كرسالة ابن رشيق المسيلي، ومقدمة ابن خلدون.

وبقيت العربية طيلة العهد الإسلامي، سيدة الأوضاع بالجزائر، لا ينافسها ند، ولا يشكك في شرعيتها أحد. فبها تتم العبادات، وتدون المؤلفات، وتسجل العقود والوثائق، وتصدر الأحكام. يتعلمها الناس منذ نعومة أظافرهم داخل الأسرة، والكتاتيب المنتشرة بكثافة في البوادي، والقرى،والأمصار. ويتعاطى النابغ في علومها من التلاميذ, تعليمه الثانوي والعالي، بمؤسسات توجد على وجه الخصوص بكبريات المدن، وداخل أسر اشتهرت بالعلم، وتطوعت لنشره متكفلة برواتب الأساتذة، والأئمة، ومنح الطلبة، وبطعام الجميع ومأواهم. وهناك النشاط الثقافي الذي تضطلع به كل من الطرق الصوفية الكبرى المنتشرة عبر القطر، كالقادرية، والتيجانية، والرحمانية، والطيبية، والعديد من الزوايا ذات الإشعاع المحلي، والمتمركزة عامة، حول أضرحة بعض مشاهير شيوخ العلم وقادة الجهاد.

وما زال بعض هذه المعاهد يواصل رسالته التربوية إلى اليوم، كجامعة الكتانية بقسنطينة، وزوايا منطقة القبائل، ومنها شلاطة، ومدارس مستغانم، وعين ماضي، وزاوية مزونة، والقطنة، ووهران ومسجد أبي مدين بتلمسان.

وخلاصة القول في موضوع اللغة العربية بالجزائر قبل الاحتلال، أن كل الوثائق، والشهادات، بما فيها الصادرة عن قادة جيش الاحتلال، تجمع على أن التعليم كله بالعربية، كان قبل 1830 في مختلف مستوياته الابتدائية، والثانوية، والعالية، في حالة جيدة عبر مختلف مناطق البلاد، مع معدل لعدد المتمدرسين يفوق ما كان موجودا بالكثير من البلدان الأوربية، ومنها فرنسا المكلفة بمهمة إخراج " الأهالي" من غياهب الجهل والضلالة.

مآسي اللغة العربية

تم احتلال فرنسا للجزائر في فترة تميزت بتفوق أوربا على العالم العربي الإسلامي في جميع مجالات الحياة المادية، وخاصة في ميدان العلوم العصرية، والتكنولوجية الحربية. ومن ثم تحرش الغرب على دار الإسلام، وغزوه الاستعماري لها، واقتسامه لمختلف مناطقها. وشاءت الأقدار أن تكون الجزائر من حظ دولة نصبت نفسها البنت البكر للكنيسة، وحاملة راية القيم الغربية، وصاحبة الإرث الثقافي المتألق، تتباهى بثرائه، وتطمح إلى تعميم مضامينه على باقي شعوب المعمورة، وخاصة منها المنتمية إلى العالم العربي الإسلامي.

ودار الإسلام في اعتقاد فرنسا والغرب، رمز "للغيرية" ومصدر التعصب الديني، والتخلف الفكري. وشعوبها رازحة عموما، تحت نير عبودية النظام العثماني، مكبلة عقول أفرادها بقيود بدعة دينية ضالة مضللة. فهو عالم آيل حتما إلى الاندثار إذا لم يسارع الغرب اليهودي–المسيحي إلى تحريره من نفسه، ومن مظاهر البؤس والتخلف، ببسط وصايته عليه، ونشر رسالته الحضارية في شعوبه.

ولا يمكن لأي مؤرخ، أو باحث أن يفهم الأسباب التي حثت المستعمر الفرنسي على بدء مغامرته التوسعية بالجزائر، والمجازر الوحشية التي ارتكبها طيلة الاحتلال ضد شعبها قصد إبادته على مرأى ومسمع الدول الغربية الأخرى، وجهوده الجنونية لمسخ شخصية الجزائريين، وتجريدها من مكوناتها، دينا، ولغة وتقاليد، ولا سرعة تخليه عن باقي مستعمراته إبان الحرب التحريرية، للحفاظ على "عمالاته" الجزائرية، إذا هو لم يراجع بإمعان تطور العلاقات الجزائرية–الأوربية منذ العهد الإسلامي. فهي الكفيلة بإحاطته علما بالدور المتميز الذي تولاه الجزائريون في الفتوحات الإسلامية شمالا في اتجاه الأندلس، وأرض الغول، وصقلية، وهي ديار مسيحية، وفي نشر الدين الجديد جنوبا، في بلاد السودان، وتأطير

الجاليات الإسلامية عبرها، بواسطة الطرق الصوفية، والدعاة المشاهير أمثال عبد الكريم المغيلي في القرن السادس عشر، والإمام عبد الحميد بن بديس في القرن العشرين. كما ستمكنه هذه المراجعة من الاطلاع على مدى ضراوة الحروب المتواصلة التي خاضها الشعب الجزائري، لإنقاذ مسلمي الأندلس من التنصير الإجباري، أو الإبادة من جهة، وإفشال السياسة التوسعية للدول الأوربية في حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية.

فهذا الجهاد المستميت، الذي يجهله الكثير من الناس، هو الذي جعل الجزائر تبدو في نظر الشعوب الغربية عبر التاريخ، رمزا للعداء والتحدي، فحث إسبانيا، وهولندا، وبريطانيا، والنمسا، وحتى الولايات المتحدة، على محاولة غزوها، للقضاء على دورها في الدفاع عن الديار، وصيانة المعتقد. ومما لاشك فيه، أنه لولا الاحتلال الفرنسي في 1830، لكانت الجزائر تعرضت لغزو دولة غربية أخرى، في خضم صراع حضاري مفتوح، وسعي محموم لأوربا وراء مواد أولية تعوز صناعاتها العصرية الناشئة، وأسواق دولية مربحة لفائض إنتاجها. وكانت الجزائر تمثل في نفس الوقت، الخصم الحضاري العنيد، والبلد المترامي الأطراف الزاخر، بالثروات الطبيعية.

فلا غرابة بعد ما تقدم، وإذا حصرنا الصراع في جانبه الحضاري،أن تصبح قيم الشعب الجزائري وتقاليده، ومكونات شخصيته من العناصر التي تجعل واجب القضاء عليها يكتسي الأولوية المطلقة في مخططات المحتل الفرنسي. ولقد شخصها فوجدها متمثلة أساسا، في تعاليم الإسلام، ولغة الضاد أداة ترويجها المثلى، فشن عليها حربا لا تقل ضراوة عن حملات الإبادة التي سلطها على السكان. وزاده أملا في تحقيق رسالته التبشيرية، أن الجزائريين كانوا مسيحيين قبل أن يفرض عليهم "الدين المحمدي"في اعتقاده، فرضا، وأن الحرف اللاتيني كان السائد فيهم دون سواه لمدة عشرة قرون كاملة، وما زال ماثلا بكثافة على صخور الآثار الرومانية البزنطينية الحافلة بها مدن البلاد وبواديها. والمثير للدهشة، أن هذا الخط اللاتيني لم يعد يثير في الأهالي أي اهتمام، ولا يلقى فيهم، من يحسن تهجئته، أو يعيره تلك العناية التي يليها للحرف العربي، حيث يسارع كل جزائري إلى انتشاله من الأرض كلما وجده ملقى عليها، ليضعه في مكان طاهر مأمون، بعد تقبيله بخشوع، في حركة عفوية تنم عن الحب، وعظيم الإجلال.

إجراءات المحتل التعسفية ضد العربية

باشرت قوى الاحتلال حربها الصليبية ضد مقومات الشخصية الجزائرية، قبل أن يجف حبر وثيقة استسلام العاصمة التي تعهدت بموجبها للشعب الجزائري باحترام أملاكه، ومعتقده، وتقاليده. فأخذت في إطار سياسة مبيتة، محكمة، تذبح أبناءه وتنهب أمواله، وتحول مساجده، وجوامعه إلى كنائس، ومحلات لهو ومجون، واصطبلات لخيول جندها، وتحظر التعامل الرسمي بالعربية، والحج إلى البقاع المقدسة،

وتغلق المدارس, والمعاهد، وكل مراكز الإشعاع الثقافي. وتطارد الأساتذة، والأئمة، والمثقفين. وما دام التعليم في ذلك الوقت شعبيا ومجانا عبر التراب الوطني، تتولى تكاليفه أسر من أهل البر والتقوى، ومداخل الأملاك المحبوسة لصالح العلم والعلماء، والمساكين والفقراء، والشيوخ والعجزة، ولأعمال خيرية أخرى، فسارعت سلطات الاحتلال إلى بسط يدها على ديوان الأوقاف، في انتهاك سافر للدستور الفرنسي القاضي بالفصل بين الدين والدولة.

صمود اللغة العربية أمام إجراءات التعسف

ولم يرضخ الشعب لهذه القوانين الجائرة، خاصة تلك المتعلقة بالتعليم. فلغة القرآن وسيلته المثلى لمعرفة دينه ودنياه. فهي التي تعلمه قواعد التعامل مع الناس فيسعد في هذه الدنيا، وتبين له واجباته إزاء خالقه فيسعد بنعيم رضاه في الآخرة. وراح يخوض دفاعا عنها، وعن تراثه الثقافي، معارك تعتمد أسلوب حرب العصابات القائمة على الكر والفر، من خلال مواجهات صريحة حينا، ومراوغات خفية، حينا آخر. واستطاع هكذا ورغم كل المضايقات، أن يفسح للغته، المجالات التي تتمتع بها باقي لغات العالم. فضمن لتعليمها في الجزائر، حدا أدنى من الوجود، في الكتاتيب، والزوايا الصوفية، والمدارس الحرة، الخاضع معظمها لجمعية العلماء المسلمين، وباقيها لحزب الشعب الجزائري المطالب صراحة بالاستقلال. وكانت هذه المؤسسات التعليمية معرضة جميعها لرقابة الإدارة الصارمة، ولتحرشاتها، وقرارات الغلق المتكررة. ومع هذا، فكانت تستأنف نشاطها المقدس كلما لقيت لذلك سبيلا. والفضل في إنقاذ العربية، عائد للشعب عامة، ولتضحيات أساتذتها، وشيوخها، على وجه الخصوص، حيث فضلوا على الفرنسية "لغة الخبز" والعيش الرغد، خدمة قضية مقدسة تعرضهم حتما، إلى الاضطهاد، والسجن، والاغتراب عن الأهل والديار، وشظف العيش.

وبقيت اللغة العربية قائمة بالجزائر، تستعمل دون سواها، في الحياة اليومية داخل البيوت، وفي الشارع، ودور العبادة، وأماكن العمل والنزهة، وفي السجون والمعاقل. وقابل الناس لغة المستعمر، وتعليمه، وحملات تبشيره، وتغريبه، بأشد مظاهر المقاومة الجماعية. ولم يلتحق بمدارسه على ندرتها، وبعد حين، إلا القليل من المواطنين وبعد تأكدهم من خلو برامجها من كل أساليب التنصير. وزاد من أسباب انتعاش العربية، وتجديد أساليبها، حفظ العامة للقرآن الكريم, والأحاديث النبوية، والأمثال الشعبية، وتكاثر الأغاني الظرفية الواردة صدى لأحداث الساعة، والأناشيد الدينية والوطنية، ونشاط الحركة الكشفية التربوي، ورواج الشعر، الملحون العامي منه، والفصيح الخاضع لقواعد العروض وزنا وقافية. وقد اكتسبت بعض قصائده، ودواوينه الشهرة العالمية، كاللهيب المقدس لمفدي زكرياء.

وجاءت الصحافة بعد الحرب العالمية الأولى، لتدعم هذه الصحوة اللغوية، من خلال بعض الجرائد تصدر هنا وهناك، عبر القطر، بالعربية وأحيانا باللغتين، تتناول القضايا المحلية، ومواضيع أدبية. لكن الإعلام السياسي الملتزم، فالفضل فيه يعود إلى حزب الشعب الجزائري، وفي دبلجته العربية، إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، من خلال عناوين عدة، نذكر منها على وجه الخصوص، "الشهاب" و "البصائر". ثم هناك بعض الإصدارات السياسية، والأدبية، من جرائد، ومجلات، وكتب يستقدمها الناس على الدوام، سرا وعلانية، من أقطار المشرق والمغرب. وللتذكير فإن فرنسا لم تستطع أن تقطع الشعب الجزائري عن أشقائه العرب والمسلمين، رغم ما وظفته من وسائل جهنمية. فبقي بعض الشبان يلتحقون في دراستهم بجامعات القرويين **بفاس**، والزيتونة بتونس، والأزهر بمصر فيتخرجون أساتذة وغالبا ما يلتحقون بسلك التعليم الحر في الجزائر. كما هناك من كبار علماء الجزائر من كان يعقد حلقات التعليم في كبريات الجامعات الشرقية وفي الحرمين، من أمثال الأمير عبد القادر، والشيخ الورثلاني، وعبد الحميد بن باديس, والإبراهيمي، وغيرهم وهم كثر.

ومن دعائم اللغة العربية في أحلك ظروف الاحتلال، دور المسرح الشعبي، وتوظيفه لاحقا من طرف الأحزاب السياسية، والحركة الكشفية، ومدارس التعليم الحر، لصالح القضايا القومية. فكانت فرق التمثيل تجوب مدن القطر، وقراه، وبواديه، ساعية إلى الترفيه عن الناس، ورفع مستواهم السياسي عن طريق الضحك، والحديث الصريح حينا، و التلميح والرموز أحيانا أخرى، تفاديا للرقابة الرسمية. ولقي التمثيل المسرحي واللغة العربية عامة، سندهما الحاسم في انتشار الإذاعة المسموعة، ودخول أجهزة التقاط برامجها بيوت العامة. وساهم هذا الاكتشاف في كسر الطوق الثقافي المضروب على الشعب منذ الاحتلال، حيث صار بإمكان المواطنين متابعة الأخبار العالمية، والوطنية على وجه الخصوص، في صيغها المنقحة وبعيدا عن الرقابة الرسمية، عبر محطات البلدان الشقيقة، في لغة عربية فصيحة, وبأصوات مهذبة. وما زال جيل نوفمبر يذكر إلى اليوم، فضائل "صوت الجزائر الحرة المكافحة" و"صوت العرب"، وباقي الإذاعات العربية عامة، على ثورته المسلحة، ودورها في التعريف بها، وتمرير رسائلها.

كما أن العربية بقيت لغة الوعظ والإرشاد الوحيدة في المساجد، والمدارس، وخارجها، والسلاح الحاد المفعم للجماهير، الذي طالما وظفته الأحزاب الوطنية في حملات توعيتها قبل أول نوفمبر، وجاءت الثورة فعبأته لشحذ همم المجاهدين، وتمرير مختلف تعليماتها إلى الجماهير في مأمن من الأعداء الذين كانت غالبيتهم الساحقة تجهل العربية، لطول ازدرائهم بها، وتباهيهم بثقافتهم. ولم تتفطن فرنسا لطيش سياستها الثقافية هذه في الجزائر، وإحجامها عن تدريس ثقافة الجزائريين لأبنائها، إلا في خضم المواجهة الشاملة

التي تميزت بها ثورة التحرير المظفرة، حيث اتضحت مراقبتها لأنشطة الثوار، ومراسلاتهم، بينما كان بإمكان أي جزائري فهم لغتها واتقاء شرورها.

ممارسات العدو للانتقاص من شأن العربية

يبدو أن الغربيين مجبولون على الغرور، والتنكر يشيدون مفرطين، بأمجادهم، ويحقرون من شأن الآخرين، محاولين إنكار مزايا غيرهم، وفضلهم عليهم. ويزداد هذا الجحود جلاء، كلما تعلق الأمر بالعرب والمسلمين. فالحضارة الأوربية آخر الحضارات البشرية، اقتبست بصيص نورها في نهاية القرون الوسيطة، من فيض الفكر العربي من علوم، وفنون، ورقي، كانت تشع متألقة وقتها، داخل أوربا في كل من الأندلس، وصقلية، وفي بلاد الشام مقصد الجيوش الصليبية. ومازال الغربيون إلى اليوم، لا يرون في العرب إلا أقواما ترجموا دون كبير فهم، أو إثراء، أو تجديد، كنوز اليونان الفكرية، بينما العكس أقرب إلى الصواب، حيث لا يعود أقصى ذكر لليونان، وحضارتهم في التاريخ، إلى أبعد من القرن السابع قبل الميلاد، بينما يضرب تاريخ أساتذتهم، من كلدانيين، وآشوريين، وسوماريين، ومصريين، وفينيقيين، جذوره في الماضي السحيق، أي مئات القرون قبل المسيح. وهي في مجملها شعوب مشرقية ذات أصول عربية. ويزيد هذا النكران حدة، وفحشا، عندما يكون صادرا عن فرنسي منتش بنصره، في اتجاه جزائري، خانه الحظ فصار، مغلوبا على أمره.

ومعلوم أنه ما استتب الأمر للمعمرين بالجزائر، حتى أخذوا يحقرون من شأن كل ما هو جزائري، في القول، والعمل، والتقاليد، والأزياء والمحيط. فجعلوا كل ما هو عربي، يرمز إلى الكائن القبيح، الناقص، المجبول على الخنوع، غير الصالح للتطور. ومن ثم قولهم:"الطبع العربي"،"والعمل العربي"، و"الفوربي العربي" و"البقرة العربية" و"التين العربي أو البربري". ومن الطبيعي في هذا السياق، أن يضموا اللغة العربية، إلى موكب الأشياء الممقوتة، رغم أنها سر بيان القرآن وتبيينه، علمت الشعر سحره، ومكنت الخطيب من الاستحواذ على عقول ملايين السامعين وقلوبهم، تزخر بالنفائس الفكرية، وتدين الحضارة العالمية لابتكارات علمائها، ولتراجم باحثيها. ولم يرع لها المعمر أي احترام أو تقدير، فناصبها العداء وسلط عليها ضروب التهميش والإقصاء.

وشر ما عوملت به لغة الضاد في بلدنا، محاولة المحتل إلحاقها باللغات البائدة، مثل اليونانية القديمة، واللاتينية، وتعويضها باللهجات الجهوية المحلية، اعتمادا على قواعد نحوية وصرفية، ابتكرها ابتكارا، تلقن بالفرنسية، وبنفس المصطلحات الخاصة باللاتينية. فعوضوا مثلا، المنادى بـ " le vocatif » والمفعول به بـ "accusatif’ والمضاف إليه بـ "Le génitif" وبينما كانت الفصحى غائبة قانونيا من التعليم الابتدائي، فقد أجبر التلميذ الجزائري على "دراسة" اللغة العامية من خلال حصتين في

الأسبوع، توكل إلى "شيخ العربية" وكأنه لم يكن يختار غالبا لهذه المهمة، إلا لجهله قواعد التعليم، وسوء تصرفه، وشذوذ هندامه، قصد تنفير التلاميذ من لغة الضاد، وتشويه صورتها أبد الدهر في وجدانهم. ويزيد هذا الإخراج فعالية، أن نصوص دروسه، سخيفة، ركيكة، مثيرة للسخرية، وأن حصصه تأتي مباشرة بعد دروس المواد الفرنسية، الموكولة دائما، إلى معلمة غاية في الكفاءة المهنية، وعلم النفس، تشع صحة، وأناقة، مصحوبة في تجوالها داخل القسم، بفيض من الروائح العاطرة. ويلقى التلميذ نفسه هكذا، مجبرا لاشعوريا، على إجراء مقارنة بين حالتين، تخرج منها لغة الأجداد الخاسر الأكبر. وهناك، من بين كهول جيل الاستعمار، من لا يزال إلى يومنا هذا، يكن للعربية، جراء هذه الممارسات الخفية، الخبيثة، الكراهية المطلقة، ويشعها في محيطه.

مآثر اللغة العربية أثناء الاحتلال

لقد استطاع الاستعمار الفرنسي بعد طول الحظر الذي فرضه على التعليم العربي، والمجهودات الجبارة التي بذلها بشأن تعميم لغته، ونمط عيشه، في جميع مجالات الحياة اليومية، أن ينال من اللغة الوطنية، وسلامتها، وقدرة مواكبتها للمستجدات بإيجاد الأسماء المناسبة لها حين ظهورها، خاصة في كبريات المدن، ومراكز تجمع المعمرين. فصار حديث الجزائريين خليطا من المفردات الوطنية والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، تماشيا مع أصل النازحين الأوربيين، وكثافة وجودهم عبر التراب الوطني. لكن أدنى اجتهاد من المواطنين لاجتناب الدخيل من العبارات، يعيد لكلامهم أصالته، التي تشاركهم فيها شعوب العالم العربي قاطبة. فتضمن لهم تضامنهم في السراء والضراء، وهذا ما جعل العرب والمسلمين يقفون إلى جنب الشعب الجزائري طيلة حربه التحريرية ويمدونه بضروب سندهم المادي والمعنوي، والسياسي. ومن المؤكد أن حفاظ الجزائريين على شخصيتهم، ومقوماتها، وخلاصهم من مؤامرة المسخ، والفرنسة، والتنصير، وكل ضلالة ايديولوجية، يعود الفضل فيه إلى لغة القرآن، وشدة تمسكهم بها، ومدى تغلغلها في وجدانهم.

فلغة الضاد جعلها الله وسيلة مثلى لنشر الإسلام دون سواه من المعتقدات. ولقيت في الماضي كل المحاولات الرامية عندنا، إلى "جزأرة" معتقدات غريبة عن الديار، أكبر عقبة لانتشارها، في رفض اللغة العربية استيعاب رسائلها. ومن ذلك الماركسية بعد انتشارها في "الطبقة الكادحة" من أوربيي الجزائر. ولقد عجزوا عن تعريب بعض عباراتها المعبئة بالفرنسية وغيرها، للهمم، المحمسة للمناضلين، كصيغة تحيتهم عند لقاء بعضهم لبعض: "Salut camarade"، فترجمتها الحرفية "تحية يا رفيقي"، تكون ضربا من الإسفاف، لا يساوي في شيء التحية الوحيدة المعمول بها بين الجزائريين، والمسلمين، وهي "السلام عليكم

ورحمة الله يا أخي". لكن مضمون العبارة بالعربية، مفعم بالمفهوم الديني، مما يجعلها في تناقض سافر مع المادية الماركسية، وأغراضها العدوانية ضد الإسلام.

نظام التعليم المزدوج "La Médersa » والغرض منها

غير أن الدارس لوضع اللغة العربية، إبان الاحتلال، يفاجأ بوجود استثناء للقاعدة، متمثل في معاهد أنشأتها الإدارة الاستعمارية، عقودا معدودة بعد غزوها للبلاد، تشتمل برامجها على العديد من العلوم العربية الإسلامية، إلى جانب دروس بالفرنسية. وتولت هذا التعليم المزدوج ثلاث مدارس وزعت على القطر، في كل من قسنطينة شرقا، والعاصمة وسطا، وتلمسان غربا. وعرفت كل منها ب "المدرسة". « La Médersa »

يجدر التنبيه بشأن هذا التكوين الجامع بين الثقافتين، أنه لم يقرر لسواد عيون الجزائريين، أو تقديرا لثقافتهم الأصلية، لكنه جاء خدمة لمصالح المحتل، وتحقيقا لمآربه. فهو يرمي أساسا، إلى تخريج فئة من الجزائريين، تكون حلقة وصل بينه وبين الأهالي في تطبيق أحكامه فيهم، وحل القضايا التي للشريعة الإسلامية فيها دخل، سواء تعلق الأمر بالعبادات أو المعاملات، ولترجمة تعليماته، والنصوص القانونية، والوثائق الإدارية من الفرنسية، وإليها. وفيهم من يوظف في التعليم العربي بالقسط، والمناهج التي تضمن إيجاد الخلف، لتأدية نفس المهمة.

وتتموقع هذه المعاهد، في مستوى تعليمها، في منزلة بين المنزلتين،أي تجمع بين مواد تدرس عادة بالثانويات, كالبلاغة, والتاريخ، والجغرافية، والنحو، والصرف، والأداب، وأخرى خاصة بالتعليم الجامعي، كالفقه الإسلامي، والقانون الفرنسي. ورغم أن المواد العلمية من كيمياء، وطبيعة، وفيزياء، ورياضيات، منصوص عليها في البرامج، وموكول تدريسها لأساتذة فرنسيين، فهي ميدانيا، غائبة كليا، لمنع التلاميذ من مغبة الحصول على شهادة الباكالوريا والالتحاق بالجامعة.

ويميز مناهج "المدرسة" تركيزها المفرط، على الحفظ، والذاكرة، والتسليم بالمنقول، ورأي السلف، واجتنابها المنهجي لكل ما يسائل العقل، أو يشحذ الهمم، إلا نادرا وباجتهاد فردي من بعض الشيوخ، ومبادرة منهم. ومن أهم هذه الدروس الواجب حفظها على طرف اللسان، تلك الخاصة بالفقه الإسلامي والواردة في لغة صعبة التراكيب، دقيقة المعاني، من بيوع، وهبات، ووقف، ونكاح، وطلاق، وفرائض، وحج، وعمرة وزكاة. وكان الفقه مادة أساسية يدرس بكثافة، قصد تخريج أعوان بالمحاكم الشرعية المكلفة بفض القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية للمسلمين، علما أن"القبائل الكبرى"غير معنية بالشريعة الإسلامية، فقد أخضعت الإدارة سكانها منذ البداية، إلى القوانين الفرنسية، وبعدها إلى ما سمي ب " القانون البربري" المعتمد على

العرف والتقاليد. وبإمكان المتخرجين من المدارس الثلاث أن يلتحقوا عن طريق المسابقة، بمعهد الدراسات العليا الإسلامية التابع بالعاصمة، للجامعة الوحيدة في القطر.

وشهد النظام المطبق على هذه المدارس، تطورات عدة في مستوى مدة الدراسة، وعدد الطلبة، وانتماءاتهم العائلية، ومضمون البرامج، ونوعية الشهادات، ومقاصد التكوين. فبعدما كانت فترة التحصيل فيها لا تتجاوز الأربعة أعوام، فإنها صارت ستة، فسبعة، مع اتساع حق الانخراط إلى غير أبناء "الأعيان"، كما كان عليه الأمر سابقا، وتحولت هذه المؤسسات في خاتمة المطاف، إلى ثانويات بالاختصاصات الموكولة للتعليم الثانوي في ذلك الوقت، وتأهيل خريجيها للالتحاق بالتعليم الجامعي.

ويبقى السؤال مطروحا لمعرفة ما إذا حقق هذا النمط من التعليم مآرب فرنسا في تكريس وجودها، وطمس معالم الشخصية الجزائرية، أو أدى بالعكس إلى نقيض ما كانت تتوخاه منه. ونفس السؤال يطرح لمعرفة الأسباب التي جعلت الناس يتقبلونه.

والجواب أنه ما كان من الشعب، أمام إرادة المحتل القضاء الصارم على معالم الحضارة العربية الإسلامية بالجزائر، إلا محاولة استغلال كل فرصة تسمح له الحفاظ على شعرة معاوية، مع مكونات شخصيته، ويميزه عن الغزاة، ولو اتسم بالشبهة، وطابع التخلف، والسذاجة ومظاهر الفولكلور المثيرة للضحك والسخرية. ومن ذلك مثلا، تهافت العامة وقتها، على التصوف، وبعض التصرفات الشاذة كالوشم عند النساء، وحلقات الشطح عند الرجال. فما دام الاستعمار لم يكن يبدي أي احتراس من "الطرقية"، ومناهجها التقليدية في تعليم القرآن، وحلقات "تهوالها"، سارعت الجماهير إلى الانخراط في صفوفها, بحثا فيها عما بقي من دينها، ولغتها، وسلوك وتصرفات تميزهم عن الأوربي، وتؤكد رفضهم لسياسة الاندماج والفرنسة. ولا يستبعد أن يكون الناس قد قبلوا في البداية، التردد على ما سمي ب"المدرسة"، وهي من صنع الإدارة، لنفس الأغراض أي لأنها تدرس استثنائيا العلوم العربية والإسلامية.

أما إيجابيات هذا النمط من التعليم، فلا أظن أن هناك من ينكره. فقد ساهم بقسط وافر في نشر اللغة الفصحى، وتطوير التعليم العربي عامة، باعتماده مناهج استفاد منها القطاع الحر لتعليم العربية. كما أنه أحدث جوا من التنافس بين طلبته، وطلبة باقي المدارس الحرة, وخاصة منها، معهد بن باديس، والكتانية، بقسنطينة. وقد تخرج منها في مجال الدين واللغة، والنضال السياسي والعسكري شيوخ، وأساتذة وقادة من أمثال الشيخ مصطفايي، وبن زكري، ومزيان والشهداء محمد الأمين لعمودي، والعقيد لطفي، ومن مؤسسي اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وأعضاء أول مكتب له بالعاصمة: المغفور لهم الرائد أحمد تاوتي وعمارة رشيد، وصابر، ولونيس، وقد توفوا جميعا في ميدان المواجهة المسلحة. وأنشأ هذا المكتب بالذات الذي كنت فيه عضوا مكلفا بالنشاط الثقافي، حلقات دروس للغة الوطنية، ومحاضرات حول

الحضارة الإسلامية في صالح كل الطلبة المنتمين وقتها، إلى مختلف شعب جامعة العاصمة، وهذا في خضم الحرب التحريرية، وقبيل إضراب 19 مايو 56 عن الدراسة الذي تعود المبادرة فيه إلى نفس المكتب.

ولعب غداة الاستقلال، خريجو هذا التعليم المزدوج مع طلبة معهد بن باديس والزوايا، وكل مدارس التعليم الحر للعربية، دورا هاما في بعث اللغة الوطنية، وتدريسها بالجزائر، وإحياء الثقافة العربية الإسلامية، بعد غياب طال ما طال كابوس الاستعمار.

الخاتمة

يعود الفضل في دخول اللغة العربية، الديار الجزائرية، وفي جلوسها على عرش الصدارة في جميع مجالات الحياة الوطنية، الدينية منها، والاجتماعية، والثقافية، منذ الفتوحات الإسلامية، إلى تسامح سكان البلد، وصدق تبنيهم للإسلام، ولما جاءت به هذه اللغة، من قيم سامية، وتعاليم تحث على الأخوة بين المسلمين، وتفتح على الجميع خاصة إذا لقيت من شركائها، الاحترام المتبادل، وصدق التعاون. وكل صراع مفتعل بين ممثلي الثقافة الجزائرية، لا يستفيد منه إلا الأعداء، في خضم عولمة تطمح إلى القضاء على الثقافات الوطنية، وصراع حضاري جعل ضمن أولوياته النيل من الإسلام وشعوبه، وتعاليمه، قصد تكريس ثقافة الدولة العظمى، ومفهومها للديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحتى نمط سلوكها . وعلى الشعب الجزائري، أن يبذل اليوم نفس الجهود التي مكنته بالأمس من الحفاظ على دينه ومقومات شخصيته، ضد سياسة مسخ، وتغريب رهيبة، إذا هو أراد أن يكون في مستوى الرسالة الحضارية المنوطة به، والعهد الذي أخذه على نفسه إزاء لغته يوم بادر بمطالبة دول العالم الأعضاء في منظمة اليونسكو، اتخاذها لغة عمل دولية، فاستجابت له في جمعيتها العامة المنعقدة في خريف سنة 1968. ولقد لقي مشروع القرار الجزائري، مساندة المجموعة العربية برئاسة السيد ثروت عكاشة ممثل مصر، والكتلة الإفريقية التي كان يرأسها السيد مختار مباو، ممثل السينغال وقتها. وحسبي شرفا أني كنت يومها أحد أعضاء الوفد الجزائري، مع وزارة التعليم، الإخوة سراج عمر، وحميش بوزيد، والمرحوم عنابي. وستكون عملية الصمود، وشروط النجاح في إنقاذ لغة الضاد، شاقة، وتقتضي التضحية الجماعية وواجب المسلمين جميعهم، ألا يهنأوا ولا يستكينوا وأن يثقوا بأن وعد الله حق إذ قال وقوله الحق " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"

أوضاع اللغة العربية في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي (1830-1962)

أ.د. يحي بوعزيز

مكانة اللغة العربية في إطار الإسلام والقرآن:

كان العرب قبل ظهور الإسلام، بدوا، رحلا، رعاة، يتنقلون وراء الكلإ والماء، لأغنامهم ومواشيهم. والذي أعطى لهم الاعتبار وحولهم إلى شعب متحضر، ومتقدم، بلغ الذروة في كل ميدان ومجال، هو الإسلام، والقرءان، ولغة القرآن العربية، حضارة القرآن.

وكذلك الأمر بالنسبة للبربر الأمازيغ في بلدان الشمال الإفريقي من طنجة غربا على المحيط الأطلسي، إلى السلوم على حدود مصر الغربية شرقا. ومن البحر المتوسط شمالا، إلى الأهقار وتامنغست في الجنوب.

فقبل ظهور الإسلام كانوا يخضعون للاستعمار والاحتلال الأجنبي خمسة عشر قرنا كاملة (**15**). من القرن التاسع قبل ميلاد المسيح، إلى القرن السابع بعده، من طرف الفينيقيين، فالواندال، فالبيزنطيين، والذي خلصهم من ذلك الاستعمار والاحتلال الأجنبي وحولهم إلى شعب إلى شعب متحضر، بلغ الذروة في الرقي والتقدم منذ ذلك الوقت حتى اليوم. هو: الإسلام، والقرآن، ولغة القرآن، وحضارة القرآن. وأنجب علماء أجلاء أبدعوا في كل ميدان، ومجال، وفي مختلف التخصصات العلمية والفكرية والحضارية، وتجاوزت سمعتهم ومكانتهم، بلدان المغرب الإسلامي وكل بلدان القارة الإفريقية، إلى الأندلس غربا، وفرغانة بآسيا الوسطى والشرقية شرقا، وإلى أوربا شمالا.

وكانت العقيدة الإسلامية، واللغة العربية، والقرآن، وحضارة القرآن، هي الإسمنت الذي جمع شتات كل قبائل وأعراش البربر الأمازيغ، ووحدهم على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ، وجعلهم شعبا موحدا ومنسجما، وقويا، ومبدعا كذلك. ولابد هنا من التذكير لمن نسي أو تناسى، بأن البربر الأمازيغ من أصول

عربية هاجروا من اليمن في جنوب شبه جزيرة العرب، إلى بلدان الشمال الإفريقي منذ عصور التاريخ القديمة. ولذلك فإنه بمجرد وصول الإسلام والعقيدة الإسلامية إلى بلدان الشمال الإفريقي على أيدي العرب المسلمين الفاتحين، خلال القرنيين: الأول الهجري، والسابع الميلادي، آمن بهما البربر الأمازيغ بسرعة، واندمجوا مع أبناء عمومتهم العرب الفاتحين المسلمين بكل سهولة ويسر فاعتنقوا الإسلام عن طواعية واقتناع، وتعلموا العربية، التي أصبحت منذ ذلك الوقت لغتهم التي يتعاملون بها، ويبدعون في كل ميدان ومجال، حضاري، وتحولت اللهجات البربرية إلى لهجات محلية فقط للتعامل المحلي كما هي اليوم، وأصبحت اللغة العربية هي لسان الجميع، ولغة الجميع دينيا، وعلميا، وفكريا، وحضاريا أبدعوا بها في كل مجالات الحضارة على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فماذا فعله الاستعمار الفرنسي (1830-1954)

وعندما ابتليت الجزائر والشعب الجزائري بالاستعمار والاحتلال الفرنسي الأوروبي المسيحي النصراني، الصليبي الحاقد، ابتداء من عام 1830، سعى هذا الاستعمار الماكر، والخبيث أول سعى، للقضاء على الإسلام كعقيدة دينية، والعربية كلغة للشعب الجزائري، وإحلال المسيحية، والفرنسية محلهما وبدلهما، وبذل كل ما يستطيع، وسخر كل إمكاناته المادية، ووسائله، لتحقيق ذلك، فهدم المساجد وبنى الكنائس، وحارب اللغة العربية، وسعى لنشر الفرنسية بدلها.

وفي هذا الإطار أهان الاستعمار الفرنسي الإسلام والعقيدة الإسلامية بأشكال ووسائل متنوعة. فهدم أغلب المساجد، وحول الكثير منها إلى كنائس واصطبلات، ومتاجر، ومستوصفات، وبذل كل ما في وسعه لنشر المسيحية النصرانية، ومنح لليهود الصهاينة الجنسية الفرنسية بصفة جماعية عام 1870 حتى يرفع أعداد العنصر الفرنسي الأوروبي المسيحي، ويغلبه على العنصر الجزائري المسلم.

وحارب اللغة العربية، واعتبرها لغة أجنبية في بلادها ووطنها، بواسطة قرارات جائرة، أصدرتها إدارته الاستعمارية، ومنع تدريسها في المدارس والمعاهد، وحارب حامليها من العلماء، والفقهاء، والمعلمين والأساتذة، والشيوخ، ووضع حواجز وعوائق كبرى أمامها، وأمامهم، وبالمقابل لم يسمح للجزائريين بتعلم لغته الفرنسية حتى يبقيهم جهلاء أميين، ويمنعهم من التقدم والتطور إلى الأمام. وكان من ضمن أهدافه الأساسية الخسيسة، والخبيثة واللئيمة، تحقيق فصل الجزائر والشعب الجزائري فصلا تاما عن بلدان وشعوب المغرب الإسلامي والشعوب العربية الإسلامية في المشرق، التي يرتبط معها بأواصر القربى، والدين، واللغة، والفكر، والتاريخ، والحضارة.؟

وما هو رد فعل الشعب الجزائري

ولم يقف الشعب الجزائري مكتوف الأيدي في هذا الميدان، ولم يتوان عن المعارضة، والمقاومة، بكل الوسائل، والسبل، والأشكال، والأساليب، المختلفة، فأعلن تمسكه الشديد بهويته الوطنية الدينية، واللغوية، والحضارية، العربية الإسلامية، وقاوم وحارب سياسة الفرنسة سياسة والتنصير والتمسيح، وتمسك بدينه الإسلامي الحنيف، وحماه ودافع عليه، وتمسك بلغته العربية، لغة الإسلام والقرآن وحضارة القرآن. فبنى المساجد والمدارس، والكتاتيب، القرآنية، والمعمرات. وشجع تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية، وعلومها، ومعارفها المختلفة الراقية، للأجيال الجزائرية الصاعدة، المؤمنة والمسلمة: وذلك بشكل مكثف وبحماس متقطع النظير، وأرسل الكثير منهم إلى معاهد القرويين، والزيتونة، والأزهر، للتعلم، والتثقيف بالعربية وعلومها ومعارفها المختلفة ورفض بإضرار، كل محاولات الاستعمار من أجل تنصيره، وتمسيحه عقائديا، وفرنسته لغويا وفكريا، وحضاريا، وأبدى من الشجاعة والبطولة في هذا الميدان ما لا نظير له لدى غيره من الشعوب التي ابتليت مثله بالاستعمار الأوربي المسيحي النصراني. وهو ما أدهش السلطات الاستعمارية الفرنسية نفسها وأربكها، وأفشلها في النهاية على أي حال.

ففي القرن التاسع عشر اهتم الشعب الجزائري بإنشاء وتأسيس دور العلم والمعرفة من مدارس، ومعاهد، ومساجد جامعة، وزوايا، وتطوع المعلمون، والمدرسون، والعلماء، والفقهاء، والأئمة، والشيوخ، للتعليم، والتثقيف، للأجيال الجزائرية الصاعدة، بشكل مكثف وبحماس كبير، ومتواصل، للعربية، وعلومها ومعارفها المختلفة في هذه المؤسسات التربوية، وفشلت كل محاولات الاستعمار في إفشال ذلك، وإنجاح عمليات التماسيح والنصير والفرنسة، رغم كل ما استعمله من إمكانات ومثبطات وعوائق كثيرة، وقاسية ورهيبة.

وفي القرن العشرين، تطور هذا التعليم العربي، وتقدم، وتوسع أكثر، بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 بقيادة الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، والعقبي، وغيرهم، الذين حددوا سياستها، ومشاريعها، في التربية والتعليم، ونشرهما بين الأجيال الجزائرية الصاعدة، وحماية هوية الشعب الجزائري الوطنية الدينية، واللغوية، والثقافية، والحضارية، وأسسوا مئات المدارس، وحشدوا إليها آلاف التلاميذ والطلاب، للتعلم والدراسة، وكونوا مئات المعلمين لممارسة التعليم والتدريس. وتطور هذا الجهد، وتوسع، وعم كل أطراف البلاد ما بين الحربين العالميتين، وإلى غاية اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954، فاستعادت العربية مكانتها

رغم أنف الاستعمار خاصة بعد أن كثر إرسال البعثات الطلابية الجزائرية إلى الزيتونة والأزهر، والقرويين، وكل المعاهد، والجامعات العربية، في مصر وبلاد الشام، والعراق.

الإنجازات الكبرى لجمعية العلماء:

ويكفى فخرا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إنشاؤها لمدارس التربية والتعليم في كل أنحاء الجزائر ومعهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة واستقطابها لآلاف التلاميذ والطلاب الجزائريين وترسيخ العقيدة الإسلامية واللغة العربية ومعارفها المختلفة والراقية في نفوس كل الجزائريين دون استثناء، والمحافظة على الإسلام ومبادئه كعقيدة دينية للشعب الجزائري على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، وذلك بشكل إيجابي فعال يدركه الجميع، وما تزال آثاره حتى اليوم في مطلع الألفية الثالثة.

كما يكفى فخرا لجمعية العلماء شعارها الخالد:

" الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "

والأبيات الشعرية التالية للشيخ عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجا لـه رام المحال من الطلب

يا نشئ أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

إن دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في محاربة سياسة الفرنسية والتنصير والتمسح، والدفاع عن الإسلام والقرآن، ونشر التعليم العربي باللغة العربية الوطنية، بشكل مكثف، ليس له مثيل في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، وحقق نتائج مهمة، ورائعة، وباهرة، أهمها إبراز الوجه العربي الإسلامي للجزائر والشعب الجزائري، بشكل كبير ورائع، أفشل كل محاولات الاستعمار، وأذنابه، وغرس الهوية الوطنية الجزائرية، العربية الإسلامية في أعماق كل الجزائريين دون استثناء مما ساعد مجاهدي ثورة أول نوفمبر 1954 على تبنى فكرة الجهاد والاستشهاد، وافتتاح المعارك باسم الجلالة! "الله أكبر " التي ساعدتهم على الفوز بالنجاح وطرد الاستعمار شر طردة عام 1962 م وإلى الأبد.

دور الأحزاب السياسة والطرق الصوفية

وحتى الأحزاب السياسية الجزائرية شاركت في مقاومة سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح، خاصة التيار الاستقلالي بدءا بحزب نجم شمال أفريقيا، عام 1926، ومرورا بحزب الشعب الجزائري عام 1937، وحزب حركة الانتصار عام 1946 إلى عام 1954م. لقد حارب التيار الاستقلالي فكرة وسياسة الفرنسة

والتنصير والتمسيح، والإدماج، وقاومها، وطالب صراحة وبكل وضوح باستقلال الجزائر والشعب الجزائري في إطار هويته الوطنية الدينية واللغوية والحضارية المتمثلة في الإسلام عقيدة، والعربية لغة وحضارة. وكذلك الأمر بالنسبة لشيوخ الطرق والزوايا الدينية الصوفية فإنهم كافحوا وناضلوا فيما يخص تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية، والعلوم والمعارف الدينية، واللغوية، والفقهية والتشريعية، وسخروا كل إمكاناتهم من أجل ترسيخ اللغة العربية لغة القرآن وحضارة القرآن، في أوساط الشعب الجزائري وأجياله الصاعدة، بكل ما كان لديهم من إمكانات حتى ولو لم تتوفر لديهم الطرق والمناهج البيداغوجية المطلوبة.

هكذا يتضح أن الشعب الجزائري خلال عهد الاحتلال الفرنسي، تمسك غاية التمسك بدينه الإسلامي، ولغته العربية، بشكل فعال وإيجابي، وأفشل كل محاولات الاستعمار من أجل تمسيحه عقائديا، وتنصيره وفرنسته لغويا، وثبت كالطود الشامخ أمامها وأفشلها وقضى على الاستعمار والاحتلال من اصله في النهاية وانتهى إلى الخاتمة الحسنة خلال ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954–1962م. وأثبت للعالم أجمع أنه شعب أصيل لا تنال منه مثل هذه النكبات والمؤامرات، والضربات الاستعمارية مهما كانت قاسية وجارحة وخطيرة.

وبسبب هذه المقاومة، وهذا الصمود، والنجاح، في حماية هوية الشعب الجزائرية الدينية واللغوية، لم تجد الدولة الجزائرية العائدة عام 1962، صعوبة كبيرة في وضع المنظومة التربوية الوطنية الجزائرية العربية الإسلامية، لأن الشعب الجزائري كان مهيئا غاية التهيئ لذلك، ولإبراز هويته الوطنية الدينية، واللغوية، والحضارية فنص، دستورها على أن دين الشعب الجزائري هو الإسلام، وأن لغته الوطنية هي العربية، لغة القرآن وحضارة القرآن، فعادت الأمور إلى نصابها، وإلى ما كانت عليه قبل عام 1830. وتلك هي عظمة هذا الشعب الجزائري المكافح والمناضل، والمجاهد، والحمد لله والشكر له أولا، وللشهداء والمجاهدين، والمناضلين ثانيا، والحمد لله والشكر له كذلك على حسن هذه الخاتمة الحسنة والسلام.

وضع اللغة العربية في عهد الاحتلال

د. أحمد بن نعمان

إذا كان للاحتلال الفرنسي خصائص ومميزات تجعله ينفرد بها عما سواه من الغزاة والمحتلين في المشرق والمغرب العربيين، فإن أوضح ما تتجلى فيه هذه الصفات والبصمات وتلك الطرق والأساليب المبتكرة والملتوية في "**الإبادة الثقافية**" والاستحواذ على المقدرات المادية والمعنوية للوطن والأمة... هو ما طبقه في الجزائر التي تميز فيها عن غيره معها ومع غيرها من البلدان التي احتلتها بعدها سنة 1830.

ومن أبرز تلك الأساليب المطبقة والمتبعة في الجزائر مع شعبها هو استهداف العقول بعد الحقول، واستهداف جوهر الإنسان لتدميره من الداخل بتعويض أو تقويض بنيانه وتذويب كيانه وتغيير لسانه وغزو فؤاده، وحقنه بأمصال (ثقافية ولغوية ودينية) من غير فصيلته الأصلية النقية !

فكان التناقض وكان الصراع وساد الرفض والامتناع عن تقبل الجسم الدخيل، وسقطت الضحايا في معركة الدفاع ضد التغريب والتذويب الشخصاني للكيان القرآني في ثقافة وهوية الصليب الغريب أو الربيب النصراني... !

ذلك هو موضوع هذه الدراسة المطولة، الموثقة والمفصلة حسب مراحل وتطورات القضية المتعلقة باللغة العربية في هذا البلد ومحاولة القضاء عليها بكل الوسائل لصمودها كأقوى محصن للهوية الوطنية ضد عمليات المسخ والنسخ والفرنسة والتنصير على امتداد السنوات الطوال من الاستبداد والاحتلال، والصراع والدفاع، والاستئصال والاستحلال ! !

أولا: وضع اللغة العربية قُبَيْلَ الاحتلال الفرنسي

لقد بدأ انتشار اللغة العربية في الجزائر مع مطلع الفتح الاسلامي كما هو معلوم، وتعربت البلاد دون أن تجد اللغة العربية أي عائق يحول دون انتشارها كلغة دين وعلم وثقافة، كما لم يحدث خلال التاريخ الاسلامي للجزائر أن تقلص ظل اللغة العربية من أية منطقة دخلها اللسان العربي، وحتى عندما انضوت

البلاد تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر، فإن الوضع الجديد لم يؤثر على اللغة العربية، حيث بقيت هي السائدة كلغة دين وعلم وثقافة، كما بقيت جميع المؤسسات التعليمية العربية قائمة، يدرس فيها الدين والعلوم باللغة العربية وحدها كما كان الحال منذ قرون !

وعن عدم تحكم الدولة العثمانية في هذه المؤسسات التعليمية، يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "..وتشهد كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني أن التعليم كان منتشرا، وأن كل جزائري تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة، وقد كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين.."[(1)] وبهذا نرى أن اللغة العربية بقيت منتشرة في الجزائر. وبقيت المعاهد والمدارس والزوايا تزخر بالطلاب، والأساتذة الجزائريين. وقد استمر ازدهار تلك المؤسسات المنيرة حتى أطفأها ظلام الاحتلال الفرنسي سنة (1830) كما سنبين لاحقا.

وعن وضعية التعليم في الجزائر والذي كان باللغة العربية وحدها قبل الاحتلال،كما قلنا، يقول الدكتور صديق تاوتي: "إن ما يعد من قبيل المسلم به لدى العديد من المؤرخين هو أن جل الجزائريين كانوا يعرفون القراءة والكتابة. فميشال هابارت (Michel HABART) يقول بوجود (100) مدرسة في مدينة الجزائر، و 85 مدرسة في قسنطينة، و50 مدرسة في تلمسان، كما يذكر وجود عشر جامعات عبر أرجاء التراب الوطني عام 1830"[(2)].

ويؤكد هذه الحقيقة أيضا مصطفى الأشرف بقوله:" قد صرح أحد الجنرالات الفرنسيين يوم 1934/01/20، أمام غرفة النواب: بأن كل العرب بالتقريب يعرفون القراءة والكتابة."[(3)].

كما تؤكدها المؤرخة الفرنسية ايفون توران (Y.TURIN) في نقلها عن العديد من ضباط الجيش الفرنسي بأن التعليم العام كان منتشرا على نحو واسع، وبأن معظم القبائل في الريف والأحياء في المدن كان لها معلموها قبل الاحتلال الفرنسي، وقدم أحد هؤلاء الضباط ويدعى لاموريسيار (LAMORICIEURE) في تقرير له بعض المعلومات عن الوضعية التعليمية السابقة للغزو حيث يقول:" في مقاطعة تلمسان وحدها، كان يوجد بالمدينة ثلاثة معاهد، و خمسون مدرسة لأثني عشر أو أربعة عشر ألف نسمة، و في الريف كانت توجد ثلاثون زاوية متفاوتة من حيث الشهرة لحوالي مائة وخمسة وعشرين ألف نسمة، وكان بكل دوار مدرسة.

وكان يتلقى ألفا (2000) تلميذ تعليما ثانويا، وست مائة (600) تلميذ يواصلون تعليمهم العالي. وكانت كل مؤسسة من هذه المؤسسات تمتلك مكتبتها الخاصة "[(4)].

كما تضيف المؤرخة في مكان آخر شهادة أدلى بها كاريت (Carette) (والي بجاية) حيث سرد الوقائع التالية: " طلب أهالي بجاية مقابلتي وعند استقبالهم لم يشتكوا لي لا من حجز ممتلكاتهم ولا من بؤسهم الشديد، بل قالوا: «**أصلحوا لنا مسجدنا وامنحونا مدرسة لائقة، وادفعوا أي راتب لمعلمها حيث يتعذر علينا دفعه، هذا كل ما نطلبه منكم " لقد تأثرت أيما تأثر بوجود مثل هذه التضحية و الايثار الى جانب عوز وفاقة شديدين بمثل هذه الحدة. ووعدهم بأن أتوسط لهم بقوة نظرا لمشروعية تلك الرغبات**"[5]

وهذا يدل على استمرار تمسك الجزائريين في كل أنحاء الوطن بطلب العلم باللغة العربية الذي يعتبرونه فرض عين في ثقافتهم العربية الإسلامية التي تقضي بأن " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، هذه الثقافة التي تشربوها خلفا عن سلف منذ اعتناقهم الجماعي للإسلام في القرن السابع الميلادي وتعربهم تبعا لذلك، باستبدالهم لغة القرآن الكريم بلغة الطليان والبيزنطيين المحتلين ! وهذا ما يؤكده و. ماركي (W.Marcais) حيث يقول:" في القرن السابع للميلاد انفصل البربر عن الغرب ليتصلوا بالشرق بصفة كاملة وبلا رجعة، ويبدو أن ذلك تم دون نزاع داخلي أو أزمة ضمير. وقد استطاع الحكام الجدد، العرب فيما بعد، أن يتخلوا ممارسة الحكم عليه، بعدما تمكنوا من تعريبه تعريبا كاملا بحيث يمكننا اليوم ان نعتبر بلاد المغرب في مجموعه جزءا أساسيا ومتأصلا في العروبة "[6]

إن هذه الشهادات القليلة كافية للدلالة على أن التعليم كان منتشرا بشكل واسع وباللغة العربية وحدها، وبأن الجزائر قبل 1830 لم تشك من أي نوع من التأخر في مجال تربية أبنائها وتعليمهم بلغتهم الوطنية كما هو شأن جميع الدول ذات السيادة في ذلك الوقت.

ويؤكد هذا المعنى المؤرخ الفرنسي بولارد (Poulard) حيث يقول: « كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن في الفلسفة والآداب والعلوم والطب وقواعد اللغة والقانون الاسلامي وعلم الفلك..كل هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين كما كانت هناك مدارس عديدة مخصصة لتعليم القضاء الشرعي والعلمي. وكان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين من خريجي تلك المعاهد..إلى أن يقول: ولقد أحدث وجود الفرنسيين اضطرابا بالغا بين هؤلاء المفكرين والأدباء واضطر معظم العلماء والفقهاء الى ترك وظائفهم، كما شتت شمل التلاميذ الذين اضطروا الى السعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتعلمونه قي حرية كاملة "[7].

واذا علمنا أن التعليم كله كان باللغة العربية، كما هو ثابت، عرفنا مدى انتشارها في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي كلغة وطنية ورسمية، وتدل على ذلك المعاهدات التي أبرمت بين الجزائريين وقادة الاحتلال الفرنسي حيث كتبت كلها باللغتين العربية والفرنسية (وليس التركية)[8]. كما كانت العربية هي

اللغة الرسمية المستعملة خلال حكم الأمير عبد القادر في المناطق التابعة لدولته التي استمرت حوالي 17سنة بعد الاحتلال، فضلا عن أن الأمير نفسه كان شاعرا وأديبا دون أن يتلقى أي تعليم خارج بلدته الصغيرة في ناحية معسكر، وهذا يؤكد انتشار وازدهار اللغة العربية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي الذي شن حربا شعواء على اللغة العربية بعد ذلك بكيفية قل نظيرها في كافة المستعمرات الأخرى في التاريخ المعاصر كما سنبين لاحقا، وقد فعلت ذلك بكيفية متوازية مع محاولة فرض لغتها القومية بمجرد تمكنها من بسط سيطرتها على بعض المناطق من البلاد ورفع علمها على مباني إدارتها.

ثانيا: فرض اللغة الفرنسية على الشعب الجزائري

لقد ظلت فرنسا طوال احتلالها للجزائر تعمل بجد وتسخر كل إمكانياتها المادية والمعنوية من أجل جعل الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضا ولغة وثقافة ودينا، وقد انتهج قادة الاحتلال لذلك سياسة الفرنسة وهي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع مجالات الحياة حتى يصبح المجتمع الجزائري فرنسي اللسان والثقافة، وينقطع بذلك عن تاريخه، ويفقد مقومات شخصيته الوطنية والقومية تدريجيا، ويذوب في بوتقة الأمة الفرنسية. على اعتبار أن اللغة هي أساس الهوية وروح القومية في كل شعب ولا زوال لأي شعب في الدنيا إذا بقي متمسكا بلغته، ولا بقاء له كشعب موحد الهوية والكيان إذا زالت لغته القومية من حياته اليومية. فاللغة هي الهوية واللغة هي الجنسية، كما تعتبر اللغة أيضا من أهم مظاهر السيادة في كل دولة عصرية. ولذلك جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال" إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة (مملكة فرنسية) الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الذي يترتب علينا انجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي الى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن"[9]، وهكذا شرعت الادارة الاستعمارية في تطبيق سياسة الفرنسة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية مبتدئة بمجال التعليم. وعن فرنسة التعليم يقول المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني " كان التعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماريا بحتا لا يعترف باللغة العربية ولا يقيم لوجودها أي حساب.التدريس في جميع مراحل التعليم"[10].

فقد كان التعليم كله باللغة الفرنسية – إذن – بقصد تنشئة أفراد المجتمع الجزائري على اللغة الفرنسية وحدها، أملاً في أن يتأثروا بها ويندمجوا في ثقافتها مثل الفرنسيين في فرنسا، ولذلك لم تكتف الادارة الاستعمارية بفرض اللغة الفرنسية و حدها في التعليم الرسمي في الجزائر فحسب، بل كانت تطلب من الأعيان الجزائريين أن يرسلوا بأبنائهم الى فرنسا ليتعلموا اللغة الفرنسية، وعن ذلك يقول المؤرخ الجزائري حمدان بن عثمان خوجة الذي عاصر كل أحداث الغزو الفرنسي:"... وبهذه المناسبة جمع السيد (كادي دوفو) المجلس البلدي، وكنت عضوا فيه.. لتهنئة الجنرال (كلوزيل) بالعودة سالما، وعلى أثر الزيارة

أخبرنا بالتقارير التي وصلته، وقال بأنه عملا على راحته وللتدليل على الثقة للحكومة الفرنسية، يجب أن نجمع على الأقل (50 طفلا) من أبناء الأعيان يبعثون الى فرنسا ليتعلموا اللغة... أيد شيخ البلدية هذا الطلب واقترح أن يشرع في تنفيذه وقال: أن رفض ارسال الأطفال الى فرنسا يعتبر خروجا عن طاعة الفرنسيين، والذي لا يريد الامتثال الى هذا الإجراء يجب أن يخرج من مدينة الجزائر"[11].

وكان الهدف من المطالبة بإرسال الأطفال الى فرنسا هو الإمعان في تكوين نخبة من الجزائريين الذين يتعلمون باللغة الفرنسية حسب خطط مرسومة، بعيدين عن بيئتهم اللغوية والثقافية.. فيعودون الى أهلهم مفرنسين فرنسة كاملة فيعملون على نشر اللغة الفرنسية وترسيخ أقدام الاستعمار في البلاد ووضع النواة الأولى لأجيال الاستحلال الفرنسي في الجزائر!.

وزيادة على جعل التعليم باللغة الفرنسية، ومحاولة تكوين النخبة المفرنسة من الجزائريين الذي يساعدون على نشر اللغة الفرنسية بين أهليهم، كما قلنا،.. فرضت اللغة الفرنسية في الإدارة والمحيط الاجتماعي وأجهزة الإعلام فرضا بكل وسائل الترغيب والترهيب، فأصبحت الفرنسية هي اللغة الرسمية في الإدارة وفرضت على المدن والمؤسسات أسماء جديدة لقادة الاحتلال من أمثال (بيجو) و(كلوزيل) و(لافيجري) ولأعلام الفكر والأدب الفرنسي مثل (ديكارت) و (فكتور هيجو) و (لامارتين).. وكانت تهدف سياسة الفرنسة من وراء ذلك كله إلى جعل البيئة الثقافية الجزائرية قطعة من البيئة الثقافية الفرنسية حتى يكون لفرنسة التعليم سند من فرنسة الإدارة والمحيط الاجتماعي، لأن فرنسة التعليم بدون فرنسة الإدارة والمحيط عديمة الجدوى، كما أن فرنسة المحيط والإدارة بدون فرنسة التعليم أيضا لا تؤدي الغرض المطلوب من سياسة الفرنسة الكاملة للمجتمع الجزائري، وهي الغاية القصوى التي كانت تهدف الى تحقيقها الادارة الفرنسية لتحقيقها من وراء كل تلك المحاولات والإجراءات التعسفية. ونذكر من القرارات التي أصدرتها السلطات الفرنسية لفرنسة الإدارة الجزائرية، قرار 1849 الذي يقول نصه " إن لغتنا هي اللغة الحاكمة.. فان قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة. وبهذه اللغة وحدها يجب أن تكتب جميع العقود وليس لنا أن نتنازل،عن حقوق لغتنا. فان أهم الأمور التي ينبغي أن يعتنى بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم الينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين"[12].

وعن وضعية التعليم خلال السنوات الأولى للاحتلال يقول الدكتور صديق تاوتي:" اهتمت السلطات الجديدة منذ البداية بقضية التعليم، غير أن الجميع يعلم بأن غزو البلاد لم يكد أمرا هينا، إذ أن جيوش الاحتلال قضت حوالي نصف قرن لإخضاع الأهالي للسلطة الفرنسية. إن " حالة الاحتلال" كانت في

نظر البعض تجعل من إنشاء المدارس أمرا سابقا لأوانه، بينما كان يرى البعض الآخر " ضرورة البدء في حل مشكل اللغات قبل التفكير في التعليم".

ويبدو في نظر الجميع بأن أول أمر كان يمكن القيام به هو تعليم الفرنسية للعرب والعربية للأوروبيين، وكان الكثير من هؤلاء المسؤولين يعتقد أن الصيغة الأولى أنسب من الثانية. وكانت المعجزة الحقة التي ينبغي إنجازها تكمن لدى البعض في احلال اللغة الفرنسية محل العربية بالتدريج، هذه الفرنسية التي راهنوا على سرعة انتشارها في أوساط السكان الأصليين. غير أن هذا الرهان سرعان ما خيب آمال أصحابه كما تثبت ذلك إيفون توران بقولها: " إذا كانت دراسة اللغة العربية تعد بالنسبة للعرب وسيلة للوصول الى كل شيء، فسينكبون عليها وحدها ويعزفون عن اللغة الفرنسية التي لا يظهرون إزاءها إلا ميلا قليلا. وقد يكون من الأنسب، على الأقل لتشجيع تدريس لغتنا، أن نجعل العرب يعتبرونها الوسيلة الوحيدة للنمو والرقي"(13).

أ – هدم المدرسة العربية:

وأمام هذا الوضع ما كان على سلطات الاحتلال الا أن تعمل على تقليص تعليم العربية من خلال هدم المؤسسات القديمة القائمة، وهذه بعض الأمثلة الواردة في كتاب (إيفون توران) حيث تقول: "أن في "بون" (عنابة) تبدو الكارثة أكبر بكثير، فقبل وصول الفرنسيين كانت توجد 39 مؤسسة للتعليم العمومي، وزاويتان اثنتان و37 مسجدا. ولم يبق في هذه المدينة إلا ثلاث مدارس فقط من 39 مدرسة"(14).

ودائما حسب نفس الباحثة، فإن عدد المدارس في قسنطينة تقلص من 90 مدرسة أي 30 فقط(15) وعلاوة على هدم وسائل التكوين راحت سلطات الاحتلال تطارد رجال التعليم بلا هوادة للقضاء على نشاط المؤسسات التعليمية الموجودة والتي كانت في نظرها تنشر إيديولوجية وطنية مناهضة لمصالح الاستعمار(16).

وهو ما يؤكده المؤرخ موريس فاهل (Maurice WAHIL) وهو أحد غلاة الاحتلال المتحمسين للاشعاع الثقافي الفرنسي في الجزائر حيث يقول: " لقد شرعنا بادئ ذي بدء في هدم كل المساجد تقريبا (وهي المدارس الابتدائية)، والزوايا (الريفية)، والمدارس (الثانوية)، وبعض المدارس الاسلامية الأخرى الموجودة قبل 1830، وبعدها انهمكنا في إجراء تجارب ارتجالية لم تنجر عنها سوى نتائج هزيلة وأحيانا سلبية "(17).

ويذهب ش.ر. أجيرون الى ابعد من ذلك حيث يقول:" لم يفلح ما يسمى بسياسة الادماج إلا في القضاء على التعليم الإسلامي والحد من انتشار التعليم الفرنسي"(18).

ب – إنشاء المدرسة الاستعمارية:

إن الحاكمين بأمرهم في الجزائر لم يكونوا كلهم على اتفاق بشأن التعليم الذي ينبغي أن يعطى للسكان الأصليين. وحتى بعد 1900 فإن المستعمرين (الكولون) كانوا يعتقدون بأن التعليم الاجباري للفرنسية قد يعطل ايجاد حل للقضية الجزائرية بدل أن يعجل به[19].

وكان مدير رابطة التعليم يقول: " ما دام تعليم السكان الأصليين يعد مهمة سياسية بدلا من أن يكون مهمة تعليمية فإنه من الأليق والأنسب، إذا ما أردنا أن يكون السكان الأصليون مطيعين دون تردد، إحداث تعليم خاص لا يوكل بمقتضاه الأطفال الى مدرسين حائزين على جميع أنواع الشهادات، بل الى ممرنين من الأهالي تكون مدارسهم عبارة عن أكواخ تتراوح قيمتها بين 150و200 فرنكا على أكثر تقدير "[20].

وبخصوص المدارس– الأكواخ – فإن الأمر كان يتعلق – على حد تعبير ف. كولونا (F.COLONNA) "بتوفير التعليم بسرعة وبأقل تكلفة للكثير من الأطفال وذلك عن طريق تلقين تعليم بدائي زهيد في مدارس تتألف من قسم واحد، مبنية على شكل نموذج المدارس القرآنية، وذلك بواسطة ممرنين لا يملكون إلا شهادة التعليم الابتدائي. وقد تم فتح 214 مدرسة ملحقة من سنة 1908الى سنة1914 وهو تاريخ انتهاء التجربة بفشل ذريع "[21]

1– رفض المدرسة الاستعمارية:

يقول الدكتور تاوتي: "إذا أردنا ضبط الأمر، نلاحظ بأنه من الصعب إنشاء مدرسة جديدة تحل محل المدرسة التي هدمت، خاصة وأنه ينبغي استعمال لغة أخرى غير لغة السكان الأصليين الذين سيظلون – فضلا عن ذلك – يتمردون على هذا التعليم الذي يبدو لهم مشكوكا فيه على أكثر من صعيد. إن لغة المحتل هي لغة الكافر ولغة الذي يحارب الدين الإسلامي ويخرب بيوت العبادة والمساجد.

وإذا كان البعض لا يستطيعون الرضوخ للسيطرة، فمان البعض الآخر كانوا يخشون الذوبان ولم يكونوا يطيقون تعلم لغة أخرى غير لغة القرآن."[22]

وقد نقلت (ف. كولونا) عن كتاب "مائة ديوان وديوان " المذكور في "عمل فرنسا في الجزائر كما يراه السكان الأصليون "(نشرية جمعية الجغرافيا بالجزائر، 1910، ص. 176) ما نصه:"إن هذا الحكم يهدف إلى وضع حد لدراسة القرآن في مدارسنا بهدف فصلنا شيئا فشيئا عن ديننا، ويتفنن في بذل المجهودات لتلقين اللغة الفرنسية لأبنائنا ليجعلهم مرتدين. كما يسعى جادا إلى تطبيق هذا المرسوم (مرسوم 1892). وسيعرف كيف يضيق على معلمي المدارس القرآنية لإرغامهم على إنهاء دروسهم وقت بدء دروس المدرسة الفرنسية. ما هي المناورات التي لم يلجأوا اليها للحد من تعلّم القرآن. فكل سنة كانت هناك

تهديدات جديدة موجهة للمعلمين "[23].

غير أن كل تلك المحاولات والاستمالات والأساليب المختلفة التي توختها الإدارة الاستعمارية لتذويب المجتمع الجزائري في بوتقة وهوية الأمة الفرنسية.. لم تأت بالنتائج المتناسبة مع الجهود التي بذلت من أجلها. وكان الحائل الأكبر دون تحقيق الفرنسة بالكيفية التي رامها قادة الاحتلال هو الاختلاف الجذري في العقيدة الدينية، وما نتج عن ذلك من اختلاف ثقافي وحضاري جعل من المجتمع الفرنسي والمجتمع الجزائري نقيضين حقيقيين يفرقهما كل شئ، وقد عبر عن هذا التناقض الإمام عبد الحميد بن باديس بقوله الشهير: " لو وضع لحم مواطن جزائري ولحم مواطن فرنسي داخل قدر واحد لطار أحدهما وبقى الآخر!" ولم يخف على الإدراة الاستعمارية هذا الاختلاف الجوهري الذي بقي كالجدار الحديدي في وجه الفرنسة فأخذت تخطط للقضاء على هذا "العائق" وانتهجت الادارة الفرنسية لذلك ثلاث سياسات هي:

أ) . محاولة التفرقة بين أهالي المناطق المختلفة داخل الوطن على أساس اللهجات والاعراق الوهمية..

ونشطت الأبحاث والدراسات الأنثروبولوجية (بتوجيه من الادراة الاستعمارية) لمحاولة اثبات الفوارق العرقية والثقافية بين من كانت تدعى أنهم البربر (وهم الناطقون محليا باحدى اللهجات البربرية) والعرب (وهم الناطقون بالعربية) وكانت فرنسا تدعي أنها وريثة الحضارة ة اللاتينية التي شيدها الرومان في شمال أفريقيا و"اغتصبها" العرب الفاتحون..وما فتئت طوال عهد الاحتلال تسعى للتفرقة *بين الأهالي* واستعداء بعضهم على بعض، حتى تنجح سياسة الفرنسة بين من كانت تدعي أنهم من أبناء عمومتها أحفاد القديس أغسطين، وبالرغم من أن فرنسة هؤلاء الذين تسميهم بالبربر لا تمثل أي وزن ديمغرافيّ بالنسبة لمجموع السكان، الا أنها تعتبر جزءاً من الخطة الشاملة المرسومة للفرنسة الكلية، كما تعتبر عاملا قويا لتفتيت وحدة المجتمع. وتفننا في أساليب التفرقة والشقاق أحدثت الادراة الفرنسية قناة إذاعية للإرسال باحدى اللهجات البربرية، (هي لهجة بلاد القبائل الكبرى) وهي المنطقة التي كان يراهن قادة الاحتلال على أنها ستتفرنس وتنطلق منها شرارة البعث الفرنسي الموعود لوصل الأحفاد بالأجداد (الرومان)، وقد أولاها اهتماما خاصّا دون المناطق الأخرى التي توجد بها أقليات تستعمل إحدى اللهجات البربرية (الأمازيغية) في الحياة اليومية على الصعيد الشفهي سواء في بلاد ميزاب والتوارق في الجنوب، أم الأوراس في الشرق، أم الرقيبات في الغرب.. وفي هذا الخصوص يقول ساطع الحصري "زعم رجال الحكم وصناديد الاستعمار أن البربر لم يكونوا مسلمين تماما، ولذلك لم يكن من العسير تفريقهم عن العرب ثم استمالتهم إلى فرنسا، ولهذا السبب أكثرت فرنسا من انشاء المدارس في المناطق المسكونة بمن تسميهم البربر.. غير أنها منعت فيها التكلم بغير اللغة الفرنسية "[24].

ولكن وغم كل هذه الجهود المتواصلة من طرف الإدراة الفرنسية لتحقيق هذا الهدف فلم تظفر إلا بالقليل طيلة عهد الاحتلال الذي دام قرنا وثلث قرن، ولم يتزحزح أثناء كل تلك الفترة الطويلة مَنْ كانت تسميهم بالبربر عن شعورهم بالانتماء إلى الأمة المحمدية (دينا ولسانا)[25]، والدليل على ذلك تلك المئات من المساجد والكتاتيب والزوايا التي كان يشيدّها الأهالي (في منطقة القبائل الكبرى بالذات) لتعليم أبنائهم الدين الإسلامي واللغة العربية مع امتناع الغالبية منهم (شأن جميع أفراد المجتمع الجزائري في كافة أنحاء الوطن) عن إرسال أبنائهم الى المدارس الرسمية الفرنسية. وأصدق برهان على ذلك أن نسبة الأمية في منطقة بلاد القبائل (التابعة لولايتي تيزي وزو وبجاية حاليا) لم تختلف في يوم من الأيام عن نسبة الامية في مختلف مناطق البلاد الأخرى اختلافا يدل على نجاح الفرنسة في هذه المنطقة دون غيرها حتى السنوات الاولى من الاستقلال !

ب . الادماج: ويعني اعتبار الجزائريين (نظريا وقانونيا) فرنسيين يتمتعون بالحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسيون داخل بلادهم وخارجها، ويتلقون التعليم الذي يتلقونه.. وأن تكون الجزائر أقليما فرنسيا تتشكل من مقاطعات، وتتجزأ الى مديريات كما تتشكل وتتجزأ . اداريا . كل الأقاليم الفرنسية، والغاء كل ما يفصل باريس عن المقاطعات الجزائرية، أو ما يميز بينها.. اذ أن كل تمييز (بين الجزائر وفرنسا) يعد مظهرا قوميا غير مرغوب فيه وغير شرعي في نظر الإدارة الفرنسية[26]

وكما نلاحظ فان الادماج الى جانب كونه وسيلة فعالة من وسائل الفرنسة اللغوية والثقافية، فهو سد منيع أمام أية محاولة من طرف الجزائريين للمطالبة بالاستقلال عن الكيان الفرنسي.

وهو كما يبدو في ظاهره مفيد لتحقيق المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات..ولكن في الواقع كان شيئا آخر تماما! فهو أشبه ما يكون بحال الفلسطنيين تحت الاحتلال الصهيوني في الوقت الحاضر !

فالجزائريون من حيث القانون الدولي فرنسيون، يقومون بواجباتهم ككل المواطنين الفرنسيين[27] ولكن من حيث المعاملات في الواقع ومن حيث الحقوق فهم في أدنى المراتب تحت اليهود الايطاليين والاسبان والمالطيين الذين وطنتهم الادراة الفرنسية في الجزائر، وأنعمت عليهم بجنسيتها ليصبحوا أسيادا على أهل البلاد الأصليين. ومن وراء سياسة الإدماج، ربطت الادراة الفرنسية منح الحقوق الكاملة للجزائريين.. بتخليهم عن أحكام الشريعة الاسلامية في الأحوال الشخصية، وقبولهم لأحكام القانون المدني الفرنسي، وذلك لاغراء أو إرغام الجزائريين عن الارتداد عن الدين الاسلامي . تدريجيا . وهو العائق الذي تمحور حوله كل النشاط الاستعماري ورسمت من أجله المخططات ووضعت السياسات الصريحة والملتوية منذ بداية الاحتلال، وما تزال سارية حتى الآن مع انتقال المبادرة من الاحتلال الفاعل الى نواب الفاعل !

والحقيقة أن سياسة الإدماج قد فشلت في الجزائر، وظل الحائل الأكبر دون نجاحها، هوتمسك أفراد المجتمع الجزائري بقانون الأحوال الشخصية الاسلامي الذي اشترطت الادارة الفرنسية التخلي عنه لمنح الجزائريين جميع الحقوق مثل باقي الفرنسيين. وقد عبر الامام عبد الحميد بن باديس عن ذلك موجها خطابه الى الفرنسيين، وبعض الجزائريين المتفرنسين الذين استهواهم الإدماج وأصبحوا يدعون له بين أهليهم..فأنشد أبياته الخالدة:

شعب الجزار مسلم — إلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب

أو رام ادماجا له — رام المحال من الطلب

جـ) . التنصير: واذا كان الدين الاسلامي هو الحائل دون نجاح سياسة التفرقة والإدماج والفرنسة.. فان الاستعمار لم يفتأ (منذ الوهلة الأولى للاحتلال) يخطط للقضاء على هذا الدين، فانتهج لذلك سياسة (التنصير) وتتمثل في اخراج المجتمع الجزائري عن دينه، باغرائه أو إرغامه على اعتناق الديانة المسيحية التي تخول له الحصول على الحقوق مثل أفراد المجتمع الفرنسي (ويتحقق بذلك الادماج الذي حال تمسك المجتمع الجزائري بقانون الأحوال الشخصية الاسلامي دونه)، وفي موضوع التنصير وعلاقته بالفرنسة يقول البحاثة ساطع الحصري: "لقد أظهر كتاب فرنسا وخطباؤها نزعتين أساسيتين عند تقرير السياسة التي يجب اتباعها في الجزائر عند بداية الاحتلال وهما: التنصير والفرنسة، وبتعبير أوضح: العمل على اقامة الديانة المسيحية محل الديانة الاسلامية واحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية. وكانت هاتان النزعتان تتآزران في أذهان الكثيرين من الفرنسيين لأنهم كانوا يرون أن التنصيريساعد على الفرنسة كما أن الفرنسة تسهل التنصير"[28].

ويؤكد هذا المعنى تصريح لسكرتير الحاكم العام الفرنسي للجزائرعام 1832 حيث قال "ان أيام الاسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إلهْ غير المسيح، ونحن اذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكن أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الاسلام والى الأبد"[29]

وإذا كانت سياسة التنصير وسيلة للفرنسة وهدفا من أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر فلم يكن تطبيقها بالشيء الهين في مجتمع كالمجتمع الجزائري خال من الطوائف الدينية متمسكا بالإسلام كتمسكه بحقه في الحياة وحبه لها!

ولذلك عمدت إدارة الاحتلال إلى طرق في منتهى الخطورة والالتواء والخبث لبلوغ هذا الهدف منها:

1– تكثيف نشاط الإرساليات الدينية المسيحية التي أخذت تتوافد على القطر الجزائري تحت مختلف

الأشكال والأسماء من هيئات تعليمية، وجمعيات خيرية.. وأظهرت نشاطا خاصا في ميادين الخدمات الاجتماعية وتغلغلت في المناطق الأكثر فقرا لإغراء الأهالي بالمساعدات المادية واستدراجهم إلى الدين الجديد. وامعانا في التمويه وتسهيل احتكاك هؤلاء القساوسة بمختلف الفئات الاجتماعية أطلقوا على أنفسهم اسم: (الأباء البيض) فكانوا يرتدون ثيابا بيضاء وبرانيس مثل الأهالي تماما، بل كانوا بلباسهم ذلك أشبه برجال الدين الإسلامي ومشائخ الزوايا إلى حد بعيد! مع أن القساوسة في فرنسا يرتدون اللباس التقليدي الأسود، و لم يرتدوا اللباس الأبيض – في علمنا – الا في الجزائر! غير أن هذه السياسة لم تأت بأية نتيجة تذكر مع أفراد المجتمع من الكهول ولذلك عمدت بعد ذلك إلى:

2- التركيز على تنصير الأولاد الصغار وخاصة اليتامى والمشردين، وأبناء الفقراء.. حيث كانوا يغرونهم بكل الوسائل لاستجلابهم وتنشئتهم على الديانة المسيحية، وقد نشط الأباء البيض في اصطياد هؤلاء الأطفال وجمعهم في ملاجئ أنشئت لهذا الغرض، نذكر من أهمها ملجأ (ابن عكنون) و(القديس ميشال) و(بيت بوفاريك) التي كانت تضم حوالي 250 طفلا. وفي سنة 1867 شرع الكاردينال (لافيجري) الذي أسس (بيت بوفاريك) في تنفيذ خطة كبيرة لتنصير الأطفال الجزائريين، فكتب في مقدمة برنامجه: "علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة عظيمة مسيحية أعني بذلك فرنسا أخرى يسودها الإنجيل دينا وعقيدة، فهذه هي آيات الله"[30].

ومن أخطر ما فعله هذا الكردينال أنه كان ينصر الأطفال ثم يجعل منهم (اباء بيضا) ليتولوا الدعوة إلى الديانة المسيحية بين أهليهم، وكان ذلك تنفيذا لتوجيه (لوفيبو) سكرتير المارشال بيجو الذي قال في تصرح له في سنة 1838 "إن العرب لا يطيعون فرنسا الا إذا أصبحوا فرنسيين ولن يصبحوا فرنسيين الا إذا أصبحوا مسيحيين"[31].

ونخلص إلى القول إن كل تلك المحاولات الذكية والخطيرة التي لم تعرف الفتور، ولم يعرف أصحابها اليأس طلية عهد الاحتلال.. لم تحقق نجاحا يذكر في مجال التنصير لأن رسوخ العقيدة الإسلامية في قلوب الجزائريين وتمسكهم بلسان القرآن كان أكبر وقاية لهم من الفرنسة والتنصير. ويؤكد ذلك (ميليه) في كتابه (اللغات في أوروبا الحديثة) حيث يقول: "إن اللغة العربية لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشئ عن كونها لغة دين ولغة مدنية، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشرون، ولمكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية لم يخرج أحد عن اقتناع وطواعية من الإسلام إلى النصرانية"[32]

والملاحظ أن هذا الكلام وإن لم ينطبق كلية على مناطق مثل أسبانيا وصقلية، ومالطا.. التي سادت فيها العربية واستؤصلت بحد السيف.. فإنه ينطبق كلية على الجزائر وبلدان المغرب العربي عموما حيث ما يزال الصراع على أشده في هذه المسألة رغم اختلال موازين القوى! وان كل ما وقع وسيقع في الجزائر

مستقبلا لا يخرج في حقيقته عن هذا العامل الديني واللغوي (الحضاري والشخصاني) بين الجزائر العربية المسلمة والجزائر الفرنسية المسيحية أو اللائكية !

ثالثا: شن الحرب الشعواء على اللغة العربية ورجالها ومؤسساتها

ما كان لإدارة الاحتلال أن تحقق أية نتيجة تذكر في مجال الفرنسة لو أبقت على المؤسسات التعليمية الرسمية والأهلية التي كانت تزخر بها البلاد غداة الغزو (كما سبق الذكر)، ولذلك كان عليها أن تقوم بمهمة مزدوجة للوصول إلى غرض الفرنسة المنشود. ومن ثم تصدت لمحاربة اللغة العربية باعتبارها منافسا للغة الفرنسة، فكانت الإدارة الفرنسية تمنعها عن الأهالي من جهة، وتقدم اللغة الفرنسية كبديل لها من جهة أخرى،حتى تضع الجزائريين في موقف الاختيار بين الفرنسة أو الجهل، وقد فضل العديد منهم أن يبقى أولادهم أميين على أن يرسلوا بهم إلى المدارس الفرنسية لتعلم لغة الكفار (على حد تعبيرهم في ذلك الوقت)، وتنفيذا:لهذه السياسة شرعت الادراة الاستعمارية في القضاء على مراكز الثقافة واللغة العربية المتمثلة في المدارس الرسمية والمعاهد والزوايا التي كانت قائمة في مختلف أنحاء، البلاد، كما قلنا. وفي هذا يقول الدكتور تركي رابح ".. فالبعض منها حوله إلى معاهد للثقافة الفرنسية، وبعضها سلمه إلى الهيئات التبشيرية المسيحية التي اتخذته مراكز لنشاطها في هدم عقيدة الجزائريين، والبعض الآخر قام بهدمه تحت دعوى إعادة تخطيط المدن الجزائرية، وعلى سبيل المثال كان في مدينة قسنطينة قبل دخول الاحتلال سنة 1837 ثمانون مدرسة وستة معاهد وثلاثمائة زاوية في منطقتها لم يبق منها بعد الاحتلال إلا ثلاثون مدرسة فقط "[(33)].

وقد اعترف (الدوق دومال) الوالي العام على الجزائر في تقرير له إلى حكومة فرنسا حيث قال:" قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين وثكنات "[(34)].

وبهذه الكيفية واصلت الإدارة الاستعمارية محاربتها للمدارس العربية بدون هوادة إلى أن توصلت إلى إغلاق جميع المدارس الرسمية العربية، ولم تبق في البلاد سوى ثلاث مدارس أسستها سنة 1850بغرض تخريج مجموعة من الموظفين في المجال الديني والقضائي والترجمة، كما كان لخريجيها دور سياسي آخر يلعبونه لصاع الإدارة الاستعمارية.

غير أن القضاء على المؤسسات التعليمية العربية القائمة، ومنع تدريس العربية في المدارس الرسمية الفرنسية لم يمنع الأهالي من أن ينشؤا بمجهودهم الخاص المعاهد والكتاتيب والزوايا في مختلف أنحاء

القطر، وخاصة في المناطق الجبلية النائية، (كبلاد القبائل كما أسلفنا) ولذلك انتهجت الإدارة الغازية عدة أساليب للقضاء على اللغة العربية تدريجيا وإزالتها من واقع المواطن الجزائري وحياته الاجتماعية والإدارية والإعلامية والثقافية، ومن هذه الأساليب:

🗁. حظر استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي حظرا مطلقا. فكل الوثائق والمستندات لا تقبل في الإدارة إلا إذا كانت مكتوبة باللغة الفرنسية !

فكانت عناوين الرسائل، أسماء الشوارع، أسماء المحلات، الأماكن العامة، إشارات المرور، كل شيء باللغة الفرنسية وحدها، حتى التوقيع على الوثائق لا يقبل إلا باللغة الفرنسية !

فكان الفرد المتعلم باللغة العربية والأمي في درجة واحدة أمام الدارة الفرنسية، وهذا كله لتزهيد

الأهالي في تعلم اللغة العربية، وإلزامهم بتعلم اللغة الفرنسية وحدها التي صيرّوها(بكل قسر وإكراه) لغة الخبز والحياة، دون بديل منافس أو منازع!

🗎 –عدم السماح للأهالي بتأسيس المدارس والمعاهد لتدريس الدين واللغة العربية ولو بأموالهم الخاصة، وإذا سمحت الإدارة الفرنسية بإنشاء بعض هذه المدارس والكتاتيب فإنها تشترط ألا يدرس فيها إلا القرآن وبعض المبادئ الفقهية، مع حظر تفسير القرآن وتدريس أي من المواد الاجتماعية والقومية، كالتاريخ والجغرافيا والتربية المدنية والقومية، ولم تكن تسمح بإنشاء مثل هذه . المدارس . من حين لآخر_إلا تخفيفا من غضب الأهالي ومحاولة التقرب إليهم بإيهامهم أن الإدارة الفرنسية ليست ضد الدين وانما هي ضد هؤلاء(*) الذين يتخذون من التعليم وسيلة لاستعداء الناس ضد الحكومة، ولذلك كانت دائمة الرقابة على تلك المدارس، وكلما لاحظت فيها بعض النجاح أوالخروج عن تلك الشروط (...) بادرت بإغلاقها وتغريم أساتذتها أو الزج بهم في السجون، وفي هذا يقول الإمام عبد الحميد بن باديس في مقال بعنوان: "محاربة التعليم العربي في الجزائر "وهذه حكومتنا أكبرت علينا بضع مدارس لا يأوي مجموعها ألفا من أمة تعد ستة ملايين نسمة، ولا يُعلّم بها أكثر من الحروف الأبجدية ومبادئ الدين ولغة أولية، وهي تهتم بحركة تعليمنا البسيط اهتمام إنجلترا باستحكامات إيطاليا وتحصيناتها للحرب "(▤)

واستمرت الحكومة الاستعمارية في ابتكار الأساليب لمحاربة اللغة العربية فأصدرت قانون 8مارس 1938الذي اشترطت فيه وجوب حصول المعلمين وهيئات التعليم العربي على رخصة التعليم من الإدارة الفرنسية، وقد وضعت شروطا للحصول على هذه الرخصة منها:

1- كفاءة المعلم العلمية.

2- لياقته البدنية.

3- معرفته للغة الفرنسية.

4- صلاحية المحل للتعليم وتوفر الشروط الصحية فيه[36]

والشروط في ظاهرها قد تبدو منطقية، ولكن في حقيقة الأمر ما هي إلا نوع من (التعجيز الممتنع) أو حظر الجديد لتدريس اللغة العربية، حيث لم تكن تمنح هذه الرخص إلا للنادر من المعلمين وبعد الانتظار الطويل، وهي أشبه ما تكون في ذلك بشروط الإدارة الصهيونية في الوقت الحاضر في تعاملها مع الفلسطينيين من سكان القدس الشرقية في مسألة إعطاء التصاريح للبناء والتعمير وإنشاء الجمعيات الدينية والثقافية في أحيائهم الشعبية...

والإدارة الفرنسية في الجزائر، قبل هذا وذاك لا تعطي هذا التصريح إلا بعد التأكد من شخصية المعلم ومن ولائه لإدارة الاحتلال وكانت من أقوى المبررات التي سوغت للادراة الاستعمارية إغلاق المدارس الأهلية الناجحة، ومما يؤكد النوايا المبيتة من وراء اشتراط هذه الرخص لهيئات التعليم العربي، إنها لم تشترط للمدارس اليهودية الأهلية، ولا للمدارس التبشيرية غير الرسمية، كما يلاحظ أن هذه الرخص لم تشترطها الإدارة الفرنسية للتعليم العربي إلا عندما نشطت الحركة التعليمية الأهلية (الحرة) التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وفي هذا يقول الإمام عبد الحميد بن باديس:"كان شعبنا في غفلة عن مستقبل أبنائه شاملة فكانت الحكومة في تساهل مع الكتاتيب القرآنية مريح، وجاءت جمعية العلماء فشوقت الشعب إلى ترقية حالة تلك الكتاتيب المعبر عنها عندنا بالمدارس تعبيرا نقره على سبيل التفاؤل، وهنا وجدنا من الحكومة معاملة أخرى، فأصبحت لا تسمح لنا إلا برخصة ولا تمنح الرخص لطالبها لو انتظر السنين.. إلى أن يقول: بينما الأمة الجزائرية تنتظر من فرنسا منحها حق التصويت البرلماني مع بقائها على شخصيتها الإسلامية.. إذا أعداء الأمة الجزائرية وأعداء فرنسا أيضا يجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارا وزاريا بعقوبات صارمة على التعليم العربي، ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا على مادة حياتها.. ثم يضيف: علموا الإبقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وإلا تعليم له إلا بتعليم لغته فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات من إغلاق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي، والضن بالرخص واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل"[37]، وإذا كان كلام الإمام عبد الحميد بن باديس الوطني المتحمس الذي يمكن أن يؤخذ عليه بعض المبالغة و"التحامل"على الإدارة الفرنسية في وصف محاربتها للتعليم العربي في ذلك الوقت (سنة 1937).. فإننا نجد الأستاذ جاك مادول، (وهو فرنسي) يؤكد نفس الكلام عن محاربة اللغة العربية في تصريح له بعد عودته من زيارة للجزائر سنة1954 فيقول:"لقد

استوجب دهشتي الشديدة أن اللغة العربية التي هي لغة الأغلبية العظمى من سكان القطر الجزائري تعتبر أجنبية، وهذا ما جعل المسلمين من رجال جمعية العلماء وغيرها ينظمون بجهودهم الخاصة وعلى حسابهم تعليم الأمة لغتها..

ولكن تأكد لدينا أن العمل على عكس ذلك، و أن هذه المدارس الحرة هي موضع مراقبة صارمة ومعاملة شعارها سوء النية"[38]

3 – صدور قرار 1938 الذي عرف باسم (قرار شوطان) نسبة إلى واضعه وهو وزير داخلية فرنسا في ذلك الوقت، وقد نص القرار على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ولا يجوز تعليمها في مدارس التعليم، سواء كانت حكومية أم شعبية إلا على هذا الأساس (أي أنها أجنبية) وقد اعتبرالقرارتعليم اللغة العربية ونشرها بين الجزائريين محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية[39]ومن هنا اعتبرت اللغة العربية في مرحلة التعليم الثانوي أجنبية، وأقل قيمة من جميع اللغات الأجنبية الاختيارية التي كانت تدرس في المرحلة الثانوية، وتعامل دون سائر المواد التعليمية واللغات الأجنبية الأخرى باعتبارها لغة الضعيف ولغة الخصم التي ينظر إليها باحتقار شديد وحذر!

4 – ولم تكتف إدارة الاحتلال باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ووضعها في أدنى مراتب اللغات الأجنبية الاختيارية في التعليم الثانوي، بل ابتكر مسئولو التعليم في الجزائر ما أسموه (باللغة العربية الكلاسيكية) وهي العربية الفصحى، و(اللغة العربية الحية) وهي اللهجة العامية الجزائرية. ونشط بعض أعوان الإدارة الاستعمارية (من الجزائريين مزدوجي اللغة) تحت إشراف المستشرق الفرنسي هينري بيريس (H.Peres) [40]

في وضع بعض الكتب المدرسية باللهجة العامية الجزائرية التي هي خليط من البربرية والعربية والتركية والفرنسية والمالطية.. واعتبروها هي اللغة العربية الحية. (على اعتبار أنها هي اللغة المتداولة بين الناس) وهذا طبعا (كما يعلمه الفرنسيون قبل غيرهم) ناتج عن سياسة التجهيل التي سنّوها بمحاربة اللغة العربية الفصحى المعين الوحيد الذي تتغذى منه العامية (العربية والبربرية) بالمفردات العلمية والثقافية الضرورية للحياة اليومية والاجتماعية، وقد وصف أحد الكتاب الجزائريين هذا الوضع بقوله: "رطانة غريبة وخليط من اللغة لا هو عربي ولا بربري ولا فرنسي، وانما هو مزج من اللغة العربية والبربرية والفرنسية، والعربية منه أقل الثلاثة مع ما هي عليه من التكسير والاختزال"[41] ونظرا لأن اللهجات العامية الجزائرية تختلف في مفرداتها من منطقة إلى أخرى فكانت تلك الكتب المدرسية المؤلفة بالعامية تحدث اضطرابا كبيرا للطلبة في الامتحانات، وكمثال على خطورة هذه السياسة الهادفة – أساسا– إلى القضاء على البقية الباقية من آثار العربية الفصحى بقواعدها وآدابها.. أذكر أن أحد الجزائريين من شرق البلاد قد

قصَّ عليَّ واقعة حدثت له شخصيا في الامتحان الشفوي للبكالوريا (سنة 1956) عندما كان طالبا، حيث طلب منه الأستاذ الممتحن ترجمة نص من اللهجة العامية إلى اللغة الفرنسية، ووردت في النص عبارة (كابوس) فترجها الطالب بـ Cauchemar (أي حلم مزعج) غير أن الأستاذ خطّأه مصححا له الترجمة بـ Pistolet (أي مسدس) وكان الطالب يجهل تماما هذا المعنى الدارج لكلمة (كابوس) في ناحية (قسنطينة) بالشرق الجزائري، التي يطلق فيها على (المسدس) باللهجة العامية هناك اسم (بشطولة) (وهو كما نلاحظ من أصل الكلمة الفرنسية Pistolet) أما كلمة (كابوس) فهي مستعملة فعلا في اللهجة العامية الجزائرية بمعنى (مسدس) ولكن في مناطق غرب البلاد ووسطها[*].

5 . ولكن ما كان للغة العربية أن تزول من الجزائر مهما أضعفت وحوربت بشتى الأساليب، ما دام الإسلام منتشرا وما دام المجتمع الجزائري متمسكا به كأقوى ما يملك من الوسائل للمحافظة على شخصيته المتميزة عن شخصية المحتل الفرنسي وثقافته، ولذلك وضعت الإدارة الاستعمارية الإسلام في جبهة واحدة مع اللغة العربية ة اعتقادا منها بأن بقاء أي واحد منهما في الجزائر يبقي على الآخر، وأخذت في محاربته منذ بداية الاحتلال. فقد جاء في المادة الخامسة من وثيقة الاستسلام التي وقعها (دو بورمون) قائد الغزو الفرنسي وحسين باشا باي الجزائر في 1830/7/5 "أن الدين المحمدي سيبقى معمول به مثلما كان سابقا..وأن دين هذا الشعب وممتلكاته وتجارته وصناعته ستبقى محترمة"[42]

غير أن هذه المعاهدة لم يشهد لها التاريخ وجودا في واقع الجزائر المحتلة.. حيث ما لبث الحكام الفرنسيون أن استولوا على معظم المساجد بالجزائر العاصمة وأخضعوا لقراراتهم الدين الإسلامي ورجاله، والتعليم ورجاله، كما استولوا بعد ذلك على الأوقاف الإسلامية باعتبارها المورد الأساسي للإنفاق على المساجد، وإنشاء المدارس الأهلية لتعليم الدين واللغة العربية.. وتم ذلك بقرارات صدرت بتاريخ (1830/9/8) و(1843/2/22) و(1846/10/3) [43]. ولم يكتفوا بذلك بل سلموا العديد من المساجد إلى طوائف غير مسلمة، فاستخدم بعضها أديرة (للآباء البيض) مثل جامع على باشا الذي حول ديرا سنة 1870 بأمر من (الكاردينال لا فيجري . قائد الحملة التنصيرية . الذي سبق ذكره) وجامع كشاوة (وهو أعظم مساجد العاصمة) الذي حول إلى كنيسة سنة 1836، ونفس الشيء وقع في قسنطينة وعنابة ووهران، ومعظم المدن الجزائرية الكبرى، كما حولت بعض المساجد إلى ثكنات عسكرية، وهدم البعض الآخر بدعوى توسيع الطرقات واعادة البناء، مثلما يقوم به اليهود اليوم في القدس الشرقية مع الفلسطينيين (...). واستمرارا في المحاولات الدائبة لافساد عقيدة المسلمين . إن لم يمكن تغييرها . سدت الإدارة الفرنسية إلى أسلوب جديد في التدخل في شؤون المسلمين وربط الدين بالإدارة الفرنسية مباشرة على خلاف اليهودية والمسيحية اللتين كانتا منفصلتين عن الدو. تطبيقا لمبدإ اللائكية ذاته القاضي بفصل الدين عن

الدولة كما هو معلوم ومعمول به حتى الآن في فرنسا، وقد استندت إليه الدولة لإصدار قانون منع الحجاب الإسلامي في المؤسسات الرسمية الذائع الصيت والسيء السمعة هذه الأيام !!.

فأصبحت السلطة الاستعمارية هي التي تعين المفتي (الذي يكون تحت الإشراف المباشر للحاكم الفرنسي العام).. وكذلك الإمام والمؤذن وفراش المسجد.. وفي هذا يقول يونس درمونة "وابتكرت السلطات الفرنسية (دين الإسلام الجزائري) وخصصت له إدارة برئاسة المسيو(فرنال ميشال) المحامي الفرنسي، وأصبر هذا المدير الفرنسي المسيحي يُعنى بالدين الإسلامي حتى لقبته جريدة وطنية حينئذ (بسيدي ميشال) المفسر الجديد للقران " [44]

وبهذه الكيفية كانت محاربة الإسلام الذي كان دائما المحافظ والمدافع الاكبرعلى اللغة العربية في الجزائر.

6 – فرض حصار محكم على المجتمع الجزائري وغلق جميع النوافذ (المشرقية) التي يمكن أن يتسلل منها شعاع المعرفة والوعي القومي والفكر الإسلامي النقي واللغة العربية.. وكما حاولت الإدارة الاستعمارية أن تفرق بين من أسمتهم بالعرب و البربر (أي الناطقين بالعربية، والناطقين ببعض اللهجات البربرية . محليا. من أبناء الشعب الواحد داخل القطر...) انتهجت الطريقة نفسها للفصل بين المجتمع الجزائري ككل وبقية المجتمعات في البلدان العربية والإسلامية الشقيقة.

ولا نجد أصدق وصف لتلك العزلة التي كان يعيش فيها المجتمع الجزائري مما خطّه الكاتب والصحفي المصري محمد فريد بعد عودته من رحلته الاستطلاعية إلى الجزائر سنة 1901، حيث قال:".. إن الأهالي يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدة والصرامة. فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد.. نعم يصعب على الذي يعرف حب الفرنساويين للحرية والمساواة، أن يصدق ذلك، ولكن من يتكلف مشقة زيارة الجزائر يتحقق أن ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات، وان كان مباحا للفرنساويين، فلا يجوز لهم.أن يؤلفوا جمعية و لو لفتح المدارس ونشر التعليم المجرد، وهذا الإذن لا يمنح مطلقا، كما أنهم لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة.. وقد منعت عنهم الجرائد العربية، فلم أجد في جميع مدينة الجزائر نسخا من اللواء ولا من المؤيد.. ولا تصل هذه الجرائد إلا لإدراة المبشر [*]مبادلة وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة فتصل أخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين.. وقد منعت الجرائد الفرنسية التي تنشر أخبار انتصار الإسلام على الأروام أيام حرب اليونان مع الدولة العلية. إلى أن يقول ـ تأكيدا لكلامه ـ ولما أرسلت الي الجرائد العربية أثناء إقامتي بمدينة الجزائر حجزتها إدارة البوسطة " (45).

والملاحظ أن الإدارة الاستعمارية لم تغير إطلاقا من سياستها في هذا المجال. ولا أدل على استمرارها وإصرارها على اتباع تلك السياسة إلى النهاية... أن حكومة مصر سنة 1952 طلبت من فرنسا السماح لها بإنشاء معهد ثقافي في الجزائر باسم (معهد فاروق للدراسات العربية) فلم يأتها إلا الرفض القاطع من الإدارة الفرنسية على الرغم من أن لفرنسا عشرات المعاهد المماثلة في مصر والبلاد العربية، وثبت أن ما يحبه الظالم لنفسه لا يسمح به ـ أبدا ـ لغيره، من المظلومين المستضعفين. فهل يبقى المظلومون دائما كذلك !؟ (46)

رابعا: مقاومة الشعب الجزائري لسياسة الفرنسة

بقدرما كانت الادارة الاستعمارية مصممة على تطبيق سياسة الفرنسة والإدماج، ومحاربة اللغة العربية التي ظلت تقف في طريقها.. بقدر ما كان الشعب الجزائري (في فئآته العريضة والأصيلة) يقاوم سياسة الفرنسة من جهة ويحافظ على اللغة العربية من جهة أخرى:

أولا – مقاومة سياسة الفونسة:

لقد قاوم الشعب الجزائري سياسة الفرنسة طوال عهد الاحتلال وكان سبيله الى ذلك هو الرفض الكامل لكل ما يأتيه من الادارة الفرنسية، حتى ولو كان يخدم بعض مصالحه، كالخدمات الاجتماعية التي

كانت تسعى الادارة الاستعمارية للتقرب بها من الأهالى فى بعض المناطق الفقيرة.. وعن رفض المجتمع الجزائري للفرنسة والاندماج تقول المؤرخة الفرنسية (إ. تورين) Yvonne Turin "وبدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانه وتفكيره وأسلوبه في الحياة مستعملا المدرسة والمستشفى، المعلم والطبيب.. الى أن تقول: وردّ المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين سنة (1830– 1850) يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ وينشر المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، واصبح الدين الإسلامي كالاسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج".

ونلاحظ دائما أن الفارق الديني، والثقافي كان الفاصل الجوهري بين المجتمعين (الجزائري والفرنسي) والجدار الحديدي الذي حال دون أية فرنسة أو اندماج أو ذوبان في هوية الكيان الدخيل... ورغم كل هذه المقاومة والرفض الصريح والقاطع لسياسة الفرنسة.. فان الإدارة الاستعمارية لم تكف يوما عن استعمال مختلف الأساليب للوصول إلى تحقيق هذا الهدف المنشود حتى بعد خروج بعض عساكرها من الأرض سنة 1962، والدليل على ذلك ما قامت به من أعمال مشينة وتدخلات مهينة لدى الحكومة الجزائرية من أجل إلغاء قانون اللغة العربية الصادر في الجريدة الرسمية سنة 1990، والمجمد العمل به سنة 1992، ثم إلغاء تجميده سنة 1996، لإعادة العمل به سنة 1998، والذي ما يزال محل جدل وتعثر في عملية تطبيقه في الميدان حتى الآن !؟.[48]

وعن مقاومة الشعب الجزائري لسياسة الفرنسة وفشل الإدارة الاستعمارية في تحقيقها بعد كل المحاولات.. يقول الأستاذ ساطع الحصري: "ومع كل ذلك فلم ينجحوا (أي الفرنسيين) فيما كانوا يرمون إليه: ويمكن التأكيد بأن الجهود التي بذلها هؤلاء في هذا السبيل (أي الفرنسة) لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر، ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم وتبعيدهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام، لأن الناس صاروا ينظرون إلى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتنصير"[49].

وتؤكد الباحثة الفرنسية الدكتورة إيفون تورين استمرار مقاومة الشعب الجزائري لسياسة الفرنسة، واستمرار المحاولات الدؤوبة من طرف الإدارة الاستعمارية في هذا المجال.. فتقول: "وتنتهي الفترة الأولى (أي من 1830– 1850) و يعترف الفرنسيون أن ما قاموا به من مغامرات لا طائل تحته واعترفوا بالفشل، وفكروا في أسلوب جديد ومناهج أقرب إلى الواقع، وأعادوا الكرة بعد التحقيقات المدققة واختطوا لتعليم اللغة العربية خططا في إطار القضاء على الروح المعنوية. فظهرت مراسيم سنة 1850، التي أنشأت التعليم المزدوج في المدارس الفرنسية العربية، فلم يتغير موقف المواطنين وبقيت تلك المؤسسات خالية ".

وقد أرجع بعض الكتاب فشل الفرنسيين (ومنهم الدكتورة إيفون تورين لم في سياسة الفرنسة في

الجزائر.. الى الزوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها، وكانت بمثابة مراكز دينية وثقافية ومدارس للكبار والصغار، ودور للمعالجة واسعاف الفقراء، وملتقى ذوي الرأي لحث المواطنين على الجهاد وعدم الولاء للكافر.. ولم يعرف الفرنسيون لهذه الزوايا مثيلا في أوروبا، ولذلك لم ينتهبوا لخطورتها الا بعد زمن طويل [51].

والملاحظ أن هذا التحليل صحيح الى حد بعيد، حيث أن العديد مز الثورات التي قامت ضد الفرنسيين كان يتزعمها مشايخ الزوايا حتى آخر القرن التاسع عشر[*].

ولذلك انتهجت الادارة الاستعمارية سياسة جديدة لابطال مفعول تلك المؤسسات، واخماد جذوة المقاومة وروح الجهاد التي كانت تتأجج في نفوس رجالها.. فأخذت تستميلهم بشتى الطرق، وتستعديهم على رجال الحركات التحريرية والاصلاحية الوطنية، وذلك لأحداث التصدع والشقاق في صفوف المسلمين، والوصول الى تخريب العقيدة الاسلامية من الداخل بأيدي المسلمين أنفسهم بعد أن فشلت في القضاء عليها بوسائل الترهيب والترغيب من الخارج، فبدأت تنشر الخرافات للقضاء على الوعي الديني والوطني الاصيل الذي ظل حائلا قويا في سبيل نجاح أية محاولة للفرنسة والادماج والتنصير والتفرقة، وكانت هذه السياسة الرامية الى تخريب العقيدة الاسلامية من الداخل، (باستمالة بعض وجال الزوايا واضعاف نفوسهم للتعاون مع الادارة الاستعمارية، لما لهم من نفوذ وتأثير في الناس...) هي آخر ما لجأت اليه السلطات الاستعمارية لتحقيق أهدافها في الفرنسة..واتقاء شر المقاومة والثورات المستمرة.. ولم تكن هذه المحاولة أكثر نجاحا من المحاولات السابقة، بفضل الحركات التحريرية والاصلاحية، التي بدأت تظهر في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي[*]. فكانت تقاوم سياسة الفرنسة من جهة، وتنقي العقيدة مما علق بها من شوائب وخرافات نتيجة التجميل و التضليل الاستعماري المستمر من جهة أخرى.

ثانيا– محافظة الشعب الجزائري على اللغة العربية كأهم مقومات هويته الوطنية والقومية:

وهكذا بدأت الحركة الاصلاحية تنشر التعليم العربي وتطور الكتاتيب القرآنية للنهوض بمستوى اللغة العربية الذي وصل الى الحضيض في تلك الآونة نتيجة الطرق العقيمة التي كانت تدرس بها في الكتاتيب والزوايا.

والتف الاهالي الواعون حول رجال الاصلاح وسعوا بمجهوادتهم الذاتية الى انشاء المدارس العصرية وتطوير أسلوب التعليم في الكتاتيب بادخال العديد من المواد الهامة في برامجها الدراسية الى جانب القرآن ومبادئ الدين.. وفي هذا يقول المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني كان التعليم العربي في الجزائر قاصرا على الكتاتيب القرآنية وبعض المساجد (**) ولا يخفى أن طريقة التعليم بها كانت عقيمة جدا. ثم قامت

جمعية الشبيبة الاسلامية (***) فكان عملها جماعيا متواصلا منظما، وأسست مدرسة عربية تقرئ النشئ على الطرق الحديثة، وأقبل الشعب على تأييدها بما ضمن لها الحياة والتقدم" [52]

وبعد أن نشطت الحركة الاصلاحية في نشر التعليم العربي المتطور، وبدأت تتوسع في انشاء المدارس وتأسيس النوادي للتوعية الدينية والوطنية، والتف الاهالي حول رجال الإصلاح يساعدونهم بالاموال لتوسيع نشاط الحركة.. بدأت الادارة الاستعمارية في تشديد الخناق على رجال الاصلاح وصعدت حربها ضد دارسهم (الحرة) وفي هذا يقول الشيخ البشير الابراهيمي: (وهو نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الاصلاحية) "يرجع تاريخ هذه الحرب القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي، الى خمس عشرة سنة. فهي مقارنة لظهور جمعية العلماء تقريبا، ولكنها تشتد وتتعقد في كل سنة تبعا لنمو الحركة الاصلاحية واستفحالها وتطورها. فكلما اشتدت حركة التعليم وامتدت ظهرللحكومة فيها رأى فسنت لشلها قانونا أو قرارا وسكتت عن تنفيذه الى حين.. ولذلك يجب مقاومة هذه القوانين المفروضة على الشعب في أمر يتعلق به وحده وهو دينه ولغته، وهي حرب عى ديننا ولغتنا، ولا نحترمها ولو أدت الى اغلاق جميع المدارس «دفعة واحدة"[53].

ومن القوانين التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية لتسويغ اغلاقها لما تشاء من تلك المدارس قانون الرخص (الذي سبق ذكره) ولكن كل تلك المحاولات لم تزد الشعب الا اصرارا على المقاومة، واعتبر معلمو اللغة العربية أنفسهم _ بتأييد من المواطنين _ مجندين في معركة وطنية مقدسة من أجل المحافظة على اللغة العربية وثقافتها والدين الاسلامي، وواصلوا نشاطهم التعليمي بالرخص وبدون رخص.. ويعبر الشيخ البشير الابراهيمي عن تلك المقاومة الشديدة والتحدي الصريح لقوانين الاستعمار بقوله "بدأت دعوة المعلمين الى المحاكم ونحن نقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة وأن الاحكام ستكون بالغرامة، فالسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم بروؤس مرتفعة (وهو هنا يتحدث بلسان حال جميع معلمي اللغة العربية) وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالايمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي باخواننا المجرمين في مجالس الاحكام ومقاعد الاتهام، وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخرا أن تكون التهمة (فتح مدرسة دينية وقرآنية، بدون رخصة !)، وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والاسلام ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الاجرام في محكمة واحدة وسجن واحد.."[54].

وتؤكد هذه المقاومة الشديدة للفرنسة، والمحافظة على اللغة العربية من طرف رجال الاصلاح، بمعاونة الاهالي الواعين.. الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ حيث تقول: وتنشر(الشهاب) منارا

(البصائر) نورا، وتفتح المدارس العربية في ظروف بالغة القسوة والحرج و توفد طلابها لاستكمال دراستهم العربية العالية في جامعات القرويين والزيتونة والأزهر وجامعة القاهرة، ودمشق وبغداد"[55].

وكما ذكرت المؤلفة أسماء بعض الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء باللغة العربية ك (الشهاب) و (البصائر) تحت الضغوط والتهديدات المستمرة.. فقد كانت ~ حقا ~ هذه الصحف من أقوى أسلحة المقاومة، والمحافظة على اللغة العربية، وكانت الغذاء الثقافي الوحيد الذي يتغذى عليه المواطنون، كما كانت مكملا أساسيا لنشاط الحركات الاصلاحية والوطنية، ومنبرا لنشر الوعي الوطني والقومي. وفي فضل تلك الصحافة العربية ودورها يتحدث الامام عبد الحميد بن باديس فيقول:".. والشعور بهذا الواجب يعزى الفضل فيه الى ما قام به نبغاء الجزائر ودهماؤها من الدعوة والإرشاد، فظلوا ينافحون عن اللغة والدين مظهرين ما لهما من الروعة والجلال.. والى ما قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد والاذاعة، فتوصلت بعد جهاد طويل الى غرس ملكة الذوق العربي في النفوس لتذوق العموم من ثمة حلاوة اللغة العربية وطلاوة أساليبها الرشيقة"[56]. وقد كان محررو تلك الصحف على درجة عالية من الشجاعة الادبية والحماسة.. ونورد عينة لما كان ينشر في هذه الصحف للتدليل على دورها في المقاومة والتوعية والمحافظة على اللغة العربية، وهو تقريبا نفس ما يلاحظ في أيامنا هذه من مواقف للصحافة العربية الصادرة في الجزائر دفاعا عن ثوابت الأمة تجاه ما يحاك لها من مؤامرات ويحيق بها من أخطار تهدد كيانها من الداخل بفعل بعض العملاء والخفراء والوكلاء من نواب الفاعل !!.

فجاء على لسان ابن باديس تنويها بروح الأمة ودفاعا عنها، فيقول: " اللغة العربية هي الرابطة بين ماضي الجزائر المجيد، وحاضرها الآغر، ومستقبلها السعيد، وهي لغة الدين والجنسية والقومية ولغة الوطنية المغروسة"[57] وجاء على لسان الشيخ البشير الابراهيمي الشيء الكثير كما مر بنا... ولكننا نذكر له هذا الموقف الشامخ وهذا الدفاع المستميت عن اللغة العربية والصحافة الوطنية الناطقة بها في وجه إدارة الاحتلال في ذلك الوقت، وهو كلام ينطبق بكيفية عجيبة على الصحافة الوطنية في جزائر اليوم بالنسبة لمقومات الهوية الوطنية (وفي جوهرها وأساسها الإسلام والعربية) اللتين لولاهما لكانت الجزائر غر ناطة فرنسية منذ عقود! وكأن شيئا لم يتغير في البلاد منذ الثلاثينيات، سوى لون العلم ولحن النشيد الوطني،واسم العملة والدولة (...)، ونترك الكلام للشيخ الذي يثبت هذه الاستمرارية العجيبة بقوله:" **(أن لغة العرب قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة.. والامة الجزائرية من أوفى الفروع العربية لهذه اللغة وأكثرهم براً، وتجميدا واعتزازا بها..**" إلى أن يقول:.**جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهادا متواصلا.. كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولد ت الكتاب والشعراء والخطباء والوعاظ، وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها**

إلا على ما في نفسها من حيوية موروثة، ولم تلتمس فيها عونا من أجنبي، بل لم تلق من الأجنبي إلا المعارضة الحادة والتثبيط القاتل، وكان من نتائج هذه النهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها، وهي إن تكون رسمية في المدارس والدواوين والأقلام والأحكام، وأن يعترف لها بمكانتها في وطنها، وأن تمحى عنها تلك الوصمة التي لم تسب لغة بأشنع منها، وهي " أنها أجنبية في دارها"[58].

كما جاء ما يدعم هذا القول على لسان الشيخ محمد خير الدين حيث يقول: " **تسن القوانين لصالح الأقلية ولا يحسب للأكثرية أدنى حساب. يمتهن شعب كامل ويرمى به في بحر لجيّ من الفقر والمرض والجهل، فلا يراعى مستقبله ومستقبل أبنائه.. إلى أن يقول: لم يكتف (الاستعمار) بسلب ما بقى بأيدينا من الدنيا، وطمس ما ترك الزمان لنا من معالم القومية، بل تجاوزها إلى امتهان ديننا الإسلامي الحنيف، فانتزع أوقافه ومنع العلماء الأحرار من دروس الوعظ والإرشاد في مساجدهم، احتقار منه لشعور المسلمين وعدم مبالاته بعواطفهم الدينية"**[59]

ونختم هذا البحث بما يؤكد ذلك مما جاء على لسان الكاتب الكبير أحمد توفيق المدني في مقال له بعنوان (بين الموت والحياة) حيث يستكشف لنا الغيب وكأنه ينادينا من قبره اليوم دفاعا عن قانون اللغة العربية وقانون الأسرة في الجزائر سنة 2004، حيث يقول رحمه الله منذ 76 سنة خلت: **"فالمسألة الموضوعة أمامنا الآن هي مسألة المحافظة على الإسلام والعربية، وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر بأسرها في حاضرها ومستقبلها.. ثم يقول... وكانت الجزائر اليوم غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التي نرها رأي الاعين أمامنا، كأنها ليست شاعرة بأن الإسلام في الجزائر سائر في طريق الموت، وكأنها ليست شاعرة بأن العربية في الجزائر سائرة في طريق الاضمحلال، وكأنها ليست شاعرة بأنها إن فقدت إسلامها وعربيتها فقدت كل شيء ولم تنل أي شيء"**[60]

ولا نجد أفضل من هذه النصوص الناطقة والصادقة للتعبير عن وضعية اللغة العربية في عهد الاحتلال، وهو درس مفيد جدا يثبت لنا أن الزمان إذا كان غير الزمان، فالإنسان بنزعاته ونزواته يظل هو الإنسان، كما يثبت لنا أن كل احتلال إذا كان يحمل بذور استقلال فإن كل استقلال قد يحمل بذور احتلال، وهو ما يحتم على كل الأجيال أن تظل مرابطة بقوة ووعي واخلاص في خندق الدفاع عن مقومات الاستقلال والسيادة والهوية، لان التاريخ يؤكد لنا يوميا أن كل بلد في هذه المعمورة يعتبر محتلا حتى يثبت استقلاله وسيادته ووجوده المادي والمعنوي بين الأمم والشعوب الحية والقوية... واللغة الوطنية في كل بلد هي روح الأمة ورمز الدولة وعنوان سيادتها ومرآة

سياستها، وبرهان انتمائها وهويتها مهما تبدلت الأحوال وزال الرجال الذين يعتبر دوامهم من المحال كما يثبت واقع الحال !!

المراجع والإحالات:

(1) د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، معهد الدراسات العربية بالقاهرة، 1976، ص 195

(2) Dr. Seddik Taouti, La formation des cadres pour le développement, Alger, OPU, non date,p.35.

(3) مصطفى الأشراف، الجزائر أمة ومجتمع، دفاتر حرة 71ـ72، باريس، منشورات ماسبيرو 1974، ص: 188.

(4) Y.Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Paris, Maspero, 1971,p.131.

(5) Y.Turin, Ibid p.32-33.

(6) G.H. Bousquet, Les Berbères, Paris, PUF, p.46, (Que sais-je ?)

(7) يونس درمونة، المغرب العربي في خطر – دار الطباعة الحديثة 1956، ص 36.

(8) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، الجزائر، تحقيق وتقديم الدكتور العربي الزبيري، ش. و. ن. ت. الجزائر 1975، ص 265.

(9) ساطع الحصري، ما هي القومية ؟ دار العلم للملايين بيروت (بدون تاريخ)، ص 73.

(10) أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، مكتبة النهضة، الطبعة الثانية 1963، ص 138

(11) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة. مرجع سبق ذكره، ص 54.

(12) ساطم الحصري، حوليات الثقافة العربية. دار الرياض للطبع والنشر 1951، المجلد الثاني، ص 473.

(13) Y.Turin, Ibid.p.76.

(14) Y.Turin, Ibid.p.40-41.

(15) Y.Turin, Ibid.p.134-135.

(16) S.Taouti, Ibid, p.38.

(17) M.Lacheraf, Ibid, p.187.

(18) Ch.R. Ageron, Les Algériens musulmans et la France, Paris, PUF, 1968,p.929.

(19) S.Taouti, Ibid, p.38.

(20) Ch.R. Ageron, Ibid, p.932.

(21) F.Colonna, Instituteurs algériens 1883-1939, Alger, OPU, 1975,p.44.

(22) S.Taouti, Ibid, p.39.

(23) F.Colonna, Ibid.p.27.

(24) ساطع الحصري، الحوليات، المرجع السابق، ص 476.

(25) عبد الرحمن البزاز، هذه قوميتنا، دار القلم بالقاهرة بدون تاريخ، ص 118، 199.

(26) ألان سافاري، ثورة الجزائر، ترجمة نخلة كلاسي، دمشق 1961 ص 84-85.

(27) د. محمد حسين هيكل، الاستعمار الفرنسي، الكتاب بدون اسم الناشر، وبدون تاريخ النشر، (موجود في مكتبة آداب القاهرة)، ص 22.

(28) ساطع الحصري، حوليات الثقافة العربية. مرجع سبق ذكره، ص 471.

(29) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبي بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية بالمغرب الأقصى، بدون تاريخ، ص 25.

(30) يونس درمونة، المغرب العربي في خطر، مرجع سبق ذكره ص 30.

(31) حوليات الثقافة العربية، مرجع سبق ذكره، ص: 475.

(32) نقلا عن محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1934، ص: 177.

(33) التعليم القومي والشخصية الوطنية، (ش. و. ن. ت) 1975، ص 53.

(34) تركي رابح، مرجع سبق ذكره، ص 125.

(*) رجال الإصلاح والحركات التحريرية الذين كانوا دائما يتخذون من التعليم وسيلة لتوعية الناشئة واعدادها للمستقبل، ويؤكد هذا القول ابن باديس مخاطبا الشباب الجزائري بقوله:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب

(35) جريدة البصائر، عدد (10) ديسمبر 1937.

(36) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص168.

(37) جريدة البصائر، عدد (90) – ديسمبر 1938م.

(38) نقلا عن البصائر عدد(27) مايو 1957.

(39) كوليت، وفرنسيس جاكسون– الجزائر الثائرة، ترجمة علوي الشريف، القاهرة 1957، ص130.

(40) A.Dhina, Manuel des débutants, en Arabe parlé, Alger1960.

(41) جريدة وادي ميزاب، عدد (55)، 03 نوفمبر 1927.

(*) هذا الخليط العجيب من المفردات العربية لا تتميز به إلا لهجات المدن الكبرى، حيث وقع التأثر بالغة الفرنسية (كلغة إعلام وتعليم وثقافة) في غياب العربية الفصحى.. أما في باقي المناطق الريفية من البلاد (وخاصة الصحراء) فاللهجة العامية فيها بقيت محافظة على نقاوتها وقربها من الفصحى إلى حد بعيد، وما يزال وضعها كذلك حتى الآن !

(42) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، مرجع سبق ذكره، ص281.

(43) يونس درمونة، المرجع السابق الذكر، ص 132.

(44) المرجع نفسه، ص34.

(*) الجريدة العربية الوحيدة في القطر الجزائري في ذلك الوقت، وهي جريدة رسمية تتحدث في فضل فرنسا على العرب والحض على الديانة بالولاء للحكومة الفرنسية، أنظر د.عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ)، في كتابها "لغتنا والحياة"، مرجع سبق ذكره، ص 173.

(45) جريدة اللواء (المصرية) عدد 3أكتوبر 1901.

(46) جريدة البصائر، عدد (19) مايو 1952. وانظر كذلك مذكرات سوزان طه حسين. مجلة (أكتوبر) المصرية، عدد 1977/12/04.

(47) Y.Turin, Ibid.p.36.

(48) أنظر هذا الموضوع بكل تفاصيله وخلفياته في كتابنا "إشهدي يا جزائر" الصادر عن دار الأمة (الجزائر) سنة 2002.

(49) ساطع الحصري، حوليات الثقافة العربية، مرجع سبق ذكره ص 437.

(50) المواجهات الثقافية في الجزائر المحتلة، المرجع السابق ذكره، ص: 37.

(51) أنظر مقالا حول هذا الموضوع لمولاي بلحميسي مجلة (الأصالة) الجزائرية، نوفمبر 1971، ص 127.

(*) منها مقاومة الأميرعبد القادر، ثورة أولاد سيدي الشيخ، ثورة لا لا فاطمة نسومر، ثورة المقراني والشيخ الحداد...، ثورة بوعمامة،ثورة بومعزة، ثورة بني مناصر.. إلى غير ذلك من الانتفاضات والثورات والمقاومات التي كانت كلها بقيادة رجال الزوايا المجاهدين.

(*) أي القرن العشرين، ومن أهم تلك الحركات: (نجم شمال إفريقيا)، تأسس سنة 1926. (اتحاد المنتخبين الجزائريين)، سنة 1930، (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، سنة 1931. (حزب الشعب الجزائري)، سنة 1937

(**) لعل إغفال الكاتب لذكر الزوايا راجع إلى الموقف السلبي الذي وقفته من الحركة الإصلاحية التي كان هو من رجالها، أو أنه اعتبرها في عداد الكتاتيب القرآنية (مع أن لها نظاما خاصا مختلفا عن نظام الكتاب القرآني المعروف).

(***) أنشئت سنة 1927في العاصمة، والملاحظ أن معظم المؤسسات، والهيئات الوطنية كانت تطلق على نفسها أسماء لا تخلو من ذكر الإسلام مثل (الشبيبة الإسلامية)، (جمعية العلماء المسلمين)، (الكشافة الإسلامية)، (اتحاد الطلبة المسلمين)، حتى فرق كرة القدم كان يطلق عليها أسماء من هذا القبيل مثل (المولودية)، وهي ترمز إلى مولد النبي محمد (ص.ل.ع.س.م).

(52) حولية (تقويم المنصور) الجزائر، السنة الخامسة 1929 ص 305.

(53) عيون البصائر، طبعة دار المعارف بالقاهرة 1963 ص 241.

(54) المرجع نفسه، ص 384.

(55) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، لغتنا والحياة، المرجع السابق ذكره، ص 177.

(56) جريدة (الشهاب) عدد (5)، سبتمبر 1929.

(57) جريدة (البصائر) عدد (22)، يونيو 1939.

(58) حوليات الثقافة العربية، المرجع السابق، ص 568 – 569.

(59) نفس المرجع ص 596 – 570.

(60) جريدة (الإصلاح) عدد (13)، 1930/02/27.

محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي
ومعاناتها بعد الاستقلال

د. عبد القادر فضيل

تمهيد:

المشكلة اللغوية عندنا من أعقد المشكلات التي ولدت ونمت بعد العدوان الفرنسي على الجزائر الذي كان عدوانا عسكريا وثقافيا، هذه المشكلة التي ظلت تتسع وتتعقد سنة بعد أخرى طوال العهد الاستعماري، بل استمرت آثارها حتى بعد الاستقلال.

والجانب الذي نتناوله في هذا الحديث هو المحنة التي عاشتها اللغة العربية في فترة الاحتلال، والمعاناة التي كابدتها بعد الاستقلال، تلك المحنة التي ولدها الصراع الحضاري الذي ظل قائما بين ثقافة الغالب وثقافة المغلوب وهو الشيء الذي ولد المعاناة التي كابدتها اللغة في السنوات الأولى للاستقلال وتكابدها اليوم من زوايا مختلفة.

وقبل أن نستعرض الحالة البائسة التي عاشتها اللغة العربية في فترة الاحتلال، وما تعرضت له من مضايقات واضطهادات جراء السياسة اللغوية التي انتهجتها فرنسا في تعاملها مع الجزائريين في المجال الثقافي، تلك السياسة التي فرضت على اللغة العربية أن تعيش غريبة مهانة في بلدها، وبين أهلها، مقصاة عن الوظائف الحية التي تمارسها كل لغة وطنية في بيئتها، قبل أن نتحدث عن الوضع المتردي الذي آل إليه تعليمها حتى في المدارس الأهلية، نتيجة المضايقات الإدارية والخط السياسي المنتهج، وعن ردود الفعل التي شكلت نوعا من مقاومة الجزائريين لهذه السياسة بهدف حماية اللغة والذود عن كيانها في الوقوف ضد كل ما يهددها، أو يشل حركتها.

قبل أن نستعرض كل ذلك لا بد من مدخل تاريخي يشرح الغايات التي رسمتها سياسة الاحتلال والنهج الذي سلكته في سعيها لفرض وجودها الثقافي واللغوي، ومحاصرة اللغة العربية وتشديد الخناق

عليها، ثم إقصائها وإحلال اللغة الفرنسية محلها في جميع مجالات الحياة التي يعيشها الانسان الجزائري ويتعامل معها.

مدخل تاريخي:

يبدو من سياق الأحداث التاريخية أن فرنسا لم تقدم على احتلال الجزائر إلا بعد أن حددت أهدافها من هذا الاحتلال، وجمعت معلومات عن حقيقة هذا البلد، وعن نظامه الاجتماعي، وخصوصياته الثقافية، وعن نظرتهم إلى من ليسوا على دينهم وعقيدتهم وعن التقاليد التي يعتزون بها.

لذلك وجهت اهتمامها قبل الإقدام على الغزو لمعرفة السبل والأساليب التي تيسر بها النجاح في المهمة التي هي مقدمة عليها (وهي الاحتلال)، فاحتلال الجزائر بالنسبة إلى فرنسا لا يعني احتلال الأرض والاستيلاء على الحكم فحسب، إنما الاحتلال الذي كانت تخطط له وتعد له العدة، وتبحث عن المسوغات التي تبرر بها فعلتها الشنيعة، هو احتلال البيئة الجزائرية العقلية والنفسية بكاملها، أو لنقل هو الاحتلال الثقافي بأوسع معانيه، حتى ولو كان المدخل إليه هو الاحتلال العسكري والسياسي، فالهدف المنشود – إذن – هو بسط الهيمنة التامة على المجتمع بكامل عناصره، ومؤسساته بما فيها الأسرة والمدرسة والمسجد، واللغة والثقافة والإدارة إلخ. لأنها كانت تريد أن تغير البيئة الجزائرية، وتمسخ مقوماتها، وتحولها إلى بيئة فرنسية لتصنع فيها ومنها وجودا فرنسيا ثقافة وأخلاقا في هذه البقعة من الأرض، تريد أن تجعل الشعب الجزائري شعبا مغايرا لحقيقته، منسلخا عن شخصيته (عن دينه ولغته وثقافته وعن انتمائه الحضاري) راضيا بالتبعية لغيره، قابلا للاندماج في الحياة الفرنسية، وغايتها من ذلك:

1. غرس بذور الفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية في عقول الجزائريين، وفرض لغة هذه الثقافة في هذه البلاد التي هي بوابة إفريقيا ليمتد وجودها الثقافي واللغوي إلى بقية بلدان إفريقيا، ومن يدري؟ لعلها كانت تتطلع إلى أن يتسع وجودها ليشمل بلدانا عربية أخرى.

2. وهناك غاية أخرى وهي أن تحول الجزائريين كلهم إلى رعايا فرنسيين مرتبطين عاطفيا ولغويا وفكريا بفرنسا، عليهم واجبات، ولكن ليس لهم حقوق، لأن الغاية من الاحتلال الذي خططت له هي أن تجعل من عقول الجزائريين عقولا تنفذ ولا تفكر، تقبل كل شيء ولا ترفض أي شيء.

وهذا من خصائص البيئة التعليمية واللغوية التي هيأتها لتشكيل هذه العقول بحيث لا تتيح للفرد أن ينمو وفق قدراته وحاجاته، ولهذا حرمت الجزائريين من نعمة التعلم، وفرضت عليهم حياة الجهل وما ينتج عن الجهل من خمول وجمود وضيق النظر، لأن التعلم الحقيقي هو وسيلة من وسائل التنوير والتفتح، وإذكاء الوعي، والفرنسيون لا يريدون من الجزائريين أن تتنور أفكارهم، وتتفتح عقولهم، وينمو وعيهم،

وتنتعش لغتهم، بل يريدونهم عبيدا يخدمون مصالح فرنسا وينفذون إرادتها ويقدسون ثقافتها من غير إعمال للفكر.

التخطيط لتدمير مقومات الهوية:

ولتحقيق هذه الغايات جندت فرنسا خبراءها من الفلاسفة والمستشرقين والضباط ممن لهم معرفة ولو بسيطة بالإسلام والثقافة الاسلامية واللغة العربية لدراسة مميزات الشعب الجزائري ومعرفة مداخل التأثير فيه.

وقد وجدوا أن الشعب الجزائري يتميز بعدد من الصفات والمميزات التي لا يمكن تجاهلها عند التعامل معه، ومن هذه المميزات:

تمسكه بدينه، واعتزازه بلغته العربية، وحبه لوطنه وأرضه، وغيرته على عرضه وشرفه، ولعلهم قد اهتدوا من خلال معرفتهم هذه المميزات، إلى أن لا سبيل إلى الاستيلاء على هذا الشعب والسيطرة عليه وإحداث التغيير المطلوب في ذهنيته وسلوكه إلا بالفهم الصحيح والعميق لحقيقته، والسعي إلى النفاذ إلى أعماق نفسيته، لتغييرها وإعادة تشكيلها بما يتلاءم مع أغراض السياسة الاستعمارية، لأن بقاءه متمسكا بهويته العربية الإسلامية وبشعوره الوطني يعطيه مناعة تحصنه ضد التأثيرات التي تأتيه من خارج ذاته، من هنا بدأ التخطيط لتدمير مقومات الهوية وتدمير الشعور بأهميتها، والسعي لإحداث هزة نفسية عميقة في داخل الأفراد الجزائريين، لتشكيكهم في أصولهم، وزعزعة إيمانهم بوجودهم المتميز، ومحاولة اقتلاعهم من منبتهم الثقافي والروحي، وكانت اللغة العربية هي المدخل الرئيسي والمجال المحوري لإحداث هذه الهزة القوية، ولبدء المعركة الكبرى التي فرضها الصدام الحضاري بين ثقافة الغازي وثقافة المغزو، بين الأنا والآخر، بين صاحب الدار والمغتصب المعتدي، تلك المعركة، التي بدأت مع بداية الاحتلال وكان منطلقها اللغة واستمرت، ولم تتوقف حتى بعد رحيل المحتل.

ومنذ البداية اتجهت خطة الاستعمار إلى محاربة اللغة العربية بتشديد الحصار عليها، ومنع تعليمها وتعلمها، واعتبارها لغة أجنبية يحرم التعامل بها قانونيا، وفرض اللغة الفرنسية بدلها، وإحلالها محلها في جميع المجالات، وهكذا بدأت محنة اللغة العربة التي ظلت تحمل مأساتها ومأساة أهلها، إذ لم يرفع الحصار المضروب عليها طوال فترة الاحتلال، بل ازداد واشتد في بعض الفترات، ولم تستطع المقاومة الثقافية التي أشهرها الجزائريون في وجه النظام الاستعماري أن تخلصها من هذا الحصار، لأن الأسلحة لم تكن متكافئة، ولكنها (أي اللغة العربية) ظلت صامدة في مواجهة التحديات الثقافية التي فرضت عليها، إذ لم يترك لها النظام الاستعماري أي مجال تتنفس منه، أو تطل منه على الحياة إلا مجال الوعظ

والإرشاد الديني، أما المجالات الأخرى العلمية والتربوية والإدارية والاقتصادية ومجال التقاضي بين الناس فهي محرمة عليها لأنها الميادين التي أحتكرتها اللغة الفرنسية وحدها، ومع ذلك لم يهجرها أهلها، ولم يتنكروا لها.

إن معرفة هذه الخصائص التي يتميز بها الشعب هي التي دفعت حكام الاستعمار إلى رسم خريطة المعركة التي سعوا من خلالها إلى تحقيق أمرين:

1. محاولة إضعاف الشعور العربي الإسلامي في نفوس الجزائريين أو انتزاعه منهم بشتى الوسائل ليسهل تغيير مشاعرهم وقناعاتهم.

2. ضرب حصار محكم على الجزائر وتشديد الرقابة على ما يأتيها من البلدان العربية والإسلامية من كتب ومجلات وجرائد وأفكار وعلماء وتقييد حرية التنقل خارج الجزائر بما في ذلك الذهاب إلى الحج، وظن هؤلاء الحكام أن هذه الاجراءات يمكنها أن تصرف الجزائريين عن التمسك بهويتهم والتعلق بثقافتهم، وتضعف إصرارهم على بقائهم منتمين إلى قوميتهم ولكن ذلك كله كان مجرد أحلام لم يتحقق منها شيء، إذا استثنينا بعض الحالات الشاذة، والغريبة.

وبهذا أصبح واضحا لدى إدارة الاستعمار أن للغة والدين دورا بالغ الأهمية في حماية الشخصية وتماسك المجتمع، إذ هما اللذان يقفان ضد كل محاولة للنيل من كيان الشعب أو فصله عن أصوله وتذويبه في بيئة أخرى تضاد ثقافته، لذلك كان اهتمام الإدارة الفرنسية في الجزائر منصبا على هذا الجانب منذ البداية أي على الدين واللغة، والثقافة، لأنها المفاتيح التي إن استولت عليها وجدت المنفذ الذي منه تدخل إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، وتؤثر في حياتهم وفي محيطهم الثقافي، وقد ركزت على اللغة العربية بصفة خاصة لأنها السبيل إلى ضرب الدين وتشويهه أو تهميشه، وطمس معالم الثقافة النابعة من هذا الدين، فقد كان الحكام ينظرون إلى الغزو العسكري على أنه مجرد مدخل تنطلق منه المعارك الحقيقية التي يرون الانتصار فيها هو الانتصار الحق الذي تحركوا من أجله، وخططوا له، وهو: محو شخصية الأمة، وتجريد أفرادها من كل شعور يربطهم بمقومات هذه الشخصية، وقد رأوا أن السبيل إلى ذلك أحد أمرين أو هما معا:

1. إما اتباع سياسة التجهيل في التعامل مع المواطنين بحرمانهم من نور العلم ونعمة التعلم وإبقائهم مهمشين غارقين في وحل الجهل وظلام الأمية، بعيدين عن عالم الفكر والمعرفة، ليسهل ابتلاعهم وإذابتهم في البيئة الفرنسية، وسياسة التجهيل المرادة لا تنحصر في إبعاد الشخص عن مجالات التعلم وإبقائه جاهلا عديم المعرفة، فاقد القدرة على القراءة إنما يشمل كذلك وبالخصوص اختيار نوع المعاملة

التربوية التي تفرض مضامين تعليمية ترسخ، جهل الفرد بذاته وبدينه ولغته وتاريخ أمته، وبالحقائق التي تعيش معه وحوله، وتركه مسجونا في ظلام الأمية الحضارية، ولا تتيح له من المعارف المفيدة إلا ما يمكن أن يستخلصه بالغريزة.

2. وإما اتباع سياسة الفرنسة التي تنطلق من فرنسة اللسان إلى الفكر إلى الوجدان إلى العادات والتقاليد، بحيث تسخر لذلك المدرسة والإدارة والنظام الاجتماعي وإجراءات التعامل اليومي لتحقيق هذا الهدف، وهذا ما كان ينادي به كبراؤهم ممن كانوا يؤيدون تأسيس مدارس للجائريين لتنشئة أبنائهم تنشئة فرنسية تنمحي معها الخصوصيات الوطنية.

الفرنسة ضرب من التجهيل

فالفرنسة لا تعني تغيير أداة الخطاب لدى الجزائريين من لغة عربية إلى لغة فرنسية، كما لا تعني التركيز على تعليمهم بالفرنسية وحدها إنما تعني فرنسة الروح والفكر والشعور بحيث يصبح إحساس الفرد المتعلم بعروبته وإسلامه ووطنه شبه منعدم، لأنه زرع فيه إحساس آخر وتصبح الهوية بالنسبة إليه مجرد بطاقة تعريف تستخرج من مصالح الحالة المدنية لا علاقة لها بالوطن أو اللغة أو الدين ومن ثم فالانتماء الذي تكرسه الفرنسة هو الانتماء الثقافي واللغوي، فأية لغة يتقنها المرء ويتعاطف معها فهي جنسه وجنسيته وأية ثقافة يتعاطاها بفكره ووجدانه فهي روحه وانتماؤه، ومن هنا يتضح أن لا فرق بين سياسة التجهيل وسياسة الفرنسة في مفهوم الاستعمار لأن الغاية واحدة، هي التهميش والإهمال أو صناعة إنسان جزائري مطبوع بالطابع الفرنسي محتواه الوطني مشوّه.

فالأجيال التي تنشأ في هذا المحيط وتحكمها سياسة الاستعمار إما أن يتجه المسعى إلى فرنستها بتغيير شعورها وتفكيرها، وغسل أمخاخها، وإما أن يتجه المسعى إلى تجهيلها بحرمانها من التعلم وإبقائها مهمشة غارقة في وحل الجهل وظلام الأمية، ومن هنا فالفرنسة جهل كذلك لأنها تجعل الإنسان يجهل ذاته وتاريخه وأصوله لأن التعليم الذي كانت فرنسا تسمح به للجزائريين أو تنظمه لهم ليس تعليما راقيا، لا يرفع الجهل عنهم، ولا ينمي قدراتهم، وإنما هو تعليم بسيط يبقيهم جهالا حتى ولو كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

هذا وقد تتحقق أهداف الفرنسة حتى من خلال تنظيم دروس بالعربية داخل المدرسة، إذا كانت هذه الدروس مفرغة من مضمونها الحضاري والثقافي، لأن المهم في عملية التعلم هو المضمون الثقافي الذي تقدمه المدرسة، والطريقة التي يعالج بها هذا المضمون، والروح التي يحملها المعلم وتترجمها نصوص الكتاب.

مرتكزات سياسة الفرنسة:

إن سياسة الفرنسة قامت أساسا على احتقار العنصر الوطني، وعلى الاستخفاف بثقافته وشعوره وعلى امتهان لغته ومضايقتها ومطاردة المهتمين بها وقد ارتكز تنفيذ هذه السياسة على أمرين: أمر سياسي، وأمر إداري:

الأمر السياسي: ترجمته المواقف الرسمية والقرارات والتعليمات الحكومية التي كانت تصدرها حكومة فرنسا من حين لآخر بهدف وضع حد للحياة العملية التي كانت تحياها العربية في التعليم والإدارة، ومرافق الدولة وإقصائها، ومنع التعامل بها وفي الوقت ذاته تلح هذه القرارات في توجيهاتها على تعميق الاهتام باللغة الفرنسية، وتجنيد الوسائل لفرضها على الجزائريين.

الأمر الإداري: ترجمته الاجراءات العملية التي كانت تنفذ في الميدان (في المدرسة وفي الإدارة وفي المحيط الاقتصادي والتجاري والاجتماعي) تلك الاجراءات التي كانت تكرس التعامل بالفرنسية وترفض غيرها، ومن كان لديه من المواطنين مستندات محررة بالعربية يفرض عليه ترجمتها إلى الفرنسية وإلا رفضت، ويعني هذا أن العربية فرض عليها أن تصبح لغة أجنبية في وطنها.

ويمكن أن نرصد هنا بعض القرارات والتعليمات التي فرضت هذا الوضع، ووجهت اهتمام المسؤولين في الإدارة الفرنسية لتجنيد الوسائل الكفيلة بفرض اللغة الفرنسية في مجالات التعامل الرسمي، وإعطائها السيادة المطلقة، وإرغام الجزائريين على قبول هذا الأمر، والخضوع له، كما يمكن أن نرصد بعض القرارات والإجراءات التي حاصرت العربية وامتهنتها وشددت الخناق عليها حتى في المدارس الحرة. وصنفت معلميها والمشرفين عليها في خانة المجرمين الذين يجب ملاحقتهم وإدانتهم، كما سنوضح ذلك من خلال ما ذكره الشيخ محمد البشير الابراهيمي في تعليقه على أوضاع معلمي العربية.

وقد كان المحيط الاقتصادي والاجتماعي هو الآخر مجالا حيا انتعشت من خلاله سياسة الفرنسة بل وجدت فيه كل ما ينعشها ويدعم اتجاهها، ويوسع دائرتها، ويهيء الأسباب التي تصرف الجزائريين عن لغتهم طوعا أوكرها.

القرارات والتعليمات:

نستعرض فيما يلي عددا من القرارات والتعليمات التي تفرض التعامل باللغة الفرنسية وتقصي اللغة العربية من مجال الاستعمال وهي:

1. قرار صدر عام 1848 حول اللغة ورد فيه: (إن لغتنا هي اللغة الحاكمة، إن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته ... بهذه اللغة، وبهذه اللغة وحدها، يجب أن

تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا... وأن أهم ما ينبغي أن نعتني به هو السعي لجعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالهم، وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين) (1)

عجيب أمر هؤلاء الحكام يتصورون أن فرض استعمال اللغة الفرنسية في التعامل الإداري حق من حقوق لغتهم، وفي الوقت نفسه يعتدون على حق اللغة العربية الشرعي في وطنها ويسعون جادين لاقتلاع الجزائري من أصله وإدماجه في البيئة الفرنسية وجعله في الأخير فرنسيا (1 مكرر)

2. تعليمة موجهة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال جاء فيها: (إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هنا لغة قومية، والعمل الجبار الذي يتوجب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية (2).

3. في عام 1904 صدر قانون يحرم على الجزائريين أن يفتحوا مدرسة عربية أو كتابا لتعلم القرآن ما لم يحصلوا على ترخيص من إدارة العمالة، والترخيص لا ينال بسهولة لأن هناك شروطا تعجيزية تفضي في النهاية إلى المنع (3).

4. ثم جاء قرارا "شوطان" وزير داخلية فرنسا في عام 1938 ليؤكد تطبيق القانون السابق الخاص بمنع فتح مدرسة لتعليم العربية، وقد شن الإمام عبد الحميد بن باديس حملة عنيفة على هذا القرار في الجرائد وفي الدروس (4).

إن الذي يتتبع تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومواقفه من تعليم الجزائريين يجد تيارات مختلفة، بعضها يرى ضرورة ترك الجزائريين جهالا، وبعضها يرى أنه لا بد من توفر نوع ملائم من التعليم بحسب الهدف الذي ترمي إليه سياسة الاستعمار، ولكن، ما ينبغي ذكره هنا هو: أن الفرنسيين لم يكونوا على رأي واحد فيما يخص موضوع تعليم الجزائريين، ولكنهم لا يختلفون في نظرتهم إلى الجزائري الذي يجب في رأيهم أن يبقى مستواه دون الإنسان الفرنسي وحتى إذا انعموا عليه بتوفير فرص التعلم والسماح له بالاستفادة منها، فيجب أن يكيف هذا التعليم مع أهدافهم، لأن الفرنسيين يريدون من الجزائري أن لا يتجاوز حظه من التعلم بعض المعارف العملية البسيطة التي تمكنه من ممارسة الأعمال التي تتطلبها خدمة المصالح الفرنسية: يقول أحدهم: (وإذا رفعنا الأهالي إلى مستوانا فسنعمل على طرد أنفسنا من هذه البلاد، ولهذا يجب إبقاؤهم على حالتهم السفلى)(5).

بعض أقوال الفرنسسين الشارحة لسياستهم اللغوية

1. يقول كومب إميل في خطاب له في مجلس الشيوخ بفرنسا: (إن مدرستنا لا تعني شيئا إذا لم تنشر في عقول الشباب أفكارنا وتكون اللغة الفرنسية ترجمانا لذلك ...(6).

2. ويوضح رامبو (وزير التربية في الجمهورية الثالثة) سياسة فرنسا إزاء المدرسة الجزائرية حيث يقول:

لقد انتهى الغزو الأول للجزائر الذي تم بالسلاح عام 1871 وتطلب الغزو الثاني حمل الجزائريين على تقبل إدارتنا وقضائنا أما الغزو الثالث فسيتم بالمدرسة: يجب أن تحقق المدرسة الفرنسية تفوق لغتنا على مختلف اللهجات وترسخ في أذهان الجزائريين عظمة فرنسا ودورها في العالم (7)

3. في هذا الاتجاه كتب أحد الفرنسيين كلمة يقول فيها:

(إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا وجعلهم أكثر ولاءا وأخلص في خدمتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وبتقاليدنا، فالمقصود إذن هو: أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد (8).

إن نوع التعليم الذي كان يجري النقاش بشأنه بين الكولون ومن كانوا يضادونهم في الفكرة هو تعليم يتناسب مع مصالح فرنسا ويتوخى جعل الجزائري عنصرا مفيدا للمستعمرة ومساعدا وفيا لإدارة فرنسا يعمل وفق رغباتها ويسير في الاتجاه الذي ترسمه له.

وهذا يعني أن التعليم الموجه خصيصا للجزائريين تعليم منحط لا يرقى إلى مستوى التعليم الذي يتلقاه الفرنسيون حتى في المستوى اللغوي لأن الفرق كان واضحا بين التعليمين.

وإلى هذا المعنى تشير بعض التقارير التي جاء في أحدها: (يكمن اهتمامنا وانشغالنا الثابت في المحافظة على تفوق العنصر الفرنسي، وإذا رفعنا الأهالي إلى مستوانا، فسنعمل على طرد أنفسنا من هذه البلاد)، (9) إنهم يدركون جيدا أن الجزائري إذا تلقى تعليما راقيا فستبرز عبقريته وعند ذاك يثور ويرفض تبعيته لفرنسا.

وقد كتب الجنرال "هوتبول" في شأن الغزو الفكري للجزائر فقال: (من أحدث الوسائل البناءة للوصول إلى إقرار الأمن الكامل في الجزائر هو نشر اللّغة الفرنسيّة بين السكّان، والطابع الإدماجي في التّعليم الخاص بالجزائريين ليس هو نقل التعليم الفرنسي إلى الجزائر فقط وإنّما هو عمل سياسي مدروس وفقا لأهداف فرنسا الاستعمارية) (10).

وتعني هذه الأقوال أن تعليم الجزائريين الذي بدأ الاهتمام به مؤخرا أي بعد 20 سنة من الاحتلال هدفه الأساسي هو تحقيق الفرنسة التامة التي هي النقطة المحورية في سياسة الاستعمار.

وقائع الحرب المعلنة على اللّغة العربيّة:

إنّ الحرب على اللّغة العربية انطلقت من ضرب القلاع التي كانت تحصن تعليمها، فالمؤسّسات التّعليمية الأهليّة التي كانت تمارس بها اللّغة العربيّة نشاطها داهمها الاحتلال ودمرها أو استولى عليها وحول وظيفتها، فلم تجد العربيّة ملاذا تأوي إليه وتواصل نشاطها فيه لأن الفرنسيّة اغتصبت أماكنها وحلت محلها.

وتنفيذًا للخطّة العمليّة المنتهجة في هذه الحرب، فرضت الإدارة الاستعماريّة على الجزائريين أن يضعوا لغتهم جانبا ويتعاملوا إجباريا باللغة الفرنسيّة كما لو كانت لغتهم، مما زاد في محنة اللّغة العربيّة وعمق المأساة التي أصبحت تعيشها.

فالمضايقات التي سلطت عليها وعلى معلميها سواء في المؤسّسات الرّسميّة أم في المؤسّسات الأهليّة مثل الزوايا والكتاتيب والمدارس الحرّة التابعة للهيئات والجمعيّات هي أكبر محنة ابتليت بها العربيّة واعتداء صارخ على حرمتها، لا لشيء إلاّ لأنّها وعاء الثقافة الإسلاميّة التي تشدّ الجزائريّين إلى أصولهم الحضاريّة، إنّ هذا الوضع حرمها من مواصلة النّشاط في المجال الإبداعي والإسهام الحضاري، وصرف النّاس عنها وجعلهم يقبلون على غيرها ودفع المتعلمين بها إلى نوع من الإنكماش عن الحياة والانطواء على الذات والهجرة إلى الخارج لأنّهم وجدوا أنفسهم مضطهدين مهمشين، لا يتاح لهم فعل أيّ شيء يفيدهم ويفيد ثقافتهم.

ومن أخطر الإجراءات التي اتخذت لسد المنابع التي تغذّي العربيّة وقطع أسباب الحياة عنها:

1. الاستيلاء على مؤسّسات التّعليم التي كانت مركز إشعاع بالنّسبة إلى الجزائريين تلك المؤسّسات التي كانت اللّغة العربيّة فيها هي لغة التعليم والبحث، ولكن بعد الاستيلاء على هذه المؤسّسات قلّ نشاطها وضاق مجال التعلّم بالعربيّة، وقلّ عطاؤه.

2. مصادرة الأملاك الوقفية والريع الذي كانت تدره على المؤسّسات، لأنّها المورد الثريّ الذي كان يغذّي التعليم ويموّل الأنشطة الجارية في المؤسّسة التّعليميّة.

وبعد الاستيلاء على أملاك الوقف الذي قصد به القضاء على التّعليم الإسلامي العربي لم تجد المؤسّسة التعليميّة ما يمكّنها من الاستمرار في أداء وظيفتها المحدّدة لها وفق صيغ الوقف، وهذا قلّل من فاعليّة التّعليم الأهلي ومن نشاط اللّغة العربيّة وترك المجال فسيحا أمام المدرسة الفرنسيّة لتصنع بالأجيال وباللّغة العربيّة ما تشاء فإنّ هدف المدرسة الفرنسيّة في الجزائر هو محاصرة كلّ المؤسّسات التي كانت تزاحمها أو تنافسها في العطاء العلمي، أو توقيف نشاطها وإغلاقها نهائيا.

3. ضرب حصار شديد على الجزائر وتشديد الرّقابة على ما يأتيها من البلدان العربيّة والإسلاميّة من كتب ومجلاّت وجرائد وأفكار وعلماء، وتقييد حريّة التنقّل خارج الجزائر بما في ذلك الذهاب إلى البقاع المقدّسة، وظنّ هؤلاء الحكّام أنّ هذه الإجراءات يمكنها أن تصرف الجزائريين عن التمسّك بهويّتهم والتعلّق بلغتهم وتضعف إصرارهم على بقائهم منتمين إلى قوميتهم، ولكن الحقيقة هذه مجرد أحلام لم يتحقّق منها شيء، إذا استثنينا بعض الحالات الشاذة.

إنّ فرنسا بهذه الإجراءات قضت شيئا فشيئا على التعليم الأهلي (الوطني) وعلى المنابع التي كانت تغذيه وهمشت اللّغة العربيّة التي هيّ الوعاء الرّسمي الذي كان ينقل إلى المتعلّمين كلّ أنواع المعارف، ولكن فرنسا لم تكن تريد لهذه اللّغة أن تجد الظّروف التي تنعشها وتبقيها حيّة، لذلك ظلّت مصمّمة على تخريب المؤسّسة الوطنيّة وإيقاف نشاطها، وتوجيه النّاس إلى العيش في رحاب المدرسة الفرنسيّة.

ولم تكتف فرنسا بحرمان الأهالي من تعلّم لغتهم والاتّصال بثقافتهم بل عمدت إلى حرمانهم من نعمة التعلّم عموما، لأنّها كانت تخشى من الشّخص المتعلّم لأنّ التعلّم يفتح أمامه آفاقا فكريّة ويدفعه إلى التّفكير في الأوضاع التي تلائمه والمعارف التي تطوّر حياته.

وهذه الحقيقة دفعتهم إلى تضييق مجال التعلّم الموجّه إلى الجزائريّين واتّخاذ الحيطة والحذر حتى لا يؤدي التعليم إلى نتائج عكسيّة، وعلى هذا كان أقطابهم يصرحون بهذا الذي يخشونه من تعليم الجزائريّين حتى أنّهم قالوا إنّ الذين شاركوا في الانتفاضات الشعبيّة كانوا من الذين تعلّموا في المدارس.

وعلاوة على ذلك فإنّ فرنسا لم تقتصر في سياستها الظالمة على حرمان الجزائريّين من معرفة لغتهم وثقافتهم بل أوقعت في روعهم أنّ الثقافة تنحصر في الثقافة الفرنسيّة، وأنّ تاريخ الجزائر يبدأ عام 1830 أي تاريخ قدومها إلى الجزائر.

وليس من المستغرب إذن أن نجد من كونتهم فرنسا وفق هذه السّياسة يقدّسون أعلام الفكر الفرنسي، ولا يعرفون أنّ ديكارت سبقه الغزالي وأنّ فيكو سبقه ابن خلدون وأن كلود برنار سبقه ابن سينا...إلخ (11).

اتجاهات المدرسة الفرنسيّة في الجزائر:

المدرسة هيّ السّلاح القويّ الذي استخدمته فرنسا للقضاء على الشّخصيّة الجزائرية، وتدمير البناء الثقافي الذي هو روح هذه الشّخصيّة من خلال تكريس الفرنسة بمفهومها الواسع الذي لا يكتفي فيه بفرنسة اللّسان وتغيير أداة الخطاب.

وحين يستعرض المرء سياسة التّعليم التي انتهجتها فرنسا في الجزائر يجدها سيّاسة قائمة على احتقار العنصر الوطني والاستخفاف بثقافته ولغته، والحرص على إفناء هذه الثقافة أو تجفيف منابعها الثريّة ليفرغ المجال لثقافتها ولغتها.

والاتجاه الذي تبنته في هذه السّياسة هو تجاهل حاجات المواطنين والسير وفق مصالحها وحاجاتها إلى الجزائريّين في مجالات معيّنة، لذلك بنت نظامها التعليمي في الجزائر وفق هذه الحاجات، ونتج عن ذلك تنظيم أنماط تعليميّة ثلاثة:

1. نمط تعليمي خاص بالفرنسيّين والأوروبيّين ومدارسه منتشرة في كلّ المدن والقرى التي يقطنها الفرنسيّون وهو النمط الذي بقي مستمرًا إلى النّهاية والذي لم تدرج فيه العربيّة.

2. نمط تعليمي خاص بالأهالي ومدارسه محدودة الانتشار ومناهجه ضحلة، لأن الهدف السّياسي يقتضي ذلك، ولكن هذا النّوع لم يستمر، فقد تمّ الاستغناء عنه في الأخير.

3. نمط تعليمي مزدوج اللّغة والوظيفة وهو خاص بطائفة من الجزائريّين الذين أرادت فرنسا أن تستعين بهم وتعدهم لبعض الوظائف التي لا يستطيع الفرنسيون القيام بها، مثل: الترجمة القضاء الشرعي، الإمامة والإفتاء وتدريس اللّغة العربيّة الفصيحة ومدارس هذا التعليم سميت بالمدارس الفرنسيّة الإسلاميّة وعددها ثلاثة: واحدة في فسنطينة وثانية في تلمسان وثالثة في الجزائر، ويجري التعليم فيها باللغتين الفرنسية والعربيّة (العربيّة مخصّصة لتدريس المواد الأدبيّة والفقهية)، والمشرفون عليها من المستشرقين. إنّ هذا النّوع من المدارس يحمل في ظاهره صبغة عربيّة إسلاميّة ولكنّه مطعم بروح فرنسيّة تتخلّل مناهجه وتسري في تنظيمه وفي الطرائق المتبعة فيه، وقصد بإنشائه محاربة التعليم الإسلامي الأهلي ومنافسة المناهج التي تتمّ في الزيتونة وفي القرويين، ومهما يكن فالعربيّة قد عرفت مع هذه المدارس وجودا متميّزا لم تعرفه المدارس والمعاهد الأخرى التي كان حظها من العربيّة ضئيلا أو منعدما، لانّها تعامل معاملة اللّغات الأجنبيّة فيطرح الاختيار للمتعلّمين، وإذا اختيرت العربيّة فالدّارجة هي المرشّحة لذلك، والشيء الملاحظ هو أن الإدارة لم يكن لديها اهتمام كبير بهذه المدارس فكأنّ الأمر مفروض من المستويات العليا، لذلك بقيت الأعداد التي ترشح لها محدودة، والمواد التي تدرس فيها بالعربيّة محدودة كذلك.

ولعلّ حذف كلمة (عربيّة) من تسمية هذه المدارس يؤكّد أنّها لم تنشأ لخدمة العربيّة أو لترقية الاهتمام بها، إنّما توظّفها لأغراض نفعيّة أي لإعداد إطارات تحتاجهم الإدارة الفرنسيّة لبعض الوظائف التي لا بد منها لمسايرة ميول مجتمع عقيدته الإسلام ولغته العربيّة، ومع ذلك نستطيع القول: إن هذه المدارس على قلتها ومحدودية نشاطها كونت عددا من الإطارات التي اعتمدتها الجزائر في بداية

الاستقلال في مجالات التسيير لكونها تملك اللغتين، والإدارة الجزائريّة الفتيّة كانت آنذاك بحاجة ماسة إلى هذا النوع من الإطارات. وحينما يستعرض المرء تاريخ هذه المدارس يجد أنّها أسهمت في مدّ الوطن بإطارات تملك هذه اللّغة، وتملك القدرة على العمل بها إن أتيح لها ذلك، ويشيد السيد أحمد توفيق المدني في كتابه (كتاب الجزائر) بهذه المدارس فيقول: (يجب علينا أن نعترف بفضل المدارس العربيّة الثلاث (يقصد المدارس الفرنسيّة الإسلاميّة) التي أخرجت لنا في الجزائر طبقة من القضاة والعدول والوكلاء لا يستهان بها، إن لم تكن لهم معارف الأسلاف وتوسعهم في العلم والتحقيق فإن لهم ملكة عربيّة إسلاميّة طيبة، ولهم من الأفكار الصحيحة والاطلاع على ما يجعلهم في طليعة المتنوين بالقطر الجزائري). "كتاب الجزائر ص 27" وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

إنّ هذه المدارس رغم أنّها أنشئت لمهمة معينة إلاّ أنّها وفرت المجال لبعض الراغبين في تعلم العربيّة وآدابها مما جعلهم يفضلونها على المدارس الأخرى ولكنّنا مع الأسف ألغينا هذا النظام في بداية الاستقلال، وجعلناها ثانويات عادية وكان المفروض أن نطوّرها ونوجّه مناهجها لتتلاءم مع اتجاهاتنا السّياسيّة والثقافيّة، لأنّنا كنّا مقدمين على انتهاج أسلوب الازدواجيّة التي أصبحت فيما بعد خيارا ثقافيا، ولكنّنا لم نحدد لحد الآن طبيعة هذه الازدواجية وكيف يكون التوازن الثقافي في تكوين الناشئة.

هذا وقد حرصت الإدارة الاستعمارية في إطار النمط التعليمي الموجّه إلى الفرنسيّين على تكوين نخبة من المثقّفين الجزائريّين لتستخدمهم وسطاء بينها وبين مشاريعها الحضاريّة في مجال نشر أفكارها واتجاهاتها وتوجيه سلوك النّاس ليتلاءم مع الحياة الفرنسيّة والثقافة الأوروبية، ولكنّها لم تنجح فيما خطّطت له النّجاح الذي كانت تأمله، لأنّ هناك من تشبعوا بالثقافة الفرنسيّة ولكنّهم بقوا أصلاء مرتبطين بوطنهم حريصين على خدمته متعاطفين مع ثقافة مجتمعهم حتى ولم يكن لديهم إلمام بهذه الثقافة أي أنّهم خدموا وطنهم بالفرنسيّة ونموا احساسهم بضرورة خدمة الوطن، ولم يخدموا فرنسا.

يمكن أنهم خدموا اللّغة الفرنسيّة، وهذا طبيعي، ولكنّه لا يضرّ إذا كانت خدمة هذه اللّغة لا تضرّ لغتهم ولا تهين وطنهم.

هذا وإن المطالب التي كانت تلحّ عليها بعض الهيئات والأحزاب والزّعماء في مجال تنبيه حكام فرنسا إلى ضرورة العناية باللّغة العربيّة وترسيمها في التّعليم وفي الإدارة مثل الفرنسيّة تماما، هذه المطالب أكّدت الدور الإيجابي لهذه النخبة، وبيّنت أنّها ليست نخبة مزيّفة كما كان يراد لها غير أن بعض أفراد هذه النخبة تغيّرت مع الزّمن مواقفهم فانسلخوا عن ماضيهم، فأصبحت ثقافتهم تقودهم ولا يقودونها، لذلك ظلوا يؤثرون سلبا في المجالات الحياتية الهادفة إلى ترقية الاهتمام باللّغة العربيّة وتغيير النّظرة إليها.

مقاومة الجزائريّين لسياسة الاستعمار الثقافية

وقف الجزائريون ضدّ السياسة الاستعماريّة في المجال الثّقافي وعارضوها معارضة شديدة، وقاوموها مقاومة عنيفة، لأنّهم كانوا متيقّنين من الهدف الذي كانت ترمي إليه فرنسا من سياستها وهو فرنسة الشّعب الجزائريّ فكرا ولسانا وروحا، لذلك لم يستسلموا للوضع المفروض عليهم، بل واجهوه بما يستحقّ، فقاطعوا المدرسة الفرنسيّة واعتبروا الانتساب إليها مدخلاً إلى التّنصير والمسخ الثّقافي والأخلاقي (12).

ومن أهمّ الأساليب التي اعتمدوها في المقاومة:

1. تمسّكهم القويّ بلغتهم إلى درجة التّقديس، ورفضهم الكامل لكلّ المحاولات الهادفة إلى التّقليل من حبّهم للغتهم، وتشويه صورتها في أذهانهم، وإقناعهم بأن الفرنسيّة هي اللّغة التي تصلهم بعالم الحضارة.

2. الحرص الشّديد على تعليم أبنائهم في الكتاتيب القرآنية، وفي المؤسّسات الدينيّة التي كانوا يرون فيها الملاذ الآمن الذي يحفظهم من كلّ تسيّب خلقي، ويحميهم مما تريده فرنسا لهم.

3. رفضهم القويّ للمدرسة الفرنسيّة ولبرامجها وامتناعهم عن تسجيل أبنائهم فيها لأنّهم يرونها وسيلة من وسائل التّنصير والتّكفير ونشر العادات الفرنسيّة التي لا تنسجم مع عاداتهم.

هذا اتجاه، وهناك اتجاه آخر لم يكن يرفض المدرسة لذاتها من حيث هي مدرسة فرنسيّة، لأنّ التعليم مهما كان فهو مفيد، ولكنّه كان يرفضها لأنّ برامجها بنيت على أساس ما تحتاجه فرنسا، لا ما يحتاجه الجزائريّون، بل كانت في كثير من الأحيان تتعارض مع حاجات المتعلمين وواقع مجتمعهم، وكانت بعض الأفكار التي تطرحها تعادي البيئة الجزائريّة، ولا تخدم الفكر الإنساني عموما، وإنّما كانت تخدم السّياسة الاستعماريّة، وتستخفّ بالقيم العربيّة الإسلاميّة، ولذلك ظل أصحاب هذا الاتجاه، يطالبون بتغيير المناهج وبترسيم اللّغة العربيّة إلى جانب المعارف الأخرى وإتاحة الفرصة لأبناء الجزائر لكي يتلقوا تعليما راقيا ويندمجوا في الحياة العامة، وليعيشوا في وطنهم مكرّمين، لذا لم يخل مطلب من مطالب الهيئات السّياسيّة والعلميّة في الجزائر طوال فترة المقاومة السّياسيّة من الإلحاح على إزالة الحيف والغبن عن اللّغة العربيّة، ورفع الحصار عنها، وتخليصها من المحنة التي أوقعتها فيها المدرسة الفرنسيّة، والعمل على إعطائها الاعتبار في النّظام التّعليمي مثل الفرنسيّة تماما، ولكن هذه المطالب بقيت مجرّد مطالب لم يتحقّق منها شيء، ولم تلق الاهتمام المطلوب، لذلك اتّجه اهتمام النّخبة الوطنيّة التي تعي ظروف مجتمعها إلى الجهد الذّاتي والمقاومة الثّقافيّة بتأسيس المدارس الحرّة وتنظيم التعليم الأهلي (رغم العوائق)، وتنشيط العمل الثّقافي والصّحافي الذي يدعّم هذه المقاومة وينمّيها ويسهم في بثّ الوعي الوطني والقومي

الذي من شأنه تحصين أبنائنا مما يتعرّضون له من أشكال المسخ، وقد خطّطت جمعيّة العلماء المسلمين الجائريّين التي أسّست عام 1931 لهذا النّوع من المقاومة التي ظلّت تقودها إلى جانب الهيئات السّياسيّة الوطنيّة في المجال الفكري والتّربوي والسّياسي، ضبطت خطّة إصلاحيّة وبرامج تعليميّة نفذتها من خلال المدارس التي جنّدت الشّعب لإنشائها بغرض مقاومة أشكال الانحراف والمسخ، والوقوف في وجه سيّاسة التّجهيل والتّنصير والإدماج وتمكين الأجيال من معرفة لغتهم وتاريخهم وأمور دينهم، وما ينتظره المجتمع منهم.

4. من أساليب المقاومة: التشبّت بالتّراث والقيم الثّقافيّة التي تجعل الإنسان الجزائريّ يصمد في الدّفاع عن وجوده ويحافظ على خصوصياته، ويرفض الاندماج في خصوصيات غيره.

وقد كان للزوايا وحلقات العلم في المساجد والكتاتيب القرآنيّة دور لا يستهان به في توفير فرص التعلّم والتّثقيف، والانكباب على حفظ القرآن الكريم، وتحصيل المعارف التي من شأنها تحصين المواطنين ضدّ سياسة المسخ والجهل، وخاصة في بداية الأمر حينما لم يكن أمام الجزائري إلاّ أحد أمرين:

إمّا أنّه يترك أبناءه فريسة الجهل وإمّا أن يدفعهم إلى الاندماج في سيّاسة فرنسا التعليميّة.

لهذا كانت الزّوايا هي الحلّ الثالث الذي يجنبهم الخيار الصعب، لأنّها تفتح لهم أبوابها وتعلّمهم لغتهم ودينهم وتحصن شخصيتهم، وتوفر لهم الملاذ الآمن الذي لا يجدونه في المدرسة الفرنسيّة.

ولولا الزّوايا والمدارس الحرّة ودروس المساجد التي وجدت فيها الأجيال ضالتها لما وجدنا في بداية الاستقلال من يتكلّم العربيّة الصّحيحة أو يفهم نصوصها أو يحفظ شيئا من القرآن الكريم.

لقد كان للزوايا التي تهتمّ بنشر العلم وتعليم النّاس فضل كبير في تربية النّاس على الارتباط بتراثهم وبلغتهم، لأنّها كانت بمثابة مراكز ثقافيّة ومعاهد تعليميّة للكبار والصّغار وكانت ملجأ أو ملاذا للجزائريّين الذين احتموا بها من خطر الإبتلاع الذي ظلّ يهدّدهم.

5. المقاومة السّلبيّة التي دفع الشّعب إليها والمتمثّلة في هجرة العلماء والمثقّفين الذي أحسّوا بخطورة المخطّطات الفرنسيّة الهادفة إلى مسخ الإنسان الجزائريّ، وتغيير عقيدته فالتجأت أعداد من العلماء، والمثقّفين الذين خافوا على عقيدتهم إلى هجرة الدّاخليّة والخارجيّة بمغادرة البلاد والاتّجاه نحو الأماكن البعيدة عن الضّغط هروبا بإيمانهم وحفاظا على ثقافتهم ولغتهم وبحثا عن الاستقرار النفسي، وسعيا إلى المزيد من المعرفة التي سدّت منابعها في الجزائر.

ثمّ إنّ التّجنيد الإجباري الذي بدأت تطبيقه، زاد في توسيع مجال الهجرة وعمق الإحساس بالإهانة.

6. لم يغب عن الفرنسيّين الدور الذي يؤدّيه التمسّك بالعقيدة لذلك كتب أحدهم وهو رئيس بلديّة قسنطينة يقول: (هناك حائط يفصلنا هو الدّين، هذا الحائط قويّ جدّا رغم أنّه مبني من التّراب، ومن

العبث محاولة تحطيمه، وإنّما يكفي لذلك فتح بعض النوافذ عن طريق نشر اللّغة الفرنسيّة أوّلا وبعض الأفكار الصّحيحة وبعض المعارف الدّقيقة والمفيدة أخيرا) (13).

إنّ المقاومة الجزائريّة ضدّ العدو الفرنسي لم تتوقّف طوال فترة الاحتلال حتى وإن توقّفت المعارك المسلّحة التي دامت أكثر من خمسين سنة، لأن المقاومة لها أوجه عديدة وأشكال مختلفة فالشعب بعد أن رأى أنه من الصعوبة الاستمرار في المقاومة العسكرية، غيّر أسلوب المواجهة، فاتّجه إلى التمسّك بالجانب الحضاري للمقاومة (أنظر كتاب تاريخ الجزائر الثقافي ج3 ص288 للدكتور أبو القاسم سعد الله)، والذي يتمثّل في التمسّك بالمقومات وعدم التنازل عن الخصوصيات والتقاليد والعادات التي تبقيه محافظا على شخصيته رافضا الحياة التي يدعو إليها المستعمر.

ومع مرور الزمن وجه اهتمامه إلى جانب آخر من المقاومة وتمثل ذلك في الجانب السياسي الذي فرض عليه أن ينظم نفسه ويراجع أساليب نضاله ويشكل الجمعيات والأحزاب والهيئات التي تنوب عنه في الدفاع عن حقوقه واحترام مقوماته والمطالبة بحقه في تسيير أموره بنفسه وتعليم لغته ودينه وتاريخه، إلى جانب الأسلوب الثقافي الذي هو شكل آخر من أشكال المقاومة والذي حرك اهتمام العلماء والمفكرين فوجهوا جهودهم لمعالجة القضية الثقافية التي هي أساس البناء الفكري والنفسي للمجتمع بل هي حياة المجتمع الحقيقية، فراحوا يضبطون البرامج الإصلاحية والمشاريع التعليمية والتثقيفية التي تستهدف تهيئة الأمّة وتعليم أفرادها. وإذكاء وعيهم ليصبحوا قادرين على إستيعاب المعوقات التي تقف في طريق نهضة بلادهم وتحررها، ومتمكنين من معرفة الأساليب النضالية التي تتيح لهم النجاح في مواجهة سياسة العدو، وفرض إرادة الشعب التي ستقود إلى النصر لا محالة ومن أهم هذه البرامج التي كان لها انعكاس إيجابي على الحياة الثقافية والسياسية تلك البرامج التي اتجهت إلى مقاومة الوضع المتردي الذي كانت تعيشه اللغة العربية وإلى ترقية الظروف التي تنعشها.

وبرامج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت في طليعة هذه البرامج، إذ ضبطت الجمعية منذ تأسيسها خطة كان الهدف منها إحياء مجد اللغة العربيّة وتعليم الأجيال هذه اللّغة وتربيتهم على التعلّق بتراثها كما كان الهدف هو محاربة السّياسة الإستعمارية التي كانت تستخف بهذه اللّغة، وبالقيم التي تحملها، وقد اتخذت الجمعية في نشاطها أسلوبا عمليا شمل التعليم والتأليف والمحاضرات والصحافة والوعظ وغير ذلك.

بعض الأقوال المؤكّدة لمحنة اللّغة العربيّة:

من هذه الأقوال التي تؤكّد محنة اللّغة العربيّة وصمودها أمام هذه المحنة ما يلي:

1. قول الأستاذ توفيق المدني: (من مقال له بين الموت والحياة)

(المسألة الموضوعة أمامنا الآن هي مسألة المحافظة على الإسلام والعربيّة وكأن الجزائر اليوم غير شاغرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التي نراها رأي العين أمامنا، وكأنها ليست شاعرة بأن الإسلام سائر في طريق الموت وكأنّها ليست شاعرة بأنّ العربيّة سائرة في طريق الاضمحلال، وكأنّها ليست شاعرة بأنّها إن فقدت إسلامها وعربيتها فقد فقدت إسلامها وعربيتها فقد فقدت كلّ شيء ولم تنل أيّ شيء. (14).

تعليق محمد فريد المصري بعد عودته من زيارته الاستطلاعية للجزائر عام 1901 يقول: (إنّ الأهالي هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدّة والصّرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر، وقد مُنعت عنهم الجرائد العربيّة، لم أجد في جميع مدينة الجزائر نسخا من (اللواء) ولا (المؤيّد) ولا تصل هذه الجرائد إلا إلى إدارة (المبشر) الحكومية مبادلة، وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة فتصل إخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين إلى أن يقول: ولما أرسلت إليّ الجرائد العربيّة أثناء إقامتي في الجزائر حجزتها إدارة البوسطة) (15).

3. مقالة للشيخ البشير الابراهيمي يصف فيها المضايقات التي كان يتعرض لها تعليم العربيّة والملاحقات التي كان المعلمون هدفها يقول: (بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونقدر أنها ستعم لأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة (وهو هنا يتحدّث بلسان جميع معلمي اللغة العربيّة) وسنستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان وسندخل السجن بأعين قريرة، وسنلتقي مع إخواننا المجرمين في مجالس الأحكام، ومقاعد الاتهام.

وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخرا أن تكون التهمة فتح مدرسة قرآنية بدون رخصة وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام وبسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين وبسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة، وسجن واحد (من عيون البصائر ط/دار المعارف) (16).

إنّ الروح المعنويّة التي كانت عند معلمي العربيّة والمثقفين بها تدل دلالة قاطعة على أن نشاطهم كان يخيف الحكام ويقلقهم لذلك ظلوا يتابعونهم ويراقبون أنشطتهم، وكثيرا ما كانوا يمنعونهم من التدريس.

4. قول لابن باديس يعلق فيه على قرار شوطان الذي يفرض عقوبات صارمة على من يفتح مدرسة للعربيّة، أو يمارس نشاطا تعليميا بدون رخصة يقول: (أعداء الأمّة الجزائريّة- ويقصد بهم الكولون- يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارا وزاريا بعقوبات صارمة على التعليم ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها.

لقد فهمت الأمة من هم المعلمون المقصودون هم معلمو القرآن ولغة القرآن بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان المروجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال في أمن وآمان بل في تأييد بالقوّة والمال...إلى أن يقول: سنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، وإننا على يقين من أن العاقبة–وإن طال البلاء– لنا وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيمانا وشاهدنا عيانا أن الإسلام والعربيّة قضى الله بخلودهما ولو اجتمعوا كلهم على محاربتهما) (17).

إن الأثر المقلق بالنسبة إلى الإدارة الاستعمارية هو تعلق الجزائريين باللّغة العربيّة والدّين وبالهويّة العربيّة الإسلاميّة لذلك حاولوا سد المنابع التي يجد فيها الجزائري ما يغذي شعوره ويعمق وعيه بذاته، وهذا هو سبب الصدام الثقافي الذي ظل قائما وما يزال.

وضع اللّغة العربيّة في سنوات الثورة:

عرفت اللّغة العربيّة في سنوات الثورة (54–62) نوعا من الانتعاش، فقد شعر المجاهدون والمسؤولون العسكريون والسياسيون أنّ لغتهم التي حاصرها الاستعمار قرنا وربع قرن ومنع عنها الحياة التي تحياها –بشكل طبيعي– كل لغة مع أهلها، وفي بيئتها، أنه آن الأوان أن تعود إليها الحياة، وأن يعود إليها احترامها من قبل أهلها على الأقل لتصبح أداة للتعامل على يد المدافعين عن الوطن، والمتعطشين للحرية، لأنها في الحقيقة تشكل جزءا من الوطن، أو لنقل هي الوطن نفسه...وهكذا، اندفعت جبهة التحرير وجيش التحرير بصفة تلقائية إلى احترام اللغة العربيّة والنّظر إليها على أنّها الأداة الشرعيّة في التّعامل مع الشّعب، إذ لا يمكن أن يخاطب الشعب بلغة غير لغته، وبذلك جعلوها وسيلتهم داخل الوطن وممثلو الجبهة خارج الوطن يبدعون في بنائه وفي آدائه (وقد يتحتم على هؤلاء الممثلين أن يستخدموا غير العربيّة حينما يكونون في بلاد أجنبيّة).

إنّ قادة الثورة ومن يمثلونهم في الحياة العسكريّة والمدنيّة كانوا ينظرون إلى اللّغة العربية على أنّها أساس بناء المجتمع الذي يسعون إلى تحريره وتطويره وإعادته إلى حضن تقاليده ومقوماته وإلى أمجاد لغته وثقافته شيئا فشيئا.

لذا أصبح التعامل بين المناطق والنواحي والمسؤولين في الولايات، باللغة العربيّة في المراسلات والقرارات وعمليات التوعية، ونشر الأخبار السرية، وكانت العربيّة وسيلة هامة في عمليات الاتصال الكتابي التي كان القادة يحرصون على سريتها، وقد أسهم الإعلام المسموع والمكتوب في رفع معنويات الأمّة لكلّ الأمّة لذلك كان التركيز على اللّغة العربيّة التي هيّ اللّغة المشتركة، وهكذا أصبح المجاهدون يقاومون بالسّلاح وبالكلمة وكلهم إيمان بالنّصر والنّصر الذي ينتظرون وهو إخراج العدو من أرضهم،

وإزارة الامتيازات الاتي كانت للغته وثقافته وإرجاع اللّغة العربيّة إلى المكانة التي كانت عليها قبل الاحتلال.

ومن أجل ذلك اهتمت قيادة الثورة بتعزيز هذا التوجه الذي يخدم اللّغة العربيّة، ويدفع النّاس إلى تعلّمها والتحدّث بها، فوجهت تعليماتها إلى المناضلين وإلى خلايا التنظيم داخل السجون ليكون السجين معلما أو متعلما، لأنها كانت حريصة على جعل الاجزائريين يستعيدون ثقافتهم، ويعيشون أمجاد هذه الثقافة من خلال الدروس والمحاضرات والخطب السياسية، ثم إنّ القيادة كانت تنظر إلى المستقبل الذي يطلب تهيئة الأفكار وتحضير الأجواء الثقافية التي تنسجم مع عهد الاستقلاق الذي هو آت لا محالة لذلك أوفدت إلى المشرق العربي مجموعات من طالبي المعرفة ليواصلوا تعلمهم ويتهيأوا لليوم الموعود، وقد أعطت عملية التعليم والتعلم في السجون وخارج السجون نتائج هامة كانت سندا للنظام التعليمي الوطني في بداية الاستقلال كما اهتمت القيادة في مجال تعليم اللّغة بتنظيم أقسام تعليمية في جهات عديدة من الوطن، وخاصة في الشريط الحدودي حيث توجد المحتشدات والتجمعات، وهكذا عرفت اللّغة العربيّة في إطار العمل الثوري نوعا من العناية، والاهتمام لأن الاهتمام بها جزء من الكفاح المسلّح، وسبيل من سبل تنمية الاحساس بالذات، وبالشخصية الوطنيّة التي قامت الثورة من أجل تحريرها، وهذا الاحساس هو الذي يدفع صاحبه ليكون قويا في دفاعه صامدا في مبادئه.

وقد أسهمت المنظمات الوطنية التابعة لجبهة التحرير الوطني (إتحاد الطلاب- الكشافة- الأندية الرياضية وغيرها) بدور لا يستهان به في تنمية هذا الاحساس وإحياء التعامل باللغة العربيّة التي كانت أداة الخطاب والحوار، ووسيلة التعامل الكتابي حينما يصبح ضروريا.

المهم في كلّ هذا هو أن تفجير الثورة كان في حدّ ذاته إيذانا ببزوغ فجر جديد بالنسبة إلى العربيّة، ستعمّ أنواره كامل التراب الوطني، وستجد فيه اللّغة العربيّة متنفسا لها، بعد أن عاشت سنين طويلة ظروف الاختناق التي فرضت عليها، والمحن التي قاستها طوال فترة الاحتلال التي كانت سجنا رهيبا بالنسبة إليها.

وفي الحقيقة أنّ اللّغة العربيّة- رغم هذه المحن وهذه الأوضاع العسيرة التي عاشتها- عرفت خلال الثلاثينات والأربعينات والخمسينات انتعاشا ملحوظا استردت معه أنفاسها المكبوتة وأصبحت تعيش بعض مظاهر النهضة العربيّة التي ظهرت طلائعها في المشرق العربي وامتدت إلى الجزائر مع الذين درسوا في الخارج، ولم تمنعها ظروف الحرب من أن تصنع لنفسها وجودا دالا ومعبرا عن ذاته، ولم تمنعها هذه الظروف كذلك من أن يكون لها صوت مسموع داخل الوطن وخارجه فقد حرك الجو العام للثورة قرائح الشعراء والكتّاب والإعلاميين فاندفعوا يتغنون بالثورة ونجاحاتها ويمجدون بطولاتها ويروون

القصص ويصفون المعارك التي كان يصنعها المجاهد والمسبل والمحافظ السياسي والمواطنون. كل هذا كانت العربية تعبر عنه وتبدع في وصفه.

إن الاهتمام باللّغة العربيّة الذي بدا واضحا في نشاط العلماء وبرامج السياسيين قبل الثورة لم يدفع حكام الاستعمار إلى استخلاص العبرة وتغيير موقفهم اتجاه اللغة العربيّة بل ظلوا مصرين على إبعادها إلى أن اندلعت الثورة وعرفوا أنّها ثورة شعب بكامله وسائرة في طريق النّصر، وهنا بدأت مواقفهم تتلوّن بعض الشيء، وبدأ خطابهم يلين في المجالات التي لها صلة بعمق الإنسان الجزائري، ولكن التّغيير الجوهري الذي كنا نترقبه لم يحدث، فالموقف من اللّغة لم يتغيّر جوهره حتى وإن أبدى الحكام الاهتمام (ولو شكليا) باللّغة العربيّة وبتدريسها من خلال تخصيص ساعات لها في المدارس وفتح مجال لتكوين معلمين جزائريين لتدريسها في السنوات الأخيرة بالخصوص وغايتهم من ذلك ليس حبا في اللّغة العربيّة أو إنصافا لها إنّما غايتهم هي محاولة تهدئة الخواطر وتلهية الرّأي العام والتقليل من غضب الشعب، ومن عداوته لفرنسا ظنا منهم أن هذه الإصلاحات التي دعا إليها "ديقول" وغيره، وبدأت الإدارة المحلية تنفيذها تستطيع أن تثني عزم قادة الثورة عن خطهم وعن مواصلة كفاحهم، وصرف الشعب عن السير وراءهم ودعمهم.. كانوا يظنون أنه يمكن بهذه الإصلاحات البسيطة تجميد الكفاح المسلّح، وفتح شهية العودة إلى مناقشة المطالب التي كانت تقدم في السابق لحل المشكلات العويصة وإنصاف المظلومين ومحاولة الاستجابة لكل الحقوق ولكنهم كانوا واهمين.

معاناة اللّغة العربيّة في عهد الاستقلال:

كان الأمل كبيرا في أن تصبح اللّغة العربيّة بعد استعادة السّيادة– تعيش وضعها الطبيعي شأن كل لغة في وطنها، باعتبارها اللّغة الوطنيّة والرّسميّة كما أقرّتها اللّوائح السّياسية وزكاها التاريخ الطّويل.

كان الأمل كبيرا كذلك أن يوضع حد لهيمنة اللّغة الفرنسيّة وامتداداتها داخل مرافق الدولة وتقلص الامتيازات التي كانت تتمع بها في أيام حكم أهلها، وتغير النظرة إليها بما يجعلها تمارس وظيفتها المحددة لها كلغة أجنبية يستعان بها في مجالات محدودة ولأغراض تقنية نفعية بحتة، ولكن الإشكال الذي طرح في بداية العهد الجديد هو التركة الثقيلة التي ورثتها الأمة وورثت معها العقد النفسية جراء العهد الجديد هو التركة الثقيلة التي ورثتها الأمة وورثت معها العقد النفسية جراء العهد الاستعماري البغيض تلك التركة التي جعلت اللغة الفرنسية في كل مرافق الدولة، وفي كل مجالات الحياة، مما صعب على المسؤولين الذين تولوا مقاليد الحكم أن يغيروا هذا الوضع بين يوم وآخر حتى ولو كانوا مقتنعين بضرورة التغيير وحتمية التصحيح، والموقع الحرج الذي تمركزت فيه اللغة الفرنسية هو المدرسة التي تبنتها الدولة على أمل أن تصححها وتغير اتجاهها بعد حين، ولكن التردد الذي ظل يطبع المواقف الرسمية، وغموض

التوجه الذي رافق هذه المواقف في هذا المجال أثرا كثيرا في قرارات التصحيح وإجراءات التغيير التي كان المسؤولين يتخذونها من حين لآخر، تطبيقا للالتزام السياسي المعبر عنه في الوثائق الرسمية، ولكن بأسلوب بطيء، وملتو أحيانا، ويعني هذا أن المسؤولين لم يعالجوا المشكلة اللغوية وفق خطة مدروسة لا في مستوى التعليم والتكوين، ولا في مستوى الإدارة والنشاط الاقتصادي بل تركوا ذلك للظروف والمبادرات مما أدى إلى تعقيدها أكثر نتيجة التوسع في نظام التعليم وما رافق ذلك من تسيب في ميدان التعامل اللغوي في المجال الإداري والتعامل الحياتي، والتوسع في نظام التعليم فرض تكوين قوافل وجيوش من المعلمين والأساتذة لمسايرة الحاجات المستجدة التي فرضها الوضع الجديد، وكان بالإمكان أن نجعل من سياسة التكوين الذي هو الرافد الذي يغذي التعليم والإدارة منطلقا لتصحيح الوضع اللغوي وتعميم عملية التعريب التي هو ركن من أركان السياسة الوطنية في مجال التعليم لأن نوع التكوين الذي تتلقاه قوافل المعلمين الذين كانوا مهيئين قبل الاستقلال للعمل بالفرنسية لم يكن عددهم كثيرا حتى يقال بأن المعلمين الذين تركتهم فرنسا هم الذين حتموا أن نسير وفق تكوينهم، وما دام عدد المعلمين الذين بدأنا بهم المسيرة، قليلا جدا فكان من الممكن أن ينطلق التكوين أصلا بالعربية حسب الحاجة، ووفق خطة مضبوطة المراحل محددة الأهداف وكان المنتظر أن تطرح قضية التربية منذ البداية طرحا استراتيجيا شاملا وأن تعالج المسألة اللغوية بتصيح الوضع الموروث مثلما عولجت القضايا الأخرى.

صحيح أن الدولة قد وجهت اهتمامها لطرح موضوع اللغة طرحا ملائما لأوضاعها في البداية كما جاء ذلك في المواثيق والخطاب الرسمي، وبدأت بالفعل تعدّ العدّة للتخلص من التبعية اللغوية ولإعادة اللغة العربية إلى مكانتها الطبيعية، ولكن الوتيرة التي سارت عليها في البدايات الأولى بالخصوص في هذا الصدد كانت ضعيفة ومضطربة أحيانا ومتعثرة أحيانا أخرى يضاف إلى ذلك العوائق والعراقيل التي كانت توضع أما الجهود الرامية إلى معالجة المسائل المطروحة في مجال التصحيح وتعميم استعمال اللغة العربية، وسبب هذه العوائق هو التردد الذي ظل يطبع قرارات المسؤولين والفهم السيء لوظيفة اللغة لعربية وقدرتها على ممارسة وظيفتها والذي نتجت عنه الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة التي كثيرا ما سمعناها أو قرأناها كالقول:

إن العربية هي من حيث الأساس لغة عبادة فلا تصلح – إذن – أن تكون لغة العلم، وإن اللغات التي تستعمل الحروف اللاتينية هي وحدها القادرة على القيام بهذا الدور(18) وهذا أحد الأسباب التي جعلت المشكلة اللغوية عندنا تنمو وتكبر مع سنوات الاستقلال مما جعل مواجهتها وطرح حلول ملائمة لها أمرا صعب المنال على ما يبدو.

وحتى إذا كان ذلك أمرا متعذرا في البداية نتيجة قلة الإطارات القادرة على توظيف اللغة في جميع المجالات الحياتية فإنه كان بالإمكان التفكير الجدي في ضبط خطة وطنية مدروسة ومتكاملة تستهدف تكوين العنصر البشري القادر، وتمكن اللغة العربية من استعادة مكانتها الطبيعية تدريجيا، ولكن ذلك لم يحدث بالشكل المطلوب، وهنا بدأت المعاناة ... صحيح أن اللغة العربية دخلت المدرسة منذ الموسم الدراسي الأول بعد الاستقلال إلى جانب التربية الإسلامية، ولكنه دخول محتشم لم تهيأ له الظروف، ولم ترافقه الإدارة القوية، ومع ذلك استبشرنا خيرا بهذه البداية التي كما نظن أنها ستعم مجالات أخرى، كنا نظن أنها ستتجه إلى الإرادة التي هي عصب الحياة المجتمعية، ولكنها لم تدخل الإدارة، حتى بعد أن انتشر وجودها في التعليم لأنها وجدت عوائق في طريقها إلى العمل الإداري، ولم تجد إلا القليل من المسؤولين الذين يرحبون بها في الإدارة، وهذا، جانب من الإشكال الذي بدأ يطرح بعد سنوات من الاستقلال والذي لم يبد المسؤولون اهتمامهم بعلاجه، وهو الأمر الذي دفع المسؤولين في حزب جبهة التحرير الوطني وبإيحاء من قيادته إلى إثارة الموضوع من جوانبه المختلفة والتفكير في أساليب الحلول الممكنة للمسألة اللغوية التي لم تجد إلى ذلك الوقت حلا مالائما لهارغم إصرار الخطاب السياسي على ضرورة تعبئة الجهود للنهوض باللغة ومعالجة المشكلات التي تقف في طريق النهوض بها.

فقام هؤلاء المسؤولون بتشكيل لجنة وطنية للتعريب لدراسة قضايا التعامل باللغة العربية وأساليب إستعمالها، وضمت إليها كل المخلصين الواعين ودرست المسألة من زواياها المختلفة ووصلت بعد الدراسة إلى ضبط حصيلة تشخيصية شاملة للوضعية القائمة وطرح تصور للآفاق المستقبلية لمعالجة الوضعية، وعقدت ندوة وطنية أشرف عليها الرئيس الراحل هواري بومدين واستمع إلى المناقشات الساخنة التي كان معجبا بها وإلى الطرح العلمي الذي طرح به الموضوع، ومن يومها أعلن عن نية الدولة في تأسيس مجمع لغوي اقترح له تسمية أكاديمية 19 جوان، وكان حريصا على تجسيد هذا المشروع ولكن الظروف لم تسمحله فغادر الدنيا والمشروع لم يتأسس إلا بعد سنوات من رحيله وتحت إسم المجمع اللغوي الجزائري.

وما يمكن قوله هنا: هو أن التوصيات التي خرجت بها الندوة الوطنية الأولى للتعريب بدأت معها الحلول الأولى للمشكلة وخاصة في المجال الإداري البسيط.

والقرارات التي جاءت بعد ذلك سمحت بدخولها بعض المصالح الإدارية تنفيذا لتوصيات الندوة الوطنية الأولى للتعريب وقرارات اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني وللتوجه السياسي العام في المجال الثقافي، ولكنه دخول محتشم كذلك، إذ انحصر في وثائق الحالةالمدنية وفي بعض القرارات والمعاملات النمطية.

ونستطيع القول: أن الإدارة – عندنا رغم التقدم الذي أحرزته اللغة العربية في المجال التعليمي – ما تزال ترفض التعامل الحقيقي باللغةالعربية، رغم وجود قانون يفرض التعامل بها ويعاقب المستهينين بذلك، فالدعوة إلى تعميم استعمال اللغة العربية في جميع المجالات كانت دائما متضمنة في الخطاب السياسي منذ البداية ومنصوصا عليها في المواثيق كلها، ولكن الحقيقة التي يجب ذكرها هي أن العربية ظلت ومانتزال تواجه الكثير من العوائق والمعوقات منذ أن استرجعت الجزائر إشرافها الكامل على كل دواليب الدولة، وهذا وجه من أوجه المعاناة، القانون موجود، والإرادة السياسية النظرية موجودة كذلك والخطاب الرسمي المؤيد للاهتمام باللغة يتردد في كل مناسبة، ولكن التنفيذ منعدم، والمتابعة منعدمة كذلك، فاللغة لا تستطيع أن تتحرك بتلقائية إن لم يكن لها برنامج تسير عليه، إن هذه المعاناة هي التي تخلق الحيرة لدى المتعلمين اليوم فهم يتعلمون اللغة ويتعلمون بها كل المواد، ولكنهم يرون أمام أعينهم أنها مقصاة عن الإدارة وغير موظفة في الحياة العمليةل النشيطة بالصفة المطلوبة وحتى الخطوات المنجزة تم التراجع عنها.

فالوثائق التي تربط المواطن بإدارته، والإعلانات التي توجه المترددين على الإدارة والمطبوعات التي تعبأ لتكوين الملفات الإدارية والمهنية والاستدعاءات وغيرها من الوثائق التي تتعامل بها الإدارة معظمها إن لم نقل كلها في بعض المصالح والهيئات بالفرنسية، وحتى المراسلات التي تتم بين الإدارة أو بين الإدارة والمواطن ما تزال معظمها بالفرنسية.

هذا هو الوضع الذي طبع المسيرة اللغوية عندنا منذ البداية واستمر بعض الوقت ولولا الحاح الإدارة الجماعية الذي دفع المسؤولين إلى تغيير مواقفهم لما تحققت النتائج التي نراها اليوم، ولما عرف تعميم استعمال العربية الخطوات الإيجابية التي تم إنجازها تدريجيا في مدة لم يتجاوز ربع قرن من الزمن أي من بداية الموسم الدراسي 65/64 حين نفذ القرار القاضي بجعل اللغة العربية أداة لتعليم جميع المعارف من خلال تعريب السنة الأولى ثم الثانية في مرحلة أولى، إلى الموسم الدراسي 90/89 الذي شهد تعميم التعليم الأساسي بكامل مستوياته، وتم فيه توحيد لغة تعليم المرحلة الثانوية والتغلب على المشكلات التي اعترضت تعريب المواد العلمية.

وكان من المنتظر بعد ذلك أن يستمر الجهد الذي عرفه التعليم الأساسي والثانوي في مجال التعريب ليمتد إلى فروع التعليم العالي، ولكن الموقف الرسمي لم يتحدد بوضوح، رغم اللقاءات والندوات التي عقدت لحل هذا الإشكال اللغوي، ولكن الاجتماعات المتعددة لم تصل إلى نتيجة، وبقي الوضع على حاله، ويكفي أن نشير هنا إلى أن التعريب قد وجد طريقه إلى التراجع عنه، وبقي منحصرا فقط في شعب تكوين أساتذة المرحلة الثانوية في نطاق المدرسة العليا للأساتذة، ولكن هذه المدرسة هي الآن محط أنظار

بعض المعادين لسياسة تعريب المواد العلمية، لذلك يحاولون أن يجردوها من وظيفتها التعليمية ليسندوا لها فقط وظيفة التكوين البيداغوجي ويعني هذا أن التكوين الأساسي (العلمي) يبقى من اختصاص الجامعة واللغة وبالفرنسية، وبعد هذه الجهود التي لمسنا كثيرا من نتائجها الإيجابية خاصة في مستوى التعليم والتكوين بدأنا نلاحظ تراجعا عنها وانتكاسه وردة في عدد من المجالات منذ الانفتاح السياسي فتعريب التعليم العالي توقف بعد أن عرف بداية موفقة، وتعريب المحيط بدأ يتراجع بشكل مهين للغة، وكذا تعريب المصالح المتعاملة مع الجمهور بدأ هو الآخر يعرف تذبذبا وانكماشا، أما القضية الجوهرية التي بقيت تؤثر في جميع الجهود المبذولة هنا وهناك هي قضية قانون تعميم استعمال اللغة العربية الذي صدر في بداية التسعينات ثم جمد، وبعد مدة أثير الموضوع ونوقش واطلق سراح القانون ثم جمد ثانية، وهو الآن حي يرزق ولكنه مجمد في إدراج المكاتب من غير أن يكون هناك مسوغ لهذا التجميد.

وما نخشاه الآن هو أن تنفذ قرارات الإصلاح التربوي التي لها صلة بمستقبل اللغة العربية والتي أثارت كثيرا من الجدل، تلك القرارات الرامية إلى التراجع عما أنجزناه في ميدان تصحيح الوضع اللغوي وتطوير التعامل بالعربية بالرجوع إلى اعتماد الفرنسية لغة لتعليم المواد العلمية، وقد بدأ التمهيد لهذه العملية التراجعية بفرنسة الرموز والمصطلحات المستخدمة في الرياضيات والعلوم، وتنزيل اللغة الفرنسية إلى السنة الثانية، هذا كله إيذان بأن هناك في الأفق أمرا ينذر بإعادة المحنة إلى اللغة العربية، وإبقاء المعاناة التي كابدتها في السنوات الأولى والملاحظة التي ينبغي تسجيلها هنا هي أن الأربعين سنة التي مرت على استعادة السيادة كافية لإعادة المياه إلى مجاريها في مجال معالجة المسألة اللغوية لو أردنا وصممنا، لو فعلنا ذلك لكانت اللغة العربية اليوم في أزهى عهد من عهودها، ولعل السبب في هذا الوضع المتردي، يرجع إلى سكوت المسؤولين في الدولة عن الموضوع خاصة في العقدين الأخيرين، فلم يعد هناك خطاب رسمي يلح على العناية بإرجاع سيادة اللغة ويؤاخذ من يتجرأ على الاستخفاف بها سواء بالقول أم بالفعل، والناس حينما رأوا أن الدولة منشغلة بأمور أخرى لم يعودوا يبالون بهذه المسائل المتعلقة بالجانب الثقافي وبالهوية.

والغريب في الأمر أن المؤسسة الرسمية التي أنشأتها الدولة لمتابعة هذا الموضوع موجودة وهي المجلس الأعلى للغة العربية، ولكن المجلس وحده لايستطيع أن يتحرك تحركا إيجابيا بمفرده، فالقوانين يجب أن تكون صارمة والموقف السياسي يجب أن يكون حاسما وحازما.

ويستطيع هذا المجلس الاضطلاع بما ينتظره المجتمع منه إذاأعطيت له صلاحيات واسعة بحيث يصبح في مقدوره معاتبة المقصرين وتشديد اللوم على المتهاونين ومؤاخذتهم والاشادة رسميا بمن يخطون خطوات جادة على أن يقدم في كل سنة عرضا مفصلا يعرض فيه التطور الذي حصل والانتكاسات التي

وقعت ويرفع كل ذلك إلى رئاسة الجمهورية مع تشخيص القطاعات التي بذلت جهدا متميزا وكذلك التي سجل عليها تجاوزا أو تهاونا.

وليتمكن المجلس من ممارسة صلاحياته ينبغي أن تنشأ له فروع أو خلايا في كل ولاية تكون مهمتها متابعة ما يجري في كل قطاع وفي كل إدارة وترفع الإشكال الذي يقف في طريق السير العادي للعملية إلى رئاسة المجلس الذي يتولى عقد لقاءات وندوات لحله.

المراجع

1. د/ بن نعمان: التعريب بين المبدإ والتطبيق ص: 155

1مكرر د/ عبد القادر فضيل: إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس ص: 82

2. نفس المرجع السابق ص: 83
3. نفس المرجع السابق ص: 83
4. نفس المرجع السابق ص: 83
5. أ/ عبد القادر حلوش سياسة فرنسا التعليمية ص 115
6. المرجع السابق ص: 63 (هامش)
7. المرجع السابق ص: 93
8. د/ أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية ص16
9. د/ عبد القادر حلوش ص 115
10. نفس المرجع السابق ص: 76
11. د/أحمد طالب الإبراهيمي ص: 23
12. د/عبد القادر فضيل ص: 80
13. أ/ عبد القادر حلوش ص: 179
14. د/ عبد القادر فضيل نفس المرجع ص: 84

17.16.15 د/ عبد القادر فضيل من المرجع السابق ص: 88/89/80

هوامش أخرى:

البصائر بتاريخ 1938/4/8

تاريخ الجزائر الثقافي د/سعد الله ج3
كتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدني.

حالة العربية أثناء فترة الاحتلال

" أو التعليم العربي في الجزائر في القرن 19" و أوائل القرن 20

أ. مصطفى الهشماوي

قبل أن أدخل الموضوع أحس برغبة ملحة تدفعني إلى الدخول في صف أولئك الواقفين قبلي، أتساءل كما يتساءلون متى دخلت اللغة العربية إلى هذه الديار؟ ومع من؟ وهل كان سكان هذه المناطق يتكلمون اللغة – أو اللهجة – كما يحلو للبعض – الأمازيغية كما سمونها اليوم..؟ وما هي حدودها ..؟ هذا السِؤال وغيره من الأسئلة تطرح ببراءة وحب المعرفة. كما أنه عند آخرين له خلفيات أخرى قد ترقى إلى تحقيق أغراض سياسية، إن لم نقل انفصالية.

وأظن أن الجواب الشافي على ذلك لا يزال لم يتوصل إليه. وذلك كما يقول الباحثون إن تاريخ المنطقة غير مدروس الدراسة الكافية. وأعتقد أن تاريخ الجزائر لم يشذ عن تاريخ الشعوب الأخرى الذين يئسوا من الوصول إلى نتيجة مثل الغاليين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم ووضعوا نقطة ثابتة لبداية تاريخهم.

لكن ما هو متداول وأصبح في حكم الثابت أن المنطقة عرفت بصفة "مبهمة" إلى حد ما في عهد التوسع الفينيقي، ثم أصبح أكثر وضوحا في العهد الروماني والبيزنطي. والذي ساهم في توضيح كثير من جوانبه هو الاستعمار الفرنسي.

ويرجح بعض الباحثين أن ما قام به الفرنسيون لم يكن بقصد علمي بحت وإنما كان بغرض سياسي، حيث كانوا يرون أن وجودهم في الجزائر إنما هو استرجاع أملاك أجدادهم الذين عمروا المنطقة في حقب ماضية، وإن ما بذلوه من جهد يفوق كثيرا ما بذل من جهد ودراسة في توضيح تاريخ الغاليين القديم فإننا نجدهم يكتفون في بداية تاريخهم من العهد الميروفنجي والكارولنجي ويتخلون عن كل ما سبقه "

أما نحن فما هو معروف عندنا أن المنطقة كانت على اتصال دائم من المحيط إلى الخليج، سواء بقوافل التجارة التي لم يكن هناك أي مانع طبيعي يقف في طريقها، وهذا يبدأ في التبلور منذ قدوم الفنيقيين الذين كانت لهم اتصالات تجارية واسعة – و"لقائل أن يقول إن اتصالهم بالمنطقة كان عن طريق البحر" – وكانت الجزائر ولا شك فيها مواد مرغوب فيها ولها رواج وتدر أرباحا تغري التجار الفنيقيين.

ولا شك أن اتصالا – مصلحيا – من ذلك النوع كان يفرض وجود لغة مشتركة للتعامل. كما أنه لا يستبعد أن يكون هناك تنقل للأشخاص وبالتالي الإقامة الدائمة سواء هنا أم هناك وبترتب عليها الزيارات العائلية...

وإن لم يكن لنا – ولربما لغيرنا – حاجة مادية على ذلك إلا أن قراءة ذلك نجده يظهر جليا عند دخول المسلمين إلى المنطقة، حيث لم تقابلهم أية مقاومة جدية ما عدا المقاومة البزنطية، وإن وقعت حادثتين أعطيت لهما تغطية كبيرة وصلت إلى حد المبالغة.

فكانت مقاومة الكاهنة السلبية، والتي يرجع كثير من المؤرخين أسبابها إلى جهل الكاهنة بالقادمين، وصنفتهم مثل الغزاة السابقين، بالإضافة إلى الحوار الذي جرى بينها وبين أحد أعضاء الحملة، ويذكره كثير من المؤرخين، ولعله لم يكن بواسطة مترجم. والحادثة الثانية كانت مع كسيلة الذي يقول عنه المؤرخون أنه كان عميلا رومانيا وليس مقاوما [1] وطنيا.

ولذا حين قدم الفاتحون كانوا قد حلوا بين أهليهم وذويهم ونجدهم بسرعة يندمجون مع القادمين ويكونون جسما واحدا وينخرطون في الجيش، وتصبح الثقة متبادلة بين الجميع، ويتوجهون جنبا إلى جنب لاجتياح شبه الجزيرة الإيبرية، بالإضافة إلى ذلك تسند قيادة الجيش إلى أحد أبناء المنطقة الذي أبلى بلاء حسنا، وكان قائدا موهوبا فاستغلت موهبته.

ثم أنه لا يفوتنا أن نذكر خطبته المشهورة – وأعتقد أنه لا يوجد من يشكك في نسبتها له – والتي كانت بعربية فصيحة مشبعة ببلاغة متناهية، وكانت نسخة من الأسلوب المستعمل في ذلك الوقت فهي لا تختلف عن خطبة زياد بن أبيه المسماة بالخطبة البتراء . ومن جانب آخر فإن أي قائد مقدم على معركة مصيرية أن يخاطب جنده بلغة يفهمونها ويقنعون بما جاء فيها، لأنه مقدم بهم على الموت. ولم يكونوا يفهمون العربية فكيف يخاطبهم بتلك اللغة الفصيحة والبليغة.

يضاف إلى ذلك فكيف نفسر ظاهرة بقاء العربية في المنطقة؟ مع أن الفتح الإسلامي دخل إلى مناطق أخرى أقرب إلى الجزيرة العربية مثل بلاد فارس، ونجد الإسلام يبقى والعربية تندثر؟ ولقائل أن يقول أنه كانت

---

1 – شارل أنردي جوليان – تاريخ شمال إفريقيا القديم. ت محمد مزالى ج 1 ص 204 ط دار النهضة تونس "دون تاريخ"

هناك حضارة صمدت في وجه ذلك، إلى أننا نجد في مناطق أخرى لا حضارة فيها ولا كيانا متحدا ولا لغة موحدة فنجد الإسلام يبقى ولا أثر للعربية مثل ماهو قائم في كثير من الدول الاسلامية.

والخلاصة أن هذا يصل بي إلى أن العربية كانت موجودة في المغرب العربي قبل دخول الإسلام وتوسعت بعده. وهذا لا ينفى أنه كانت هناك لهجات أخرى، ونجد من ينسبون إلى لهجات أخرى هم كانوا أشد حرصا على العربية وألفوا فيها فيما بعد وأذكر منهم يحي بن معطي الزواوي صاحب ألفية بن معطي الشهيرة.

التعليم العربي في العهد العثماني[أ]

إن العربية والتعليم في الجزائر كانت منتشرة انتشارا واسعا قبل دخول العثمانيين، فالعربية – كما هو معلوم – مرتبطة ارتباطا كليا مع الدين الإسلامي في المنطقة. ومعروف أن الجزائريين كانوا أشد حرصا على دينهم وتمسكا به. كما كان الجزائري – وبقيت إلى عهد قريب – لا يفرق بين العربي والمسلم، حيث كانت الكلمة عندهم تعتبر حاملة لمدلول واحد.

ومعلوم أن عماد الدين الإسلامي هو القرآن الكريم وهو بلسان عربي، ويليه الحديث النبوي الشريف، وهذه وغيرها كانت تتداول بين الناس، وحتى في الأسواق باللغة العربية أو بالعربية الدارجة في أسوإ الحالات وهذا ما جعل الناس يتسابقون إلى دعم ذلك.

فكان كل ميسور يريد التقرب إلى الله فإنه ينفق جزء من ماله لبناء مسجد أو مدرسة، وكان ذلك كله بدافع ديني. وهذا يجرنا إلى أن نرى أن الجزائري يحافظ على مبدإ الوقف الذي هو أحد دعائم الحضارة الإسلامية، حيث أخذ ذلك المبدأ بعدا واسعا في الجزائر حيث كان الجزائري يوقف على المؤسسات الدينية وحتى على مكة والمدينة وبيت المقدس.

وكان مبدأ الوقف هو الذي حافظ على المنشآت الدينية والثقافية زيادة على ما كان له من فضل على الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ولما دخل العثمانيون باسم الجهاد والدفاع عن الإسلام استقبلوا بالترحاب، وانضم إليهم الجزائريون – بدون تردد – وكونوا بهم جيشا قويا في فترة قصيرة، وأصبح ذلك الجيش قادرا على الوقوف في وجه الإسبان والبرتغاليين الذين كانت لهم جيوش غازية في ذلك الوقت ومعلوم أن العثمانيين – في مراحلهم المختلفة – كانوا خليطا من جنسيات مختلفة ولغات متعددة، فمنهم اليوناني والبلغاري والألباني والإيطالي والعربي والأناضولي وغيرهم من الجنسيات المختلفة، كما أن كثيرا منهم كانوا حديثي العهد بالإسلام،

[أ] – التعليم في ذلك العهد في العالم الإسلامي كله بالعربية

وكذلك الشأن بالتعليم، كما أن القليل منهم كان يعرف بعض الكلمات العربية التي لا تتجاوز أصابع اليد ...

وكان همهم الوحيد منصبا على القتال والجهاد والولاء للعثمانيين، وجمع الغنائم والضرائب لتقوية الجيش.

فلم يكونوا يتدخلون في شؤون الجزائر سواء الاقتصادية أم الثقافية أم التعليمية لأنهم لم تكن لهم ميول أو تعصب إلى لغة معينة أو قومية معينة وإنما كانت لهم، إنشغالات أخرى.

وهذا ما فسح المجال للجزائريين لمواصلة حياتهم وتعليمهم بصفة عادية، وهذا ما دفع بالتعليم إلى الازدهار.

كما أن الحكم العثماني في كل مراحله لم تكن له هيئة مركزية للإشراف على التعليم. فلذا لا نقدر أن نبحث عن سياسة العثمانيين التعليمية بل الأهم القول بأن سياسة العثمانيين هي عدم التدخل في التعليم. فلذا نجد التعليم في العهد العثماني توسع أكثر من ذي قبل، أن الجزائريين شعروا بأمن حدودهم من الغزو الخارجي لوجود قوة عسكرية تدافع عنهم، فانصرفوا إلى الإكثار من المدارس والمساجد...

وأخذ التعليم شكلا أكثر تنظيما عن ذي قبل، فأصبح ما نسميه – تجاوزا – تعليم ابتدائي وثانوي وعال. وكان الدارسون يتلقون دروسا تكاد تكون موحدة، وذلك لأن المواد كانت معروفة – تقليديا– والكتب كذلك واحدة فهي التي فرضت توحيد المناهج.

وكان من الصعب عليك أن تفرق بين المسجد والمدرسة والزاوية غير أن المسجد تقام فيه الصلوات بانتظام، والزاوية زيادة عن الصلوات تقام فيها مجالس الذكر والباقي كله متحد.

وكانت المدارس الكبرى آنذاك كثيرة ومتعددة ومنتشرة شرق وغرب البلاد ووسطها. ويذكر الفرنسيون أن في الجزائر وحدها كانت أكثر من 100 مدرسة[1]. وكان في قسنطينة وتلمسان أكثر من نصف العدد المذكور، ومنها في العاصمة، مدرسة الجامع الكبير ومدرسة القشاشية، وفي تلمسان كانت مدرسة أولاد الامام ومدرسة سيدي بومدين، وفي قسنطينة كانت مدرسة سيدي بن خلوف، ومدرسة سيدي بوقصبة وغيرها من المدارس المنتشرة في بجاية ومليانة ومعسكر وغيرها.

وكانت تلك المدارس كلها تتخد منهجا تعليميا واحدا دون أن تكون لها هيئة مركزية لتوحيد التعليم، غير أن العلوم المتداولة آنذاك والكتب المتوفرة هي التي تفرض منهجا واحدا، كما كان المعلمون والشيوخ كثيرا ما ينقلون من منطقة إلى أخرى فالذي كان يعلم في الجزائر نجده يعلم في فاس أو القاهرة وكذلك شأن المعلمين في المناطق الأخرى.

---

1 – د. سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي – ج 1 ص 273 ط دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998

وإن الدارس كان يستهل حياته الدراسية بتعليم الكتابة تم حفظ القرآن الكريم ثم يندرج بعد ذلك لتعلم النحو والفقه، مواصلا مسيرته بالحديث النبوي والسيرة النبوية ثم البلاغة والمنطق وشيء من الحساب "الكسور الاعتيادية" ليعرف كيف يوزع الميراث "التركة" وتلك البرامج بقي العمل بها إلى وقت متأخر.

وبهذه النظرة السريعة على البرامج أجدني لا أميل إلى القائلين بأن التعليم عندنا كان أحسن من الذين هاجمونا. وأني أميل إلى القول بأنه كان عندنا الكم وهم كان عندهم النوع، وكانت علومهم عملية وعلومنا نظرية واجتماعية، وهذا ما تركهم يتفوقون علينا بالصناعة ونحن بقينا على الصناعة التقليدية..

الأوقاف:

أن الحياة الدينية والتعليمية والاجتماعية لم تكن مبرمجة في السياسة العثمانية فإنه حل محلها "الوقف" وبما أن الوقف كان مصدرا أساسيا لاستمرار تلك المؤسسات رأينا أن نعطي نبذة مختصرة عنه.

فالوقف – كما يعرفه الفقهاء – هو أن يتعهد شخص بوضع شيء ذي دخل دائم على شخص أو مؤسسة ذات طابع ديني أو تعليمي أو لعمل خيري سواء في داخل البلد أم خارجها. وكان ذلك التعهد له قواعد وشروط معينة، حيث يحضر صاحب الوقف أمام القاضي – عادة – ومعه شهود يوثق ذلك حسب رغبته، وعلى القاضي أن يحترم ذلك مادام في سبيل الخير. على أن تسلم نسخة من ذلك إلى الوكيل أو "الناظر" المعتمد لذلك الغرض، وكان يشترط في الناظر شروط دقيقة أخلاقية وغيرها. ويكون الوقف عادة إما محلات تجارية أو حمامات او حقول ذات مردود أو مورد ماء أو غيرها.

وكان أصحاب الوقف من طبقات مختلفة من المجتمع ومن نساء ورجال، وباشوات وأثرياء ومتوسطي الحال. وكل حسب قدرته. ومن أقدم ما بقي مسجلا عن الوقف في الجزائر ما قام به أحد خدام بربروس الذي اعتنق الإسلام وبني مسجدا وأوقف عليه أكثر من 100 هكتار من أجود الأراضي وكذلك فعل خير الدين نفسه، كما قام الباشا حسين حيث بنى مسجدا وأقف عليه دكانين وبجانب المسجد بنى مدرسة كبيرة كانت تدرس القرآن والحديث وعين للمشرفين[1] عليها مرتبات عالية، كان للخطيب فيها 60 دينارا وللإمام 40 دينارا وللمدرس 35 دينارا وشمل ذلك المؤذن والحزاب وغيرهم. وكذلك فعل كثير من البايات والدايات وزوجاتهم.

وبما أن الحكم العثماني كان بعيدا عن التعليم – كما أشرت سابقا – فإنهم عوضوا ذلك بسياسة الوقف التي كان معمولا بها قبلهم. والتي تعتبر أنجع وسيلة في ذلك الوقت للمحافظة على استمرارية التعليم والمحافظة على المؤسسات الدينية والاجتماعية.

---

1 – د. سعد الله الحياة الثقافية مرجع سابق ج 1 ص 234

وازدهرت في ذلك الوقت تلك السياسة فوصلت في مرحلة من المراحل إلى أكثر من 1500 [1] وقف ذو أهمية اقتصادية في منطقة الجزائر وحدها.

وليس لنا قيمة إجمالية للمداخل السنوية وإنما أذكر رقما لسنتين قام بهما المحتل، ففي:

سنة 1838 – 83. 572. 157 فرنك فرنسي

سنة 1839 – 70. 867. 182 فرنك فرنسي.

وهذه أرقام لها قيمتها في ذلك الوقت وهي كافية لأن تجعل المعلم والطالب يكون في كفاية تامة. من ذلك أنه يذكر أن المعلم كان يتقاضى 60 ريالا سنويا والإمام كان يتقاضى 50 ريالا والطالب كان يتقاضى 40 ريالا زيادة على التكفل بإقامته، وهذا ما رغب رجال العلم والثقافة والطلبة على الإقبال والتسابق للمشاركة في الحياة التعليمية والدينية.

التعليم والعربية بعد الاحتلال

أعتقد أن القوات الفرنسية الغازية بهتت بالسهولة التي استولت بها على الجزائر، ويظهر شبه كبير بين سقوط الجزائر سنة 1830 وسقوط بغداد في أيامنا هذه، كما أن المقاومة التي ظهرت بعد ذلك كانت شبيهة بمقاومة العراقيين، وأتمنى أن لا يكون مصير المقاومة العراقية مصير المقاومة في الجزائر التي استمرت أجيالا.

دخل الفرنسيون إلى الجزائر بسهولة غير متوقعة، وأباح العاصمة قائد الحملة أمام جيوشه مدة طويلة عاثوا فيها فسادا وذلك ما أدخل الرعب في قلوب الجزائريين المغلوبين على أمرهم، وتركهم يفرون خارج العاصمة بطرق فوضوية، وكذلك كان الشأن في كل مدينة يتم الاستيلاء عليها. والتجأوا إلى الجبال والمرتفعات ذات المسالك الوعرة للاحتماء بها. وذلك ما ترك المحتل يعمل بكل حرية ويستولى على كل ما وجده أمامه من مبانى وأملاك ومقرات للسلطة المنهارة، وكذلك كان الشأن بالنسبة للمدارس ودور العبادة التي كانت بدورها مدارس وعوملت على أنها أملاك مهملة وليس لها أصحاب.

ومعلوم أن ما كان معمولا به في الجزائر وفي العالم الإسلامي والعربي، أن مكان العبادة هو مكان الدراسة فبعد أداء الصلوات تفتح حلقات التدريس، فكان المكان يستعمل كامل الوقت، ففيه أجنحة خاصة بالكبار ولتدريس العامة وأخرى للصغار الذين يرجعون – عادة – إلى بيوتهم بالليل، ولم يبق هناك إلا أولئك الذين يتمتعون بالنظام الداخلي ولهم جناح خاص بهم.

---

1 – المجلة الإفريقية 1866 ص 368

وحين دخل الفرنسيون إلى الجزائر أول شيء قاموا به هو الاستيلاء على المساجد والمدارس والزوايا وحولت إلى استعمالات أخرى ووزعت على ثلاث مجموعات مجموعة أخذها الجيش الفرنسي وحولها إلى إسطبلات أو مخازن لأغراضهم الخاصة، ومجموعة سلمت إلى الرهبان الذين كانوا يرافقون الحملة لتحويلها إلى كنائس، ومجموعة أخرى سلمت إلى ضباط الجيش كمكافأة لهم، وأخذ مع هذه المجموعة غلاة المعمرين الذين قدموا مباشرة بعد الاحتلال. وكانت مجموعة أخرى تعرضت للهدم والحرق كما سنرى ذلك. وبعد أن تفرق الذين كانوا يسيرون تلك المؤسسات صدر قرار بالاستيلاء الكلي على كل أملاك الوقف وكان لربما أول قرار يتخذه الدوق دومال وبذلك لم يبق شيء من ذلك رغم معاهدة الاستسلام التي تنص على احترام تلك المؤسسات.

ويذكر بعض الكتاب أن المساجد المستولى عليها في العاصمة وحدها يفوق[1] المائة مسجد وعشرات المدارس هدمت عن آخرها. وأذكر على سبيل المثال بعضا منها: جامع السيدة الذي كان بجانبه مدرسة وكان قرب قصر الداي حيث هدم 1830 وجامع محمد باشا في باب عزون الذي حول ومسجد المصلي الذي حول إلى إسطبل وبني عل أنقاضه فيما بعد ثانوية بيجو " الأمير عبد القادر حاليا" ومسجد حمام يطو الذي هدم سنة 1840 وجامع بتشين الذي سلم إلى رجال الدين الكاتوليك، وكان هذا الأخير نظرا لسعته به مجموعة من المدارس. وجامع سباط الأحمر الذي سلم إلى أحد المعمرين ليتخذ منه فندقا. وجامع كتشاوة الذي حول إلى كنيسة، وهذه وغيرها كانت كلها مساجد ومدارس.

أما المدارس التي أتنعليها الهدم فهي بدون حصر وأذكر منها: مدرسة جامع خير الدين هدمت سنة 1831 ومدرسة جامع سيتي مريم هدمت سنة 1838 ومدرسة جامع الرحبة القديمة هدمت سنة 1840 ومدرسة جامع الحاج حسين الذي استمر الهدم فيها 18 شهرا لمتانتهاويطول ذكر كل تلك المنشآت التي طالها الهدم والتخريب والتحويل.

وهنا يجب أن أذكر أنه أثناء تلك الهجمة التخريبية كان قادة الغزاة مقسمين ثلاث تيارات كبرى وفي داخل كل تيار وجهات نظر متعددة

فكان تيار العسكريين وتيار السياسيين وتيار رجال الكنيسة، فكان كل تيار ينظر إلى الإسلام والعربية نظرة تختلف عن الآخر فكان التيار العسكري يرى أن الجزائر بلد محتل فهو عبد ليس من حقه المطالبة بأي شيء وكان هم ذلك التيار هو التوسع واستغلال النجاح للاستيلاء على أكبر قدر من الأراضي التي كان يغرس فيها جنودا ويوزعها عليهم وعلى المعمرين على أنها غنيمة حرب. كما قام

---

1 – د. سعد الله ج5 ص 21 مرجع سابق.

بحملة في جميع البلدان الأوربية لاستقدام أكبر عدد من المعمرين وكان القادمون أغلبهم من المنبوذين وخريجي السجون، كما أنهم كانوا يتضايقون من المدنيين ومن رجال الكنيسة الذين كانوا لا يركنون إليهم إلا أثناء إقامة قداس النصر...

أما السياسيون فإنهم كانوا يطمحون إلى تحقيق نوع من النموذج الذي تركه نابليون في مصر، مع إعطاء دعم لرجال الدين لإحياء مجد روما في المنطقة، واستمالة الجزائريين ليسهل عليهم دمجهم لتحقيق أهداف حضارية حسب مفهومهم.

أما رجال الدين فكانوا مشحونين حقدا ويرون أن العدو الأكبر هو الإسلام وهو الذي يقف في طريقتهم التبشيرية فلذا كان مخططهم يقضي بمحق اللغة العربية وإبدالها بالدارجة أو البربرية ليسهل عليهم قطع طريق الإسلام وبتر جذوره.

واستمر ذلك الوضع إلى سنة 1851 وإن بدا يتبلور بعض الشيء سنة 1836 حين أنشأت بعض المدارس الإسلامية الفرنسية.

جملة القرارات:

كان أول قرار صدر حول الأوقاف ليقص الموارد التي تعيش بها المدارس، وهو كما يسمى اليوم بالمصطلح "الأمريكي تجفيف المصادر المالية" فكان قرار كلوزيل في سبتمر 1830 والذي ينص على مصادرة كل الأملاك التابعة للأوقاف وهو يحتوي على ثمانية بنود [1]يقول أحد بنوده: "كل المنازل والمتاجر والدكاكين والبساتين والأراضي ... وأي مؤسسة مهما كان لها ربح ستكون تحت إدارة الدومين" وبهذا أصدر حكما بالإعدام على كل المؤسسات الدينية والتعليمية.

لكن بعد ذلك نجد أن نفوذ التيار السياسي بدأ يظهر على الساحة وبدأت فكرة – سد الفراغ التعليمي تظهر وعين على رأس هيئة تعليمه أحد الأساتذة الفرنسيين واختار معه أحد الأقباط المصريين المسمى: جون فرعون والذي كان والده في الجيش الفرنسي. كما اصطحب معه أستاذا كبيرا وهو من مواليد مصر أيضا وهو: يوسف يعقوب.

وصدر قرار بتكليف تلك المجموعة بوضع خطة للتعليم في الجزائر وحولت بعض المؤسسات الحكومية "سابقا" إلى مدارس.

وبجانب ما كان يتم في الجزائر كان مثله في قسنطينة ووهران ووضع على رأس مجموعة قسنطينة ووهران أساتذة بارزون، وفي ذلك الوقت كان روفيقو يلم في تقاريره بأن الجزائر "لن تكون فرنسية إلا إذا

---

1 – المجلة الإفريقية سنة 1839 ص 156

عمت فيها اللغة الفرنسية". ولذلك أخذ برأي الكنيسة وأدخل بجانب الفرنسية "الدارجة والبربرية" ومن الغريب أن كتاب الدارجة ألفه جون فرعون وأصبح هو المصدر الأساسي للمراحل القادمة.

وفي ذلك الوقت بدأت أفواج المعمرين تتكاثر كما هو موضح بالجدول التالي:

1830 – 1850 كان عدد المعمرين 63.497

1851 – 1860 = 103.323

1860 – 1870 = 129.898

1871 – 1880 = 195.418

1881 – 1929 = 641 . 657

وحسب الإحصاء الفرنسي دائما فإن عدد الجزائريين كان كما يلي:

1830 – 1858 كان عدد الجزائريين 2.183.793

1886 – = 3.264.879

1901 – = 4.072.089

1926 – = 5.648.058

إنشاء المدارس

بدأت منذ 1833 تفتح المدارس التي كانت تسمى بالمدارس المشتركة وفتحت في الجزائر ثم عنابة ولكن لم يكن عليها إقبال من الجزائريين، وفي سنة 1835 فتحت مدرسة في دالي إبراهيم "قرب العاصمة" وكانت تدرس بجانب الفرنسية العربية الدارجة.

وكانت لقيت بعض الإقبال حيث دخل بها 50 تلميذا جزائريا وكان هؤلاء التلاميذ كلهم من أبناء الفرقة العسكرية المنشأة حديثا، والذي كان جنودها يمتهنون الشرطة وقت الحكم العثماني وهم المسمون "زواف" وهذا ما رغب الذين كانوا يعملون مع فرنسا لتسجيل أبنائهم وذلك الإقبال شجع الفرنسيين عل الإكثار من المدارس.

تم جاء طور ثاني هو طور إنشاء المدارس الإسلامية الفرنسية، وكانت هذه الأخيرة تتبع وزارة الحربية الفرنسية ويشرف عليها ضباط الشؤون الأهلية. وكان المنتسبون إليها كلهم من الجزائريين، ومن طبقة خاصة من الجزائريين، أما باقي أبناء الشعب فقد فقدوا تعليمهم ولم يسمح لهم بالدخول إلى تلك المدارس، غير أن الفرنسيين يقولون بأنهم هم الذين لا يرغبون في الدخول إليها.

وفي سنة 1886 كانت برزت عدد الثانويات ولكن كان كل طلابها من أبناء المعمرين بينما لم يكن فيها إلا عدد قليل من أبناء المتعاونين معهم. فكان عدد أبناء المعمرين يتجاوز ثلاثة آلاف بينما كان عدد الجزائريين لا يزيد عن 115 طالبا.

التعليم العربي بعد 1850

بعد عشرين سنة من احتلال الجزائر ظهر نوع جديد من التعليم تحت اسم " المدرسة الفرنسية الإسلامية" وهذه الخطوة الجديدة مرت بعدة أطوار فيما بعد وكانت دائما بين المد والجزر حسب سياسة الأشخاص القائميين عليها. غير أن الطابع الغالب عليها هو أنها وضعت تحت سلطة "المكاتب العربية".

وأول مدارس أنشئت كانت أربع مدارس في كل من الجزائر وقسنطينة والمدية وتلمسان، وأسندت إدارتها إلى منتقين بكل دقة ومتأكدين من ولائهم لفرنسا. وكان دارسوها من الجزائريين فقط، وبرامجها عربية إسلامية "كما كانت تسمى" ويظهر أن هذه اللفتة جاءت لتنسي الجزائريين ما حدث لمدارسهم ومساجدهم. وكانت تلك المدارس أريد بها أن تكون للموظفين المدنيين والعسكريين في القضاء الإسلامي وتسيير ما بقي من المساجد، كما أطلق على تلك المدارس اسم المدارس الشرعية أو الفقهية، كما أصبح اسمها الرسمي "المدرسة" وانطلقت تلك المدارس في التدريس بالعربية، ثم أصبحت بعد عشر سنوات مزدوجة.

وكان المشرف على تلك المدارس هي السلطة العسكرية الاستعمارية وكان المشرفون المباشرون عسكريين يتصفون بالغلظة والغطرسة والخشونة والجهل. وليست لهم أية فكرة عن العلم والتعليم وكانوا مشحونين بروح عدائية ضد الجزائريين، وهذا ما نلمسه من انطلاقة تلك المدارس، فانطلقت انطلاقة فوضوية بدون أية قواعد أو ضوابط. فلم يكن يشترط في المنتسب إليها لا سن معين ولا تكوين سابق، فدخل الذي لم يسبق له أن دخل التعليم بجانب من سبق وأن تلقى جزءا من التعليم، كما أنه كان الكهل بجانب الصبي، وكذلك الشأن بالنسبة للمعلمين فمنهم من له مستوى ومنهم من لا مستوى له.

وإنما الشرط الوحيد الذي لا يتسامح فيه هو الولاء لفرنسا هو وعائلته، واستمرت على ذلك الحال إلى سنة [1] 1876 وكان برنامج تلك المدارس يحوم حول: القرآن – النحو – الفقه – الأدب – الأصول – التوحيد "الذي رجع مرة ثانية" والكتب المستعملة هي الكتب التي كانت تستعمل قبل الاحتلال.

ولا يفوتني أن أذكر بأن تلك المدارس كانت خاصة بالجزائريين وكان التعليم فيها مجانيا، وتنفق عليها إدارة الجيش الفرنسي وإشراف الحاكم العام.

---

1 – د. سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي – ج 3 ص 367 مرجع سابق. فيه كثير من التفاصيل.

كما أنني أذكر بأن الموسم الدراسي فيها كان مفتوحا كل السنة والدارسون يتقدمون في أي وقت للتسجيل ولمباشرة الدراسة، أما خريجوها فكان يختار منهم من هو أكثر وفاء واستماتة في خدمة فرنسا، ووراءه عائلة تحمل نفس المواصفات فإنه يعين قاضيا أو مفتي . . . وإذا كان يتسم – بالإضافة إلى ما سبق – بالقساوة والغلظة فقد يعين في المجالس المختلطة: "كقائد أو أغا أو باش أغا" نظرا لمكانة عائلته.

ولكن تلك المدارس كانت محل نقد من هيئة المستشرقين وكذلك من رجال الكنيسة. وكل واحد كان نقده منصبا على جانب يختلف عن الثاني.

فرجال الكنيسة كانوا قبل وقت استطاعوا إبعاد مادة التوحيد والعربية الذين أبدلوها بالدارجة ورأوها تعود بالجزائريين إلى ماضيهم وهذا لا يساعدهم ويخدم ضد سياستهم.

أما المستشرقون فرأوا فيها أنها تجمع شرعي ضد الوجود الفرنسي فمنتسبوها – كما يقولون – أغلبهم من الذين كانوا يزاولون تعليمهم في الزوايا، وهم مشحونون بالحقد والبغضاء ضد فرنسا، وعلى حضارتها وأفكارها. وحملت تلك الأخطاء لضباط الشؤون الأهلية لعدم كفاءتهم في رقابتها وتوجيهها.

وبناء على ذلك صدر قرار في 15 أوت 1875 وألغى المدارس الفرنسية الإسلامية وإخراجها في ثوب أخر وهو المدارس الشرعية الفرنسية.

وكان ذلك التنظيم الجديد يشمل ما يلي:

- تحديد سن الدارسة ما بين 18 – 25 سنة.
- يخضع المترشح لاختبار شفاهي.
- بحث دقيق في عائلة المترشح وقدرة اندماجها وولائها لفرنسا.

ثم يقدم ذلك إلى الحاكم العام ليضع القائمة النهائية، وبعد الفصل فيها يتقدم الدارس إلى الامتحان العلمي الذي كان يشمل المواد التالية:

- إملاء بالعربية
- أسئلة في النحو وقواعد اللغة العربية
- مقالة تحريرية في موضوع تعينه اللجنة.
- امتحان في اللغة الفرنسية يشمل القراءة والكتابة والمحادثة.
- أسئلة في الحساب تبين مدى قدرة الدارس على القيام بتوزيع تركة الهالك.

ومن نجح في ذلك ينتسب إلى المدرسة التي حددت مدة الدراسة فيها بثلاث سنوات يدرس الطالب فيها المواد التالية:

الشريعة الإسلامية – النحو – الأدب العربي – اللغة الفرنسية – مبادئ من القانون الفرنسي – الحساب – التاريخ والجغرافية الفرنسية، تم أضيفت فيما بعد مواد أخرى وتدرس بالفرنسية، وهي العلوم الطبيعية والفيزيائية والتربية الصحية . . وكذلك قلصت ساعات تعليم العربية إلى النصف "قرار 1884"

ويشمل القرار أيضا المعلمين والشروط الواجب توفرها فيهم، كما حددت أجورهم كما ينص القرار على أن مديري تلك المدارس يجب أن يكونوا فرنسيين.

تم صدر قرار آخر وهو بصفة مرسوم في 23 جوليت 1895 ليدخل إصلاحا أخر حيث مددت الدراسة فيها إلى أربع سنوات تليها سنتان بالتعليم العالي، ليحصل الدارس بعد ذلك على شهادة "ديبلوم الدراسة العليا" وهي بدورها تؤهله إلى اعتلاء الوظائف العليا، وهي لا تختلف عما ذكر سابقا غير مادة التوحيد التي أعيدت مرة أخرى. ثم بعد الانتهاء من المرحلة الأولى يصبح الطالب جاهزا لمواصلة السنتين الباقيين التي تدرس فيهما الحضارة الفرنسية والحضارة العربية الإسلامية "لا بد أن يلقيها أحد رجال الكنيسة" ثم البلاغة والمنطق تم دروس في الصحة يتولاها طبيب[1].

وأذكر بعض مدرسي تلك المدارس من الجزائريين. ففي الجزائر كان عبد الرزاق الأشرف وعمر بن دريهات وعبد الحميد بن سحاية، وفي قسنطينة كان: محمود بن الشاذلي وبن ميهوب وعبد القادر المجاوي وفي تلمسان كان أحمد بن البشير.

ثم ظهر نوع من العناية بتلك المدارس مع بداية القرن العشرين ورصدت أموال لإنشاء بنايات حديثة لها. ففي العاصمة بنيت مدرسة سميت "التعالبية التي دشنت سنة 1904. وفي قسنطينة أنشئت بناية جديدة مفتوحة سنة 1908 وانتقلت المدرسة من الكتانية إليها، وهي لا تزال مفتوحة إلى اليوم في شارع العربي بن مهيدي، وفي تلمسان أقيمت بناية جميلة قرب مدرسة أولاد الامام ولا تزال مفتوحة إلى اليوم.

وكان المرسوم سابق الذكر ينص على أن يكون المدرسون انصافا بين الفرنسيين والجزائريين، وكان يشترط في الفرنسيين معرفة اللغة العربية وتكون الإدارة بيد أحد الفرنسيين وكلهم يعينون من طرف الوالي العام في الجزائر.

واستمر التعليم في تلك المدارس إلى سنة 1954 حيث حولت إلى ثانويات وأخذت اسم الثانوية "الفرنسية الاسلامية" وبقيت دائما تحافظ على العربية، وغالبا كانت "الدارجة" كما كان بجانبها القبائلية

---

1 – د. سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي ج3 ص 350 مرجع سابق فيه كثير من التفاصيل

التي كانت تكتب بالحرف اللاتيني. ولا يزال إلى اليوم بقايا من خريجي تلك المدارس في دواليب السلطة إلى اليوم. والذي كان عددهم في سنة 1953 لا يتجاوز 430 دارسا.

وقبل أن أنهي هذا الموضوع تجدر الإشارة إلى أنه بجانب ما ذكرت كانت هناك منشآت تعليمية أخرى موجهة لخدمة أبناء المعمرين، الذين طاب لهم المقام في أرض واسعة وإمكانات مزدهرة وشعب كبير خاضع لخدمتهم ملبيا كل ما أرادوه طوعا أو كرها. وإن هو خالف أو تذمر فإن بين أيديهم قوة من العملاء والعسكريين جاهزة لردعه وإذلاله وإخضاعه . . .

وتلك البحبوحة التي يعيشون فيها جعلتهم يسعون إلى خلق جو علمي وثقافي لأبنائهم ينافسون به ما هو موجود "في الوطن الأم" حسب المصطلح المعمول به إذ ذاك. فشيدوا المسارح والملاهي، كما أنشأوا المدارس الخاصة بهم والتي تعطيهم نوعا من الاستقلالية من ذلك ظهور دار المعلمين بمرسوم إمبراطوري سنة 1856 ومنعت فيها العربية وعوضت بالعربية الدارجة، وكان الجزائريون على هامشها بعد أن انتقلت إلى بوزريعة "ضواحي العاصمة" سنة 1886 حيث حتى العربية الدارجة ذبلت فيها.

وكذلك في النصف الثاني من القرن 19 تكونت نواة بجامعة الجزائر التي بدأت بمعهد الطب والذي كان فيه الوجود الجزائري نادرا، والتي أخذت شكل جامعة مع أوائل القرن العشرين.

وفي ذلك الجو عاش أجدادنا وماتوا وهم كلهم أمل بأن يروا بلادهم تتمتع بسيادتها، وجاءت سنة 1962 واستبشر أبناؤهم خيرا ... لكن المسيرة بعد ذلك بدأت تتأرجح بين مد وجزر . . .

ولا يزال إلى اليوم الجزائري غريبا في بلاده ويحسب ألف حساب قبل أن يقترب من بعض المؤسسات العمومية التي لا يحسن مخاطبة القائمين عليها ولا يفهم اللغة التي تقدم له الاستمارة لملئها...

لكن الأمل لا يزال قائما وإن قضى على تلك الجيوش الجرارة وعلى الوجود الفرنسي المتغطرس قادر على فرض إرادته وسيادته في يوم من الأيام.

أخر محاولة العربية والتعليم

رغم الضربات التي تلقتها الجزائر والتخريب الذي لحق بمؤسساتها الدينية والتعليمية فإن المقاومة لم تتوقف ونشطت حركة تعليمية شبه سرية في البوادي والقرى النائية فنشطت حركة تحفيظ القرآن للصغار وحركة الوعظ ودراسة السيرة النبوية وقواعد الدين للكبار وتوسع ذلك إلى الأسواق الأسبوعية حيث كانت تقام حلقات يقوم فيها "الخطيب" أو الراوي لاختلاق قصة تاريخية من وحي ما سمعه، ويلقيها بأسلوب مشوق يتعرض فيها لبطولات الفاتحين الأوائل وانتصارهم على "الكفار" وهو كان يريد أساسا الارتزاق لكن رسالته كانت تصل مستمعيه وتدغدغ فيهم روح الشهامة وعزة النفس، وكثيرا ما فعلت فعلها ودفعت الناس

إلى اليقظة ومقاومة المحتل. خاصة بعد الهجمة الشرسة التي قام بها المستعمر وبتجنيد جماعة من المستشرقين ورجال الكنيسة لذلك، فكان رونيه باصيه الذي كان مدير معهد الآداب في الجزائر الذي كان يرى بأن فرنسا لا يمكن لها الاطمئنان في الجزائر مادامت لم تستأصل العربية والإسلام اللذين كان كل منهما عامل ربط لها بماضيها. ووضع مخططا لذلك يتمثل في محاربة العربية بطريقة مختلفة عن الطريقة السابقة، وذلك بترقية الدارجة ونشرها بشكل واسع يصل إلى الكتب الدينية، ودفع ذلك بوزير العدل الفرنسي "دوكار" وتبعه فيما بعد الجنرال "كاترو" بأن أمر بكتابة القرآن بالدارجة، وتحريف ما يراه معاديا للوجود الفرنسي في الجزائر وفرضه على الجزائريين ولعلنا لا نكون مغالين في الخيال إذا ربطنا ذلك بالمعركة القلمية التي دارت فيما بعد في المشرق بين ميخائيل نعيمة وطه حسين والتي كانت تدور حول لمن نكتب وكانت فيها المفاضلة بين الدارجة والعربية وفي ذلك الوقت كان "كاترو" في لبنان.

وكان جوزيف دي بارمي وبعده لويس ماسينيوس يرددون على الجزائريين: عليكم بالتخلي عن العربية "التي هي لغة قريش وليست لغتكم" كما تخلينا نحن الفرنسيين عن اللاتينية.

والمحور الثاني الموازي للعامية كان القيام بتقوية اللغة البربرية "الأمازيغية" بكل لهجاتها واستعين في ذلك ببعض الشيوخ منهم: الشيخ محمد السعيد بن زكري لوضع مخطط لتعميمها. مع أن بن زكري لم يكن معاديا للعربية ونشر بها عدة مقالات. لكننا نجده يقحم في ذلك إقحاما لأسباب لا تزال مجهولة كما دعم بالشيخ بوليفة الذي وجه إلى المغرب للاتصال بالجماعات البربرية هناك، كما كلف آخرون بتدريسها في الجزائر.

أما رجال الكنيسة الذين كانوا يجولون في كل أنحاء الجزائر تحت حماية الجيش الفرنسي فإنهم اكتشفوا إن المدارس القرآنية انتشرت بشكل لم يكونوا يتصورونه في البوادي والقرى النائية، وهذا ما دجعلهم يرفعون تقاريرهم مطالبين السلطات بوضع حد لها.

وفعلا أصدرت فرنسا مرسوما في سنة 1904 بمنع ذلك وبوضع شروط قاسية للسماح بفتحها، ولا يفوتني أن أذكر بأن الأقلية اليهودية كانت لها مدارس تدرس العبرية والتوارة والتلمود ولم يشملها المرسوم"

وكان المرسوم يقول : إنه يمنع على كل جزائري أن يفتح مدرسة إلا بالشروط التالية:

1 – اقتصار التعليم على حفظ القرآن فقط.

2 – عدم التعرض بأي شكل من الأشكال لتفسير آياته.

3 – منع تدريس الأدب العربي والمواد العلمية.

4 – يمنع إلحاق أبناء الجزائريين الذين يتابعون دراستهم في المدارس الفرنسية.

5 – إن للسلطة الفرنسية الحق في سحب الرخصة متى شاءت.

6 – إن كل مخالف يعاقب بالسجن والغرامة المالية أو بهما معا.

وأمام ذلك وقف كل الجزائريين صفا واحدا بمن فيهم أولئك الذين كانوا مساندين فرنسا. فإنهم اتفقوا على أن محاربة، العربية الإسلام هي بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت.

ومعروف أن الجزائريين عملوا منذ القديم بكل ما أوتوا من قوة لخدمة العربية والدفاع عنها بكل الوسائل، فإنهم من الرعيل الأول في عصور الانحطاط الذين دافعوا عن العربية وألفوا فيها. فزيادة على: يحيى بن معطي صاحب الألفية – المذكور سابقا – فإن حامد المشرفي كتب كتابا سماه على شرح الماكودي، وأبو القاسم البورجيلي كتب كتابا بعنوان النور السراجي في إعراب مقدمة الضهاجي وعبد القادر المجاوي كتب كتابا اسمه: الدرر النحوية، ومحفوظ الدلسي ألف كتابا تحت عنوان: حلية فكر السامع في تحقيق الفعل المضارع. وأحمد الطيب الزواوي كتب كتابا أيضا سماه: مفيد الطلبة في شرح الأجرومية. وعبد القادر المسعدي له كتاب: شرح لأهمية الأفعال ... والقائمة طويلة.

وفي تلك الفترة صادف رجوع بعض الذين تلقوا تعليما عربيا وإسلاميا في البلدان العربية التي كانت تمر بفترة عرفت بالصحوة الدينية التي كان يتزعمها الشيخ جمال الدين الأفغاني وكان من أولئك العائدين الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي بمجرد رجوعه بدأ نشاطه الديني بحلقات التدريس إلا أنه منع من ذلك في البداية إلى أنه اضطر إلى استعمال نفوذ والده الأدبي وتحصل على رخصة سنة 1913 ووجوده والتيار العام حرك مجموعة أخرى بأن تجاهر بأصواتها في وجه فرنسا، وكانت في مقدمة ذلك بعض الجرائد مثل جريدة "النجاح" "والبلاغ" و"الإقدام" و"الشهاب" وكلها كانت تصدر بالعربية، ونادت كلها بأنه يجب أن تأخذ العربية مكانتها، إلا أنها كانت تتعرض بين الحين والأخر للمصادرة، وغم ذلك فالمقاومة بقيت متواصلة.

وفي سنة 1930 تحصل الشيخ بن باديس على اعتماد جمعيته الني سماها باسم: "جمعية التربية والتعليم الإسلامية " ومما جاء في أحد بنود القانون الأساسي المقدم للاعتماد "أن المقصود من الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية الفرنسية" ولعل الكلمة الأخيرة هي التي جلبت له الموافقة.

وبذلك بدأت المدارس العربية لتعليم الصغار تنتشر في الجزائر. ورغم الترخيص فإنها كانت تتعرض للغلق في بعض المناطق لنفوذ المعمرين ورجال الكنيسة وكان لتلك المدارس برنامج لا يختلف كثيرا عن أية مدرسة ابتدائية فرنسية، غير أن التدريس فيها كان بالعربية وحدها. وكانت الدراسة فيها ست سنوات يحصل الدارس فيها على الشهادة الابتدائية.

وكان روادها من الأطفال والمراهقين تترواح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشر، وكان أغلبهم من الذين انقطعوا عن المدارس الفرنسية لأسباب أغلبها تعسفية أو طردوا أو الذين لم يسبق لهم التعليم، كما كان عدد من الذين يتابعون التعليم في المدارس الفرنسية ويلتحقون بتلك المدارس خارج ساعة الدوام لتعليم اللغة العربية. وكان نادرا ما ينظم إليها دارسو المدارس القرآنية، لأن لهم وجهة أخرى وهي متابعة تعليمهم في الزوايا والمنشآت الدينية، لأنهم كانوا لا يرتاحون لتوجيهات تلك المدارس الدينية والذين كانوا يسمونهم غالبا بالبادسيين وآخرون يدعونهم بالوهابيين وذلك بموقفهم من رجال الدين التقليديين الذين كانوا غالبا ما يصفونهم بالجامدين ... وهذا موضوع آخر يستحق بحثا خاصا.

وكانت تلك المدارس كلها فتحت في مقرات قدمت كهدايا من المواطنين كما كانت إدارتها ومرتبات معلميها على عاتق المواطنين أيضا، وكان عددها يزداد يوما بعد يوم بحيث غطت تقريبا كل المدن الكبرى في الجزائر، مع أنها لم تمتد إلى البوادي والقرى الصغيرة والتي كان يسكنها أكثر من نصف الشعب الجزائري. وازدهرت تلك الحركة التعليمية في أواخر الأربعينات من القرن العشرين، وأصبحت المدارس تبنى لتتلاءم مع دورها التعليمي والديني: وكان كل ذلك من تبرعات المواطنين، وذلك ما كان يجعل الجمعية تطالب بفصل الدين عن الدولة الفرنسية والأوقاف" فأصبحت المدارس بالعشرات والدارسون بالآلاف[(1)].[أ]

وكان مديرو تلك المدارس يشرفون على صلاة الجمعة ويجمعون التبرعات والهادايا، كما كان بعضهم يدفعه الحماس والدعوة إلى مقاطعة المدارس الفرنسية، وكثيرا ما كانت دعوته تلقى تجاوبا.

ومع الأيام كثر عدد خريجي تلك المدارس وكان المجال أمامهم مغلقا لمواصلة التعليم أو الوظيف، كما انضم إليهم عدد من الدارسين في مدارس حزب الشعب الذين كانوا أقل عددا منهم، والذين كان الميسورون منهم يتوجهون إلى تونس لمواصلة تعليمهم.

فظهر الانفراج حين فتحت جمعية العلماء بقسنطينة معهد عبد الحميد بن باديس كما كان بجانبه معهد الكتانية الذي كان أغلب منتسبيه من حزب الشعب.

وكان المعهد من ناحية البرنامج فهو متوسطة "التعليم المتوسط" ومن ناحية دارسيه الدين تجاوزوا كلهم سن الحلم يعتبر ثانوية لما كان طلابه يتمتعون به من نضج.

[أ] (1) يذكر د. تركي رابح بأن عدد المدارس كان حوالي 150 مدرسة. والدارسون فيها حوالي خمسين ألفا. وأنا أرى أن ذلك العدد مبالغ فيه.

وعلى كل فإنه في سنة 1947 فتح المعهد الذي أصبح يستقبل خريجي تلك المدارس، وخاصة أنه كان يتمتع بنظام داخلي.

وكان ذلك المعهد فرعا من فروع جامع الزيتونة يتونس، وكانت امتحاناته النهائية بإشراف إدارة جامع الزيتونة، وبرامجه هي برامج تونس لكنها متطورة بعض الشيء وكان خريجو المعهد يواصلون دراستهم في تونس بدون صعوبة.

وفي أوائل الخمسينات فتح باب البعثات الدراسية إلى المشرق العربي، وأبدل اسم الشهادة – دون تغيير المنهج – فأصبحت تسمى: شهادة إتمام الدراسة الثانوية"

لكن مهما كانت الشهادة المتحصل عليها سواء من المعهد أم من تونس أم من المشرق العربي فإنها ليست لها معادلة وغير معترف بها عند فرنسا في الجزائر.

فكان الخريجون لا يجدون مكانا إلا في التدريس عند جمعية العلماء أوحزب الشعب، أو الانصراف إلى الأعمال الحرة.

وفي الأخير لسائل أن يقول رغم النهضة التعليمية العربية في الجزائر، والتحاق أبناء الجزائريين بها إلا أننا نجد أن القائمين عليها والمتحمسين لها ومسئوليها الكبار .. لم يكن أبناؤهم من الدارسين فيها مثل الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك الميلي والشيخ العربي التبسي والشيخ خير الدين .. والقائمة طويلة وللسائل أن يواصل البحث.

الإعلام باللغة العربية عبر الأثير في ثورة التحرير

أ. عبد القادر نور

أحد محرري ومذيعي صوت الجمهورية الجزائرية

من صوت العرب بالقاهرة.

حينما وصلتني هذه الدعوة احترت من أين أبدأ والمحاور كلها هامة وجديرة بالعناية.

ولما التقيت الدكتور محمد العربي ولدخليفة صاحب الدعوة، في الحفل الذي أقيم في متحف المجاهد ترحما على روح الفقيد علي زعموم رحمه الله وطيب ثراه، قلت له أن المحاور كلها بما فيها من فقرات تحتاج إلى دراسة معمقة، وموثقة، وليس في استطاعتي في هذا الوقت الضيق أن ألم بكل جوانب الموضوع، إذا تناولت محورا كاملا بكل فقراته ...

فقال حفظه الله أكتب في موضوع الإعلام الذي عشت جانبا منه ولذلك اخترت الفقرة التالية:

5.3. الإعلام باللغة العربية أثناء الثورة التحريرية

البداية كانت بيان أول نوفمبر 1954

نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت نوفمبر مطلع فجر

ويركض الزمان بنا طويلا تاركا وراءه قرنا وربع قرن من الحرمان من كل مقومات الحياة، وفي مقدمتها الحضارة العربية الإسلامية، والتراث الجزائري العريق وقرنا وربع قرن من الهدم والتدمير لكل ما هو جزائري أصيل ليبلغ رسالة المعذبين في الأرض إلى نوفمبر، ويتفجر البركان العظيم ليزيح الستار عن فجر جديد عن يوم من أعظم الأيام يوم أول نوفمبر الذي انتظرته أجيالنا المعذبة سنين طويلة.

ومن صوت العرب بالقاهرة ينطلق بيان أول نوفمبر مؤكدا انتماء الجزائر العربي الإسلامي. ومن هنا انطلقت جموع الطلبة طوعا في عموم المشرق العربي، مبشرة برسالة نوفمبر الجديدة، رسالة الحرية للعالم العربي، كل في موقعه، دون انتظار التعليمات، وهذا ما يفسر شعبية الثورة الجزائرية المباركة.

ويتقابل الجزائري مع أخيه الجزائري كل صباح مسلما ومعانقا:

"**ناضت ياخويا ناضت**" لأن شعاع الأمل قد لاح لتحقيق حلم المبعدين: هؤلاء الذين كانوا غرباء في وطنهم فهاجروا طلبا للعلم بلغتهم العربية، هؤلاء الذين غربهم الحرف الغريب الذي احتل قسرا الساحة الجزائرية رافضا الحرف الوطني الأصيل ... ولما وجدوا الجو المناسب تحت راية جبهة التحرير الوطني استطاعوا أن يبلغوا صوت الثورة الجزائرية إلى العالمين العربي والإسلامي بكل أمانة وصدق.

والإعلام عبر الأثير بصورة عامة وبالعربية بصورة خاصة يحتاج إلى عناية كبيرة بما له من تأثير مباشر على الشرائح الواسعة من المجتمع ويمس جميع الطبقات وبالأخص الفعاليات العربية التي أولت ثورة الجزائر اهتماما فاق كل تصور بل لم يكن متوقعا أصلا، وذلك لدقة التعبير عن متطلبات ومستلزمات الثورة الجزائرية، وبالتعبير الجيد بلغة الضاد.

وفي بداية الثورة كانت الجزائر العربية المسلمة مجهولة لدى كافة المستويات في الوطن العربي، ولذلك فالمهمة كانت من الصعوبة بمكان، ولابد إذا من دراسة واسعة في كيفية تناول المواضيع، والوسيلة المطلوبة في التعبير عن متطلبات المرحلة الجديدة:

هل هي اللهجة العامية الجزائرية أو الجزائرية المطعمة من بعض اللهجات العربية؟ ولكن الإشكال قد حل باستعمال الفصحى، والاعتراض الذي كان واردا بأن اللغة العربية غير مفهومة في الجزائر بصورة خاصة والمغرب العربي بصورة عامة، قد تلاشى كما أثبتت الأيام بأن الفصحى لها مكانتها ولها رنينها ولها تأثيرها وسيطرتها على المستمع العربي، وبذلك سقطت كل الافتراضات والاعتراضات، والتحمت الجماهير العربية بالثورة الجزائرية وآمنت بها .. حتى صار كل عربي يؤمن بها ويعتبرها ثورته بكل فخر واعتزاز.

إدارة صوت العرب بالقاهرة تجهل كل شيء عن الجزائر:

وفي هذا السياق أتعرض لقول الأستاذ أحمد سعيد مدير صوت العرب الأسبق بالقاهرة، حينما عزموا التوجه إلى المغرب العربي بصورة عامة والجزائر بصورة خاصة، وهو يحاضر في المؤتمر العالمي المخصص للثورة الجزائرية، في الكتابات العربية والأجنبية المنعقد في فندق الأوراسي يوم 2002/07/02م وهنا استعرض مقتطفات من محاضرته:

... بدأنا الكلام عن الجزائر بداية من سنة 1953 بصوت العرب ... إذاعة صوت العرب لم تكن إذاعة عادية بل كانت لها خصوصياتها ... قارنا في ذلك الوقت بين الاستماع إلى أجهزة الراديو وقراء الجرائد فوجدنا: قارئا واحدا لجريدة يقابله 1900 مستمع لصوت العرب.

... كما أعددنا الخطاب الإعلامي لشمال إفريقيا وخاصة الجزائر، وخصصنا 28 دقيقة يوميا لشمال إفريقيا عام 1953.

... ولم تكن لنا أية معلومات عن شمال إفريقيا ككل عدا 17 كتابا لذلك كونا لجانا لدراسة الموضوع، والدكتور طه حسين أحد أعضاء هذه اللجان فجمع لنا ما كتبه المستشرقون عن شمال إفريقيا.

... لقد طلب منا زعماء الثورة الجزائرية الحديث عن الجزائر، ولكن ليست لنا معلومات دقيقة عن الجزائر حتى نستطيع توجيه الخطاب إلى شعبها ... لم تكن لنا رؤيا واضحة، هل نوجه الخطاب إسلاميا أم قوميا؟.

... الكلمة المسموعة تجعل الشعب في استعداد دائم، وإذا كنت تدعو إلى الشهادة فلا بد من أن تكون دقيقا في كلامك ...

وحينما بدأنا التوجه إلى الجزائر كونا جهازا خاصا تدرب عليه المرحوم عيسى مسعودي... انتهى كلام الأستاذ أحمد سعيد.

ركن المغرب العربي بصوت العرب:

هذا الركن كان نافذة واسعة مفتوحة أمام شباب الجزائر للتعريف بالجزائر وثورتها إلى جانب الصحف المصرية والعربية بصورة عامة التي كانت في البداية تخبط خبط عشواء، وتخلط بين الجزائر وجزر أندونسيا، وبفضل الطلبة الذين كانوا يدرسون في المدارس والجامعات العربية، أضحت تلك الصحف على دراية واسعة بجغرافية الجزائر وحدودها وموقعها المتميز بين أحضان المغرب العربي، لقد أدى كل واحد منهم دوره في مكان تواجده بجدارة وبمبادرات سواء كانت فردية أم جماعية.

تحرك الجزائريون الموجودون بالقاهرة بعد إذاعة بيان أول نوفمبر من صوت العرب بالقاهرة مباشرة كل في مجاله سواء منهم المنتمي إلى جبهة التحرير، وهم قليلون، أم من لم يلتحقوا بعد ولكن الإعلان عن قيام الثورة احدث هزة في نفوس الجزائريين من السياسيين ومن الطلبة وغيرهم، وتطلعوا جميعا إلى معرفة حقيقة ما جرى ليلة أول نوفمبر بالجزائر، ومن الشخصيات الجزائرية البارزة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي بادر إلى تأييد الثورة دون انتظار التفاصيل عما جرى في الجزائر وأرخى العنان لقلمه وصب جام غضبه على المستعمرين، ولم أعثر لأية شخصية جزائرية أخرى على تصريحات مذاعة إلا

تصريحات الشيخ البشير الإبراهيمي ولهذا رأيت من واجبي أن أدرجها في هذه المساهمة المتواضعة خدمة للتاريخ وتعميما لفائدة أجيال اليوم المتطلعين إلى ما قدمه الآباء والأجداد إلى الثورة المظفرة التي أصابت العالم بالدهشة في سريتها وانطلاقها المفاجئ.

ظهور الشيخ البشير الإبراهيمي في الساحة الإعلامية:

أعلن البشير الإبراهيمي تأييده للثورة الجزائرية في اليوم الثاني من نوفمبر 1954م في بيان وزع على الصحف المصرية ووكالات الأنباء العربية والعالمية وأذيع على أمواج صوت العرب بالقاهرة في اليوم الثالث من نوفمبر 1954م وهذا مقتطف من البيان:

البيان الأول: أذاعت عدة محطات عالمية في الليلة البارحة أن لهيب ثورة اندلع في عدة جهات من القطر الجزائري، وسمت عدة بلدان من وطننا العزيز بعضها صحيح اللفظ، وبعضها محرف، ولكننا عرفناها ولو من لحن القول لأنها أفلاذ من ذلك الوطن العزيز ... إلخ البيان وهو طويل جدا. آثار الإمام الإبراهيمي ص: 37.

البيان الثاني: أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر:

انفجر بركان الثورة المباركة في الجزائر ليلة اليوم الأول من نوفمبر الحالي وقد كنا نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر نترقب هذه الثورة ونتوقعها نترقبها لأنها الأمل الوحيد في تحريرنا من العنف الفرنسي الذي لا يعرفه إلا من ابتلى به، ونترقبها لأن هذا هو وقتها، ولأن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة ولا يفتح آذانها إلا هذا الصوت ... إلخ البيان ص 40.

البيان الثالث: نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد:

نعيذكم بالله أن تتراجعوا

بسم الله الرحمان الرحيم

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

حياكم الله وأحياكم، وأحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة،

وهذا هو المنطق الذي يقوم القلوب الغلف، و هذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب و الأوهام. إلى آخر البيان.

البيانات الثلاثة ممضاة من طرف الإمام محمد البشير الإبراهيمي والشيخ الفضيل الورتيلاني باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

البيان الرابع:

إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر والمغرب العربي

اليوم حياة أو موت بقاء أو فناء

حياكم الله أيها الثائرون الأبطال وبارك في جهادكم، وأمدكم بنصره وتوفيقه وكتب ميتكم من الشهداء الأبرار وحيكم في عباده الأحرار.

لقد أثبتم بثورتكم المقدسة هذه عدة حقائق:

الأولى: أنكم سفهتم دعوى فرنسا المفترية التي تزعم أن الجزائر راضية مطمئنة فأريتموها أن الرضى بالاستعمار كفر وأن الاطمئنان لحكمها ذل، وأن الثورة على ظلمها فرض.

الثانية: أنكم شددتم عضد إخوانكم المجاهدين في تونس ومراكش، وقويتم آمالهم في النصر، وثبتم عزائمهم في النضال، وقد كان من حقهم الثابت أن ينتظروا هذه النجدة منكم فجئتم بها في وقتها وكفرتم عن التقصير بهذه المباغتة المفزعة لعدوكم.

الثالثة: أنكم وصلتم بثورتكم هذه حلقات الجهاد ضد المعتدين الظالمين، الذي كان طبيعة ذاتية في الجزائري منذ كان، وكشفتم عن حقيقته الرائعة في إباء الضيم والموت في سبيل العزة وجلوتم عن نفسيته الجبارة ما علق بها في السنين الأخيرة من صدإ الفتور.

الرابعة: أنكم بيضتم وجوها وأقررتم عيونا، وسررتم نفوسا، مملوءة بحبكم معجبة بصفاتكم القديمة في الجهاد، راثية لحالتكم الغابرة. أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ص: 47

الحديث الخامس: أذيع بإذاعة صوت العرب بالقاهرة سنة 1955م.

موالاة المستعمر خروج عن الإسلام:

أيها المستمعون الكرام ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إذا قلنا. إن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام فهذا حكم مجمل تفصيله أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسها في معناها مادة

التولي، والألفاظ الثلاثة واردة على لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به وهو الخروج عن الإسلام ... حديث طويل. أثار الإمام الإبراهيمي ص 68.

الحديث السادس: ألقى من إذاعة صوت العرب كذلك سنة 1955 بعنوان الإسلام في الجزائر.

الحديث السابع بعنوان:

الجزائر المجاهدة:

ألقي بإذاعة صوت العرب بالقاهرة سنة 1955

يقول في مقدمته:

لو قسمت، حظوظ الجهاد بين الأمم لحازت الجزائر قصب السبق ... إلخ ص 76 والحديث طويل.

وله مقالات عديدة نشرت في الصحافة المصرية وغيرها ... اقتصرت على بعض النماذج مما أذيع في إذاعة صوت العرب.

رسالة باريس كشفت شعبية صوت العرب في فرنسا:

لما تفاقم الوضع بين المغتربين واشتد الخلاف وتطور إلى الاغتيالات في وضح النهار بين أنصار الحاج مصالي وأنصار جبهة التحرير الوطني تطلعوا إلى صوت العرب للتخفيف من شدة الصراع المحتدم بين الاخوة..

وفي هذه السياق وصلتني رسالة من أخي البشير نور بباريس يعلمني فيها بحوادث خطيرة وقعت في صفوف المغتربين وصلت حد التقاتل، جاء في مقدمتها ما يلي:

أرجوكم وجهوا كلمة من صوت العرب تبينون فيها الطريق الأسلم لوضع حد للصراع والالتفاف حول جبهة التحرير الوطني، وأن جبهة التحرير الوطني هي التي فجرت الثورة وليس شخصا آخر لأن صوت العرب مسموع هنا جيدا و ثقة الجزائريين هنا بصوت العرب كبيرة جدا. هذا هو محتوى الرسالة باختصار، وفي نفس اليوم كتبت كلمة في الموضوع وقصدت الأستاذ محمد أبو الفتوح المشرف على ركن المغرب العربي في بداية سنة 1956م وأذعت الكلمة بصوتي.

أجهزة الإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني:

الانطلاقة الأولى لأجهزة إعلامية مسموعة ناطقة باسم جبهة التحرير الوطني كانت سنة 1956م وفي هذه السنة أنشأ قادة جبهة التحرير أركانا إذاعية في معظم الأقطار العربية، وكانت الإذاعة في ذلك

الوقت في الوطن العربي أول وسيلة قوية وفعالة، وقد تزامن ذلك مع توسيع شبكة البث الإذاعي والتلفزيون في الجزائر لإيصال "**صوت البلاد**" الذي كان ناطقا باسم غلاة المستعمرين والمرسل من الإذاعة الجهوية بالجزائر العاصمة، وكانت السلطات الاستعمارية تعتقد بأنها ستؤثر على حركة التاريخ، ولكن هيهات، كما تزامنت هذه الحركة الإعلامية الناطقة بالعربية باسم جبهة التحرير الوطني مع تدشين أول بث تلفزيوني بالجزائر تابعا لغلاة المستعمرين أواخر 1956. وأن ما قامت به جبهة التحرير الوطني لم يقع صدفة بل تزامن مع ما يجري في الجزائر من توسيع شبكة البث الإذاعي والتلفزيوني، وفي واقع الأمر فإن السلطات الاستعمارية، كانت تريد التأثير على الرأي العام الجزائري في مواجهة المعركة الإعلامية الجديدة التي فتحتها جبهة التحرير الوطني، قوية وفعالة دخلت كل البيوت فعززت همم المجاهدين وأيقظت بقية النائمين كما أقضت مضاجع المستعمرين.

التغطية الإعلامية أثناء الثورة:

التغطية الإعلامية للوطن العربي كانت عامة وشاملة وهي عبارة عن شبكة إذاعية غطت كامل الوطن العربي من طانجة إلى بغداد.

سنة 1956 م تشهد انطلاق أربع إذاعات ناطقة بالعربية:

1. صوت جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني من غرب الجزائر بالحدود المغربية الجزائرية.
2. إذاعة تيطوان بالمغرب الأقصى.
3. صوت الجزائر من تونس الشقيقة.
4. صوت الجمهورية الجزائرية من "صوت العرب" بالقاهرة.

سنة 1958 م تشهد انطلاق خمس إذاعات:

5. صوت الجزائر من إذاعة طرابلس بليبيا الشقيقة.
6. صوت الجزائر من إذاعة بنغازي.
7. صوت الجزائر من إذاعة سوريا الشقيقة.
8. صوت الجزائر من إذاعة الكويت الشقيقة.
9. صوت الجزائر من إذاعة العراق الشقيقة.
10. سنة 60 تشهد إذاعة خاصة موجهة إلى الجزائر باللهجة الجزائرية.

قبل أن أتعرض بالتفصيل للإذاعات المذكورة، أقف بكل إجلال وتقدير عند محطة الإذاعة السرية التي تعد إذاعة جزائرية، بكل ما فيها ومن فيها.

هذه الإذاعة كانت إذاعة متنقلة قرب الحدود الجزائرية المغربية قبل أن تستقر في مدينة الناظور المغربية:

مدة البث كانت حوالي ساعتين يوميا، ساعة بالعربية نصف ساعة بالقبائلية.

الموجات العاملة: الموجات القصار بجهاز اقتناه المرحوم رشيد زقار من القاعدة الأمريكية بالقنيطرة بالمغرب الشقيق ولا نعلم كيف تحصل على الجهاز.

العاملون بهذه الإذاعة:

- معلقون يكتبون ويذيعون التعاليق السياسة.
- برامجيون، إنتاج وبرمجة.
- تقنيون.

ومن بين العاملين بهذه الإذاعة الاخوة الآتية أسماؤهم:

1. عبد المجيد مزيان.
2. رشيد النجار.
3. مدني حواس.
4. محمد بوزيدي.
5. الهاشمي التيجاني.
6. الشيخ رضا بن الشيخ الحسين.

وأذكر من بين التقنيين الأخ عبد الرحمن لغواطي، قدور ريان، محمد بوغرارة أما في حالة استقرار هذه الإذاعة السرية بالناظور سنة 1959م فقد تولى تسييرها مجموعة من الاخوة أذكر منهم على سبيل المثال لأني لم أتذكر الجميع:

1. عيسى مسعودي.
2. محمد بوزيدي.
3. خالد سافر.
4. مصطفى التومي.

وتولى افتتاح الإذاعة في عهدها الجديد الأخوان: سعد دحلب وعيسى مسعودي، وقد توسعت مدة الإرسال إلى ست ساعات مقسمة على ثلاث فترات:

- الخامسة صباحا لمدة ساعتين.
- الواحدة زوالا لمدة ساعتين.
- الثامنة ليلا لمدة ساعتين.

وقد حاولت السلطات الاستعمارية اكتشافها فلم تفلح، كما خابت مساعيها في التشويش عليها كذلك.

سنة 1956 م انطلاق صوت الجزائر من تونس:

هذه الإذاعة تكتسي أهمية خاصة وأهميتها تكمن في صوت عيسى مسعودي رحمه الله، الذي يعد أبرز الأصوات الإذاعية عبر أمواج الإذاعات الجزائرية في معركة التحرير الذي قال عنه الرئيس هوارى بومدين رحمه الله: " **صوت عيسى مسعودي شق وجيش التحرير شق أخر**"، واستطاع هذا الصوت أن يجند آلاف الشبان الجزائريين في صفوف الثورة .. واستطاع أن يؤثر تأثيرا قويا على الجماهير الجزائرية بالرغم من أن مدة البث لا تزيد عن 30 دقيقة التي كانت غنية بالمعلومات العسكرية عن المعارك الطاحنة التي تدور رحاها بأرض الثورة الجزائرية، والتعاليق السياسية الضافية.

ومن بين الذين تولوا مهمة إعداد وتقديم برنامج هذه الإذاعة الاخوة الآتية أسماؤهم:

1. عيسى مسعودي.
2. محمد بوزيدي.
3. لمين بشيشي.
4. العربي سعدوني.

1956 م انطلاق صوت الجزائر من صوت العرب بالقاهرة:

هذا الركن تغير اسمه عدة مرات إلى أن استقر تحت عنوان صوت الجمهورية الجزائرية، لقد استطاع هذا الصوت أن يعطي نفسا جديدا للثورة الجزائرية، من الناحية الإعلامية واستطاع أن يعمق وجودها في نفوس الجماهير العربية، والطبقات المثقفة بصورة خاصة، حتى صار كل عربي يحس بان الثورة الجزائرية هي ثورته، وأنها الثورة العربية الوحيدة التي كسرت حاجز الخوف من الاستعمار، وأعادت الثقة إلى نفوس الجماهير في حقها الطبيعي، في الدفاع عن مكتسباتها، وحقوقها الطبيعية في الحرية والانعتاق، كما أزال

هذا المد الإذاعي الجديد الضبابية التي خيمت على الأجواء العربية مدة ليست بالقصيرة، كما أزاح الستار عن قوة كانت كامنة في ربوع الجزائر الفتية قادرة على مواجهة أعتى قوة استعمارية شرسة في العالم.

ولم يبق صوت الجمهورية الجزائرية وحيدا في هذه المعركة الإعلامية، بل استطاع الطلبة الجزائريون فتح المجال بركن المغرب العربي بصوت العرب الذي يشرف عليه الأستاذ محمد أبو الفتوح، الذي أولى عناية خاصة للثورة الجزائرية، وقد وجهت أنا شخصيا عدة رسائل إلى الشباب الجزائري المقيم بفرنسا أدعوهم فيها للانضمام إلى جبهة التحرير الوطني.

أما صوت الجمهورية الجزائرية الناطق باللغة العربية من صوت العرب بالقاهرة فقد تولى تعاليقه السياسية وإذاعتها الاخوة الآتية أسماؤهم:

1. توفيق المدني.
2. عثمان سعدي.
3. محمد كسوري(قبل أن يلتحق ببغداد).
4. رشيد النجار.
5. على مفتاحي.
6. التركي رابح.
7. عبد القادر بن قاسي.
8. عبد القادر نور.

كما تعزز صوت الجمهورية الجزائرية بصوت العرب بساعة كاملة منوعة ناطقة باللهجة الجزائرية سنة 1960 وكان ينتجها ويشرف عليها ويذيعها:

1. عبد القادر نور.
2. عبود عليوش.
3. محمد مفتاحي.

وكنا نستقي المعلومات عن الكفاح المسلح من مراسلة من تونس بصوت عيسى مسعودي رحمه الله سنة 1961 م سميناها رسالة تونس نستقبلها بإذاعة القاهرة ونسجلها لنستمع إليها فيما بعد، ومنها ننطلق في تحرير أخبارنا وتعاليقنا السياسية.

سنة 1956م تشهدا إنطلاقة إذاعة تيطوان بالمغرب الشقيق:

الإعداد والتقديم للأخ على مرحوم وآخرين.

سنة 1958 م انطلاق صوت الجزائر من إذاعة طرابلس:

بعد أن تعرضت للإذاعات التي أنشئت سنة 1956م أعود إلى المغرب العربي والبداية من ليبيا الشقيقة لإلقاء نظرة سريعة على الإذاعات التي أنشأتها جبهة التحرير الوطني سنة 1958م، فصوت الجزائر من ليبيا انطلق سنة 1958م ليمد الشعب الليبي الشقيق بأخبار الثورة الجزائرية، الذي أمد الثورة الجزائرية بتشجيعات كبيرة مادية ومعنوية، دشن هذه الإذاعة الدكتور لمين الدباغين رحمه الله وطيب ثراه وألقى كلمة الإفتتاح الأخ رابح مشحود.

والوحيد الذي تولى التحرير والتعاليق السياسية هو الأخ محمد الصالح الصديق وكان يساعده في الأخبار العسكرية الأخ حسين يامي، وكان المسؤول العام الأخ بشير قاضي، وحينما ذهب للعلاج تولى مكانه الأخ أحمد بودة بعد رجوعه من العراق.

مدة البث الإذاعي ثلاث مرات في الأسبوع، مدة الحصة الواحدة حوالي نصف ساعة.

سنة 1958 م تشهد انطلاق صوت الجزائر من بنغازي:

أنشئ هذا الفرع الإذاعي في بنغازي لتعميم أخبار الثورة الجزائرية على الشعب الليبي الشقيق، وقد جاء هذا الفرع بناء على رغبة الشعب الليبي، وبهذه المبادرة تكون ليبيا الوحيدة التي سمحت بإنشاء إذاعتين للجزائر عبر أمواجها الإذاعية العاملة بالعربية.

وبهذا تكتمل 5 إذاعات للثورة الجزائرية في المغرب العربي.

صوت الجزائر من دمشق سنة 1958م:

إنشاء هذه الإذاعة و ظروف توقيفها:

ابتدأت هذه الإذاعة مع قيام الوحدة بين مصر وسوريا وانتهت وتوقفت بالانفصال بينهما ذلك أن هذه الإذاعة تابعة مباشرة لمكتب جبهة التحرير الوطني، وليس للإذاعة السورية عليها أية رقابة أو تدخل أو توجيه مثلها مثل بقية الإذاعات الأخرى في الوطن العربي. فقد وضعت جبهة التحرير نفسها فوق كل النزاعات، والخلافات العربية وحازت على ثقة واحترام وحب الجميع لها ذلك لأنها، استطاعت أن ترسم لنفسها سياسة حيادية واعية ثم إنها حافظت على استقلاليتها، فلم تضع نفسها تحت وصاية أية جهة عربية أو دولية فإعلامها كان حرا لا يتلقي أية إيحاءات أو إملاءات وحتى المسؤلون الكبار في الجبهة أو الحكومة المؤقتة لا يتدخلون ولا يعطون أية توجيهات للمحررين في الجرائد أو الإذاعات.

وبهذا الصدد يذكر الأخ محمد مهري في كتابه: ومضات من دروب الحياة ص : 86.

"وبعد أن قام النظام الانفصالي في سوريا طلب المسؤولون الجدد في الإذاعة أن يخضعوا هذه الحصة لرقابتهم فطلبوا من مذيعها محمد مهرى أن يقدم تعليقه المكتوب، في وقت سابق قبل تسجيله للمراقبة فرفض وأعلمهم أن هذه الحصة تذاع فعلا من دمشق ولكنها تحت إشراف ورقابة ومسؤولية جبهة التحرير الوطني وإن الجبهة لا تقبل أية وصاية في توجيه وتسيير شؤونها، فإن أردتم التعامل معنا على هذه القاعدة التي سيرنا بها مصالح ثورتنا وتعاملنا بها مع أشقائنا وأصدقائنا فإننا سنستمر في إذاعتنا من دمشق شاكرين لكم وللشعب السوري الشقيق تفهم أسلوبنا في المحافظة على استقلال قراراتنا، فإن أبيتم و انتهى رأيكم إلى فرض الرقابة من طرفكم على حصتنا فإننا نكون ملزمين بتوقيفها". انتهى كلام محمد مهري ص 86. من المصدر السابق.

وبعد إصرار سلطات الإذاعة السورية على موقفهم، توقفت الإذاعة بعد مشاورات أعضاء فريق الإذاعة مع الشيخ الغسيري رحمة الله رئيس البعثة.

وقد كان فريق هذه الإذاعة يتكون من مجموعة من الطلبة المعربين الذين يدرسون بالجامعات السورية، وهم الذين يتولون مهمة الإعداد والتعاليق السياسية، والإشراف على جميع فقرات البرنامج وهم الاخوة الآتية أسماؤهم:

1. محمد مهري.
2. محمد بوعروج.
3. الهاشمي قدوري
4. محمد أبو القاسم خمار
5. منور الصم.
6. أبو عبد الله غلام الله.

1958 م انطلاق صوت الجزائر من الكويت:

لقد لعب هذا الركن دورا عظيما في التعريف بالثورة الجزائرية، في دول المنطقة كلها، وقد كان موجها إلى دول الخليج، العربي ويذاع على الساعة الخامسة مساء ولمدة ثلاث ساعات في الأسبوع، يعد الفقرات التمثيلية والتعاليق السياسية الأخ عثمان سعدي، يساعده المذيع الكويتي السيد موسى الدجاني، وقد خلق هذا البرنامج جوا من الحماس في الأوساط الكويتية لمد الثورة الجزائرية بالعون المادي والمعنوي.

العراق: وأنهى هذه الجولة بإذاعة الجزائر في بغداد:1958 م

افتتحت هذه الإذاعة في عهد المرحوم أحمد بودة الذي كان رئيس البعثة الجزائرية بالعراق سنة 1958م، وهو الذي طلب من السلطات العراقية فتح باب الإذاعة للثورة الجزائرية، وهو الذي افتتحها بنفسه واستمر يذيع بين الحين والأخر ليسلمها بعد ذلك للشباب الجزائري فتولى التحرير والتعاليق السياسية بها:

1. محمد الربعي.

2. على الرياحي الذي كان طالبا بجامعة بغداد وكان صوته يشبه إلى حد بعيد صوت أحمد سعيد بصوت العرب بالقاهرة.

ولما التحق الأخ حامد روابحية ببغداد كرئيس للبعثة الجزائرية بالعراق تولى أيضا التحرير والتعليق على الأنباء بهذه الإذاعة وقد زرت بغداد في السنة الموالية لافتتاحها بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي للشباب سنة 1959 فلمست الأثر العظيم الذي أحدثته هذه الإذاعة في الأوساط الشعبية العراقية، حتى إن الشعب العراقي صار يعرف أدق المعلومات عن الثورة الجزائرية، فتعلق بها وأصبحت مثله الأعلى، ولم يتأخر الشعب العراقي كبقية الشعوب العربية بمد الثورة الجزائرية بما تستحقه من عون مادي وأدبي.

بفضل السياسة التي سارت عليها أجهزة الإعلام المسموعة الناطقة باسم الثورة الجزائرية استطاعت أن تكسب احترام، وعطف وتقدير جميع الشعوب والحكومات العربية على اختلاف أنظمتها السياسية ولذلك كانت محل إجماع عربي نادر الحدوث كما أني لم أر إجماعا للعرب على أية قضية من قضايا أمتنا العربية مثل إجماعهم على قضية الجزائر.

ومن المبادئ الأساسية للسياسة الإعلامية التي كانت تسير عليها كل الإذاعات الناطقة بالعربية التابعة لجبهة التحرير الوطني.

أذكر مايلي:

أولا: عدم التدخل في السياسة الداخلية لأي بلد عربي.

ثانيا: الدعوة إلى وحدة الشعب الجزائري وسيره صفا واحدا وراء جيش وجبهة التحرير الوطني لإعطاء المثل لبقية الشعوب التي تناضل من أجل حريتها واستقلالها وخاصة الاخوة الفلسطينيين.

ثالثا: الدعوة إلى وحدة شعوب المغرب العربي في كفاحها ضد الغاصب المحتل، بعدم تجزئة الكفاح المسلح.

رابعا: التركيز على المجازر الوحشية التي يرتكبها الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

خامسا: التنديد بتصرفات الانهزاميين من الخونة وأذناب الاستعمار الذين باعوا ضمائرهم بأبخس الأثمان.

سادسا: التعاليق الضافية على انتصارات جيش وجبهة التحرير الوطني في معارك التحرير التي يخوضها ضد الاستعمار والقومية والحركي وإلحاق الهزائم العديدة بعساكر العدو في حربهم القذرة، ضد الشعب الجزائري الأعزل.

سابعا: الرد على الدعايات المغرضة التي يبثها العدو قصد تشويه سمعة الثورة الجزائرية ونزع ثقة الشعب الجزائري والشعوب العربية منها.

ثامنا: اعتبار المجاهدين حاملي السلاح هم أمل الشعب الجزائري في التحرر والوحدة.

تاسعا: الحرية الكاملة في التسيير والتوجيه دون تدخل أي واحد من جبهة التحرير الوطني لفرض توجيه معين وكنا نطلب من حين لآخر من المرحوم سعد دحلب إعطاءنا بعض التوجيهات فكان يقول: **أنتم أدرى وأعرف بالمنطقة وأهلها.**

وأؤكد هنا مرة أخرى أننا كنا نتمتع بالحرية الكافية في التعبير عن آمال وآلام الشعب الجزائري البطل، والتعليق الوحيد الذي أعتبر خطأ سياسيا لأن المفاوضات السرية كانت جارية بين الفريقين الجزائري والفرنسي وكان التعليق بالفرنسية للأخ إبراهيم غافه شديد اللهجة مما جعل رئيس الوفد الفرنسي السيد/ LUIS JOXE يقدم احتجاجا للوفد الجزائري ويوقف المفاوضات.

وهنا تحرك الأخ المرحوم عبد الحفيظ بوصوف "سي مبروك" فجمع أعضاء البعثة وأعطاهم بعض التوجيهات للتخفيف من حدة اللهجة أثناء فترة المفاوضات.

وينحني الزمن إجلالا وتقديرا لدماء المليون ونصف المليون من الشهداء الأبرار الذين رووا بدمائهم الزكية أديم هذه الأرض الطيبة، ولدموع الثكالى الائي دفعن فلذات أكبادهن، لتحرير الجزائر، وبفضل تضحيات جحافل المجاهدين الأحرار الذين رفعوا راية الحرية خفاقة في جبال الجزائر ووهادها إلى أن توجت جهودهم بالنصر المبين في التاسع عشر من مارس سنة 1962 وبذلك طويت صفحة من صفحات الاستعمار السوداء وفتحت وصفحة ناصعة البياض.

وكانت فرحتنا غامرة بهذا الانتصار العظيم عبرنا عنه في تعاليقنا السياسية التي أعقبت إعلان الاستقلال. وقد دعونا فيها لبقاء الصفوف متراصة، والكلمة واحدة والهدف واحد لأن الوطن واحد هو الجزائر المجاهدة.

وأهوى على قدميها الزمن فاهوى على قدميها الطغاة

وأخيرا أنهيت برنامج القاهرة في يوم الخميس 23 أوت 1962 على إثر برقية واردة من الجزائر تطلب مني إيقاف البرنامج والدخول إلى الإذاعة الجزائرية، وقد سلم لي البرقية الأخ علي كافي رئيس البعثة الجزائرية بالقاهرة فودعت الجماهير العربية التي ساندت ثورتنا بكلمة ضمنتها مبادئ وأهداف الثورة الجزائرية في عهد الاستقلال .. وقطعت عهدا باسم الثورة الجزائرية على بقاء الجزائر وفية للأخوة العربية.

وأختم كلمتي هذه بما كنا نختم به أحاديثنا في إذاعة الثورة.

المجد و الخلود لشهدائنا الأبرار

وعاشت الجمهورية الجزائرية

المصادر:

1. شهادات من أفواه صانعي الحدث.

2. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي الجزء الخامس <<1954 – 1964>>
طبع دار الغرب الإسلامي.

3. ومضات من دروب الحياة من مذكرات النقيب الأستاذ محمد مهري
طبع مؤسسة الشروق للإعلام والنشر.

4. إلياذة مفدى زكرياء: بيتين من شعر مفدي زكرياء.

مشكلة الإصلاح في المجتمع الجزائري

أ.د. محفوظ سماتي

الإصلاح تغيير هادئ، ليس بنهضة تجمعت فيها أفكار مجردة، ولا بثورة تتدفق كالسيل العارم. فهو بين هذين التيارين يحاول إزالة البالي دون أن يهدد البنية الاجتماعية. يلبي رغبة المجتمع في التجديد ويدفعه بلطف إلى سلوك مغاير للعادات والتقاليد البالية التي تعترض طريقه وتميت حيويته، فهو حرب على هذه الثقافة الباردة التي تغلغلت في أعماق المجتمع حتى أصبح أسيرا في يدها يتغذى بتعاليمها، مطيعا لأوامرها، لا يرى لها بديلا فهي مقدسة عنده، يحارب من حاربها، ويركن إلى من يحارب على سكونها واستمراريتها. إنها معركة بين التقاليد والعادات البالية وبين التجديد والحداثة.

إنه صراع مرير لا يصبر عليه إلا من أوتي الحكمة والحنكة، ومحبة القوم. فالمصلح يعيش حقا أزمة مجتمعه؛ تعترضه عقبات يريد تذليلها فتتكالب عليه الجماعات و الأفراد، وتسمعه ما لا يحب ويرضى، وتلصق به التهم الباطلة، والافتراءات الخسيسة، عساها أن تقضي على عزيمته، وترده ذليلا مستكينا إلى حوزتها. فهي تراه منحرفا، خارجا عن الجماعة يسفه أحلامها ويحتقر معتقداتها، لقد حق طرده، واستحق غضب المجتمع. وصدق أبو الطيب المتنبي حيث يقول:

أنا في أمة تداركها الله كصالح في ثمود

لقد رفع منزلة المصلح إلى درجة النبوة وفي نفس الوقت أعطانا صورة اقتبسها من تاريخ نبي ذاق الأمرين من قوم أذوه ولم يفهموا من رسالته شيئا. وكيف يقبل التجديد مجتمع انغلق على نفسه واعتقد أنه بلغ النهاية في العلم والثقافة؟ لقد أصبح رافضا لكل ما لا يوافق هداه، فلا يرجى إذن إصلاح قوم تعطلت عقولهم واستعبدهم تقليد آبائهم. فما حيلة المصلح؟ وما عساه أن يفعل لتنفيذ خطّته؟

لقد تعاقب على المجتمع الجزائري مصلحون شتى منذ بداية الاحتلال واعتقدوا أن الاستعمار ليس شرا كله وأن الإصلاح يمسك بيد الشعب ويلحقه بركب الحضارة، فنجد النخبة بعاصمة البلاد تنادي بالإصلاح، وتفوض أمرها إلى من تراه صالحا لينوب عنها أمام السلطات العليا الفرنسية. فهذا أحمد

بوضربة، من ا لأعيان يطالب بتغيير شامل يمس الإدارة والاقتصاد والأمن والثقافة والتعليم... فيقدم برنامجا عريضا[1] لوزير الحرب الفرنسي ليأمر بتنفيذه حسب المواعيد التي أعطتها الحكومة الفرنسية للشعب الجزائري بأنها تريد تحريره من "نير الأتراك" وتلحقه بالشعوب المتحضرة. وهذا حمدان بن عثمان خوجة، عالم جليل، تاجر ماهر، ومن أغنياء العاصمة الكبار، ويصرّح بما يلي: "نحن نظن بأن أمّة كريمة لا تخترق عهودها وأننا سننعم بالحرية وسنعامل بكل عدل... فالفرنسيون رجال وستضمنا الأخوة إليهم، والحقيقة أن الحضارة قائمة على حقوق الناس، فليس لنا ما نخشاه من أمّة متحضرة"[2]

فالأعيان بالعاصمة كانوا يعتقدون أنهم بين أحضان الحضارة وما عليهم إلاّ أن ينساقوا وراء رجالها ليتغيّر وضعهم ويساهموا في إدخال التقدّم على الأمة الجزائرية، فيكونوا سبب ازدهارها بالأخذ بيدها تدريجيا، حتى يعمها الفكر العصري، وتخرج من ركودها وانحطاطها.

لكن لما اصطلوا بنار الاستعمار وتعسفا ته، تبيّن أن ما كان يُعد إصلاحا ما هو إلاّ أوهام وبرق خلب يخدع به من لا تجربة له ومن يثق بالمحتل.

ولما عاين دعاة التقدّم في ظل الاحتلال، سلوكات الجنود والضباط المدنيين الذين التحقوا بهم، وما يقومون به من تخريب، ونهب، وسطو على الأشخاص والأملاك؛ تيقنوا أن هذه الحضارة قائمة على القوة ولا تجود بمكان للضعيف، فانكمش المجتمع على نفسه، ورفض الحوار مع غيره، ورغم المحاولات المتعدّدة لجرّه وراء المُثل العليا التي أنتجتها الثقافة الفرنسية، وما تتغنى به من ديمقراطية وحقوق الإنسان، بقيت الأمة حذرة، لا يغرّها حلاوة كلام ولا تقديم مساعدات وبرامج، ولا نجاح بعض الأفراد ماديا أو علميا.

فالإصلاح الذي يتقدم به المستعمر مشكوك في إخلاصه ولو أتى به مسلمون، وهذا ما وقع للبرنامج الإصلاحي الذي عرضه إسماعيل إيربان على الإمبراطور نابليون الثالث، وقد كان إسماعيل إيربان مترجما عسكريا واعتنق الإسلام، وتزوج بجزائرية، وما فتئ يدافع عن الأهالي الجزائريين، ويندّد بوضعيتهم السيئة. فقد فاز بتمرير بعض أفكاره إلى الإمبراطور، لكن بعد هزيمة هذا الأخير في حربه مع ألمانيا، انتهت كل الأماني، وعاد الحزب الكلونيالي إلى سياسة القمع، والتفقير، والتشريد.

فممّا جاء في برنامج إسماعيل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي: "الزيادة في عدد الممثلين للأهالي في المجالس الولائية والمجالس البلدية، إنشاء عيادات للأهالي في الدوائر التي ليس فيها مستشفى؛ إلحاق طبيب بكل مكتب عربي لعلاج المرضى في العشائر؛ تنظيم الإسعافات العامة في

1. Mémoire de Bouderba, archives nationales.
2. Hamdan Khodja : Le Miroire, ed. Sindbad, Paris, p.174

صالح العشائر؛ تأسيس جمعيات تكون تعاضديات وجمعيات خيرية قد تكون الوسيلة الفعالة للقضاء على تأثير الطرقية؛ الزيادة في طبع نصوص بالعربية وتحرير كتب موجزة في صالح الأهالي.

"عندما يعمل الفرنسيون والأهالي في ورشة واحدة، يزول الاشمئزاز بسرعة؛ واختلاط المصالح يؤدي إلى تلاحم الأسر؛ ولابد من التأثير على الأجيال الناشئة بالتعليم العام وعلى الرجال الكهول بالشغل. إن الشركات الفرنسية الكبرى تسهل العملية الحضارية لأن العلاقات بين الجنسين تكون مراقبة بدقّة". [1]

فالإصلاح في هذا البرنامج موجه للشباب والكبار ولكن الاهتمام بالصغار بإعطائهم ثقافة فرنسية متينة تدمجهم في الوسط الفرنسي وتبعدهم عن نفوذ أسرهم وتحصنهم بالنسبة للعادات والتقاليد، يبدو هو بيت القصيد، والرجوع إلى تربية الصغار يعتبر الحل الأمثل لمشكلة فرنسة المجتمع الجزائري.

وينصح بهذه الطريقة جزائريون لهم الكفاءة العالية في التربية من بينهم، مجدوب بن كلفات، الأستاذ بالثانوية وبدار المعلمين بقسنطينة فيوصي بما يلي: "لابد من الذهاب بالطفل العربي إلى المدرسة، ولابد من انتزاعه من يدي ذويه الأميين، المتعصبين، العاجزين عن إدراك مزايا التعليم والحضارة الفرنسية. إنها الشبيبة التي يقوم على عاتقها مستقبل البلاد جزئيا... فبالتعليم إذن نستطيع أن نجعل من العربي رجلا مستنيرا وذا أخلاق وخصوصا فرنسيا".[2]

فالإصلاح له وظيفتان، الأولى نشر الثقافة الفرنسية، والثانية ضمان الأمن في المستعمرة. فالمتشبّع بالقيم الحضارية الفرنسية لدينا زعم المحتل ولا يطالب بالجلاء حسب زعمهم، لقد تجرّد من كل مقومات شخصيته وتقمص نموذجا آخر، وهنا يكمن الصراع بين الثقافتين، ويشعر المواطن الجزائري، خريج المدرسة الفرنسية بأن تيارين يتنازعان، الوسط الاجتماعي الأصلي الذي يشكل الشخصية القاعدية، ينبهه كلما انحرف عن الجادة، والوسط الثقافي المظهري الذي يدفعه إلى التخلي عن أصالته والبحث عن المزيد من " التقدم والرقي".

وانتبه إلى هذا الجانب إسماعيل إيربان، فقال لدعاة الإصلاح:"حق للمواطن الأهلي أن يرد عليكم بقول: تريدون أن أصبح مثلكم، أتخلى عن نفسي، وأنكر آبائي، مجددا بكل سرعة معتقداتي، وتقاليدي، ومزاجي ..لا أتبعكم في هذا الطريق. يطيب لي أن أشبههم كما يشبه التلميذ أستاذه، لكني أريد أن أبقى أنا أنا، أريد أن أحافظ على ماضيي ولا أخرج بعنف من حياتي، ولو انطلقنا من نقاط مختلفة، فإننا نستطيع أن نتلاقى في مستقبل مشترك دون أن تبتلعوني".[3]

1. seguier. 2 ed. Paris 2000, pp.147-48. lsmail urbain : "L'Algérie pour les Algériens »
2.Madjdoub ben Kalafat: "De l'instruction des indigènes » Constantine, s.d.
3.ismayl urbain, op,cit,p.35

إذا هو الصراع الداخلي الذي يعيشه المثقف المغترب، فلا يدري أين يتجه، فهو مع فكرة الإصلاح لكنه يريدها صادقة، ترفعه إلى مستوى الإنسان الكامل دون الاستغلال ولا الاستعباد، يأخذ من كل ثقافة ما طاب له فتزدهر شخصيته في منبتها، وتسقى من ينابيع شتى.

وقد حاولت المدرسة الإصلاحية الجزائرية أن تنفخ هذه الروح في المواطن الجزائري، فيكون متأصلا في مجتمعه، متفتحا علىغيره، إذ كان تعليمه قائما على قواعد صحيحة، وينطلق مؤسس هذه المدرسة، الشيخ عبد الحميد بن باديس من الإشكالية التي هي عبارة عن سلسلة من حلقات ثلاث لا تنفصل عن بعضها، فيقول :"لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم... ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم".[1] فالتعليم هو الأساس، به تستنير الجماهير وتؤدب الأطفال ويبرز العلماء، فالمجتمع الذي اعتنى به، يحقق النجاح لأفراده ويضمن لهم الرخاء، والنمو، ومن أهمله فقد المعنويات، والماديات، وانجرّ وراء التخلّف والتبعية، وأصبح لقمة سائغة في يد الأقوياء.

واهتمام الشيخ بالتعليم قبل القيام بكل حركة كان له مغزاه، فالأطفال، ومن هم في سن الشباب لهم قابلية لتلقي الدروس، ولهم حركية قلّ ما توجد عند الكهول، يقبلون على التغير بكل جدّ وحماس، ذكاؤهم صاف، وإرادتهم قوية يستسهلون كل العقبات، ويخوضون المعارك ولا يبالون، لكن التعليم الذي يربي العظماء لا بد أن يكون صالحا، وصلاحه يكون بأسلوبه البيداغوجي، وبرنامجه الحيّ الذي يهمل القشور ويمسك اللبّ، لا يعتبر الطالب كيسا يحشى بل شعلة من الذكاء توقد، والتلميذ نسخة من أستاذه، كما أن الابن نسخة من أبيه.

ويوضح لنا ابن باديس صورة التعليم بقوله:" ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي، في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلم صلى الله عليه وآله وسلم، في صورة تعلمه، فقد صحّ عنه عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم:" إنما بُعثت معلما".[2]

لقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم منزلة المعلم إلى درجة النبوة وجعل "العلماء ورثة الأنبياء" بما لهم من فضل على غيرهم وبما لهم من علم يهدون به الأمة وينتفع به الطلاب المتوافدون على دروسهم. هذه النخبة هي التي عرفها القرآن وميزها بالمحاسن والمكارم بقوله: "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين"[3] .

فمكانة العلم في المجتمع كالنجم في السماء إن شعر بمسئوليته العظمى وعمل لصالح شعبه فلا يكتفي بتعليم الحروف ولا بتكرار ما تركه السلف الصالح فإن أراد أن يتبع سنة النبي صلى الله

1. عبد الحميد بن باديس:" أثار الإمام عبد الحميد بن باديس"، منشورات وزارة الشؤون الدينية، قسنطينة،1985،ج4،ص.4
2 .نفس المرجع.
3. الأنبياء/73

عليه وسلم فعليه أن يتدبر ويجتهد ويخوض المعارك بقلمه ولسانه ويده ولا يقيم بمدرسته منتظرا زائريه، إن النضال حركية تتجسد في الميدان وليس سكونا مقوقعا يكسوه حسب إسلامه.

وهذا ما كان يعيه المفكر مالك بن نبي على المصلح وعلى الحداثي أيضا فيقول: "فالخطأ الذي وقع فيه المحدثون ودعاة الإصلاح ناتج عن أن كليهما لم يتجه إلى مصدر إلهامه الحق، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي.

"ومع ذلك فإن الفصل بين الحركتين ضروري من الناحية النفسية، فلقد كان السلفي وحده هو الذي يحمل فكرة النهضة وهو إن كان لم يحقق شروطها العلمية بصورة منهجية فإنه على الأقل لم يضيع هدفها الجوهري، لقد كان يعي تماما أوضاع بيته حتى أنه ألّح في المطالبة بأن يؤدي كل واجبه تاركا للمحدثين الضرب على نغمة (الحقوق)".[1]

فمالك بن نبي يريد إصلاحا نضاليا يحتل كل الأماكن ويسمع صوته في كل المحافل ولا يقتنع بتلقين دروس للتلاميذ ولا بتوجيه مواعظ من منبر المسجد لجماهير أنها صاغية وقلوبها خاشعة، فهذه العملية لا تتطلب جهدا ولا تنذر بخطر، فالمفروض أن الإصلاح يقتحم أماكن الفساد في الشارع والسوق والمقهى....

هذه أمنية المصلح وغيره لكن ما حيلة المرء، الذي يعاني من القمع في مدرسته وفي مسجده، ورغم الظروف القاسية يحاول أن يبلغ الرسالة، إنه جهد ضئيل ربما، لم يقم به إلا القليل، فمن الجانب المنهجي لبرنامج التعليم يمكن انتقاد طريقة التدريس ورتابتها، إن الفكر الإصلاحي توقف فلم يبتكر، وهذا يعتبر عجزا وصورة للتخلف الذهني ومالك بن نبي لم تقنعه المبررات فهو يراها هروبا من المسؤولية، وأن المسلم لم يسخر كل قواه لتحسين وضعه وإنتاج ثقافة حية تدفع إلى الحركية وحب التغير."فإن الثقافة، يقول مالك بن نبي، "تبدأ متي تجاوز الجهد العقلي الذي يبذله الإنسان حدود الحاجة الفردية".[2]

فمشكلة الإصلاح في المجتمع الجزائري معركة خاضتها النخبة المثقفة كل حسب استطاعتها غير، أن الشيخ ابن باديس حقق الجزء الأكبر من العملية لقد تفانى في العمل في النفوس بتوعية الجماهير وتعليم التلاميذ وتثقيف المتعلمين بالقلم، فأعد العدة لينقلب الإصلاح إلى ثورة، فكان نوفمبر هو الشعلة التي أوقدت نار ثورة التحرير المجيدة.

---

1. مالك بن نبي: "وجهة العلم الإسلامي" ترجمة عبد الصبور شاهين.دار الفكر، بيروت1970،ط:2، ص76-77.

[2] نفس المرجع، ص72.

بعض المراجع:

1- أحمد أمين: زعماء الإصلاح. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1671، ط 3.

2-عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة 1985، ج 6.

3-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت 1970، ط 3.

4- Ismayl Urbain. L’Algérie pour les Algériens.Séguier , Paris 2000 ,2ed.

5- Madjdoub Ben Kalafat de L'Instruction des indigènes, Constantine,s.d.

العربية في نصوص الثورة الجزائرية
وتطبيقاتها أثناء الكفاح المسلح

أ. محمد الصالح بوسلامة

1. العربية في نصوص ثورة التحرير

2. مساهمة المنظمات الوطنية: – الكشافة – اتحاد الطلاب – النقابة– الأندية الرياضية لإحياء العربية في إطار جبهة التحرير الوطني.

3. دور المحافظ السياسي – خطاب التوعية– التعبئة في إعادة الاعتبار للغة العربية في إطار جبهة التحرير الوطني.

4. تكوين الطلاب الجزائريين (مدنيين عسكريين) باللغة العربية في البلدان العربية.

5. الإعلام بالعربية أثناء الثورة

6. في الولايات الست التاريخية

7. العربية في الإبداع الفني الأدبي والدراسات التي عرفت بالثورة وتضحيات الشعب الجزائري.

مقدمة

إن الشعب الجزائري مهما تعاقبت عليه الظروف الاحتلالية الاستدمارية الحالكة، ومهما حاول المستدمرون خلالها أن يعيثوا في الأرض فسادا وفي الشعب تفقيرا وتنكيلا وتجهيلا واحتقارا وإذلالا، محاولة منهم أن ينسوه رؤوس نفسه وبين حضارته الحرة الزاهرة وبين لغته العربية التي كانت في أيام العزة والكرامة سيدة الميدان.

إنه ظل مستبسلا ثابتا مستميتا في تشبثه بلغته العربية التي يعرف يقينا من أنها مفتاح باب عزته ومصدر قوته ونبع حضارته وإطار حصانته والعروة الوثقى في ربط وحدته وذلك إذا أراد أن يعيش محترما

سيدا بين أمم هذه المعمورة فلغته العربية الأصيلة هي مبعث فخره وقاعدة إزدهاره وعلامة على تطوره في هذه الحياة وهي أيضا حصن مناعته فمنذ عهد الأمير عبد القادر وقبله في العهد الإسلامي الأول والشعب الجزائري قد اختار نهائيا أن تكون اللغة العربية وحدها فارسة الميدان في كل شأن من شؤون حياته فهذا حماد الصنهاجي مؤسس الدولة الحمادية عندما عقد صفقة تجارية مع جنوة الايطالية قد قيل له بأية لغة يكتب هذا العقد فأجاب: وهل هناك لغة لنا في حياتنا وحضارتنا غير اللغة العربية؟ مع أن حماد هذا كان بربريا أمازيغيا لا يعرف التكلم بالعربية ومع ذلك قد اختار بكل حرية أن يكتب العقد باللغة العربية، وهذا يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية عند عقد الصلح بين ملوك الطوائف في الأندلس قد كتبه باللغة العربية مع أنه وهو ملكهم جميعا ومن حقه أن يكتب الصلح باللغة التي يختارها هو لا هم لأنه لا يجيد مطلقا التكلم باللغة العربية ومع ذلك قد فضل العربية على الأمازيغية التي هي لغته على عكس أشباه بعض الجزائريين اليوم، فلم يستحوا أن يرفضوا العربية لغة وكتابة وهكذا الأمير عبد القادر إبن محي الدين البطل المجاهد العدو اللدود للغزاة الفرنسيين المحتلين قد أعطى للغة العربية الأصيلة بعدا حضاريا وعناية فائقة في أن يجعلها لغة العمل العسكري في تسجيل الآلات والمعدات باللغة العربية ومواصلة الاجتماعات والمداولات واللقاءات بينه وبين قادته ومواطنيه باللغة العربية الوحيدة في الميدان دون غيرها، وكانت عنده لغة الشعر والأدب والفلسفة, والتصوف والتدوين، فقد توسعت على يديه إلى أن صارت همزة وصل بينه وبين سائر الجهات التي يتعامل معها حيث سجل بها كل أعماله ومآثره الديوانية ورسائله الإخوانية مع الخلان والأصدقاء، كان الأمير نفسه يعتبرموسوعة علمية نادرة تمشي على الأرض فبالرغم من الظروف النضالية الصعبة التي عاشها في حياته من مهاجمة الأعداء له وتآمر الخونة أعوان العدو بين الجزائريين عليه، وخيانة الجيران وبعض الأصدقاء فإنه ظل ثابتا صابرا محتسبا أمره لله سبحانه وتعالى، وعند نفيه خارج وطنه لم يحجم عن فعل الخير وتقديم مساهماته لإخوانه العرب من ذلك أنه قد ساهم مساهمة فعالة في إزالة فتيل الفتنة بين الإخوان اللبنانيين في الحرب الأهلية التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين في القرن التاسع عشر،إذ وقف موقفا مشرفا في بذل مساعيه الناجحة وتقديم خدماته لهم عملية وعينية، وبالتالي في التوصل إلى عقد الصلح بين الطرفين، وخلاصة القول فإن الأمير عبد القادر رحمه الله قد ساهم مساهمة مشهودة في تطوير اللغة العربية شعرا ونثرا وفلسفة وتصوفا وتاريخا وحكمة فجزاه الله عنها خيرا.

بعد هذه المقدمة التاريخية الوجيزة عن دور اللغة العربية في حياة الشعب الجزائري عبر الحقب التاريخية أعود إلى الموضوع المطروح للشرح وهو:

1. العربية في نصوص الثورة التحريرية:

فمن المعلوم إن لكل بناء أسسه وقواعده الخلفية القوية التي لا يقام ولا يستقيم إلا بها فعن طريقها وحدها دون غيرها يترسخ في الأرض ليمتد بعد ذلك في علو وشموخ وفي صلابة ومتانة كذلك شأن ثورة التحرير المظفرة فإن شروط قيامها يعتمد على قواعد أساسية مضبوطة فلا يمكن لها أن لا يشتد عودها وتتقوى إلا بها فهي مقوماتها ومقوياتها– ومنها:

1.1 أن ينهض بإشعال فتيلها مجاهدون مخلصون أوفياء أشداء على الكفار رحماء بينهم ولا يخافون في الله لومة لائم ووطنوا أنفسهم على التضحية والفداء وجعلوا من حبهم لوطنهم وعروبتهم وإسلامهم وأرواحهم شغلهم الشاغل في حياتهم ومقدم على حب أنفسهم ومن الطبيعي أن يتمتع هؤلاء بصحة جيدة ويتميزوا بقوة بدنية وجسمية وسلامة عقلية مع استعداد كلي لمنازلة الأعداء ومقارعتهم وانتظارهم للإنقضاض عليهم في أية لحظة من لحظات حياتهم.

2.1 أن يؤمن هؤلاء المجاهدون إيمانا قويا صادقا راسخا بالدفاع عن لغتهم العربية الأصيلة كدفاعهم عن وطنهم وشعبهم لأنها مفتاح العزة والكرامة.

وأنها مرشدهم في انجاز كل المهمات والعمليات التي تجد في كل خطوة ومرحلة من خطوات ومراحل حياتهم، فاللغة العربية بالنسبة إلى ثورة التحرير في الجزائر مطلب لا يقل أهمية ومنزلة عن الكفاح التحريري، فهي التي تنور عقولهم وأفكارهم وتشعرهم بعزة النفس وحيويتها، إذ لايمكن للمجاهدين من أبناء جيش وجبهة التحرير أن ينالوا فوزهم وينتصروا على عدوهم الآثم البغيض في غياب الغيرة والحماس في الدفاع عن لغتهم ولغة وطنهم وإسلامهم حضارة أسلافهم، إذ لا قيمة ولا منزلة سامية عالية لأي جزائري إذا لم يعتن بلغة الوطن ويدافع عنها بكل قوة وبجميع الوسائل، فالشعب القوي المحترم المهاب العزير الكريم ذلك الشعب الذي تعلقت همته بلغة وطنه وبأهدابها حريص باستمرار على توسيعها وترقيتها لأنها سوف تبقى الشاهد عليه في قوته أو ضعفه وتكون المقاس والمعيار الذي لا لبس فيه في تمييز هذا الشعب عن ذاك، وما هيمنة أمريكا على العالم ببعيدة عنا، إذ كيف استطاعت في ظرف قرنين من الزمن أن تسمو بلغتها وتفوز عن طريقها بكل السباقات العلمية والتقنية والفنية وتصبح بالتالي المهمين على العالم برمته، فلولا تعلق شعبها بلغته والتفاني في خدمتها ومحاولة تطويرها وتوسيعها باستمرار لما بلغت هذه المنزلة السامية الرفيعة ولما صارت كل أمم العالم تخاطب ودها وتخشاها وتحرص على التقرب منها لتفوز ببعض فتاتها مثل بعض الدول العربية الحقيرة الذليلة المباحة لغيرها مثل حكم المماليك، وانطلاقا من الشعور بالمسؤولية التاريخية الخطيرة من رجال الثورة التحريرية بالعمل على استعادة مجد اللغة العربية ووضعها في مكانتها التي افتقدتها ومنزلتها المحترمة المرموقة بين شعبها فانطلاقا من كل ذلك بدت ثورة التحرير المظفرة حريصة كل الحرص على اختيار سبيل مرن لتطورها وترقيتها وجعلها

صاحب المقام الأول في ميدان العمل حيث أن كل الوثائق وكل النصوص الثورية تكتب وتسجل وتدون بلسانها، ومن الجدير بالتأكيد والتركيز أن تورتنا التحريرية قد اختارات نظام المؤسسات والتسيير الجماعي، وعن طريق هذا النوع من التنظيم، قد تعددت مجالس التسيير وتنوع أداء المهمات فيها، ولا يمكن لهذه المهمات وهذا النوع من المسؤولية لقيادة الثورة أن تؤتي ثمارها وتحقق غايتها إلا عن طريق اللغة العربية وبذلك تتبين لنا المهمة المتنوعة الثرية التي كانت تقوم اللغة العربية بها في تغطية كل هذه الأنشطة التنظيمية المحكمة الواسعة إذ بواسطتها تسجل المواجهات اليومية بين المجاهدين والفرنسيين ويحصى عدد المواطنين وتقيد المبالغ المالية اليومية من الإعانات والتبرعات وغيرها، والمصاريف التي تنفق على المجاهدين وعائلات الضحايا، وشراء المواد الغذائية الألبسة العسكرية وغيرها بالإضافة إلى التقارير السياسية والإعلامية السرية والعلنية والمراسلات المتداولة المحمولة بين رجال الثورة والشخصيات الجزائرية العامة من تجار وموظفين لدى الحكومة الفرنسية وكل ذلك يكتب باللغة الوطنية والقليل منها فقط يكتب باللغة الفرنسية كما كانت هناك مجالات من الوظائف الهامة التي لا يمكن لأية لغة أخرى غير اللغة العربية القيام بها، أو تحل محلها وأقصد بذلك أعمال اللجان الشرعية القضائية حيث ان ثورة التحرير المظفرة مثل ما ذكرت سابقا قد طبقت نظام المؤسسات الثورية على كل القيادات وفي كل المستويات، من ذلك اللجان الشرعية ووظيفة هذه اللجان تتكرس في الفصل بين قضايا المواطنين في الخلافات اليومية التي تقع بينهم حيث يتولى مسؤولو اللجنة الشرعية بمعية أربعة من الأعضاء دراسة القضية ويتم ذلك باللغة العربية تم مواجهة المتخاصمين بالحكم في القضية بعد دراستها وتدون في سجلات خاصة ترسل نسخة منها إلى الجهة العليا المسؤولة وهناك نوع أخر من القضاء يدخل في اختصاص اللجان الشرعية وهو الحكم على الخونة بالإعدام وبالبراءة حسب دراسة قضيتهم وإستيفاء كل شروطها أو بالنفي إلى جهات أخرى خارج دائرة سكناه وهذه اللجان الشرعية تتسلل في الدرجة والمسؤولية، فهناك لجان على مستوى القسمات، وهناك لجان على مستوى النواحي وهناك لجنة الدائرة التي تشرف على أعمال كل اللجان الشرعية الأخرى ويمكن لهذه الأخيرة أن تتدخل وتبطل الحكم المرفوع إليها من لجان النواحي أو القسمات وهناك لجنة شرعية على مستوى الولاية، وهكذا يتبين لنا أن الثورة لم تكن ثورة قتلة أو قطاع الطرق مثل ما تتصوره الدعاية الاحتلالية ولكنها ثورة تحريرية تقول فصلا وتحكم عدلا.

2. مساهمة المنظمات: الكشافة، اتحاد الطلبة، النقابة الأندية الرياضية لإحياء اللغة العربية في إطار جبهة التحرير.

القول بأن الكشافة الاسلامية التي كان لها في نشاطها الثوري دور في كتابة نصوصها في أعمالها باللغة العربية قول فيه نوع من المبالغة لأنها كانت تسير في أغلب أعمالها باللغة الفرنسية فكل العمداء

والقادة ومسؤولو الفروع والأفواج إن لم يكونوا كلهم فأغلبهم كانوا من حملة اللغة الفرنسية وقد كانوا على ذلك قبل ثورة التحرير المظفرة أيام حركة انتصار الحريات الديمقراطية في العهد السياسي حيث كان روادها من امثال أحمد بن بلة ومحمد بلوزداد وأحمد محساس وبن مهيدي والطاهر تيجيني وغيرهم وما يقال عن عدم استفادة اللغة العربية من خدمات هذه المنظمة يقال عن بعض المنظمات الأخرى ويستثنى من ذلك بعض أعضاء المنظمات عندما سافروا إلى الخارج ووضعوا أنفسهم تحت إشراف جبهة التحرير الوطني فأصبحوا ينشطون ضمن صفوفها مثل إتحاد العمال والكشافة والفرق الرياضية والفنية والفلكورية فقد ساهموا جميعا مساهمة فعالة في بعض الشعوب العربية الاسلامية والشعوب الصديقة في التعريف بالثورة التحريرية وبمكانة اللغة العربية في هذه الدول وبالفعل فعن طريق تلك المنظمات قد تعرفت هذه الشعوب على الفن والفلكلور والرياضة الجزائرية لأول مرة في تاريخ هذه القضية وتعرف الجزائر التي كانت الجزائر الفرنسية لكن التسمية التي ألصقها الاستعمار بشعبنا قد أصبحت بعد جولات هذه الفرق تسمى بالجزائر العربية المسلمة ومع ذلك وحتى اليوم فإن نصيب اللغة العربية من خدمات تلك المنظمات ما تزال شحيحة جدا أما بالنسبة إلى مساهمة الطلبة الجزائريين في خدمة اللغة العربية فينبغي أن نميز بين نوعين من الطلبة فهناك نوع من الطلبة قد اختاروا التعليم باللغة الفرنسية فمن الطبيعي أن لا يكتبوا بغيرها وهذا النوع من الطلبة لم يفد اللغة العربية في شيء ولم ينتظر منهم أن يخدموها أو يغيروا عليها. بل كانوا وما يزالون على عكس ذلك وعلى خلافه فقد كانوا سبب مأساتها وعلة تهميشها وتقزيمها. وهناك نوع من الطلبة من الذين تثقفوا باللغتين إما العربية والفرنسية وإما العربية والانجليزية فهذا النوع من الطلبة قد استفادت منهم اللغة العربية نوعا من الفائدة وتوسعت على أيديهم وارتقت، وهناك من الطلبة من الذين تثقفوا باللغة العربية الصرفة إذ تعلموها في الجامعات العربية مثل جامعة القرويين في المغرب وجامع الزيتونة في تونس والجامعة المصرية والسورية والعراقية وكانوا جميعا تحت إشراف جبهة التحرير الوطني فإنهم بالفعل قد كانوا الباكورة الأولى في خدمة اللغة العربية وفي إرساء أسسها وقواعدها في الثورة وبعد الاستقلال فالبعض منهم التحق بالجبال فأفاد اللغة العربية فائدة معتبرة والبعض الأخر قد ساهم في إنشاء الاتحاد الطلابي في الخارج فكانوا سفراء اللغة العربية تحت إشراف جبهة التحرير الوطني بواسطة النداءات والاجتماعات واللقاءات الدورية بشرح وإعلام الأخرين عن نشاط الثورة التحريرية – كنظام ثوري – وكقوة جبارة تقف الند للند ضد أكبر دولة استعمارية تعد القوة الرابعة في العالم آنذاك ومن هؤلاء أذكرأبو القاسم سعد الله – عبد الله الركيبي – مسعد خليلي – محمد العربي ولد خليفة – عثمان سعدي – عبد القادر نور– وغيرهم فأصبحوا أساتذة في الجامعات الجزائرية ومنهم أيضا عمار طالبي وصالح خرفي – والهاشمي قدوري فكل هؤلاء من حماة وحملة القلم العربي الفصيح الصريح.

3. دور المحافظ السياسي: خطاب توعية وتعبئة في إعادة الاعتبار للغة الوطنية.

إن المحافظ السياسي وهو واحد من بين قادة ثورة التحرير المظفرة قد اسندت له مهمة مزدوجة في القيادة فهو يقوم بتوعية الشعب والمسؤولين عن جبهة التحرير الوطني وبالاجتماعات والندوات مع مسؤولي القاعدة الشعبية من جهة ويقوم بتنشيط وتوعية المجاهدين بدعوتهم إلى رباطة الجأش والصبر في مواجهة العدو والتحلي بالقوة والشجاعة من جهة أخرى كما يقوم المحافظ بمراقبة النشاط وبالتنسيق بين قيادة الجيش وقيادة جبهة التحرير الوطني، في إصدار التعليمات والقرارات الواردة أو الصادرة إلى القيادة العليا، وقد استطاع في ظل هذه المسؤولية الثورية الخطيرة أن يخدم اللغة العربية خدمة جليلة معتبرة ويقويها فهو في كل نشاطاته ولقاءاته يسجل ويدون ويخطب باللغة الوطنية ويناقش غيره من المواطنين والمسؤولين وأفراد المجاهدين باللغة العربية المبسطة، وكان في كل يوم وأسبوع وشهر يرسل ويتلقى كل ما يجدّ من أحداث وأنشطة – سواء حول المعارك والمواجهات التي تقع من حين لأخر بين القوات الفرنسية وجيش التحرير الوطني وما يسفر عنها من قتلى وضحايا في جانب المجاهدين أوالأعداء الفرنسيين، فالمحافظ السياسي هو العين الساهرة على نشاط الثورة لا تنام ولا يسودها السهو أو الغفلة أو التهاون في أداء المهام وهو في المنطقة والناحية أو القسمة – رجل المهمات الصعبة والمسؤوليات الخطيرة.

4. الإعلام باللغة العربية أثناء الثورة التحريرية

أما عن دور الإعلام باللغة العربية أثناء ثورة التحرير المظفرة فهذا النوع من الأسلحة لا يقل منزلة ولا قيمة ولا تأثيراعن السلاح الحربي ، حيث لا يمكن لهذا الأخير أن يعطي للثورة البعد الحقيقي في الانتشار والتوسع والتأثير إذا لم تعني الثورة بالأول وهو الإعلام في الترويج للثورة ونشر دعايتها في الخارج وتقديم الحجج والبراهين لتزييف الدعاية والإعلام المقابل من العدو ولنا أمثلة كثيرة على ذلك حيث أن العدو الاستعماري عندما قامت ثورة التحرير قد ركز على وسائل الإعلام ونشر الدعاية على أن هذه الثورة هي عبارة عن مجموعة من قطاع الطرق جاءوا من المشرق العربي أو من الهند لا صلة لهم بالشعب وهو ما أدى إلى إقناع بعض الجزائريين ممن قد اختاروا أن يحلبوا في إناء العدو وبعض الدول الكبرى أو كل الدول إلا القليل منها، لكن الثورة التحريرية لم تركن وتستسلم لهذه الدعاية وتدع الاستعمار يصول ويجول في الميدان بل قامت بالإعلام المقابل ووزعت رجالها على العالم برمته ليبرهنوا بالحجج القاطعة والوسائل الإعلامية المختلفة من أن الشعب الجزائري هو صاحب الأرض وهو المحتل بالقوة وأن هذه الثورة التحريرية قد قامت من أجل إنصاف الحق وإزهاق الباطل وأن الشعب الذي يحارب العدو هو الشعب الجزائري وحده، ويدافع بوسائله الخاصة بلا مساعدة من أحد ولا معين، وهكذا قد إعتمدت الثورة

الجزائرية بجانب الدفاع بالسلاح الحربي – الدفاع بالسلاح الإعلامي وهذا الأخير هو الذي أجبر سفير فرنسا في الأمم المتحدة على الانسحاب عندما فرضت عليه رغم أنفه القضية الجزائرية لتناقش في الأمم المتحدة وتكريم الجزائر لهذا النوع من السلاح تجلى عندما تشكلت الحكومة المؤقتة قد عينت وزيرين، أحدهما للقوات المسلحة والآخر للإعلام.

5. العربية في الإبداع الفني والأدبي والدراسات التي عرفت بالثورة وتضحيات الشعب الجزائري

فالثورة التحريرية الجزائرية الكبرى لم تكن ثورة سلاح ودفاع ومواجهة ومنازلة العدو الاحتلالي ولكنها بجانب ذلك قد فجرت طاقات واشعلت في النفوس حرارات من الفنانين والرسامين والسنمائيين والشعراء والأدباء فقد استطاع هؤلاء الرجال جميعا أن ينسجوا نسيجا مزخرفا ملونا بألوانه العربية الفصيحة الأصيلة ويعطوا لها عمقا يحفر في النفوس ويهز العواطف وهم يتفاوتون في فنونهم الأدبية والشعرية والتاريخية، فهناك من أعطى للثورة الجزائرية قصائد من النوع الرصين من أمثال الشاعر السوري سليمان العيسى ومفدي زكرياء ومحمد العيد آل الخليفة وصالح خرفي – والشيخ عبد الرحمن بلعقون والشيخ محمد الصالح رمضان وغيرهم وهناك من صورها الصور الأدبية الرائعة الحية مثل الدكتور أبو العيد دودو وأبو القاسم خمار شعرا ونثرا وهم كثيرون جدا ومنهم صديقنا الدكتور محمد العربي ولد خليفة ومنهم المؤرخون من أمثال الشيخ توفيق المدني – أبو القاسم سعد الله ومنهم الأدباء من أمثال عبد الله الركيبي وغيرهم ومنهم السينمائيين وفي مقدمتهم شندرلي، عبد الحليم رايس وعمار العسكري ومنهم الفنانون من أمثال أحمد وهبي – وخليفي أحمد، وسيد علي كويرات وبو العنين، وردة الجزائرية، الهادي رجب، فريد علي وغيرهم وكانت هذه الفنون قد حركت الرأي العام وأدرك عن طريق الكتب الأدبية المكتوبة والمسرحيات والتمثيل أن الشعب الجزائري له طاقات مختلفة من كل ألوان الفنون والعلوم وخلاصة ما يمكن ان نختم به هذا الموضوع هو أن العربية رغم المراحل التي قطعتها في ثورة التحرير فإن أعدائها المتربصين بها مازالوا في مراكز القوى يكيدون لها محاولين باستمرار تهميشها وتقزيمها ولكنهاسوف تنتصر على خصومها مثلما انتصرت ثورة التحرير المظفرة.

مكانة اللغة العربية في التعليم العام والعالي والجامعي

من عام 1962 إلى نهاية عام 1989

أ. تركي رابح عمامرة

أستاذ بجامعة الجزائر

جهود الجزائر في العمل على إحلال اللغة العربية ـ اللغة الوطنية والقومية ـ للجزائر في المنظومة التعليمية الموروثة من عهد الاحتلال . من عام 1962 إلى نهاية عام 1989 . دراسة تتبعية لمراحل تلك الجهود المحمودة والمضنية في نفس الوقت . في التعليمين العام . والعالي والجامعي

إن المشكل اللغوي الذي تعاني منه الجزائر منذ بداية الاستقلال في عام 1962، هو في أساسه وجوهره مشكل استعماري لم تعرفه الجزائر في تاريخها من يوم دخول الإسلام واللغة العربية إليها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، إلا عند مجيء الاستعمار الفرنسي إليها في عام 1830م.

لقد كان التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي يسير كله باللغة العربية من بدايته إلى نهايته.. وكان مزدهرا إلى حد كبير [1] كما يقول المؤرخون الفرنسيون أنفسهم. ولكن بعد الاحتلال بقليل بدأ هذا التعليم يتدهور شيئا فشيئا، نظرا للتخريب المتعمد لمؤسساته، وأوقافه، ومعاهده، ومراكزه، ومكتباته،في جميع مناطق البلاد من طرف إدارة الاحتلال بالإضافة إلى اضطهاد طلبته، وأساتذته، بشتى أنواع

1- أنظر د. تركي رابح . المعركة من أجل التعريب . مجلة المستقبل العربي – عدد 57 – نوفمبر 1983، مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت.

الاضطهاد والتنكيل، وبذلك أزيحت اللغة العربية شيئا فشيئا من جميع معاهد التعليم – ما عدا بعض الزوايا وبعض الجوامع القليلة هنا وهناك – وأصبحت اللغة الفرنسية، هي وحدها لغة التعليم في المدارس، والمعاهد، التي كانت موجودة في الجزائر قبل الاحتلال، أو التي أنشأها الاحتلال فيما بعد، كما أنها هي وحدها لغة العمل في الإدارة، وهي وحدها لغة المحيط الاجتماعي، وهي وحدها لغة الثقافة، ووسائل الإعلام المختلفة، منذ بداية الاحتلال عام 1830 إلى نهايته في عام 1962.

الفرنسة الشاملة:

وقد كانت الفرنسة، الشاملة للجزائريين لغة، وثقافة، وحضارة، وجنسية، هي إحدى الركائز الأساسية لسياسة فرنسا في الجزائر، منذ بداية الاحتلال في عام 1830، إلى نهايته في عام 1962 م، بهدف الوصول إلى سلخ الجزائر من عروبتها، وإسلامها، والقضاء على شخصيتها الوطنية، لكي يسهل إدماجها في كيان الأمة الفرنسية في نهاية المطاف [1] إدماجا كاملا ونهائيا. من هنا طاردت فرنسا **اللغة العربية**، لغة الشعب الجزائري الوطنية، والقومية – مطاردة عنيفة بعد احتلالها للجزائر بوقت قصير، من الإدارة، والتعليم، والمحيط الاجتماعي حيث أنشأت إدارة جديدة على أنقاض الإدارة الوطنية السابقة مفرنسة في كل صغيرة و كبيرة، تعتبر امتدادا طبيعيا للإدارة الفرنسية في فرنسا نفسها، وراء البحر الأبيض المتوسط في القارة الأروبية .كما أنشأت نظاما تعليميا جديدا مفرنسا هو الآخر في كل صغيرة وكبيرة ويعتبر امتدادا طبيعيا للنظام التعليمي الفرنسي في فرنسا نفسها .

أما المحيط الاجتماعي فقد فرنس هو الأخر كذلك بحيث أصبحت المدن الجزائرية وشوارعها، والقرى الحديثة، وشوارعها وكذلك المعالم الثقافية، والحضارية، في الجزائر تحمل في الغالب أسماء أجنبية فرنسية خاصة لعلماء، وأدباء، وشعراء، وقواد عسكرين وشخصيات تاريخية فرنسية، وأزيحت عنها، الأسماء العربية الجزائرية، والإسلامية، بحيث صار الزائر للجزائر في عهد الاحتلال يتصور نفسه وكأنه في بلاد أوروبية وليس في بلاد عربية إسلامية

وقد توجت فرنسا عملها في محاولة (فرنسة) الجزائريين بصدور قرار حكومي فرنسي في عام 1938م، يعتبر اللغة العربية، لغة أجنبية في الجزائر، لا يجوز تعليمها وتعلمها إلا بصفتها لغة أجنبية[2] وبرخصة خاصة من إدارة الاحتلال.

---

1 – أنظر علال الفاسي – الحركات الاستقلالية في المغرب العربي – مطبعة الرسالة، القاهرة 1948 ص 161– 164.

2– أنظر د. تركي رابح – التعليم القومي – و الشخصية الجزائرية – الباب الثاني ص 103 إلى ص 196 الجزائر ط 2 1981 المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع SND.

من هنا كانت مشكلة التعريب في الجزائر بعد الاستقلال تعتبر ميراثا استعماريا ورثته الجزائر فيما ورثت من التركة الاستعمارية مثل: مشكلة الأمية، ومشكلة الإدارة، والمشكلة الاقتصادية، وغيرها من المشاكل الأخرى التي تعمل بكل همة ونشاط منذ بداية الاستقلال" حتى لآن على التخلص منها تدريجيا.

الوضع اللغوي في الجزائر غداة الاستقلال 1962:

وغداة الاستقلال الوطني للجزائر في عام 1962، كان الوضع اللغوي فيها تسوده "الفرنسة" الشاملة في كل مرافق الحياة تقريبا، نظرا للأسباب التي ذكرناها، لذلك بدأت الجزائر عملية التعريب سواء في التعليم أم الإدارة أم الثقافة ووسائلها أم المحيط الاجتماعي، من الصفر تقريبا.

ذلك أن الاستعمار البائد لم يترك للجزائر – بعد رحيله عنها – أي سند أو قاعدة، تبني عليها جانب عملها في تحقيق التعريب، في الإدارة، والتعليم، والثقافة، ووسائل الإعلام وغيرها من المجالات الأخرى.

فالجزائر بخلاف جارتيها **تونس/ والمغرب الأقصى/** الشقيقتين كانت غداة الاستقلال لا تملك أي شيء ترتكز عليه في إقامة صرحها الثقافي والإداري والتربوي ففي تونس مثلا يوجد "**جامع الزيتونة**"، الذي استطاع أن يحافظ على الثقافة الإسلامية واللغة العربية في وجه الغزو الثقافي الفرنسي وفيها أيضا نواة لابأس بها للإدارة الوطنية تعمل باللغة العربية ولو في شكل متواضع، ونفس الشيء كان في المغرب الأقصى حيث يوجد "**جامع القرويين**"، بفاس وهو من مراكز الثقافة العربية الإسلامية المرموقة حافظ بدوره على الثقافة العربية الإسلامية في المغرب الشقيق في وجه سياسة الفرنسة و الغزو الثقافي للشعب المغربي كما كانت لدى المملكة المغربية، نواة للإدارة الوطنية هي الأخرى تسير باللغة العربية وبالتالي استطاع هذان القطران العربيان المجاوران للجزائر بعد استقلالهما، أن يواجها " **مشكلة التعريب** " بالرصيد المتوفر لديهما في المعلمين المعربين و الإطارات المعربة و الثقافة العربية المنتشرة بين جمهرة المتعلمين، و التجربة الإدارية باللغة العربية التي لم تنقطع عندهما طوال فترة الاحتلال الفرنسي لهما.

أما الجزائر، فهي وحدها التي لم يترك لها الاستعمار الفرنسي، معهدا علميا واحدا مثل جامع الزيتونة في تونس أو القرويين في المغرب حيث قضى منذ السنوات الأولى للاحتلال على مراكز الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر قضاءا مبرما سواء كانت مدارس أم جوام أم مكتبات بحيث أصبحت معاهد التربية الإسلامية في كل من **قسنطينة وبجاية وتلمسان، والزيبان و مازونة والجزائر العاصمة** خرابا يبابا. ولم يبق للثقافة العربية الإسلامية من ملجأ سوى بعض الزوايا الصالحة في شمال وجنوب البلاد فقط، وهي ثقافة في عمومها متواضعة للغاية، ومحدودة المجالات وتنحصر في تعليم القرآن الكريم ومبادئ الفقه وشيئا من الأدب والتاريخ، وعلم المواريث فقط.

أما الإدارة الجزائرية المعربة فلم يبق منها شيء يذكر على الإطلاق لذلك **بدأت الجزائر عملها في التعريب الشامل من الصفر بعد الاستقلال نظرا لهذا الوضع اللغوي الشاذ الذي ورثته من عهد الاحتلال.**

من هنا جاءت صعوبة تحقيق عملية التعريب في الجزائر، وكانت معركة الجزائر في تحقيق التعريب واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية وعلى رأسها اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية كانت معركة ضارية بأتم معنى الكلمة فإلى جانب النقص الكبير في الكوادر المعربة، وعدم وجود أساس إداري معرب يمكن الاعتماد عليه في إقامة إدارة وطنية تسير باللغة العربية (اللغة الوطنية والقومية للجزائريين)، فقد مارس المستعمر استلابا فكريا أفلح فيه عن طريق الغزو الثقافي، وهذا أمر ليس مستغربا في الجزائر فهو ظاهرة عامة من ظواهر الاستعمار الأوروبي الثقافي لشعوب بلدان العالم الثالث حيث أصبحنا نسمع ونقرأ مصطلح الدول الناطقة بالفرنسية والدول الناطقة بالإنجليزية أو البرتغالية أو الإسبانية جاريا على ألسنة الناس في المحافل العالمية وعلى المستوى الإقليمي والمستوى الدولي وهي الدول التي أنساها الاستعمار الأوربي لغتها وثقافتها وفرض عليها لغته وثقافته غير أن الإرادة السياسية للقيادة الجزائرية وكذلك تصميم الشعب الجزائري على استعادة كامل مقومات شخصيته الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية استطاعت أن تتغلب على مجمل صعوبات التعريب وأن تتوصل عن طريق الحوار الديمقراطي وعملية الشرح والإقناع لبعض الفئات الجزائرية القليلة المثقفة ثقافة أجنبية خالصة التي تخوفت من عملية التعريب، استطاعت أن تقنعها بأن التعريب ليس عملية خاصة بطائفة معينة من الجزائريين دون غيرهم ولا يتم لفائدة مجموعة معينة على حساب مجموعات أخرى ولكنه قضية وطنية تهم كل الجزائريين يقطع النظر عن الثقافة التي يحملونها، والمسؤوليات الإدارية التي ينهضون بها، وبالتالي فالتعريب عملية وطنية وقومية . في وقت واحد لا تتم السيادة الجزائرية إلا بتحقيقها ويجب أن تتظافر كل الجهود على نجاحها، عن طريق وضع مخطط علمي لتحقيقه على مراحل، حتى يصبح استقلال الجزائر له محتواه الفكري والثقافي والحضاري والقومي إلى جانب محتواه السياسي و العسكري والاقتصادي والدبلوماسي .

لقد كان استقلال الجزائر في الخامس من يوليو (تموز) (جويلية) 1962 م، بمثابة إعلان حاسم لوضع حد لمرحلة مظلمة عاشتها اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في الجزائر طيلة قرن واثنتين وثلاثين سنة والدخول في مرحلة جديدة تعود فيها السيادة والكرامة إلى اللغة الوطنية . والثقافة الوطنية ولذلك **كانت معركة التعريب و لا تزال من أهم المعارك التي تخوضها الجزائر منذ سنوات الاستقلال الأولى**، ولابد أن تنتصر فيها، مهما كانت الصعوبات والمشاكل، وقلة الإمكانات أو العراقيل البروقراطية

وقد سارت عملية التعريب في مرحلة التعليم العام في خطين متكاملين

الخط الأول: هو إدماج اللغة العربية في أول عام دراسي بعد الاستقلال وهو عام 1962- 1963م، في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي لعدد معين من الساعات يتراوح ما بين سبع ساعات في الأسبوع في الابتدائي وما بين أربع إلى خمس ساعات في المرحلة المتوسطة والثانوية حسب الإمكانات من حيث توفر المدرسين والكتب المدرسية الملائمة وقدرة التلاميذ على متابعة دروس اللغة العربية.

وقد كانت عملية إدماج اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية بعد الاستقلال هي أول فرصة تتاح إلى اللغة العربية بأن تدخل فيها إلى كافة مدارس التعليم العام في الجزائر/ لأول مرة منذ قرن واثنتين وثلاثين سنة (1830 – 1962 م)، حيث كانت كما سبق أن ذكرنا، مبعدة عن النظام التربوي الذي أنشأه الاستعمار الفرنسي في الجزائر إبعادا كاملا . ما عدا المرحلة الثانوية التي كانت تدرس فيها كلغة أجنبية لمن يرغب في دراستها كلغة فصحى أو لهجة عامية.... ورغم أهمية هذا المكسب الكبير الذي أحرزته اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية بعد الاستقلال مباشرة إلا أنه يعتبر في الواقع مكسبا رمزيا فقط، لأن الهدف الأساسي هو أن تصبح اللغة العربية أداة تدريس لكافة مواد التعليم في المدرسة الجزائرية/ إلى جانب تلقينها كلغة/ **ولذلك فإن المسؤولين، والوطنيين الغيورين لم يقنعوا بهذا المكسب المتواضع، وإنما تطلعوا إلى تحقيق التعريب الشامل لمواد الدراسة في مرحلة التعليم العام والتعليم التقني في مختلف تخصصاتهما بالإضافة إلى تعريب التعليم العالي والجامعي.**

أما الخط الثاني: الذي سارت فيه عملية تعريب التعليم العام فهو جعل اللغة العربية أداة تدريس لمواد هذه المرحلة.

ويمكن تقسيم خطوات جعل اللغة العربية أداة تدريس في التعليم العام والتقني إلى المراحل التالية:

المرحلة الأولى: لتعريب التعليم العام والتقني (1964- 1970).

وقد تم في هذه المرحلة تعريب **السنة الأولى الابتدائية** تعريبا كاملا وذلك في العام الدراسي (1964 – 1965 م).

وبعد عامين تم تعريب **السنة الثانية الابتدائية** تعريبا جزئيا في العام الدراسي (1967-1968م)، كما عربت **السنة الثالثة الابتدائية** تعريبا جزئيا في العام الدراسي (1968 – 1969 م) وذلك بتدريس المواد الاجتماعية باللغة العربية والحساب والعلوم باللغة الفرنسية.

أما في المرحلة الثانوية فقد أنشئت فيها ثلاث ثانويات ابتداءا من عام 1963م، معربة تعريبا كاملا، اثنتان منهما في العاصمة وهما **ثانوية " عائشة " للبنات وثانوية " ابن خلدون " للبنين.**

أما الثانوية الثالثة وهي **ثانوية " الشيخ عبد الحميد بن باديس"**.. فقد أنشئت في **مدينة قسنطينة** مسقط رأس ابن باديس وهي خاصة بالذكور.

وقد كانت الثانويات الثلاث المذكورة تشتمل على التعليمين: المتوسط والثانوي معا وتخرجت منها أول دفعة من الطلبة الجزائريين من حملة شهادة " البكالوريا " في الرياضيات والعلوم والآداب باللغة العربية في عام 1968.

والثانويات المذكورة هي التي أمدت الأقسام العلمية المعربة في كلية العلوم بجامعة الجزائر بالدفعات الأولى من الطلاب المسجلين لمتابعة دراستهم باللغة العربية لكي يتخرجوا أساتذة في التعليم الثانوي.

ويلاحظ أن أغلبية طلبة الثانويات الثلاثة المذكورة هم من تلامذة المدارس الحرة المعربة التي أنشأتها بعض المنظمات [1] الوطنية في عهد الاحتلال مثل: **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والجمعيات الخيرية في وادي: ميزاب بجنوب البلاد، وحزب "الشعب" الجزائري**

وقد تم في هذه المرحلة كذلك تعريب خمس عشرة مدرسة متوسطة في مختلف جهات الوطن، بالإضافة إلى إنشاء أقسام عديدة معربة في عدد كبير من المتوسطات والثانويات.

وقد شرع في هذه المرحلة في تعريب مواد " **التاريخ، والتربية الوطنية، والتربية الأخلاقية، والفلسفة،** في التعليم المتوسط والثانوي معا.

ومن جهة أخرى أنشئت عدة معاهد لتكوين المعلمين للمرحلة الابتدائية والمتوسطة لإعداد المعلمين باللغة العربية إلى جانب إعداد المعلمين باللغة الفرنسية لتدريس اللغتين وكذلك المواد العلمية والرياضيات في الأقسام المعربة، والأقسام المزدوجة اللغة.

المرحلة الثانية لتعريب التعليم العام والتقني (1971–1974):

ويلاحظ في هذه المرحلة أن **اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم**، التي أنشئت سنة 1969، تحت **وصاية وزارة التربية الوطنية** كانت قد أعدت خطة علمية لإصلاح التعليم الموروث من العهد الاستعماري وتعريبه... حاولت فيها فيما يخص تعريب التعليم الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التالية التي كانت مطروحة

1– أنظر د. تركي رابح عمامره في كتابه " التعليم القومي والشخصية الجزائرية الطبعة الثانية نشر وتوزيع "المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر عام 1981 ففيه دراسة شاملة للتعليم العربي الحر في الجزائر من عام 1931 إلى عام 1956.

للمناقشة خلال الستينات من القرن العشرين الماضي وعلى ضوء الإجابة عنها وضعت خطة تعريب التعليم في مختلف مراحله.

***السؤال الأول:** ما النتائج السياسية والاجتماعية والتربوية التي كان سيؤدي إليها المجهود الضخم الذي بذلته الجزائر بعد الاستقلال لتعميم التعليم لو تم هذا عن طريق المدرسة الجزائرية كما ورثناها عن ألنظام الاستعماري ؟.

والجواب: هو أنه لا شك أن تعميم التعليم عن هذا الطريق سيكون عملية فرنسة واسعة النطاق ما دامت هذه المدرسة قد صممت باعتراف السلطات الفرنسية نفسها لتكون أداة لفرنسة الشعب الجزائري.

* **السؤال الثاني:** هل تكفي الإصلاحات الجزئية التي أدخلت على المدرسة الجزائرية منذ عام 1962م، وخاصة في الميدان اللغوي لإخراج هذه المدرسة عن طبيعتها الأولى، وجعلها متمشية مع منطق الاستقلال، ومنسجمة مع اختيارات الشعب الجزائري ؟

والجواب: هو أنه لاشك أن الإجراءات المتخذة قد خففت من الصبغة الظاهرة للمدرسة الموروثة عن المعهد الاستعماري و لكنها لم تغير طبيعتها، بل إننا نعتقد أنها مازالت، وخاصة في الميدان اللغوي أداة لنوع من الفرنسة غير مثير لأنه يتم تحت ستار "الضرورة المرحلية" ولعله – لهذا السبب – يكون أخطر في المدى البعيد.

* **السؤال الثالث:** هل يمكن أن نتصور نظاما جديدا للتربية والتعليم بدون تحديد سياسة واضحة وجريئة في ميدان التعريب وبعبارة أخرى هل يمكن أن نضع في مرتبتين مختلفتين الإجراءات الرامية لزيادة فعالية المدرسة الجزائرية ورفع انتاجيتها والإجراءات الرامية إلى تعريبها ؟.

وهل يمكن قبول الأفكار التي تدعو للإسراع بإصلاح نظام التعليم وتدعو في نفس الوقت للتمهل في تطبيق سياسة التعريب ؟

والجواب: هو أننا نعتقد أن إصلاح نظام التعليم بدون تعريبه معناه المحافظة على عامل هام من عوامل الفرنسة كما أن تعريب نظام التعليم الموروث (عن العهد الاستعماري)، لا يغير شيئا من طبيعة هذا النظام العاجز عن مسايرة ركب الثورة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها البلاد.

و أخيرا، فإن أهمية قضية التعريب ترجع من الناحية السياسيةإلى أنها تعتبر من المعارك المتأخرة لحركة التحرير الوطني وأنها من الناحية العلمية تقتضي تغييرا كاملا للعلاقة بين اللغة الوطنية (اللغة العربية) واللغة الفرنسية من جهة، وبين اللغات الأجنبية فيما بينها من جهة أخرى.

ومن الخير أن يتم هذا التحويل على أساس نظري واضح، ووفق خطة علمية مدروسة، لا تترك مجالا للتردد ولا للارتجال، وتخرج هذه القضية الوطنية الهامة من ميدان الجدال اللفظي إلى ميدان العمل المتبصر.

وقد أقرت اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم خطة عملية لتعريب التعليم العام أطلق عليها اسم "**التعريب النقطي** "، تنفذ مع خطة إصلاح التعليم التي تمتد لمدة اثنتي عشرة سنة ابتداءاً من عام 1970م، حتى عام 1982 م، وذلك انطلاقا من التوجيهات السياسية التي حددت للمنظومة التربوية وهي:

1 – **التعريب.**

2 – **الديمقراطية.**

3 – **الاختيار العلمي و التكنولوجي.**

4 – **الجزأرة.**

وقد تم في المرحلة الثانية (1971 – 1974م) التي لا زلنا بصدد الحديث عنها " التعريب في نطاق الخطة المسماة بالتعريب النقطي " الإنجازات التالية:

(1) تعريب السنتين الابتدائيتين: الثالثة والرابعة وذلك بجعل كل المواد تدرس باللغة العربية، وتدرس اللغة الفرنسية كلغة فقط.

(2) تعريب ثلث الأقسام المفتوحة في مستوى السنة الأولى المتوسطة، في جميع مؤسسات التعليم العام المتوسطة وذلك بتدريس كل مواد البرنامج باللغة العربية وحدها، بالإضافة إلى تدريس اللغة الفرنسية كلغة أجنبية.

(3) تعريب ثلث الأقسام العلمية في مستوى السنة الأولى الثانوية تعريبا كاملا، أي بتدريس جميع مواد البرنامج ومن بينها المواد العلمية من فيزياء وكيمياء ورياضيات وعلوم طبيعية باللغة العربية وحدها، وتدرس اللغات الأخرى بصفتها لغات أجنبية (اللغة الفرنسية زائد اللغة الثانية التي كان التلميذ قد اختارها في المرحلة المتوسطة).

(4) تعريب ثلث المواد التي تدرس في السنة الخامسة الابتدائية، والسادسة الابتدائية، وذلك لكي تتصل حلقات السلسلة بعضها ببعض، فيمتد الثلث المعرب من السنة الخامسة والسادسة الابتدائيين حتى البكالوريا.

(5) تم تعريب كل الشعب الأدبية المفتوحة في السنة الأولى الثانوية، وتقرر كذلك تعريب مادة الفلسفة في كل الشعب الأدبية من السنة النهائية للتعليم الثانوي.

(6) أما في التعليم التقني فإن كل مواد التعليم العام في البرنامج معربة مثل: الأدب والتاريخ. والتربية الخلقية والتربية الدينية أما المواد المتخصصة فإنها تدرس باللغة الفرنسية.

المرحلة الثالثة للتعريب

في التعليم العام (1975 –1980)

وقد تم في هذه المرحلة عدد هام من الإنجازات في ميدان تعريب التعليم العام، يمكن إيجازها في الإنجازات التالية:

(1) انعقاد[1] " الندوة الوطنية الأولى للتعريب" تحت رئاسة الرئيس الراحل **هواري بومدين** (14– 17 مايو (أيار) عام 1975 لتحقيق التعريب الشامل في التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي

وقد قال رئيس الجمهورية في خطاب افتتاح الندوة مايلي: "... ويجب أن يكون واضحا بادئ ذي بدء، أننا لا نجتمع اليوم لمناقشة مبدإ التعريب فذلك أمر مفروغ منه، ولا نقاش مطلقا حول المبدإ، وببساطة، لأن الفرنسي يتكلم الفرنسية، والصيني يتكلم بلغته الوطنية، والروسي يتكلم بلغته الوطنية، وحتى الصهيوني الذي يحتل جزءاً من أراضينا العربية تمكن من أن يعيد إلى الحياة لغة ميتة أكل عليها الدهر وشرب، من الطبيعي إذن أن نستعمل نحن اللغة العربية، ومن غير الطبيعي جدا ألا نستعمل لغتنا الوطنية.

وإذا كان هناك من كانوا بالأمس ضحية أوضاع تاريخية شاذة فلا عذر اليوم لأي أحد لأن القضية أصبحت قضية كرامة و اللغة العربية هي جزء لا يتجزأ من الشخصية الوطنية . التي لن تكتمل إلا باسترجاع إحدى مقوماتها الرئيسية وهي اللغة العربية.

ثم قال: "إن هناك نقطة أخرى يجب أن تكون واضحة، وهي أنه لا مجال للمقارنة أو المفاضلة بين اللغة العربية وأية لغة أخرى فرنسية كانت أو إنجليزية لأن الفرنسية كانت وستبقى مثلما بقيت في ظل الاستعمار لغة أجنبية لا لغة الجماهير الشعبية وإن ما لم يتمكن المستعمر من تحقيقه بالأمس [2] بالسلاح لن يتحقق بأي حال من الأحوال على أيدي أبناء الشهداء.

(2) صدور مراسيم تنظيم المنظومة التربوية الجديدة التي تتضمن إصلاحا جذريا وتعريب لغة التعليم، و قد جاء في المادة الثامنة من مرسوم "**تنظيم التربية و التكوين**" ما يلي: "يكون التعليم باللغة

1– أنظر ملف السياسة الثقافية (اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني من ص 9 إلى ص 11، ثم من ص 32 إلى ص 35 الجزائر عام 1982.

2– التعريب في الجزائر . (المؤتمر الثاني للتعريب) الجزائر 1974 . وزارة التعليم الابتدائي . والثانوي– ص 9– 11.

العربية في جميع مستويات التربية والتكوين، وفي جميع المواد... وتوضح كيفية تطبيق هذه المادة بموجب مرسوم، كما حددت المادة السابعة عشرة النظام التربوي كما يلي: (التعليم التحضيري التعليم الأساسي التعليم الثانوي التعليم العالي).

(3) تعريب معاهد تكوين المعلمين [1] للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة وهي المعروفة **بالمعاهد التكنولوجية** تعريبا كاملا، وذلك بعد أن تعربت لغة التعليم في مراحل التعليم العام، ما عدا في بعض الثانويات الانتقالية.

(4) تكوين ثلاث مدارس عليا تابعة للجامعات لتكوين أساتذة للتعليم الثانوي العام والثانوي التقني في كل من العاصمة ووهران، وقسنطينة.

المرحلة الأخيرة لتعريب التعليم العام 1980

وهي مرحلة بداية تطبيق المدرسة الأساسية [2] المتعددة التقنيات ذات التسع سنوات أو **المدرسة للجميع**، التي شرع في تنفيذها على المستوى الوطني في العام الدراسي (1980 – 1981 م)، وهي معربة تعريبا كاملا بكل سنواتها التسع، وتهدف إلى توحيد التعليم وتعميمه، واستعادة الهوية الوطنية، ولغة التدريس الواحدة التي تمارسها المدرسة الأساسية المتعددة التقنيات هي اللغة العربية. وقد تم تعميمها في كامل [3] جهات القطر في عام 1989م.

التعريب في التعليم العالي والجامعي:

أما في ميدان التعليم العالي والجامعي فقد سار التعريب فيه هو الآخر على محورين أساسيين:

❖ **المحور الأول:** هو إدماج اللغة العربية كلغة تلقينية أساسية في جميع دوائر كلية الآداب والعلوم الإنسانية وكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والمدارس العليا المختلفة وذلك ابتداءاً من العام الجامعي (1962 – 1963 م) وقد كانت هي الجامعة الوحيدة في الجزائر في بداية الاستقلال (1962م) [4].

1- أنظر كتاب الدكتور تركي رابح عمامره " أصول التربية و التعليم..... المؤسسة الوطنية للكتاب . وديوان المطبوعات الجامعية . نشر مشترك الطبعة الثانية . طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية . الجزائر عام 1990 . الفصل الرابع " المدرسة الجزائرية تواجه المستقبل " من ص 119 إلى ص 138.

2- أنظر الفصل الثالث من كتابنا أصول التربية و التعليم . المرجع السابق بعنوان " نشأة المدرسة الأساسية في الجزائر عام 1976 " من ص 99 إلى ص 118.

3- أنظر الفصل الثالث المذكور من ص 99 إلى ص 118.

4 – يوجد في الجزائر اليوم 2004 / 27 جامعة و عدد كبير من المراكز الجامعية موزعة على مختلف ولايات الجزائر (48) ولاية أنشأتها الجزائر خلال سنوات الاستقلال (1962 –2004) م.

❖ **<u>المحور الثاني</u>**: جعل اللغة العربية أداة تدريس وتحصيل إلى جانب اللغة الفرنسية في الدوائر الجامعية التالية، وذلك ابتداءاً من عام 1971 م، وهي:

(أ) <u>دوائر العلوم الاجتماعية</u>/ في جميع الجامعات الجزائرية (ست جامعات و 17 مركزا جامعيا خلال عام 1971) وهي تشمل العلوم التالية:

1- التاريخ.
2- الفلسفة.
3- علم الاجتماع.
4- علم النفس.
5- علوم التربية.

<u>(ب) دوائر العلوم الإنسانية:</u>

وهي تشمل العلوم التالية:

1- العلوم السياسية.
2- علوم الإعلام و الصحافة.
3- العلوم الاقتصادية.
4- علوم اللغة و الأدب العربي.

(ج) دوائر العلوم التجارية: بمختلف تخصصاتها.

(د) دوائر العلوم القانونية: بمختلف تخصصاتها.

بحيث كان هناك في كل دائرة من الدوائر المذكورة في كل الجامعات والمدارس العليا، ما عدا دائرة اللغة والأدب العربي، قسمان علميان.

- قسم أول معرب يتابع فيه الطلبة دراستهم باللغة العربية وحدها في جميع المواد ويدرسون إلى جانب ذلك لغة أجنبية.
- وقسم ثان مفرنس يتابع فيه الطلبة دراستهم باللغة الفرنسية ويدرسون إلى جانبها بعض الوحدات باللغة العربية بقصد تقويتهم في اللغة العربية.

وقد استمر هذا الوضع حتى العام الدراسي 1970 – 1971، حيث تقرر تعريب جميع العلوم الاجتماعية والإنسانية تعريبا شاملا سنة بعد أخرى كما سنوضح ذلك فيما بعد.

اللغة العربية في الجامعات:

في عام 1970 م، نشأت في الجزائر لأول مرة **وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/** وقد وضعت خطة شاملة لإصلاح التعليم العالي، شرع في تنفيذها ابتداءاً من العام الدراسي (1971 – 1972 م) وترتب عليها تغيير شامل لبرامج الدراسة على أساس أن أهداف التكوين المتكامل للطالب الجامعي يتضمن إيصال المعلومات العلمية إليه كاملة ومترابطة ضمن ميدان محدود من أجل تعميق المعرفة والإطلاع في ذلك الميدان.

وقد وضعت المناهج العلمية الجديدة طبقا للإصلاح المذكور على أساس ربط التعليم النظري بالتطبيق العملي من خلال الأعمال التطبيقية والتوجيهية، والحلقات الدراسية من جهة، ومن جهة أخرى فقد تقرر طبقا لإصلاح التعليم الجامعي الجديد تكييف التعليم الجامعي في مختلف فروعه للاحتياجات الوطنية في التنمية الاقتصادية/ والاجتماعية/ وبذلك تقرر إحداث التغييرات التالية على هيكل التعليم الجامعي وهي:

1- إلغاء السنة الإعدادية في جميع الجامعات والمدارس العليا.
2- زيادة سنوات الدراسة في بعض التخصصات العلمية.
3- إلغاء نظام التعليم السنوي وتعويضه بنظام تعليم نصف سنوي أطلق عليه اسم "السداسيات".
4- إلغاء الامتحانات السنوية وتعويضها بامتحانات نصف سنوية.
5- تحويل جميع المناهج الدراسية في الجامعات والمدارس العليا إلى نظام الوحدات..

ومن أجل تحقيق هذا الإصلاح الشامل للتعليم الجامعي وحتى يكون ذا فاعلية ونجاعة تقرر إلغاء الكليات تدريجيا و تعويضها بمعاهد علمية متخصصة.

وهكذا تحولت كلية الطب والصيدلة إلى جملة من المعاهد ابتداءاً من العام الدراسي 1971- 1972 م، ثم تحولت كلية العلوم والفيزياء وكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية إلى معاهد هي الأخرى، كما تحولت كليات الآداب والعلوم الإنسانية ابتداءاً من عام 1976م، إلى معاهد هي كما يلي:

1- معاهد العلوم الاجتماعية.
2- معاهد اللغة و الثقافة العربية.

3- معاهد اللغات الأجنبية.

و قد كان الهدف من تحويل الكليات إلى معاهد تحقيق الأمور التالية:

أ – تخصيص كل معهد في ميدان علمي أو تقني محدود.

ب – الاستقلال الإداري والمالي للمعاهد.

ج- مساهمة الأساتذة بفعالية أكثر في تسيير المعاهد.

د- إعطاء ديناميكية أكاديمية للمعاهد لكي تحقق نشاطاتها[1] في مجالات التدريس والبحث العلمي بحرية وكفاءة أفضل.

لقد استمرت عملية ازدواجية الأقسام اللغوية (قسم معرب وقسم مفرنس) في جميع معاهد العلوم الاجتماعية والإنسانية من عام 1971 م، حتى عام 1979 م، حيث تقرر تعريب تلك المعاهد – تعريبا شاملا – سنة بعد سنة طبقا لقرارات اللجنة المركزية في دورتها الثانية بتاريخ 26-30 ديسمبر (كانون الأول) 1979م، في توحيد لغة التعليم بالنسبة للعلوم الاجتماعية والإنسانية وخاصة الحقوق والعلوم السياسية والإعلامية والاقتصادية والتجارية وعلوم الاجتماع والنفس والتربية والجغرافيا وقصر تدريسها على اللغة الوطنية[2] وحدها.

وابتداءاً من العام الدراسي 1980 -1981، بدأت عملية تعريب كافة دوائر معاهد العلوم الاجتماعية غير المعربة، ودوائر العلوم الإنسانية سنة بعد أخرى وأصبحت اللغة العربية هي وحدها لغة التدريس والتحصيل العلمي، وقد انتهي تعريب كافة تلك المعاهد بنهاية العام الدراسي 1983 – 1984 م، بحيث تخرجت أول دفعة من مختلف الجامعات الجزائرية بشهادة الليسانس الواحدة والموحدة اللغة باللغة العربية ابتداءاً من السنة الأولى إلى السنة الرابعة من الليسانس في شهر حزيران (يونيو) (جوان) 1985م.

في المدارس العليا:

توجد بالجزائر في تلك الفترة أربع مدارس عليا لتكوين أساتذة للتعليم الثانوي في مواد العلوم (الفيزياء والكيمياء والطبيعيات والرياضيات) وهي موجودة في كل من: الجزائر العاصمة وهران قسنطينة أم البواقي. والمدارس المذكورة وفروعها معربة تعريبا شاملا وبالتالي فاللغة العربية فيها هي وحدها أداة التدريس والتحصيل.

1- راجع المؤتمر الصحافي للوزير محمد الصديق بن يحي . في كتاب " إصلاح التعليم العالي " إصدار وزارة التعليم العالي و البحث العلمي، الجزائر، بدون تاريخ من ص 15 إلى 51.

2- راجع القرار رقم 43 الصادر عن اللجنة المركزية في دورتها الثانية (26-30) ديسمبر 1979 في وثائق الحزب.

وتتكفل المدرسة العليا للإدارة بتكوين إطارات عليا للإدارة الجزائرية، وهي تابعة لوزارة الداخلية (إدارة الوظيف العمومي والإصلاح الإداري).

وقد تقرر تعريبها هي الأخرى طبقا لقرارات اللجنة المركزية في توحيد لغة التكوين، ولذلك فإن اللغة العربية فيها هي لغة تدريس وتحصيل لعدد هام من المواد العلمية التي تدرس بها، ريثما يتم تعريبها في المستقبل بإذن الله.

في المعاهد العلمية:

أما في معاهد العلوم الدقيقة وهي: الفيزياء الكيمياء والهندسة المعمارية بالحراش، فتوجد بها 3 (ثلاث) وحدات تدرس باللغة الوطنية، وكذلك الرسم الصناعي.

وأما في معاهد التكنولوجيا العليا ومعاهد علوم البيولوجيا والطب والصيدلة والفلاحة والصناعة و البترول إلخ... فقد تقرر في البداية تدريس المصطلحات العلمية للطلبة باللغة العربية، كما تقرر تدريس اللغة العربية لهم كوحدات لغوية، حتى يتمكنوا في المستقبل من استعمال اللغة العربية كأداة عمل في مهمتهم أو وظائفهم في أجهزة الدولة، وهذا كله ريثما يتم تعريب تلك المعاهد عندما تتوفر الإطارات القادرة على التدريس فيها باللغة العربية كما جاء في قرارات اللجنة المركزية في دورتها الثانية بتاريخ (26–30) ديسمبر (كانون الأول) 1979م، قرار رقم (45).

استراتيجية تعريب التعليم العالي:

ويستحسن ونحن نتحدث عن مكانة اللغة العربية في التعليم العالي والجامعي كلغة تدريس وتحصيل أن نوضح استراتيجية الجزائر في تعريب التعليم العالي والجامعي التي تقوم على الأسس التالية:

أ – يشكل توحيد التكوين باللغة الوطنية (اللغة العربية) هدفا أساسيا في مختلف مراحل نظام التربية والتكوين (المدرسة الأساسية – التعليم الثانوي – التكوين المهني – التعليم العالي) كما جاء في مقررات المؤتمر الرابع[1] لحزب جبهة التحرير الوطني سنة 1979م.

ب – القيام بتنفيذ برنامج تعريب لغة الأساتذة الجزائريين الذين يدرسون باللغة الفرنسية ولا يعرفون اللغة العربية حتى يتحولوا إلى التدريس باللغة العربية.

ج – تشجيع تعليم اللغات الأجنبية عند الأساتذة الجزائريين المعربين.

1- أنظر قرارات اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني في دورتها الثانية في لائحة التربية والتكوين في كتاب النصوص الأساسية لحزب جبهة التحرير الوطني من ص 84 إلى ص 102 الجزائر عام 1982.

د- تطوير سياسة وطنية للكتاب الجامعي باللغة العربية.

هـ - ترقية الدراسات العليا بالجزائر ثم تكميلها إن اقتضى الأمر في الخارج مع خضوعها للمراقبة.

و - إعطاء فعالية للدروس باللغة العربية التي تعطى بالمعاهد العلمية والتقنية لكي تشمل كافة مصطلحات المواد التي يدرسها الطالب باللغة الأجنبية، في كل سداسي بحيث لا يتخرج الطالب سواء كان مهندسا أم طبيبا أم غيره إلا ويكون قادرا على التعبير بكفاءة باللغة العربية في نطاق اختصاصه ومهنته هذه باختصار وتركيز شديدين هي وضعية اللغة العربية كلغة تدريس وأداة تحصيل في الجامعات والمدارس العليا في الجزائر في السبعينات وبداية الثمانينات من القرن العشرين الماضي

أهمية التدريس باللغة العربية:

ومما لا جدال فيه أن التدريس باللغة العربية في التعليم العالي والجامعي في جميع الكليات وفي سائر المواد العلمية هو أمنية كل عربي وكل وطني حريص على وحدة التكوين ووحدة التوجيه للأجيال الجامعية لأن التدريس باللغة العربية سوف يخلصنا من الازدواج اللغوي، وبالتالي ازدواجية التكوين، مما يكون خطورة على الوحدة الوطنية للشباب الجامعي، كما أنه سوف يقضي على الاختلاف القائم في لغة التكوين في التخصصات العلمية الدقيقة وفي التخصصات الطبية والتكنولوجيا حيث يسير التكوين في معظم الأقطار العربية ومنها الجزائر في العلوم الإنسانية والاجتماعية باللغة العربية وفي بقية العلوم الأخرى باللغة الأجنبية وهي إما فرنسية أو إنجليزية وإما ألمانية في بعض الدول العربية (مصر) وبذلك تختلف لغة التكوين العلمي بين الأقطار العربية، فالعرب لهم لغة واحدة في العلوم الاجتماعية والإنسانية . ولهم لغات متعددة في العلوم الأخرى/ مما يجعل عملية التفاهم صعبة للغاية في المؤتمرات العلمية والدولية بين العلماء العرب.

ولعل أهمية التدريس باللغة العربية [1] في التعليم الجامعي والعالي تبدو في أنه يضمن لنا الأمور التالية:

1. السهولة في التعليم.
2. السرعة في الفهم و الاستيعاب.
3. الدقة في نقل المعلومات.

ذلك أن ممارسة التدريس الجامعي والبحث العلمي والتأليف باللغة العربية هو السبيل الوحيد الذي يمكن العرب بما فيهم الجزائر من تنفيذ سياسة تعريب التعليم العالي، فمن خلال الممارسة والتجربة العلمية

1- أنظر فخري محمد صالح الدباغ – تعريب التعليم الجامعي بين العلم و الواجبات، كتاب مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي، بغداد 1971 ص 198.

المعاشة يوميا يستطيع أعضاء هيئة التدريس إيجاد المصطلحات العلمية والوصول إلى الصيغ العلمية. **فالعلة ليست في اللغة العربية [1] ولكن فيمن لا يجيد استخدام اللغة العربية وأساليبها في عرض الموضوع.**

وقد جاء في قرارات اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني في دورتها الثانية – ديسمبر (كانون الأول) 1979 م، في القرار رقم (44) بخصوص العمل على الوصول إلى مرحلة التدريس باللغة العربية في كافة الجامعات الجزائرية ما يلي:

" مواصلة تعريب وتوسيع الأقسام المعربة في الكليات [2]العلمية، وتوفير الإمكانات الضرورية لها من الكتب، والمخابر، ووسائل العمل المختلفة، وفتح باب الدراسات العليا في الجزائر، وإيفاد بعثات متنوعة لجامعات العالم لإعدادهم مستقبلا لتدريس هذه المواد (العلمية) باللغة الوطنية (اللغة العربية).

كما جاء في القرار رقم (45) ما يلي حرفيا:

" إعطاء فعالية لدروس اللغة العربية وتعميمها [2] إلى كل الأقسام العلمية والطبية . والصيدلية وغيرها و تحويلها من تدريسها كلغة... إلى تدريس العلوم بها في شكل وحدات ومقررات داخل المنهاج الدراسي في كل السداسيات، واختيار مدرسيها ومراجعة طرائق تدريسها وكيفيات الامتحان بها، واعتبارها مادة أساسية وإجبارية في المراقبة والاختبار، ويسري مفعول هذا القرار على كل المعاهد العليا لمختلف الوزارات والشركات.

وجاء في القرار رقم (23) ما يلي:

" الإعداد الجدي لوضع خطة شاملة لإعطاء اللغة الوطنية مكانتها كلغة تدريس وعمل في جميع الفروع والتخصصات وذلك بتعريب البرامج والمكونين، وتوظيف الإطارات المؤهلة باللغة الوطنية (العربية) والعمل على الاستفادة من الهيئات الدولية والجهوية في هذا الميدان ".

ويلاحظ أن العلوم الحديثة لم تعد منحصرة في لغة واحدة أو لغتين أو حتى ثلاث لغات بل لها لغات عديدة، ما بين إنجليزية وروسية ويابانية وألمانية وفرنسية...إلخ، كما يلاحظ بأن لغة التعليم الجامعي في العالم العربي في العلوم والرياضيات لم تعد تقتصر على لغة واحدة بل اتخذت بعض الأقطار العربية

1- أنظر د سلطان الشاوي، تعريب التعليم العالي . " مشكلات و مقترحات " على الآلة الكاتبة.

1-2 – أنظر كتاب " النصوص الأساسية لحزب جبهة التحرير الوطني (1979– 1980) جـ/4 منشورات قسم الإعلام و الثقافة بالحزب 1982 ص 98.

اللغة الإنجليزية لغة لها على حين اتخذ بعضها اللغة الفرنسية، وفي السنوات الأخيرة قررت اللغة الألمانية في بعض معاهد التكنولوجيا.

وقد أدى هذا إلى نتائج خطيرة كما يقول بعض الباحثين منها أن الأقطار العربية لم تستطع أن تتابع البحث العلمي العربي، لأنه يصدر في إحداها بلغة لا تحسنها الأخرى، وبذلك فقدت البلاد العربية أحد جوانب الوحدة الثقافية المبتغاة والتيسيرات العلمية والمالية التي يحتمها التعاون العلمي بينها.

من هنا رأينا **اليونسكو** توصي بجعل اللغة القومية لكل أمة لغة التعليم في مراحله كلها... ودعا الاتحاد السوفياتي السابق إلى أن يرضى أن تكون اللغات المحلية لغة التعليم العالي عند كل قومية من

القوميات التي يضمها، على الرغم من التعارض بين هذا الصنيع وبعض ما يدعو[18] إليه من مبادئ.

صعوبات و مشاكل

وبالرغم من القرارات التي صدرت عن الحزب والدولة لصالح التدريس باللغة العربية في التعليم العالي، وبالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت ولا تزال تبذل في هذا الميدان، إلا أن هناك صعوبات موضوعية لم تستطع الجامعات الجزائرية التغلب عليها حتى الآن 1962– 1989 وهي تتمثل في الصعوبات التالية:

أ – قلة الإطارات الجامعية من الأساتذة الجزائريين القادرين على التدريس بكفاءة باللغة العربية.

ب – مشاكل تحويل الأساتذة الجزائريين من ذوي اللغة الفرنسية إلى التدريس باللغة العربية.

ج – مشاكل انعدام الكتاب الجامعي اللائق باللغة العربية في الجزائر في بعض التخصصات، وتحاول الجزائر الآن التغلب على الصعوبة الأولى عن طريق التكوين في الجزائر باللغة العربية مع تدعيم هذا التكوين بالبعثات إلى مختلف الجامعات العربية في مرحلة الماجستير/ والدكتوراه/ وفتح الباب أمام الراغبين لاستكمال تكوينهم العالي في أي بلد عربي يشاؤون.

أما التغلب على الصعوبة الثانية فهناك دروس مكثفة باللغة العربية تعطي للأساتذة من ذوي اللغة الفرنسية إلى جانب تربصات وملتقيات داخل الجزائر وخارجها، كما أن هناك اتفاقيات مع بعض البلاد العربية من أجل المساعدة في تعريب هؤلاء الأساتذة حتى يتحولوا إلى التدريس باللغة العربية. وتبقى مشكلة الكتاب الجامعي باللغة

18– أنظر دكتور حسين نصار . اللغة العربية و التعليم الجامعي . في كتاب " مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي " بغداد عام 1979، ص 200– 2001.

العربيـة[19] قائمـة فـي بعض التخصصـات بسبب قلـة التـأليف الـوطني مـن جهـة، وصـعوبة الحصـول علـى الكتـاب الجامعي من بعض الأقطار العربية الأخرى من جهة ثانية.

هذه باختصـار وإيجـاز هـي وضـعية اللغـة العربيـة كلغـة تـدريس وأداة تحصـيل فـي التعلـيم العـالي والجـامعي بـالجزائر، والصـعوبات والمشـاكل التـي تواجهها عمليـة التعريـب فـي التعلـيم العـام .والجـامعي فـي وقـت واحـد، ومحـاولات التغلب عليها، أوردناها بكل موضوعية وتجرد حتـى يعرف القراء لمجلـة اللغة العربيـة جهود الجزائر في مجال التعريب و جعل اللغة العربية لغة التعليم والتدريس بدل اللغة الفرنسية في سائر المراحل التعليمية، وفي مجال البحث العلمي، والتأليف الجامعي... والله الموفق إلى سواء السبيل.

---

19 – لازلنا نتحدث عن مكانة اللغة العربية في التعليم العالي و الجامعي في فترة الستينات و السبعينات والثمانينات من القرن العشرين الماضي . أما الآن فالوضع يختلف عن ذلك. ونأمل تناوله في دراسة قادمة إذا سمحت الظروف بذلك إن شاء الله.

اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية •

أ. مصطفى شريك

محاور البحث:

1/ الواقع التعليمي في الجزائر قبل الاحتلال.

2/ الاستعمار وأثره على واقع ثقافة المجتمع الجزائري.

3/ الاستراتيجية الاستعمارية لمحاربة اللغة العربية.

4/ إجراءات الاستراتيجية لمحاربة اللغة العربية.

5/ انعكاسات الاستراتيجية الاستعمارية اتجاه تعليم اللغة العربية.

6/ مقاومة المجتمع الجزائري للاستراتيجية الاستعمارية اللاتربوية.

7/التعليم العربي(مؤسساته وتأثيره على المجتمع الجزائري).

* المراجع.

• هذه الدراسة للأستاذ مصطفى شريك نال بها الجائزة التشجيعية في مجال علوم اللغة العربية تدخل ضمن جائزة اللغة العربية الموسومة أبو العيد دودو لسنة 2004 والتي تم توزيعها في احتفال تكريمي يوم 25 أكتوبر 2004.

1- الواقع التعليمي في الجزائر قبل الاحتلال:

السمات الحقيقية التي تكشف عن الواقع التربوي بالمجتمع الجزائري قبل الاحتلال (أثناء الحكم العثماني) هي ملامح لصورة مجتمع يتميز بالكثير من الميزات والخصائص المؤكدة على ثراء التجربة العلمية وتطور نشاطها الثقافي رغم الشكل التقليدي الذي كانت عليه الصورة التعليمية (تعليم بعيد كل البعد عن الصور الحديثة للتربية). ذلك أن المجتمع الجزائري كان مجتمعا منغلقا ومنزويا إلى أطر محدودة من التربية والتعليم، ولم يسعى كباقي المجتمعات إلى إدخال الطرق العلمية، والأساليب الحديثة في ميدان التعليم وطرقه ومناهجه ووسائله، ولم يكلف الحكام أنفسهم الاحتكاك بباقي البلدان والاطلاع على مختلف الاكتشافات التي حصلت في شتى أنواع العلوم المعرفية.

إن اقتصار المجتمع الجزائري في ميدان التربية والتعليم على تدريس العلوم الدينية بدل مواكبة ما حصل من حضارة عالمية وتطور في العلوم الدنيوية، قد أكد على حقيقة الاتجاه التقليدي الذي كان سائدا، ومن هذه الصورة العامة يمكن أن نصور الانطباع الذي يعطي الصورة الحقيقية للمشهد التربوي في الجزائر قبل الاحتلال وذلك في النقاط التالية:

- رغم أن الصورة التعليمية كانت تقليدية لكن الوضع التربوي في الجزائر كان يعرف نوعا من النشاط والحركية، وهذا بشهادة المحتلين أنفسهم فالمؤرخ الفرنسي – **بولارد**– كتب في مؤلف له عنوانه "التعليم في الجزائر" مايلي: "كان في الجزائر في القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة، وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة و الفقه و الآداب والطب والنحو والفلك، وكانت المدارس منتشرة في ربوع البلاد، وكان التعليم فيها دينيا ومدنيا".[1]
- اعتماد تدريس العلوم الدينية وكل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية من حفظ للقرآن الكريم، وتفسير بيانه وتلقين الأحاديث الشريفة، وكذا التبحر في علوم الدين من الفقه، والتفسير والنحو والبلاغة

---

[1] مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، السنة الرابعة، العدد 17 – 18، الجزائر : 1974/73، ص 71.

... رغم عدم وجود برامج أو مناهج مسطرة كسياسة عامة تتبع، وهذه الدروس الشرعية مدخلة فيها مقررات أخرى كالحساب والتاريخ والأدب والفلسفة والطب والفلك...

• المؤسسات التعليمية التي كان لها الدور الأكبر في نشر الثقافة العربية والإسلامية والعمل للحفاظ عليها، لم يكن دورها فقط كدور للعبادة بل ساهمت في نشر الدعوة الإسلامية، وتطوير اللغة العربية، فكانت مؤسسات بالفعل ذات إشعاع ثقافي رائد.

وهكذا زاوجت بين وظيفتها الدينية والدنيوية، والبعد العقائدي والتربوي) وكان من هذه المؤسسات ما يعرف بالزوايا والرباطات التي ظهرت إبان العصور الوسطى، وأدت إلى حركات ثقافية قدر لها أن تستمر ردحا من الزمن ... وأصبحت مركزا للآداب والإمامة والإرشاد[1] بالإضافة إلى المعاهد الدينية، والكتاتيب والمساجد...

• عزلة المجتمع الجزائري وانغلاقه على حاله، وعدم تفتحه على حصيلة الخبرة الإنسانية وعدم الاستفادة من الخبرات العلمية كما حصل من ثورة صناعية في أوروبا، هذه العزلة الثقافية كانت سببا في عدم تجديد مناهج التعليم وتطويرها وفق الأطر الحديثة.

• انصراف الدولة العثمانية (الجزائر كانت تحت راية الحكم العثماني) في الجزائر إلى الجانب العسكري، فلم يكن الحكام مهتمين بالشؤون العلمية والثقافية، وهو ما يعني عدم وجود تشجيع مادي أو معنوي للنشاط التعليمي.

• تمويل النشاط التعليمي في ذلك الوقت كان هو الإشكال المطروح على كل الأصعدة بالنسبة للكثير من المؤسسات، لكنه بالمقابل كانت تنشط هيئة خيرية عرفت بمؤسسة الأوقاف التي كان لها دور في جمع الموارد المالية من خلال النفقات الشعبية (الصدقات، الهبات، التبرعات، الأوقاف ...) فساهمت هذه المصادر التمويلية في إنشاء مؤسسات إضافية وتجهيزها وتعميمها على باقي المناطق الآهلة بالسكان من مدن وقرى ومداشر، وكذا العمل على دفع أجور معلمي هذه المؤسسات ومؤطريها.

• السمة الأخرى التي يمكن ذكرها هي مجانية التعليم في بعض المؤسسات، إذ كان التعليم مجانيا في غير بعض الكتاتيب[2] ويعتمد على الذاكرة والحفظ [3] في مدارس منتشرة على كامل ربوع البلاد.

---

[1] مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص 71.

[2] تركي رابح، مجلة الثقافة، السنة 15، العدد 88، الجزائر، ص 107

[3] نفس المرجع السابق، ص 107.

مهما تكن هذه السمات التي ميزت المشهد التربوي في الجزائر قبل الاحتلال فإن الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت تكشف عن حركية فعلية للانكباب على منابع الفكر والمعرفة والنهل من مشارب الثقافة العربية والإسلامية، على رغم من تميز فترة أواخر الحكم العثماني بالجزائر بالجمود وبداية الحملات الغربية بأساليبها التغريبية وهو ما أثر سلبا في محيط الواقع العام للمجتمع الجزائري في جانبه الاجتماعي وشقه الثقافي.

2- الاستعمار و خطره على واقع الثقافة الجزائرية:

لقد أثرت الحملة الاستعمارية على الجزائر من إحداث واقع مر ومحزن، لأنها حملة صليبية مست الكثير من الأوجه الحساسة والمرتبطة بقوام المجتمع وكيانه، فالمخطط الاستعماري الذي لم تعرف معالمه حين ذاك (بداية دخوله) كل مراميه ومقاصده و حتى أبعاد حملته، أصبح فيما بعد صورة سلبية كشفت عن حقيقتها، بعدما رسم خططه وحدد معالمها، واستخدام الطرق الفنية والحيل التقنية، فأثر ذلك على الجوانب السياسية للمجتمع (بإحكام السيطرة عليه وافتكاك سيادته وفرض سياسة البطش و الاضطهاد على أهاليه) والاقتصادية (باحتكار موارده الطبيعية والزراعية والصناعية، ومصادرة أملاكه وتسخير قواه البشرية، خدمة لأغراض استعمارية) والاجتماعية (بحرمان الجزائريين من حقوقهم السيادية، وترسيخ التجزئة وزرع الفتنة لفك أواصر التماسك الاجتماعي و إلغاء قانون الأعراف والأحوال الشخصية للجزائريين) ناهيك عن تطاول أياديه على أحد مقومات الأمة الجزائرية وهي الثقافة العربية والإسلامية والهوية الوطنية وما تمثله كعماد للشخصية القومية الجزائرية.

إن امتداد يد الاستعمار وتغلغله في أضلع مجال حيوي هو بداية موجة تغريبية كان لها الانعكاس الواضح على كم من صعيد، وكأن مأساة حقيقية لا تختلف عن سلاح القوة و ربما أبعد منها واشد خطورة للسياسة الاستعمارية على الساحة الوطنية في جانبها الثقافي لخصها الأستاذ تركي رابح في النقاط التالية:[1]

- الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية.
- مصادرة معظم المؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وتحويلها إلى مؤسسات للتعليم الفرنسي الخالص.
- منع تدريس اللغة العربية وجعل التعليم فقط باللغة الفرنسية بغية القضاء على العربية.

---

[1] تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط 3، الجزائر 1981، ص 103.

- فرنسة الإدارة ومنع التعامل بالعربية في أي إطار رسمي من المؤسسات.
- إصدار قانون يجعل اللغة العربية كلغة أجنبية (قانون 1938).
- إغلاق المؤسسات التربوية التي تدرس اللغة العربية ومنع إنشائها إلا بترخيص من الإدارة بهدف تضييق الخناق على حركات التعليم العربي.
- إضعاف شخصية النخبة الجزائرية المفرنسة وجعلها أداة طيعة في يدها لتهديم الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية.

إن معاول الهدم التي فرضها الكيان الاستعماري في الجزائر لم تتوقف عند هذا الحد بل تم السعي إلى:

– تحويل المساجد إلى كنائس والمدارس إلى ثكنات عسكرية أو إدارات أو حتى سجون.

– جعل الثقافة الجزائرية ثقافة دخيلة وأن الثقافة الفرنسية وحضارتها الغربية هي التي تكتسي طابعا محليا بتشجيعها في الأوساط الشعبية خلال العمل على توسيع دائرة العامية بدل الفصحى وإرساء آليات التثقيف الغربي وتوسيع حيز المسخ والانسلاخ.

هذه العجالة لا تكفينا لاستعراض مسيرة قرن وربع القرن من البطش والظلم والاحتقار في جملة من السطور، لأن الواقع الذي كان يمثل حقبة طويلة، كان من المكن أن تقضي على هذا الوطن وتمحو شخصيته وتسحق لغته وإسلاميته وتجعله في خبر كان.

3 – الاستراتيجية الاستعمارية لمحاربة اللغة العربية:

إذا قلنا الاستراتيجية الاستعمارية فإننا نقصد بذلك المشروع اللاتربوي(*) الذي تبنته الإدارة الاستعمارية في الجزائر كسياسة للقضاء على مكونات الشخصية الوطنية للمجتمع الجزائري بتركيبتها اللغوية والدينية والقومية وحتى الحضارية. فكانت هذه الاستراتيجية تعبيرا عن حداثة الاستعمار في صورة الغزو الفكري والقهر الحضاري بدل صورته القديمة من استيلاب مادي، والحال في الجزائر كباقي المستعمرات كما يذكر أحمد طالب الإبراهيمي التي فيها: " فرنسا لم تكتف بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه ومسخ شخصيته بل عملت كذلك على إفساد الأفئدة والعقول، وقد تجلى عملها التخريبي من إغلاق المساجد والمدارس التي كانت تعلم العربية، وفي هدم الزوايا، لأنها كانت مراكز لتثقيف الشباب، وغرس روح المقاومة في نفوسهم ... وهكذا قضت فرنسا على الثقافة الجزائرية عندما قطعت عن تلك

(*) اللاتربوي و هي عكس تربوي و التي تفيد الزيادة و النمو المشتقة من مفهوم تربية و لاتربوي تعني التدمير و القضاء و المحو. و القول بالمشروع الاستعماري اللاتربوي لانه مشروع سعي إلى محاربة اللغة العربية بدل تطويرها، و تشويه الإسلام كعقيدة بدل احترامه و استئصال الهوية بدل تأصيلها و تجهيل الأمة بدل تثقيفها فأي تربوية بعد هذا.

الثقافة جميع الروافد التي كانت تغذيها و تنميها" [1] وهكذا يكشف المسعى الخسيس لأيدي تغريبية تحاول طمس الثقافة الوطنية وتدميرها، والاستقراء التاريخي يبين كيف اتبع المستعمر سياسته في فك روابط اتصال الفرد الجزائري بجميع المنابع الروحية والروافد التي تمثل المنبت الحي، والجذور الأصيلة له.

من الواضح أن اللعبة الاستعمارية ترمي إلى زرع ثقافة دخيلة، تهدد ثوابت الأمة، واستبدال عادات فكرية أصيلة بأخرى بديلة وتقاليد عريقة بأخرى غريقة، وكان من أولويات هذه الاستراتيجية هدفين اثنين هما:

أ / محاربة اللغة العربية: كرس المستعمر طيلة وجوده بالجزائر التخطيط للقضاء على اللغة العربية و منع انتشارها والتضييق على النشطاء في مجال نشر العلم والثقافة العربية وجعل هذه اللغة لغة أجنبية في عقر دارها، و لأجل ذلك مورست أبشع الطرق، واستعملت أخبث الوسائل في طريق تعليمها بمؤسسات التثقيف المختلفة. و قد تمثلت محاربة الاحتلال للغة العربية في الأمور الآتية:[2]

1– فرنسة التعليم في المرحلة الابتدائية، وجعل اللغة العربية لغة أجنبية واختيارية في بقية المراحل الأخرى.

2– تقسيم اللغة العربية إلى ثلاث لغات يمكن إهمالها جميعا في التعليم:

– عربية عامية يستعملها الشعب وهذه لا قيمة لها، وبالتالي ليست مادة صالحة للتعليم في المدارس.

– عربية فصحى "لغة القرآن" وهذه مثلها مثل اللغتين اليونانية واللاتينية تعتبر لغة ميتة.

– عربية حديثة وهي معروفة بصورة باهتة في الجزائر لأنها نتاج بعض المتعلمين وهي في الحقيقة لغة أجنبية وأداة للقومية العربية ولذلك يجب إبعادها من برامج التعليم.

3– وأخيرا اعتبارها لغة أجنبية كما ينص قرار " شودان".[*]

هذه المغامرات التي سعى من خلالها المستعمر إلى القضاء على العربية كلفته الكثير من المتاعب والمشاق وكانت المناهج التي يسلكها كثيرا ما تعود عليه بالسلب إلا أنه لم ييأس كما " ... ولم يكتف بإثارة الطائفية، وإشعار الجزائريين بأنه من أروحة تختلف عن الأروحة العربية فقط، ولكنه عمق هذا الاتجاه بالدعوة إلى إحلال الكتابة البربرية بديلا للكتابة العربية، وإذاعة الأغاني وإحياء التراث البربري، وإيجاد مترجم لهذه اللغة في المجلس الجزائري، واعتبارها لغة أساسية للجزائريين"[1] والقصد هنا هو إبطال

---

[1] مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية و نظام التعليم الرسمي في الجزائر، د.م.ج الجزائر، 1986، ص 108–109.

[2] تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 131.

مفهوم المؤسسات التثقيفية وزرع الفتنة، وتفكيك البناء الاجتماعي للمجتمع وحل روابطه وتفتيت تماسكه بإثارة النعرات الطائفية والنزعة القبلية.

إن مأساة اللغة العربية كانت شبيهة كمن يصارع سرطان الفكر لان المستعمر كما عبر الإبراهيمي "جاء إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، والاستعمار سم يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح "[2] سياسة اختط لها المستعمر وسخر لها إمكانات دنيئة وخططا شنيعة لكنه فشل في غربنة[*] الأمة لأنه عربها[**] أكثر من حيث لا يدري.

ب/ محاربة الدين الإسلامي: ثاني وجهة للمستعمر بعد اللغة العربية كانت الحملة الشرسة ضد الدين الإسلامي، وفق حملة صليبية معلنة لتشويه العقيدة الإسلامية، والحط من شأن الإسلام ومطاردة رجاله والزج بهم في السجون، أو نفيهم إلى الصحاري أو مناطق نائية، ولذلك انتهجت الإدارة الاستعمارية سياسة خلاصتها مقولة الكاردينال – لافيجيري–: "علينا أن نخلص هذا الشعب، ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر"[1]، عالم تخمد فيه روح المقاومة، وتنطفأ فيه جذوة التحدي وتموت فيه عزائم الجهاد والتحرر، هذه هي أمنية المستعمر، والشواهد التاريخية تؤكد ما كان يدعو له سكرتير –بيجو– سنة 1832 عندما بدا مقتنعا بأن:

"آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذ أصبحوا مسيحيين جميعا"[2] وقد أتاح لفرنسا أن تخدر العقول، وتنشر الخرافات والأباطيل، وتشن حملات تنصيرية من خلال بعثات تبشيرية تدعو للمسيحية، لكن هل تحققت هذه الأمنية؟ أكيد لا! ذلك أن المقاومة الشعبية التي قادها رجال دين مصلحين وحتى رجال من تثقفوا في مؤسسات الاحتلال، أدت إلى مجابهة حقيقية مع الإدارة الاستعمارية

(*) هو قرار وزاري أصدره الوزير –شودان– chaudain– سنة 1938 يقر فيه بجعل اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر و يمنع تدريسها في معاهد التعليم إلا بترخيص من الإدارة الفرنسية.

(1) مجلة الثقافة العدد 87، ص 116.

(2) صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان / جويلية، الجزائر 1974 .

*غربنة : مشتقة من التغريب، أي بنشر الفكر الغربي الاستئصالي لمسخ الأمة .

** عربها : أي بسياسة التغريب التي زرعها المستعمر لم يجني منها سوى تكاتف أبناء المجتمع الجزائري حول رموز الأمة و هويتها، و لم ينجح في مساعيه لنصب فخاخ التنصير و التغريب .

(1) نفس المرجع السابق، ص 29 .

(2) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 109 .

ففشلت كل محاولات الطرقية المنحرفة، وإسلامية رجال الزوايا المزيفين وحملة الشهادات الاستعمارية كما أشار –بيرك– الذي قال: "لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي ترقية إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير "[3] وهناك ما هو أدهى وأمر، لكننا بصدد الحديث عن سياسة ضرب الدين الإسلامي لكنه لا يمكن الحديث عن العدوانية ضد العربية ولا نعرج عن سياسة مناهضة الدين الإسلامي، ولغة الإسلام هي العربية.

4- إجراءات الاستراتيجية لمحاربة اللغة العربية من قبل الاستعمار:

أدرك المستعمر مدى صلة المجتمع الجزائري بلغته وانتمائه ودينه، وشعر بخطورة رجال العلم والدين في الحيلولة دون تحقيق مآربه، والحاجز دون فرنسة أو تغيير المجتمع لأن الوعي الشعبي كان صماما لأية محاولة أو مغامرة من قبل المستعمر. هذا الوعي والحصن المنيع مهدت له الإدارة الاستعمارية الكثير من الإجراءات والخطط والتي مست من ظاهرها وباطنها كل ما تعلق بثقافة المجتمع وهويته من خلال:

1/منع تدريس اللغة العربية: سعت الإدارة الفرنسية إلى تطويق أية مبادرة للتعليم العربي الحر وإجهاض أي مشروع لإنشاء مؤسسة تعليمية، إدراكا من مسئوليتها بانعكاسات ذلك على سياستها، ومن ذلك أن أصدرت قانونا يقر بتطبيق القوانين المتعلقة بالتعليم العمومي الفرنسي بموجب المرسوم المؤرخ في 13 فيفري 1883 أين إدارة التعليم "جعلته فرنسيا خالصا في اللغة والمناهج، والتوجيه العام، وأنشأت نوعين من المدارس أحدهما خاص بأبناء الجزائريين، وجعلت التعليم فيهما معا باللغة الفرنسية، وكان هدفها من ذلك إبعاد اللغة العربية وثقافتها من برامج المدارس الابتدائية في الجزائر طبقا لسياسة فرنسة الجزائريين"[1] بالإضافة إلى قانون 1904 الذي أصدره الاحتلال يحظر فيه فتح أية مدرسة أو كتاب ويمنع أي معلم عربي من ممارسة مهنته إلا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط حددت كما يلي[2]:

- اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير.
- عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد.
- استبعاد دراسة التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ المحلي وجغرافية القطر الجزائري، والأقطار العربية الأخرى.

---

[3] صالح خرفي، مرجع سابق، ص 31 .

[1] تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 125 .

[2] مجلة الأصالة، العدد 18/17، ص 72 .

- استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه.

ومن الإجراءات المتخذة ضد اللغة العربية ومؤسسات تعليمها هناك أيضا قانون 1938 والذي يمنع تدريس اللغة العربية أو التعامل بها. إذ صدر قرار وزاري من طرف وزير داخلية فرنسا- شودان - في 08 مارس 1938 يمنع العربية باعتبارها لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعليمها في معاهد التعليم سواء كانت حكومية فرنسية أم شعبية حرة كمعاهد التعليم العربي الحر إلا على هذا الأساس وبترخيص خاص من إدارة الاحتلال[1] وهكذا أصدرت الإدارة الاستعمارية الكثير من القوانين والمراسيم التي تدخل كلها في طائلة حرمان الجزائريين من معرفة دينهم و التمسك بأصالتهم رغم الرفض الصريح والعلني لكل سياسات الاستعمار.

2/ غلق مؤسسات التعليم العربي: بقدر ما كانت الإدارة الاستعمارية عازمة على تطويق تعليم اللغة العربية ومحاصرة أساتذتها، بقدر ما بادرت إلى اتخاذ جملة من الإجراءات الميدانية التي مست ربوع البلاد "فقد كانت معظم المدارس الوطنية تغلق بعد قليل من افتتاحها رسميا للتعليم ويسجن معلموها. وسيشرد تلامذتها، وتحاكم الجمعية التي أنشأتها وكل ذلك بهدف واحد هو عرقلة التعليم العربي، وتخويف المنظمات القائمة عليه، ومن هنا توالت عملية" تعطيل المدارس العربية الحرة "سواء نهائيا أم لأجل قد يطول أو يقصر، وكثرت القضايا المرفوعة في المحاكم الاستعمارية ضد المدارس العربية الحرة "[2] ومهما كانت المبررات والحجج التي تبرر بها الإدارة الاستعمارية حول إغلاق المدارس. فإنها تبقى مبررات واهية وغير منصفة فالديمقراطية التي كانت تزعم حملها إلى الشعب الجزائري، وتلك الشعارات الداعية إلى تحضر المجتمع الجزائري ورفع الغبن عنه فإنها مجرد شعارات رنانة إذ عملت على العكس من ذلك فقد جهلته واحتقرته وأهانته وشردته وجردته من رموزه باستهداف ثقافته التي صعدت حربها فيها على حد قول الشيخ- الإبراهيمي- "يرجع تاريخ هذه المشادة القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي، إلى خمسة عشرة سنة، فهي مقارنة لظهور جمعية العلماء تقريبا، ولكنها تشتد وتتعقد في كل سنة تبعا لنمو الحركة الإصلاحية، واستعمالها وتطورها. فكلما اشتدت حركة التعليم وامتدت ظهر للحكومة فيها رأي فسنت لشلها قانونا أو قرارا وسكتت عن تنفيذه إلى حين... ولذلك يجب مقاومة هذه القوانين المفروضة على الشعب في أمر يتعلق به وحده وهو دينه و لغته، وهي حرب على ديننا ولغتنا، ولا نحترمها ولو أدت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة "[3] .

---

(1) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 130 .

(2) نفس المرجع السابق، ص 178 .

(3) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 62 .

وأن الشواهد التاريخية تؤكد أن المدارس والمعاهد والكتاتيب والزوايا والرباطات كانت منتشرة عبر كامل القطر الجزائري فعلى سبيل المثال[4] :

كان في مدينة قسنطينة قبل دخول الاحتلال إليها في عام 1837 ثمانون مدرسة، وسبعة معاهد، وثلاثمائة مدرسة، وزاوية في منطقتها لم يبق منها بعد الاحتلال سوى ثلاثين مدرسة فقط، وكان يوجد في مدينة عنابة 39 مدرسة و 37 مسجدا و زاويتان قبل الاحتلال لم يبقى منها بعد الاحتلال سوى 3 مدارس فقط و 15 مسجدا.

إن استبدادية الحملة الاستعمارية في قوة بطشها وشناعة سياستها وبشاعة أساليبها لم تستطع أن تخمد الجذوة في نفوس الجزائريين، بل زادت فيهم من الإرادة والعزيمة أكثر وأكدت على رفض الاستعمار وكل إغراءاته.

3/ **فرنسة التعليم:** ونعني بـ–الفرنسة: " إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها، محل اللغة العربية وثقافتها في الجزائر، حتى ينسى الجزائريون– بمرور الزمن– لغتهم وثقافتهم القومية ويستعيضوا عنها باللغة والثقافة الفرنسية"[1] إذ بعد أن حاربت الإدارة الاستعمارية اللغة العربية، وطاردت معلميها وأحكمت السيطرة على مؤسسات تعليمها، جاءت لتنفيذ ما عزمت عليه من تطبيق لسياسة الفرنسة، بتعميمها في كل المؤسسات والإدارات، وفرضها في شتى مجالات الحياة العامة، ولأجل هذا اتخذت جملة من الإجراءات لهدفين: الأول حتى تستميل أبناء الجزائر، وتمتص غضبهم وتنسيهم التعليم العربي، وبذلك تقضي على كل ما يهدد أمنها و مصالحها، والثاني هو القضاء على كل مقومات الشخصية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري، فشجعت بذلك التعليم (المفرنس) وتم إصدار قوانين ومراسيم تقر بذلك منها:

- المرسوم المؤرخ في 14 جويلية 1850 القاضي بإنشاء 40 مدرسة.
- المرسوم المؤرخ في 30 سبتمبر 1850 القاضي بإنشاء المدارس الحكومية الثلاث التي هي ثلاثة معاهد في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان، وبها حاول المستعمر أن يستبد باللغة العربية ويبطش بالإسلام.
- قرار 1879 القاضي بتأسيس المدارس الدينية المسيحية لتظهر الحملة الاستعمارية على الجزائر في صورها الحقيقية التي كانت في جوهرها صليبية الدافع والهدف.

---

[4] تركي رابح، المرجع السابق، ص 96 .

[1] تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 106 .

- المرسوم المؤرخ في 13 فيفري 1883 المتعلق بإجبارية وعمومية التعليم.

وهكذا كانت الحملة الاستعمارية التي سخرت المبشرين والمنصرين وتواطأ معها الطرقيين والعملاء لضرب العربية والإسلام، وتم عزل العربية وإقصائها من كل فصول التعامل والتداول وبذلك سعت الإدارة لقطع أية صلة بالفرد الجزائري مع ما يربطه بهويته وقوميته، ومنعت الجرائد الصادرة بالعربية والكتب والمجلات، ومنع تدريسها في مؤسسات التعليم الرسمية، وحتى في المدارس الحكومية سعيا منها لجعل الفرنسية هي اللغة الرسمية والأولى وحتى الوحيدة في البلاد، وبين سياسة المحتل ورد فعل المجتمع الجزائري تقول المؤرخة الفرنسية – يوفان تورين- yvonne Turin "وبدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانه وتفكيره وأسلوبه في الحياة مستعملا المدرسة والمستشفى، المعلم و الطبيب..."[1] والعمل على استمالة بعض رجال العلم المزيفين الذين هم رجال هدم لا علم ورجال ظلم لا سلم، تواطأوا مع الاحتلال سعيا لاستهداف الإسلام ولغة الإسلام، فكانت ضربات موجعة حقا، وجاء على لسان "محمد عمارة" قوله: "وحتى يحقق الاستعمار الاستيطاني للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر، كان السعي الحثيث والعنيف لسحق قومية الجزائريين العربية ونزع هويتهم المتميزة، وهي العروبة والإسلام، طالما كان الإسلام محافظا على عروبتهم ومغايرتهم للفرنسيين ... فسعوا إلى فرنسة الجزائر لغويا بإحلال الفرنسية محل العربية، وكتبوا بأحد التقارير التي وضعت سنة 1847 – أن الجزائر لم تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها، والعمل الجبار الذي يتحتم علينا إنجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهو السبيل لاستمالتهم إلينا وتمثلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين". هذه الحملات التي تبناها الاستعمار وظف لها هيئات و مؤسسات و منظمات كأداة طيعة في يده، تخدم مصالحه وتحقق أغراضه مثلما حدث مع إحدى إرسالياته التبشيرية التي جاء في تقريرها، والذي ورد في مقدمة شاتلييه عن إرساليات التبشير البروتستانتية " ... "ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته... ذلك بالنسبة للغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنساوية، نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية"[2] لكن هل نجحت تلك المحاولات ؟ لا بالتأكيد لا ! لأن المستعمر بذاته اعترف بفشل مخططاته عندما يكتب مؤرخوه ذلك، فقد كتبت – تورين- " ... ورد المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي

---

[1] احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 59 .

[2] شاتلييه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: محب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، جدة، ط 2، 1987، ص 13 – 14 .

عشرين سنة (1830-1850)، يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها المريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالإسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج..."[1] وأي اعتراف كهذا وأي شهادة تثبت الفشل الذريع كهذه. وهو ما ذهب إليه ساطع الحصري عندما كتب"... ومع ذلك لم ينجحوا (أي الفرنسيين) فيما كانوا يرمون إليه: ويمكن التأكيد بأن الجهود التي بذلها هؤلاء في هذا السبيل (أي الفرنسة) لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر، ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم وتبعيدهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام، لأن الناس صاروا ينظرون إلى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتنصير"[2] وهذا الفشل الذريع له أسباب سنوردها في الصفحات الموالية.

4 /**محاصرة رجال التعليم العربي:** جاء في أحد تعابير الشيخ – البشير الإبراهيمي- **أنه** "بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم ونحن نقدر أنها ستعمم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة، فالسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة (وهو هنا يتحدث بلسان حال جميع معلمي اللغة العربية) وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام و مقاعد الاتهام، وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخرا أن تكون التهمة (فتح مدرسة دينية، وقرآنية بدون رخصة)، وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية و الإسلام و يسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين و يسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد..."[3] هذه الصورة التي مثلها تعبير الشيخ هي: النظرة التي شبه بها المعلم العربي كفرد مجرم يتمرد على عرف المستعمر، وأن المستعمر هو صاحب الحق والمؤهل لفرض القانون (حال الدنيا)، لقد حاول المستعمر استهداف المعلم والمدرس والإمام وإدانتهم بانتهاك ضوابطه المزعومة، والعمل على تضييق الخناق عليهم، والزج بهم في السجون أو نفيهم نحو الصحراء مثلما حدث للشيخ الإبراهيمي الذي لم تثنه غربة المنفى بالعودة إلى النشاط من جديد كما عبر "... بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريبا، ولما أطلق سراحي من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين (1943) كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأت في سنة واحدة ثلاثا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسا عربيا مسلما فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة، وتهافتت الأمة على بذل الأموال لتشييد المدارس حتى أشرفت على

(1) احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 59 .

(2) نفس المرجع السابق، ص 60 .

(3) نفس المرجع السابق، ص 63 .

الأربعمائة مدرسة"[1]، هذا التطويق، وهذه الإجراءات التعسفية ضد رجال العلم والثقافة، فقط لأنهم يشكلون خطرا على سياساتهم، ولأنهم بحسب مهنتهم قادرون على نشر الوعي الوطني وتحريك روح المقاومة الشعبية، وبالتالي تحتم تفكيك هذه القنابل (معلمي العربية) قبل أن تصبح ألغام تهديد مزروعة على كامل القطر.

إن معلمي العربية تعرضوا إلى كثير من العنف والتهديد والتصعيد على أكثر من صعيد، وأمن إهانات لشخصيته (ضرب، حبس، ...) ودفع غرامات مالية، و ... مثلما عبر الشيخ الإبراهيمي: " ... وارتاع الاستعمار بهذه النهضة التعليمية الخطيرة وتربص بها، اشتعال الحرب الأخيرة، وقضى على معظمها بالتعطيل والاستيلاء على كثير من المدارس لاستعمالها في المصالح الحربية، واعتقال كثيرمن العلماء ورجال التعليم، ونفي قادتهم إلى الصحراء، منهم كاتب هذه السطور فقد قضى الثلاث سنوات الأولى للحرب منفيا في صحراء وهران"هذه الصنائع الشنيعة تزايدت أكثر بعدما شعرت الغدارة الاستعمارية بانتشار المؤسسات التعليمية العربية، وتزايد نشاطها لتشكل حسبها مراكز إشعاع للجزائريين وبؤر تهديد لإدارتها.

5/ **مصادرة أملاك قطاع التعليم العربي:** لم تكتف الإدارة الاستعمارية بغلق مؤسسات التعليم العربي، وطرد علمائها ومشايخها وتضييق الخناق عليهم، وفرض سيطرتها على كامل المؤسسات، سارعت إلى الاستيلاء على أوقاف المؤسسات ومصادرة أملاك وعقارات كانت تابعة لهيئة الأوقاف، وهي الهيئة التي كانت تشرف على تمويل التعليم العربي والإنفاق عليه في كثير من المدن والقرى ويذكر الشيخ – البشير الإبراهيمي– ذلك الحال بقوله "... الأوقاف الإسلامية مفقودة في الجزائر لأن الاستعمار الفرنسي صادرها، ولم يفرق بين أموال الله، وأموال الحكومة التركية المغلوبة، ولقد كانت الجزائر أغنى الأوطان الإسلامية بالأوقاف، وكان في مدينة الجزائر وحدها ثمانية آلاف عقار لم يبق منها ولا واحد..."[2]، إذ كانت هذه الإجراءات أشد عنفا على قطاع التعليم العربي ذلك أنه يحرم كثيرا من أفراد المجتمع من حقهم في التعليم والتثقيف، وعرفت الجزائر مأساة ثقافية، لأن نوايا المستعمر كانت أكثر خبثا وأكثر دناءة، خصوصا مع سلب ومصادرة حق الجزائريين، ويقول أيضا الشيخ في هذا الشأن أنه "عز على المستعمر أن يترك للمساجد التي سلمت من المعاول والتكنيس (أوقافا) تمدها بالحياة، فوضع اليد عليها، وضمها إلى أملاك الدولة، فلم يخنق بذلك الرسالة الدينية لهذه المساجد، وإنما – وهي جامعات للعلم والمعرفة– أخمد الحياة الفكرية، وشل

---

[1] البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 27– 28 .

[2] البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 424 .

النشاط الثقافي"[1]، والمؤسسات التي تطالها معاول الهدم، تطاولت عليها الأقدام النتنة من مبشرين أو جنود عسكريين، ذلك أن الكثير من المؤسسات المصادرة تحول إلى مؤسسات تابعة للمستعمر، كتحويل المساجد إلى كنائس قبل ما حدث لـ:

- مسجد كتشاوة حول إلى كنيسة على يد : دي رو فيقو.
- مسجد البليدة حول إلى كنيسة على يد: الجنرال فالي.
- مسجد وهران حول إلى كنيسة على يد: الجنرال لامور سيسر.

وغير هذه المساجد كثير في كامل تراب القطر، وتحولت المدارس إلى إدارات و أخرى لثكنات عسكرية ومحلات تجارية كما اعترف بذلك " الدوق دومال Dauk Daumal " في تقرير له إلى حكومة باريس فقال: "قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين أو ثكنات، أو مرابط للخيل واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد"[2].

بالإضافة إلى هذا كله واصلت الإدارة الفرنسية اللعبة التغريبية في طبيخ مليء بالسم والخداع، كله استيلاب (aliénation) ثقافي يزرع ثقافة دخيلة بديلة على حساب ثقافة أصيلة، مما يهدد بقاء الأمة واستمرارية وجودها، وأكثر ما أضر بالمجتمع هو ما كانت الحملة تستهدفه إذ "أن الهدف الذي كان يرمي إليه الاستعمار... هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين مقطوعة عن الجماهير الشعبية بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء عن ذويهم، فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتنكرون للتقاليد ويتشبهون بأسيادهم"[3]

فكان اغتراب الفرد الجزائري في أرض هي من أرضعته، وفي مجتمع هو صانعه، اغتراب ذو وجهين:

- الوجه الأول: هو وجود أمة مسلوبة مغلوبة وأفراد مستلبون(بفتح اللام)، أفرادها غرباء عن واقعهم و أرضهم ووطنهم.
- الوجه الثاني: هو أفراد (نخبة مزيفة) معوقون فكريا، مستلبون ثقافيا تشبعوا بثقافة غربية، يتشبهون بأسيادهم، فهم بذلك أفراد غرباء عن أنفسهم بمنطق: أنا لست أنا، فمن أنا إذن؟.

---

(1) صالح خرفي، مرجع سابق، ص 21 .

(2) تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 127 .

(3) مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية و التعليم الرسمي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 109 .

5- انعكاسات الاستراتيجية الاستعمارية اتجاه تعليم اللغة العربية:

تبعا للوسائل والإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية في تجسيد مشروعها اللاتربوي بغية القضاء على روح الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية كانت لذلك نتائج سلبية، وانعكاسات سيئة على الواقع الثقافي في المجتمع الجزائري، يمكن حصر بعضها في النقاط التالية:

1. استفادة أطراف من المجتمع من التعليم الرسمي (أبناء العملاء، أبناء الملاك، أبناء العقاريين، أبناء التجار والحرفيين الكبار...) أي أصحاب المال والنفوذ وكل البرجوازيين الذين هم عملاء أو يتعاملون مع الإدارة الاستعمارية أو الذين يعملون لمصلحتها، وحرمان أطراف وهي فئة أبناء الفلاحين، وأبناء الفقراء،... وإن تعلموا فإنهم يوجهون إلى العمل في المجالات الزراعية والصناعية قصد الاستفادة من خدماتهم كقوة تحرك الجهاز الاقتصادي للدولة الأم (حسب رأيهم)، إلا أن كثيرا منهم يمتنع عن مواصلة تعليمه، بعد أن شكك هؤلاء في المدارس الاستعمارية ليتسرب الريب والحذر، واعتبروها فخاخ للتغير، مما نفر الناس منها.

2. إحجام الكثير من أبناء الجزائريين على الالتحاق بالمدارس الفرنسية وتفضيلهم الأمية والجهل على التعليم بمدارس تسعى إلى قطع صلتهم بهويتهم وعقيدتهم، ويعبر الشيخ – البشير الإبراهيمي- عن تلك المساعي بقوله: "... إن الاستعمار صليبي النزعة فهو- منذ أن احتل الجزائر- عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة، وخفية، سريعة ومتأنية ..."[1].

3. وجود نظرة فوقية(متعالية) اتجاه أبناء الجزائريين، بالنظر إلى تعليمهم بعين تنم عن شعور الاحتقار والتقزز، فهذا مفتش التعليم بمدينة سطيف سنة 1897 يعبر "... أنه لا حاجة إلى وضع تعليم شامل للجزائريين الصغار، لا نود أن يصبحوا علماء متعطلين مرتبين في درجة لا يستحقونها لأن المناصب المرموقة محجوزة كلها للفرنسيين لا غير..."[2] ويؤكد هذا التمييز عن الحقد الدفين، والاحتقار الشديد الذي يكنه المستعمر للفرد الجزائري، حتى وإن كان هذا الأخير هو صاحب الحق في الأرض،

---

[1] البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 419 .

[2] الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال، مجلة الثقافة، العدد 95، السنة 16، 1986، ص 259 .

ويؤكد فعلا أن قليلا من الجزائريين الذين يكون بوسعهم الالتحاق بمقاعد الدراسة، وقليلا منهم فقط من يلقى حسن المعاملة والاهتمام (اللهم إلا إذا كان ابن عميل أو ابن صاحب جاه...).

4. بروز نخبة مثقفة ثقافة غربية من الجزائريين تكونت في مدارس فرنسية، وبلغة غير عربية، فئة (نخبة مزيفة بطبيعة الحال) راعتها الإدارة الاستعمارية، كونتها وساندتها وباركتها ودعت لها، وجعلت منها فئة الاشراف ومن المقربين إلى الادارة ونالت حظها في الوظيف العمومي الراقي، وهذا لكي تجعل الإدارة الاستعمارية هذه الفئة أداة طيعة في يدها، وبمثابة معاول هدم لضرب الثقافة العربية والإسلامية، فئة أبدت الإخلاص للمستعمر والخلاص للوطن.

5. بروز صراع فكري، ثقافي، وحتى ديني بين فئتين واحدة معربة وأخرى مغربة، الأولى تتلمذت في مؤسسات التعليم العربي (الزوايا، المدارس القرآنية، الكتاتيب...) وتحمل راية الفكر الحضاري الأصيل، والثانية تتلمذت في مؤسسات ومدارس التعليم الرسمي الفرنسي (تحمل راية الفكر الغربي والثقافة الهدامة)، هذا الصراع لم يخدم الطرفين بقدر ما خدم المستعمر، وهو ما توضحه كلمة هذا الخطيب بمسجد شرشال سنة 1904 الذي يشيد بحكومة الاستعمار: "... واعلموا أن هذه الدولة رحمة من الرحمن تحث على نشر العلوم، وإصلاح ما فسد، وقمع أهل البهتان، فلا يمكننا أن نتجاسر فنلقي العداوة في قلوب حكومتنا، بل نبذل جهدنا في الطاعة والشكر لها لمنافعها العظيمة"[1] فعلا هذه الشهادة تؤكد أن المستعمر قد استمال الكثير وأبدع في تفكيك الصف الوطني بتنشئة عملاء يخدمون دعوته ويدافعون عن لغته وثقافته، فئة تخدرت لها العقول، وتشبعت بالفكر الغربي التغريبي ونالت الوظيف والوسام، فهامت بالمستعمر وأشادت بإنجازاته وبلغت رسالته.

6. تزايد الضربات الموجعة الموجهة للغة العربية والدين الإسلامي، من تزييف وتشويه، كثرت بذلك الأمراض الاجتماعية وزادت الانحرافات في الأوساط الشعبية، وكثرت الأساطير والخرافات بفعل حملات المستعمر لتجهيل الأمة وجعلها أمة مخدرة، ميتة تحث على الفكر المضلل وتنهض على طقوس الدراويش إذ جاء على لسان المؤرخ أحمد توفيق المدني:" ... و آل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام... وتفشت إثر ذلك بدع وأباطيل، لا تشوه وجه الإسلام السمح وحده، بل تسود وجه البشرية برمتها، يزعمون أنهم يقومون بها زلفى وتقربا إلى الله، كضرب الدفوف، والرقص، واختلاط الرجال بالنساء، وأكل الحشرات السامة، والتمرغ على الأشواك، والتشبه بالحيوان، لا عجم في مشيته و أصواته"[1] هذا هو حال الجزائريين الذين يمارسون طقوسا ما كانت من عادات المجتمع، ولا من شيم ثقافته، ولا من

---

[1] صالح خرفي، مرجع سابق، ص 33 .

[1] صالح خرفي، مرجع سابق، ص 32 .

شيم حضارته، ولا حتى من قيم دينه، فقط تمارس على أنها سنة يتقربون بها إلى الله عن طريق الذبائح والولائم، لكنها في حقيقتها هي من صنيع المستعمر وأحد خططه لتثبيت خطواته وحده في الوسط الشعبي، ومن ثم المساس بالهوية العربية الإسلامية بدل تعليم أساليب الحياة وتثقيف أبناء الجزائريين سعى إلى نشر الخرافات والأساطير ليهدم ثقافة الأمة وحضارتها ومن ثم تجهيلها لتصبح أمة ميتة عاقرا، وإن أنجبت، ولدت فكرا معوقا.

6- مقاومة الاستراتيجية الاستعمارية التربوية:

أمام الإمكانات والوسائل التي سخرتها الإدارة الاستعمارية لتمديد إستراتيجيتها وإنجاح حملتها الصليبية. وأمام كل المحاولات للتشويه والتضليل بقي المجتمع الجزائري يصارع ويكابد الصراع متحديا الإدارة بإرادة من حديد، وبقيت انفس الجزائريين متعلقة بعاداتها بثقافاتها وعقيدتها وعروبتها، ومتمسكة بهويتها وشخصيتها، وواجه المجتمع سياسة المراسيم والقرارات والطرق المبتدعة، وكل خطط والتقرب المخادع والتعاطف المراوغ، وواجه محاولات إذابة المجتمع وتعريه من محتواه الأصيل.

لقد تجسدت مقاومة الشعب الجزائري لحملة الاستعمار التغريبية والفرنسية والتجهيل في إنشاء فئات من المدارس الحرة يمولها الشعب بواسطة التبرعات والاشتراكات، وتوجيه أبناء **المجتمع نحو** التعليم العربي وتغذيتهم بالشعائر الدينية وتعليمهم القراءة والكتابة باللغة العربية، فزاد الإقبال على هذه المؤسسات وتكون المشروع التربوي الحقيقي الأصيل، ومن بين الأمور التي قام بها المجتمع لمواجهة استراتيجية المشروع اللاتربوي الاستعماري مايلي:

1. الإحجام عن الالتحاق بالمدارس الرسمية التي تعلم باللغة الفرنسية والتي كانت بمثابة مؤسسات للتنصير وترويج الفكر المسيحي، حتى وإن التحق بها أبناء الأعيان الكبار والقياد وأصحاب النفوذ...

2. يقظة الشعور الواقعي والواعي الذي يكشف السياسة الواهية التي تتبعها الإدارة الاستعمارية وإحساس الجزائري بأن الذي يحتقره و يفقره ويضطهده لا يمكن أن يوفر مدارس وتعليما بلا هدف أو مقابل، لذا فضل العديد من الجزائريين العزوف عن التعليم وتفضيل الجهل على التعليم المفرنس.

3. الوقوف اليد في اليد بجعل المستعمر يشعر ويقتنع بعجز مدارسه عن تأدية الوظيفة التي أنشأت من أجلها، وإخفاقها في وظيفتها المنوطة بها وهي تفريغ العقل الجزائري من الفكر العربي الإسلامي وتعبئته بالفكر الغربي الخالص.

4. معاقبة كل من يتواطأ مع الاحتلال من رجال فكر مزيفين، ورجال دين مضللين، من طرقيين ومعلمين بشهادات فرنسية لأنهم يعتبرون كالسوس الذي ينخر جسم المجتمع.

5. إنشاء المدارس والمؤسسات التعليمية لتفعيل النشاط التعليمي، وتشجيع دور المسجد والكتاب والزاوية حتى وإن لاقوا كلهم من العراقيل والإجراءات التعسفية من غلق للمؤسسات ومعاقبة القائمين عليها بالنفي أو بالحبس...

6. تحرك دعاة الإصلاح ورجال العلم والثقافة لتخليص المجتمع من الفكر المضلل اللصيق بالدين الإسلامي، وتمكين المجتمع من التثقيف بفكر خالص ومبدع.

7. إحياء وتنشيط التعليم باللغة العربية مقابل إضعاف دور المدارس الرسمية والحيلولة دون الإقبال عليها، من خلال التسهيل والمساهمة في تشجيع تسجيل عدد أكبر من الجزائريين وإلحاقهم بمؤسسات التعليم العربي.

8. إعلاء راية الإسلام في وجه المد الصليبي الهادف إلى التنصير، وتمكين المؤسسات الدينية والتثقيفية من أداء واجبها العقائدي، والنهوض بالإسلام والرفع من شأنه ومحاربة التشويه الذي ألصقه به المستعمر.

9. الالتفاف حول العلماء والأساتذة و تنشيط حلقات العلم في كل ربوع الوطن حتى تلقى تجاوبا في نفوس أبناء المجتمع، وتشجع على تقوية صفوف التعليم العربي، وإحداث نقلة ثقافية بلغة المجتمع الأصيلة وعقيدته المتأصلة.

10. عودة ثقة الجزائريين بأنفسهم، وإدراكهم بأن القضية تتعلق بأمة مسلوبة الحقوق، واستراتيجية مستعمر سالب للحق والأرض والعرض، ومن ثم بعث روح التحدي والإرادة وبث الشعور الواعي والإصرار على محاربة الاستراتيجية اللاتربوية.

وبهذا شكل المجتمع جدارا حقيقيا في وجه المستعمر وحال دون هدم بنية المجتمع ودون حدوث أي شرخ في أقومته الثلاث من هوية وعروبة وعقيدة، وكان لدور التعليم العربي دوره الفاعل في فشل الاستراتيجية الاستعمارية.

7- التعليم العربي (مؤسساته وتأثيره على المجتمع):

يمكن تعريف التعليم العربي الحر على أنه "تلقين للدروس والمحاضرات ونشر للثقافة العربية والإسلامية في مؤسسات شعبية كالكتاتيب والزوايا والرباطات والجوامع والمدارس القرآنية والمعاهد الدينية، يشرف عليها أساتذة ومعلمون ومشايخ، يشجع على نشر الوعي الديني والفكر الأصيل وينهض بمستوى اللغة العربية كلغة أولى ووحيدة في المجتمع"وقد عرفت الجزائر حركة إصلاحية قادها مفكرون كبار

انحصر عملهم في إحياء الثقافة الوطنية والحفاظ عليها والعمل على نشرها حتى لا تتأثر بالحملة الاستعمارية التي استهدفتها.

شكل التعليم العربي الحر موقعه على المشهد الثقافي الوطني، واستطاع القائمون عليه توسيع دائرته من المدن إلى القرى فالمداشر، وتوسعت بذلك حلقة الوعي الحقيقي بالشعور الوطني، و**من** بين المؤسسات التي كانت تمثل مراكز إشعاع حقيقي لنشر الثقافة العربية نجد:

1/ المساجد: ولعبت دورا تربويا هاما كأماكن للتثقيف ونشر الفكر العربي الخالص، في شتى جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية منها... ولم ينحصر دورها كدور للعبادة، كما كانت بعض المساجد بمثابة معاهد عليا لامتلاكها مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات ومركزا ثقافيا ودورا للحكمة، كما تلعب المساجد دور المؤسسات الاجتماعية للتنشئة من خلال الحلقات التي تقام لتنشئة الأجيال، وأحيانا على شرف العلماء الكبار والأساتذة المشايخ، وقد كان الأثر البالغ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في رفع روح التحدي والمساهمة في بناء و إنشاء العديد من الجوامع وعلى نطاق واسع من البلاد حتى تستجيب للرغبة الملحة لدى أبناء المجتمع في نشر اللغة العربية والنهل من مشارب الثقافة العربية الإسلامية.

كان التعليم العربي في الجوامع يستمد أساليب التدريس ومناهج التعليم من مبادئ الإسلام ومقاصده ومما كان يتم (تحفيظ القرآن الكريم، ذكر الأحاديث النبوية الشريفة، شيء من الروايات وأخبار السلف الصالح باعتماد الأسلوب القصصي الممتزج بالموعظة والذكر الحسن والحكمة السديدة، وعادة ما تكون الحرية للقائم على الجامع أو المسجد المسؤولية عن شؤون المتعلمين، وله حرية تحديد مادة درسه وبحسب اجتهاده وسعة اطلاعه ودرجة علمه، وأحيانا يستشير تلامذته حول نوعية الدروس التي يبتغون مناقشتها.

لكن ما فتئت هذه المراكز تؤدي واجبها حتى هال المستعمر ما أنجزته من تطور وما أحدثته من تحول في المجتمع، فراح يحبك لها المكائد ويصدر الأوامر بتحويل الكثير من الجوامع والمساجد إلى كنائس، ومراكز عسكرية، ليتناقص عددها.

من أشهر الجوامع التي كانت منتشرة على مستوى الوطن:

الجامع الأخضر بقسنطينة، ومسجد شرشال، جامع سيدي قموش، والجامع الجديد، الجامع الأعظم وجامع سفير وجامع سيدي رمضان بالعاصمة.

2/المدارس: لعبت المدارس الحرة إلى جانب المساجد دورا هاما في ميدان نشر الثقافة العربية والإسلامية، وإذ كانت المدرسة آنذاك تحتوي على حجرة للتمدرس، وقاعة لإقامة المعلمين، وقاعة لإقامة

المتعلمين، وقاعة للصلاة (مصلى) بالإضافة إلى مكتبة تحوي الكتب والمجلدات والمخطوطات توضع تحت تصرف الطلبة والمعلمين.

انتشرت المدارس على كامل ربوع الوطن (مدن، قرى، مداشر،...) واحتضنها الشعب بإقبال أبنائه على التعلم والوقوف الند للند ضد أطروحات مشاريع الفرنسة، فكانت المدارس تساهم في تكوين الأجيال، وتحضر الشباب المتفوقين للإرساليات صوب الجوامع الكبيرة مثل الأزهر والزيتونة والقرويين، وقد كانت مقدرة بـ[1]:

- قسنطينة بها 90 مدرسة تحتوي على 1400 تلميذ سنة 1873.
- العاصمة بها حوالي 100 مدرسة لتعليم القراءة و الكتابة.

وكثيرا ما ظهر الدور الفعلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كما قال الشيخ -الابراهيمي-" صممت على تشييد مدارس فخمة بمال الأمة، لتحيي سنة البذل في سبيل العلم، وهي منقبة في المسلم نسيها بفعل التجذير الاستعماري، فأحيتها جمعية العلماء في نفوس الجزائريين، فتباروا في البذل وتنافسوا في بناء المدارس، وقابلت الجمعية هذا الاتجاه بما يكمله من برامج وكتب ومدرسين..."[2] ويضيف الشيخ -الإبراهيمي-في التعبير عن استنكار المستعمر لما حققته هذه المدارس من بناء وتعمير وتوسع مترامي الأطراف فقد تم " تأسيس المدارس العربية الإسلامية الحرة، يتولى أمرها جيل أخرجته مدرسة ابن باديس، و لقد بلغ عدد تلك المدارس أربعمائة، رغم مقاومة الاستعمار العنيفة، تسير كلها حسب منهاج واحد محكم الوضع، يغشاها ما يزيد عن مائة وخمسين ألفا من صبيان وبنات، تخرجت من بين صفوفهم أفواج من الطلبة، استكملوا دراستهم الثانوية في معهد بن باديس ثم أرسلت بهم الجمعية إلى المعهد الزيتوني الطيب الذكر بتونس، وعلى معاهد الشرق العربي، وأسفرت هذه الجهود عن تكوين جيل كامل من شعراء بلغوا الذروة، وكتاب مجيدين، وخطباء مفوهين، ودعاة مخلصين، ولقد قام كل من أولئك بواجبهم على الوجه الأكمل أثناء حربنا التحريرية الكبرى، وأن منهم لفريقا يتبوأ الآن مراكز **مرموقة** في مختلف ميادين الحياة الجزائرية "[1] ومن اشهر المدارس التي كانت منتشرة عبر التراب الوطني نجد: المدرسة الكتانية، و مدرسة سيدي الأخضر بقسنطينة، ومدرسة مازونة بتلمسان، مدرسة المروانية بعنابة، مدرسة ابن شعيب بتلمسان، ومدرسة الامامية، ومدرسة التاشفينية ببجاية، مدرسة حسن باشا بالعاصمة ومدرسة التربية

---

[1] الطاهر زرهوني، مرجع سابق، ص 252 .

[2] البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، مرجع سابق، ص 423 .

[1] البشيرالابراهيمي، أنا، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 45 .

والتعليم بتازمالت، والمدرسة القرآنية، ومدرسة سيدي أيوب بالعاصمة، وغيرها من مدارس في مناطق من الوطن.

3/ الزوايا: إضافة إلى المساجد والمدارس كانت للزوايا فضل كبير في تنشيط الحركة الفكرية في الجزائر إبان الاحتلال ونشر التعليم ومحاربة الجهل بين الأوساط الشعبية لتكون كالدرع الواقي من توسع أمراض الانحراف والتميع، إذ ركز رجالها نشاطهم على محاربة الانحراف الخلقي ومحاربة الطرقية، "وقد أرجع بعض الكتاب الفرنسيين فشل سياسة الفرنسة في الجزائر... إلى الزوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها، وكانت بمثابة مراكز دينية وثقافية ومدارس للكبار والصغار، ودور للمعالجة وإسعاف الفقراء، وملتقى ذوي الرأي لحث المواطنين على الجهاد وعدم الولاء للكافر، ولم يعرف الفرنسيون لهذه الزوايا مثيلا في أروبا ولذلك لم ينتبهوا لخطورتها إلا بعد زمن طويل"[2]، وقد أدى تخوف الإدارة الاستعمارية من خطورة هذه المؤسسات عليها، فتربص بها، وأخذ يستميل رجالها بشتى الطرق والوسائل وبدأ يسرب الدسائس والأضاليل إلى ربوعها حتى يفقدها رسالتها، و تسخير رجال الطرقية المنحرفين المتواطئين مع الاحتلال فكان للزوايا أن "غرقت في دوامة من الصوفية الجوفاء، القصيدة العاجزة عن أي دور فكري إيجابي، بل لم يعد من رسالتها إلا أن تتحكم في عقول الناس بشعوذة دخيلة على الإسلام، أصيلة في خدمة المستعمر، بتسخير رقاب البسطاء له"[3] وقد كان يطلق على الزوايا اسم" الرباطات" وهي "الثغور الذي يرابط فيها المجاهدون المسلمون لحراسة حدود الدولة الإسلامية ضد الأعداء، ومن اجل الجهاد في سبيل نشر الإسلام في مختلف بقاع العالم"[1] ومن اشهر الزوايا التي كانت موجودة زاوية القيطنة بمعسكر وزاوية شلاطة باقبو و زاوية مازونة بتلمسان وزاوية الهامل بالمسيلة والزاوية القادرية، وزاوية بن الفكون بقسنطينة، وزاوية الزواوة وزاوية جرجرة وزاوية أولاد جلال ببسكرة.

4/ مؤسسات تعليمية أخرى: كان لها الحظ الأوفر في تعليم القراءة والكتابة للأطفال وتنشيط الفعل التربوي والثقافي في الجزائر مثل الدور الحضاري الذي لعبته الكتاتيب كأحد أبرز المؤسسات التعليمية والأكثر انتشارا عبر كامل تراب القطر، فقد قدرت أعدادها بالآلاف، فالكتاب في الغالب يقع في حجرة واحدة أو حجرتين... وهو يقسم ما بين عشرة إلى عشرين ولدا وبنتا[2] والتعليم به تقليدي، بسيط، يعتمد على وسائل وإمكانيات ميسورة ودروسه لا تتعدى تحفيظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وبعض الأمور الشرعية كالفقه والنحو والصرف...

---

[2] احمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 60 .

[3] صالح خرفي، مرجع سابق، ص 35 .

[1]تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 238 .

[2] نفس المرجع السابق، ص 230 .

بالإضافة إلى الكتاتيب، كان دور النوادي والتي كانت محطات لإلقاء المحاضرات والدروس وتنظيم الندوات التي تعالج قضايا المجتمع و يؤطرها مشايخ كبار وأئمة وأساتذة علماء إيجابي وفعال.

8- تأثير التعليم العربي على المجتمع الجزائري:

كان لنشوء المدارس التعليمية في الجزائر، وتطور إنشاء الكتاتيب والمساجد والجوامع والزوايا للنهوض بنشر اللغة العربية وتوسيع نطاق تعليمها، ومع تأسيس النوادي العلمية والجمعيات الثقافية للتوعية الدينية والوطنية، الأثر البالغ على نفوس الجزائريين، الذين التفوا بدورهم على هذه الهيئات والمؤسسات، ووقفوا إلى جنب مؤسسيها، ومساندة أساتذتها ومساعدة معلميها من رجال فكر ودين، مما خلق جوا ثقافيا باهرا امتد على كامل ربوع البلاد.

لقد ساهم نشر التعليم العربي من قبل نخبة مثقفة، تخرجت من بعض الجامعات والمؤسسات العلمية لدول شقيقة في إحداث تحول جذري على مستوى المجتمع الجزائري، مما عزز ثقة الفرد بنفسه وقدرته على رفع التحدي والصمود في وجه المستعمر، ومد الحس الوطني، مما أرسى قواعد بنية الهوية وتأكيد ثوابتها الوطنية والقومية والحضارية المتمثلة في حقيقة الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، ومقاومة السياسة الاستعمارية ودحر استراتيجيتها اللاتربوية الدسيسة والخسيسة.

أيضا بفضل توسيع نطاق التعليم العربي في تخليص المجتمع من عقدة التبعية للكيان الاستعماري، مما أوجد إحساسا بالاستقلالية والتحرر من قيد اللغة والدين، وبفضل مؤسسات التعليم العربي الناقلة لثقافة الأمة ولغتها، أصبح الاعتقاد السائد بحقيقة المجتمع وكنهه وهويته، فتعلق الفرد الجزائري بعقيدته وتمسك بثقافته وقوميته وتشبث بعرقيته وتاريخه الحضاري الممدود، وهو ما شكل نقلة في نضج الوعي الشعبي رغم دسائس المستعمر التي كما قال الشيخ الإبراهيمي: "... أن الاستعمار صليبي النزعة، فهو – منذ أن احتل الجزائر – عمل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاملية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله"[1].

إن التعليم العربي في مؤسسات حتى ولو كانت بسيطة وبإمكانات شحيحة فإنه استطاع أن يمد جسور الوحدة الشعبية، ويحافظ على التماسك الشعبي بعيدا عن الاستراتيجية اللاتربوية الاستعمارية الداعية إلى

---

[1] البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، ص 419 .

الشرذمة والتفرقة وزرع القبلية والصراع الطائفي (فقد زعم رجال الاحتلال أن الامازيغ "البربر" لم يكونوا مسلمين حقيقيين ولذلك فليس من العسير تفريقهم عن العرب واستمالتهم إلى جانب فرنسا، ومن أجل ذلك أكثرت فرنسا من إنشاء المدارس في المناطق البربرية ومنعت الحديث فيها باللغة العربية وقصرته فقط على اللهجات البربرية واللغة الفرنسية، ثم منعت رجال جمعية العلماء من الذهاب إلى تلك المناطق بقصد إنشاء مدارس عربية فيها لتعليم سكانها اللغة العربية والدين الإسلامي[1]، لكن المستعمر خاب في مسعاه وجدد الجزائريون تمسكهم بوحدتهم الترابية والشعبية وزاد تعلقهم بأصالتهم الدينية العريقة وترسخت أكثر الجذور العميقة لهوية الأمة.

المجتمع الجزائري لم يكتف بتشجيع المشهد الثقافي وتوسيع نطاق تعليم اللغة العربية، بل تعداه إلى إجبار العائلات والأسر الجزائرية على إلزامية بعث أبنائها إلى مؤسسات التعليم سواء في القرى والمداشر أو في حواضر المدن، حتى يتم القضاء على مشاهد الجهل والأمية، مما أعطى انعكاسا إيجابيا في الأوساط العامة و دفع بالكثير من المتعطشين والمتشوقين للنهل من مشارب العربية إلى الاستجابة إلى هذه الدعوات الحسنة، هذا الإقبال أذهل الجزائريين قبل المستعمر، ويقول أحمد توفيق المدني حول سعي الجزائريين"...إلى بناء وتعمير المساجد الحرة التي تباهى بها القوم عندنا برفع قواعدها من طراز معماري أندلسي أصيل، وبذلوا في سبيل إقامتها، كما بذلوا في سبيل بناء المدارس الحرة ما ملكته أيديهم من مال وما ملكته نساؤهم من حلي، فكان الناس عندنا رجالا ونساء يؤثرون الله والعروبة على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"[2]، وبذلك محى التعليم العربي صورة: طفل مشرد، طفل جاهز، طفل أمي، طفل منحرف، أو بالأحرى صورة طفل عديم ورسم عنها مشهد لافتة طفل طموح وصلاته الإسلام، ومعقله الوطن وقبلته المعرفة العربية.

*** المراجع المعتمدة:**

* مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العددان 17 / 18، السنة الرابعة، الجزائر 1974/73.

* تركي رابح، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، العدد 88 .

---

[1] تركي رابح، مرجع سابق، ص 129 .

[2] احمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 45- 46 .

* تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2 الجزائر 1981.

- مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان/ جويلية، الجزائر 1974.
- أحمد بن نعمان، مقاومة المجتمع الجزائري لسياسة الفرنسة، مجلة الثقافة، العدد 52، السنة التاسعة، جويلية/ أوت، الجزائر 1979.
- شاتيلييه، الغارة على العالم الإسلامي، ت/ محب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر، ط2، جدة 1987.
- البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة العدد 87، السنة 15، ماي /جوان 1985.
- البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة، محاضرة نشرت بمجلة الثقافة العدد 87، السنة 15، ماي /جوان 1985*
- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، مجلة الثقافة العدد 9،السنة 16، الجزائر 1986.
- أحمد توفيق المدني، مجلة الثقافة، العدد 87 السنة 15 ماي /جوان 1985.

اللغة العربية في مواجهة التحدّي

أ. محمد فارح

ترتفع أصوات هنا في هذه الديّار العربية الإسلامية، وأصوات هناك وهنالك في تلك الربوع العربية والإسلامية القريبة والبعيدة، تتهم اللغة العربية بالقصور، وتشكك في أهليتها للقيادة، وصلاحيتها للسيادة أحيانًا، وتحاربها أحيانا أخرى أو تضايقها برطانات عامية، ولهجات شفوية ميتة، لم يكن لها وجود حضاري أو سياسي في التاريخ الإنساني المعروف، وتتحرّك أقلام حاقدة وألسنة مسمومة فتسبّها، وتذم أهلها، ولا تستحي أن تصفهم وتصفها بأقبح الأوصاف، وهذه الأقلام تتحرك وتلك الأصوات ترتفع كلّما نشط الحديث عن اللغة العربية والإسلام، والتعريب، وتظهر المناهج العلمية، والطرائق الإستراتيجية، والحيل العصرية، والدعوات الرامية إلى تجريد هذه اللغة من مقومات شخصيتها وضوابطها التي تكون بها لغةً وليست لهجة.

ويلتقي خصومها التقليديون في نقطة أساسية واحدة هي البحث عن أي سلاح فعّال يوقفون به حركة التّاريخ، ويزرعون بذور الشك، في ضمير الأمة، ويخلخلون ثقتها بلغتها العربية الإسلامية، ويفسدون رؤيتها التي تغوص في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وينسون أو يتناسون أن اللغة العربية ليست لغة عادية، يختارها الإنسان العربي المسلم أو يرفضها كما يحبّ ويرضى، بل هي لغة مقدسة إجبارية، فضلها الله على جميع اللغات الأخرى، ورسّمها في الكون، فأنطق بها أتباع إبراهيم عليه السّلام وحملة دعوته مدة زمنية طويلة، وبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم من الناطقين بها، وأنزل بها القرآن الكريم، فجعله المعجزة العربية البيانية الخالدة، ووصفه وصفاً صريحاً في عشر سور بأنّه، قرآنا عربي. والسور العشر هي: (**يوسف . الرعد . النحل . طه . الشعراء . الزمر . فصلت . الشورى . الزخرف . الأحقاف**) ومن الآيات التي وصفه بها قوله تعالى: " إنّا أنزلناه قرآنا عربياً " **يوسف /2**، وقوله: " إنّا جعلناه قرآنا عربيا " **الزخرف /3**، وقوله: " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا " **فصلت /3**، وقوله: " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا

" **الشورى /7**، وقوله: " نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " **الشعراء /195**، وقد بلغه الرّسول الكريم باللسان العربي، وعرّفه العلماء فقالوا: " القرآن هو اللفظ العربي المنزّل على محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، المنقول إلينا بالتواتر من غير تحريف ولا تبديل، ولا نقص، ولا زيادة " ، وهذا التعريف مستنبط من القرآن ذاته، ويقرر أنّ اللغة العربية جزء لا ينفصل من حقيقة القرآن وحقيقة الإسلام، فهي لغة الإسلام والمسلمين الدينية، والوطنية، والرسمية بنصوص قرآنه ووحيه، ولسانهم في الآخرة بتوجيه نبيّه " أحبُّوا العرب لثلاث: " لأنّي عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربّي "

وإذا كانت اللغة العربية لسان القرآن ولغة الإسلام، ووعاء عقيدته وشريعته فهل يستطيع الإنسان أن يكون مسلما من غير لغة الإسلام ؟ وأن يكون مؤمنًا صادقاً بتحريف لغة الإيمان ؟ أعتقد أن بين الإسلام ولغته ارتباطاً تامًا يستحيل انفصامه، وبينها وبين القرآن تداخلاً اندماجياً يتعذّر إخراجها منه أو إخراجُهُ منها، فالشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله لا تصحان إلا بها، والقرآن لا يكون قرآنا إلا بها، وبعض العبادات لا تصح ولا تقبل إلا بها، ونتيجة ذلك كله أن الإنسان لا يكون مسلما حتى يعرف شيئا منها، ويحفظ ما تيسر من قرآنها، وقد أمر الله المسلمين جميعاً أن يقرأوا ما تيسر منه، وأوجب العلماء على كلّ مسلم أن يتعلّم من اللغة العربية ما يتعبّد به، ويعينه على فهم ما لابد منه في دينه، وممّا قاله الإمام الشافعي في هذا الموضوع:" على كلّ مسلم أن يتعلّم من لسان العربي ما بلغه جهده، حتّى يشهد به أنّ لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب اللّه، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح، والتشهد وغير ذلك. ومهما يزدد من العلم بالّسان الذي جعله اللّه لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه، يكن خيرا له ".

فمعرفة اللغة العربية واجبة على المسلمين والمسلمات، إذن، وجوب معرفة العقائد والعبادات، وهي لغة واحدة، وحّدها الله عزّ وجلّ حتّى تكون عاملاً هاماً في توحيدهم، وجمع كلمتهم على الدّين الواحد والهدف الواحد،و الغايات الكبرى الواحدة، وأعطاها السيادة الكاملة على الوطن الإسلامي والأمة أو الأمم الإسلامية، وجعل حمايتها من التحريف والتشويه فريضة مشتركة على جميع العرب والمسلمين، ويخطئ من يظن أنّ اللغة العربة يمكن أن تستغني عن قواعدها وضوابطها، كما يخطئ من يعتقد أنّ المعاني تتضح من غير التزام بالقواعد والضوابط الواضحة في لسان العرب الصحيح وفي القرآن الكريم، وقد وصف الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم من خرق ضوابطها بالضلال فقال عليه الصلاة والسّلام في ترشيد أحد المخطئين: **(ارشدوا أخاكم فقد ضل).**

أمّا اللغات واللّهجات الإقليمية والمحلية فليست إسلامية وليست قرآنية، وليست نبوية، لكن الإسلام لا يحرم الناطقين بها من استعمالها في شؤونهم الخاصة، وإنّما يحرّم عليهم أن يتخذوها سلاحاً لطعن اللغة العربية الإسلامية ومضايقتها، ومنع المسلمين من التفاهم والاتحاد أو ضرب وحدتهم، وتمزيق شملهم في هذا الموطن أو في ذاك.

والجزائر عربية مسلمة بينها وبين الإسلام تلازم وترابط لا ينفصمان، وبينها وبين لغة الإسلام ما بينها وبين الإسلام، فمشربها قرآني، واتجاهها قرآني، وعروبتها قرآنية محمّدية، لا طائفية فيها، ولا قبلية، ولا عرقية، ولا جهوية، وأبعاد شخصيتها الأساسية ثلاثة:" الجزائرية، والعروبية، والإسلامية، هذه هي أقانيمها الثلاثة، ومكوّنات وحدتها الخالدة التي تزول بزوال الرّجال، ولا تتغيّر بتغير الأيّام والأزمان، وإذا حاول بعضهم إحداث شرخ في هذا البناء الرباني المتماسك فإنّ مصير محاولاته الفشل والاضمحلال، واللغة العربية هي مستودع هذه الأقانيم أو الأبعاد، غير أنّ اللغة العربية لا تكون لغة ثقافة وأصالة وحضارة إلاّ إذا حافظت على مقوماتها التعبيرية في الألسنة والأقلام العربية، وسهر المسلمون على سلامة تعبيرها وترقيته.

محاربة الاحتلال للغة والثقافة العربية
وموقف الحركة الوطنية

أ. محمد لحسن زغيدي

عمد الاحتلال الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سنة 1830 إلى محاربة الإسلام واللغة العربية، حيث عمد بكل الوسائل إلى تنصير الشعب الجزائري وسخّر لذلك كلّ الوسائل، ولم تكن حربه ضد الإسلام أقل شراسة من تلك التي شنها ضد لغة القرآن. حيث عمل على التضييق عليها نظرا لتعلّق الجزائريين بها إذ لا يفرق الجزائري بين الإسلام والعربية، حيث يجسد فيها الدين ويذهب إلى حد أن كل عربي مسلم بالضرورة، لأنه يتكلم وينطق لغة القرآن الكريم ولذلك أجّلها وتعلّق بها. ومن هنا كانت حرب المحتل لها انطلاقا من تلك المعطيات.

وذلك لأن الاحتلال يعرف جيدا مدى قيمة اللغة عند كل شعب يريد أن يحافظ على شخصيته، ويعتز بها، وفي هذا خطر على وجود المحتل الدخيل، ولما كانت اللغة العربية هي وعاء الثقافة العربية فقد ركز حربه عليها، لأنه متى ما تم له القضاء عليها، يمكنه القضاء على الثقافة العربية بالجزائر، وبالتالي على الشخصية الجزائرية بسهولة ويسر [1].

حيث عمد الاحتلال الفرنسي في حربه الثقافية إلى فرنسة الجزائر وصبغها بألوانه والمقصود منها كما يقول الأستاذ تركي رابح: "هو إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها، محل اللغة العربية وثقافتها في الجزائر، حتى ينسى الجزائريون بمرور الزمن - لغتهم وثقافتهم القومية ويستعيضون عنها باللغة والثقافة الفرنسية، كما حصل في بعض البلدان ...فنسيت لغتها وثقافتها، واستبدلتها بلغة وثقافة المستعمر... مثل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، ومعظم شعوب أمريكا اللاتينية، وبعض شعوب القارة الإفريقية.. [2]

1- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنيّة: ص 91، 92.

2- نفسه، ص 104.

انطلاقا من تلك القاعدة يتضح مدى إصرار الاحتلال الفرنسي على الاستمرار في حربه ضد اللغة العربية وثقافتها والتي لم تنتهي إلا بنهاية سنة 1962.

وهدفه من وراء ذلك يضيف الأستاذ تركي: "هو محاولة صبغ البلاد بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها ولغتها القومية، وتاريخها الاسلامي، فانتمائها الحضاري إلى الأمة العربية، حتى تنشأ الأجيال الجزائرية الصاعدة في ظل هذه السياسة المرسومة نشأة ممسوخة في كل شيء أو مقطوعة عن جذورها الأصلية." [(1)]

وتأكيدا لتلك السياسة التي صبغت أعمال إدارة الاحتلال ما جاء في إحدى التعليميات التي صدرت في أوائل أيام الاحتلال عقب تنظيم الإدارة الفرنسية في الجزائر: "إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة، "مملكة فرنسية" إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الجبار الذي يترتب علينا انجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي – بالتدريج– إلى أن تقوم مقام اللغة الدارجة بينهم الآن". [(2)]

ولتأكيد ما جاء في تلك التعليمة ورد في تقرير رسمي وضع سنة 1849 ما نصه: "لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني الجزائري، والعقابي، يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة، يجب أن تصدر – بأعظم ما يمكن من السرعة – جميع البلاغات الرسمية وبها يجب أن تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي يجب أن يعني بها قبل كل شيء، هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة عامة بين الجزائريين – الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا، وتقبلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين " [(3)]

كما كتب مرسييه (E. MERCIER) رئيس بلدية قسنطينة في هذا الصدد يقول: "هناك حائط يفصلنا، هو الدين، وهذا الحائط قوي جدا رغم أنه مبنى من التراب، ومن العبث محاولة تحطيمه وإنما يكفي لذلك فتح بعض النوافذ عن طريق نشر اللغة الفرنسية أولا وبعض الأفكار الصحيحة وبعض المعارف الدقيقة والمفيدة أخيرا".

وفي نفس السياق يقول الجنرال دوتبول (D'Hautpoul) وزير الحربية الفرنسي السابق: "إن إحدى الوسائل البناءة للوصول إلى السلم الكامل في الجزائر هو في نشر وتوسيع مجال معرفة اللغة الفرنسية لدى سكان الأهالي".

1- نفسه، ص 105.

2- نفسه، ص 106.

3- نفسه، ص 106-107.

وبالنسبة للغزو الثقافي والأخلاقي وتمكين إدارة الاحتلال من الوصول إلى تحقيقه يقول دوماس سنة 1848 ما نصه: " بإمكاننا البدء حاليا جديا على الأقل في المدن الغزو الأخلاقي عن طريق التربية والتعليم. والحاجز القائم بيننا وبينهم ليس صعب الاختراق وسيتقلص يوما بعد يوم ليزول في نهاية المطاف عندما تتكلم الأجيال القادمة اللغة الفرنسية معنا."

كما يعبرالدوق دو رفيقو عن هذا الاتجاه بقوله: "أرى أن نشر التعليم ولغتنا هما الوسيلتان الأكثر نجاعة لتحقيق التقدم لسيطرتنا في هذا الاتجاه."

في حين يرى البعض الآخر من السّاسة الفرنسيين غير ذلك، مثل النائب طوموس فقد كتب يقول سنة 1887 "إننا نخطئ سياسيا عندما نقوم بتطوير ونشر لغتنا الفرنسية لدى الأهالي". [1]

ولتجسيد تلك السياسة في الواقع قامت سلطات الاحتلال الفرنسية بشن حرب واسعة النطاق على اللغة العربية في جميع مراكزها ونوافذها وفي المؤسسات التعليمية بحيث لم يبقى لها مكان تحافظ فيه على وجودها وبقائها إلا في بعض المدن والمناطق المعزولة، أو من خلال ثلاث قنوات وهي المدارس الإسلامية الثلاث والمرخص بها (الجزائر - قسنطينة - تلمسان) كما سنشير إليها لاحقا والمدارس القرآنية والوعظ والإرشاد في المساجد.[*]

كما سعت سلطات الاحتلال الفرنسي إلى اتخاذ إجراءات وتدابير للقضاء على اللغة، بإصدار قرارات كما سيتضح لاحقا في الحديث عن المراسيم الصادرة في هذا الشأن، وغلق المدارس والكتاتيب، وكل مجال يمكن أن تنفذ منه اللغة العربية وثقافتها، وفي هذا المجال يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "كل الوسائل التي تتذرع بها حكومة الجزائر[**] لمقاومة التعليم العربي، هي إما قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا في أوقات مختلفة، أو لأسباب متنوعة، وإما قرارات إدارية فردية، مصدرها الجزائر، ومبناها على إيعازات بوليسية، توجهها الروح الاستعمارية، . . . وكلما زادت الأمة إقبالا على تعليم لغتها ودينها زادت الحكومة في القيض تضييقا حتى ولو أنها نفذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عربيا . .. ".[2]

ولتقنين حربها ضد اللغة العربية عملت سلطات الاحتلال الفرنسية على إصدار المراسيم وسن القوانين التي تحدّ من مجال تعليم اللغة العربية ومحاصرتها ومراقبة تعليمها والتضييق على القائمين عليها

1- عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ص 179-181.

*- نفسه وللمزيد ينظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2.

**- يقصد إدارة الاحتلال الفرنسي.

2- محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ص233.

ونظرًا لكثرتها وتنوعها، نذكر بعضها خاصة تلك التي كانت في نهاية القرن 19 وبداية القرن ال20 والمتعلقة بالتعليم العربي في الجزائر على الشكل الآتي:

– مرسوم 21 نوفمبر 1882 – يتعلق بنزع مراقبة المدارس الاسلامية من العسكريين وإعطائها للمدنيين.

– مرسوم 13 فبراير 1883 – جاء لتنظيم التعليم العمومي والحر، وقد وضع بطلب من وزير التربية والتعليم الفرنسي (جول – فيري) حيث أقر أجباريّة التعليم. لكنه في الميدان حدث العكس، حيث أدى إلى القضاء على اللغة العربية ومحاربتها بشتى الوسائل، فقد منع تلاميذ القسم المتوسط والعالي التكلم بلغة أخرى غير الفرنسية حتى في أوقات الاستراحة.

- مرسوم 26 جويلية 1883، أخضع التعليم الاسلامي إلى إدارة التربية الفرنسية.

– مرسوم 30 أكتوبر 1886 خاص بمراقبة التعليم الحر والقائمين عليه.

- مرسوم 18 نوفمبر 1887 حول تنظيم التعليم الابتدائي ومراقبته.

–مرسوم 9 ديسمبر 1887 حول تنظيم التعليم العمومي والخاص بالجزائر ويستثنى الجزائريون من التعليم الإجباري إلاّ في البلديات المحددة بمراسيم من الحاكم العام. [*]

– مرسوم 23 جويلية 1895، جاء في إطار محاولة الإصلاح التي أرادت أن تقوم بها الحكومة الفرنسية، بعد تقرير مجلس الشيوخ المتعلق بوضعية التعليم في المدارس الإسلامية بالجزائر وكيفية إصلاحها.

وقد استكمل بمرسومين إصلاحيين للحاكم العام:

الأول: في 01 أوت 1895 يتعلق بتحسين ظروف المدارس ونظامها وحالة الطلاب فيها.

والثاني: في 06 أوت 1895 حدد الوظائف التي يحتلها خريجو هذه المدارس، وذلك اعتبارا من تاريخ 01 جانفي 1898.

لكن في الواقع لم يطبق أي مرسوم من تلك الإصلاحات نظرًا للمعارضة الشديدة للمستوطنين الأوربيين في الجزائر، رغم أن تلك المراسيم أعطت أولوية التعليم في المدارس إلى اللغة والثقافة الفرنسية على حساب اللغة العربية، التي أهملتها حيث أعطيت (05) ساعات فقط في الأسبوع لتدريسها.

– مرسوم 18 أكتوبر 1892، جاء هذا المرسوم تلبية لرغبة المستوطنين الأوربيين، حول نوعية التعليم بالنسبة للجزائريين حتى يبقوا على هامش المجتمع الأوربي الدخيل، وذلك بتغليب الجانب التطبيقي وعدم الغوص في كنه اللغة الفرنسية وآدابها، لأنهم يريدون حرفيين، لا علماء جزائريين.

---

*- عبد القادر حلوش، ص: 198-199-143-144-150

ويؤكد ما جاء في مرسوم ديسمبر 1887، خاصة في مادته (03) المتعلقة بإجبارية التعليم التي لا تشمل كل الجزائريين. خاصة المناطق الصحراوية التي كان يعيش فيها جزائريون فقط قد حرمت من الحركة التعليمية نهائيا، ولم تشر إليها المراسيم الحكومية المتعلقة بالتعليم في جميع مراحله.

- مرسوم 3 جانفي 1893، الصادر عن الحاكم العام حول توزيع المدارس الأهلية

- مرسوم 1908 الخاص بتأسيس المدارس الإضافية المتعلقة بالجزائريين أو ما يعرف (بالمدارس الأكواخ) .[**]

وقد سبق تلك القوانين والمراسيم والإجراءات، عمليات نهب واسعة النطاق للتراث الوطني الجزائري، خاصة ما تعلق بالجانب العربي الاسلامي، حيث قام المحتلون بنهب المكتبات الجزائرية وإفراغها من كنوزها العلمية التي كانت تزخر بها من: (مخطوطات وكتب ووثائق)، وقد كانت حملاتهم العسكرية المحتلة المرفوقة بضباط ورجال دين مسيحيين ، يستولون على كل النفائس العلمية التي يعثرون عليها في طريقهم في كل مكان طيلة فترة الغزو العسكري (1830 - 1900) مدة سبعين سنة من العمل العسكري ويرسلونها إلى فرنسا، فضلا عن المكتبات التي تم إحراقها، كما فعلوا بمكتبة الأمير عبد القادر بعد أسره سنة 1847.[1]

وبعد أن أستتب الأمر له في الجزائر، وأقام أسس إدارته عمد الاحتلال الفرنسي إلى القضاء على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية نفسها، المتمثلة في: المدارس والجوامع، والزوايا، التي كانت قائمة في البلاد قبل الاحتلال، فقام بتحويل البعض منها إلى معاهد للثقافة الفرنسية، وبعضها سلمها إلى الهيئات التبشيرية المسيحية، والبعض الآخر قام بهدمه تحت دعوى إعادة تخطيط المدن الجزائرية. وذلك تنفيذا لرغبة وإرادة المستوطنين الأوربيين بعد سن تلك المراسيم للتضييق ومحاصرة اللغة العربية وثقافتها.

فمثلا في منطقة قسنطينة كانت هناك (387) ما بين مدرسة تعليمية وقرآنية وزاوية سنة 1837، لم يبق منها بعد الاحتلال إلا (30) مدرسة فقط. وفي مدينة عنابة كان بها قبل الاحتلال (39) مدرسة و (37) مسجدا وزاويتان لم يبق منها بعد الاحتلال إلا ثلاث مدارس و(15) مسجدا. ولتأكيد تلك الوقائع اللإنسانية التي مارسها المحتل في حق الشعب الجزائري ولغته وثقافته ودينه، جاء في تقرير الوالي العام على الجزائر (الدوق دومال) في العقد الثامن للقرن التاسع عشر، الموجه إلى حكومة باريس اعترافه في

**- نفسه، ص: 159-163.

1- تركي رابح –المرجع السابق، ص: 94.

قوله: "قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين أو ثكنات، أو مرابض للخيل استحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد".[1]

لقد عمدت الجمهورية الثالثة الفرنسية إلى الغزو المعنوي للشعب الجزائري، من خلال اعتمادها سياسة تعليمية عقيمة، فقد ذكر المؤرخ شارل أندري جوليان: أنه في سنة 1830 كانت في الجزائر 36 مدرسة ابتدائية تدرس باللغتين العربية والفرنسية بها (1300 تلميذا مسلما) ومدرستان للتعليم المتوسط تقدمان التعليم باللغة العربية والفرنسية وثلاث مدارس عربية، غير أن سلطات الاحتلال الفرنسي أغلقت المدارس الابتدائية والمتوسطات العربية وأهملت المدارس. وفي سنة 1882 لم يبق سوى 16 مدرسة ابتدائية.[2]

لم تكتف سلطات الاحتلال بذلك، بل ذهبت إلى الأبعد في حربها الثقافية ضد اللغة العربية لمحو كل آثار الأصالة والأنا للفرد الجزائري، فأصدرت قرارًا وزاريا من طرف وزير الداخلية الفرنسي "شودان Chaudain" في عام 1938 ينص على أن اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعليمها في معاهد التعليم سواء كانت حكومية فرنسية أم شعبية حرة، كمعاهد التعليم العربي الحر إلا بترخيص خاص من الإدارة، كما اعتبر القرار عملية تدريس اللغة العربية لأبناء الجزائر ونشرها بينهم "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"

يعد هذا القرار بما ورد فيه عملية إعتدائية على الشخصية الجزائرية وثقافتها كما يعد أيضا خرقا صريحا للمبادئ الأساسية لحقوق الإنسان، وذلك بفرضه عملية المسخ وتحكيم قاعدة الغالب على المغلوب. وذلك باعتبار تعلم المغلوب لغته هو عمل سياسي ضد الغالب يجب عقابه. ويعد هذا الإجراء فريدا من حيث الشكل والمضمون، بأن يمنع شعب بموجب القانون تعلم لغته ونشرها بين الناشئة من أبناء قومه، وهو ما لم تشهده شعوب قبل الشعب الجزائري بهذه الكيفية.

انطلاقا من تلك الإجراءات ضد اللغة العربية كان نصيبها في التدريس مطابق لوضعها كلغة أجنبية، لأن إدارة الاحتلال سارعت في تنفيذ النص وبالغت في الإجراءات حتى تضمن التطبيق الفعلي للقرار نصا وروحا.

لتلك الأسباب لم يحظ تعليم اللغة العربية بمكانة مناسبة إلا في ثلاث مدارس (الجزائر، وقسنطينة، وتلمسان)، بالإضافة إلى المعهد العالي للدراسات الإسلامية (الذي أنشئ بمرسوم 5 جويلية 1946).[3]

1- أحمد محساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر، ص: 104.

2- تركي رابح، المرجع السابق، ص: 128، وكذلك جريدة "المنار" بتاريخ 1952/04/11.

3- أحمد محساس، المصدر السابق ص: 408.

وذلك لتحجيم اللغة العربية وحصرها في مدارس محددة حتى يمكن مراقبة القائمين على نشرها، كما أن قرار 7 مارس 1938 سالف الذكر يقضي بجبر كل متعاط للتعليم العربي بطلب رخصة.

لكن هذه الرخصة لا تمنح إلا لمن تشهد له تقارير شرطة الاستعلامات بحسن الولاء لإدارة الاحتلال.

ومن جهتها تقوم الشرطة الفرنسية بالاعتداءات على المدارس العربية بالتعرض للقائمين عليها من معلمين وأنصار.[1]

وهذا تطبيقا لتلك السياسة المنتهجة ضد اللغة العربية والتعليم العربي في الجزائر ومحاولة إبعاد الجزائري عن لغته وثقافته بالقوة، وإذا لم يمتثل لإرادة المحتل تلصق فيه كل التهم، بحيث اعتبرت السلطات الفرنسية في الجزائر أن كل مدرسة للتعليم العربي هي سياسية (أي وطنية) في نظرها تشتغل بالأعمال السياسية وتلقن تلاميذها أشياء غير لائقة بأمن الإدارة [2] وهو السر من وراء محاربة الثقافة العربية الاسلامية، لأنه في نظر المحتل كل متمسك بأصالته ومعتز بقوميته هو طني، وبالتالي هو عدو يحمل أفكارًا معادية تنشد الاستقلال والحرية لذا وقفت في وجه المدارس والتدريس الحر والمدرسين من أبناء الجزائر.

لقد حرمت تلك السياسة الفرنسية المعادية فئات كبيرة من أبناء الشعب الجزائري من نعمة العلم والتعليم وحكمت عليهم بالجهل والأمية ليعيشوا على هامش المجتمع الأوربي الدخيل، ونقدم في هذه الدراسة بعض الإحصائيات الدالة على تلك السياسة بالأرقام.

وهكذا فقد مس التعليم في المرحلة الابتدائية في سنة 1890 (1.73%) من مجموع الأطفال الجزائريين الذين هم في سن التمدرس أي (10.000) تلميذا وارتفع هذا العدد سنة 1900 إلى (4.3 %) أي (397 33) تلميذا.

وفي سنتي 1917 - 1918 مس التعليم (49000) طفلا في سن التمدرس من مجموع (850.000) أي بنسبة (5.7%).

وعشية الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال كان هناك (644 60) طفلا متمدرسا من بين (900.000) من هم في سن التعليم أي بنسية (6%).[3]

1- جريدة المنار 1952/04/11.

2- المنار 1952/12/12 للمزيد ينظر: غبد القادر حلوش سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ص: 202-203.

3- أحمد محساس: المصدر السابق، ص 401.

أما المحظوظون من أبناء الجزائر الذين وصولوا إلى التعليم العالي وزاولوا دراستهم في جامعة الجزائر فقد وصل عددهم سنة 1940 (89) طالبا. [1]

وتدل إحصائيات سنة 1944، أن عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة بلغ عددهم (1250000)، لم تتح فرصة التعليم الابتدائي إلا لـ (110.000) من المجموع المذكور، وفي عام 1954 كان (2070.000) طفل جزائري تتراوح أعمارهم بين (5 و 14 سنة) لم يتمكن من الحصول على التعليم الابتدائي منهم إلا (100 307).[2]

أما الذين شاءت الظروف لهم أن يتعلموا من أبناء الشعب الجزائري فلم تكن مدارسهم شبيهة بمدارس أبناء الأوربيين، التي كانت لا تختلف عن المدارس في فرنسا نفسها في جميع اللوازم الدراسية.[3]

أما مدارس الجزائريين، ومستلزماتها، فيصفه التقرير السنوي للتفتيش الأكاديمي، والذي اقتصر على مدينة الجزائر، في العام الدراسي 1945 – 1946 جاء فيه على الخصوص: "الحالة المادية: فصول صغيرة خربة وأماكن غير صالحة للسكن، والأدوات الصحية والرياضية نادرة – ولا توجد مياه في أغلب الأحيان – الفصول عربية بدون مقاعد ويجلس الطلاب على الأرض أما مكتب المدرس فقديم وفي حالة بالية، وعن حالة التعليم الراهنة: فصول مزدحمة – أعمار متباينة للغاية – نقص في الأماكن– الدراسة نصف الوقت والنتائج هزيلة" [4].

وفي سنة 1945 بلغ عدد المسجلين في التعليم الابتدائي حتى العالي بمن فيهم الحضانة، (85201) بينما بلغ عدد الأوربيين لنفس السنة (206 241).[5]

إذا ما قارنا بين عدد المسجلين لسنة 1944 ونظرائهم لسنة 1945 نجد أنه تم هناك تراجع كبير في عدد المسجلين، بلغ (790 24) أي أن سنة 1944 كانت أحسن بكثير، وهذا يرجع إلى أن السنة الدراسية 45 – 1946، سبقتها أحداث دامية عاشتها الجزائر تمثلت في المجازر الدموية الرهيبة التي ارتكبتها إدارة الاحتلال برئاسة الجنرال دي غول في حق الشعب الجزائري في احتفالات يوم النصر يوم 8 ماي 1945 والتي فقد فيها الشعب الجزائري أكثر من (000 45) شهيدًا أغلبهم من الأطفال، وقد كان أول ضحية

1- عبد اللطيف بن أشنهو ، ص: 480-481.

2- عمار بوحوش: العمال الجزائريون في فرنسا، ص 160-161

3- زغيدي محمد لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني ص 32.

4- سعد زغلول فؤاد: عشت مع ثوار الجزائر، ص 39-40.

5- المصدر نفسه، ص 40.

يستشهد برصاص الاحتلال الغادر من على يد ضابط في البوليس الفرنسي بمدينة سطيف، الطفل الكشاف سعال بوزيد الذي كان يحمل العلم الوطني الجزائري بألوانه الأخضر والأحمر والأبيض.

تلك الأحداث كان لها أثرها على السنة الدراسية.

أما في سنتي 1949 - 1951، فيشير الإحصاء الذي نشرته إدارة الاحتلال في سنة 1955، أن عدد الطلبة الجزائريين في التعليم الثانوي والجامعي بلغ (3734)، أما الأوربيون فقد بلغ عددهم (20658).[1]

وأما بالنسبة للمدارس التقنية العليا، فقد كانت عمليا مغلقة في وجه الجزائريين فالمدرسة الوطنية للزراعة، التي كانت تضم (102)طالبا عام 1953، كلهم أوربيون والمدارس الوطنية الثلاث (الثقنية، التجارية والصناعية)، كانت تضم (355) طالبا عام 1953، منهم (09) جزائريين فقط.[2]

هذه النسب الضئيلة للجزائريين، في المدارس التقنية، التي كات تدرس باللغة الفرنسية فقط، إنما كانت توحي عن السياسة الفرنسية المعتمدة في الجزائر، لتبعد الجزائريين عن كل ما هو علم تقني، لتبقى الجزائر دائما تابعة ولا تستطيع أن تقوم بنفسها، إن هي حاولت، وبالتالي يحكم عليها بالتبعية والتخلف بتلك الإجراءات كانت سلطات الاحتلال تخطط لمستقبل الجزائر.[3]

هذا في التعليم التقني أما في التعليم الثانوي فقد كان هناك في ستة 1954 (6308) شابا و(952) فتاة جزائرية، في الثانويات التي يبلغ عددها (49) ثانوية في أنحاء القطر الجزائري، وذلك من مجموع (468 34) [4] طالبا وطالبة أي عدد التلاميذ الأوربيين يبلغ (208 27).

أما في التعليم العالي فقد كان مسجلا في الفروغ الغير تقنية وباللغة الفرنسية لأن اللغة العربية كانت محرمة على المستويات الدنيا بصفتها لغة أجنبية وبذلك لم يكن لها حظ في التعليم العالي: ففي سنة 1954، كان هناك (179) طالبا من أصل 518 جزائريا في جامعة الجزائر، مسجلين في الحقوق و(165) في الآداب ، و(66) في الطب، ثم 118 فقط في العلوم.[5]

1- المصدر نفسه، ص 40.

2- عبد اللطيف بن أشنهو: المرجع السابق، ص 482.

3- زغيدي محمد لحسن: المرجع السابق

4- عمار بوحوش: المرجع السابق، ص 161.

5- نفسه، ص 161.

هكذا إذن عمد الاحتلال الفرنسي منذ بداية عهده بالجزائر، إلى سياسة محاربة اللغة العربية ونشر الجهل وزرع الأمية، في وسط المجتمع الجزائري، وقد بلغ مراميه في ذلك إلى حد بعيد، وما جاءت سنة 1954، إلا ومعظم الشعب الجزائر لا يعرف القراءة والكتابة.(1)

ويمكن إجمال أهداف السياسة الفرنسية، في هذا المجال في النقاط الآتية:

1 – محاربة اللغة العربية والثقافة العربية والقائمين عليها والمنتسبين إليها وكذا المدافعين عليها، بشكل عنيف ومحو آثارها ونهب تراثها وغلق المنافذ التي يمكن أن تتسرب من خلاله، وذلك للقضاء النهائي على الشخصية الجزائرية.

2 – فرنسة التعليم في جميع مراحله، ومتابعة التعليم العربي وسن القوانين والغلق والمضايقة والمراقبة، لضمان التبعية المطلقة وخلق جيل موال لفرنسا.

3 – اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وجعلها والدين الإسلامي تحت المراقبة المستمرة، لأنهما العاملان الأساسيان في إيقاظ الشعور الوطني والحافز على جعل الجزائري يتمسك بأصالته ويسعى إلى تحرير أرضه.

4 – محاولة تشويه تاريخ الجزائر، في ظل العروبة والإسلام، بقصد إلقاء ظلال من الشك على انتماء الجزائر العربي الإسلامي.

5 – قطع كل صلة بين الجزائر والوطن العربي، لتأكيد فرنستها، أرضا ولسانا وقطع أواصر صلتها ماضيا ومستقبلا.(2)

تلك السياسة التي انتهجتها فرنسا في الجزائر وطبقتها في الواقع وعانى منها أبناء الشعب خاصة ما تعلق فيه بالمسخ والنسخ.

لكن الحركة الوطنية الجزائرية، ومن ورائها المناضلين من أبناء الشعب الجزائري لم تقف مكتوفة الأيدي، أمام تلك السياسة الفرنسية المدمرة، فعملت على توعية الشعب، بتعريفه بما يبيته له المحتل ولأبنائه، وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها الدفاع والمحافظة على الشخصية الجزائرية وكان شعارها الذي رفعته دوما وناضلت من أجل تجسيده يلخص مقومات الشخصية الجزائرية (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا).

كما جاء على لسان قائدها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس

1– عبد اللطيف بن أشنهو: المرجع السابق، ص 480.

2– زغيدي محمد لحسن: المرجع السابق ص، 33-34.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أورام إدماجا له رام المحال من الطلب.

وبجانبها الجناح الثوري للحركة الوطنية ممثل في نجم الشمال الإفريقي ومن بعده حزب الشعب وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذي جعل من اللغة العربية والدفاع عنها والسعي لتحريرها ونصرها وترسيمها كرمز للسيادة الوطنية المسلوبة، سلاحا يشهره في كل أدبياته وبياناته طيلة مسيرته الوطنية.[1]

موقف الحركة الوطنية الجزائرية

كما أشرنا أن الحركة الوطنية لم تقف موقف المتفرج إزاء إدارة الاحتلال وهي تجتهد وتعمل من أجل محو الشخصية الوطنية الجزائرية من الوجود، فكان من أسباب وجودها في الساحة هو الدفاع عن الوطن ومقوماته وفي مقدمتها السيادة واللغة والدين.

ونحاول أن نورد باختصار بعض المواقف للحركة الوطنية الجزائرية المتعلقة باللغة العربية والدفاع عنها من خلال برامجها وبياناتها وموقف بعض الصحافة كذلك منها فيما يأتي:

أولا : نجم إفريقيا الشمالية:

يعتبر أول حركة سياسية جامعة بين أقطار المغرب العربي للدفاع عن المنطقة في وجه الاحتلال الفرنسي المشترك، وقد تبنى منذ نشأته سنة 1926 مبادئ وطنية ثورية تدعو إلى استقلال المنطقة مما جعله أمل شعوب المنطقة خاصة الشعب الجزائري الذي علق عليه آمالاً كبيرة، من خلال مواقف زعيمه السيد مصالي الحاج حيث تبنى الدفاع عن اللغة العربية ونشر ثقافتها في وسط أبنائها وترسيمها إلى جانب اللغة الفرنسية.

ولما أصبح النجم جزائريا وضع في برنامجه سنة 1932 مكانة خاصة للغة العربية حيث ورد في البند الثامن ما نصه:

"التعليم الإجباري للغة العربية، وحق (كل الجزائريين) في التعليم على جميع المستويات وخلق مدارس عربية جديدة، كل الأعمال الرسمية يجب نشرها بالعربية والفرنسية في نفس الوقت".

وجاء في القسم الثاني لبرنامج الحزب، وفي ما يتعلق باللغة العربية وتحت عنوان: حكومة وطنية ثورية جاء مايلي:

1- نفسه: ص 35.

البند الثالث: ستكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية.

البند السادس: حرية التعليم بالعربية وإجباريته على جميع المستويات [1]

ثانيا: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

تعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحكم عنوانها وتركيبتها البشرية وتكوين أعضائها ركنا أساسيا في الدفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي في الجزائر وهو سر وجودها ومصدر نشاطها.

فبحكم تكوينها العلمي الوطني جعلت الجمعية بعث الثقافة العربية هدفا كبير الأهمية خاصة في بلد تفرض القوانين الفرنسية دمجه الكلي بفرنسا وتتولى المدرسة الفرنسية وحدها مهمة نشر التعليم فيه– كما أشرنا سابقا– فهو العمل الذي أولته اهتمامها في مرحلتها الأولى (1931 - 1940) في إطار التعريف بمبادئها من خلال نشاطها الثقافي والإعلامي.[2]

لقد ناضلت الجمعية من أجل نشر اللغة العربية والدفاع عنها، ومن بين ما قامت به في هذا المجال،ما جاء في العريضة التي قدمتها إلى مدير الشؤون الأهلية العام (ميو) جاء فيها بشأن اللغة العربية ما نصه:

"المساجد لا تزال مغلقة في وجوه علماء الأمة، والتضييق على التعليم العربي الحر لم يزل على شدته لم يتبدل في قليل ولا كثير، ورجال الجمعية الذين هم في الواقع دعاة خير ورحمة، وحملة أمان وسلام ووسائل تربية وتهذيب. لم يزالوا محفوفين بالشكوك والريب في دوائرهم الخاصة، ولا تزال تتبعث من بعض الجهات الإدارية إيعازات التحرش بهم، والتخويف منهم ومحاولات تصويرهم بغير حقيقتهم"[3]

تلك هي الصفات التي تصف بها فرنسا كل حملة لواء اللغة العربية ومناصريها.

وفي اجتماعها الخامس العام جاء في كلمة نائب الرئيس الشيخ البشير الإبراهيمي فيما يتعلق باللغة العربية وما قامت به الجمعية اتجاهها قوله:

"نجحت الجمعية أيها الاخوة في إلفات الأنظار إلى شيء لم يكن بيننا نسبيا، وإن كان مجفوا وهو هذا اللسان العربي الشريف، الذي هو قطعة من كياننا التاريخي وشرط أساسي لوجودنا القومي، وشهادة قاطعة بصحة نسبنا الديني ونسبنا الجنسي، وإن من العار الفاضح أن يفخر الواحد منا بانتسابه للعرب هو لا يعرف شيئا عن لغة العرب ولا شيئا عن تاريخ العرب - وقد أشرفت هذه اللغة الشريفة على

1- أبو القاسم سعد الله– الحركة الوطنية الجزء الثاني– ص 487-488.

2- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص 197-198

3- جريدة البصائر: 23 ماي 1936.

الاضمحلال بهذه الديار لولا أن تداركتها جمعية العلماء وأخذت بيدها وأنتشلتها من الحضيض الذي وصلت إليه، فأستعادت على يدها شبابها، ووصلت بسبب الدين الحنيف أسبابها، وأصبحت الجزائر في مدة قليلة تفاخر أمصار العربية الكبرى ومنابتها الأصلية بأدبائها وكتابها وشعرائها وخطبائها."[1]

ثالثا: المؤتمر الإسلامي 1936:

لم يكتف أعضاء الجمعية بالنضال من أجل اللغة العربية على مستواهم فقط بل في كل المجالات التي يمكن أن يبلغوا فيها صوتهم في هذا المجال، وبما أن جمعية العلماء هي المنظم الأساسي للمؤتمر الإسلامي، الذي جمع أحزابًا ونخبًا جزائرية لتقديم مطالب إلى حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية التي رأوا فيها أملا ربما لتحقيق بعض مطالبهم الاصلاحية.

فجاء في المطالب التي قدمتها الجمعية إلى مكتب المؤتمر فيما يتعلق باللغة العربية ما نصه:

"تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل الفرنسية.

وبالنسبة للتعليم الديني جاء في المطلب:

"تؤسس كلية لعلوم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيمين وغيرهم."[2]

أما بالنسبة للمؤتمر الإسلامي رغم أنه ضم من بين أعضائه اندماجيين إلا أن مبدأ اللغة العربية كان مقدسا وظهر من بين المطالب التي رفعها وفد المؤتمر إلى حكومة باريس، حيث جاء المطلب الخامس الذي خص اللغة العربية ما نصه:

"فسخ جميع القوانين الصادرة ضد اللغة العربية، تلك القوانين التي صيرت اللغة العربية في الجزائر في منزلة وفي مرتبة اللغات الأجنبية مع الحرية التامة في تعليمها ورفع سائر القيود والأغلال عن الصحافة العربية واعتبارها كزميلتها التي تصدر بالفرنسية لا تقيد إلا بقانون الصحافة العام".[3]

رابعا: حزب الشعب الجزائري:

1- البصائر 2 أكتوبر 1936- للمزيد ينظر أحمد الخطيب ص 115-124- 125- 127-130-131-135-140.

2- البصائر: 19 جوان 1936.

3- البصائر 31 جويلية 1936.

ورث حزب الشعب الجزائري مواقف ومبادئ النجم، في كل القضايا الوطنية والمغاربية وفي مقدمتها قضايا استعادة السيادة الوطنية، منها مسألة اللغة العربية، حيث كان لها مكانتها البارزة في برنامج الحزب حيث جاء فيه في هذا المجال ما نصه:

في الميدان الاجتماعي:

1 – تدعيم الثقافة باللغتين العربية والفرنسية.

2 – تعليم اللغة العربية إجباريا لكل المواطنين في كل المستويات [(1)]

لم يقف حزب الشعب عند المطالبة ووضع اللغة العربية في برنامجه، بل سعى كما فعلت جمعية العلماء المسلمين إلى فتح المدارس في أنحاء الوطن لتعليم العربية وغرس المبادئ الوطنية في الأجيال.

فقد جاء في نشيد الحزب عن اللغة العربية ومكانتها الوطنية والمعنون: "فداء الجزائر": تقتطف منه الأبيات التالية:

ولتحيا الجزائر مثل الهلال ولتحيا فيها العربية

تم يقول:

فلسنا نرضى على العالمين حياةً نبقى بها أعبدا

فلسنا نرضى الامتزاجا ولسنا نرضى التجنيسا

فلسنا نرضى الاندماجا ولا نريد فرنسيسا

رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهال تدنيسا

ويختتمها بقوله:

وهاهو أحمد يحدو بنا وهاهو جبريل فينا يناد.[(*)]

خامسا : بيان الشعب الجزائري

1- محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية، 1830-1954، ص 174-175 ينظر كذلك:

- جريدة الأمة جانفي 1938.
- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى ص 231.
- وأحمد الخطيب: حزب الشعب ص 233.

*- نشيد للشاعر مفدي زكرياء. للمزيد ينظر كتاب الأناشيد الوطنية- منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994.

بعد نزول الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية بالجزائر في 8 نوفمبر 1942 اجتمع ممثلو الحركة الوطنية، من نواب وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري (المنحل رسميا)، واتفقوا على أن يسلموا ممثلي الحلفاء وفرنسا نفسها مطالب الشعب الجزائري سميت بيان الشعب الجزائري الذي وردت فيه المسيرة التاريخية للشعب الجزائري تحت نير الاحتلال فيما يتعلق بالشخصية الوطنية خاصة في العقيدة واللغة حيث جاء فيه: "إن الشعب الجزائري يطالب ابتداء من اليوم:

بعد: أ- إدانة الاستعمار . . .

ب - تزويد الجزائر بدستور يتضمن:

في البند الثالث: الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على غرار اللغة الفرنسية"

وبعدما طلبت منهم سلطات الاحتلال تحديد المطالب المستعجلة والقابلة للتنفيذ، وضع ممثلو الحركة الوطنية وثيقة أخرى سميت بالمحلق أو المتمم للبيان، جاء فيه فيما يخص اللغة العربية وتعليمها لأبناء الجزائر وفي باب الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية: ورد في البند الثالث، وفي عنوان التعليم: ما نصه:

"إلغاء التعليم الخاص بالأهالي وتسخير الوسائل الفاعلة لتسجيل مليون طفل من الأهالي لم يتمدرسوا بسبب عدم وجود الأماكن حرية تعليم اللغة العربية."

وجاء في البند التاسع: "حرية الصحافة باللغتين".[1]

سادسا: حركة أحباب البيان والحرية

أسست كجبهة وطنية جمعت التيار الوطني الذي وحده البيان في مطالبه المشتركة، وقصد مجابهة مخططات إدارة الاحتلال الفرنسي في تللك الأثناء أسست في 14 مارس 1944، وجعلت من بين مطالبها إصلاح وضع اللغة العربية وإعطائها مكانتها في وسط شعبها وأبنائها، حيث جاء في المادة الأولى من القانون الأساسي:

"أنشئت في الجزائر جمعية للتعريف والدفاع عن بيان الشعب الجزائري أمام الرأي العام الجزائري والفرنسي والمطالبة بحرية الكلام والتعبير لكل الجزائريين".

وفي المؤتمر الأول للحركة الذي عقدته بقسنطينة في 22 ماي 1944 وفيما يتعلق باللغة العربية طالب المؤتمر:

1- وثيقة البيان والملحق: تعريب محمد العربي الزبيري وينظر : شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، ص 315 .

في البند الثاني عن اللائحة: " حرية الصحافة باللغتين العربية والفرنسية"

ثالثا: الحرية الدينية وحرية التعليم باللغة العربية."

وفي المؤتمر الثاني للحركة، الذي عقد بالجزائر العاصمة في جانفي 1945، طالب المؤتمر: "بجعل اللغة العربية لغة رسيمة".[1]

وكان للحركة نشاط سري كان يقوم به نشطاء حزب الشعب من الشباب والطلبة حيث ألصقوا على الجدران في عدة مدن جزائرية منشورًا في فبراير 1945 ممّا جاء فيه عن اللغة العربية: "... إن الشعب الجزائري لم يتمتع بالحضارة لوجود المستعمر الفرنسي، فاللغة العربية مضطهدة منذ الاحتلال، والإسلام أصبح محل سخرية. . ."[2]

سابعا: الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها:

تكونت لتجمع بين أطراف الحركة الوطنية بمختلف اتجاهاتها حول الدفاع عن الحرية ومبادئ مشتركة، بالجزائر في أوت 1951 وتتكون من:

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- حركة الانتصار للحريات الديمقراطية
- الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري
- الحزب الشيوعي الجزائري.

جاء في بيانها الأوّل: الذي حددت فيه أهدافا تسعى إلى الدفاع عنها: منها ما جاء في البند الثالث:

"احترام الحريات الأساسية: حرية التعبير والفكر، والصحافة، والاجتماع.[3]

كما كان لها موقف من قضية "معهد فاروق" الذي تعود وقائعه إلى أنه في إطار محاربة فرنسا للثقافة العربية ومنافذها، كانت الحكومة المصرية قد تحصلت على موافقة الحكومة الفرنسية لتأسيس معهد للدراسات العربية العليا بالجزائر (العاصمة) وهو معهد "فاروق الأول" وكان الهدف من تأسيسه هو إجراء بحوث تاريخية وأثرية في شمال إفريقيا.

1- بوصفصاف عبد الكريم: المرجع السابق، ص 372.

2- نفسه، ص 373، وينظر سعد الله: الحركة الوطنيّة ج3 ص 250.

3- المنار، 30 جويلية 1951.

لكن الحكومة الفرنسية عادت ورفضت منح التأشيرة إلى مديره الأستاذ "يحي الخشاب" وبالتالي رفضت الفكرة.

استنكرت الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها، هذا الإجراء ونشرت في تصريح لها قولها: إن رسالة هذا المعهد تكون أكثر نفعا نظرا إلى أن الثقافة العربية بالجزائر مخنوقة تماما، وأن المكتب الدائم للجبهة الجزائرية يرى أن العلاقات الثقافية بين الشعوب يجب أن لا توضع في سبيلها العراقيل، وتطالب الحكومة الفرنسية بالرجوع عن قرارها."[1]

ثامنا: مكتب المغرب العربي:

إن الحرب الفرنسية ضد اللغة العربية، وتماديها في خنق الثقافة العربية بالجزائر والمغرب العربي، جعلت ممثلي الأحزاب الوطنية في المنطقة أو المنضوين في مكتب المغرب العربي بالقاهرة يوجهون خطابا إلى هيئة الأمم المتحدة ممضيا من طرف السادة: علال الفاسي والشاذلي المكّي والطيب بن نونة، حول قضية مراكش وعدم إدراجها في جدول أعمال الدورة الأممية، ومما جاء فيه: "تأجيل إدراج قضية مراكش في جدول أعمالها فهي بذلك تكون قد شجعت الاستعمار الفرنسي على أن يمضي في تطبيق سياسته سياسة القمع والاستغلال والتجهيل في إفريقيا الشمالية، وتكون بذلك أيضا قد انتهكت ميثاق حقوق الإنسان الذي هو إنجيل الأمم المتحدة".[2]

تاسعا: الزوايا

إن الدور الأساسي للزاوية هو الحفاظ على الدين وتعليم القرآن الكريم ونشر ثقافته بين الأجيال.

وتزخر الجزائر بكثرة الزوايا وأصالتها وانتشارها في جميع أنحاء القطر الجزائري حيث لا يكاد يخلو مجمع سكاني في أي جهة من زاوية، فبالإضافة إلى دور الزوايا الجهادي في المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، حيث أخذت على عاتقها تلك المهمة الوطنية النبيلة في القيادة والتعبئة ولتجنيد وخوض المعارك طيلة السنوات السبعين (س 1830 - إلى 1900) للتوسع العسكري الفرنسي، قامت كذلك بالحفاظ على اللغة العربية ونشرها بين الناشئة وجعلها سلاحا في وجه المحتل ويرجع إليها الفضل الكبير في استمرارية عروبة الجزائر، وإسلامها.[3]

عاشرا: الموقف الشعبي:

1- المنار: 4 جانفي 1952.

2- المنار: 8 ديسمبر 1951.

3- المعرفة: الزوايا التي لعبت دورا في التعليم العربي وتوزيعها عبر الوطن، وكانت مراكز إشعاع علمي وديني خاصة في الحفاظ على اللغة العربية ونشرها- رابح تركي المرجع السابق ص 243-248.

حرصت الجماهير الشعبية الجزائرية على تمسكها بالقرآن الكريم وثقافتها العربية، كما هو معروف على أن الجزائري لا يفرق بين تعليم القرآن واللغة العربية باعتبارهما رموزًا حضارية وثقافية وعقائدية، كما أشرنا في بداية الدراسة، هذا التشبث بالقيم كان في حد ذاته محرك للعواطف، حيث أن المجتمع الجزائري يشعر دوما أن وجوده مرهون بثقافته، أن القرآن واللغة العربية شيئان متلازمان، هذه القيم الراسخة كانت تمده بالعزيمة في مواصلة المقاومة ضد المحتل، وتمنحه القدرة والطاقة لتجاوز كل الصعاب، فبفضل اللغة العربية حافظ الجزائريون على شعورهم بالانتماء إلى عالم أوسع يربطهم به التاريخ والجغرافية والدين والثقافة والمصير المشترك.[1]

إحدى عشر: الصحافة:

تعبر الصحافة عن الرأي العام وأحاسيسه، وتعمل على تثقيفه وتنويره ونقل الأخبار إليه، كما عانت الصحافة الوطنية نفسها من سياسة المحتل لا سيما تلك الناطقة باللغة العربية التي ركز عليها في إطار حربه ضد العربية، فكان لها موقفها من تلك السياسة. وقد اخترنا بعض الصحف الوطنية، وصحيفة مضادة، على التوالي:

1 - جريدة وادي ميزاب:

لصاحبها عميد الصحافة الجزائرية أبو اليقظان، صدرت في أكتوبر 1926 فقد كانت هذه الجريدة تعبر عن صوت العروبة والإسلام في الجزائر، وذلك من خلال مواقفها من القضايا العربية والإسلامية.

لقد كانت تهتم بكل ما يكتب في الصحف الأوربية عن الجزائر والقضايا العربية فتترجم المقالات وترد عليها إذا كانت تستحق الرد وتعربها وتنقلها بدون تعليق إذا رأت فيها فائدة، وخدمة للقضية العربية. كما كانت تنقل أخبار البلدان العربية والقضايا العربية إلى الشعب الجزائري.[2]

2 - البصائر:

جريدة جمعية العلماء المسلمين، كتبت هذه الجريدة تحت عنوان "بعد غربة اللغة العربية أصبحنا نخشى على اللغة الدارجة"

جاء فيه على الخصوص: "وهكذا أصبحنا نرى إلى جانب منافقي الاسلام منافقا آخر هو منافق الكلام.

1- أحمد محساس: المصدر السابق ص 410.

2- الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة الجزائرية، ج 6، ص 48-49.

". . .الاهابة بكم معشر الشباب أن تعيروا للغة أسلافكم وأمتكم شطرا كبيرا من عنايتكم وصادق اهتمامكم، فإن أول نعمة ردفت الخلقة هي نعمة البيان "خلق الانسان علمه البيان" إيذانا بأن الاثنين هما الأصلان اللذين يتحقق بهما معنى الحياة، ولئن كان منكم من حيل بينه وبين الفصحى فلا أقل من أن ينال حظه من اللغة الدارجة فإن الرطانة التي تفاحش أمرها في عموم القطر وتشوهت بها الألسن أيما تشويه تركتنا خائفين على لغتنا العامية ذلك الخيال الباقي من العربية".[1]

3 - جريدة الأمة:

ظهرت جريدة الشعب لسان حال حزب الشعب الجزائري سنة 1937 كصحيفة باللغة العربية، وبمجرد صدورها أعلنت إدارة الاحتلال الفرنسية قرارًا بتعطيلها عن الصدور. وذلك لأن إدارة الاحتلال تعرف مسبقا بأنها سوف تحمل صوتا ثوريا انطلاقا من مبادئ الحزب الذي تمثله، كما أن اسمها مشتق من اسم الحزب وهو "الشعب".

فاحتجت جريدة الأمة وكتبت:

"بينما نحن على أحر من الجمر انتظارًا لإنجاز المطالب الأهلية [*]. . . إذا بوزير الداخلية يفجع أسرة الصحافة العربية بالجزائر، ويصدر قراره الإداري بتعطيل . .(الشعب) العربية وخنق صوتها عند ولادتها بدون التجاء إلى محاكمتها شرعيا، وذلك بالقانون الذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ولا حق لها في الحياة إلى جانب أختها الفرنسية الأمر الذي أقض مضاجعنا وعكر لنا صفو الحياة ورفعنا عنه عيائنا إلى المراجع العليا مرارا ولا سيما في عهد الحكومة الشعبية حتى بحّت أصواتنا، ونحن باسم الصحافة العربية بالجزائر نحتج بكل قوانا ضد هذه التصرفات."[2]

4 - جريدة: الجزائر الجديدة L'Algérie Nouvelle

كانت نظرتها للغة العربية هي نفس نظرتها للشعب الجزائري، فالشعب لم يعد في نظرها بعد شعبا له لغته وجنسيته وحضارته، بعد أن أخذ منه كل شيء بل صار في نظرها مجموعة من العرب يجب إعطائها

1- البصائر، 21 فيفري 1936.

*- يقصد بها المطالب التي قدمها المؤتمر الإسلامي إلى حكومة الجبهة الشعبية.

2- الزبير سيف الإسلام: المرجع السابق، ص 117-118.

لغة و حضارة وجنسية فرنسية وإدماجها في المجتمع الفرنسي، فأوردت ما نصه في هذا المجال: "لقد أخذنا منه بالقوة وباسم حق الحضارة ما كان قد أمتلكه، وجردناه من أراضيه باسم الضرورة، والصالح العام، وحطمنا جنسيته، وأصبح لا يوجد أمام فرنسا إلا عرب وليس شعبا عربيا."(1)

5 - جريدة المنار:

كتبت تحت عنوان: "الاستعمار في حربه للعربيّة"

"لقد كانت الأمة الجزائرية أول أمة وقعت تحت حكم الاستعمار الفرنسي وهي من أشد الأمم العربية محافظة على عروبتها وإسلامها، فظلّ الكفاح شديدا بين أمة لا تريد بعروبتها وإسلامها، بدلا ولا بديلا وبين استعمار يؤلمه أن يراها متمسكة بعروبتها محافظة على دينها إلى أقصى حدود المحافظة.

وتوالت هجمات الاستعمار على اللغة العربية والدين الإسلامي محاولا طمس معالها ومحو أثارهما كي يتسنى له تحقيق الإدماج الذي ينشده كل فرنسي وطئت أقدامه أرض الجزائر وبهره ما بها من موارد الثراء والسلطة المطلقة".(2)

كما كتبت المنار كذلك مقالا تحت عنوان:

"واجبنا نحو لغة الضاد"

جاء فيه: "إن نشر اللغة العربية يرتكز على دعامتين

الأولى: الإكثار من المدارس الحرة.

والثانية: تنشيط الصحافة العربية وحركة التأليف، وتهذيب لغة المسرح وتعريب لغة التسامر في النوادي الأدبية والسياسية. وتقوية روح الاعتزاز باللغة ثم تنظيم حملة دعائية واسعة النطاق لمكافحة الأمية".(3)

لقد عانى الشعب الجزائري آلام الاحتلال الذي لم تره إلا قلة من شعوب العالم حيث عمدت إدارة الاحتلال الفرنسي إلى شن حرب ثقافية بجانب الحرب العسكرية التوسعية في داخل التراب الجزائري، محاولة احتلال الأرض وسلب الروح ومسخ الشخصية وقلع الجذور ومحو الانتماء وتغيير العقيدة وتغريب اللسان، بعد قرار الإلحاق والدمج، رغم التاريخ والجغرافية واللغة والدين.

ورغم أن الدولة الفرنسية هي إحدى الدول الموقعة والمؤسسة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان انطلاقا من مبادئ تورثها وشعارها:"العدالة ولإخاء والمساواة" والتي أعلنت عند التوقيع في 10 ديسمبر

1- الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر، ج2، ص 63-64.

2- المنار 11 أفريل 1952.

3- المنار 25 أفريل 1952

1948 عن التزامها بمواده، إلا أن ذلك كان يخص شعبها في فرنسا، لكن المستعمرات كانت مستثناة من ذلك خاصة منها الجزائر مخترقة مواده لا سيما فيها المادة الأولى والثانية البند الأول والثانية البند الأول المتعلق باللغة والدين، والسادسة الاعتراف بالشخصية والثامنة عشر والسادسة والعشرين المتعلقتان بحق التعليم ومجانيته وإلزامه. والتاسعة عشر: حق حرية الرأي والتعبير والثانية والعشرون والسابعة والعشرين : الحقوق الثقافية والتاسعة والعشرين البند الثاني: احترام حقوق وحريات الآخرين واحترامها.(1)

لكن الحركة الوطنية الإصلاحية والثورية وقفت المرصاد بمناضليها وصحافتها لإنقاذ اللغة العربية والدفاع عن مكانتها وحق الشعب فيها واعتبارها سلاحا لمحاربة المحتل وهو ما تحقق بفضل مجاهدي ثورة أول نوفمبر 1954 التي حققت الآمال وأرجعت للجزائري حقه وشخصيته وحرمته وكبريائه واعتزازه بدينه ولغته، التي استعادت وجودها ومكانتها وما المجلس الأعلى للغة العربية إلا رمزا لسيادتها.

1- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (وثيقة)

اللغة العربية بين العزة والكرامة
والخذلان والمهانة

د. عمر برامه

وضعية اللغة العربية في الجزائر

ينحصر حديثنا عن اللغة العربية بصفة عامة في العهد العثماني ومرحلة الاستعمار خاصة، وذلك لاستجلاء صورة واضحة عن مكانة اللغة العربية في العهدين.

1. العهد العثماني:

يجمع الباحثون والمعنيون بالتاريخ بصفة عامة، والتعليم بصفة خاصة.. وإذا قلنا التعليم، فلغته هي اللغة العربية، وهي المعنية هنا بالدرجة الأولى، معنية في رقيها، وانتشارها في هذه الفترة، فترة العهد التركي.

وإذا لم يذكر المؤرخون معاهد عليا وجامعات بمواصفاتها على غرار ما هو موجود في أماكن أخرى خاصة في أوروبا، فالجوامع والمساجد والزوايا- في بلدنا- على جميع مستوياتها هي التي كانت تقوم بهذا الدور، ومعها الكتاتيب وهي خاصة بالمرحلة الابتدائية، يؤازرها جامع القرآن الذي كان منتشرا بكثرة في البوادي والأرياف، وهو مدرستي الأولى.

مصدر تموين الحركة العلمية هذه:

في هذه الفترة -فترة العهد التركي- فالمصدر الأساسي هو الوقف، وهو مظهر من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، برزت فيه الإرادة الخيرة للإنسان المسلم، عبر بواسطتها عن إحساسه العميق، في تآزره وتضامنه مع أفراد المجتمع الإسلامي في السعة والرخاء، وفي الشدائد والمحن المختلفة، خاصة محنة الأندلسيين في نكبتهم وتشريدهم بعدما جردوا من ممتلكاتهم ورمي بهم في البحر فكان الوقف مخففا لآلامهم، والوقف أصبح سنة اتبعها المسلمون منذ أوائل الحضارة الإسلامية، كما يذكر *الدكتور أبو القاسم سعد الله في "كتابه تاريخ

الجزائر الثقافي". الجزء الأول* تطور هذا الوقف مع مرور الزمن، وتعددت أغراضه وميادين تدخله خاصة في العهد التركي وفي وطننا هذا، تبقى أهم ميادين تدخله الميدان الديني والثقافي بصفة عامة: العناية بالمساجد والمدارس والزوايا وغيرها، في نموها وفي تطورها وفي صيانتها، العناية بالعلماء والعلم وطلبته، وفي الواقع هذا الميدان هو أساس اهتماماته.

إدارة الوقف وتسييره:

إذا تشعبت طرق تسيير الوقف سواء كانوا أفرادا أم جماعات أم حتى طلبة في بعض الحالات، وتبقى من أهم وأبرز مؤسساته، مؤسسة سبل الخيرات، حنفية الاتجاه توافقا مع المذهب الحاكم، مذهب الأتراك. هذه المؤسسة كانت تشرف على جزء كبير من أملاك الوقف

– طبعا السلطة آنذاك، مذهبها المذهب الحنفي. غير أنه لا يمنعها الاعتناء* بالمذاهب الأخرى غير المذهب الحنفي، وإلى جانبها مؤسسة إدارة أوقاف مكة والمدينة، يشرف عليها مجلس يرأسه وكيل، يعين من طرف الحكام سواء كانوا: باشاوات أم آغات أم دايات أم غيرهم.

المؤسسات الدينية و الثقافية:

يذكر المؤرخون المراكز الدينية والعلمية بالجزائر ولكثرتها يصعب إحصاؤها ونحن هنا سنذكر بعض المدن على سبيل المثال لا الحصر، فمدينة الجزائر وحدها كانت تضم حوالي مائة 100 مسجد والبعض يذكر أنه كان بها ثلاثة عشر مسجدا كبيرا (يستنتج من هذا أن هذه المساجد الكبيرة هي التي كانت تلعب دور المعاهد العليا والجامعات.) إلى جانب هذه الجوامع والمساجد الكبرى يوجد مائة وتسعة مساجد (109) و(32) قبة، أو ضريحا، واثنتا عشرة زاوية، بل البعض يقول: إنه كان بمدينة الجزائر وحدها عند دخول الاستدمار 300 مدرسة، وتشبه العاصمة قسنطينة *في عهد صالح باي الذي اعتنى بإحصاء المساجد وترميمها. يذكر المؤرخون أنه كان بها خمسة وسبعون مسجدا (75)، ومثل مدينة قسنطينة سائر المدن الأخرى خاصة الكبيرة منها، وإذا لم نذكرها فلأن المجال لا يتسع لكثرتها فالجزائر كانت تزخر في جميع أرجائها بهذه المؤسسات التعليمية.

تتحدث المصادر عن التعليم في الجزائر وانتشاره أثناء الحقبة العثمانية حتى غطى جميع أرجاء الوطن وبعض المدن، انتشر في الأرياف والقرى وسكن قمم الجبال، وأقاصي الصحراء، دعامته الأساسية ومورده القوي هو الوقف، الذي تهافت عليه الخيرون، زودوه بأموالهم، وأوقفوا عليه أملاكهم وثرواتهم.

إذ لم يكن للدولة تدخل مباشر في ميدان التعليم، وإذا لم يشمل جهازها التنفيذي وزيرا لشؤون التعليم، ولا مديرا ولا وكيلا ولا نحو ذلك من الوظائف في الدولة كدولة، وإذا كان التعليم بصفة عامة يقوم على

مجهودات الأفراد والمؤسسات الخيرية الخاصة فغياب الدولة لم يكن بالغياب السلبي كما يتصوره البعض فقد كان أفرادها حماة لهذا الوطن وأسودا دافعوا عن هذا الدين وعن هذه الثقافة العربية الإسلامية، فقد سجل التاريخ غيرتهم وحرصهم الشديد على العقيدة الإسلامية، وعنايتهم بالعلم والعلماء، وتبرعوا بأموالهم وأوقفوها على المؤسسات الدينية والعلمية كما ذكرت، ويذكر أن أول الذين قاموا بالوقف في هذا المجال، هو خير الدين برباروس وخادمه الذي أعتقه حيث بنى هذا الخادم جامع السفير بالقصبة بمدينة الجزائر، بناه وأوقف عليه أراضي شاسعة.

ويبدو أن هذه السنة الحسنة، سنة الوقف اتبعها الكثيرون من الباشوات، مثل: الحاج حسين مزمورطو، الذي بنى هو الآخر مسجدا، أوقف عليه أراضي ودكاكين، وحتى سوقا. وبالإضافة إلى الباشوات اتبعهم في هذه الطريقة البايات والوزراء والكتاب، وكبار الضباط.

لهذا اجتمعت للوقف قوة مالية كبيرة، ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية، والتعليمية، زيادة على مساعدة المحتاجين من الطلبة والفقراء، والنازحين من الأندلس في بداية الأمر.

موقف الأسرة من العلم:

لقد كانت الأسرة الجزائرية المسلمة حريصة كل الحرص على العلم وعلى إرسال أطفالها إلى الكتاتيب، لتعلم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة وحفظ القرآن، وقد كان التنافس سائدا بين الأسر والأحياء والمدارس، وحتى في بعض التجمعات: كالأسواق والمناسبات المختلفة. وقد وصل هذا النوع من التنافس جيلنا.حيث كانت بعض الأسواق الأسبوعية ملتقى معلمي القرآن، وتلامذتهم موضوع النقاش بالدرجة الأولى: حفظ القرآن حفظا جيدا، مع إتقان بعض قواعد رسمه وكتابة آياته وقراءتها قراءة سليمة.

ماهي مراحل التعليم؟

كانت مراحل التعليم تنقسم إلى قسمين :إلى ابتدائي وإلى ثانوي وعال.

1. ففي التعليم الابتدائي: يتعلم التلميذ القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وحتى بعض المبادئ الأولية في الدين والفقه والحساب .

2. التعليم الثانوي والعالي:

فيدخل حفظ المتون وعلوم القرآن وعلم الفقه والتوحيد وعلم الحساب وحتى الفلسفة، والملاحظ على هذه المرحلة أن الدراسة مجانية، بل يتلقى الطالب إعانة نقدية، مع ضمان السكن والإيواء والأكل.

أما المهن والصناعات الحرفية المختلفة، فغالبا ما يكون تعلمها في الورشات المتنوعة وفي الميدان على يد صناع مهرة، وإذا كان التعليم على هذا المستوى فإن اللغة العربية كانت هي الرائدة والسائدة فيه، في انتشاره وفي رقيه، فالكثير من المصادر تتحدث عن هذا الانتشار في العهد العثماني وعن استعداد الشعب للتعلم وعن حبه للعلم والعلماء والقائمين عليه

فالرحالة المغربي أحمد بن ناصر المغربي يذكر بأن العلم في وقته كان منتشرا في الأصقاع البعيدة من الجزائر مثل أولاد جلال و في عين ماضي التي قال عنها: إن أهلها كلهم طلبة.

والملاحظة الأخرى، فإن طلب العلم في المجتمعات الإسلامية لا يرتبط لا بمكان ولا بزمان ولا تحده سن معينة. فقد يتزوج الشخص وينجب أطفالا، ثم يرحل عنهم رغبة في طلب العلم، ولو كان الانتقال من بلد إلى آخر. فالرسول(ص) يقول: *اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد * اطلبوا العلم ولو بالصين.

فعبد المؤمن بن علي وهو من غرب الجزائر من قبيلة مصمودة كان في رحلة طلبا للعلم قاصدا المدرسة النظامية ببغداد عندما التقى بمحمد تومرت بمنطقة بجاية، بعد أن دار الحديث بينهما وتبينت لهذا الأخير خصال الرجل، عمل محمد تومرت على إقناعه بالعدول عن السفر وإن هناك ما هو أهم فإن وضع المغرب العربي ومعه الأندلس في حاجة ماسة إلى قيام دولة إسلامية قوية تنقذ الإسلام والمسلمين.

أصناف المعلمين:

أ. في المرحلة الابتدائية يسمى مؤدب الصبيان يسهر على تعليم الأطفال إلى سن المراهقة وما هو شائع فيطلق عليه عموما اسم الشيخ أو معلم القرآن.

ب. معلم أو مدرس إذا كان يباشر التعليم من سن المراهقة إلى سن العشرين.

ج. أستاذ أو شيخ إذا كان يدرس ما فوق ذلك من الأعمار والمستويات، يشترط فيه كل شروط وأوصاف يجب توفرها في من يرغب في مهنة التدريس منها: التقى والصلاح والروح الاجتماعية العالية* وقد يشترط فيه الزواج والأخلاق الفاضلة، يؤدي واجباته الدينية من صلاة وصوم وغيرهما..

والمعلم أو الشيخ في الجزائر. خاصة في البوادي والأرياف هو إمامهم في صلواتهم ومفتيهم في شؤونهم ومصالحهم الاجتماعية يلجأ إليه الأفراد والجماعات في أفراحهم وأقراحهم خاصة عندما تستعصى

عليهم بعض الأمور، فيكون المرشد والمصلح وحتى القاضي في بعض الحالات. وباختصار فهو محل ثقة وتقدير واحترام وسط الجماعة التي يعيش بينها.

*ما هي الأسباب والحوافز التي دفعت بالفرد المسلم وجعلته يقبل على تعلم اللغة وتحصيل العلم ؟

إن الحوافز المختلفة التي تحث الأفراد في المجتمعات الإسلامية على طلب العلم وتحصيله، كامنة في الدين الإسلامي نفسه، فالعلم من أساسيات العقيدة الإسلامية، وأن القرآن نزل باللسان العربي المبين إذن لفهم هذا الكتاب وهذه العقيدة فهما سليما وواضحا لابد من إتقان هذه اللغة في قواعدها وأساليبها ومعانيها وفي بيانها. وقد وردت آيات كثيرة وأحاديث نبوية تبين مكانة العلم وفوائده، وحاجات الفرد والمجتمع إليه. أول سورة نزلت من القرآن تطلب من الإنسان القراءة؛ بل لا تقف عند طلب القراءة فقط، فهي توحي له بأن هناك خفايا في هذا العالم المحيط به، لا يصلها إلا بالبحث والاجتهاد، وقد عبر عن هذا بالقلم الذي هو رمز للعلم ووسيلة للعمل العلمي والثقافي، قال تعالى:" اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" (س. العلق من 5/1)

وعن الصفة والمكانة التي ينالها الفرد بالعلم. يقول تعالى:" هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (س...) والرسول الكريم (ص) يقول لكل شيء طريق وطريق الجنة العلم "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" وهذا ما جعل الفرد المسلم لا تحده سن معينة ولا مكان معين من أجل طلب العلم. ومرتبة العلماء في الدرجات العلى من المجتمع، والعلم في الإسلام، يعتبر الوسيلة الناجعة، لتحرير الإنسان من مخاوفه وعقده، واحباطاته النفسية، فهو يقوي إرادته ويعمل على تفجير الطاقات الكامنة فيه، زيادة على تنوير عقله وتحرير فكره، يجعله يؤمن بأن كل ما في هذا الوجود وهذه الحياة مسخر له وتحت إرادته للانتفاع به إن أراد، يقول عز وجل في سورة لقمان آية 20 "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة... الخ الآية"

وفي الحديث الشريف" لو تعلقت همة بني آدم بما دون الثريا لوصلها"

هذه القيم مجتمعة هي التي سادت المجتمعات الإسلامية بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، استمد منها تكافله وتضامنه وتسامحه وسخاءه عبر تاريخه الطويل وبصفة مختصرة، فإن هذه العوامل وهذه الحوافز، مصدرها ديني كما بينت، العلم عند الفرد المسلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، هو ضياء في المجتمع ونور ينير طريق الناس في حياتهم، يرفع صاحبه إلى الدرجات العليا من التقدير والاحترام.

إذن لا غرابة إذا كان التعليم في الجزائر قد انتشر انتشارا واسعا ترافقه اللغة العربية في رقيها وبيانها، وقد اعترف بها المستدمرون أنفسهم فقال بعضهم إن نسبة المتعلمين في الجزائر أعلى من نسبة المتعلمين في الجيش المحتل.

وقال آخر. إن التعليم كان يشمل جميع أفراد المجتمع، فالمؤرخ الفرنسي موريس بولار maurice paulard يقول في كتابه تعليم الأهالي في الجزائر" كان في الجزائر في القرنين الرابع عشر(14) والخامس عشر (15) الميلاديين مراكز ثقافية باهرة بها أساتذة متخصصون؛ في العلوم الفلسفية والفقهية والنحو والطب..الخ"

ويورد عباس فرحات رحمه الله النسخة المعرية من كتابه "دليل الاستعمار" ص.60 ، ملاحظة أبداها الجنرال الفرنسي "أفيلا" وذلك سنة 1834 م، أي بعد سنتين من دخول الجيوش الاستدمارية إلى الجزائر جاء في هذه الملاحظة ما يلي:

"إن العرب كانوا كلهم يتقنون القراءة والكتابة ، ففي كل قرية توجد مدرسة "

أما عدد المدارس في الجزائر فيناهز الألفي مدرسة، كما كانت بها معاهد وجامعات بالجزائر العاصمة بقسنطينة ومازونة وتلمسان ووهران، وأن التعليم في الزوايا الكبرى كان مزدهرا ومنتشرا عبر القطر كله.

ميشال هابارت Michal Habart في كتابه: تاريخ لمزور، يقول: "في سنة 1830 جميع الجزائريين يعرفون الكتابة والقراءة والحساب. فهم أكثر ثقافة مما كنا نظن، وعند وصولنا وجدنا أكثر من 100 مدرسة ابتدائية بمدينة الجزائر (والبعض يقول 300) و86 بقسنطينة و50 بتلمسان، فمدينة الجزائر وقسنطينة، كان بكل منهما: 7 أو 8 مدارس ثانوية.

هذه الوضعية الثقافية واللغوية للجزائر سنة 1830 م عند دخول الجيوش الاستدمارية إلى بلادنا، واسمح لي أيها القارئ إذا تبنيت مصطلح الاستدمار الذي استنبطه واستعمله المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم حقيقة إن هذا المصطلح في– نظري– يقترب من ترجمة حقيقة الفعل الاستدماري.

– ما يجب ملاحظته وجلب الانتباه إليه أن مجيء الاستدمار إلى بلدنا لم يكن مجرد غزوة عادية للحصول على غنائم محدودة؛ بل خطط لهذا الغزو منذ أمد بعيد، أعد له العدة الكافية... هدفه الأساسي، استمرار العملية التي أنجزوها بالأندلس؛ بل كانت هذه أكثر تصميما واستعدادا. واضعين نصب أعينهم. الإبادة التامة للسكان، سواء كانت الإبادة الجسمية وهي في المقام الأول، والإبادة المعنوية في مرحلة ثانية، وإلحاق هذا الوطن بفرنسا حيث يصبح جزءا لا يتجزأ منها.

وإذا تكلمنا عن الحملة فهي لم تكن متكونة من مجرد عساكر تدربوا على حمل السلاح وخوض المعارك؛ بل اشتملت الحملة على أنواع من الجيوش زيادة عن العسكر جيش من رجال القانون وعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا (الآثار)، ورجال التاريخ ورجال الإعلام ورجال الدين والإستراتيجيين..إلخ. لينجز كل منهم ما يخصه.

نزولهم 1830 شهر جويليا:

نزلوا بسيدي فرج، وبدأت تحركاتهم وعزمهم على إنجاز ما جاءوا من أجله، ومع هذه التحركات تعالت نداءات، بما فيها نداءات رجال الدين كلها تحرض الجيش وتطلب منه العمل على إبادة كل ما يعترض طريقه..

أول قبيلة ابتليت بهذا البلاء، هي قبيلة والعافية بمنطقة الحراش أبادوها عن آخرها، واستولوا على أراضيها التي كانت تقدر بـ 12000 هكم. ونفس العملية تمت بمنطقة البليدة والحجوط وفي جميع المناطق التي وصلوها شرقا وغربا شمالا وجنوبا ما إن سقطت مدينة الجزائر، حتى قام*بوليناك. طالبا من الجنرال دوبورمون قائلا له بأن فرنسا يجب أن تمارس سلطتها على الجزائر كلها.

وفي الرابع عشر(14) من شهر جويليا أصدروا قانونا اشتمل على مادتين:

- المادة الأولى تنص على أن الجزائر ووهران وقسنطينة- وحتى قبل احتلالهما- فإن هذه المدن الثلاث تابعة للأراضي الفرنسية.

- المادة الثانية تنص على أن هذه المدن تكون العمالات الثلاث.

فالمرسوم الملكي لسنة 1834 م يجعل من الجزائر وبدون أدنى رجعة على أنها ملكية فرنسية في إفريقيا... وأن تكون الجزائر وبصفة نهائية محتلة من طرف فرنسا.

وقد صرح الملك أمام وفد من المعمرين زاره قائلا لهذا الوفد يجب عندما نتكلم عن عمالة الجزائر كأننا نتكلم عن عمالة" بوش دي رون".

وفي 8 جويلية يطالب الجنرال دو بورمون بإنشاء مجالس قضائية خاصة، تسمح بالتنفيذ السريع للأحكام والقوانين. لأن طرق تنفيذ القوانين الموجودة في نظرة تتصف بالبطء، يقول عنها إنها علامة ضعفنا. تبعا لهذا الطلب أنشئت ثلاث محاكم عسكرية بالجزائر ووهران وعنابة، فعلت فعلتها في المواطنين. كل يعلم أن مدينة الجزائر سلمت باتفاقية تنص على احترام الأماكن المقدسة، وغيرها. ولم تمر إلا أيام قليلة، حتى بدأت الانتهاكات لهذه الاتفاقية. فمن خمسة آلاف منزل (5000) بالعاصمة، أخذ منها (3000) ثلاثة آلاف عن طريق الحجر مع تهديم 900 منزل آخر، كما يقوم الجنرال دوبرمون بإيعاز

لزينته والسماح لهم بهدم البازارات وتخريبها ونهبها. هذه البازارات التي كانت تشتمل على ورشات النسيج والطرز والصناعات الحريرية، والتي كانت مفخرة مدينة الجزائر وشهرتها، ومورد عيش سكانها، أما عن ضواحي مدينة الجزائر فحدث ولا حرج.

بعد المنازل والبازارات يأتي دور المساجد، رغم العهود المبرمة والتي تنص كلها على احترام الأماكن الدينية المخصصة للعبادة وغيرها، فبعد مرور عامين من الاحتلال حتى كان الحجز قد وقع على اثنين وستين (62) مسجدا، وتعرض عشرة مساجد أخرى للهدم. وفي سنة 1865 م فمن بين مائة واثنين وثلاثين مسجدا كانت بمدينة الجزائر سنة الاحتلال 1830 م، لم يبق منها إلا اثني عشر مكانا للعبادة. أما العدد الآخر فقد كان مصيره التهديم. والتحويل إلى كنائس وأديرة وإلى ثكنات وأماكن للعلاج وحتى إلى اصطبلات للحيوانات وأماكن لراحة الجيش الاستدماري.

ونفس العملية تمت بالمدن الأخرى خاصة الكبيرة منها، على سبيل المثال، فإن مدينة وهران لم يتركوا بها إلا مسجدا واحدا كما تذكر المصادر.

وقد وجه المرسومان المؤرخان في 7 سبتمبر و 9 ديسمبر من سنة 1830 م الضربة القاضية للمؤسسات الدينية والثقافية الإسلامية، حيث تضمنا الاستيلاء على أملاك الوقف والمؤسسات الخيرية. قاطعين كل مورد عن الميدان الديني والعلمي والأعمال الخيرية كلها. من صيانة المساجد والعناية بها وأئمتها، وبالمدارس على جميع أنواعها ومستوياتها: ابتدائي وثانوي وجامعي، بما فيها الأساتذة. وقد كانت موارد الوقف لا تتوقف على صيانة المؤسسات المختلفة، بل كانت تعتني بقنوات صرف المياه، وجلب الصالحة منها للشرب، ودفع منح المحاربين والمرضى واليتامى وفقراء أهل المدينة.

ويذكرها بارت في كتابه السابق الذكر ص 62 أن المدينة بعد هذه العملية عملية الاستيلاء على الوقف، قد تحولت وتحول معها سكانها إلى متسولين يسودهم اليأس والقنوط من جراء ما وصلوا إليه.

قال بعضهم بعد تطبيق هذين المرسومين، إن الماء قد انقطع عن المدينة، مدارسها مغلقة ومعالمها الثقافية– نظرا لنقص صيانتها– تسقط الواحدة تلو الأخرى. بمعنى أن هذين المرسومين كانا كارثة على الثقافة الإسلامية.

وباختصار فقد تابع المستدمرون عمليات السلب والنهب وطرد السكان من أراضيهم. عملا بقول أحدهم الذي قال يجب أن يطرد هؤلاء إلى الجبال وإلى ما وراء الصحراء مثل ما تطرد الوحوش الضارية بالحديد والنار أو بالإبادة الكلية التي كانوا يتنافسون فيها، ويقيمون الحفلات كلما أبادوا قبيلة أو دشرة من المداشر.

استولوا على جل الأراضي الخصبة، ووزعت فيما بعد على شذاذالآفاق الوافدين من أوروبا. وقد كانت قناعاتهم أنه لا يمكن أن يكون استعمار دون الاستيلاء على الأرض، وأن الشروط الأولى لكل استعمار هو نزع الملكية من أهاليها الأصليين.

ففي سنوات قليلة وضعوا أيدهم على ثلاثة (3) ملايين من الهكترات، أخذوا 90 % من سهول الجزائر ووهران وعنابة و95 %من حدائق الكروم والفواكه.

وهكذا سارت عملية تجريد هذا الشعب من كل إمكاناته كي يصبح فقيرا هزيلا لا يقوى على أي شيء يعترض طريقه، استمرت عمليات الإبادة والطرد ونزع الملكية إلى نهاية المقاومات المختلفة؛ بل إلى ما بعدها بطرق أخرى.

يذكر حمدان بن عثمان خوجة أن عدد السكان الذي كان بالجزائر هو عشرة ملايين نسمة 1830 م وفي سنة 1872م أثناء عملية الإحصاء الأولى التي قامت بها فرنسا لم تجد إلا 2100000 نسمة، أي بعد أربعين سنة من الاحتلال انخفض عدد السكان بحوالي ثمانية ملايين نسمة. تساءل المعنيون بالتاريخ والذين أرادوا الوصول إلى حقيقة الأمر (أنظر هابارت المرجع السابق ص 35). ولم يطل بهم الأمد حتى صدقوا ما أدلى به حمدان بن عثمان خوجة، وليس غريبا عندهم إذا نزل عدد السكان إلى هذا المستوى فهم يقرون أن عملية الإبادة هي التي فعلت فعلتها، إذا علمنا أن الضباط السامين في الجيش الفرنسي، كل في المكان الذي يوجد به كانوا يجمعون أفراد القبيلة أو المداشر في أمكنتهم أو يدخلونهم المغارات والكهوف مع حيواناتهم، من أبقار وأحمرة وبغال وأحصنة..وحتى الكلاب والقطط، يطوقونهم بالجنود، ثم يشعلون النيران فيهم وكل من حاول الفرار رمي بالرصاص وكم كانت فرحتهم كبيرة لسماع أصوات الحيوان والبشر ترتفع ويختلط بعضها البعض وهم في نشوة لا مثيل لها، ! وفي آخر كل عملية يقيمون الحفلات والأفراح يراسلون بعضهم مفتخرين بكل ما فعلوه، متنافسين في كل مرة، ومن هو أكثر إبادة من غيره ولما تأكد الباحثون من هذه الأعمال أقروا أن ما قاله حمدان بن عثمان خوجة صواب إذن فعملية الإبادة كانت الأساس في كل هذا. وطبعا لا ينكر الإنسان أثناء هذه الحقبة قد حلت بالسكان مجاعات وأوبئة فتاكة مثل الطاعون وغيره، لم يقدروا على مقاوتها لفقرهم وهزالهم. هذه الفترة والتي تليها تعرض فيها العلماء والمشايخ إلى الظلم والعدوان والتقتيل وغيره مع مضايقتهم من جميع الجوانب، فكانت الهجرة وسيلتهم الوحيدة تركوا مراكزهم ووطنهم توجه أغلبهم إلى ديار الإسلام بالمشرق العربي.

وإذا كانت المرحلة الأولى من نزول الجيوش الاستدمارية إلى نهاية الثورات المختلفة، مرحلة أستعمل فيها السلاح والإبادة الجسمانية. فإن المرحلة التي تلتها كانت أخطر وأفتك، فسح فيها المجال للجيوش الأخرى التي رافقت العساكر من علماء التاريخ وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا (الآثار)، ورجال القانون

ورجال الدين..الخ. كل قام ينجز ما كلف به، فبدأوا بتزوير التاريخ وتحريفه وإحياء النعرات القبلية، عملا بقاعدة " فرق تسود"، هذه النعرات التي قضى عليها الإسلام ودفنتها الطرق الصوفية التي عمت أرجاء الوطن، كانت كلمة الفصل فيها لمشايخها قلنا إلى جانب علماء التاريخ علماء الأنطروبولوجيا الذين قالوا عن المجتمع الجزائري إنه مكون من "موزاييك "وأشتات متنافرة وغير متجانسة ليست من أصل واحد..؟!

أما رجال القانون فكان لهم الدور الكبير في تحطيم البنية التحتية الاجتماعية للشعب الجزائري وتكسير العلاقات التي كانت سائدة بين أفراده، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقانون السيناتوس كنسيليت الصادر في 22أبريل1863والذي أنشئ بموجبه نظام الدوار كان له دور كبير في تشتيت القبائل ووضعها تحت المراقبة المباشرة.

ونظرا لضيق المجال نكتفي بهذه الإشارة المتواضعة، ونرجع إلى الجانب العلمي والثقافي وإلى اللغة العربية وما أصابها من مآسي أثناء الحقبة الاستدمارية.

موقف فرنسا من التعليم بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة:

أول موقف قامت به سلطة الاستدمار هو الاستيلاء على أملاك الوقف، فقد أصدر الجنرال "دوبورمون" القرارين المذكورين سابقا الأول في سبتمبر والثاني في ديسمبر 1830م كان مضمونهما ينص على حق التصرف في الأملاك الوقفية بالتأجير والكراء والتحويل..إلخ.

لماذا كان حرصهم من البداية الاستحواد على أملاك الوقف، يقول أحد الكتاب المعمرين عن الوقف: "إنه يشكل أحد العوائق التي تحول دون التحويلات الكبرى، التي هي وحدها القادرة على تطور هذا الإقليم الذي أخضعته أسلحتنا وتحويله إلى مستعمرة حقيقة".

قدرت مدا خيل هذا الوقف سنة 1842م من طرف المدير المالي للإدارة الاستدمارية، بما قيمته 903616.98 من الفرنكات، ولم يكن هذا المبلغ يكفي فقط لسد حاجات التعليم في جميع مراحله في هذه الفترة، بل كان يكفي لسد حاجات المجتمع بكامله كما وضحت ذلك سابقا.

ثم شرعت السلطات الاستدمارية، في استبدال التعليم العربي بالتعليم الفرنسي، واللغة العربية باللغة الفرنسية، والتاريخ العربي الإسلامي بالتاريخ الفرنسي، وأننا ننحدر من جنس يسمى" ليغولوا ؟؟" واحتلت المدرسة الفرنسية مكان المدرسة العربية، بعد غلقها وهدمها وتركت الناجي منها تحت رحمة المضايقات والاعتداءات المختلفة والقرارات المجحفة، منها اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية، يجب إبعادها عن الميادين الحيوية لها. ومن أهم هذه القرارات، ذلك القرار الصادر في 1904/12/24م يمنع هذا القرار فتح أي مدرسة إلا بترخيص من عامل العمالة (الوالي حاليا) كما ينص في نفس الوقت على سحب هذه الرخصة

من كل شخص لا يحترم الشروط التي ينص عليها هذا القرار خاصة تلك التي تمنع معلم القرآن من التعرض إلى شرح وتفسير الآيات القرآنية التي تدعو إلى الجهاد.

بعد هذا جاءت المدرسة الفرنسية كوسيلة ناجعة، تقوم بعملية المسخ والتمسيح، وفي النهاية القضاء على الشخصية الوطنية تدريجيا وضعوا مخططا تربويا يتناسب والأهداف البعيدة للاستدمار وإذا وقع خلاف بين المعمرين في قضية تعليم "الأهالي" كما يسمونهم، فالهدف واحد، هو استغلال الفرد الجزائري كل حسب طريقته وفلسفته في الحياة، فريق أراده أن يكون أميا يسهل استغلاله في المزارع وغيرها،وأراده فريق آخر أن يكون فردا طيعا مجردا من كل مقوماته الوطنية، يستغل جسديا وعقليا، بعد تطعيمه بعادات جديدة في التفكير والذوق والسلوك يقول أحد العلماء البارعين في هذا المجال. وهو جورج هاردي" : " إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية، في مستعمراتنا وجعلها أكثر ولاء وأخلص في خدمتنا لمشاعرنا، هو أننا نقوم بتنشئة أبناء "الأهالي"منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود وباختصار، هو أن نفتح بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسب ما نريده.." (أنظر كتاب" أحمد طالب الإبراهيمي من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية).

هذه هي الفلسفة التعليمية التي انطلق منها الاستعمار وبنى أسس التعليم عليها في الجزائر، غير أن المعمرين أرباب الأرض لم يرضوا أبدا بتعليم أبناء المواطنين، نادوا بهذا في مؤتمرهم المنعقد بتاريخ 29 مارس 1909م، مجمل ما جاء في هذا النداء أن تعليم "الأهالي" سيؤدي إلى خطر محقق: سواء من الناحية الاقتصادية، أم من ناحية التعمير الفرنسي، عبروا في هذا النداء على أن الرغبة الكبيرة لديهم هو إلغاء هذا النوع من التعليم. (أنظر كتاب د.تركي رابح المذكور سابقا ص 131). طبعا التعليم الذي ينادون بإلغائه هو التعليم الموجود في المدرسة الفرنسية، لأن التعليم العربي غير وارد عندهم.

من المتحمسين للتعليم الفرنسي لأبناء الجزائر هو مدير مدرسة المعلمين ببوزريعة، حيث رد على هؤلاء الرافضين لتعليم أبناء الجزائريين، شارحا لهم الأهداف التي ترمي إليها فرنسا من هذا التعليم، قائلا إن نشر التعليم في القبائل هو في مصلحة فرنسا وحدها..إنه من الأهمية بمكان أن يثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا بتلقين دروسا تتناسب مع أعمارهم عن عظمة فرنسا وجيشها وثورتها، وليس من الشك في أن مركزنا أقوى تدعيما لو استطعنا أن ندع الأهالي يفكرون من تلقاء أنفسهم وبمحض إرادتهم، ويقولون فيما بينهم، ألا ما أقوى وأكرم الفرنسيين، إن أحسن ما نود أن يكون عليه أساتذتنا.

إن المدرسة" الأهلية" في شكلها الراهن، ليست أداة تجديد خلقي وحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان، وستخلق من رعايانا عضدا مفيدا جدا وساعدا قويا لفرنسا"

وفعلا كونوا طوابير من هذا النوع أصبحوا نقمة على وطنهم عبر مراحل تطور المجتمع الجزائري إلى يومنا هذا، نصبوا العداء لمقوماتهم وثوابت أمتهم،رفضوا التاريخ الوطني وتآمروا عليه – والظلم من دوي القربى أدهى وأمر.

أدخلوه كمادة في الدراسة، غير معنية بالامتحانات، وغير مسقطة بل مادة اختيارية في بعض الحالات سواء تلقاها التلميذ أم لم يتلقاها، نصبوا العداء قاوموها ومازالوا يقاومونها، مثل ما قاومها أسيادهم، شككوا أفراد الشعب في كل قضية وطنية قاموا بعملية تقزيم لأمجاد هذا الوطن قديما وحديثا، فالحملة التي شنت ضد رموز الثورة ليست ببعيدة عنا.

وبصفة مختصرة فإن التعليم في العهد الاستدماري: تعليم خاص بأبناء المعمرين يتطابق عليه مع ما هو موجود بفرنسا يتوفر على كل الإمكانيات اللازمة، وتعليم خاص بأبناء "الأهالي" لا تستفيد منه إلا الأقلية القليلة، كان أغلبه في الحواضر أما البوادي والأرياف فقد كان قليلا جدا.

ولم يكن رفض إنشاء المدارس الفرنسية من قبل المعمرين فقط خاصة في الأرياف، فقد رفضه أفراد الشعب لما عرفوا خطورته وأدركوا –أحسن منا– أهداف فرنسا من وراء تعليم أبنائهم وقد عشت أنا شخصيا حادثة من هذا النوع عندما عرض مشروع إنشاء مدرسة فرنسية على أهل دوار في بادئ الأمر وخوفا من قبول الرجال هذا المشروع قامت النساء وأقسمن أن بنيت هذه المدرسة، سيحملن الفؤوس والمعاويل ويذهبن لهدمها، لأن المدرسة الفرنسية في نظرهم ونظرهن، هي حاملة للكفر لا غير ولا تزال صورة أمي رحمها الله ماثلة أمام عيني وهي ترغي وتزبد رافضة الرفض القاطع لهذه المدرسة وأن أبناءها لن يدخلوها.

وبصفة مختصرة فإن التعليم في الفترة الاستدمارية لم يبلغ مداه ولم يحقق أهدافه كاملة، إذا أخذنا سنة 1944 وبعد مرور أكثر من قرن على الاستدمار كان عدد التلاميذ بالنسبة لأبناء الجزائر لا يتجاوز 13000 بنسبة 8 %. وفي الحقيقة إن نسبة الأمية 1948 بلغت 96% بين الرجال 99% بين النساء.

حاول الجنرال دوقول عندما جاء لإنقاذ فرنسا من الثورة الجزائرية، جاء ومعه مخططه الشهير والمسمى بمشروع قسنطينة وذلك سنة 1958م ظنا منه إن نشط المدرسة ستقضي على الثورة، وتقوم بعزل الشعب عن المجاهدين، جاء هذا المخطط بعد أن وضع الشعب الجزائري بكامله في السجن، حدود الجزائر شرقا وغربا محاطة بالأسلاك الشائكة أحياء بالمدن محاطة بنفس الأسلاك القصبة بالعاصمة كمثال، سجون ومعتقلات، محتشدات وتجمعات. وقد بلغ عدد الأفراد الذين ضمتهم هذه المحتشدات فقط

سنة 1961م 4766 محتشدا عدد الأفراد الذين ضمتهم هذه المحتشدات بلغ 3.826.647 نسمة معنى هذا أنها ضمت كل سكان الأرياف آنذاك.

نرجع الآن إلى اللغة العربية وما جرى لها، فإذا أدخلت إلى المدرسة الفرنسية كمادة بالنسبة لأبناء الجزائريين، فمعاملتها بالمدرسة كانت كلغة أجنبية، وليست وطنية، علموها بالحرف اللاتيني عن طريق المبشرين والآباء البيض، علموها كلغة دارجة وهذا لتساعد من عقد العزم على تشتيت الجزائر إلى طوائف وأقليات، وبهذا قاوموا اللغة العربية الفصحى بكل ما لديهم من قوى ووسائل لأنهم يدركون أهمية اللغة الوطنية في بناء الأفراد ووحدة الشعوب.

قال العلماء المختصون في معرفة دور اللغة بأنها الشخصية وهي الهوية، بل هي صورة وجود الشعوب والأهم بأفكارها ومعانيها.. وجودا متميزا قائما بخصائصه، قال جمال الدين الأفغاني:" لا جامع لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم .."

وتكمن أهمية اللغة العربية في كونها لغة القرآن، ولغة تأدية الشعائر الدينية، ولعل هذا ما أدى ببعض العلماء إلى إصدار فتوى بوجوب تعلم اللغة العربية، لأن فهم القرآن فهما عميقا وصحيحا والوقوف على السنة النبوية وقوفا سليما وبالتالي معرفة الإسلام على حقيقته مرتبط بمعرفة اللغة العربية الخالدة خلود الرسالة المحمدية "إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظ ون" (سورة الحجرات: 9) .

قال أحد المفكرين... من الصعب جد؛ إن لم يكن من المستحيل أن تتحد أمة من الأمم..

وأن تقوى بدون ارتكاز إلى لغة موحدة تجمع بين قلوب أبناء الأمة، وتوحد بين مشاعرهم وعواطفهم ومن ثم تقودهم يد واحدة وقلب واحد ، إلى آمالهم وأهدافهم، وما ذلك إلا لأن اللغة الموحدة تمثل نوعا من التماثل في الرأي والفكر، وضربا من التشابه في السلوك وأساليب العيش.

ولا يسعنا نحن هنا إلا أن نشبه اللغة بالدورة الدموية التي تجعل الانسجام بين أعضاء الجسم، فاللغة هي التي تعمل على تنمية العواطف والمشاعر المشتركة بين أفراد المجتمع، مع صياغة الأفكار والمواقف المتوافقة وبالتالي انسجام أفكار الأفراد مع أنفسهم ومع الآخرين.

فلا غرابة إذا كانت اللغة العربية في الجزائر وإلى يومنا هذا هي الهدف الأول للاستدمار وأتباعه فهو أي الاستدمار.. لم يخلف في الجزائر أفرادا كانوا عضدا مساعدا له فقط كما نتصور، بل كون طابورا منسلخا عن قومه، ممسوخا في أفكاره وتصرفاته، أصبح ينوب عنه في جميع الحالات منفذا لكل عملية أو مؤامرة فشل فيها هو في الماضي، بل هذا الطابور يقوم بإجهاض كل محاولة جادة في إحلال العربية مكانها الشرعي في البلاد.

حارب أفراد هذا الطابور مقومات هذا الشعب وعملوا على زرع الشك في نفوس أفراده، في ثوابتهم وفي أبطالهم عبر تاريخ المقاومة والجهاد، ومازالت الحملات التي وقعت في السنوات الأخيرة والتي كان هدفها تقزيم الثورة وأبطالها ماثلة للعبان. حاول بعضهم نكران الثورة وأنها كانت خطأ جائرا تعتمد على الظلم والإجرام..

وإذا رجعنا إلى ثبات هذه اللغة لغة القرآن، فالفضل أولا وأخيرا يرجع إلى المولى عز وجل الذي ربطها بكتابه الكريم الذي قال عنه: "إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

ثانيا يرجع الفضل كذلك إلى صمود مشايخ الطرق الصوفية بمراكزها الثقافية وعلى رأسها الزوايا رغم المضايقات التي تعرضت لها هذه المراكز، وخاصة بعد أن تيقن المستدمر بأن الثورات المختلفة، كان وراءها رجال الدين فصب عليها جام غضبه جردها من ممتلكاتها ، سلط عليها إرسالياته التبشيرية ورجال المكاتب العربية وأعوانهم، عرض رجالها إلى التقتيل والنفي والسجون وما مثال الشيخ الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الذي رمي به في سجن قسنطينة ثم حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات فمات بعد خمسة أيام من إصدار الحكم على سن تجاوزت التسعين سنة إلا دليلا على ظلم هؤلاء.

قلت سلطت فرنسا على هذه المراكز إرسالياتها محاولة تحويل هذه المراكز إلى مراكز دروشة تعشعش فيها الخرافات كطريق لزرع الشرك في العقيدة الإسلامية، وفد نجحت إلى حد ما في استمالة بعض الضعفاء غير أن الأغلبية منها بقيت صامدة تعلم مبادئ اللغة والدين والفقه والتوحيد أينما كانت في جميع أرجاء الوطن شرقا وغربا شمالا وجنوبا، جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رائدة الإصلاح جاعلة شعارها: الإسلام ديننا والعربية لغتها والجزائر وطننا"، فانضم إليها رواد الإصلاح في كل مكان بما فيها رواد النهضة بمنطقة الميزاب على رأسهم العلامة الشيخ بيوض رحمه الله.

انتشرت مدارسها والتي تجاوزت(600) الست مائة مدرسة زائد نواديها المختلفة والمتنوعة فكان عمل رجالاتها الذين أخلصوا لهذا الدين وهذا الوطن وهذه اللغة الدرع الواقي لأبناء الشعب الجزائري واستعادة اللغة العربية بعض مواقعها الحيوية التي فقدتها في ميدان العلم وغيره.

وإلى جانب مدارس جمعية العلماء مدارس الحركة الوطنية، وإن كانت لم تبلغ مستوى تلك المدارس التي كانت تشرف عليها الجمعية نظرا لاشتغال الحركة بالسياسة بالدرجة الأولى وقد دعمت المدرسة في الميدان بالحركة الكشفية وسواء كانت تلك التي تميل إلى جمعية العلماء أم إلى الحركة الوطنية، فعملها الميداني أعاد حب العربية وحرارتها في النفوس والعقول.

وأملنا في الأخير من المولى عز وجل أن يعيد لهذه اللغة انبعاثها لتقوم بما قامت به في الماضي وأن يلهم مسيري هذه الأمة الفطنة واليقظة ليدركوا وليعوا وليكونوا على بصيرة بأن هذا العالم قد انعدمت فيه الحدود وتقلصت فيه المسافات وعظمت فيه المؤامرات.

والله المستعان وإليه المصير

تحية إكبار لثورة نوفمبر في عيدها الخمسين

أ. عبد القادر رزيق المخادمي

قلّب صفحات التاريخ. جيلا بعد جيل. وقف عند كل ثورة من ثورات التحرير الكبرى. يستوي في ذلك أن تكون ثورة شعب يستردّ بها حقّه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغيّة فرض عليه أو من جيش معتد أقام، أو كانت ثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة الاجتماعية لأبناء الوطن الواحد، فإنك بلا جهد ستجد أن كل شعب قام بثورة من تلك الثورات نجحت أم انتكست قام من أجل نفسه وفي الإطار الجغرافي لوطنه، لم يفكّر الثوار في ثوراتهم إلا في شعوبهم ولم تفكّر تلك الشعوب إلا في نفسها وفي وطنها، لم تشذّ ثورة من تلك الثورات عن هذا السلوك.

فالثورة الإنجليزية التي قامت بزعامة **(أو ليفر كر ومل)** في سنة (1642م) ضد طغيان شارل الأول بعد رفضه عريضة البرلمان المسماة **(التماس الحقوق)** التي تضمّنت مطالبته بالكفّ عن فرض الضرائب بغير موافقة البرلمان، وعن سجن الناس بغير مبرّر من القانون، لم تفكر بعد نجاحها في حاجة غيرها من الشعوب إلى تلك الحقوق بل حاربتها بضراوة واستعمرتها، وامتصّت ثرواتها محزومة بدم وعرق أفرادها الكادحين.

والثورة الأمريكية التي قامت بزعامة **(جورج واشنطن)** في وجه الاستعمار البريطاني كان اللواء الذي سار الشعب من خلفه لملاقاة المستعمرين هو **(إعلان الاستقلال)** الذي قرّر المساواة بين الناس، وبالرغم من نجاح تلك الثورة بوضع الحرب أوزارها سنة (1772م) فلا يزال الشعب الأمريكي يعاني من التفرقة العنصرية في بلاده، ويمارس في خارجها أنواع الضغط السياسي على صور شتى، في شكل تكتلات عسكرية، واستعمار سياسي أو اقتصادي كما هو الحال في أمريكا اللاتينية وجهات أخرى متفرقة من العالم.

وهاهي شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، التي اكتوت بنار جلاديها من مستغلين ومستعمرين أجانب في العقود العشرة الماضية تعيش اليوم أوضاعا مزرية نتيجة الحال التي آل إليها العالم في ظل ما يسمى **النظام العالمي الجديد**، وتسويق **مشروع الشرق الأوسط الكبير**، الأمر الذي أدّى إلى التزايد الملحوظ في حدة المشكلات العابرة مثل مشكلة المخدرات، وجرائم تبييض الأموال، والهجرة غير المشروعة، والتطرف والعنف، والإرهاب الدولي، وتلوث البيئة، والأمراض الفتاكة، بفعل المتغيرات الدولية الدراماتيكية التي يشهدها العالم.

والثورة الفرنسية التي انطلقت شرارتها في 14يوليو سنة (1789م) تحت شعار "**الحرية والإخاء والمساواة**"، والتي انتهت في سنة (1793م) بقطع رأس ملكها لويس السادس عشر الذي كان الشعب يعتبره سبب نكبته، وتحوّلت الثورة إلى حرب أهلية، لم تحترم فيها حرية، ولم يبق معها إخاء، وتنافرت معها فكرة المساواة وظهرت خارج حدودها دولة غازية متعطشة إلى دماء الشعوب المسالمة سواء بالنسبة إلى جيرانها في أوروبا أم بالنسبة للشعوب الوديعة الطيبة مثل الجزائر وغيرها من البلدان في إفريقيا وآسيا، والكلام يطول لو استعرضنا مدّ محافظة الثورات الأخرى على المثل الأخلاقية، إلا أني أقول، بدون تردّد، أنّ كل تلك الثورات سواء منها ما حافظ على مبادئه داخل بلاده أم من خرج عليها في داخلها، لم تفكر في تلك المبادئ عند معاملتها للشعوب الأخرى. وهذا سلوك غير حضاري وغير سوي، ذلك أن المثاليّة لا تفرّق بين فرد وفرد أو بين شعب وشعب لأن المبادئ بمعناها الخلقي كالديانات كلّها خير وكلّها تدعو إلى الخير والمحبّة والسلام...

وحسبنا في هذا الصدد مثالية ثورتنا ومبادئها التي بعدت عن الأنانية فكان هذا من أسباب امتدادها إلى العالم، وحذو دول كثيرة حذوها في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

عندما تحتفل الجزائر بالذكرى الخمسين لاندلاع الثورة التحريرية، فإن هذه الذكرى العزيزة تضع أمام العيون عددا من الحقائق الهامة وفي مستهلها أن هذا الاستقلال لم يكن بحال من الأحوال هدية مجانية منحتها فرنسا للجزائر بل لقد كان استقلال البلاد ثمرة لكفاح طويل قام به الشعب الجزائري جيلا بعد جيل، فقد بذلت الجزائر من خيرة أبنائها ثمنا كبيرا حتى تحقق هدفها العزيز وهو الاستقلال والحرية.

هذه الحقيقة الواضحة نذكر بها الأذهان، وحتى تكون ظاهرة في سطور التاريخ وصفحاته المختلفة، ذلك أن المقاومة الجزائرية الطويلة للاحتلال العسكري الفرنسي ولمحاولات الإدماج المعنوي، والديني، والثقافي، والاقتصادي، والسياسي، تمثل العنصر العميق للثورة الجزائرية، وما كانت الجزائر تستطيع بذل الجهد الكبير في سبيل الوصول إلى مصاف الشعوب التي تستحق الحرية والاستقلال.

وأمام فشل الوسائل العسكرية الضخمة للفرنسيين في إخماد ثورة نوفمبر التي سمعها الرأي العام العالمي عن طريق المكاتب التي أنشئت في الخارج وأسمع صوت الجزائر في مختلف المحافل الدولية سياسية كانت أو نقابية، وبالتالي،لقي كفاح الشعب الجزائري تأييدا عاما، وفي مقدمتها الدول العربية، ومن طرف البلاد الآفرو- آسيوية، وبلدان أمريكا اللاتينية، وحتى في بعض البلدان الغربية المحبة للسلام في العالم، بحيث أصبح الرأي العام العالمي يعيش القضية الجزائرية، ونتيجة الفشل الذريع للاستعمار الفرنسي، قامت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بحملة إعلامية في المحافل الدولية وفرض حق تقرير المصير الذي اعترفت به الأمم المتحدة لشعبنا، وبعد مفاوضات ايفيان الشاقة، تم الاتفاق حول وقف القتال.

في الأول من يونيو سنة (1962) صوّت الجزائريون بالإجماع لصالح الاستقلال وتحقق الهدف السياسي الأول لحرب التحرير واستقلت الجزائر.

والتردّي حيث ورثت عن الاستعمار معالم كثيرة للتخلف وأهمها التدهور الاقتصادي حيث لم تكن لدى الثورة الإطارات الإدارية الجاهزة لتسلم البلاد. وتفاقمت المشكلة عندما تشققت إطارات الثورة في فترة الصراع على السلطة وتجمع بعض مراكز القوى.

في تلك الفترة، أي قبل حركة التصحيح في19يونيو سنة (1965) خرجت جماعات الاستقلال من ملابسها وقفزت إلى مواقع الثورة بعد توقف الثورة، وكانت الجزائر في بداية الاستقلال بلادا محطمة، وكان شعبها مشردا،واقتصادها منهارا، وإدراتها غريبة بلغتها وتفكيرها وتدريبها مع متطلبات الدول النامية، خصوصا إذا كانت دولة في بداية نموها.

وكان على القيادة السياسية- آنذاك- أن تتجنّد، وبدون تأخير، حسب مجموعة من الأولويات وعلى رأسها الاستقلال الاقتصادي تدعمه وتحميه من الضغوط الخارجية، وفعلا أولت القيادة اهتماما واسعا لتحقيق استقلال البلاد عن طريق الثورات الثلاث: الثورة الصناعية، والثورة الثقافية، والثورة الزراعية، واستطاعت بلادنا في فترة قياسية أن تبرهن على إرادة تنظيمية هائلة، ودفعت البلاد نحو تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية لتشييد الوطن، وتقوية الاستقلال الاقتصادي بعمل دائب ومتواصل كخطوات حاسمة في طريق التنمية الشاملة، واتجهت نحو توسيع وتعميم الديموقراطية في جميع المستويات، وفي كافة القطاعات.

وأهم ما ميّز خمسين سنة من اندلاع تلك الثورة التي غيرت –بكل المقاييس– مجرى التاريخ هو بناء المؤسسات والأجهزة الديمقراطية الملائمة للمناخ العام، بفعل بهجة الحوار الديمقراطي، ومتعة المناقشة الحرة، وهي استعادة للذات التي افتقدت، لسنوات طويلة في ظل حكم الفرد الواحد، والرأي الواحد.

وبالتالي، فإن القفزة التي شكلتها الانتخابات الرئاسية في 16أبريل سنة1999م، وما أثمرت من السعي لاستكمال المصالحة الوطنية قصد ترسيخ استقرار البلاد، وبالتالي، تحرير الجزائر من كل مظاهر العنف، ومن عودة قوية للجزائر في المحافل الدبلوماسية، ثم الانتخابات الرئاسية في 8أبريل سنة2004م والتي فاز فيها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة كانت مؤشرا بارزا ومميزا يسجل قفزة نوعية في مسيرة الديمقراطية في بلادنا، خاصة الاستحقاق الرئاسي الأخير، الذي تم في ظروف تبعث على الفخر والإعجاب، لأنها ببساطة مرت بالأصول السياسية المعمول بها في أرقى الأنظمة الديمقراطية في العالم.

لقد قطعت بلادنا أشواطا هامة في طريق التنمية بفضل التوجيهات المحددة من طرف القيادة السياسية والنتائج التي توصلنا إليها أدت إلى أن تلعب بلادنا دورا هاما في المجال الدولي ولم تنعزل عن العالم وتقدمنا الصفوف، وبرزت لنا شخصية دولية اتسمت بعدم الانحسار، والحياد الإيجابي وتبعتنا في هذا السبيل دول كثيرة فأصبحنا قوة لا يستهان بها في قضايا الحق والسلام، وأصبحت الجزائر نموذجا للدولة التي يتجاوز تأثيرها في علاقاتها العربية والإسلامية والدولية، وإذا كان نجاح أي دولة يعود لجملة من العوامل فبالنسبة للجزائر يعود بالدرجة الأولى إلى وضوح الرؤية لدى القيادة السياسية الحالية في بلادنا، التي جعلت من الجزائر وسياستها مثالا للالتزام، ونموذجا للرصانة السياسية في القضايا الدولية والإسلامية التي يحترمها الأصدقاء والأعداء على السواء.

وفي ميدان التعليم وإدراكا لأهميته كوسيلة نحو النهوض وتحقيق الغايات المنشودة، حققت بلادنا تحت راية الاستقلال التي ظفرت به بلادنا الحبيبة منذ خمسين سنة إنجازات هائلة في مدة وجيزة سواء من حيث الكم أم الكيف، وعلى كافة الأصعدة والجوانب المتعلقة بعملية التعليم مثلا: ازدياد العدد الإجمالي للطلاب، وكذلك ازدياد عدد المتخرجين في كل المراحل التعليمية، وأيضا ازدياد عدد المباني المدرسية والثانوية والجامعية إلى غير ذلك من الدعائم التربوية والتعليمية الهامة.

وفي ميدان الصحة، ورغم التوزيع الجغرافي غير المتساوي للموظفين وللهياكل القاعدية، وعدم التطبيق الكامل لقانون الصحة العامة وعلى الرغم من كثرة النقائص يمكننا القول دون مواربة بأن الحالة الصحية للسكان قد تحسنت كثيرا خلال تلك المدة بفضل تطبيق سياسة الطب المجاني وبفضل التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وغيرها من الميادين.

وإذا كانت الدولة قد حققت نتائج عملاقة جعلت من الجزائر بلدا طلائعيا فعلى القوى الحيّة اليوم من عمّال وفلاّحين وشبيبة ونساء وجنود أن تتجنّد أكثر لدعم الخط السياسي المتمثل في مرحلة ما بعد الاستحقاق الرئاسي الأخير، واليقظة أمام تحديات العصر الذي نعيشه من جهة، وأخرى لمواجهة المناورات الخارجية المعادية لتجربتنا الديمقراطية التي تستحق كل إعجاب وتقدير.

إن أفضل عزاء لنا في هذه الذكرى المجيدة هو الوفاء لأولئك الشهداء، الذين تركوا لنا ما نفتخر به الآن...لقد تركوا لنا العزة والكرامة والإباء، ودروسا في البطولة نهتدي بها..فاستقلالنا الذي ننعم به الآن هو ثمرة كفاح أجيال طويلة دفع ثمنها الآباء والأجداد دماءهم وناضلوا طويلا من أجل الحصول على الحريّة والاستقلال، وكافحوا كفاح الأبطال ولم يبخلوا بغال أو نفيس في سبيل عزّتهم وكرامتهم واستقلال بلادهم.

وإلى الأمام مع مسيرة الاستقلال لتحقيق كل الآمال المعقودة على الجزائر بإمكانياتها الكبيرة وأصالتها وصدق انتمائها للعروبة والإسلام وحرص شعبها وقيادتها على النهضة والمشاركة في كل ما يحقق طموح العرب والمسلمين جميعا من الخير والتقدم والسلام، وأخيرا .. لا آخرا فإنّ خمسين سنة مرت على انطلاق الثورة المظفّرة، بكل ما حفلت به من منجزات، وبكل ما اشتملت عليه من تحديات كانت كافية لبناء دولة الاستقلال، وبرهانا ساطعا على قدرة ثورتنا على شقّ طريقها نحو مزيد من التقدّم والرّخاء والازدهار.

إطلالة على التراث الفكري العربي الإسلامي
في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء

د. محمد عيسى وموسى

رئيس مؤسسة مفدي زكرياء

المستخلص:

مساهمة إلياذة الجزائر في تخليد تراث الجزائر، ومسح الموضوع فيها بعينة وصلت إلى سبعين بيتا، وهي مساحة واسعة تمكن مفدي زكرياء من الافصاح عن رأيه في التراث الإسلامي العربي في الجزائر، وفي المعالم التي استوحى منها مواقفه. في صدارة الموضوع القرآن والأصالة، وفي محوره التراث ومقاومة رجاله، وفي مؤخرته فضاء للشاعر يناجي الله والوطن.

إن هذا الموضوع في جوهره استماع لحديث الشاعر، يساهم بقراءة أشعاره بنفسه في هذا العدد الخاص من المجلة، يعود بنا إلى سنوات خلت، كان الصراع فيها على أشده، وكان الشاعر طرفا في النزاع، تولى بشراسة الدفاع عن اللغة العربية، رغم الظلم والاستبداد، بأسلوب قوي ولغة سليمة، تقدم الدليل والبرهان على ما بلغته اللغة العربية من رقي، في وقت كان فيه الاستعمار يبشر بوفاتها ويفخر بوأدها.

إن مفدي الأمس لهو الدليل على صمود اللغة وشموخها، جادت به الجزائر في وقت العسر، وإنها لقادرة على إنجاب مفدي اليوم في وقت اليسر.

يكتشف القارئ الكريم في الإلياذة دون عناء تأثير القرآن الكريم في الشاعر، استمد منه جملة من المعاني والمفاهيم والصور، ويعد القرآن الكريم مصدرا من مصادر الالهام عنده، يعود إليه، يستمد منه

الصور ويستدل بآياته، يضمنها أشعاره فيسبغ عليها من بيان القرآن جلالا، ويزيدها قوة ورونقا، مثال ذلك هذا المشهد للصحراء الجزائرية مصدر الوحي والإلهام:

172– هُنَا ... مَهْبِطُ الْوَحْيِ لِلْكَائِنَا تِ، حِيَالَ النَّخِيلِ... وَبَيْنَ الرِّمَالِ[1]

ويمعن في توظيف الصحراء، وتلح عليه الصورة ليعبر بها عما تحويه من ثروات مادية وعلمية، فيعود إلى القرآن يستمد منه الدليل والحجة على عظمة الجزائر وسموها:

179– وَأَخْرَجَتِ ٱلأَرْضُ أَثْقَالَهَا فَطَارَ بِهَا الْعِلْمُ... فَوْقَ الْخَيَالِ..!

إن عزة المواطن وكرامته تسمو حين يصبح عنده الانتساب إلى الوطن مبعث فخره والغاية التي يصبو إليها في حياته، يعتز بمفاخر أجداده ويتمسك بأصالته:

163– وَفَخْرَ الْجَزَائِرِ، فِيكِ تَنَاهَتْ مَكَارِمُ عُرْبٍ، وَأَمْجَادُ فُرْسِ

164– وَأَحْفَادَ أَوَّلَ مَنْ رَكَّزُوا سِيَادَةَ أَرْضِ الْجَزَائِرِ أَمْسِ

166– وَعِرْقُ الأَصَالَةِ طَهَّرَ طَبْعِي وَنُورُ الْهِدَايَةِ أَذْهَبَ رِجْسِي

ومن أجل التزود من ذلك النبع وجه نداء إلى بنات الجزائر، يدعوهن إلى المحافظة على الأصالة والاعتداد بالنفس، اقتداء ببنات جنسها المجاهدات، اللائي دافعن عن شرف الوطن وقاومن المستعمر، من عهد لالا فاطمة نسومر إلى حسيبة بن بوعلي ورفيقاتها:

886– وَنَادَاكِ شَعْبُكِ يَوْمَ التَّنَا دِي، فَشَرَّفْتِ ثَوْرَتَهُ وَنِضَالَهْ

---

(1) يوجد مع بداية كل بيت في هذا العرض رقمه الترتيبي في الإلياذة الذي أضيف إلى الطبعة الجديدة الخاصة بالذكرى الخمسين للثورة المجيدة 1954–2004. يغني الرقم عن وضع الهوامش، وعند الحاجة يرجع القارئ الكريم إلى البيت في موضعه حسب الترقيم الترتيبي من البيت الأول إلى البيت الأخير رقم (1001).

ثم خص الشباب بنداء مماثل، دعاه إلى التزود من مناهل الاسلام والاعتزاز بأجداده وأمجاده، ورفض الانصياع لأساليب الإغراء، والابتعاد عن الأفكار الوافدة من جهة اليمين، أو جهة اليسار على السواء:

904- وَلَمْ يَتَنَكَّرْ لأَمْجَادِهِ وَأَجْدَادِهِ الْخَالِدِينَ الْعِظَام

جادت بهم تلمسان التاريخ وتلمسان الجمال وتلمسان السلام وتلمسان العلم وتلمسان الخلد وتلمسان ربع الندى والحسب، وتلمسان مغنى الأدب وتلمسان عروس الدنا، وتلمسان حلم الليالي وتلمسان سلوى المحب، وتلمسان الحسن، وتلمسان معبد الحب.

استوقفت الشاعر عظمة المدينة بأمجادها وتاريخها، عدد مناقبها، استرجع ماضيها وذكر الذين خلدوا ذكرها وصنعوا مجدها، ورجع بذاكرته إلى الماضي البعيد، فاستوقفته أسماء عظيمة تركت آثارها في المدينة، ومواقع لازالت شاهدة على أصحابها:

149- وَفِي مَشْوَرِ الْمَجْدِ أَذَّنَ مُوسَى وَخَلَّدَ زَيَّانُ مَجْدَ الْعَرَب

150- وَنَافَحَ فِرْدَوْسَكِ ابْنُ خَمِيسٍ وَيَحْيى ابنُ خَلْدُونَ فِيكِ الْتَهَب

استطاع أن يحمِّل البيتين ما تضيق بذكره أسفار، فالمشور وأبو حمو موسى ويغمراسن بن زيان والشاعر ابن خميس ويحيى ابن خلدون، كلها دلالات على ماضي تلمسان المجيد وعظمتها التي أبهرت الشاعر، فأعجب بها، ووقع في حبها:

146- تِلِمْسَانُ، أَنْتِ عَرُوسُ الدُّنَا وَحُلْمُ اللَّيَالِي، وَسَلْوَى الْمُحِب

147- بِحُسْنِكِ، هَامَ أَبُو مَدْيَنٍ وَفِي مَعْبَدِ الْحُبِّ شَادَ الْقِبَب

إن الشاعر مفدي زكرياء كثير التعلق بوحدة المغرب العربي، ظل يدعو إليها ويلح في الدعوة، على أنها مرحلة في مسيرة الوحدة الكبرى التي تستمد مقوماتها الروحية من الإسلام الذي وحد المسلمين بالأمس، فكان أولى به أن يوحدهم اليوم وغدا:

733- هُوَ الْمَغْرِبُ الأَكْبَرُ الْمُسْتَمِدُّ رِسَالاَتِهِ مِنْ رَسُولِ الْـهُدَى

734- وَوَحَدَةُ مَغْرِبِنَا الْيَوْمَ خَطْوٌ إِلَى وَحَدَةِ الْمُسْلِمِينَ غَدَا

ولذلك أشاد مفدي بالصفحات التاريخية التي خلدت وحدة الجزائر في كثير من مراحلها، فانتجت في ظل الوحدة أدباء وعلماء وشعراء كبارا، أمثال ابن هاني الملقب بمتنبي المغرب، والمؤرخ محمد بن الحسين الطبني في عهد الأغالبة والفاطميين وغيرهما كثيرين:

262- وَطُبْنَةَ... هَلْ تَذْكُر ابْنَ الحُسَيْنِ التَّمِيمِي وَتَارِيخَهُ الْقُرْطُبِي؟

263- وَعِنْدَ مَسِيلَةَ عِلْمُ الْيَقِينِ، بِمَنْ حَقَّقُوا وِحْدَةَ الْمَغْرِبِ

264- بَرَى الْفَاطِمِيُّونَ، شِعْرَ ابْنَ هَا نِي كَمَا يُخْلَقُ اللَّحْنُ لِلْمُطْرِبِ

وصفوة من العلماء الأعلام في العالم الإسلامي سجلت الإلياذة ذكرهم وكانت تلهم علماء الجزائر العاملين على صيانة أصالتها، ينهلون من معينهم ولا ينكرون فضلهم:

751- أَصَالَةُ هَذِي الْبِلاَدِ الْكَرِيمَة تُجِلُّ كِفَاحَ النُّفُوسِ العَظِيمَة

756- وَفِي الشَّرْقِ، يُبْهِرُنَا عَبْدُهُ فَيَقْفُو رَشِيدُخُطَاهُ الْحَكِيمَة

من هؤلاء علماء في الرياضيات من الجزائر، منهم أبو حمزة الجزائري والأخضري وأبو مروان، ومن العالم الإسلامي محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغاني والتوري السموري وشامل الدغستاني وعمر المختار وسليمان الباروني وشكيب أرسلان وأبو العباس أحمد بن علي وهو عالم وفقيه وشاعر كبير في مليانة في عهد المرينيين:

299- جَرَى، مِثْلَ وَادِيكِ، نَادِيكِ، عِلْمًا فَبَوَّأَ أَحْمَدَ فِيكِ الطَّلِيعَة

وعائشة العمارية شاعرة في عهد دولة الحماديين، وبلارة بنت الشاعر تميم بن المعز بن باديس الفاطمي، وأبو مدين شعيب وعبد الرحمن الثعالبي وعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، والمهدي

بن تومرت والشريف بن عمارة ويوسف بن ابراهيم الوارجلاني وعبد الجبار بن حمديس شاعر بجاية في عهد الحماديين:

307- وَأَعْلَتْ بِجَايَةُ هَامَ الْجَزَائِرِ، عِلْمًا، وَشَادَتْ صُرُوحَ الْهَنَا

والشيخ اطفيش الذي يعد من أبرز علماء الجزائر في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو محمد بن يوسف اطفيش من مدينة بني يزقن مسقط رأس الشاعر مفدي زكرياء، ترك مكتبة ثرية بمؤلفاته قارب عددها الثلاثمائة، تصدى بشدة للاستعمار الفرنسي، وقاومه بعناد وابتلي منه بلاء شديدا:

761-	طُفَيِّشُ سُقْيَاكَ... قُطْبَ الأَيِمَّهْ	وَمَنْ عَاشَ بِالْفِكْرِ، يَصْنَعُ أُمَّة
769-	وَيَدْعُو لِكُلِّ احْتِلَالٍ ثُبُورًا	وَيَضْرَعُ فِي النَّكْبَةِ المُدْلَهِمَّة

عندما حل الشاعر بإلياذته مدينة قسنطينة، انحنى اجلالا لشموخها وعظمتها وهيبتها ومكانتها العلمية المتميزة، أشاد بعدد من علمائها وشيوخها من أمثال، ابن الفكون ومحمد القسنطيني وعبد القادر المجاوي وصالح باي والشيخ عبد الحميد ابن باديس، ولم يغفل حطيئة قسنطينة الشيخ عاشور:

741-	ذَكَرْنَا بِسِرْتَا نُفُوسًا أَبِيَّة	ذَكَرْنَا بِهَا ٱلْأَعْصُرَ الذَّهَبِيَّة
742-	مَعَاهِدَ، تَزْخَرُ عِلْمًا وَفَضْلاً	وَتُلْهِمُ رُوَّادَهَا الْعَبْقَرِيَّه
750-	وَجَاءَ ابْنُ بَادِيسَ، يَغْزُو الظَّلاَ	مَ، وَيُعْلِي الرُّؤُوسَ، وَيُذْكِي الْحَمِيَّه

ونجد الاحساس نفسه والإكبار عندما استوقفته جمعية العلماء، فأطنب في ذكر مناقبها ورجالها، فمن المناقب، تغذية العقول وهداية النفوس الصراط السوي ومحاربة الانحرافات وبناء المدارس ومساندة الحركة الوطنية في اعداد الطريق ليوم الخلاص ومن الرجال، ابن باديس والبشير الابراهيمي والشهيد العربي التبسي:

431-	وَفِي الدَّارِ جَمْعِيَّةُ الْعُلَمَاءِ	تُغَذِّي الْعُقُولَ بِوَحْيِ السَّمَاءِ
560-	عَلَى الْعَرَبِيِّ الشَّهِيدِ، صَلاَةٌ	مُضَرَّجَةٌ بِدِمَاءٍ، وَنُور
440-	كَذَا عَبَّدَ الْعُلَمَاءُ الثَّنَايَا	بِوَحْيِ السَّمَاءِ، وَوَحْيِ الدِّمَاءِ

وخلد الشاعر ملتقى الفكر الإسلامي الذي احتضن الإلياذة واستمع إليها لأول مرة يلقيها الشاعر في دورته السادسة التي انعقد في العاصمة سنة 1972 بمناسبة الذكرى العاشرة لاسترجاع الاستقلال:

921-	وَيَا مُلْتَقَى فِكْرِ إِسْلاَمِنَا	وَمَجْلَى قَدَاسَةِ إِيمَانِنَا

يعتز بعقيدته ويفصح عن مبادئه الثابتة، قوامها شدة إيمانه والتمسك المتين بأصول الثقافة عنده، يأنس إليها ويتزود من معينها:

701-	شَرِبْتُ العَقِيدَةَ، حَتَّى الثُّمَالَةَ	فَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِرَبِّ الْجَلاَلَه

يؤيد هذا ما جاء في المقطوعة التي أفردها للمساجد، ولدورها في تربية النفوس ومقاومة الجهل، والانتصار للأصالة مطلعها:

721-	تَسَامَتْ مَصَادِرُ إِشْعَاعِنَا	تُدَعِّمُ خَالِصَ إِيمَانِنَا...

وللمسجد في كل مجتمع رسالة يصل نورها إلى كل فج عميق:

948-	مَسَاجِدُ لله فِي كُلِّ حَيٍّ	يُبَلِّغُ رَبُّكَ فِيهَا قَرَارَه
949-	مَنَارَاتُ عِلْمٍ بِعرْضِ الْبِلاَدِ	فَفِي كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ مَنَارَة

وإن كان ذلك يزعج من يضايقه الآذان:

932- وَأَزْعَجَ قَوْمًا أَذَانُ الصَّلاَةِ يُجَلْجِلُ فِي الْقِمَمِ الضَّارِعَاتْ

إن الانتماء الإسلامي مكسب أحكم ارتباطنا بالعربية، ولكننا نعتز في الوقت نفسه بنسبنا وبأصولنا وبلغة آبائنا وأجدادنا:

240- إِذَا عَرَّبَ الدِّينُ أَصْلاَبَنَا فَمَا زَالَ أَحْمَدُ صِهْرًا لِعِيسَى!

231- أُولَئِكَ آبَاؤُنَا، مُنْذُ عِيسَى وَكَانَ مُحَمَّدُ صِهْرًا لِعِيسَى

فالأمازيغية منهج أساسه الاعتراف بالفضل لأهله، والوفاء بالعهد ورعاية حقوق الآخرين، وهي المثل العليا التي افتخر الشاعر بها دون التنكر للانتماء العربي:

279- وَنَحْنُ الأَمَازِيغُ نَرْعَى الذِّمَا مَ، وَلاَ نَجْحَدُ الْفَضْلَ وَالآصِرَه!

دليلنا على ذلك الترحيب بمقدم عقبة فاتحا وحاملا رسالة تشيع النور، وتبدد الظلمات وتبسط السلام:

246- وَمَرْحَى لِعُقْبَةَ فِي أَرْضِنَا يُنِيرُ الْحِجَى، وَيُشِيعُ الْيَقِينَا

247- وَيُعْلِي الصَّوَامِعَ، فِي الْقَيْرَوَا نِ وَيَرْفَعُهَا لِلدِّفَاعِ حُصُونَا

وبذلك يعبر الشاعر عن تعلقه بشخصية إسلامية تاريخية عظيمة، حلت بإفريقيا ونشرت في ربوعها العربية والإسلام، وبنت المساجد وحمت البلاد من الطامعين، فعم الأمن واليقين والرضى:

245- فَأَهْلاً وَسَهْلاً بِأَبْنَاءِ عَمٍّ نَزَلْتُمْ جَزَائِرَنَا فَاتِحِينَا

واجه مفدي زكرياء بثبات الحملات المشوهة للتاريخ بدافع من إيمانه القوي. بمقومات أمضى حياته مدافعا عنها، ثم خلدها في الإلياذة تشهد على شدة في التمسك بقضايا مصيرية تعرضت للتشويه، فشككت الأجيال في ماضيها وفي لغتها ودينها، وعمل في سبيل ذلك دون ملل ولا كلل، وحال دون من يرمي إلى إحداث تصدع في كيان الأمة أو يقوم بتهديد تماسكها ووحدتها وأصالتها:

241- وُهِبْنَا الْعُرُوبَةَ جِنْسًا وَدِينًا وَإِنَّا بِمَا قَدْ وُهِبْنَا رَضِينَا
242- إِذَا كَانَ هَذَا يُوَحِّدُ صَفًّا وَيَجْمَعُ شَمْلاً رَفَعْنَا جَبِينَا

وهذا مثال آخر نورده، يبين مدى الاحساس بقضايا المجتمع، ودرجة الغيرة على الوطن والمواطن، يعلن الشاعر فيه عن نفوره من ظاهرة التزوج بالاجنبية، الوافدة الغريبة عن عادات المجتمع، وهي تمعن في ازدراء الجزائري وتهينه، ولذلك رفضها ثم أضاف إلى الرفض الاعتزاز بعروبته وحبه للعربية (اللغة والمرأة):

858- وَإِنْ زَلَّ يَوْمًا، تُنَادِيهِ بِيكُو فَأَحْسَبُ بِيكُو مِنَ الْبَكَوِيَّة !
859- وَتَدْعُو مُسَاعِدَنَا مُونْ أَرَابْ فَأَهْوَى الْعُرُوبَةَ وَالْعَرَبِيَّة!!

فكان يترصد الحملات الفكرية الوافدة، يقارع الحجة بالحجة، ويدعو للنزال من تسول له نفسه ذلك معتمدا على أصالة روافد فكره، رافضا الاستسلام، صارخا محذرا من الخطر، منبها إلى مكامن الدس والمكر، ولكنه يقر بالفضل لذويه إذا خلصت نيتهم، وسلمت أقوالهم وأعمالهم من الشوائب:

771- أَمَانًا، مِنَ الْخَطَرِ الدَّاهِمِ وَمِنْ مِعْوَلٍ قَاصِفٍ هَادِمِ
811- كَمْ انْدَسَّ، بَيْنَ الْمُثَقَّفِ حَرْكِيٌّ! فَأَبْدَلَ فِيهِ الْيَقِينَ بِشَكٍّ!
831- وَمُسْتَشْرِقُونَ، أَحَبُّوا الْجَلاَلاَ وَمُسْتَشْرِقُونَ، أَشَاعُوا الضَّلاَلاَ

ولا يكتمل الموضوع، إذا لم نعرض فيه بايجاز مراحل سجل مقاومة المستعمر في إلياذة الجزائر، ففي مدينة معسكر جرت سنة 1832 وقائع مبايعة الأمير عبد القادر، الشاعر والقائد الشاب، وهو في الرابعة والعشرين من عمره:

358- مُعَسْكَرُ فَجَّرَ عَزْمَ الشَّبَابِ، فَطَاوَلَ عِمْلاَقُهَا الأَنْجُمَا
359- وَبُويِعَ، شَاعِرُهَا الْهَاشِمِيُّ فَكَانَ بِهَا الْقَائِدَ الْمُلْهَمَا
360- يَصُوغُ النِّظَامَ، وَيَبْرِي الْحُسَامَ، فَيَقْطُرُ ذَاكَ، وَهَذَا.. دَمَا

لخص الشاعر في ثلاثة عشر بيتا أعمال ومناقب ومواقف الأمير في لوحة، أبدع رسمها بإيجاز وإعجاز شاعر وُهب القدرة على التصوير والبراعة في الوصف، سخر للأمير ما أوتي من طاقة في التعبير، فهو الشاب الشاعر العملاق القائد، فارس السيف والقلم القدير، المجاهد الخطير، أيقظ الضمائر، أذاق العدو الأمرين في حروبه، قارعهم بالسيف والقلم، أبى الاستسلام ورفض الاغراء، وعبّد بذلك طريق المقاومة لمن استلموا الراية من بعده، وفي مقدمتهم زعيم الزعاطشة عبد الرحمن بن زيان:

371- تَلَقَّفَ رَايَتَكَ ابْنُ الْجَزَائِرْ   وَعِنْدَ ابْنِ زَيَّانَ تُبْلَى السَّرَائِرْ

وقد تطور الصراع مع الاستعمار بعد ذلك من مقارعة بالسلاح في القرن التاسع عشر، إلى مقاومة سياسية في المنتصف الأول من القرن العشرين، رفعت رايتها أحزاب وطنية:

429- وَقَالَ ٱلأُلَى نَاصَرُوا حِزْبَنَا   سَنَقْضِي عَلَى لَعْنَةِ الاحْتِلاَلِ

430- وَقَالَ الذِي خلَّدُوا شِعْرَهُ   فِدَاءُ الْجَزَائِرِ، رُوحِي وَمَالِي

وحين فشلت سياسة الحوار والاقناع، سادت القناعة بضرورة استخدام أسلوب المقاومة المسلحة، وبخاصة بعد أحداث ماي 1945، ولذلك جاء الشاعر بشعارات جديدة، تدل على إيمان يقضي بالإعراض عن السياسة والمقاومة بالكلام، من تلك الشعارات: الكلمات والهتافات لم تحرر يوما عبيدا، والقلم لا يعوض السيف، وحب الكلام ركض نحو السراب، ونُطق الرصاص يعطل لغة الكلام ويكتب به صفحات الخلود، بعد حرب كلام طويلة لم تجد نفعا، فانتصر الذين آمنوا بالنار فأنشأوا المنظمة السرية في أول الأمر:

491- وَطَالَتْ خُرَافَاتُ حَرْبِ الْكَلاَمِ   وَمَا بَلَغَ الشَّعْبُ فِيهِ الْمَرَام

492- فَآمَنَ بِالنَّارِ مَنْ عَرَفُوهَا   وَمَنْ كَاشَفَتْهُمْ بِسِرِّ النِّظَام

ثم جفت الأقلام، وتكلم الرصاص في نوفمبر، فأسكت المدفع صوت كل خطيب، وتوقفت المطابع وحلت محلها القنابل والمدافع:

504- وَلَعْلَعَ صَوْتُ الرَّصَاصِ يُدَوِّي فَعَافَ الْيَرَاعُ خُرَفَاتِ حِبْرِ ! !

وفي هذا الوقت، سطع نجم مفدي زكرياء الذي عرف بالنضال في صفوف الحركة الوطنية الثورية المطالبة برفض الاستعمار، ثم بالدعوة إلى العمل الثوري المسلح، واخراجه بقوة السلاح، فحمَّل شعره الرسالة فأصبح سلاحا يقاوم به إلى جانب الأبطال في ساحة المعركة:

63- وَثَوْرَةُ قَلْبِي، كَثَوْرَةِ شَعْبِي هُمَا أَلْهَمَانِي، فَأَبْدَعْتُ شِعْرَا

187- وَأَرْسَلْتُ شِعْرِي... يَسُوقُ الْخُطَى بِسَاحِ الْفِدَا... يَوْمَ نَادَى الْمُنَادِي

وختاما، هذه قراءة سريعة في جانب من شعر مفدي المعروف بقوة العقيدة الوطنية، المعتد بمواهبه الشعرية، الواثق من نفسه، حتى أدعى نبوة الشعر فتشبه بالمتنبي:

30- تَنَبَّأْتُ فِيهَا بِإِلْيَاذَتِي فَآمَنَ بِي، وَبِهَا، الْمُتَنَبِّي!!

ثم ألقى الشاعر عصى الترحال في خاتمة المطاف، تأمل في مساره وشعره وبخاصة في إلياذته، رد على معارضيه، وحاور منتقديه، ودافع عن أفكاره ومواقفه، وفسر اتجاهاته، ثم ترك أمر الحكم له أو عليه بين يدي الله والوطن، ناداهما مناجيا بهذه المختارات التي تنهي الموضوع، مستخرجة من أواخر الإلياذة:

953- أَتُوب إِلَيْكَ بِإِلِيَاذَتِي ... عَسَاهَا تُكَفِّرُ كُلَّ ذُنُوبِي

958- وَصَوَّرْتَنِي شَاعِرًا مُرْهَفًا ... يَهُبُّ الصِّبَا وَالْهَوَى لِهُبُوبِي

962- بِلاَدِي، وَقَفْتُ لِذِكْرَاكِ شِعْرِي ... فَخَلَّدَ مَجْدَكِ فِي الْكَوْنِ ذِكْرِي

963- وَأَلْهَمْتَنِي فَصَدَعْتُ الدُّنَا ... بِإِلْيَاذَتِي فِي اعْتِزَازٍ، وَفَخْرِ

964- وَكُنْتُ أُوَقِّعُ فِي الشَّاهِقَا ... تِ، خُطَى الثَّائِرِينَ بِأَلْحَانِ صَدْرِي

965- فَخَلَّدَ قُدْسُ اللَّهِيبِ بَيَانِي ... وَأَذكَى لَهِيبُ الْجَزَائِرِ فِكْرِي

981- فَقُلْتُ: وَشِعْرُ الْخُرَافَاتِ يَفْنَى! ... وَشِعْرُ الْبُطُولاَتِ لاَ يَضْمَحِلُّ!!

984- أَرَى فِي كِيَانِ الْجَزَائِرِ ذَاتِي ... بِكُلِّ اعْتِزَازٍ، وَكُلِّ اعْتِدَادِ!

991- وَإِنِي بِتَخْلِيدِ مَجْدِ بِلاَدِي ... مُقِيمٌ عَلَى الْعَهْدِ، رَغْمَ الْبِعَادِ!

992- بِلاَدِي، بِلاَدِي، الأَمَانَ الأَمَانَ ... أُغَنِّي عُلاَكِ، بِأَيِّ لِسَانْ؟

993- جَلاَلُكِ، تَقْصُرُ عَنْهُ اللُّغَى ... وَيُعْجِزُنِي فِيكِ سِحْرُ الْبَيَان

1001- إِلَيْكِ صَلاَتِي، وَأَزْكَى سَلاَمِي ... بِلاَدِي، بِلاَدِي، الأَمَانْ الأَمَان

معجزة العرب

أو

العلم عند العرب

LE MIRACLE ARABE

أ: مولود طياب

(مترجم)

ميراث العلم عند العرب، ميراث ضخم لا يحيط به إلا العارفون من الباحثين والمؤرخين المتخصصين المعنيين بتسجيل مراحل تقدم العلوم وما تم ويتم فيها من الاكتشاف المعتبر الذي يدفع بعجلة الرقي البشري، وإذا اتخذنا لهذه الكلمة عنوان" معجزة العرب" فليس ذلك لمباراة كل من ضرب بسهم في تقديم العلوم من الأمم المختلفة، ولا لنباهي بالأمجاد الزائفة، وبما لم ينجزه أسلافنا في العصور الماضية، بل تذكيرا بالحقائق التاريخية التي طمستها الأمية السائدة والتضليل المتعمد، واستنهاضا لهمم أجيال شعوبنا لتعرف مكانتها بين الأمم ولتنتهج سبيل الانخراط في الحضارة وأسباب الحياة الكريمة بتطويع العلوم والتقنيات المتجددة.

ذلك لأن ميراث العلم، بل العلوم عند العرب، ليس خرافة أو أسطورة للترفيه الخيالي، تشهد عليها الآثار الباقية في عربيتنا الخالدة، وإذا تحدثنا عن "معجزة عربية" فتلك المعجزة ترجع إلى هذه اللغة التي تحدّت عن العصور، بعد أن سادت في مرحلة ازدهارها خلال ما يسمى بالقرون الوسطى، فالعربية اليوم قد عرفت انبعاثا ونهضة تدل على أنها تحمل من أسباب الحياة ما يحدو بها إلى طلب الكمال ومواكبة تقلب الأحوال، وكما قال الأديب السوري زكي الأرزوسي"إن عبقرية العرب في لغتهم " هذه اللغة التي برهنت عبر القرون على طاقاتها لتفجير الفكر البشري، وعبرت عن أشواق هذا الفكر بسائر الألوان، من

حكمة وفلسفة، وآداب زاخرة وفنون ظاهرة، وعلوم مختلفة رفهت حياة الإنسان وأتاحت له ما شاء من متع مادية، وأهواء روحية ، وتطلع محمود، ومن الجد اليوم أن نعمل على صون لغتنا من كل ضعف وأن نبث ميراثها وأسرارها، وأن نبدع بها كما أبدع أسلافنا، ونحافظ على سمتنا بين الأمم مساهمين في موكب الحضارة الإنسانية.

معجزة اليونان

إن الأوروبيين لا يزالون عندما يبحثون عن الجذور التاريخية الماضية لثقافتهم وحضارتهم، يرجعون دائما وغالبا إلى ميراث الثقافة اليونانية، ويشيدون بهذا الميراث إلى درجة اعتباره "معجزة" ويقولون "بمعجزة اليونان"(le miracle grec) ويضيفون إليها ما يرونه من أمجاد الرومان، ومعنى ذلك أن الأوروبيين أو مؤرخيهم يحصرون منبع ثقافتهم في الميراث اليوناني الروماني، وإن كان بعض هؤلاء المؤرخين المتأخرين يرون غير هذا الرأي ويقولون إن الميراث الثقافي اليوناني لم ينشأ عن عدم، وأن اليونانيين أنفسهم من ورثة المصرين والبابليين (بلاد النهرين) والفينيقيين، ويقول بيير روسي (p. . rossi) في كتابه "وطن إزيس" (la cite d'isis) "إن اليونان يعترفون بأنهم تلامذة الفينيقيين"، " ولكننا نحن أحرص من اليونان على مجدهم وماضيهم "وقد أوضح صاحب الكتاب هذه القضية مبينا أن حضارة بلاد النهرين وحضارة المصريين قد سبقتا حضارة اليونان بعشرات القرون، إذ أن اليونان لم يظهروا على صفحات التاريخ إلا بعد القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، بينما كانت مصر وبلاد النهرين قد سبقتا إلى الوجود منذ الألف الثالثة قبل الميلاد على الأقل،ومن الواضح من جهة أخرى أن اليونان المجاورين للفينيقيين قد تلقوا منهم معارفهم كما تلقوا الأبجدية الفينيقية التي انتقلت إلى أوروبا.

فاليونان إن كان لهم فضل في تكوين الميراث الفكري البشري، وبالتالي إحداث ما يسمى "بالمعجزة" فذلك يرجع إلى ما تلقوه وأخذوه عن جيرانهم، من علوم وفلسفات، وبتسجيل ما تلقوه في عصور ازدهار دولتهم.

معجزة العرب

إن الأمر الذي يتجاهله المؤرخون الرسميون في أوروبا هو أنهم لم يكتشفوا اليونان "ومعجزتهم " خلال القرون الوسطى بطريقة مباشرة وبجهود ذاتية من علماء أوروبا، إن الأوروبيين إنما اكتشفوا اليونان وميراث الفكر اليوناني بعد اتصالاتهم بالحضارة العربية في الأندلس وجنوب أوروبا وجزر البحر، فمن المعروف أن الحضارة العربية التي انتشرت خلال القرون الوسطى ابتداء من قيام دولة الإسلام وابتداء من

القرنين الثامن والتاسع الميلاديين استطاعت أن تنجب ميراثها العلمي بدافع من مبادئ الإسلام الذي دعا العرب المسلمين إلى طلب العلم ونشر العلم، وأشاد بمكانة العلماء في قيادة الأمة الإسلامية.

وقد كان مفهوم العلم عند أسلافنا مفهوما واسعا لا ينحصر في العلوم الإسلامية، من شريعة وفقه وحديث ورواية السير، وتفاسير القرآن، أو في العلوم اللسانية والأدبية الخاصة باللغة العربية، إن العلم في نظر هؤلاء المبتكرين من العلماء يشمل علوم الحياة التي توارثتها سائر الأمم منذ آلاف السنين، من هنود ومصريين وبابليين وفينيقيين ويونان، فلا غرابة إذن إذا أقبل العرب المسلمون على هذه العلوم منذ قيام الدولة العربية في دمشق وبغداد ثم في العواصم الإسلامية الأخرى مثل القاهرة وقرطبة[1] في الأندلس، ولا غرابة أيضا إذا استقصى العرب آثار اليونان واكتشفوا حكمتهم ومنطقهم وعلومهم، من طب ورياضة وجغرافية وفلك، ومعروف أن العرب أنشأوا في بغداد أكاديمية "بيت الحكمة" بغرض الترجمة والتعرف على علوم السابقين من اليونان وغير اليونان، إن العربية وعلماء العرب قد اكتشفوا أر سطو، كما اكتشفوا جالينوس وبوغراط، وعرفوا بطليموس ولكنهم لم يقتصروا على ترجمتهم بل أبدعوا وكونوا باكتشافاتهم ميراثا علميا جديدا زاخرا (من رياضيات وطب وفلك وجغرافية وبصريات) واستمر هذا الازدهار من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أي خلال ما يزيد على خمسة قرون من القرون الوسطى، وانتشر فيض الحضارة العلمية العربية في منطقة البحر المتوسط وجنوب أوروبا، وتم الاتصال بصورة خاصة في إسبانيا (الأندلس) حيث بلغت هذه الحضارة العلمية أوجها (قرطبة) وذاعت في أوروبا الجنوبية، فأقبل الأوروبيون على تعلم العربية وعلى العلم العربي، ونقلوه بترجمة واسعة في طليطلة، كما قلدوا العرب في تكوين مدارس طبية في جنوب إيطاليا (شالون) وفي مونبيلي (mont pellier) جنوب فرنسا، ونقل الفكر العربي تدريجيا إلى شمال أوروبا وعواصمها.

كتاب معجزة العرب

ومن الجدير بهذا الصدد أن نوضح أن الغربيين إنما اكتشفوا أر سطو اليوناني بفضل شروح ابن رشد، ونقلوا رياضيات العرب وطب العرب (ابن سينا) بالترجمة من العربية، كما سجل ذلك المؤرخون، ومن هؤلاء صاحب كتاب نشر سنة 1950 بعنوان "معجزة العرب" le miracle arabe " لماكس فانتيجو max. vainrégoux ، الذي أوضح كيف تمت هذه المعجزة بما نقله العرب من علوم السابقين لاسيما في مجال الرياضيات (الخوارزمي) والطب والفلك، وانتقال الميراث العربي بدوره إلى أوروبا، خلال

---

[1]. يشيد الشاعر بقرطبة قائلا:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ومنها قنطرة الوادي وجامعها

هتان اثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظمها وهو رابعها

القرون الوسطى، وقد انتج الكاتب على طريقة وضع برامج التاريخ الأوروبية وأكد على خطئها بإغفال تاريخ القرون الوسطى التي ازدهرت فيها الحضارة العربية وعلومها. ومن توضيحات الكتاب أنه يقول: "إذا استثني بعض ما ألف– خلال هذه القرون الوسطى – من كتب باللغة السنسكريتية– ومؤلفان أو ثلاثة باللاتينية فإن جميع المؤلفات العلمية الأصيلة ذات قيمة ما، إنما ألفت باللغة العربية" ويشرح الكتاب إلى كل ذلك كيف انتقلت الرياضيات العربية إلى أوروبا من بجاية إلى إيطاليا أولا، بفضل مؤلف إيطالي فيبوناسي fibonaci الذي عاش في بجاية (من القطر الجزائري) وألف كتابه (liber abaci) ، ثم إلى أقطار أوروبا الأخرى بإذاعة الأرقام العربية والجبر العربي، وقد شرح الكتاب كيف كانت نهضة أوروبا بإقبال الأوروبيين على تعلم العربية، وسميت هذه الفترة في الغرب الأوروبي بفترة الاستعراب (arabisme).

إن هذا الكتاب "معجزة العرب" le miracle arabe من الكتب الجديرة بأن يطلع عليها عموم القراء علاوة على طلاب العلم الذين لا يجوز أن يجهلوا تاريخ أسلافهم ولا ما أسهموا به في مجال الحضارة العلمية الإنسانية بدرجة يَسِمُها الكاتب المشار إليه بالمعجزة ، ولابد من الإشارة إلى مقدمة هذا الكتاب بقلم المستشرق الفرنسي المعروف ل.ماسنيون الذي ينكر دعوى القائلين بأن العربية ليست لغة علمية. وقال" أن القاموس العلمي العربي موروث عن القرون الوسطى، لم يندثر والذي تغير إنما هو هذه الأدوات التي تتجدد بالتقدم المادي المستمر، أما اللغة التعبيرية السيكولوجية والصوفية فهي قائمة سليمة، ويمكن لها أن تبعث نوعا من الشباب في الفكر الأوروبي".

ويقول ماسينون في ذلك: "أن خلود اللغة العربية، عنصر أساسي للسلم بين الأمم في المستقبل" ويدعو إلى ذلك العرب إلى التمسك بلغتهم قائلا:"أن العالم في حاجة إليهم " أي العرب،(المقدمة).

إن الكتب التي تشيد بالعرب وتاريخهم و حضارتهم و ميراثهم العلمي كثيرة في اللغات الأجنبية ولكنها غير معروفة ولا متوفرة في مكتباتنا، وقد ارتأينا لفت الأنظار إلى هذا الكتاب "معجزة العرب" وإلى كتاب وطن إزيس " la cité d'isis " كما نلفت الأنظار إلى كتاب الألمانية "سنغريد هونكي snigrid hunke "شمس الله تشرق على الغرب" le soleil d’Allah brillé sur l’occident الذي حظي بترجمة محكمة باللغة الفرنسية فهذه الكتب أقل ما يمكن الرجوع إليها في موضوع العلم عند العرب وحضارتهم العلمية، ريثما تترجم إلى العربية أو عندنا باللغة الأجنبية.



مدرسة الفتح التابعة لجمعية العلماء بمدينة سطيف

أرشيف خاص



صورة بتونس لإحدى بعثات الثورة التحريرية إلى المشرق العربي

(1959 – 1960)

" أرشيف خاص "



الفقيد الرئيس هواري بومدين مع المرحوم المجاهد قائد أحمد

" أرشيف وزارة الإعلام "



مجاهدات أثناء الثورة خلال فقرة تكوينهن

" أرشيف وزارة الإعلام "



فخامة الرئيس بوتفليقة مع براعم المستقبل

" أرشيف جريدة المجاهد "



فخامة الرئيس بوتفليقة يتابع عن كثب درسا تعليميا

" أرشيف جريدة المجاهد "



فخامة الرئيس بوتفليقة يشجع التكوين ويوليه أهمية كبيرة

" أرشيف جريدة المجاهد "



الرئيس بوتفليقة يتابع في الميدان تطوير التربية ورفع مستوى التكوين

" أرشيف جريدة المجاهد "



... إن اللغة العربية تتصدَّر دستورنا باعتبارها اللغة الوطنية والرسمية وتضع على كاهل الصفوة من علمائنا والمبدعين في مجالات الفكر والفن مسؤوليات كبيرة، فلا توجد لغة متقدمة أو متخلفة في حد ذاتها، إن وصف التقدم والتخلف يصدق على الأصح على الناطقين بها، فليس هناك طريق آخر لرقي اللغة وعلو مكانتها على مستوى العالم، غير قيمة منتوجها الفكري وما تحققه من إنجازات في العلوم والتكنولوجيات المتقدمة...

من خطاب فخامة رئيس الجمهورية

السيد عبد العزيز بوتفليقة

في الندوة المغاربية للمجلس 29 و30 جوان 200[illegible] بالجزائر العاصمة

ISBN 978-996167214-3

